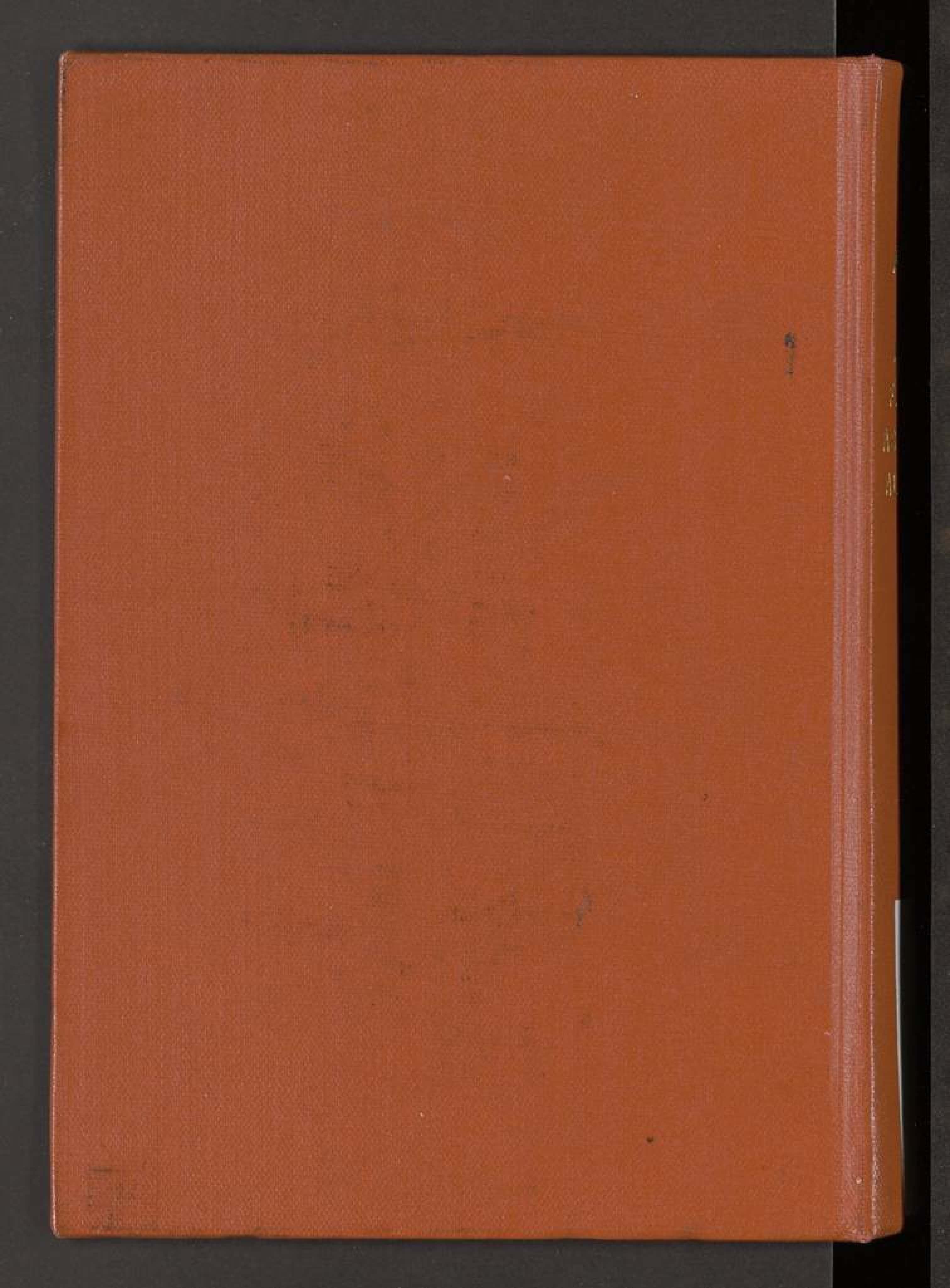



NYU BOBST LIBRARY
3 1142 04729141 7

مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق



الجامع

في أخبار أبي العلاء المعرّي وآثاره

ألّفه

محمّد سليم الجندي

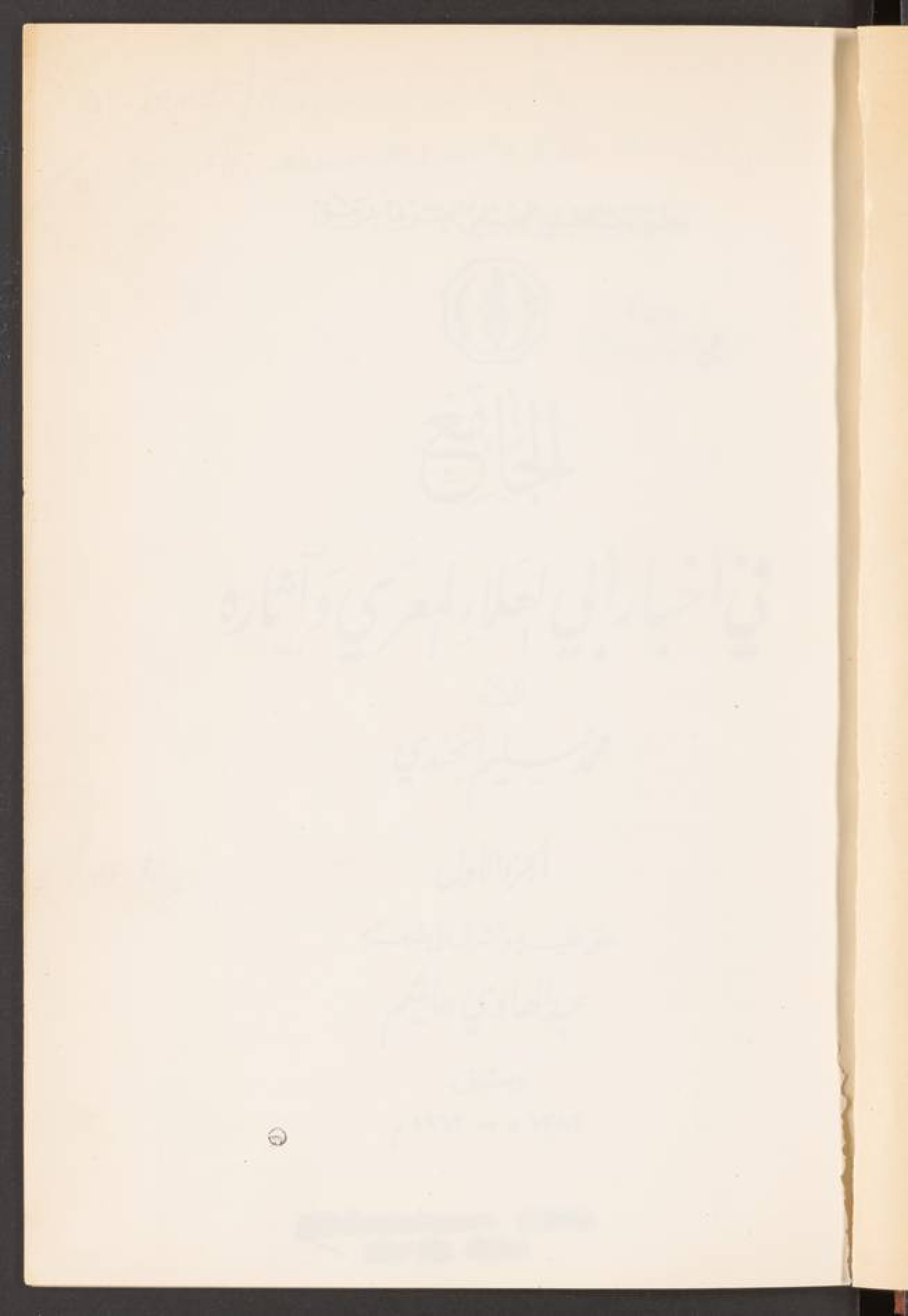
الجزء الأول

علّق عليه وأشرف على طبعه

عبد الهادي هاشم

دمشق

١٣٨٢ هـ = ١٩٦٢ م



مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق



الجامع

في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره

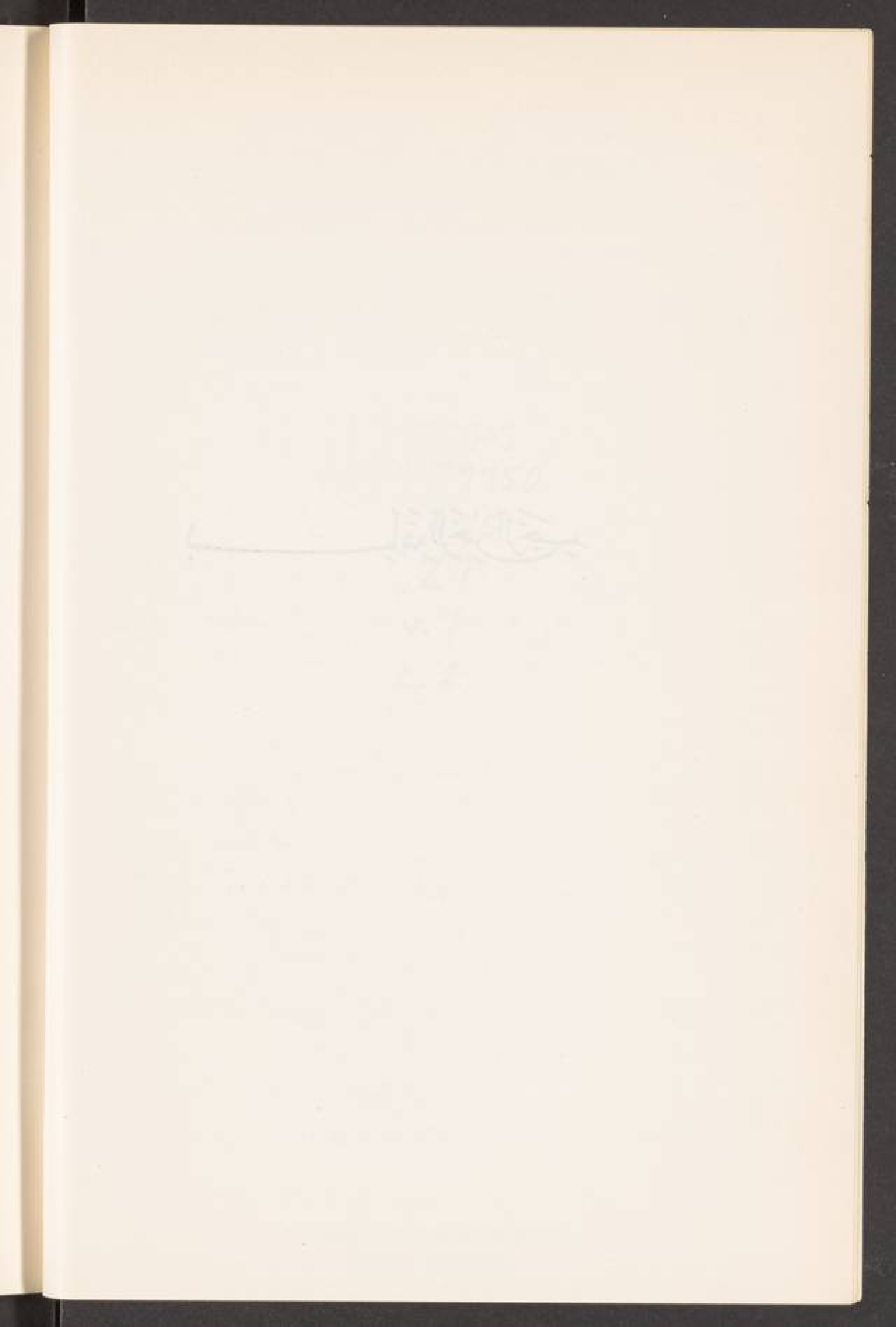
ألفه
محمد سليم الجندي

الجزء الأول

علق عليه وأشرف على طبعه
عبد الهادي هاشم

دمشق
١٣٨٢ هـ = ١٩٦٢ م


بسم الله الرحمن الرحيم





تمهيد

١ ـ لم تنجب الحضارة العربية في العصور الخوالي من يفوق أبا العلاء المعري «٣٦٣ – ٤٤٩ هـ» في أصالة الرأي، ونفاذ البصيرة، وصدق النظرة، وروعة الخيال، وإحكام القول، وسلامة التعبير، والإحاطة بالعربية وعلومها. ولم يشغل النقادَ والباحثين أديبٌ عالمٌ وفيلسوف مفكر كما شغلهم رهين المحبسين. فقد أربت مصادر دراسته على «٣٥٠» مصدرا، ونيفت مؤلفاته المعروفة على السبعين. ولعل مقبلات الأيام تقفنا على مصادر ومؤلفات أخرى لا نحيط الآن بها خبرا.

وقد كتب في أخبار المعري وآثاره كثير من الأفاضل على توالي العصور، واختلف في أمره الباحثون والناقدون، على أنه لم يظهر إلى يوم الناس هذا ـ فيما نحسب ـ كتاب جامع لذلك كله يتسم بالنصفة، ويتصف بالاستقصاء، ويزن ما قال المعري وما قيل فيه بالقسطاس المستقيم مثل هذا الكتاب الذي خلفه الأستاذ المرحوم سليم الجندي. فقد قضى في تصنيفه سنين طوالاً، وتوفي بعد أن فرغ أو كاد من تبييضه، ولم يقيض له الأجل أن يدفعه إلى الطبع، فشاء المجمع العلمي العربي ـ وفاءً بحق الزميل الراحل، وخدمةً للباحثين والدارسين ـ نشر هذا الكتاب، وعهد اليَّ النظر في مخطوطة الكتاب، وضبط شواهدها، والتعليق عليها في ايجاز، والإشراف على طبعها، فقمت بذلك على قدر ما أعانت عليه الطاقة،

واتسع له الوقت . وقد آزرني في ذلك كله الصديق الكريم الاستاذ عدنان الدرويش .

٢ — والأستاذ محمد سليم الجندي (١٢٩٨ — ١٣٧٥ ﻫ) مثال العالم المتمكن ، والمحقق الثبت والباحث الثقة . كان واسع المعرفة والرواية ، ضليعاً في اللغة وعلومها وآدابها ، بصيراً بأسرارها ، وكان الى ذلك كله معجباً بالمعري ، حافظاً لأشعاره ، متتبعاً لآثاره وأخباره ، عارفاً بما قاله وما قيل فيه .

ولد الأستاذ الجندي في معرة النعمان بلدة أبي العلاء ، ونشأه والده تنشئة أدبية صالحة ، وحضه منذ الصغر على حفظ البارع من الشعر والمحكم من النثر ، وأولع الجندي الفتى « بشعر أبي العلاء المعري منذ حداثة سنه وحفظ منه شيئاً كثيراً . . . . وقد تخرج بالشعر والأدب واللغة بما درسه وحفظه من شعر أبي العلاء وغيره » (١) .

وتحول عن المعرة مهاجراً مع والده الى دمشق عام ١٣١٩ ﻫ ، وقد نيف على العشرين من سني حياته ، ولقي فيها جماعة من علمائها الأعلام ، فتخرج بهم ، وأفاد من صحبتهم ، وقرأ عليهم الكثير من الكتب التي كانوا يقررونها لطلابهم في شتى العلوم المعروفة يومئذ ، وذاع صيته وُعرف فضله .

فلما قامت الحكومة العربية في دمشق ، بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، أرادت تعريب الدواوين وتقويم أسلوب الكتبة فيها ، فوكلت الى الأستاذ الجندي وبعض زملائه أن ينهضوا بهذا العبء ، وسمته (منشئاً أول)

---

(١) من ترجمة للمرحوم الجندي لنفسه لم تنشر في حياته .

في ديوان رئاستها ؛ ثم انضم إلى الرعيل الأول من علماء الشام الذين أقاموا المجمع العلمي العربي الذي ما يزال الى يوم الناس هذا موئل العاملين في الحفاظ على اللغة وآدابها ، ونشر تراث أعلامها .

ولما دالت الدولة العربية على يد الغاصبين الدخلاء ، انتقل الأستاذ الجندي من ديوان رئاسة الحكومة الى التدريس في المدارس الثانوية ، وفي مدرسة الأدب العليا من بعد ، وخرّج الكثيرين من أدباء الشام وعلمائها وباحثيها ، ثم أحيل الى التقاعد في أوائل الحرب العالمية الثانية ، فتفرغ للتأليف فيما اتسع له من وقت لم يتوفر له قبلَ أن يتحلل من قيود الوظيفة ، ومن ذلك إتمامه تأليف هذا الكتاب عن المعري .

وكان قد ألف قبل ذلك الكثير من التصانيف والرسائل ؛ فمن ذلك ثلاثة كتب سماها (عدة الأديب) جمع فيها مع زميل له طائفة من كلام البلغاء والحكماء والعلماء والشعراء وطبعها سنة ١٣٤٥ هـ ، ثم ألّف سلسلة أخرى من الكتب سماها (عمدة الأديب) جمع في كل جزء منها ما يتعلق بكاتب واحد أو شاعر واحد من أخباره وأشعاره ودراسة آثاره ، كامرىء القيس وابن المقفع والنابغة الذبياني وعلي بن أبي طالب . وهنالك الكثير من الكتب والرسائل القيمة الأخرى التي نشرها في حياته ؛ وأكثر منها ما لم ينشر إلى اليوم ، ككتابه الوافي في (تاريخ المعرة) الذي لا يزال مخطوطا . وله في مجلة المجمع العلمي العربي وفي غيرها دراسات وانتقادات لغوية وأدبية كثيرة .

ووقعت له مخطوطة تامة نادرة من (رسالة الملائكة) للمعري، فشرحها وحققها وفسر شواهدها وأبان عن أصحابها وترجم لهم . وقد طبعها المجمع

العلمي العربي في دمشق عام ١٣٦٣ هـ بمناسبة المهرجان الذي أقيم يومئذ لمرور ألف عام على ولادة المعري .

٣ — ومن أعظم الكتب التي ألفها الأستاذ الجندي ولم تنشر في حياته هذا الكتاب الذي يرى القارىء جزأه الأول في الصفحات التالية ، وهو أجمع كتاب فيما نعلم لأخبار أبي العلاء ودراسة أشعـــاره وأدبه ، وفيه تحقيق كثير لما كُتب في أبي العلاء أو نسب اليه ، وتصحيح لما اعتور هذا أو ذاك من الخطأ .

وقد تتبع المرحوم الجندي ما كُتب عن حكيم المعرة ، وقص آثاره أثراً بعد أثر ، ووضع هذه المادة الضخمة الغزيرة من الأخبار والآثار في ميزان المحاكمة والمناقشة العلميتين ، فخرج منها إلى نتائج فيها الجدة والإصابة والحجة القاطعة .

وهو إذ قص آثار هذه الأخبار في مظانها التي استطاع الوقوف عليها وأفاد منها وتكلم عنها أشار أحياناً إلى هذه المظان وأحال عليها ، إلا أنه كثيراً ما اقتصد في ذلك ، كما ترك جل النصوص والمقطعات والأبيات العلائية وغيرهـا مهملة من الضبط بالشكل . ويبدو أن الأستاذ الجندي بعد أن أنجز كتابه الجليل هذا ، وأتم تنقيحه ، لم يقطع برأي في تسمية الكتاب ، ولذلك ترك مكان اسم الكتاب في التوطئة ص ٩ أبيض ، فرأى المجمع معنا أن يسمى (الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره) توخياً للدلالة بالعنوان على المضمون .

وحينما شرعنا في النظر في الكتاب وإعداده للطبع استوفينا ما اقتصد فيه الأستاذ الجندي ، فضبطنا النصوص العلائية المنظومة والمنثورة بالشكل

الكامل ، وأما النقول فضبطنا منها ما نحدس أن فيه بعض اللبس على القارىء ، وأحلنا النقول إلى مظانها ، وأكملنا بعض النصوص الملائمة حسبما يقتضيه مقام إيرادها ، وأشرنا إلى مواضعها في آثار أبي العلاء .

ثم أوضحنا بعض ما يشكل في إيراد النصوص ومعانيها بالتعليق والشرح ، وأثبتنا كل ذلك في حواشي الكتاب .

ولكيلا يقع اللبس بين ما صنعه الأستاذ الجندي من تعليقات وشروح وإحالات ، وبين ما وضعناه ، أشرنا إلى ذلك بإشارة مميزة ، فألحقنا بكل تعليق أو إحالة أو شرح للأستاذ الجندي الحرف (ج) المحاط بهلالين أسودين ، وتركنا ما أضفناه من تعليقات وإحالات وشروح غفلاً من أي رمز أو إشارة .

وكانت عدتنا في هذا العمل الكتب والمصادر التالية :

ديوان اللزوميات — الطبعة الهندية سنة ١٣٠٣ ﻫ وقد رُمز اليها في الحواشي بالحرف (ﻫ) .

رسالة الغفران للمعري — تحقيق بنت الشاطىء — الطبعة الأولى سنة ١٩٥٠ القاهرة .

رسالة الغفران ورسائل أخرى — تحقيق كامل كيلاني طبع القاهرة سنة ١٣٥٩ ﻫ .

ملقى السبيل — للمعري — تحقيق كامل كيلاني طبع القاهرة سنة ١٣٥٩ ﻫ .

رسائل أبي العلاء المعري — شرح شاهين عطية طبعة بيروت سنة ١٨٩٤ م .

رسالة الملائكة — المعري — تحقيق سليم الجندي — المجمع العلمي العربي سنة ١٣٦٣ ﻫ .

الفصول والغايات — للمعري — شرح زناتي — طبعة القاهرة سنة ١٣٥٦ ﻫ .

شروح سقط الزند — طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٤٥-١٩٤٨م .

تعريف القدماء بأبي العلاء — طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٤٤ م .

أبو العلاء وما اليه ، وضميمه فائت شعر أبي العلاء — الميمني الراجكوتي — طبعة مصر سنة ١٣٤٤ هـ .

ذكرى أبي العلاء — للدكتور طه حسين — الطبعة الثانية — مصر سنة ١٩٢٢م .

أوج التحري عن حيثية أبي العلاء المعري — يوسف البديعي — تحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني نشر المعهد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٤٤م .

زبدة الحلب في تاريخ حلب — لابن العديم — تحقيق سامي الدهان — منشورات المعهد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٥٤ م .

ديوان عمر بن الوردي — طبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٣٠٠ هـ .

العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب — لليازجي — طبعة بيروت سنة ١٣٠٥ هـ .

ديوان أبي تمام — شرح الخياط — طبعة بيروت سنة ١٣٢٣ هـ .

الأعلام — خير الدين الزركلي — الطبعة الثانية ، القاهرة سنة ١٣٧٨ هـ .

ديوان البحتري — طبعة بيروت سنة ١٩٢٤ م .

ديوان ذي الرمة — طبع مطبعة كامبردج سنة ١٩١٩ م .

ديوان جرير طبعة القاهرة سنة ١٩٣٥م الطبعة الاولى .

ديوان ابن الرومي — شرح كامل كيلاني — طبعة القاهرة .

ديوان ابن أبي حصينة — تحقيق محمد أسعد طلس — منشورات المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٣٧٥ هـ .

هذا ونقدر أن يقع الكتاب في ثلاثة أجزاء أو أربعة ، وفيما يلي الجزء الأول .

دمشق في { صفر سنة ١٣٨٢
وتموز سنة ١٩٦٢ }

عبد الهادي هاشم

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

الحمد لله على نِعمه التي لا أُحيط بها عَدًّا ، ولا أحصي عليها ثناء ، ولا أُطيق لها شكرا ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي اصطفاه مِنْ صفوة خلقه ، وأرسله رحمة للعالمين ، وهاديا للضالين ، فأوضح الحجة ، وانار المحجّة ، وأخرج الناس من الظلمات إلى النور ، بآياته البينة ، وحكمته الباهرة ، وموعظته الحسنة ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وتابعيه الى يوم الدين .

أول اتصالي بأبي العلاء المعري وسببه

وبعد ، فان والدي ، تغمده الله برحمته ، كان مُولَعاً بأبي العلاء ، حريصاً على الاطلاع على أخباره وآثاره ، وقد كنتُ شرعت في الدراسة في المعرة منذ سنة ١٣١٠ هـ الى سنة ١٣١٩ هـ تقريبا ، ولم يكن في ذلك العهد في المعرة ، مِن أدناها الى أقصاها ، شيء من كتب أبي العلاء [سوى نسخة مخطوطة من (سقط الزند) مكتوبة منذ ستمائة سنة كانت ملكا لعم أبي السيد أمين الجندي مفتي المعرة ودمشق ، استولى عليها بعض أقاربنا ، وأخفاها عنا هو وعقبه ، ثم رأيتها عند بعض حفدته في نحو سنة ١٣٦٥ هـ] .

فكان والدي كلما وقع إليه شيء من كلام أبي العلاء نقله ودفعه إليّ لأحفظه . ثم هاجرتُ إلى دمشق سنة ١٣١٩ هـ ، فاطلعتُ على جملة من

كتب الأدب ، وعلى طائفة مما كتبه العلماء في أبي العلاء ، وعلى جملة من آثاره المخطوطة والمطبوعة ، وكنت شدوتُ شيئاً من العلوم الشرعية واللغوية والاجتماعية ، ورأيت فريقا من العلماء يستشهد بأقوال أبي العلاء في المباحث اللغوية والأدبية والدينية والاجتماعية والسياسية ؛ وفريقا آخر ينقد أقواله ويفند آراءه .

وكان قد اجتمع لديّ جملة صالحة من كلامه المنظوم والمنثور ، واطلعت على ما طبع من آثاره وأشعاره ، فأمعنتُ النظر في أقواله وآرائه وتفكيره ، فهالني من ذلك أمران : (١) ألفاظ أبي العلاء ومعانيه ، (٢) تألب العلماء والأدباء عليه ، والدعوة السيئة إلى شعره للتنفير منه :

(١) ألفاظ أبي العلاء ومعانيه :

الأمر الأول : ما رأيته في كلامه من الدقـة في استعمال الكلمات وإحكام وضعها في المواضع اللائقة بها ، ومن قوة التأليف مع طلاوة وانسجام ؛ وكثرة المعاني المبتكرة ، وروعة الصور المتخيلة ، ووفرة الأمثال والحكم ، والتلميح إلى مصطلحات علوم متعددة ، وحوادث تاريخية .

ومن غريب ما رأيتهُ من قدرته وتفننه تصغيره المعنى الكبير وإفراغه في قالب موجز مصقول واف بالمقصود ، كما يتراءى ذلك في قوله من أبيات يصف فيها خَرْقا : أي فلاة واسعة :

وتَكْتُم فيه العاصفاتُ نفوسَها فلو عبثتْ بالنبتِ لم يَتأَوَّدِ[١]

فقد صغّر العواصف ، وأضعف تأثيرها ، وأفرغ هذا المعنى الضخم في هذا البيت الموجز السهل المنسجم ، وأبدع في قوله : (وتكتم ..)

---

(١) شروح سقط الزند ق ١ ، ص ٣٧٧ ، وفيها : « فلو عصفت بالنبت » . وفي شرح الخوارزمي : « ولو عصفت » .

ولا يقل عنه في ذلك قوله من أبيات يصف فيها مَنْهَلًا :

يَمُرّ به رَأْدُ الضُّحى متنكّرًا مخافةَ أن يغتالَه بقَتَامِه[1]

فإنه جعل الضحى متنكرا يخفي نوره مخافة اغتياله ، وأمثال هذا كثير في كلامه .

ومن الغريب أيضا ، الكثيرِ في كلامه ، انتزاعُه من الأشياء القريبة التي لا يكترث بها غيره معانِيَ عالية أو استعمالُها في أغراض عالية كالحكمة والتشبيه وما أشبهها ؛ فانظر إلى المعاني التي انتزعها من الإنسان وأعضائه حيث قال في العين :

أحْسِنْ جِواراً للفتاة وعُدَّها أختَ السِّماك على دُنوّ الدار

كتجاوُرِ العينيْن لن تتلاقيا وحجازُ بينِهما قصيرُ جدار[2]

★★★

والنجم تستصْغِرُ الأبصارُ رؤيتَه والذنب للطرفِ لا للنجم في الصِّغَر[3]

وفي الجفن :

كما أغضى الفتي ليذوقَ غُمْضاً فصادفَ جَفْنُه جَفْناً قريحا[4]

★★★

حصلنا على التمويهِ وارتاب بعضنا ببعض فعند العَيْن رَيْبٌ من الشُّفْرِ[5]

---

(١) شروح سقط الزند ، ق ٢ ، ص ٤٩٨ . والقتام كسحاب : الغبار .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ١٦٤ وفيها : « بَيْنَهما » . وفي القاموس : البين : الناحية والفصل بين الأرضين .

(٣) شروح سقط الزند ، ق ١ ، ص ١٦٢ ، وفيها : « الأبصار صورته » ، ولعلها أصح .

(٤) شروح سقط الزند ، ق ١ ، ص ٢٣٨ .

(٥) اللزوميات ﻫ ص ١٤٧ ، والشُّفْر بالضم : أصل منبت الشعر في الجفن .

وفي الأُذُن والفم :

أُصْمُتْ وإن تأبَ فانْطِقْ نصفَ مَاسمِعتْ
أُذْنـاكَ فالفَمُ نصفُ اثنين في العـددِ (١)

وفي الريق :

فربَّما ضرَّ خِلٌ نافعٌ أبداً كالرِّيقِ يحدُثُ منه عارِضُ الشَرَقِ (٢)

★ ★ ★

كانفاقه من عمره ومَسَاغِه من الريق عَذْباً لا يُحِسُّ له طَعْما (٣)

وفي النواجذ من أبيات يصف فيها حصن افامية :

وحيداً بثغر المسلمين كأَنَّه بِفيهِ مُبقَّى من نواجذِ أدْرَدِ (٤)

وفي القلب :

و سُهَيْلٌ كوجنة الحِبِّ في اللو ن وقلبِ المحب في الخفقان (٥)

★ ★ ★

مهجتي ضِدٌّ يحاربني أنا منِّي كيف أحترِسُ (٦)

وفي اليد :

والكفُّ تُقْطَعُ إن خيفَ الهلاكُ بها على الذراع بتقدير وتسبيب (٧)

★ ★ ★

فلو بان عَضْدي ما تأسف مَنْكِبي ولو بان زَنْدي ما بكته الأنامل (٨)

---

(١) اللزوميات هـ س ١٠٩ ، وفيها : « شطر ما سمعت » .
(٢) شروح سقط الزند ق ٢ ، س ٦٨٧ ، وفيها : « يَحدُث عنه عارض » .
(٣) اللزوميات هـ س ٢٣٩ .
(٤) شروح سقط الزند ق ١ ، س ٣٦٣ .
(٥) شروح سقط الزند ق ١ ، س ٤٣٣ .
(٦) اللزوميات هـ س ٣١١ .
(٧) اللزوميات هـ س ٥٠ .
(٨) شروح سقط الزند ق ٢ ، س ٥٣١ ، وفيها : « ولو مات زندي » .

وفي الظُفُر :

أنفِقْ لِتُرْزَقَ فالثَّراءُ الظُفْرُ إِنْ يُتْرَكْ يَشِنْ ويعودُ حين يُقَلَّمُ(١)

وفي الرِّجْل :

وقِسْ بما كان ، أمراً لم تكن ، تَرَهُ
فالرِّجْلُ تَعرِفُ بعضَ الموت بالخَدَرِ(٢)

وفي الأنفاس :

يَفْنَى الزمانُ وأنفاسُ الأنامِ له خُطًى بهنَّ إلى الآجال يَزْدَلِفُ(٣)

★ ★ ★

عمري غديرٌ كلُّ أنفاسي به جُرَعٌ تغادره كأمسِ الناضبِ(٤)

وفي الشيب :

هذا البياضُ رسولُ الموت يَبْعَثُه في كل عصرٍ إلى الأجيال والأُمَمِ(٥)

وفي الجسم :

والجسم ظَرفُ نوائبٍ وكأنه ظرفٌ يؤخَّرُ تارةً ويقدَّمُ(٦)

وأمثال هذا كثير في شعره . وربما استعمل العضو الواحد في أغراض مختلفة ، وصور متعددة .

ومن الغريب ايضاً انتزاعه الحكمةَ او المثلَ من أصغر شيء وأتفهه الى أكبر شيء وأعظمه ، وذلك مثل قوله :

---

(١) اللزوميات هـ س ٢٣٦ .
(٢) اللزوميات هـ س ١٤٩ ، ولعل صحيح الرواية : « لم يكن »
(٣) اللزوميات هـ س ٢٩١ .
(٤) اللزوميات هـ س ٥١ .
(٥) اللزوميات هـ س ٢٤٨ .
(٦) اللزوميات هـ س ٢٣٦ .

من يفقد الحسّ لا يُعْرَفْ بمخزية ... إنّ الذباب متى يَعْلُو الجنى يَنِم [1]

★★★

والنحل يجْني المُرّ من نَوْر الرُّبى ... فيعودُ شُهْداً في طريق رُضابه [2]

★★★

فإن أبا الأشبال يخشاه مثلُهُ ... ويأمنُ منه آرِضٌ ونمال [3]

★★★

حساطِمرٌ في صمته من دَم الفتى ... فصغّر ذاكَ الصمتُ مُعْظَمَ ذنبه

ولم يكُ في حال البعوض إذا شدا ... له نَغَمٌ عالٍ وأنت أذٍ به [4]

★★★

ولا تحتقر شيئاً تساعِفُه به ... فكم من حصاةٍ أيّدت ظَهْرَ مِجْدَل [5]

ومن الغريب أنه يذكر الكلمة التي لها أكثر من معنى واحد ويريد بها معنى معينا ، ولكنه يذكر شيئا من خصائص معنى آخر ليوهم أنه يريده ، وذلك مثل قوله المتقدم : (وحيد بثغر المسلمين . . . . الخ) فإن الثغر يطلق على الموضع الذي يُخافُ منه هجوم العدو . وهو المراد هنا ، ويطلق الثغر على المبسم وعلى الثنايا ، فلما ذكر الثغر ذكر بعده الفم والنواجذ والأدرد وهي من خصائص المعنى الآخر . وقد أبدع في التشبيه والترشيح ، ومنه قوله :

إذا صدق الجدُّ افترى العم للفتى ... مكارِمَ لا تُكْرِي وإن كذب الخال [6]

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٤٨ ، وفيها : « تعلو » .

الجنى : العسل وما يجنى من الشجر مادام غضا . ونم الذباب يَنِم كوعد ونيا : خرىء (ج)

(٢) شروح سقط الزند ق ٢ ، ص ٧٢٠ ، وفيها : « فيصير شهداً » .

(٣) شروح سقط الزند ق ٣ ، ص ١٠٦٤ ،

الآرض : قال في التنوير : ضرب من الدود يقع في الورق ، ولم أر هذا الجمع ولعله جمع أرَض ، وهي دودة تاكل الخشب ودودة تغوص في الرمل : بنات النقا (ج)

(٤) اللزوميات ﻫ ص ٤٨

حسا : شرب شيئاً بعد شيء ، الطامر : البرغوث ، أذٍ من أذِيَ : الشديد التأذي .

(٥) اللزوميات ﻫ ص ٢١١ ، والمجدل كمنبر : القصر .

(٦) شروح سقط الزند ق ٣ ، ص ١٢٦٢ ، وأكرى هاهنا : نقص .

فان الجد يطلق على الحظ وهو المراد هنا ، ويطلق على أبي الوالد ، وقد ذكر العم والخال ليوهم أنه يريد المعنى الآخر ، وكذلك العم يطلق على الجماعة وعلى أخي الأب ، وكذلك الخال يأتي بمعنى الظن وبمعنى أخي الأم ، وهنا أبدع في كل وأجاد . ومن هذا القبيل قوله في النوق :

حُروفُ سُرىً جاءت لمعنىً أَرَدْتُه　　بَرَتْنيَ أَسماءً لهنّ وأفعالُ [1]

وقوله :

كلُّ البَرِيَّة شاكٍ لو سما زُحَلٌ　　إلى السِّماكِ رآه يشتكي العَزَلا [2]

فإن الحُروف جاءت بمعنى النوق ، وبمعنى الألفاظ المعروفة عند النحويين ، وقد ذكر المعنى والأسماء والأفعال وهي من خصائص المعنى الثاني . وإن لفظ (شاكٍ) جاء من شكاه إذا أخبر عنه بسوء فعلَه به ، وجاء مقلوبا من شائك من الشوكة وهي الحد والقوة في السلاح ، يقال : «شائك السلاح وشاكي السلاح» ، وقد ذكر « العَزَل » وهو الاسم من قولهم : رجل أعزل أي لا سلاح معه أو الذي لا رمح له . وفي النجوم ، سماكان : أحدهما السِماك الرامح وهو الذي قدامه كوكب كأنه رمح له ، والثاني السِماك الأعزل وهو الذي لا كوكب أمامه ، وسُمي « أعزلَ » لأنه لا شيء بين يديه من الكواكب كالأعزل الذي لا سلاح معه ، ولما ذكر العزَل ذكر لفظة شائك ليوهم أنه من شاكي السلاح .

ولو استقرينا ما في أقواله التي أتيح لنا الوقوف عليها من هذا النوع لتحصّل لدينا منه ديوان واسع جامع لأنواع مختلفة من الحكم والأمثال والتشبيهات الرائعة والصور الخيالية ونحو ذلك من أفانين الشعر وبدائعه . وقد تبين لي بعد البحث والإمعان أن أبا العلاء متمكن في علوم

(١) شروح سقط الزند ق ٣ ، ص ١٢٥٥ .
(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢٠٤ .

كثيرة ، وله في كل فن مناقشات ومعارضات وآراء تدل على رسوخه فيه ، لا سيما العلوم الشرعية واللغوية . وإن سعة لغته واستئناسه بالألفاظ التي يراها غيره غريبة ، وحبه للجناس والتورية ومراعاة النظير وغيرها من الصناعات البديعية ، وميله الى الأسلوب المتين الجزل حمله على استعمال ألفاظ وجمل أدى الى أن يخفي كثيرا من حكمته الفائقة ومعانيه البديعة فلا يتسنى لكل أحد فهمها إلا باستعانته كتبَ اللغة والأدب لفهم المراد منها وإدراك النكتة التي تشتمل عليها . وكذلك كثرة ما في كلامه من الإشارة إلى المصطلحات العلمية والحوادث التاريخية جعل فهم المقصود منها موقوفا على معرفة ذلك ، إذ لا يمكن فهمها إلا للعالم بها .

ورأيت بعض أقواله يناقض بعضاً آخر بحسب الظاهر ، ولكنه عند التأمل لا تظهر عليه مسحة التناقض ، لأنه استعمل كل مقال في مقام يوائمه .

(٢) تألب العلماء والأدباء عليه والدعوة السيئة الى شعره للتنفير منه

الأمر الثاني : أني رأيت كلمة العلماء في أبي العلاء مختلفة ، وآراءهم متفاوتة ، وعلى أكثر أقوالهم مسحة من الحسد أو التعصب الشديد والتقليد الأعمى والجهالة .

فإن فريقا منهم ينقل عنه ما رأى أو ما سمع من غير تبين ولا تمحيص ، وفريقا يلحق بكلامه ما ليس منه وآخر ينسب إليه أمورا لا يؤيدها العقل ولا يثبتها التاريخ والنقل ، وفريقا استباح لنفسه التصرف في أقواله ، فهو يروي منها ما يشاء كما يشاء ، ويفسرها بما يطابق فهمه لا بما يوافق الحقيقة والواقع . وأن جمهوراً عظيما من هؤلاء اعتقد أن أبا العلاء زنديق أو كافر ، فرسخت هذه العقيدة في نفسه ، فهو يصرف كل أقواله إليها ، ويفسرها بما يرجعها إلى هذه العقيدة ، وإن كان خطؤه في ذلك أوضح من الفلق . ومنهم من إذا رأى في أقوال أبي العلاء ما يدل علي اعتقاد حسن قال : إنه تَقيّةٌ ، أو لا يقيم له وزنا . ومنهم من لو استطاع

أن ينسب إلى أبي العلاء كل قول فيه كفر أو ما يوهم الكفر لما تأخر، بناء على ما رسخ في نفسه .

وأغرب ما رأيت في هذه العصبة أن فيهم من يكفر أبا العلاء متابعة لغيره ، وربما كان لم يطلع على شيء من كلامه ، وفيهم من طعن فيه ليقال إنه انتقد أبا العلاء ، وربما سجل على نفسه بسبب انتقاده هذا أنه جاهل لا يدري ما يقول . وفيهم من قصر فهمه عن إدراك ما يريده أبو العلاء من كلامه ، فخبط خبط عشواء ؛ وسنذكر فيما يأتي طائفة من هؤلاء وغيرهم وأقوال كل منهم فيه .

ورأيت اكثر العلماء الشرعيين يستفرغون المجهود في التنفير من شعره لئلا يطلع الناس على ما فيه من نقد العلماء ورؤساء المذاهب والحكومات وحرية الفكر في المباحث الدينية والسياسية والاجتماعية ونحو ذلك مما لا نظير له في غير كلام أبي العلاء . وقد تبين لي أن سبب هذا كله يكاد ينحصر في أمور من أعظمها الحسد من أعدائه ، والتعصب من رؤساء الأديان والمذاهب ، وطلبُ الشهرة على حسابه ، وتقصير الفهم عن إدراك معانيه ومقاصده .

سبب تأليف هذا الكتاب

فلما رأيت كثيرا من هذا وأمثاله أشفقتُ على أدبه النادر وعلمه الواسع وحكمه الرائعة وآرائه الحرة ، وحرصت على إظهار الحقيقة من معتقده ، وإيضاح الغامض من قوله ، والدلالة على مواطن الروعة والعبقرية منه ، والإشارة إلى مواضع الدقـة من علمه ، والسداد من رأيه ، وتبيين كذب المفترين عليه ، وتحريف العابثين بأقواله بقدر ما تسامحني به الأيام ، فعزمت على وضع هذا الكتاب وسميته [. . . . .] (١) .

وقد اضطرني ما ألزمت به نفسي إلى أمور :

(١) بياض في الأصل وقد اخترنا تسميته بكتاب (الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره) .

١ ـ أن أعزو أكثر النصوص إلى مظانها ومصادرها ، كيلا يظن أني حرفتها أو صرفتها إلى ما أريد .

٢ ـ أن أذكر قول أبي العلاء بنفسه ، وربما اضطررت إلى ذكر ما قبله أو ما بعده ليتضح الغرض المقصود من ذكره أو ليتم .

٣ ـ أن أكرر ذكر البيت أو ما هو أكثر منه في مواطن متعددة ، للاستدلال به في كل موطن ، لأن الحاجة قد تدعو إلى الاستشهاد بالبيت الواحد في أغراض متعددة .

٤ ـ أن أكرر النصوص المنقولة للاستشهاد بها أيضا في مواطن مختلفة .

٥ ـ أن أشرح بعض الكلمات لغرض يقتضي إيضاح معانيها ، وربما دعت الضرورة إلى ذكر أصل المعنى في اللغة .

٦ ـ أن أوضح بعض العقائد والمذاهب والمزاعم ، لتتبين علاقة قول أبي العلاء بها .

الغاية من وضع هذا الكتاب :

والذي أرمي إليه من وراء هذه الأمور المذكورة أمور ضرورية ، منها :

١ ـ إطلاع القارىء على مآخذ الكتّاب في الأقوال والآراء المنقولة ، لتكون تبعة كل قول على صاحبه .

٢ ـ وإطلاعه على أقوال أبي العلاء بنفسها ليأمن التحريف والتلاعب بالنقل ، وليطلع على ما لم يطلع عليه من أقواله ، ويستغني عن الرجوع إلى كتبه لمعرفة قوله ، وليرى بعينه ما فيها من جمال تأليفه وطلاوة ديباجته وإشارات ونكت وإيجاز ونحو ذلك من محسنات وأضدادها وتحريف وعبث .

٣ ـ وإطلاعه على ما وقع لبعض العلماء من تصرف في كلام أبي العلاء بزيادة أو نقص أو تحريف أو تصحيف ، ومن افتراء عليه ، وصرف

لأقواله إلى ما لم يرد ، ومن ضعف مدارك بعضهم عن فهم كلامه حتى عبثوا به وكفروه ظلما وجهلا .

وإيضاح مثل هذا وتأييده أو إدحاضه ، وإقامة الأدلة عليه إثباتا أو نفيا ، والاستشهاد له أو عليه وما شاكل ذلك ، يعوز إلى بسط وتطويل وإعادة وتكرير .

تقسيم الكتاب وترتيبه

ويشتمل هذا الكتاب على مقدمة وأربع مقالات وخاتمة : ـ

أما المقدمة فانها تتضمن لمحة موجزة من أحوال الشعر والشعراء وعلاقة أبي العلاء بها ومنزلته منها . وفيها ذكر مولده واسمه ونسبه وميلاده وعماه ، وتشتمل على اعتراض بمجمل الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والعقلية في عصره ، وتحت هذا أنواع من العلوم المعروفة في عصره ، والخطابة والكتابة والشعر والرواية لتتمثل أمام القارىء صورة من حياة الأمة بجميع انواعها المذكورة .

وأما المقالات ، فالمقالة الأولى منها تشتمل على جزء من حياته من سنة ٣٦٣ ه إلى ٤٠٠ ه وفيه الكلام على نشأته وتعلمه وبعض علماء المعرة وأدبائها في عهده ، والطريقة التي تعلم عليها ، وشيوخه والزمان والمكان الذين أتم فيهما تعلمه ، ورحلاته إلى بعض البلاد الشامية وبغداد ومن عرفه فيها والمجالس العلمية فيها ، ووداعه إياها وحنينه إليها .

وأما المقالة الثانية : فإنها تشتمل على حياته في المعرة بعيد رجوعه من بغداد سنة ٤٠٠ ه إلى آخر عمره سنة ٤٤٩ ه . وفيها الكلام على ماله وطعامه ولباسه وفراشه ومسكنه وأخلاقه واعتقاده في الخير والشر وتشاؤمه ورأفته ورجائه وخوفه ومعتقده ومزاعم الناس فيه ورميه بالإلحاد والشك ، ونعته بأنه معتزلي وجبري وبرهمي ونحو ذلك ، ووصفه بالتقية .

وخلاصة ما أراه في اعتقاده بالله ورسله والملائكة والجن والحشر والنشر ولزومه بيته وحليته ومرضه ووصاياه ووفاته وقبره وما رُثي به والراثون وكيف رؤي في النوم بعد موته .

وأما المقالة الثالثة : فتشتمل على شهرته ، وتلاميذه والذين كاتبوه نظما ونثرا ، وزواره في المعرة ، ومنزلته عند الملوك والعظماء ، وأقوال العلماء فيه مدحا وذما ، وقصة الضيوف الخمسين وسقوط الدار عليهم ، وما ألف في مدحه وذمه ، والذين ردوا عليه بعض اقواله ، وذكائه وبداهته وثقته بعلمه ونفسه وما كتبه وما ألفه من الكتب ، وتفننه في اسمائها واساليبها واغراضها ، وكُتّابه وثقافته في العلوم الشرعية واللغوية وغيرهما ومصادرها ، والكتب التي ذكرناها في كلامه وأسماء العلماء والأدباء والشعراء الذين ذكرهم .

وأما المقالة الرابعة : فهي تشتمل على بحث ودراسة لكلامه في نثره وبيان خصائصه والأغراض التي كتب فيها ، والتقليد والتجديد في نثره وتقسيمه بحسب الزمان ومميزات كل طور ، وما ألفه العلماء في الاحتذاء على مثاله أو معارضته .

وتشتمل أيضا على مباحث في علاقته بالشعر ، وابتداء قوله إياه ، وتقسيم شعره بحسب الزمن وخصائصه وأطواره وتاريخ بعض قصائده وابياته ، والكلام في (ديوان الغزل) ، و (سقط الزند) ومقدمته وشخصيته فيها وأسلوبه فيه ، والتقليد في شعره وما أخذه من غيره ، والأغراض التي يشتمل عليها من غزل ومدح ورثاء وغيرها ، وفيها الكلام على (لزوم ما لا يلزم) ، ومقدمته وشخصيته فيها وترتيبه وأسلوبه ، ونسخ اللزوم وما فيهـا من تحريف وخطأ في المتن والشرح ، وسرقة أقواله ، وفلسفته ومنشئها ومصادرها واتصاله بها وعمادها وموضوعها ، والفلسفة الطبيعية والرياضية ،

واعتقاده في الكواكب وتأثيرها ، والفلسفة الإلهية : الروح والجسم بعد الموت وحس النبات والجماد والتناسخ والحلول والملائكة والجن والنبوات والكتب والشرائع والمزاعم والاديان والمذاهب ، وما أنكر عليه من كلامه بعض الفرق المسلمة والحشر والنشر . والفلسفة العملية : أصل الانسان وغرائزه ونقد المجتمع وطبقات الناس ورؤساء الأمم غير المسلمة ، وأحكام عامة على الناس ، ومحاولة إصلاح البشر والإخفاق فيها وتفاوت الناس وتساويهم في رأيه ، والزواج والمرأة والنسل والعدم والوالدان والولد والرفق بالانسان وترك الحروب والاشتراك بها والرفق بالحيوان والاخلاق والعزلة والسياسة وولاة الأمر والرعية والدنيا والإسلام والحظ في الإنسان والحيوان والجماد والصمت والنطق والحسد والمال والخمر .

وأما الخاتمة فهي تشتمل على طائفة مما يمكن استنتاجه من أقواله من الأخلاق والعادات والمواضعات والمزاعم .

مقدمة الكتاب

لمحة عن الشعر والشعراء

أتى على الأمة العربية حين من الدهر كان فيه الشعر أعظم مظهر للحياة العقلية عندها ، وأجل معرض تعرض فيه ثمرات القرائح ونتائج الفكر ، وأوسع ميدان يتبارى فيه ذوو الفصاحة واللسن . وقد كان الشعر العربي ، ولا يزال ، يحتفظ لنفسه بأكثر هذه الخصائص . وإذا استقرينا أحواله وأطواره في العصور الغابرة والحاضرة رأيناه قبل الإسلام خاضعا لسنن الجاهلية ، جاريا على وفق الأهواء التي يستسيغها أهل ذلك العصر ، بعيدا عن الاتصال بالعلم إلا ما وقع على سبيل الاتفاق ، لأن جمهرة الأمة في ذلك العهد ليست لها صلة بالعلم ، ولا بينها وبينه جامعة تجمعها .

ثم لما جاء الإسلام واستنقذ العرب من هوة الجهل ، وفتح لهم طريقاً لاحباً إلى العلم ، اتجه الشعر نحو العلم ، واتصل بأجزائه ، وقد غرست مقدمات ذلك في بدء الإسلام ، ثم اخضل عودها في أخريات العصر الأموي ثم أينعت في النصف الأول من العصر العباسي ، وبلغت ما لم تبلغه في عصر قبله . ثم ذبل عودها وصوّح نبتها بعدُ ، حتى أصبح هشيا تذروه الرياح . ولم أر شاعرا يضاهي أبا العلاء المعري أو يدانيه في إخضاع العلم والفلسفة للشعر .

تقسيم الشعراء

وإذا استقصينا أحوال الشعراء ، وسبرنا أغوارهم في كل عصر منذ

عرف العرب الشعر إلى هذا العهد ، تبين لنا أن الشعراء أربعة : شاعر قصر أكثر شعره على أغراض نفسه وأهوائها فهو شاعر فردي . ومن هذا النوع شعراء الغزل : كعمر بن ابي ربيعة ومن طبع على غراره ، وشاعر أضاف الى أغراض نفسه ما يتعلق ، بقبيلته فهو شاعر قَبَلِيٌّ أو شاعر قبيلة ، كالنابغة ومن نسج على منواله ؛ وشاعر تجاوز ذلك إلى ما يتعلق بالأمة كلها أو جلها فهو شاعر أمة ، كالفرزدق ومن احتذى على مثاله ، فإنه لم يقتصر في شعره على حاجة نفسه وقبيلته ، وانما تعداها الى غيرها من القبائل ، وتصدى في شعره الى اعمال العمال والولاة والأمراء والخلفاء ، ولكنه لم يتعرض كثيرا الى غير العرب ؛ وشاعر لم يقصر شعره على أمة واحدة وإنما تناول في شعره أمما مختلفة ، فتصدى لعاداتها وآدابها وعقائدها وما شاكل ذلك فهو شاعر عالمي .

علاقته بالشعر ومنزلته بين الشعراء

ولا أعرف أحدا من شعراء العرب أجدر بلقب (الشاعر العالمي) من أبي العلاء ، ولا من ساواه في شمول مباحثه الأمم التي كان لها في عهده شأن يؤهلها للتصدي لذكرها ، وليست لأبي العلاء هاتان الخاصتان فحسب ، وإنما له من الخصائص والمزايا كثير مما ليس في غيره من الشعراء ، وسنذكر جملة منها نبين فيها أنه جدير بالدرس والبحث والعناية بإظهار قيمته العلمية والأدبية أكثر من غيره من الشعراء ، وأن حقيقته العلمية لا تزال بعيدة عن متناول كثير من الناس ، وإنما عرفوا منها ما قرب وهان ، وألموا به إلمامة الطغرائي بالجزع ، أو إلمام طير الماء بالعلس [1] .

عناية العلماء بأبي العلاء

وقد عني جماعة من المستشرقين بأبي العلاء ، فترجموا (لزوم ما لا يلزم)

(١) والعَلَس : ضرب من البُر (اللسان) .

إلى اللغة الألمانية ، وترجموا (رسالة الغفران) إلى اللغة الإنكليزية ، وترجموا قطعا من نظمه ونثره إلى الإفرنسية ، وأفاضوا في بيان فلسفته ، وأطالوا القول في بيان نُبْغِه وعبقريته .

وعني جماعة من علماء العرب وأدبائهم في القديم والحديث بأبي العلاء عناية شديدة ، وأكثروا القول في زندقته وإلحاده ، وتولى الانتصار له فريق منهم .

وفي هؤلاء فريق حاول أن يظهر فضل أبي العلاء ، وآخر أراد أن يظهر فضل نفسه على حساب أبي العلاء ، وفي كلا الفريقين من لم يوفق في بعض عمله ، وفيهم من أخطأ في كثير من الآراء والاستنباط ، ومن أخطأ لاعتماده على قول غيره من غير تثبت ، شأن العلماء والمؤلفين ، وسنبين ذلك في فصل خصصناه بمن كتب في ابي العلاء ، إن شاء الله تعالى .

وقد غَرِيتُ بأبي العلاء ، وغَرِيَ حبه في صدري [١] قبل أن أبلغ الحلم ، لأن شعره ونثره كانا في المعرة في ذلك العهد أعز من الأبلق العقوق [٢] ، ومن بَيْضِ الأنوق [٣] ، فكان والدي رحمه الله إذا ظفر بشيء من شعره حضني على حفظه ، فشببتُ وشبت على حبه وحب شعره ، وزادني ولعا به ما بيني وبينه من الصلات والجوامع ، إذ تجمع بيننا وحدة الدين والوطن والجنس ، وقد نتحد في الهوى والنزعات كثيرا ، وقد تخرجت به في الشعر .

ولما شرعت في تدوين تاريخ المعرة [٤] رأيت أن صدره لا يتسع

---

(١) غَرِيَ بالشيء : أولع به وغَرِيَ الشيء في صدره : لصق به كأنما ألصق بغراء (ج)

(٢) الأبلق العقوق : تقول العرب : طلب الأبلق العقوق : أي ما لا يمكن ، لأن الأبلق الذكر ، والعقوق : الحامل .

(٣) بيض الأنوق : الأنوق : الرخمة ، وقيل : ذكر الرخم ، وفي المثل : أعز من بيض الأنوق ، لأنها تحرزه فلا يكاد يظفر به لأن أوكارها في رؤوس الجبال (اللسان:أنق) .

(٤) كتاب جليل خلفه المؤلف مخطوطاً ، ولم ينهد أحد بعدُ إلى طبعه

لترجمة أبي العلاء ، وأحببت أن أدلي دلوي في الدلاء ، وأزج برأيي بين الآراء ، ولا أبالي أن أعد بمن كتب فيه ليظهر فضله ، أو ليظهر فضل نفسه على حسابه ، بعد أن استفرغت المجهود في البحث والاستقراء والجمع لما تفرق من أخباره وأقوال الناس فيه بقدر ما ساعدتني به الأيام .

وآثرت الابتداء بذكر بلده ومحتده ، وما يتصل بها ، لأني رأيت بعض من كتب فيه لم يصب شاكلة الصواب في بعض المباحث المتعلقة بها .

* * *

مولد أبي العلاء (١)

ولد أبو العلاء في مدينة معرة النعمان . وقد اختلف العلماء في الأصل الذي اشتق منه لفظ المعرة ، وفي المراد منه ، والأصل اللغوي في لفظ المعرة هو موضع العَرّ أي الجرب ، وقد جاء في اللغة لمعان كثيرة ، منها : الإثم والغرم والدية والجناية وتلون الوجه من الغضب والأمر القبيح والأذى والشدة والمسبة والأمر المكروه وكوكب دون المجرة من ناحية القطب الشمالي ، وقد قيل لرجل نزل بين حيين من العرب : أين نزلت ؟ فقال : نزلت بين المَعَرّة والمَجَرّة ؛ والمجرة التي في السماء : البياض المعروف ، والمعرة ما وراءها من ناحية القطب الشمالي ، سميت معرة لكثرة النجوم فيها . وقد أراد أنه نزل بين حيين عظيمين لكثرة النجوم . والعرب تسمي السماء «الجرباء» ، لكثرة النجوم فيها تشبيها بالجرب في بدن الإنسان . وقالوا : أرض معرة ، إذا انجرد نباتها ، وأرض معرة ، اذا كانت قليلة النبات .

وقد جاء في كلام عمر بن الخطاب [ض] : « اللهم إني أبرأ اليك من معرّة الجيش » ، قيل : هي أن ينزلوا بقوم فيأكلوا من زروعهم شيئا بغير علم ، وقيل : أن يقاتلوا بدون إذن الأمير .

والمعرة اسم لهذه المدينة ولقرى كثيرة من عملها وعمل حماة ودمشق ونصيبين وحلب وغيرها ، منها ما هو باق إلى هذا العهد ، ومنها ما انطمست معالمه واندرس أثره ولم يبق إلا ذكره وخبره .

---

(١) المولد يأتي بمعنى زمان الولادة ومكانها ، والثاني هو المراد هنا . (ج) .

وفي عمل المعرة إلى هذا اليوم قرية يقال لها معرة حرمة ، وأخرى معرة ببطر ، وثالثة معرة ماتر ، ورابعة معرة الصين وغيرها . وكان في المعرة محلة يقال لها معرةُ علياءَ أو قربةٌ ولا تعرف الآن .

وفي عمل المعرة قرى كثيرة يقال لها مَعَر بلاهاء مضافة إلى اسم آخر مثل معرشَمْشَى (١) ومعر شمارين وغيرهما ، وقد ذكرنا أسماء كثير منها في كتابنا (تاريخ المعرة) ، ونقلنا عن التاج أن مَعَر بلاهاء اسم لإحدى عشرة قرية كلها بأعمال حماة . وأن معرين اسم لقرى فيها وفي غيرها .

وهذه المدينة مسماة بهذا الاسم قبل الإسلام ، وفي أول الفتح كان يقال لها معرة حمص كما سيأتي ، وإذا تأمل الإنسان في المعاني المتقدمة التي يدل عليها لفظ المعرة لا يكاد يجد معنى مناسبا تام المناسبة لأن يكون هذا الاسم مشتقا منه .

وقد تكلف بعض الأدباء في عصرنا من المستشرقين وغيرهم وأعنتوا أنفسهم لإيجاد مناسبة بين هذا الاسم ومسماه ، ولكنهم سلكوا في التأويل سبلا بعيدة لا تستند إلى دليل يؤيدها .

فقال بعضهم : ان لفظ المعرة أصله في السريانية « مَعَرتا » ثم حرف إلى معرة ، ومعناه الكهف ويرادفه المغارة . وزاد آخر على هذا فقال : وسميت بذلك لأن هذه المدينة مشتملة على كثير من المغاور . وتاؤها في اللغتين للتأنيث . وأخبرني عالم باللغة السريانية أن لفظة المعرة سريانية أصلها « معرتا » ومعناها : المغارة ، والجمع مُعَرّى بإمالة الراء نحو الكسرة الخالصة .

وقال آخر (٢) : يخيل إلينا أن أصله مُعَرّس النعمان ، ثم أبدلت

---

(١) ولعلها التي يقال لها الآن مَعر شمشى . (ج) .

(٢) صاحب ذكرى أبي العلاء ص ١٠٤ . (ج) .

التاء من السين ، وتلك لغة من لغات العرب ، ثم لما طال العهد على استعمال هذه الكلمة فتحت الميم لتتفق مع الألفاظ التي يألفها العرب المتكلمون بها ...

وقال آخرون : كان أهل المعرة يسكنون «سياث» ، فلما افترس الأسد ولداً للنعمان بن بشير دفنه في موضع المعرة ، وقال لاهل سياث : من كان يودني فليبن له موضعاً عند الموضع الذي ابتنيته . فبنى الناس المعرة وسميت بذلك لما لحق النعمان من معرة الحزن على ولده ، وذهب آخرون إلى غير ذلك . وهذا كله من باب الظن وحب الإتيان بالغريب ، ومثله لا يصح أن يبنى عليه حكم قاطع ، وإنما يحتاج إلى دليل تاريخي موثوق به . وإذا سلمنا إمكان القول الأول والثاني فإننا لا نستطيع معرفة الذي حرف اللفظ ولا الزمن الذي حُرّف فيه ، ولا نعلم من أين جاء تشديد الراء مع أن الغالب في التحريف التخفيف لا التشديد .

ولو أننا سلمنا إمكان القول الثالث والرابع لاستعصى علينا ذلك التوجيه والتأويل في بقية البلدان المسماة بالمعرة مضافة إلى لفظ آخر ، مثل معرة الصين ومعرة الإخوان ومعرة بيطر ، ومعرة مصرين ، إذ لم يحدثنا التاريخ أن الصين نزلوا المعرة ، ولم يعرفنا من هم الإخوان ومن هو بيطر ، ومصرين و . و . ، ولانعلم السبب الذي أوجب إضافة المعرة إلى كل واحد منها .

وظاهر قول أبي العلاء :

يُعيّرنا لَفْظَ المعرّةِ أنّه ... مِنَ العَرّ قومٌ في العُلا غُرَباء

وما لحق التتريبُ سكانَ يَثْرِبٍ ... من الناس لا بل في الرجال غباء [1]

يدل على أن هذا اللفظَ مأخوذ من العَرّ ، وهو [2] لا يعيب أهل هذه المدينة ، كما أن أخذ يثرب من التثريب لم يَضِرْ أهلها ولم يَعِبْهم ،

(١) اللزوميات ه ص ٢١ ، وفيها : « المعرة أنها . . » و « هل لحق التثريب » .

(٢) يريد أن اشتقاق المعرة من العر . (ج) .

ولا يصح أن يراد غير هذا المعنى من هذا البيت ، إذ لا يستقيم التمثيل بالبيت الثاني إلا على هذا التأويل .

والذي أعتقده أن جميع الأسماء لا تعلل ، ولا يجب أن يكون بينها وبين مسمياتها مناسبة ، وإذا استقام لنا ذلك في قليل من الأسماء فانه لا يستقيم في كثير منها ، ولا سيا أسماء الأعلام للاشخاص والأماكن .

واذا لم يكن لنا بد من التعليل وردّ الاسم إلى أصل ، فأقرب الوجوه أن تكون مأخوذة من السريانية ثم حرفها العرب على ما في ذلك من التكلف والتعسف .

وأما النعمان الذي أضيفت إليه لفظة المعرة فقد اختلف فيه العلماء ، فذهب قوم إلى أنه النعمان بن بشير الأنصاري (١) ، كان والياً في حمص فاجتاز بالمعرة فمات له ولد فيها ، فدفنه وأقام عليه حزيناً أياماً فسميت به . وقيل :إنه تديّرهافنسبت إليه، وكانت قبل ذلك تسمى « معرة حمص » . وقد ذكر هذه الإضافة جماعة ، منهم ابن خلكان (٢) والبلاذري (٣)

(١) هو وأبوه وأمه صحابيون ، ولد على رأس أربعة عشر شهراً من الهجرة ، وهو أول مولود من الأنصار بعدها ، وكان كريماً شجاعاً شاعراً ، استعمله معاوية على حمص ثم على الكوفة سنة ٥٩ هـ ، ومات معاوية وهو على الكوفة ، ثم عزله يزيد وأرسله الى المدينة سنة ٦٢ هـ ليمنع قومه عن الخروج عليه ، ثم استعمله على حمص ، فلما مات معاوية بن يزيد دعا إلى ابن الزبير ، وقيل إنه دعا بعد ذلك إلى نفسه ، فواقعه مروان ، ثم قتله عمرو بن الجلّي الكلاعي سنة ٦٤ هـ ، ونجد أخباره وشيئاً من شعره في (تهذيب الأسماء واللغات) للنووي وأسد الغابة ، و (الاصابة وابن جرير والكامل ، والشذرات والأغاني ، والكامل للمبرد) (ج) .

(٢) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن ابراهيم البرمكي الاربلي ، المعروف بابن خلّكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ ، له (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) كتاب في الأعيان فرغ من تأليفه سنة ٦٧٢ هـ . (ج) .

(٣) هو أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هـ له كتب منها (فتوح البلدان وتاريخ الأشراف) وغيرها . (ج) .

وأبو الفداء (١)، وابن بطوطة (٢) في رحلته، وابن العديم (٣) وابن الأثير في (الكامل) (٤).

وقال ياقوت (٥) : «هذا في رأيي سبب ضعيف لا تسمى بمثله مدينة، والذي أظنه أنها مسماة بالنعمان وهو الملقب بالساطع وهو النعمان بن عدي ابن غطفان التنوخي».

سيات أو المعرة القديمة

وقال ياقوت في (معجم البلدان) (٦) : سِيَّات كانت بليدة بظاهر معرة النعمان وهي القديمة، والمعرة اليوم محدثة، كذا ذكره ابن المهذب في تاريخه، اجتاز بها القاضي أبو يعلى عبد الباقي بن أبي حصين المعري، والناس ينقضون بنيانها ليعمروا به موضعاً آخر، فقال [أربعة أبيات أولها] (٧) :

مررتُ برسمٍ في سياتَ فراعني ... بهِ زجلُ الأحجار تحت المعاول

---

(١) هو الملك المؤيد اسماعيل بن علي صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢ هـ له كتب منها : (تقويم البلدان) ومنها (المختصر في أخبار البشر) رتبه على السنين وانتهى فيه إلى سنة ٧٠٩ هـ على ما قاله ابن الوردي في (تتمة المختصر). (ج).

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي المعروف بابن بطُوطة، بدأ رحلته سنة ٧٢٥ هـ واستغرقت خمساً وعشرين سنة. (ج).

(٣) هو الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله العقيلي المعروف بابن العديم، وبابن أبي جرادة المتوفى سنة ٦٦٦ هـ، له كتب منها : (بغية الطلب في تاريخ حلب) ومنها (رفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري) وورد اسمه : كتاب (الانصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري). (ج).

(٤) هو أبو الحسن علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري المتوفى سنة ٦٣٠ هـ له كتب كثيرة، منها كتاب (الكامل في التاريخ) أو تاريخ الكامل، ابتدأ فيه من أول الزمان الى سنة ٦٢٨ هـ. (ج).

(٥) هو أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ له كتب كثيرة منها (معجم البلدان) و(معجم الأدباء ـ إرشاد الأريب الى معرفة الأديب) وغيرهما. (ج).

(٦) تعريف القدماء بأبي العلاء، حاشية ص ٤٩٤ عن معجم البلدان ـ لياقوت.

(٧) الصحيح أن الأبيات المذكورة لأبي الهيثم أخي أبي العلاء الصغير. (ج).

وقد أنكر ابن العديم قول ياقوت وشنع على قائله ، حيث قال في (الانصاف) عند كلامه في الساطع [النعمان] [١] : وبعض الجهال يقول : إن معرة النعمان تنسب إليه ، وليس بصحيح بل تنسب إلى النعمان ابن بشير الأنصاري ، وكان والياً على حمص وقنسرين في ولاية معاوية وابنه يزيد . ومات للنعمان بها ولد ، وجدّد عمارتها فنسبت إليه ، وكانت تسمى أولاً « ذات القصور » . وقيل : إن سياث كانت المدينة ، وهي آهلة فخرج ابن للنعمان بن بشير للتصيد ، وكان موضع المعرة أجمة ، فافترسه السبع فجزع عليه وبنى له موضعاً عند قبره ، فبنى الناس لبنائه ، فنسبت معرة النعمان إليه لذلك ، وإنما نسبت الجهال المعرة إلى النعمان بن عدي المعروف بالساطع لأن أهلها كلهم أو بعضهم من بني الساطع فظنوا أنها منسوبة إليه .

وقال أبو العباس الشريشي في (شرح المقامة المعربة) للحريري : النعمان اسم للجبل المطل على المعرة فأضيفت إليه ، وقال ابن بطوطة في رحلته مثل هذا [٢] .

وقال مغلطاي في (تاريخ سلاطين مصر والشام) في ذكر ما فتحه الفرنج : معرة النعمان بن المنذر . ونسبها آخر إلى النعمان بن امرىء القيس لأنه غزا بلاد الشام غير مرة وأكثر المصائب والسبي في أهلها . وقال .. وقال ..

هذا كلام طائفة من العلماء والمؤرخين في المعرة والنعمان . ويظهر للمتأمل أن كل ما ذكروه من الوجوه والعلل في تسميتها وإضافتها قائم على الظن ، لا يعتمد على دليل يوثق به ، ولا نص يعول عليه ، وكله بعيد عن الحقيقة . أما قول ياقوت [٣] : إن هذا سبب ضعيف لا تسمى

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٨٧ عن الإنصاف والتحري ـ لابن العديم .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٩٧ عن تحفة النظار ـ لابن بطوطة .

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٨٥ عن معجم البلدان ـ لياقوت ـ مع اختلاف يسير في النقل.

بمثله مدينة ، فواضح وهو صحيح ، ويؤيده أنه لا يعرف الآن في المعرة أجمة . وموقعها بعيد عن أن يكون أجمة ، وليس فيها ماء يسيح على وجه الارض وفي شماليها وغربيها أودية يفيض ماؤها في الشتاء والربيع ، ولكن المدينة أعلى من هذه الأماكن .

ولا يعرف فيها قبر لابن النعمان ، ولو كان ذلك حقاً لاحتفظ الناس به أو بآثاره ، كما احتفظوا بكثير من القبور المنسوبة إلى جماعة من الصالحين وإن لم يكونوا مقبورين فيها حقيقة ، وفيهم كثير ممن هو أدنى منزلة في اعتقاد الناس من ابن النعمان . وإذا فرضا أن بني مروان درسوا هذا القبر وطمسوا معالمه فليس لدينا ما يثبت به مايدعونه من إضافتها إلى النعمان .

وإذا تأملنا قول ياقوت تبين لنا أن فيه تناقضاً ، فانه ذكر أولاً أنها منسوبة إلى النعمان (١) بن بشير ، ثم بين أن ذلك ضعيف ، ورجح أن تكون منسوبة إلى الساطع ، وهذا توفي قبل الإسلام ولم تثبت وفاته في المعرة ولا نزوله فيها . ثم قال في سياث (٢) : بليدة بظاهر معرة النعمان وهي القديمة والمعرة اليوم محدثة ، ثم ذكر أن القاضي أبا يعلى اجتاز بها ورأى الناس ينقضون بنيانها ليعمروا به موضعاً آخر ، وقد كان ابو يعلى هذا في القرن الخامس . ونسب ابن العديم (٣) هذه الأبيات إلى أبي الهيثم عبد الواحد أخي أبي العلاء وكانت وفاته سنة ٤٠٥ هـ ، فكلام ياقوت يدل أوله على أن المعرة كانت عامرة قبل الإسلام منذ عهد الساطع ثم يقول : إن سياث هي القديمة والمعرة اليوم محدثة ، ثم يقول : إن أبا يعلى رآهم ينقضون بنيانها ليعمروا به موضعاً آخر في القرن الخامس ، ولم يبين ذلك الموضع ، وكلامه يدل على أن بنيان سياث كان بعضه باقياً

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء س ٥٨٥ ، عن معجم البلدان ـ لياقوت ـ .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء س ٥٩٤ الحاشية ، عن معجم البلدان ـ لياقوت .

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء س ٤٩٤ عن الانصاف والتحري ـ لابن العديم .

في زمن أبي يعلى . فلم يتضح لنا أيّ أقواله أرجح لنأخذ به ونعول عليه ، وإذا كانت سياث هي المدينة القديمة والمعرة محدثة فكيف يجوز أن نسميها معرة ونضيفها إلى النعمان الساطع قبل أن توجد ؟ .

وكلام ابن العديم يشبه كلام ياقوت في تناقضه ، فإنه ذكر أولاً أنها كانت تسمى ذات القصور [1] ، ثم لما مات للنعمان ولد فيها جدد عمارتها فنسبت إليه ، ولم يبين من أين جاء لفظ المعرة والاستعاضة به عن ذات القصور ، وكلامه هذا يدل على أنها كانت موجودة وجدد عمارتها .

ثم قال [2] : وقيل إن سياث كانت المدينة وهي آهلة . وكان موضع المعرة أجمة ، فلما افترس السبع ابن النعمان بنى له موضعا عند قبره فبنى الناس لبنائه فسميت معرة النعمان لذلك . وهذا يدل على أن المعرة لم تكن موجودة قبل ذلك وإنما كانت سياث . فتأمل كيف خفيت الحقيقة لتناقض الأقوال والآراء ، وسيأتي في الكلام على قلعة المعرة أن الملك المظفر لما بنى قلعة المعرة نقل حجارتها من سياث .

والمؤرخون تكاد تتفق كلمتهم على أن أبا عبيدة لما فرغ من فتح حماة مر بالمعرة فصالح أهلها سنة ١٥ هـ ، وهذا يدل على أن هذه المدينة كانت موجودة عامرة مسماة بهذا الاسم قبل أن يتولى النعمان بن بشير حمص وغيرها . ويدلك على انها كانت عامرة قبل ذلك ما زعمه بعض المؤرخين من أن فيهـــا قبر عبد الله بن عمار بن ياسر الصحابي وقبر يوشع بن نون .

وأما قول الشريشي : إن النعمان جبل مطل عليها فهو أقرب إلى القبول من سائر الأقوال لو صح أن هناك جبلا يسمي بهذا الاسم ، ولم أوفق للعثور على مستند تاريخي يثبت ذلك ، على أني سمعت من بعض أهل

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٨٨ عن بغية الطلب ـ لابن العديم .

(٢) المصدر ذاته ، وقد تصرف المؤلف بنقل الخبر .

المعرة أن الجبل الغربي الذي يقع غربي وادي الحطيب إلى جهة المحيا يقال له النعمان ، ولكن نفسي لم تطمئن إلى هذا الخبر .

وقول من قال : إنها مضافة إلى النعمان بن المنذر أو النعمان بن امرىء القيس لا يصح أن يعول عليه حتى يؤيده دليل ، ولم نعثر على هذا الدليل .

والذي نستطيع فهمه من مجموع ما تقدم أن هذه المدينة كانت قبل الفتح الإسلامي عامرة ، وكانت تسمى المعرة وذات القصور ، ولا يمتنع أن يكون لها اسمان فأكثر كما أن لدمشق ومصر وبغداد أسماء متعددة ، ثم لما جعلت من عمل حمص قيل : معرة حمص . وأما اضافتها الى النعمان فلم أعلم في أي وقت كان وأن كل ما ذكره العلماء في سبب تسميتها واشتقاق اسمها وإضافته لا يخرج عن حدود الظن ولا يجوز الجزم بشيء منه ، غير أن أكثر المؤرخين قالوا إنها مضافة إلى النعمان بن بشير ولا يضيرنا أن نوافقهم حتى يظهر الدليل القاطع لكل احتمال وظن .

اضافتها الى حمص وغيرها

ذكر فريق كبير من المؤرخين أن هذه المدينة كان يقال لها معرة حمص ، منهم ابن خلكان والبلاذري وأبو الفداء وابن بطوطة وابن الأثير وغيرهم ، وقد أشرنا إلى ذلك فيما سبق .

ووقع إضافتها إلى حلب في (فتوح الشام) للواقدي .

تسميتها «ذات القصور»

وذكر جماعة من المؤرخين أنها كانت تسمى « ذات القصور » منهم ابن العديم [١] ، ونقله ابن بطوطة [٢] عن ابن جزي ، وذكره شيخ الربوة

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٨٨ عن بغية الطلب — لابن العديم .
(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٩٧ عن تحفة النظار — لابن بطوطة .

في (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) . وقال ابن الوردي المعري من قصيدة :

سلام على ذات القصورِ وأهلِها ومستقبلٍ من حسنِ حالٍ وماضي

المعرة من العواصم

العواصم حصون وولاية تحيط بها بين حلب وانطاكية ، وقد كانت قصبتها انطاكية ، وعند البلاذري قصبتها منبج ، والمعرة منها ، كما ذكره ابن خرداذبه وابن خلكان (ج ١ ص ٤٤٥) وغيرهما . وقد قال التبريزي في شرح سقط الزند عند قوله : « ولكن بالعواصم من عدي . . . » العواصم حصون بين حلب الى حماة سميت عواصم لاعتصام الناس بها والالتجاء اليها . . ثم قال : سألته عن العواصم وقت القراءة عليه ، فقال : العواصم من حلب الى حماة لانها حصون وجبال يعتصم بها الناس . وفسر العواصم بمثل هذا في غير موضع من شرحه ويشير الى هذا قول ابي العلاء :

مَتى سَألَتْ بَغْدادُ عني وأهلُها فانيَ عن أهلِ العواصِمِ سآلُ (١)

وغيره من الأبيات الآتية .

المعرة من الثغور

قال الطبري : ان هارون الرشيد عَزل الثغور كلها من بلاد الجزيرة وقنسرين وجعلها حيزاً واحداً وسميت العواصم ، وذلك سنة ١٧٠ هـ ، وذكر ذلك في (صبح الاعشى) ونقله عن صاحب حماة . وهذا يقتضي أن تكون الثغور والعواصم اسمين لمسمى واحد .

النسبة الى معرة النعمان

نقل السمعاني عن ابي نصر الرامشي : ان النسبة الصحيحة الى معرة

(١) شروح سقط الزند ق ٣ ، س ١٢٥٣ .

النعمان «مَعَرْنَمِي» لِيفرق بينهـا وبين النسبة الى معرة مسرين اذ يقال: مَعَرْمَسِي. ورواه ابو الفداء في (تقويم البلدان): معرنسي، وقال: ان أكثر أهل العلم لا يعرف ذلك. وأنا أقول: إن المعروف في الثانية مصرين لا مسرين ولا نسرين، كما ذكرها ياقوت. وان هذه النسبة لم يرض بها غير قائلها، ولذلك لم تلق رواجا عند المتقدمين والمتأخرين، ولم تقع في كلام فصيح، والمشهور أن النسبة الى معرة النعمان معرّي فقط، وقد درج عليه المتأخرون تبعا للمتقدمين.

المعرة في شعر أبنائها

لم أقف على ذكر المعرة في شعر أحد من أبنائها قبل القرن الرابع لأني لم أعثر على تراجم وافية لكثير منهم، وفيهم طائفة من الشعراء. ومن البعيد أن يُخلوا أشعارهم من ذكر موطنهم والحنين إليه أو التذمر منه.

وأكثر من ذكرها أبو العلاء، فقد ذكرها في مواطن من شعره في السقط مثل قوله: [١]

سرىٰ بَرْقُ المعرةِ بعد وَهْنٍ   فبات برامةٍ يَصِفُ الكلالا

وقوله وهو في بغداد: [٢]

فهل فيكَ من ماءِ المعرة قطرةٌ   تغيثُ بها ظمآن ليس بسال

وذكرها في اللزوم في مثل قوله المتقدم: [٣]

يعيّرنا لفظَ المعرةِ أنهـا   من العَرِّ قومٌ في العُلا غرباء

---

(١) شروح سقط الزند ق ١ ص ٧٨.
(٢) شروح سقط الزند ق ٣، ص ١١٩٥.
(٣) شرح لزوم ما لا يلزم ـ طه حسين ـ الأبياري ـ ١ ٦٦.
والعر بالفتح والضم: الجرب.

وقوله في رواية : (١)

نجّىٰ المعرةَ من براثن صالحٍ ربٌّ يُفرِّجُ كُلَّ أمرٍ مُعْضِلِ

وذكرها الأمير أبو الفتح بن أبي حصينة ، وكان معاصراً لأبي العلاء ، بقوله : (٢)

وزمانِ لهو بالمعرة مونق بسيائها وبجاني هرماسها

وقوله في رثاء أبي العلاء : (٣)

وعجبت أن تَسَعَ المعرةُ قبرَه ويضيق بطن الأرض عنه الأوسع

وذكرها محمود بن علي بن المهنا المعري المتوفى سنة ٥٥٥ هـ ، بعد أن أخذها الفرنج :

معرة الأذكياء قد حَرِدَت عنا وحق المليحة الحرد

في يوم الأثنين كان موعدهم فما نجا من خميسهم أحد

وذكرها القاضي أبو سهل عبد الرحمن بن مدرك التنوخي في قصيدة بقوله :

ما للمعـــرة مشبـه في أرض مصر ولا العراق

وذكرها أبو محمد عبد الله بن أخي أبي العلاء بقوله : (٤)

واحلفْ بأنك لا تعو د إلى المعرة بالطلاق

(١) اللزوميات هـ ص ٢٢٠ ، وفيها : « نجّى المعاشر » .

(٢) ديوانه ١/٣٥٥ .

(٣) ديوانه ١/٣٧٣ .

(٤) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٩٨ عن الانصاف والتحري — لابن العديم

وذكرها ابن الوردي بقوله :

رأى المعرة خوداً زانها حَوَر   لكن حاجبَها بالجور مقرون

وذكرها السيد أمين الجندي عم أبي المتوفى سنة ١٢٩٥ هـ في قوله من أبيات يهجو بها فريقاً من أهلها :

أهلَ المعرة لا بوركتم أبداً   . . . .[1]

وذكرها السيد محمد بن عمر اليوسفي بقوله من أبيات يفتخر بها :

إن المعرة والذي فلق النوى   بلد بها أهل المكارم لم تزل
يا من تجاهل فضلها سفهاً فسل   ركباً بأطلال الحمى نزل[2]

وقد ذكرها أبو العلاء في بعض رسائله مرة بلفظ المعرة فقط ، كما في رسالة (الإغريض) ص ١٥ - ١٦ ، ورسالته (إلى أهل المعرة) ص ٨١ . ومرة أخرى بلفظ معرة النعمان كما في رسالته إلى خاله أبي القاسم ص ٦٧ . وثالثة بلفظ البلدة المضافة إلى النعمان ، كما في رسالته إلى القاضي أبي الطيب حيث يقول ص ١٠٠ : من المستقر في البلدة المضافة إلى النعمان . وقوله في (رسالة الاغريض) ص ٥٢ : وغير ملوم سيدنا لو أعرض عن شقائق النعمان الربعية ومدائحه اليربوعيه مللاً من أهل البلد المضاف إلى هذا الاسم .

أما في رسالة الغفران فقد ذكرها بلفظ معرة النعمان في ص ١٣٥ و ص ١٩٢ [3] . وفي الفصول والغايات ص ٣٠٧ بقوله : ما أنا والبلدَ المضافَ إلى النعمان بعد صُحْبَة قُرَيْطٍ والهِرّاج .

---

(١) روى المؤلف صدر البيت ولم يُتمّ .
(٢) العجز مكسور ، ولم نقف على صحته .
(٣) وفي رسالة الغفران ط ١ تحقيق بنت الشاطئ ص ٥ [illegible] .

أما ذات القصور فلم أره الا في بيت ابن الوردي المتقدم . وأما العواصم فقد ذكرها أبو العلاء في مواطن كثيرة من سقط الزند ، كقوله وهو في بغداد :

متى سألتْ بغدادُ عني و أهلها فإنيَ عن أرض العواصمِ سآلُ[(١)]

وقوله :

ندمتُ على أرض العواصم بعدما غدوتُ بها في السَّوْمِ غيرَ مغالِ[(٢)]

وقوله :

ولكن بالعواصم من عدي أمير لا يكلفنا السؤالا[(٣)]

وقوله يصف ابلا :

تَذَكَّرْنَ من ماء العواصم شَرْبَةً وَزُرْقُ العَوالي دُونَ زُرْقِ جمامِهِ[(٤)]

وقوله في اللزوم :

لو قام أموات العواصم وحدها ملأوا البلادَ حزونَها وسهولَها[(٥)]

المعرة قبل الاسلام

لم نقف على شيء مفصل من أخبار المعرة قبل أن يمتد فوقها رواق الإسلام ، ولا أحطنا علما بما بلغت إليه من الحضارة والعمران في القرون الخالية ، ولا بمن نبغ فيها من العلماء والعظماء . وكل ما استطعنا معرفته

(١) شروح سقط الزند ق ٣ ، ص ١٢٥٣ .
(٢) شروح سقط الزند ق ٣ ، ص ١٢٠٧ .
(٣) شروح سقط الزند ق ١ ، ص ٨٥ .
(٤) شروح سقط الزند ق ٢ ، ص ٤٩٥ .
(٥) اللزوميات هـ ص ٢٠٧ .

من ذلك معرفة مجملة لا تزيل اللبس ولا تشفي علة النفس ولا تروي غلة الباحث .

كل ما استطعنا معرفته أن هذه المدينة كانت ولا تزال جزءاً من بلاد الشام شاركها فيما تعاقب عليها من الأطوار ، وانضوى تحت اللواء الذي كان يرفرف على أرجائها الفسيحة التي كانت منذ برأ الله الخلق ، ولم تزل إلى يوم القيامة مطمحاً لأنظار الغزاة والفاتحين ، ورحىً تطحن فيها المطامع الدول والأمم ، ومجزرة للبشر ، يقرب فيها القوي الضعيف ضحية لأطماعه وشهواته ، وقد شهدت هذه البقعة المباركة من الوقائع والفظائع ما لم تشهده أرض غيرها ، وضمت بين جوانحها من الأنبياء والصالحين والملوك والأبطال والعظماء ما يخيل إلى المرء أن أديم أرضها من تلك الأجساد .

ضن علينا التاريخ فلم ندر هل كانت المعرة عامرة قبل الطوفان آهلة بالسكان ، لقربها من مهد الإنسان أم لا ؟ وكذلك حالتها بعد الطوفان محفوفة بالغموض والإبهام . إلا أن الباحث يستطيع أن يدرك من خلال الكلام المجمل في سورية عامة أن هذه المدينة خضعت للحثيين الذين امتد سلطانهم من جنوبي سورية إلى البحر الأسود فيما يقال ، وأصابها ما أصاب سورية من النكبات والكوارث بسبب الحروب التي شبت بين أهلها وبين الفراعنة والأشوريين والرومانيين وغيرهم ممن بسطوا سلطانهم على تلك الأصقاع . ولكننا لا نعلم شيئاً خاصاً بالمعرة ، وفيها كثير من الآثار القديمة والعاديات والمستحاثات التي خلفتها الأمم التي تديرتها أو تقلبت عليها ، إلا أن جهل أهلها بل أهل بلاد الشام عامة بمعرفة الآثار وقيمتها حملهم على التهاون بالآثار القديمة وتقويض العامر منها وتحطيم كثير مما سلم منها من عاديات الدهر ، وجعلهم يضيفون كل قديم من بناء وغيره إلى الرومانيين ، لأنهم أقرب أمة كانت مستولية عليها قبل الإسلام ، ويشجعهم على ذلك كثرة ما للرومانيين من الآثار الخالدة في المدينة وضاحيتها .

المعرة بعد الاسلام

لما افتتح أبو عبيدة دمشق وحمص ، مضى إلى حماة ، فصالح أهلها ، ثم مر بالمعرة سنة ١٥ هـ فصالح أهلها على مثل صلح حماة ، ثم لما استخلف معاوية ، ولى النعمان بن بشير حمص وأضاف إليه المعرة كما سبق .

ولما استخلف هرون الرشيد أفرد العواصم ، وجعل المعرة منها على نحو ما أسلفنا ، ثم تعاقبت عليها أطوار شتى ، وتداولتها دول مختلفة ، فكانت مرة من عمل حمص ، وثانية من عمل حماة ، وثالثة من عمل حلب ، ورابعة إقطاعا لأمير ، وخامسة طُعْمة لمتغلب . وكان لها في كل عهد نصيب وافر من قتل أهلها وسبيهم وظلمهم وخراب عمرانها ، وإذا سلمت من فظائع هؤلاء ، لقيت الأمرين من عيْث البُداة وغاراتهم ، فإذا قدر لها النجاة يوما من كلا الأمرين ، نالت قسطاً وافراً من ظلم الطبيعة ما بين زلزال يقوض بنيانها ، وطاعون يفني سكانها ، وقحط يبيد إنسانها وحيوانها ، فإن سلمت من ذلك كله قيض الله لها من خصام أبنائها وتناحرهم وكيد بعضهم لبعض ما يغني عن الزلزال والطاعون والطبيعة [1] وهي لا تزال إلى هذا اليوم تنسج على هذا المنوال ، وتحتذي على هذا المثال ، ومن استقرى ما لقيته من البلاء يتعجب كيف كتب لها الخلود ، ولم تمح من صحيفة الوجود .

موقع المعرة ووصفها في كلام المتقدمين

لم أقف على وصف هذه المدينة في كلام المتقدمين وصفاً يوضح كيف

---

(١) والظاهر انها كانت على هذا النمط في عهد ابن الوردي لأنه يقول فيها في رواية :

ان المعرة خَوْدٌ زانها حَوَرٌ لكنّ حاجَتَها بالجوْرِ مقرون
ماذا الذي يفعل الطاعون في بلدٍ في كل يومٍ له بالظلم طاعونُ

(ج)

كان عمرانها وسكانها ، وأكثرهم ذكر لها وصفاً مجملاً ، منهم ابن حوقل المتوفى سنة ٣٨٠ هـ ، قال : هي مدينة كثيرة الخير والسعة والتين والفستق وما شاكل ذلك من الكروم .

ومنهم الرحالة ناصر خسرو الفارسي ، فقد دخل المعرة سنة ٤٣٨هـ ، وذكرها في رحلته ، فقال ما خلاصته [١] : إن المعرة مدينة عامرة يحيط بها سور من حجر ، وعلى بابها سارية من الحجر ارتفاعها نحو عشرة أذرع كتب عليها بحروف غير عربية ، فسألت عنها ، فقيل لي : إنها طِلَّسْم يدفع العقارب عن المدينة فلا تدخلها ، فإذا جيء إليها بعقرب من خارجها فر منها وابتعد عنها ، وأسواق المدينة طافحة بالأرزاق ، وجامعها الأعظم مبني على نشز من الأرض في وسطها ، ومن أية جهة أتيته ارتقيت اليه ثلاث عشرة درجة . ولا يزرع في أرضها إلا الحنطة ، وهي تغل غلة عظيمة ، ويكثر فيها شجر الزيتون والتين والفستق واللوز والعنب ، وماؤها من الأمطار والآبار .

وقد وصفها كثير من المؤرخين وأصحاب الرحل ، منهم ياقوت [٢] وأبو الفداء [٣] والاصطخري [٤] وابن جبير [٥] وابن بطوطة [٦] وغيرهم ، وكلامهم بعضه قريب من بعض ، كلهم يصفها بكثرة التين والفستق واللوز والثمار ، وكلهم متفقون على أن ماءها من الآبار وليس فيها ماء جار على سطح الارض .

---

(١) هذه الرحلة ترجمها كثيرون وقد لخصنا من مجموع أقوالهم ما ذكرناه . (ج) .
وفي تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٨١ عن سفرنامه ـ لناصر خسرو

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٨٥ عن معجم البلدان ـ لياقوت .

(٣) تقويم البلدان ص ٢٦٥ ـ لأبي الفداء .

(٤) المسالك والممالك للأصطخري ص ٦١ ، ط برل ١٩٢٧ م .

(٥) رحلة ابن جبير طبعة ليدن ص ٢٥٤ .

(٦) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٩٧ عن تحفة النظار ـ لابن بطوطه .

وزعم بعض شراح (سقط الزند) ان المخاض الذي ذكره أبو العلاء في قوله :

كأنْ لم يكنْ بين المَخاض وحارم كتائبُ يُشْجين الفلا وخيامُ [1]

هو نهر بالقرب من معرة النعمان . وقال الفيروز ابادي في القاموس : مخاض كسحاب نهر بقرب المعرة . ولكن لا يعلم أحد اليوم أثراً لهذا النهر . ثم رأيت في شرح سقط الزند للبطليوسي [2] والتبريزي وغيرهما ان المخاض : نهر يخاض ، في الأرض التي تعرف بالروج ، وهي قريبة من معرة النعمان ، وقد التقى في هذا الموضع عسكر للمسلمين وعسكر للروم وكان أمير عسكر المسلمين بنجوتكين التركي الذي اصطنعه أبو منصور نزار الملقب بالعزيز ابن معد الملقب بالمعز ، فاقتتل العسكران والمخاض بينهما ، ثم عبر اليهم المسلمون ، فانهزموا ، وذكر في (ذيل تجارب الأرض) هذه الوقعة في حوادث سنة ٣٨١ هـ ، وقال : وطرحت العرب خيولهم في النهر ، وهجم العسكر على المخاض ، وحصلوا على الروم في أرض واحدة . وبهذا يتبين أن المخاض ليس بنهر قريب من المعرة قرب اتصال بل بينهما مسافة بعيدة .

ووصفها أبو العلاء في بعض رسائله ، فقال : اسمها طيرة ، وعند الله ترجى الخيرة ، المورد بها محتبس ، وظاهر ترابها في الصيف يبس ، ليس لها ماء جار ، ولا تغرس بها غرائب الأشجار ، إذا أبرز لأهلها ذبح يؤمل به لديهم الربح ، تحسبه صبغ بخطر ، فكأنما يرمق به هلال الفطر ، وقد يجيئها وقت يكون فيها جدي المعز في العزة كجدي الفرقد ، ومثل حمل الكواكب حمل النقد . ويبكر فقيرها على الهداية ، قبل أبي الفرخين

---

(١) شروح سقط الزند ق ٢ ، ص ٦٠٣ .

(٢) شروح سقط الزند ق ٢ ، ص ٦٠٣ ، ٦٠٤ .

ابن دابة ، حتى يقف ببائع الرسل ، فكأنما وقف برضوان يستوهبه ماء الحيوان ، فإن سبقه ضياء الفجر فإنه يرجع خائباً . . . »[1]

وهذا وصف حقيقي ، وإن خالف بعضه أهل زماننا . فليس في المعرة ماء جار على وجه الأرض ، ولكن فيها ينابيع ثرارة في باطن الأرض ، يستخرج ماؤها بالدواليب والدلاء وغيرهما . وقد زرع فيها غرائب الأشجار ، إلا أنها لا تدوم طويلا لسببين ، أحدهما : طبيعة الإقليم ، فإنه لا يعيش فيه الليمون والبرتقال وما أشبههما ، وكذلك لا يعيش فيه النخل وما شاكله وثانيهما : أن بعض أهلها اذا أراد أن ينتقم من خصمه قلع أشجاره . . أما اللحم فيكثر في زمن الربيع والصيف حتى يزيد عن حاجة أهلها ، وكان يقل في الشتاء لذهاب البدو إلى جهة الشرق وصعوبة الطرق وقلة الوسائط النقلية بين البلاد ، وكذلك اللبن والسمن وكل ما خرج من الضرع أو الزرع ، يكثر في أوانه ويقل في غيره . وأهلها يبكرون لأخذ ما يحتاجون إليه من الأسواق من طعام وغيره ، وربما لا يجد المتأخر منهم بعض حاجته ، ولكنهم يفعلون ذلك بعد الفجر لا قبله . هذه حالة المعرة في السنة التي هاجرت فيها منها إلى دمشق وهي سنة ١٣١٩ هجرية . أما الآن فإن فيها كثيرا من الأشجار المثمرة ، كالتفاح والخوخ والكمثرى والمشمش والكرز والفستق والزيتون والرمان ، وفيها أنواع من العنب والتين والبطيخ والخضراوات ، وقد تستطيع أن تستغني بما تنبته أرضها عن غيرها ، بل تصدر ما يزيد عن حاجتها إلى غيرها من البلدان ، ويكثر فيها الخضراوات الأعذاء[2] ، وثمرها أطيب من المسقوي . وقد وصفها الوزير أبو القاسم الحسين بن علي المعروف بالوزير المغربي الآتية ترجمته ، وقد كان زار المعرة

---

(١) أبو العلاء وما اليه - الميمني - ص ١٧ عن رسائل المعري ، اكسفورد ١٨٩٨ م . ص ٥٥ .

(٢) العذي يكسر اوله ويفتح : الزرع لا يسقيه إلا المطر .

قبل سنة ٤٠٠ هـ بأبيات ، نقل ابن العديم في (بغية الطلب) هذه الأبيات منها :

ما على ساكني المعرّةِ لو أنّ ... دياراً نبتْ بهم وَطُلُولا[1]
يَسْكنون العُلا مَعاقلَ شُمًّا ... ويَرَون الآدابَ ظلاً ظليلا
منزلٌ شاقني أنيسٌ وما كا ... ن رُسوماً نواحِلاً وطُلُولا
حيث يُدعى النسيم فظًّا ويُلفى ... سَبَلُ الغاديات شَكساً بخيلا[2]
أينما تلتفتْ تجدْ ظلّ طوبى ... وتجدْ كوثراً أغرَّ صقيلا
تُربُها طَيّبَ الشَّبابَ فما يصـ ... ـحبُ إلا السرورَ فيها خليلا
فترى اللهوَ إن أردتَ طليقاً ... والتُّقى إن أردته مغلولا
وإذا ما اعتزى بها الأدبُ العذ ... ريُّ جاءوا عِمارةً وقَبيلا
ليتَ لا يَعْنُفُ السَّحابُ عليها ... ليتَه جادَها عليلاً كليلا
وسلام على بنيها ولا زا ... لَ نعيمُ الحياةِ فيهم نَزيلا

وقال ابن جبير [3] في (رحلته) التي أنشأها سنة ٥٧٨ هـ : ورأينا عن يمين طريقنا ، بمقدار فرسخين ، بلاد المعرة ، وهي سواد كلها بشجر الزيتون والتين والفستق وأنواع الفواكه ، ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين ، وهي من أخصب بلاد الله وأكثرها أرزاقاً . . .

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٩١ عن بغية الطلب ـ لابن العديم .
(٢) السبل ، بالتحريك : المطر . والشكس ، ككتف : البخيل وسكن للشعر .
(٣) رحلة ابن جبير طبعة ليدن ص ٢٥٤ .

المعرة مركز للبريد في القديم

وذكر في صبح الأعشى (ج ١٤ ص ٣٨١) ، أن المعرة من مراكز البريد ، وفيها برج مقرر للحمام الرسائلي . والطلّسم الذي ذكره ناصر خسرو ، قال صاحب (الذكرى) [١] : إنه لم ير من ذكره من مؤرخي العرب . وأنا أقول : قد ذكره جماعة منهم ابو الفضل محمد بن الشحنة في تاريخه المسمى (الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب) ، حيث قال ص ١٢٩ : وبمعرة النعمان عمود فيه طلّسم للبق [٢] . وذكر عن أهل المعرة أن الرجل كان يخرج يده وهو على سور المعرة الى خارج السور فيسقط عليها البق ، فاذا أعادها زال عنها . وأخبرني رجل من أهلها ، قال : رأيت أسفل داري عمودا ، ففتحت موضعه لأستخرجه ، فانخرق إلى مغارة ، فأنزلت إليها انسانا ظنّا مني أنها مطلب فوجدناها مغارة كبيرة ولم نجد فيها شيئاً ، ورأيت في الحائط صورة بقة ، فمن ذلك اليوم كثر البق في المعرة . وذكر أهل المعرة أن حيّاتها لا تؤذي إذا لدغت كما يؤذي غيرها .

ومنهم ابن العـديم ، قال : سمعت إبراهيم بن أبي الفهم رئيس المعرة يقول : إن العمود القائم في مدينة المعرة هو طلّسم الحيات ، وهو قائم مستقر على قاعدة بزبرة حديد في وسطه ، يميله الإنسان فيميل ، وكذلك تعمل فيه الريح القوية ، وإذا مال يضع الناس تحته الجوز واللوز فينكسر . اهـ .

وأمر هـذا الطلسم غريب ، وتناقض الأقوال فيه أغرب ، فقد جعله ناصر خسرو سارية بالقرب من باب السور وطلسما للعقارب ، وفي كلام ابن الشحنة : أنه عمود قريب من السور وهو طلسم للبق ، وفي

---

(١) ذكرى أبي العلاء ــ لطه حسين ط ٢ ص ١٢٣

(٢) البقة : البعوضة ودويبة مفرطحة حمراء منتنة .

قول ابن العديم : أنه عمود يميله الإنسان والريح وهو طلسم للحيات ، وصاحب (نهر الذهب) جعلها عمودين ، أحدهما للبق والثاني للحيّات . ولعل هذا العمود من المزاعم الموروثة عند أهل ذلك العصر ، أما في عصرنا الحاضر فإن العقارب والحيات في المعرة أكثر من الحصى عند جمرة العقبه [١] ، وهي تفتك في الناس فتكاً ذريعاً ، وكثيراً ما أودت بحياة لديغها ، وكذلك البق ينتشر في الصيف انتشاراً عظيماً ، فينقل جراثيم الملاريا ، وقلّ من يسلم من أهلها من شره ولعل هذا الطلسم انعكس أمره في أيامنا ، أو أن العقارب والأفاعي تألبتا على الطلّسم ، فكانت لهما الدولة والغلبة عليه ، أو أن طبيعة الإقليم تبدلت بكثرة ما تعاقب عليه من الحوادث والكوارث .

اتهام أهلها بالبخل

ونقل صاحب (الذكرى) [٢] عن القفطي [٣] والذهبي [٤] أن أهل المعرة كانوا بخلاء في عهد أبي العلاء ، فكان يضيق ذرعا لكثرة الوافدين عليه وقلة ما يملكه . وأن مرجليوث استبعد ذلك وقال : إن بلدا يخصص أهله عطاء غير قليل للبحتري حين كتب إليهم بذلك أبو تمام لا ينتظر أن

---

(١) جمرات المناسك ثلاث : الجمرة الاولى والجمرة الوسطى وجمرة العقبة .

(٢) ذكرى أبي العلاء — لطه حسين ط ٢ ص ١٢٢

(٣) هو أبو الحسن علي بن يوسف بن ابراهيم الشيباني القفطي ، نسبة الى قفط بلد بالصعيد الأعلى من مصر ولد سنة ٥٦٨ هـ وتوفي سنة ٦٤٦ هـ ، وولي القضاء والوزارة في حلب ، وله كتب كثيرة ، منها (تاريخ مصر) و (إنباه الرواة على أنباه النحاة) وقد سماه بعضهم (أخبار النحويين) ، وآخرون (تاريخ النحويين) . وغيره . (ج)

(٤) هو أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز المتوفى سنة ٧٤٨ هـ له تصانيف كثيرة منها (تاريخ الاسلام) و (طبقات المشاهير والأعلام) ابتدأ فيه من الهجرة النبوية وانتهى إلى سنة (٧٠٠ هـ) وقسمه إلى سبعين طبقة ، وجعل من كل عشر سنين طبقة مرتبة على الحروف ، وله (تذكرة الحفاظ) ، و (ميزان الاعتدال) و (المشتبه) و (دول الاسلام) وغيرها . (ج)

يكونوا بخلاء . ولم يستبعد ذلك صاحب (الذكرى) واحتج لوقوعه بأن الحال قد تتحول ، وأن المصائب التي اختلفت على أهل المعرة بسبب اختلاف الحمدانية والعبيدية والمرداسية والروم على حلب أيام أبي العلاء حرية أن ترد الكريم بخيلا . وتابعه على ذلك الأستاذ الميمني . وهذا قول من لم يعرف حقيقة أبي العلاء وحقيقة أهل بلده ، فإن أبا العلاء ما كان ليضيق ذرعا بالإنفاق على الوافدين من بخله ، وإنما كان يحب الإنفاق ولا يكفيه ما له من المال والغلة ، ويأبى أن يأخذ من أحد شيئاً فيضيق صدره لذلك ، أي لأن ماله لا يساعده على كل ما يريده من الإنفاق. ولو كان يضيق من الإنفاق بسبب بخله لما أقدم على أمور هو في غنى عنها وليس ثمة ما يجبره عليها . فقد أنفق على أبي زكريا التبريزي مدة مقامه عنده ، وكان يجري رزقا على جماعة ممن كان يقرأ عليه ويعطي الفقراء والمُعْتَرّين كما سيأتي إيضاح ذلك . ولو كان بخيلا لكان محباً للمال ، لأن حب المال والحرص على جمعه من لوازم البخل ، وأبو العلاء كان على خلاف ذلك فقد بذل له المستنصر ما في بيت المال بالمعرة فأباه وكتب داعي الدعاة إلى تاج الأمراء أن يجري على أبي العلاء كل ما يحتاج إليه فأبى ، وكتب الوزير الفلاحي إلى عزيز الدولة أن يحمل أبا العلاء إلى مصر ويسمح له بخراج المعرة فأبى ذلك ، ولو كان بخيلاً أو محباً للمال لكان شأنه غير ذلك . وأما أهل المعرة فالمعروف عنهم في عهد أبي العلاء وبعده أنهم غير بخلاء ، يدلك على ذلك ما ذكره ابن خلكان وغيره من أن أبا تمام كتب إلى أهل المعرة كتابا يشهد فيه بحذق البحتري ، فلما صار إليهم البحتري أكرموه ووظفوا له أربعة آلاف درهم . وذكر الصفدي في (نكت الهميان[1]) وغيره : أن محمود بن صالح صاحب حلب أرسل خمسين فارساً ليحملوا أبا العلاء إليه ، فلما أتوا المعرة أنزلهم أبو العلاء دار

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٩٣ عن نكت الهميان ـ للصفدي .

الضيافة . . ولم يحدثنا التاريخ أن لأبي العلاء داراً للضيافة . فلا شك في أنها لرجل من أهل المعرة من أقربائه أو من غيرهم ، ولو كانوا بخلاء لأحجموا عن مثل ذلك .

ومن عادة أهل المعرة في عهدنا أن الرجل إذا نزل به ضيوف ولم يكن موسرا بحيث يستطيع أن يقدم لهم من القِرى ما يقدمه أمثاله ، سارع الناس من أصحابه أو أقاربه إلى مساعدته من حيث لا يشعر ضيوفه بذلك . وقد علمت رجلا من أعيان المدينة ضافه جماعة كثيرون من وجوه إدلب وأريحا ، وكان لا يملك شروى نقير ، فأمده رجل آخر من الأعيان بكل ما يحتاج إليه للقرى . وكانت بينهما في ذلك الوقت عداوة عظيمة وخصومة شديدة . وأظن أن هذا الخُلُقَ موروث عن الأقدمين ، يدل على ذلك دار الضيافة التي أنزل أبو العلاء بها الحَمسين فارساً ، ولدينا أدلة كثيرة تدل على أن أهل المعرة بريئون من البخل في القديم والحديث ولكن سردها يخرجنا عن الغرض المقصود من هذه الرسالة . ويقربنا من تهمة التعصب لهم لأنهم أهل بلدتي وأبناء جلدتي . .

وصف المعرة الآن

رأيت كثيراً ممن كتب في المعرة لم ينج من غلط في رأيه ، أو خطأ في قوله ، لأن معظمهم نقلوا ما يكتبونه عن العامة أو عن أناس لم ينقبوا عن الحقيقة ، ولم يأخذوا عمن يوثق به .

منهم الأستاذ صاحب (ذكرى أبي العلاء) [1] نقل عن غيره أن قلعة المعرة متخربة من عهد الصليبيين ، وأنها تعرف بقاعة النعمان . . . ومنهم الأستاذ الميمني [2] نقل عن غيره أيضاً أن من مبانيها الخان الذي

(١) ذكرى أبي العلاء - لطه حسين ط ٢ ، ص ١٢٤

(٢) أبو العلاء وما إليه - عبد العزيز الميمني ص ١٩

شيده مراد المعروف بالجلبي منذ نيف وثلثمائة سنة ، وبإزائه خان آخر بناه سنان باشا ، وقلعة متخربة من عهد الصليبيين تعرف بقلعة النعمان ...

ومنهم صاحب (نهر الذهب) ، زعم أن في المعرة جامعاً فيه غار يشتمل على قبر عطا الله بن أبي رباح حامل لواء النبي (ﷺ) .. وأن القلعة كانت في وسط البلدة ، وذكر في أبوابها ما تزعمه العامة .

وقد تابعه علي ذلك أصحاب مجلة (العاديات) التي تصدر في حلب في العدد الأول من السنة الثانية سنة ١٣٥٠ ﻫ وزعموا أن القلعة من عهد الملك الظاهر ....

وإذا كان لبعض هؤلاء عذر لأنهم كتبوا ما سمعوا ، فليس لهم عذر في الأخذ عمن لا يوثق بنقله ، ولا في عدم البحث والتنقيب عن الحقيقة .

ونحن نصفها الآن على وفق ما رأينا أو نقلنا عن الثقات أو المآخذ الرسمية ، ونتصدى لأكثر ما وقع فيه الخطأ سواء أكان ذلك في الأماكن أم غيرها لإيضاح الحقيقة فقط .

فالمعرة الآن أي في سنة ١٣٦٣ هجرية و سنة ١٩٤٤ ميلادية فما بعد ذلك مدينة بين حلب وحماة ، بينها وبين حلب ثمانون كيلو متراً ، وبينها وبين حماة ثمانية وخمسون كيلو متراً بحسب قيد وزارة النافعة في الدولة السورية سنة ١٣٥٤ و سنة ١٩٣٥ ، ويمر طريق السيارات من طرفها الشرقي ، وهذا الطريق حدث مجدداً ، وهو شرقي الطريق القديم الذي كان يذهب من المعرة إلى حماة وقد حولته الحكومة الى شرقي المدينة وهو الآن يبلغ نحو ٦٣ كيلو متراً وطولها إحدى وستون درجة وأربعون دقيقة وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة كما في تقويم البلدان . وارتفاعها عن سطح البحر نحو خمسة وستين وثلثمائة م... لى ما قاله صاحب (الذكرى)[1] هو غير سديد والصواب :

---

(١) ذكرى أبي العلاء – لطه حسين ، ط ٢ ، ص ١٢٤

أن ارتفاعها نحو اربعمائة وستة وتسعين متراً على حسب قيد وزارة النافعة السورية .

وهي مركز قضاء تابع لحلب يبلغ عدد نفوسه كله نحو [٢٨٥٣٠] وعدد نفوس المدينة منه نحو ستة آلاف وسبعمائة . وقد أخذت هـذا الإحصاء من قيود الحكومة سنة ١٣٥٢ هـ وربما زاد بعد ذلك لأن المكتومة أسماؤهم كثيرون . وفيها حاكم إداري [قائم مقام] ، وحاكم صلح يقوم بأعمال القاضي الشرعي .

ودار للحكومة شرقي المدينة والخان ، بنيت نحو سنة ١٣٤٣هـ ، ومكتبان ابتدائيان ، أحدهما للذكور وعدد الطلاب فيه [٣١٢] والثاني للإناث وعـدد الطالبات فيه [١١٨] ، ولم تعن الحكومة بها ولذلك كانت فائدتها قليلة .

وفيها كتاتيب يعلم فيها على الغالب جماعة من البصراء القرآن والقراءة ولا نبالغ إذا قلنا : إن التعليم الحقيقي مفقود فيها وفي قراها وإن النهضة الثقافية فيها لم تختلف عما كانت عليه في العهد التركي ، وفي قرى المعرة أربعة كتاتيب يبلغ عدد الطلاب فيها نحو ٤٠٥ وهذا بحسب إحصاء الحكومة سنة ١٣٦٠ هـ سنة ١٩٤١ م والعناية بها أقل منها في مكاتب المعرة .

وقد كان في المعرة مدارس ولم يبق منها إلا مدرسة بناها ابن نجا ابن عز الدين بن علي بن معافا سنة ٥٧٥ هـ في أيام محمد ابن أبي ايوب ، ويزعم الناس أنها من بناء نور الدين الشهيد ، وأطلال مدرسة أخرى بناها الشيخ عمر بن الوردي المعري في النصف الأول من المائة الثامنة . وفيها زوايا بقي منها إلى الآن زاوية بني الكيال والداودية وزاوية العجمي ، وقد تقام الصلاة في بعضها .

وفيها مساجد كثيرة أكبرها وأشهرها الجامع الكبير العمري ، وفيه أنماط مختلفة من البناء في عصور متعددة ، وفي ساحته قبة قائمة على ثمانية

أعمدة من حجر تشبه القبب التي كانت في عهد عمر بن الخطاب ، ويليها قبة أكبر منها يسيل إليها الماء قائمة على أعمدة من حجر يتوضأ الناس منها .

وقد ذكر المؤرخون أن أبا عبيدة صالح أهل المعرة على أن تكون كنيستهم العظمى جامعاً . وذكروا أن ملك الروم أحرق هذا الجامع سنة ٣٥٧ هـ ، وأن الفرنج أحرقوه سنة ٤٩٢ هـ . والظاهر أنه بقي منه شيء من آثار عهد عمر وشيء من آثار الكنيسة . وأكثر البناء القائم يشهد على نفسه بأنه حدث بعد عمر ، ولا شك أن المسلمين أضافوا إلى الكنيسة أكثر منها .

وفي هذا المسجد منارة من أجمل الآثار العمرانية التي خلفها ذلك الزمن في المعرة ، لتدل على ما بلغت إليه صناعة البناء من الإتقان والإبداع في المعرة في الأيام الخالية . وبناؤها إسلامي ، وقد وجدت نقوش كتابة عربية على أطرافها وفي أعلاها مثل : صفة قاهر بن علي بن قانت رحمه الله . الحمد لله رب العالمين . ومثل : جدد هذه الشبكة العبد الفقير إلى الله تعالى الحاج خليل بن الحاج محمد النطار عفا الله عنه وعن المؤمنين . وقاهر هذا هو الذي بنى المدرسة التي بناها ابن نجا سنة ٥٧٥ هـ كما قدمنا ذلك ، ولم أعثر على تاريخ بنائها ، وأصحاب مجلة (العاديات) زعموا أنها منذ سنة ٤٢٧ هـ وأن على البرج الثالث منها هذه الجملة « محمد بن قانت بن قاهر بن علي » . وفيها كتابات غير ما ذكرنا لم نستطع قراءتها . والجامع بجملته ومنارته إسلامي عربي ، إلا ناحية في الجهة الشرقية منه تشبه أن تكون قبل ذلك .

وفيها مسجد يقال له مسجد الشيخ عطا قائم على نشز في الجهة الغربية زعم أصحاب مجلة (العاديات) أن فيه غاراً يشتمل على قبر عطا الله بن أبي رباح حامل لواء النبي . . وهذا الكلام مجموعة أغلاط ، لأن عطاء بن أبي رباح ولد في آخر خلافة عثمان وتوفي في مكة نحو سنة ١١٥ هـ كما

ذكر ذلك النووي في (تهذيب الأسماء واللغات) ص ٣٣٣ ، فهو لم يكن في عهد النبي ولم يحمل لواءه ، ولم يدفن في المعرة ، ولا قبر في غار ، وليس في هذا المسجد غار ، وهذا المسجد حادث بعد صدر الاسلام فقد كتب على منارته ما يدل على أنه بني بعد القرن الخامس .

وفي المعرة قلعة خربة يحيط بها خندق عميق ، وهي في شمالي المعرة الغربي ، وبينها مسافة بعيدة يفصل بينها مقابر وأرضون فيها آثار أبنية قديمة .

وهذه القلعة بناها الملك المظفر صاحب حماة ، أشار عليه ببنائها سيف الدين علي بن أبي علي الهذباني فبناها وتم بناؤها سنة ٦٣١ هـ ، وشحنها بالرجال والسلاح ، وكان بناؤها بلية على المدينة ، لأن الحلبيين حاصروها سنة ٦٣٥ هـ وأخذوها وخربت المعرة بسببها . ثم هدم التتر القلعة المذكورة سنة ٦٥٨ هـ حين استيلائهم على حلب وحماة ، فتكون مدة بقائها عامرة نحو سبع وعشرين سنة كما يظهر من كلام أبي الفداء وابن الوردي في تاريخيهما وذكر ابن العديم في (بغية الطلب) [١] ان الملك المظفر محمود بن ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه حين بنى القلعة نقل حجارتها من سيات مدينة خربة كانت قريباً منها ومن أبنية الروم التي في الكنائس المتهدمة في بلدها .

وبهذا يتبين أن ما ذكره الأستاذ طه حسين نقلا عن أستاذه إسماعيل بك رأفت ، والأستاذ الميمني نقلا عن مجلة المشرق ، لا نصيب له من الحقيقة . وقد أخبرني بعض شيوخ المعرة أن حجارة هذه القلعة أخذت وبني بها خان اسعد باشا المقابل لخان مراد جلبي الآتي ذكره .

وفي المعرة خان جميل البناء والوصف في شرقي المعرة إلى الشمال ، بناه حامي دفاتر الديوان السلطانية مراد جلبي سنة ٩٧٤ هـ ، كما هو منقوش على حجر فوق بابه ، وجعله وقفا على أبناء السبيل ، ويقال له خان التكية

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٨٧ عن بغية الطلب ـ لابن العديم ـ مع اختصار في النقل .

لأن في جانبه تكية وحماماً ، يقال : إن الغريب كان ينزل في الخان مجانا ، ويغتسل في الحمام مجانا ، ويأكل من التكية مجانا . ولكن الحمام في عهدنا يؤجر كغيره من أبنية الوقف ، والخان لا يزال الناس ينزلونه بغير أجر وأمامه خان آخر بناه أسعد باشا العظم المعري سنة ١١٦٦ هـ ، كما يظهر من الأبيات المنقوشة فوق الباب . وقد اتخذته الحكومة العثمانية ثكنة ثم الحكومة السورية . وقد رأيته سنة ١٣٥٧ هـ وقد أخرج الجند منه وصار سوقا تباع فيها الدواب ، وهو على وشك التداعي والانهيار .

وبهذا يتبين أن ما قاله الأستاذ الميمني [1] : « إن هذا الخان بناه سنان باشا » ، بعيد عن الصواب .

وكان الجامع الكبير الذي سبق ذكره يصعد إليه من أية ناحية أتيته بثلاث عشرة درجة في عصر أبي العلاء ، واليوم ينزل إليه من الباب الشمالي بخمس درجات ، ومن الباب الغربي بعشر درجات .

وهذا يدل على تغير المدينة بسبب الحروب والزلازل ، فكان أهل المدينة كلما خربت أو احترقت يبنون البناء الجديد على أنقاض القديم ، حتى ارتفع البناء عن المسجد بعشر درجات فأكثر ، بعد أن كان يصعد إليه بثلاث عشرة درجة ، وقد كشف في أيامنا على مقربة من الجامع من الجهة الشرقية الشمالية عن حمام خربة وحوانيت متهدمة ، سقفها أدنى من أرض المسجد ، وهذا يؤيد ما قاله ناصر خسرو . وما رأينا أحداً أراد أن يحفر أساساً لبناء إلا وقد عثر على آثار أبنية مردومة .

وكانت المعرة تنقسم إلى محلتين كبيرين يقال لإحداهما : المحلة أو الحارة الشمالية ، والثانية القبلية . وكل منها يقسم إلى محلات عديدة تسمى بأسماء مختلفة ، فلما أرادت الحكومة فتح شارع أبي العلاء أنشأت شارعا من شرقي المعرة يمر من أمام دار الحكومة ومن بين الخانين السابق ذكرهما

---

(١) أبو العلاء وما إليه - للميمني ص ١٩ .

ويمتد إلى غربي المدينة حيث يمر جنوبي مقبرة بني الجندي ويمر من شرقيها إلى أريحا فشطرت المدينة شطرين أحدهما شمالي والثاني جنوبي ، وفيه ضريح أبي العلاء . وأخذ الناس يشيدون أبنية على الطراز الحديث على جانبي الشارع . كما أقيم بناء دار الحكومة فيه ، وقد شرعت في هدم مسجد أبي العلاء ومدفنه في ٦ آب سنة ١٩٣٨ م . وبدأت إعادة بنائه في ٧ شوال سنة ١٣٥٨ هـ و ١٨ تشرين الثاني سنة ١٩٣٩ م وأرصدت له عشرة آلاف ليرة سورية ، وأحدثت طابعاً باسم أبي العلاء وباعته لهذه الغاية . ولم يتم بناؤه إلا بعد مدة . وفي سنة ١٣٦٧ هـ هدمت القسم الشمالي منه وبنت فيه غرفاً بجانب الباب اما المسجد القديم الذي كان فيه ضريح أبي العلاء فقد كان يشتمل على ساحة صغيرة وغرفة أمام الباب فيها قبر أبي العلاء وإلى جنوبيها غرفة كانت كُتّاباً يعلم فيه الصبيان . ومن شرقيها ساحة خربة فيها بئر ماء وشجرات من الرمان والتين ، وفي جنوبيها إلى الغرب غرفة كبيرة كان الناس يصلون فيها ، وفيها قبر عليه كتابة بالخط الكوفي لم نستطع أن نقرأ منها غير سورة الإخلاص ، ولا حاجة للإطالة في وصفه بعد ما هدم . ويكفي أن نعلم أن هذا المدفن كان من دور بني سليمان التنوخي أهل أبي العلاء ، أو في ساحة من دورهم . وإذا صح هـذا فهو أقدم بناء أبقته الأيام في المعرة ، ولذلك لم يكن هدمه من الحكمة ولا جرى على سنن الرشد ، ولو أبقي وأضيف إليه البناء الجديد لكان ذلك أقرب إلى السداد والعقل وأرضى للتاريخ والعلم .

ترجمة أبي العلاء

اسمه وكنيته ولقبه

سماه أبو أحمد ، وكناه بأبي العلاء منذ ولد ، وقد جرى في ذلك على عادة أهل بلده ، إذ قلما وجدنا نابهاً فيهم في ذلك العهد إلا وله كنية . والظاهر أنهم كانوا يكنون الأولاد منذ الحداثة أو قبل أن يولد لهم كما قال في اللزوم :

من عثرة القوم أن كنوا وليدَهُمُ أبا فلان ولم يُنسِلِ ولا بلغا[1]

ويبدو أن أبا العلاء كني بمقتضى هذه العادة وهو صغير كما سيتضح ذلك من حادثته مع الحلبيين الذين جاءوا ليختبروه ، على أنه صرح بهذا في قوله في الفصول والغايات ص ٢٠٩ ، حيث قال : « كُنيتُ وأنا وليد بالعلاء ، فكأنّ علاةً مات ، وبقيت العلامات . لا أختارُ لِرَجُلٍ صدْقٍ ما وُلدَ له أن يُدعى أبا فلان . ورب شجرة شاكة ثمرها غير عذب ، وليس ظلّها برحب ، اسمها السَّمُرة ، وكنيتها أمُّ غيلانَ » . ويظهر من كلامه أنه كان غير راض بهذا الاسم ولا بتلك الكنية لما يشعران به من المدح والتعظيم ، فقد قال في الأول :

وأحمد سمّاني كبيري ، وقلّما فعلتُ سوى ما أستحقُّ به الذمّا[2]

(١) اللزوميات هـ س ٢٨٨ .

(٢) اللزوميات هـ س ٢٣٨ .

وقال في الثانية :

دُعيتُ أبا العلاء وذاكَ مَينٌ ولكنَ الصَّحيحَ أبوالنزول[1]

وهذه شنشنة أبي العلاء في كرهه كل ما يشعر بتكريمه وتعظيمه . وقد كتب أبو الحسين أحمــد بن عثمان النكتي البصري كتاباً إلى أبي العلاء ، وجعل فيه اسمه محمداً ، وكنيته أبا العلى بالقصر في نظمه ونثره [2] ، فتوهم أبو العلاء أن في هذا التغيير والقصر تعمداً يراد منه تحقيره ، فأنكر عليه ذلك ، وانهال عليه بضروب من الاستخفاف ، وأعقبها بشيء من الاعتذار كما سيأتي .

لقبه

لم أر أحدا من المتقدمين ذكر لأبي العلاء لقبا ، كما أني لم أر ذلك كثيراً فيمن كان من العلماء في المعرة في ذلك العهد ، ولعل العناية بالكنى كانت أشد من العناية بالألقاب في ذلك العصر والمصر .

ولما عاد أبو العلاء من بغداد [3] ، وعزم على لزوم منزله ، لقّب نفسه رَهْن المحبِسَين [4] ، للزومه منزله ، وذهاب عينيه ، ثم لمّا أمعن

---

(١) اللزوميات هـ س ٢١٩ .

(٢) اعتذر الأستاذ الميمني عن هذا الرجل بأن صنيعه هذا كان في الشعر . . وهو غير صحيح لأن أبا العلاء صرح في جوابه بقوله : ولو كان غيّر اسمي في النظم دون النثر لكان عذره منبسطاً . فقوله هذا وتتمته يدلان دلالة صريحة على أن التغيير والقصر ليسا في النظم وحده . (ج) .

(٣) ابن العديم . (ج) .

(٤) في معاهد التنصيص رهن المحبسين يعني حبس نفسه في منزله وحبس بصره بالعمى ورهن : مرهون . ملزم ثابت دائم والحَبْس والمحبس : الموضع . (ج) .

في البحث عن أسرار الحياة ، وأنفذ أشعة عقله إلى أعماقها ، رأى أنه في ثلاثة سجون لا في محبسين ، وذلك قوله :(١)

أراني في الثلاثة من سُجوني ... فلا تَسأل عن الخبرِ النَّبيث
لفقْدي ناظري ولزوم بيتي ... وكونْ النفس في الجسد الخبيث

وقد كنّي بأبي العلاء جماعة من أهل المعرة ، منهم : أبو العلاء بن عبد الله بن المحسن ، وأبو العلاء بن أبي الندى ، وأبو العلاء أحمد بن أبي اليسر شاكر ، وأبو العلاء المحسن بن الحسين بن محمد بن أحمد بن جعفر ، وأبو العلاء سعد بن حماد .

والظاهر أنهم كنّوا أولادهم بهذه الكنية ، تيمناً بأن يكونوا مثل أبي العلاء هذا ، والأخير روى (ملقى السبيل) عن أبي العلاء .

نسبه من قبل أبيه

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان [الثالث] بن محمد بن سليمان [الثاني] ابن أحمد بن سليمان [الأول] بن داود بن المطهر بن زياد بن ربيعة بن الحرث بن ربيعة بن أنور بن أسحم بن أرقم بن النعمان ـ وهو ساطع الجمال ـ بن عدي بن غطفان بن عمرو بن بَريح بن جذيمة بن تيم الله ابن أسد بن وَبَرَة بن تغلب بن حُلوان بن حِمْيَر بن سَبَأ بن يَشْجُب ابن يَعْرُب بن قحطان ، وهو مجمع قبائل اليمن .

وقد اختلفت كلمة العلماء في هذا النسب على وجوه كثيرة ، فمنهم من جعل سليمان واحداً ، ومنهم من جعل أرقم ابن أنور بن أسحم ، ومنهم من جعل خزيمة بدلاً من جذيمة ، ومنهم من جعل مالك ابن مرة ،

(١) اللزوميات ﻫ ، س ٧٢ . يقال نبث التراب : أي استخرجه من بئر أو نهر فهو نبيث . وخبيث نبيث : ينبث شره أي يستخرجه (ج) .

ومنهم . . ومنهم . . . وقد آثرنا رواية صاحب الوفيات[1] ، لأنها موافقة لرواية ابن العديم[2] إلا في جعل أسحم ابن أرقم . وهما أكثر من كل من كتب في هذا الموضوع تحرياً وتثبتاً ، وروايتهما موافقة لرواية السمعاني والعيني في الأكثر .

وكذلك اختلفت كلمتهم في تَنُوخ ، فقيل : إنها مشتقة من تَنَخ في المكان تنوخا أي أقام ، وقيل : إن تنوخ قبيلة . وقيل قبائل . وإنما سُموا بذلك ، لأنهم اجتمعوا وتحالفوا على التناصر وأقاموا في مكان ، والتنوخ : الإقامة .

واختُلف في هذه القبائل ، فقيل : إنهم ثلاثة أبطن من القحطانية نزار والأحلاف ، وقيل غير ذلك .

واختلف في المكان ، فقيل : في الشام ، وقيل في البحرين ، وقيل في الحيرة .

واختلف في قضاعة ، فقيل : إنها من معد بن عدنان ، وقيل من قحطان . وجعل بعضهم قحطان من ولد إسماعيل .

وتحصيل الحقيقة من بين هذه الأقوال المتضاربة أصعب من عقد الشعَيْرة ، ولسنا في حاجة إلى الإطالة في تحقيقها ، وحسبنا الآن أن نعلم أن قبائل من قضـاعة تنخوا على مالك بن زهير بن عمرو بن فهم بن تيم الله ، ونزلوا معه الحيرة ، فاختطوها وعمروها ، وكانوا أولي قوة وبأس ، فغزاهم سابور الأكبر ، حتى ضعفوا عن مقاومته ، فسار معظمهم إلى الضيزن بن معاوية ، وهو صاحب الحضر ، والحضر حصن عظيم بين دجلة والفرات ، والضيزن من الذين تنخوا بالسواد . وقد قتله سابور واستباح الحضر ،

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٨٢ عن الوفيات — لابن خلكان .
(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٨٦ عن الانصاف والتحري — لابن العديم .

وقتل كثيراً من قضاعة ، ثم إن تنوخ ملكوا ما جاورهم من البلاد ، واشتدت شوكتهم ، فملّكوا عليهم الساطع وهو النعمان بن عدي ، وإنما سمي ساطعاً لجماله وبهائه ، فملك عليهم برهة ، وكانت له حروب مع الفرس .

ولما هلك الساطع تفرقت كلمة تنوخ وتنازعوا الرياسة من بعده . ثم إن ملك الفرس غزا الروم فقتل وسبى منهم كثيراً ، فاستنجد ملك الروم تنوخَ على الفرس ، لأنهم أقرب القبائل اليه ، فأنجدوه وقاتلوا معه قتالاً شديداً ، ثم سألوه أن يتولوا حرب الفرس منفردين ، فأجابهم إلى ذلك ، فقاتلوا الفرس وظفروا بهم ، فأعجب بهم ملك الروم ، وفرق فيهم الدنانير والثياب ، وقربهم وأقطعهم سورية وما جاورها من البلاد إلى الجزيرة ، وسورية مدينة بقرب الأحصّ[1] على جانب البوّبة ، وإليها ينسب اللسان السورياني .

ونزل جماعة منهم المعرة ، فلما جاء الإسلام ، نزلوا قنسرين ومنبج وسورية وحماة ومعرة النعمان و كفرطاب وغيرها ، وتغلبوا عليها ، وامتنعوا عن أداء ما يقع عليه اسم الجزية ، وقبل عمر بن الخطاب أن يأخذها على اسم الخراج ، ثم أسلم بعضهم بعد بعض وأقاموا بديارهم ، وكان منهم أجداد أبي العلاء ، وأجداد بني الفصيص ولاة قنسرين . وبيوت المعرة منهم ، وهم يرجعون الى أسحم وعدي وغنم أولاد الساطع . فبنو سليمان جد أبي العلاء ، وبنو أبي حصين ، وبنو عمرو ، ينسبون إلى أسحم . وبنو المهذب ، وبنو زريق ، ينسبون إلى عدي . وبنو حواري ، وبنو جهير ينسبون إلى غنم .

مزايا تنوخ

قد اتضح مما سبق أمرهم في الجاهلية وفي صدر الاسلام ، وقد قال

(١) الأحصّ وشبيب : موضعان بحلب (عن القاموس) .

ابن العديم [١] : تنوخ من أكثر العرب مناقب وحسباً ، ومن أعظمها مفاخر وأدبا ، وفيهم الخطباء والفصحاء والبلغاء والشعراء ... وبنو الساطع هم المشهورون بالشرف والسؤدد والرياسة والشجاعة والجود والفضل . . . وأكثر قضاة المعرة وفضلائها وعلمائها وشعرائها وأدبائها من بني سليمان بن داود بن المطهر . وقد ظلت القضيا فيهم نحو مائتي سنة ، وكانوا على مذهب الإمام أبي حنيفة ، كما قال ابن العديم في ترجمة سالم بن عبد الجبار [٢] وقد ذكرناها في (تاريخ المعرة) .

وقد ولي قضاء المعرة وحمص جماعة منهم . منهم : أبو الحسن سليمان [٣] [الثاني] بن أحمد بن سليمان بن داود بن المطهر ، وهو أول من تولى منهم قضاء المعرة ، وليه سنة ٢٩٠ ﻫ إلى أن مات ، فوليه بعده ابنه أبو بكر محمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان . وقيل هذا الذي تولى سنة ٢٩٠ ﻫ وتوفي سنة ٣٣١ ﻫ ومدحه أبو بكر الصنوبري [٤] بأبيات منها قوله :

بأبي يا بن سليمـــا ... نَ لقد سُدتَ تنوخا
وهم الســادةُ شُبَّا ... نًا لعمري وشُيوخا

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٨٩ عن الانصاف والتحري ـ لابن العديم .
(٢) بغية الطلب ـ لابن العديم ٩/١٩٠ وجه المخطوطة .
(٣) جعل ياقوت في (معجم الأدباء) عبد الله أبا أبي العلاء ابن سليمان بن داود .
وجعل مرة ثانية سليمان بن أحمد بن سليمان جد أبي العلاء .
وجعل أبا بكر محمد بن سليمان عم أبي العلاء .
وتبعه في ذلك صاحب (ذكرى أبي العلاء) وهو خطأ ، والصواب أن سليمان بن داود جد سليمان الثاني بن أحمد ، وسليمان الثاني جد سليمان الثالث بن محمد وهذا هو جد أبي العلاء .
وأن أبا بكر محمد بن سليمان جد عبد الله والد أبي العلاء (ج) .
(٤) هو أحمد بن محمد الحلبي الصنوبري ، شاعر رقيق الشعر ، توفي سنة ٣٣٤ ﻫ ، وقد ذكر في (فوات الوفيات) طائفة من شعره (ج) .

أدْرَكَ البُغْيةَ مَن أضـــحى بناديكَ مُنيخا

ثم وليه أبو الحسن سليمان بن محمد بن سليمان ، بعد موت أبيه أبي بكر ، ثم ولي بعد ذلك قضاء حمص وتوفي فيها ، وهو على قضائها سنة ٣٧٧ هـ ، ودفن ظاهر باب الرستن ، وقد كانت ولادته سنة ٣٠٥ هـ .

ومنهم أبو محمد عبد الله بن سليمان بن محمد . والد أبي العلاء ، ولد في المعرة سنة ٣٢٠ هـ ، وولي قضاء حمص ، وتوفي فيها سنة ٣٧٧ هـ ، على قول ياقوت[1] ، و سنة ٣٩٥ هـ على قول ابن العديم[2] في المعرة .

ومنهم عبد الله بن محمد أخي أبي العلاء ، ولي قضاء المعرة سنة ٤٤٣ هـ على كره من عمه أبي العلاء ، ووليه بعده ابنه ابو مسلم وادع ، ثم أخو وادع محمد الملقب بمجد القضاة .

ومنهم علي بن محمد أخي أبي العلاء ، ولي قضاء المعرة وحماة .

هؤلاء كلهم من بني سليمان الأول جد أبي العلاء ، ولهم أولاد وأعقاب تولوا القضاء بعد عصر أبي العلاء .

وولي القضاء منهم ومن أبناء عمهم جماعة منهم : القاضي أبو يعلى عبد الباقي بن أبي حصين ، ولي قضاء المعرة وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وكان عالما شاعرا . وأبو المحاسن المفضل بن محمد بن مسعر المتوفى سنة ٤٤٣ هـ . وأبو غانم ، عبد الرزاق بن أبي حصين ولد سنة ٤١٨ هـ ، وتوفي سنة ٤٩١ هـ أو أكثر ، وكان شاعرا مجيدا .

وأبو حمزة الحسن بن عبد الله بن محمد بن عمرو بن سعيد بن محمد ابن داود بن المطهر المتوفى قبل الأربعمائة ، وهو الذي رثاه أبو العلاء بقصيدته الدالية .

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٦٩ عن إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ـ لياقوت .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٩٣ عن الانصاف والتحري ـ لابن العديم .

وأبو سعيد الحسن بن إسحاق بن بلبل .

وأبو محمد عبد الله بن أخي أبي العلاء ، الذي كان يتعهد عمه .

وأمثالهم وهم كثيرون ، منهم من ولي القضاء في معرة النعمان . وفي معرة مصرين ، وحماة ، وحمص ، وبعلبك ، ودمياط ، وغيرها . وقد اقتصرنا على هذا القدر خشية الإطالة . واستوفينا ذكر من وقفنا عليه منهم في (تاريخ المعرة) .

ومنهم من تولى غير القضاء ، كأبي القاسم علي بن الحسن بن جَلَبات التنوخي ، فإن عضد الدولة بن بويه استعمله على بغداد وورد أمورها إليه ، ومنهم . ومنهم . .

وأما الشعراء منهم ، فأكثر من أن يحصوا ، وأظن أن الثمانين شاعراً الذين وقفوا على قبر أبي العلاء ورثوه كلهم تنوخيون . وقد جاء من أعقابهم وأبنائهم عدد كبير من العلماء والشعراء والكتاب والقراء إلى ما بعد القرن الثامن .

نسبه من قبل أمه

لم نقف على تفصيل لأسرة أمه في كلام المتقدمين ، إلا ما قاله ابن العديم[1] : وهو أن أمه بنت محمد بن سبيكة ، وأظن أن أباها من أهل حلب ، وخاله علي بن محمد بن سبيكة الذي يقول فيه [من قصيدة في سقط الزند] :

أرانا يا علي وإن أقمنا نشاطرك الصبابة والسُّهادا[2]

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥١١ عن الانصاف والتحري — لابن العديم .

(٢) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٧٧١ .

ويقول أيضا :

كأن بني سَبيكَةَ فوقَ طيْرٍ يَجُوبون الغَوائرَ والنِّجادا [1]

وأما المتأخرون فقد استنتجوا من كلام المعري نتائج غريبة .

منهم صاحب (ذكرى أبي العلاء) ، قال [2] : إن شعر المعري ونثره يمثلان من هذه الأسرة ثلاث خصال ، الأولى : كثرة الرحلة . واستدل على ذلك بما في بعض رسائله ، وبما في قصيدته التي بعث بها إلى أحد أخواله ، وقد عاد من سفره إلى المغرب . الثانية : الكرم والحرص على صلة الرحم . وقد استنتج ذلك من رثاء أبي العلاء لأمه ، ومن شكره لخاله . غير مرة على معونته إياه ، وذهب إلى أبعد من ذلك فجعل سفره إلى بغداد ومقامه بها ورجوعه منها من نوافل خاله . الثالثة : حب العلم والنبوغ فيه . واستظهر ذلك من المكاتبة التي اتصلت بين المعري وبين خاله أبي طاهر في بغداد ، ومن لفظ الرسائل التي كتبها إلى أخواله . واستنتج من هذه الرسائل ، أن أبا العلاء يرى لهم التفوق وإتقان العلم ، وأنهم أصحاب ثروة ويسار ، وزاد على هذا كله قوله : ولا بد لنا من أن نلاحظ أن رسائل أبي العلاء ولزومياته وديوانه المعروف بسقط الزند ، تخلو كلها من ذكر أسرته لأبيه ، إلا ما كان من رثاء والده ، بينما تستغرق أسرته لأمه ، من ديوانه ورسائله ، مقداراً غير يسير ، فلا شك في أن أيادي أمه وأخواله كانت متظاهرة عليه ، وأن معونة أسرته لأبيه كانت منقطعة عنه لفقر أو جفاء . اهـ .

وجرى قريبا من هذا الأستاذ الميمني في (أبي العلاء وما إليه) [3] .

---

(١) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٧٨٢ .

(٢) ذكرى أبي العلاء — لطه حسين — ط ٢ ، ص ١٣٢ .

(٣) انظر أبو العلاء وما إليه — للميمني — ص ٣٧ .

والحق أن مثل ذلك لا يصح استنتاجه من قول المعري في خاله : [١]

كأن بني سبيكةَ فوق طيرٍ يجوبون الغَوائرَ والنِّجـادا
أبالإسكندرِ الملكِ اقتدَيتم فما تضعون في بلدٍ وِسادا

حتى يعضده مستند تاريخي ولم نره . لأن هذه القصيدة طافحة بالغلو والمبالغة مثل قوله : [٢]

إذا سارَتكَ شُهبُ الليل قالت أعان اللهُ أبعَـدَنا مُرادا
وانْ جارَتكَ هُوجُ الريح كانت أكَلَّ ركائبـاً وأقَلَّ زادا

وقوله [٣] :

ويبكي رِقّةً لكَ كلُّ نَوْءٍ فتملأ مِنْ مدامِعه المزادا

ويجوز أن يكون خاله علي سافر مرة إلى مصر ، وأخرى إلى المغرب ، ولم يسافر إلى غيرهما ، فأراد أبو العلاء أن يبالغ ، جريا على أسلوبه في هذه القصيدة ، فأوهم كثرة الرحل ، كما يجوز أن يكون هذا خاصا بخاله علي دون غيره ، ولا يميط اللثـام عن وجه الحقيقة إلا النص التاريخي ، وهـذا لم نعثر عليه ، ولذلك لا يصح أن تكون كثرة الرحل خصلة عامة في الأسرة كلها .

وأما الاستدلال بشكر أبي العلاء لخاله على معونته إياه ، وأن سفره إلى بغداد إلى رجوعه من نوافل خاله فأمر غريب ، وأغرب منه قوله [٤] : إن رسائل المعري ودواوينه خالية من ذكر أسرته لأبيه . واستنتاجه من

---

(١) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٧٨٣ .
(٢) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٧٧٣ . وسارتك : أى تكلفت معارضتك في سرى الليل ، وهي صيغة المفاعلة من السُّرى .
(٣) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٧٧٦ .
(٤) انظر صفحة ٥٧ الحاشية ٢ .

ذلك أن أيادي أخواله كانت متتابعة عليه ، بخلاف أسرة أبيه فإنها كانت منقطعة . .

وإذا تأملت ، وجدت هذا كله غير صحيح لأسباب كثيرة :

منها : أن رسائل المعري وشعره لم يصلا إلينا وافرَيْن كليهما ، وما وصل منها ، فالذي يتعلق بأسرة أبيه أكثر مما يتعلق بأسرة أمه ، لاننا لا نجد في شعره إلا قصيدته الدالية التي أرسلها إلى خاله عليٍّ ، في حين أن في شعره قصيدة رثى بها جعفر بن علي بن المهذب التنوخي . مطلعها :(١)

أَحسَنُ بالواجدِ مِنْ وَجْدِهِ صَبْرٌ يُعيدُ النارَ في زَنْدِهِ

وأخرى رثى بها أبا حمزة الحسن بن عبد الله التنوخي أحد بني عمه مطلعها : (٢)

غيرُ مُجْدٍ في مِلّتي واعتقادي نَوْحُ باكٍ ولا تَرَنُّمُ شادِ

وهاتان القصيدتان من أفضل ما قيل في الرثاء ، ورثى أباه بقصيدة مطلعها : (٣)

نَقَمْتُ الرِّضى حتى على ضاحِكِ المُزْنِ فلا جادَني إلا عَبوسٌ من الدَّجْنِ

وله قصيدة مدح بها أبا الرضي الفصيصي التنوخي مطلعها : (٤)

ياساهِرَ البرْقِ أيقظْ راقدَ السَّمُرِ لَعَلَّ بالجزْعِ أعواناً على السَّهَرِ

ومدح أبا القاسم علي بن الحسن بن جَلَبات التنوخي بقصيدة مطلعها : (٥)

يَرومُكَ والجوزاءُ دونَ مَرامِهِ عدوٌّ يَعيبُ البدرَ عندَ تمامِهِ

---

(١) شروح سقط الزند ، ق ٣ ص ١٠٠٦ .
(٢) شروح سقط الزند ، ق ٣ ص ٩٧١ .
(٣) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٩٠٧ .
(٤) شروح سقط الزند ، ق ١ ص ١١٤ .
(٥) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٤٧٣ .

وبأخرى مطلعها :[١]

أيدفع معجزات الرسل قوم   وفيك وفي بديهتك اعتبار

ومدح المفضّل بن سعيد بن عمرو التنوخي فيما قيل - وكان قد مدح أبا العلاء - بقصيدة أجابه فيها مطلعها :[٢]

يا للمفضّل تكسوني مدائحه   وقد خلعت لباس المنظر الانق

ومدح أبا القاسم التنوخي بقصيدة هنأه فيها بمولود مطلعها :[٣]

متى نزل السماك فحلّ مهدا   تغذّيه بدرّتها الثديّ

وبأخرى مطلعها :[٤]

هات الحديث عن الزوراء أو هيتا   وموقد النار لا تكرى بتكريتا

وبثالثة مطلعها :[٥]

لولا مساعيك لم نعدد مساعينا   ولم نسام بأحكام العلا مضرا

ومدح ابن أخيه عبد الله بن محمد ، وهو الذي كان يخدمه ، بأبيات يقول فيها :[٦]

وقاض لا ينام الليل عنّي   وطول نهاره بين الخصوم

---

(١) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٨١٠ .

(٢) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٦٧٣ ، وفيها قبل هذا البيت :

ارفد هنيئاً فإني دائم الأرق   ولا تشقني وغيري سالياً فشق

وفي الشروح أيضاً : « يكسوني مدائحه » .

(٣) شروح سقط الزند ، ق ٣ ص ١٣٢١ .

(٤) شروح سقط الزند ، ق ٤ ص ١٥٩٣ .

(٥) شروح سقط الزند ، ق ٤ ص ١٧٣٦ .

(٦) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٩٧ عن الانصاف والتحري - لابن العديم .

وبأبيات أخرى يقول فيها : (١)

أَعَبْدَ اللهِ ما أَسْدَى جميلا نَظيرَ جميلِ فِعْلِكَ غيرُ أمي

ولو استقرينا كلامه لوجدنا فيه غير ما ذكرنا ، ومن هذا يتضح لنا ان أبا العلاء مدح في شعره أسرة أبيه أكثر من أسرة أمه ، وإن كان يريد ذكر اسم الأسرة ، فإنه قد ذكر تنوخ في شعره كثيرا كقوله في السقط : (٢)

إلى التنوخيّ واسأله أُخوّته فقبلَه بالكرام الغُرّ أُوخيتا

وقوله فيه : (٣)

وَحمّلكَ الشعرَ من أشعار طائفة وحشيّةٍ من تنوخٍ تُنكِرُ الجُدُرا

وقوله في اللزوم : (٤)

فَشِعاري: قاطِعٌ، وكَانَ شعاراً لتنوخٍ في سالف الدهر، واصلْ

وقوله في غيره : (٥)

فقالَ : أريدُ عندكمُ تُنوخاً فقلتُ: أصبتَ إِنّا من تنوخ

وإيراد كل ما ذكره من هذا النوع يخرجنا عن الغرض المقصود ، وبهذا القدر يتضح أن أبا العلاء ذكر أسرة أمه في موطن واحد من شعره وأسرة أبيه في مواطن كثيرة ، أما كتاب التعزية إلى خاله أبي القاسم بأمه وبخاله فهذا أمر طبيعي ، لأن الميت أخته وأخوه فحكمه حكم الغرباء الذين عزاهم أو رثاهم .

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٩٦ عن الإنصاف والتحري ـ لابن العديم .
(٢) شروح سقط الزند ق ٤ ص ١٦٣٠ .
(٣) شروح سقط الزند ، ق ٤ ص ١٧٣٨ وفيها : « وحملك الجزء » . أما في التنوير فكما ورد في المتن .
(٤) اللزوميات هـ ص ٢٢٦ .
(٥) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٢ عن الأنساب ـ للسمعاني ، وفيه : « إني من تنوخ » .

وسيأتي ما يدل على أن أبا العلاء لم يكن مغمورا بنوافل أخواله ولا غيرهم ، وأن معونة خاله في استنساخ الكتاب وفي سفر بغداد كانت من قبيل التوصية به لمساعدته في حلّه وترحاله ، ولم تكن نفقته من غير ماله ، ولكنه كان يعظّم الصنيعة ويكثر الشكر على كل شيء ، وهذا لا يمنع أن يكون خاله أهدى اليه شيئا فقبله أو أعانه بشيء في رحلته ، ولكن الذي نستبعده هو أن يكون عاش في ظلالهم ورحل بأموالهم . على أنه يقول في كتابه المتعلق بشرح السيرافي (١) : وإنما رجوتُ ببركته أن يتفق أناس كما قال الله تعالى : « وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين » . وهذا يشعر بأنه هو الذي يريد دفع ثمن الكتاب ولذلك تمنى أن يكون بخسا ، ولو كان طلبه من أبي طاهر مجانا لما تصدى لمثل ذلك .

وقد ذكر المتأخرون أن له أخوالاً ثلاثة : الأول ، أبو القاسم علي وهو الذي أرسل إليه القصيدة الدالية وفيها يقول :(٢)

أرَانا يا عليُّ وإن أقَمْنا نُشاطِرُكَ الصَّبابَةَ وَالسُّهادا

وأرسل إليه رسالة عند طلوعه من العراق (٣) ، وفيها يذكر موت أمه ويصف بعض ما لقيه في بغداد وطريقها ، ويعتذر عن عدم مروره بحلب في الذهاب والإياب .

ورسالة أخرى يعزيه فيها بأخيه أبي بكر .

الثاني : أبو بكر ، وهــذا لم نعثر له على خبر ولكن يظهر من الرسالة التي كتبها إلى خاله أبي القاسم يعزيه فيها به أنه كان يكنى بأبي بكر وأنه توفي في دمشق وأن له ولدا كهلا ولولده أبناء .

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٩٣ عن إرشاد الأريب ـ لياقوت .

(٢) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٧٧١ .

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٨٣ عن إرشاد الأريب ـ لياقوت .

الثالث : أبو طاهر ، ولم أر أحدا من المتقدمين ذكر أن له خالا يكنى بأبي طاهر ، ولكن المتأخرين استنتجوا ذلك من رسائله .

وأبو العلاء أرسل إلى أبي طاهر (١) هذا كتابا وهو ببغداد ، يبحث فيه عن كتاب يقال إنه شرح السيرافي لكتاب سيبويه ، وليس في هذا الكتاب ما يدل على أنه خاله ، ولكن جاء في عنوان الكتاب . كتب إلى ابي طاهر المشرف بن سبيكة . . وذكره في رسالته إلى خاله أبي القاسم التي كتبها اليه حين طلوعه من العراق ، وفيها يقول (٢) : وأما سيدي أبو طاهر فقد حملني من الأنعام أوقا . . وما ورث بوي عن كلالة . . انما تقيل أباه . . ومن أشبه أباه فما ظلم . ويقول في آخرها : وأن أحمل إلى مولاي ،ادام الله عزه ، وإلى مولاي أبي طاهر عضدني الله يبقائه سلاما . . .

وذكره في رسالته التي عزى فيها خاله بقوله . والله يبقيه ولا يشقيه . . . ويريه في مولاي أبي طاهر وولده ما رآه في ولده سعدُ العشيرة . . وهو أدام الله عزه شجرة لا تثمر إلا طيبا . ومن أشبه أباه فما ظلم . . .

وهذا يدل على أن أبا طاهر ابنُ أبي القاسم لا أخوه ، لأن كلمة ومن أشبه أباه فما ظلم ، إنما تقال في مشابهة الولد أباه ، لا في مشابهة الأخ أخاه . وسعد العشيرة إنما سمي كذلك لكثرة ولده وولد ولده ، لا لكثرة أولاد أخيه .

★★★

(١) انظر الحاشية (١) من صفحة (٦٢) .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٨٨ عن إرشاد الأريب ـ لياقوت والأوق بالفتح : الثقل .

ميلاد أبي العلاء

اتفق جمهور من المؤرخين على أن أبا العلاء ولد في المعرة عند غروب الشمس من يوم الجمعة لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ٣٦٣هـ، وقد نقل ذلك أبو الخطاب العلاء بن حزم عن أبي العلاء نفسه، وذكره أبو غالب همام بن الفضل بن جعفر بن المهذب المعري التنوخي، وذكره كذلك أصحاب (نزهة الألباء)[١] و (الوفيات)[٢] و (نكت الهميان)[٣] و (معاهد التنصيص)[٤] و (ابن الوردي)[٥] و (الشذرات)[٦] و (معجم الأدباء)[٧] و (دول الاسلام) و (الكامل)[٨] لابن الأثير و (بغية الوعاة)[٩] و (لسان الميزان)[١٠] و (النجوم الزاهرة)[١١] و (مرآة الزمان)[١٢] و (البداية والنهاية)[١٣] وغيرهم .

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٧ عن نزهة الألباء ـ لابن الأنباري .
(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٨٣ عن وفيات الأعيان ـ لابن خلكان .
(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٩٥ عن نكت الهميان ـ للصفدي .
(٤) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٣٥ عن معاهد التنصيص ـ لأبي الفتح العباسي .
(٥) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٠٧ عن تتمة المختصر ـ لابن الوردي .
(٦) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٤٧ عن شذرات الذهب ـ لابن العماد .
(٧) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٦٧ عن معجم الأدباء ـ لياقوت .
(٨) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٤٢ عن الكامل ـ لابن الأثير .
(٩) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٣٢ عن بغية الوعاة ـ للسيوطي .
(١٠) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣١١ عن لسان الميزان ـ لابن حجر .
(١١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٣٠ عن النجوم الزاهرة ـ لابن تغري بردي .
(١٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٤٣ عن مرآة الزمان ـ لسبط ابن الجوزي .
(١٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٠١ عن البداية والنهاية ـ لابن كثير .

وقال فريق : إنه ولد لثلاثة أيام مضت من شهر ربيع الأول ، وقيل : سنة ست وستين . ونقل أبو الفداء القولين ، وقال ابن العديم :[١] الصحيح الأول أي سنة ٣٦٣ هـ وهو الذي اعتمده الجمهور .

عماه

حياة أبي العلاء كلهـــا مصائب ، وأول فاجعة منها ذهاب بصره بسبب الجدري .

وقد اختلفت الكلمة في زمن عماه ، فقيل : إنه ولد أعمى[٢] ، وقيل : عمي وهو ابن ثلاث سنين[٣] ، وقيل : ابن أربع ، وقيـــل : ابن أربع وشهر[٤] ، وقيل ابن سبع[٥] ، وقال الخطيب البغدادي :[٦] إنه عمي في صباه ، وقيل : عمي وهو ابن سبعين عاماً[٧] .

وأصح الأقوال أنه أصيب بالجدري وذهب بصره وهو ابن أربع سنين ، وقد قال أبو العلاء نفسه في رسالته إلى داعي الدعاة[٨] : وقد علم الله أن سمعي ثقيل ، وبصري عن الأبصار كليل[٩] ، قضي علي وأنا ابن

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥١١ عن الانصاف والتحري ـ لابن العديم .
(٢) نقل ذلك أبو الفداء ج ٢ ص ١٧٦ والشذرات (ج) .
(٣) أبو الفداء ، وقال : إنه الصحيح (ج) .
(٤) ابن العديم (ج) .
(٥) البداية والنهاية ـ لابن كثير (ج) .
(٦) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٧ عن تاريخ مدينة السلام ـ للخطيب البغدادي .
(٧) نقله الميمني عن صاحب آثار العجم (ج) .
(٨) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٢١ عن إرشاد الأريب ـ لياقوت .
(٩) في ارشاد الأريب « ثقيل » ، والثقيل : الغريب .

أربع ، لا أفرق بين البازل[١] والرُبَع"[٢] . وأبو العلاء أصدق الناس فيما يحدث به عن نفسه ، على أنه يجوز أن يكون قد تسامح ببعض الأيام التي تزيد على الأربع او تنقص عنها .

أثر الجدري في وجهه

كان من آثار هذه النكبة التي ابتلي بها أبو العلاء في فاتحة حياته ، أنه غشي عينه اليمنى بياض فندرت ، وذهبت اليسرى جملة فغارت ، وظهر في أديم وجهه أثر الجدري . وقد نقل ابن العديم عن ابن منقذ أنه رأى أبا العلاء وهو صبي دون البلوغ ، وأنه وصفه فقال[٣] : وهو صبي دميم الخلقة مجدور الوجه ، على عينيه بياض من أثر الجدري كأنه ينظر بإحدى عينيه قليلاً ، وظل موسوماً بهذه السمة الى آخر حياته .

فقد نقل المؤرخون عن أبي محمد عبد الله بن الوليد بن عريب الأيادي المعري أنه دخل على أبي العلاء يزوره ، وهو شيخ فان ، فرأى إحدى عينيه نادرة والأخرى غائرة جداً ، وهو مجدر الوجه نحيف الجسم .

أثر الجدري والعمى في نفسه

سيأتي عن أبي الحسن الدلفي المصيصي الشاعر أنه سمع أبا العلاء يقول[٤] : أنا أحمد الله على العمى كما يحمده غيري على البصر ، فقد صنع لي وأحسن

---

(١) البازل من الابل : ما كان في تاسع سنيه .

(٢) الربع من ذوات الخف : ما بلغ السابعة من سنه

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص٥١٤ عن الإنصاف والتحري — لابن العديم

(٤) تعريف القدماء بابي العلاء ص ٥٥٨ عن الانصاف والتحري — لابن العديم .

بي إذ كفاني رؤية الثقلاء والبغضاء .... ونسبوا إليه هذين البيتين : (١)

قالوا العمى منظر قبيح قلت بفقدانكم يهون
والله ما في الوجود شيء تأسى على فقده العيون

وقد نسبها الشريشي إلى بشار . و (الوطواط) لأبي العيناء (٢) .
وقال في لزوم مالا يلزم :

ذهابُ عينيَّ صانَ الجسمَ آونةً عن التطوّح في البيدِ الأماليس
وأنْ أبيتَ سميرَ الكُدْرِ في بلدٍ تُطْوىْ فلاه بتهجير وتغليس (٣)

وحمدُ الله على العمى ليس عن سرور واغتباط به ، وإنما هو من تلقي القضاء بالرضى والاستسلام إلى مالا يستطاع دفعه ، وكم من مَكروب يحمَد الله على ما أصابه ، وليس معنى هذا أنه راض به ، مبتهج بحصوله ، وإنما هو نفثة مصدور ، لا يشذ صاحبها عن طريق الدين والأدب مع ربه .

ومن تتبع شعر أبي العلاء الذي يعرض فيه لذكر الجدري والعمى يجده مغموراً بالألم الشديد والحزن العميق طافحاً بالحسرات والزفرات . وهذا يدل على أن لهما في نفسه أشد وقع وامضّ أثر ، فانظر إلى قوله في ذم الحمر :

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٥٣ عن نزهة الجليس - لابن مكي ، وص ٤٠٧ عن الغيث المسجم - للصفدي ، و ص ٤٠٨ عن نكت الهميان - للصفدي .
(٢) وفي روايته تغيير فراجع فيه ص ١٦١ (ج) .
(٣) اللزوميات ه ص ٣٠٠ ، وفيها : « عن التطرح » بالراء .
والأماليس : التي لاتنبت شيئاً .

أَضَرُّ من جُدَرِيٍّ شانَ حاملَه ... بحمله جَدَرِيٌّ جاء من جَدَرِ [(١)]

وقوله :

الحظ لي ولأهل الأرض كلهم ... أن لا يراني أخرى الدهرِ أصحابي

وشِقوةٍ غشيَتْ وجهي بنَضْرته ... أبرُّ بي من نعيم جرَّ إِشْحابي [(٢)]

وقوله :

غدا رَمَضاني ليس عني بمنقضٍ ... وكلُّ زماني لَيْلَتي آخرَ الشهرِ [(٣)]

وقوله المتقدم :

أراني في الثلاثة من سجوني

وقوله :

عمى العين يتلوه عمى الدين والهدى ... فليلتِيَ القُصوى ثلاثُ ليال [(٤)]

وقوله :

مالي غدوتُ كقاف رُؤبةَ قُيِّدت ... في الدهر لم يُقْدَر لها إِجراؤها

أُعلِلْتُ عِلَّةَ قال وهي قديمةٌ ... أعيا الأطبةَ كلَّهم إِبراؤها [(٥)]

---

(١) جدر : قرية بين حمص وسلمية تجلب منها الخمر . (ج)، والبيت في اللزوميات هـ ص ١٤٩.

(٢) هكذا في الديوان ، وزعم الميمني أنه تصحيف ، والصواب : أشجاني . وهو خطأ لأن البيت من أبيات خمسة التزم فيها الحاء قبل الألف ورويها الباء (ج) . والبيتان في اللزوميات هـ ص ٤٩ .

(٣) اللزوميات هـ ص ١٤٦ وفيها على رواية : « ليلتا آخر الشهر » .

(٤) اللزوميات هـ ص ٢١٢ وفيها « فليلتي القصرى » بالراء .

(٥) اللزوميات هـ ص ٢٣ .

وقوله :

وما بي طِرقٌ للمَسير ولا السُّرى لأني ضرير لا تضيء لي الطُرْق (١)

وقوله :

وأوقَدْتِ لي نارَ الظلام فلم أجِدْ سَناكِ بطرفي بل سِنانكِ في ضبني (٢)

وقوله :

اذا كُفَّ صِلٌّ أفعوانٌ فما له سِوى بيته يقتاتُ ما عَمِرَ التُربا

ولو ذهبت عينا هِزَبْر مساور لما راع ضأناً في المراتع أو سِرباً

أو التمعت أنوار عَمْرو وعامرٍ لما حملا رُمحا ولا شهدا حربا (٣)

وقوله :

وكيف أُرَجّى من زماني زيادة وقد حَذفَ الأصليَّ حذفَ الزوائدِ (٤)

وقوله في السقط :

فليتَ الليالي سامحتْني بناظر يراكَ ومن لي بالضُّحى في الأصائل (٥)

وقوله في السقط :

ويا أسيرةَ حِجْلَيْها أرى سَفَهاً حَمْلَ الحليّ لمن أعيا عن النظرِ (٦)

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٩٨ . والطرق : الشحم والقوة والسمن .
(٢) اللزوميات هـ ص ٢٧١ .
(٣) اللزوميات هـ ص ٣٨ .
(٤) اللزوميات هـ ص ١٠٥ وفيها : « من زمان » .
(٥) شروح سقط الزند ، ق ٣ ص ١٠٨٤ .
(٦) شروح سقط الزند ، ق ١ ص ١١٦ وفيها : « عن أعيا » .

إلى غير ذلك من الأبيات الكثيرة ، ولا تكاد تجد بيتاً يذكر فيه الجدري أو العمى إلا وهو يفيض بالحزن والألم ، وترى آثار التبرم والتلهف تترقرق في أضعاف كلماته .

والظاهر أن بين هذا المرض [الجدري] وبين المعرة صداقة أو قرابة ، فهو يعتادها حيناً بعد آخر ، ولقد تفشى بالمعرة وضاحيتها نحو سنة ١٣١٢ هـ ، فذهب بعيون كثير من الناس ، وشوه وجوهاً كثيرة ، وعمي بسببه كثيرون لفقد الأطباء وجهل الدواء وعدم اكتراث الحكومة بمثل هذا الأمر لجهلها ، ولقد رأيت كثيراً من الناس ممن أصيب بهذه العلة أصبحت وجوههم بعد نضرتها تشبه ما وصف به وجه أبي العلاء .

ما يعلمه من الألوان

كان أبو العلاء يعد اللون الأحمر ملك الألوان ، فقد نقل ابن العديم [١] عن الحسن بن الخشاب الحلبي أن أبا العلاء قال لجماعة حضروا عنده : عدوا عليَّ الألوانَ ، فقالوا : أبيض وأخضر وأصفر وأسود وأحمر ، فقال : هذا هو ملكها ، يعني الأحمر ، ولعل سبب ذلك هو أنه لما أصيب بالجدري ألبس ثوباً أحمر ، أو مصبوغاً بالعصفر ، فهو يعرف اللون الأحمر من ذلك الثوب ، ولا يفضل غيره على ما نقله عنه ابن العديم وصاحب (المعاهد) [٢] وغيرهما . وهذا غريب جداً لأن أبا العلاء تصدى في شعره إلى وصف كثير من الأشياء الملونة بغير الأحمر وأحكم فيها الوصف والتشبيه ، وسيأتي تحقيق ذلك وإيضاحه .

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٦٢ عن الأنصاف والتحري ـ لابن العديم .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٣٥ عن معاهد التنصيص ـ للعباسي .

الحياة السياسية

في عصر أبي العلاء

لا يشبه أبو العلاء غيره من الشعراء ، فإنه تناول في شعره طرفاً من أخبار الملوك والدول التي أظله عصرها ، وذكر طائفة من الأحداث التي وقعت في ذلك العهد ، وهذا يجعل التصدي لذكر الحالة السياسية ضرورياً ليتسنى فهم المراد من كلامه حين يعرض لذكرها ، وليتبين أثر ذلك في تكوين مزاجه الخلقي والفلسفي . ولما كان أبو العلاء أدرك جملة من الملوك والأمراء ، وشاهد كثيراً من مهلك دولة وقيام أخرى ، رأينا أن نسرد أسماء الخلفاء والملوك الذين تبوّؤوا العروش من فاتحة حياته إلى خاتمتها ، ونضيف إلى ذلك ما يتوقف عليه ربط الحوادث والدول وتسلسلها ، ليكون الكلام بريئاً من الغموض والنقص . وابتدأنا بملوك حلب والشام لأن المعرة في ذلك العهد تابعة لحلب ، وقد تكون حلب تابعة لدمشق ، وليس غرضنا من ذلك تحقيق الحوادث التاريخية أو استيفاؤها ، وإنما الغرض المقصود توضيح القضايا ولو بصورة مجملة ليتضح كلام أبي العلاء المتعلق بها وليعلم مبلغ أثرها فيه كما قلنا .

الدولة الحمدانية

في سنة ٣٣٣هـ استولى سيف الدولة على حلب ، وانتزعها من يد أبي الفتح[١]

(١) كذا في (أعلام النبلاء) عن زبدة الحلب وفي ابن الوردي « من يد أحمد بن سعيد الكلابي نائب الأخشيد » (ج) .

عثمان بن سعيد الكلابي ، ثم انتزعها منه الإخشيد بعد انتصاره عليه ، ثم استقر بينهما الصلح على أن تكون حلب وحمص وأنطاكية لسيف الدولة ، ودمشق للإخشيد . ثم استولى سيف الدولة على دمشق فحاربه كافور سنة ٣٣٥ ﻫ وكسره ودخل حلب وولّى عليها يانس المونسي .

وفي سنة ٣٣٦ ﻫ تغلب عليها سيف الدولة وانهزم يانس واستقر سيف الدولة بحلب إلى أن مات سنة ٣٥٦ ﻫ ، ثم ملك بعده ابنه أبو المعالي سعد الدولة شريف ، وكان له غلام يقال له قَرْعُوْيَة [١] فتغلب عليه واستولى على حلب وأخرجه منها سنة ٣٥٨ ﻫ الى حماة ، ثم صالحه سنة ٣٥٩ ﻫ ، وكان أبو المعالي في حمص ، وخطب له في حلب ، ثم اتفقا على أن يخطبا في أعمالها للمعز العلوي صاحب مصر .

وكان قَرْعُوْيَة استناب غلامه بكجور ، فقوي أمره وقبض على قرعوية وحبسه في قلعة حلب ، وأقام بها نحو ست سنين ، ولما استبد بكجور بالأمر كتب أهل حلب إلى أبي المعالي شريف أن يقصد حلب ، فسار إليها فحصرها أربعة أشهر ثم ملكها سنة ٣٦٦ ﻫ ، وبقيت القلعة بيد بكجور ثم طلب الأمان ، وأن يوليه حمص ، فأجابه إلى ذلك وسيره إلى حمص واستلم القلعة ، وكان بكجور يتقرب إلى العزيز صاحب مصر ، وطلب منه أن يوليه دمشق ، فوعده بذلك فلما كانت سنة ٣٧٢ ﻫ وقعت بين أبي المعالي وبكجور وحشة ، فكتب إليه أن يخرج من بلده ، فأرسل إلى العزيز أن ينجز ما وعده به فولاه دمشق سنة ٣٧٣ ﻫ وبقي فيها إلى سنة ٣٧٨ ﻫ ، وقد أساء السيرة ، فسير إليه العزيز عسكراً مع القائد منير الخادم ، فالتقيا عند داريا ، والتحم القتال بينهما فانهزم بكجور

---

(١) كتبه بعضهم قرعويه وفرعويه وفرغويه و . و . والصواب ما ذكرناه كما ضبطه ابن الشحنة (ج) .

وطلب الأمـان من منير ليسلم البلد اليه ، فأجابه الى ذلك ، فجمع ماله وسار خفية إلى الرقة فاستولى عليها وعلى ما يجاورها ، وكتب إلى بهاء الدولة ابن بويه أن ينضم اليــه ، والى باذ الكردي المتغلب على ديار بكر والموصل ان يسير اليه . وكتب إلى سعد الدولة أن يعود إلى طـاعته ويقطعه مدينة حمص كما كانت له ، فلم يجبه أحد ، فكتب إلى صاحب مصر يطمعه في حلب ، ويطلب انجاده بالعساكر ، فأجـابه وسار إلى حلب ، فخرج عنها سعد الدولة وكتب إليه يستميله ويدعوه إلى الموافقة ويقطعه من الرقة الى حمص ، فأبى . فلما التقى الجيشان تباطأ جيش مصر عن اللحاق ببكجور ، وانقلب العرب الذين كانوا معه فنهبوا سواده لأن سعد الدولة أطمعهم واستمالهم ، ثم وقعت بـين الفريقين معركة ، انتهت بانهزام بكجور ماشياً[1] ثم قبض عليه سعد الدولة فقتله ، ثم سار إلى الرقة فاستلمها بأمان وعهود . ثم أصابه الفـالج فمات ، وعهد إلى ولده أبي الفضائل سعيد الدولة ، ووصّى به لؤلؤ بن عبد الله السيفي الكبير مولى سيف الدولة . وكان ذلك سنة ٣٨١ ﻫ كما سيأتي .

ثم إن الوزير أبا الحسن المغربي سار إلى العزيز بمصر ، وأطمعه في حلب ، فسير إليها جيشاً عليه منجوتكين أحد أمرائه فحصرها ، فاستنجد أبو الفضائل ولؤلؤ بملك الروم ، ثم بذل لؤلؤ إلى أبي الحسن المغربي وغيره مـالا ليردوا منجوتكين ، فسار إلى دمشق ، وبلغ الخبر إلى العزيز بالله فغضب وكتب بعود العسكر إلى حلب وإبعاد المغربي ، فنازل[2] العسكر حلب وأقاموا عليها ثلاثة عشر شهراً ، ولما استنجد لؤلؤ بملك الروم سار إلى حلب فوصل إليها فرحل عنها منجوتكين كالمنهزم ، فعظم ذلك على العزيز

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٣٥ (ج) .
(٢) كذا في الأصل والصواب (نزل) .

بالله ، فخرج من القاهرة لغزو الروم الذين استنجد بهم لؤلؤ وأبو الفضائل ، ثم حدثت به أمراض منعته من المسير ، ثم أدركه الموت سنة ٣٨٦ هـ . وأبو العلاء مدح سعيد الدولة بقصيدة أولها :

أَعَنْ وَخْدِ القلاصِ كشفتِ حالا (١) ...

وأشار فيها إلى إخفاق المصريين في حربه كما سيأتي .

أما لؤلؤ بن عبد الله فقد كان مولى لسيف الدولة مقدماً عنده ، وعند ولده سعد الدولة ، وقد قدمه على أصحابه ، وجعله مدبر الملك بعده كما تقدم ، فلما ولي أبو الفضائل كان هو المدبر لملكه . وقد تزوج أبو الفضائل ابنته وأقام بحلب إلى أن توفي في سنة ٣٩١ هـ مسموماً ، ويقال : إن لؤلؤاً سمّه وسمّ ابنته زوجة أبي الفضائل فماتا جميعاً .

واستولى لؤلؤ بعد موت أبي الفضائل على تدبير ابنَيْه : أبي الحسن علي وأبي المعالي شريف ، ثم استقل بالامر وأخرجهما إلى مصر سنة ٣٩٤ هـ ، وبقي إلى أن توفي سنة ٣٩٩ هـ ، فملك حلب بعده ابنه منصور أبو نصر مرتضى الدولة ، وكان خطب للحاكم العبيدي ، فلقبه مرتضى الدولة ، ثم فسد ما بينه وبين الحاكم .

وكان لابن لؤلؤ غلام اسمه فتح ، وكان دزدارَ قلعة حلب ، فعصى استاذه وكاتب الحاكم ، وخطب له وأخذ منه صيدا وبيروت وكل ما في حلب من الأموال ، واستولى على حلب ولقب بمبارك الدولة وسعيدها وعزها ، ثم سلمها إلى نواب الحاكم ، وسار مولاه أبو النصر بن لؤلؤ إلى أنطاكية ، وكانت للروم ، فأقام عندهم ، وكان ذلك سنة ٤٠٦ هـ وفي (النجوم الزاهرة) ج ٤ ص ٢٣٥ استولى الحاكم على حلب ، وزال ملك بني حمدان منها في سنة ٤٠٤ هـ .

---

(١) شروح سقط الزند ، ق ١ س ٢٥ ، وعجزه : ومن عند الظلام طلبتِ مالا .

ثم تنقلت حلب بأيدي نواب الحاكم . منهم مختار الدولة والي طرابلس ، ومرهف الدولة والي صيدا ، حتى صارت بيد رجل من الحمدانيين يعرف بعزيز الملك (١) وبقي نائب الحاكم فيها حتى قتل الحاكم سنة ٤١١ هـ وولي

---

(١) هكذا ذكره أبو الفداء ج ٢ ص ١٤١ وابن الوردي ج ١ ص ٣٢٣ وابن الأثير ج ٩ ص ٩٥ في حوادث سنة ٤٠٢ هـ . وذهب الأستاذ الميمني إلى أنه عزيز الدولة فاتك أبو شجاع ، وكان رومياً ، واحتج لذلك بأمور :

أولها : ان ابن القلانسي ذكره في تاريخه مراراً عزيز الدولة .

ثانيها : أن ياقوت ذكر في (معجم الأدباء) أن أبا العلاء صنف كتاب (الصاهل والشاحج) لأبي شجاع فاتك الملقب بعزيز الدولة والي حلب من قبل المصريين وكان رومياً .

ثالثها : نقل عن ابن العديم في تاريخه ، أنه كان عبداً أرمنيـاً لمنجوتكين الذي أرسل مع عسكر مصر لحصار حلب سنة ٣٨٤ هـ . وكان العزيز قلد ولاية حلب من الحاكم سنة ٤٠٧ هـ .

رابعها : أن صاحب (التتمة) ذكره كذلك : عزيز الدولة .

خامسها : أن عزيز الدولة ورد ذكره في رسالتين لأبي العلاء ، وهو الذي طلب أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحي أبا العلاء إلى حضرته ، فاعتذر بضعفه وعجزه . أهـ .

ونزيد على ذلك أن ابن العديم صرح في (الإنصاف) بأن كتاب (الصاهل والشاحج) صنف للأمير عزيز الدولة أبي شجاع فاتك بن عبد الله الرومي مولى منجوتكين العزيزي ، وكان أبو شجاع هذا والي حلب من قبل المصريين في أيام الحاكم وبعض أيام الظاهر الذي قتله بقلعة حلب سنة ٤١٣ هـ مملوك له هندي يقال له توذوك . اهـ ؛ وأن الذهبي قال : قتل فاتك متولي حلب سنة ٤١٢ هـ . قتله مملوك له هندي . وأن صاحب (النجوم الزاهرة) قال في ج ٤ ص ١٩٤ : قال ابن الصـابي : وكان على حلب عند هلاك الحاكم عزيز الدولة فاتك الوحيدي ، ثم ذكر أنه عظم أمره وحدثته نفسه بالعصيان ، فلاطفته ست الملك ، وبعث إليه بالخلع والخيل بمراكب الذهب ، ثم أفسدت عليه غلامه بدراً ، وكان مالك أمره ، وكان لفاتك غلام هندي يهواه ، فاستغواه بدر حتى قتل فاتكا ، ثم استدعى الغلمان فقتلوا الهندي ، وولت بدراً مكان فاتك . وفيها تفصيل الحادثة فلتراجع .

أما صاحب (ذكرى أبي العلاء) فقد رأى تناقضاً بين التاريخ وبين ما عرف من آثار ـــ

مكانه الظاهر لإعزاز دين الله فشق عصا الطاعة عليه ، وواطأت ست الملك أخت الحاكم فر"اشاً له على قتله فقتله سنة ٤١٢ هـ ، ثم ولي مدينة حلب للمصريين رجل يعرف بابن ثعبان[١] . وولي القلعة خادم يعرف بموصوف وبقيا فيها إلى أن انتزعها منهما صالح بن مرداس سنة ٤١٤ هـ .

— أبي العلاء لسبب ذكر عزيز الدولة ، وسأل من هو عزيز الدولة ؟ وزعم أن المصريين لم يستعملوا على حلب رجلاً يعرف بعزيز الدولة . ثم ذكر أن المؤرخين حرّف عليهم لفظ عزيز الدولة فسموه معز الدولة ، وأطال في استنتاج رأي له ، رجحه على ما وقع للمؤرخين ، خلاصته أنه جعل عزيز الدولة ثمال بن صالح بن مرداس .

وقد ذكر الأستاذ الميمني في ذيل ص ٢٣٠ في الرد على صاحب الذكرى أن (اللامع العزيزي) منسوب إلى عزيز الدولة بن ثابت بن ثمال بن صالح . .

وإذا رجعت إلى كتب التاريخ ، تبين لك أن عزيز الدولة لقب بـه اثنان : أحدهما : فاتك بن عبد الله مولى منجوتكين ، وقد تقدم ذكره ، وهذا صنف له أبو العلاء كتاب (الصاهل والشاحج) وكتاب (لسان الصاهل والشاحج) وكتاب (القائف) ولم يؤلف منه سوى أربعة أجزاء ، لأن أبا شجاع هـذا قتل ، وكان هو الذي أمر بانشائه . الثاني : أبو الدوام ثابت بن ثمال بن صالح بن مرداس ، لقب بعزيز الدولة أيضاً ، وهذا ألف له أبو العلاء كتاب (اللامع العزيزي) ويقال له (الثابت العزيزي) وأبو ثمال يقال له معز الدولة ، وقد كتب له أبو العلاء (رسالة الضبعين) وسيأتي ايضاح ذلك عند الكلام في كتبه ورسائله . ومما ذكرناه يتبين لك ما في كلام الأستاذين طه حسين والميمني من الخطأ .

أما ما ذكره ابن الأثير وغيره من أن حلب صارت بيد انسان من الحمدانيين يعرف بعزيز الملك ... فلم نهتد إلى ما يثبته ، ولم نتبين وجه التحريف فيه (ج) .

(١) هكذا ذكره ابن الأثير وأبو الفداء وابن الوردي : وقال ابن خلدون : عبد الله ابن علي بن جعفر الكتامي وهو المعروف بابن شعبان ولعلهم حرفوا شعبان بثعبان. لأن أعماله كانت أعمال ابن ثعبان .

وسيأتي أن ابا العلاء كتب (الرسالة السندية) إلى سند الدولة بن شعبان الكتامي الذي جعل والياً على حلب سنة ٤١٤ هـ من قبل المصريين (ج) .

الدولة المرداسية

كان أسد الدولة أبو علي صالح بن مرداس بن أدريس من بني كلاب ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة من مضر ومن عرب البادية .

وفي سنة ٣٩٩ هـ . قتل أبو علي بن ثمال الخفاجي(١) ، وكان الحاكمُ صاحبُ مصر ولاه الرحبة ، فسار اليها فخرج إليه عيسى بن خلاط العقيلي فقتله ، وملك الرحبة ، ثم أخذها منه بدران بن المقلد العقيلي ، فأمر الحاكم لؤلؤاً البشاري نائبه في دمشق بالمسير إليها وملكها وملك الرقة ثم عاد إلى دمشق ، وكان بالرحبة رجل من أهلها يعرف بابن محكان فملك البلد واحتاج إلى من يستعين به على من يطمع فيه ، فكاتب صالح ابن مدراس فقدم عليه وأقام عنده مدة ، ثم تغير صالح وسار إلى ابن محكان وقاتله على البلد وقطع الأشجار ، ثم تصالحا وتزوج ابنة ابن محكان ودخل البلد ، الا أن أكثر مقامه كان بالحلة . ثم راسل ابن محكان أهل عانة ، فأطاعوه ونقل ماله وأهله إليهم وأخذ رهائنهم ، ثم خرجوا عن طاعته وأخذوا ماله واستعادوا رهائنهم وردوا أولاده ، فاجتمع ابن محكان وصالح على قصد عانة ، فسارا إليها ، فوضع صالح على ابن محكان من يقتله ، فقتله غيلة وسار صالح إلى الرحبة ، فملكها وأخذ أموال ابن محكان وأحسن إلى الرعية ، واستمر على ذلك ، إلا أن الدعوة كانت للمصريين .

وفي سنة ٤٠٢ هـ فسد ما بين الحاكم ومرتضى الدولة أبي نصر بن لؤلؤ صاحب حلب ، فطمع فيه صالح بن مدراس وبنو كلاب ، وكانوا يطالبونه بالصلات والخِلَع ، ثم اجتمعوا في خمسمائة فارس ، ودخلوا حلب ،

(١) ابن الأثير ٨٧/٩ (ج) .

فأمر مرتضى الدولة بإغلاق الأبواب ، وقبض على مائة وعشرين رجلاً ، منهم صالح بن مدراس ، وحبسهم وقتل مائتين وأطلق من لم يفكر به ، وكان صالح تزوج ابنة عم له تسمى جابرة ، وكانت جميلة ، فوُصفت لمرتضى الدولة ، فخطبها إلى أبناء أخوتها ، وكانوا في حبسه ، فقالوا : إن صالحاً قد تزوجها ، فلم يقبل منهم ، وتزوجها ثم أطلقهم وبقي صالح في الحبس ، حتى صعد من السور وألقى نفسه من أعلى القلعة إلى تلها ، واختفى في مسيل ماء ، فأرسل مرتضى الدولة الخيل في طلبه فلم يظفروا به ، فلما سكن عنه الطلب سار بقيده ولبنة حديد في رجليه الى قرية الياسرية ، فعرفه جماعة من العرب وحملوه إلى أهله في مرج دابق[١] .

فجمع ألفي فارس ، وحاصر حلب اثنين وثلاثين يوماً ، فخرج إليه مرتضى الدولة فقاتله صالح وأسره وقيده بقيده الذي كان في رجله ولبنته ، ثم بذل له مائتي ألف دينار ومائة ثوب ، وأطلق كل أسير عنده من بني كلاب فأخذ صالح ذلك وأطلقه ورحل . ثم عصى فتحٌ مولاه مرتضى الدولة ابنَ لؤلؤ كما قدمنا .

وفي سنة ٤١٤ هـ كان للمصريين نائب بالشام يعرف بأنوشتكين[٢] الدِزْبري وبيده دمشق والرملة وعسقلان وغيرها . فاجتمع حسان أمير بني طيء ، وصالح بن مرداس أمير بني كلاب ، وسنان بن عليان أمير

---

(١) الكامل ٩/٩٤ . والياسرية : هي قرية على نهر عيسى ، بينها وبين بغداد ميلان . ودابق : قرية قرب حلب من عمل عزاز بينها وبين حلب أربعة فراسخ عندها مرج معشب فيه قبر سليمان بن عبد الملك بن مروان (ج) .

(٢) ابن عبد الله الأمير المظفر منتجب الدولة ولد ببلاد الترك وحمل إلى بغداد ثم إلى دمشق سنة ٤٠٠ هـ فاشتراه القائد دزبر ثم اتصل بالحاكم فبعثه إلى دمشق سنة ٤٠٦ هـ ثم أرسله إلى قتال صالح (ج) .

بني كلب . وتحالفوا واتفقوا على أن يكون من حلب إلى عانة لصالح ، ومن الرملة إلى مصر لحسان ، ودمشق لسنان .

فسار حسان إلى الرملة فحصرها ، وكان أنوشتكين بها ، فسار عنها إلى عسقلان ، واستولى عليها حسان ونهبها ، وقتل أهلها ، وذلك سنة ٤١٤ هـ وحاصر سنان دمشق سنة ٤١٦ هـ وجرت بينه وبين أهلها حرب شديدة ، وخرب داريا وأعمالها ومات سنان سنة ٤١٩ هـ فاتصل ابن أخيه رافع بن أبي الليل بن عليان بالظاهر ، فأمّره على الكلبيين وسير معه جنداً لقتال حسان بن المفرج بن الجراح امير طيىء ، وقصد صالح حلب ، وبها ابن شعبان الكتامي وموصوف بالقلعة . فسلم أهل حلب المدينة إلى صالح ، لإحسانه اليهم وسوء سيرة المصريين معهم . وصعد ابن شعبان إلى القلعة ، فحصره صالح فيها ، فغار الماء الذي بها فلم يبق لهم ما يشربون ، فسلم الجند القلعة إليه وذلك سنة ٤١٤ هـ ، وملك من بعلبك إلى عانة وأقام فيها ست سنين .

وفي سنة ٤١٥ هـ قبض على قاضي حلب ابن أبي أسامة ، ودفنه حياً في القلعة ، وفي سنة ٤١٦ هـ استوزر صالح تاذرس النصراني ، وكان عنده صاحب السيف والقلم .

وفي سنة ٤١٨ هـ خرج صالح إلى المعرة ، وأمر باعتقال أكابرها ، لأنهم هدموا ماخوراً أراد صاحبه أن يغصب امرأة نفسها ، وشفع عنده أبو العلاء كما سيأتي .

وفي سنة ٤٢٠ (١) جهز الظاهر صاحب مصر جيشاً إلى الشام اضافه إلى رافع أمير الكلبيين لقتال صالح وحسان ، وكان مقدم العسكر انوشتكين ،

---

(١) هكذا قال ابن الأثير ج ٩ ص ٩٦ ثم ذكر في ج ٩ ص ١٥٣ انه في سنة ٤١٩ هـ وأنها قولان (ج) .

فاجتمع صالح وحسان على قتاله ، فاقتتلوا بالأقحوانة على الأردن عند طبرية ، فقُتِل صالحٌ وولده الأصغر ، ونفذ رأساهما إلى مصر ، ونجا ولده أبو كامل نصر بن صالح ، فجاء إلى حلب فملكها وكان لقبه شبل الدولة ، فلما علمت الروم بأنطاكية الحال ، تجهزوا إلى حلب في عالم كثير ، فخرج أهلها اليهم فحاربوهم فهزموهم ونهبوا أموالهم فعاد الروم الى انطاكية ،

وقد أشار أبو العلاء الى هذه الفتن والحوادث في موطن من شعره . منها قوله من أبيات [1] :

أرَى حَلَباً حَازَها صَالحٌ ... وَجَالَ سِنَانٌ عَلَى جِلَّقَا
وَحَسَّانُ في سَلفَيْ طَيِّئٍ ... يُصَرِّفُ مِنْ عِزِّهِ أبْلَقَا
فَلَمَّا رأت خَيْلُهم بالغُبَارِ ... ثَغَاماً على جَيْشِهِم عُلِّقَا
رَمَتْ جامعَ الرَّمْلَةِ المُسْتَضَامَ ... فَأَصْبَحَ بالدَّمِ قدْ خُلِّقَا
وما يَنْفَعُ الكَاعِبَ المُسْتَبَا ... ةَ هامٌ على عَضَبٍ فُلِّقَا
وطُلَّ قَتيلٌ فَلَمْ يُدَّكَرْ ... وغُلَّ أسيرٌ فما أُطْلِقَا
وكَمْ تَرَكَتْ آهِلاً وَحْدَهُ ... وكم غَادَرَتْ مُثْرِيا مُمْلِقَا
يسائلُ في الحيِّ عَنْ مالِهِ ... وما القولُ في طائرٍ حَلَّقَا

وقوله من أبيات أخر [2] :

والرَّمْلَةُ البَيْضاءُ غُودِرَ أهْلُها ... بعد الرَّفاغَةِ يأكُلونَ قفارَها [3]

---

(١) اللزوميات هـ س ٣٠٥ .
(٢) اللزوميات هـ س ١٤٣ .
(٣) القفار : يقال : خبز قفر أو قفار ، أي غير مأدوم .

والعُرْبُ خالفَتِ الحضارةَ وانتقَتْ سُكنى الفَلاةِ وَرَعْلَها وَصَفارَها
كانت إماؤهُمُ زوافرَ مَوْرِدٍ فالآن أثقلَ نَضْرُها أزْفارَها
أهلَتْ بها الأمصارُ فهي ضَوارِبٌ عَمَدَ الممالك لا تُريدُ قِفارَها
لمْ يَبْقَ إلا أن تؤُمَّ جيادُهُمْ رُمْحاً[1] لِتَقْطَع رَمْلَها وجفارَها
عَترَوا الفوارسَ بالصوارمِ والقنا والمَلْكُ في مِصر يُعَتِّرُ فارَها
جعلوا الشِفار هوادياً لِتنوفَةٍ مَرْهاء تكحَل بالدجى أشفارَها
يكبو رتاه القادحين وعامِرٌ بالشام تقدَحُ مَرْخَها وعَفارَها

وقوله [2] :

قد أشْرَعَتْ سِنْبِسٌ ذوابلَها وأرْهَفَتْ بُحْتُرٌ مَعابِلَها [3]
لِفتنةٍ لا تزال باعثة رامِحَها في الوغى ونابِلَها
حَسّان في المُلْكِ لا يَحسُّ لها تُزْجي إلى موتِها قنابِلَها

وقوله [4] :

أصاب الرمْلةَ الحدَثانُ يوماً فَخَصَّ وما يزال أخا اشتمال

---

(١) رُمح قرية بالشام (ج) .
(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢٠٨ .
(٣) سنبس وبحتر قبيلتان من طيء ، (ج) وفي الأصل: «بحتر عواملها» والصواب ما أثبتناه.
(٤) اللزوميات ﻫ ص ٢١٨ .

وقوله (١) :

أَلم ترَ طَيِّئاً وبني كلابٍ سَمَوا لبلادِ غزةَ والعريشِ
ولو قَدَروا على الطَّيْرِ الغوادي لما نَهَضَتْ إلى وَكْرٍ بريش

وقوله في سقط الزند ، من قصيدة يمدح بها خازن دار العلم ببغداد (٢) :

وما أذهلَتْني عن وِدادِكَ رَوْعَةٌ وكيف وفي أمثالها (٣) يجب الغَبْطُ
ولا فتنةٌ طائيَّةٌ عامريَّةٌ يُحرَّق في نيرانها الجَعْدُ والسَّبْطُ
وقد طَرَحَتْ حولَ الفراتِ جِرانَها إلى نيلِ مصرٍ فالوَساعُ بها تقطو
فوارسُ طعَّانون ما زال للقنا مع الشَّيْبِ يوماً في عوارِضهم وَخْطُ
وكلُّ جوادٍ شفَّه الركضُ فيهم وجٍ يتمنَّى أنَّ فارسه سِقْطُ
ونَبَّالةٍ من بُحْتُرٍ لو تَعَمَّدوا بليلٍ أُناسيَّ النواظِرِ لم يُخْطُوا

أراد بالطائية قوم حسّان أمير طيء ، وبحتر قبيلة من طيء ، وأراد بالعامرية قوم صالح بن مرداس وهم بنو كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة .

وبقي شبل الدولة مالكاً حلب إلى سنة ٤٢٩ هـ ، فأرسل اليه الدزبري العساكر المصرية ، وكان صاحبُ مصر حينئذ المستنصر بالله ، وُلِّيَ سنة ٤٢٧ هـ بعد وفاة الظاهر ، فلقيهم عند حماة ، وقُتِلَ في شعبان وملك الدزبريُّ حلبَ في رمضان سنة ٤٢٩ هـ . ولما كان أنوشتكين في دمشق

---

(١) اللزوميات هـ ص ٣٢٧ .
(٢) شروح سقط الزند ، ق ٤ ص ١٦٧٥ .
(٣) كذا في الشروح ، وفي الأصل : «أمثاله» .

كان يوجه إلى أبي العلاء بالسلام ، ويحفي المسألة عنه ، فأراد جزاءه على مافعل ، فعمل له كتابا سماه (شرف السيف) كما سيأتي . وبقيت حلب في ملك الدزبري حتى توفي في جمادى الأولى سنة ٤٣٣ هـ .

وكان أبو علوان ثمال بن صالح بن مرداس الملقب بمعز الدولة بالرحبة ، فلما بلغه موت الدزبري جاء إلى حلب فملكها تسليما من أهلها ، وحصر امرأة الدزبري وأصحابه بالقلعة أحد عشر شهراً ، ثم ملكها في صفر سنة ٤٣٤ هـ وبقي إلى سنة ٤٤٠ هـ . وجهز ثمال إلى المعرة والياً فأساء التدبير ، فانحرف عنه الناس وهرب ، فبادر جعفر أمير حمص وتجهز إلى المعرة بنفسه ولقيهُ مقلد بن كامل بن مرداس فأوقع به وقتله وشهر رأسه بحلب .

ثم أنفذ المصريون إلى محاربته أبا عبد الله بن ناصر الدولة بن حمدان ، فخرج أهل حلب إلى حربه ، فهزمهم واختنق بالباب منهم جماعة ، ثم إنه رحل عن حلب وعاد إلى مصر .

فأنفذ المصريون إلى قتال معز الدولة خادماً يعرف برفق ، فخرج إليه في أهل حلب فقاتلوه فانهزم المصريون وأسر رفق في ربيع الأول سنة ٤٤١ هـ . ومات عندهم .

ثم إن معز الدولة أصلح أمره مع المصريين ، وأرسل إليهم الهدايا ، ونزل لهم عن حلب فأنفذوا اليها أبا علي الحسن بن علي بن ملهم ولقبوه مكين الدولة ، فتسلمها من ثمال في ذي القعدة سنة ٤٤٩ هـ وسار ثمال إلى مصر في ذي الحجة ، كذا في ابن الأثير وقال : (ج ٩ ص ٢٣٣) في سنة ٤٤١ هـ وصل عسكر مصر إلى حلب فخافهم ثمال ، فانصرف عنها ، فملكها المصريون . وفي (النجوم الزاهرة) ج ٥ ص ٤٥ : وفي سنة ٤٤١ هـ صرف المستنصر طارقاً الصقلبي عن إمرة دمشق وولى مكانه عدة الدولة المستنصري ، ثم صرفه عنها وبعث به إلى حلب ، وولىّ دمشق حيدرة بن

الحسين بن مفلح ويعرف بأبي الكرم المؤيد ، فأقام عليها حيدرة تسع سنين .

وقد تقدم أن أبا العلاء ولد سنة ٣٦٣ هـ وسيأتي أن وفاته في سنة ٤٤٩ هـ في ربيع الأول ، فيكون مولده في زمن أبي المعالي سعد الدولة ابن سيف الدولة ، في العهد الذي تغلب فيه قَرْعُوَيَه على مولاه سعد الدولة ، وتغلب بكجور على قرعونة . وتكون وفاته في عهد معز الدولة ثمال بن صالح بن مرداس .

ولقد تولى حلب في هذا العهد جماعة كثيرون منهم :

(١) أبو المعالي سعد الدولة شريف بن سيف الدولة .

(٢) وقرعونة غلام سعد الدولة .

(٣) وبكجور غلام قرعونة .

(٤) وأبو الفضائل ، سعيد بن سعد الدولة سنة ٣٨١ هـ .

(٥) ولؤلؤ بن عبد الله مولى سيف الدولة سنة ٣٩٤ هـ .

(٦) وابنه منصور أبو نصر مرتضى الدولة .

(٧) وغلامه فتح مبارك الدولة وسعدها وعزها سنة ٤٠٦ هـ .

(٨) ومختار الدولة والي طرابلس .

(٩) ومرهف الدولة والي صيدا .

(١٠) وعزيز الدولة فاتك أبو شجاع مولى منجوتكين سنة ٤٠٧ هـ .

(١١) وابن شعبان الكتامي سنة ٤١٢ هـ .

(١٢) وصالح بن مرداس سنة ٤١٤ هـ .

(١٣) وابنه أبو كامل نصر شبل الدولة سنة ٤٢٠ هـ .

(١٤) وأنوشتكين الدزبري سنة ٤٢٩ هـ .

(١٥) وأبو علوان ثمال بن صالح معز الدولة سنة ٤٣٤ هـ ، وبقي فيها إلى ذي القعدة سنة ٤٤٩ هـ أي بعد وفاة أبي العلاء بنحو ثمانية أشهر ،

وقد سماه أبو العلاء تاج الأمراء في شرحه لشعر الأمير أبي الفتح بن أبي حصينة وكناه بأبي العلوان .

وإذا تأملت وجدت في التاريخ تناقضاً بيّنا وغموضا ظاهرا ، فإن ابن الأثير ذكر أولاً أن معز الدولة نزل عن حلب وتسلمها مكين الدولة سنة ٤٤٩ هـ وذكر بعد ذلك أن معز الدولة في سنة ٤٤١ هـ خاف عسكر مصر فانصرف عن حلب وملّكها المصريين ، وصاحب (النجوم الزاهرة) ذكر أن :

١٦ - طارقاً الصقلي ولي حلب سنة ٤٤١ هـ ، ولم يعلم هل أخذها من ثمال أم من غيره .

وقد ذكر أبو العلاء طائفة من ملوك حلب والأمراء المتغلبين عليها ، منهم

١٧ - أبو الفضائل سعيد بن سعد الدولة ، مدحه بقصيدة مذكورة في أول سقط الزند ، وفيها يقول على لسان النوق : [١]

سَأَلْنَ فَقُلْتُ مقصِدُنا سعيدٌ فكان اسْمُ الأميرِ لهن فالا

ويقول فيها :

ولكن بالعواصم من عَدِيٍّ [٢] أميرٌ لا يكلّفنـــا السؤالا

وفيها يشير إلى وقعة بينه وبين عسكر مصر والمغرب بقوله :

إذا خفقت لَمغرِبها الثُّريـــا توقَّتْ من أسِنّته اغتيـالا

ولعلها الوقعة التي جاء فيها منجوتكين مـــع عسكر مصر إلى حلب وكانت بينها مابين سنة ٣٨٣ هـ وسنة ٣٨٦ هـ .

(١) شروح سقط الزند ، ق ١ ص ٤١ .

(٢) سيف الدولة ينسب إلى عدي بن أسامة من أحفاد غنم بن تغلب (ج) .

١٨ – ومنهم عزيز الدولة فاتك مولى منجوتكين ، وهذا ألف له كتاب (الصاهل والشاحج) و (القائف) وذكره في رسالة إلى أبي نصر صدقة ابن يوسف الفلاحي لما دعاه إلى حضرة عزيز الدولة بقوله ص ٩٦ : وإنما ذكرت ذلك لينتهي إلى حضرة عزيز الدولة .. إني تخلفت عن خدمته بمرض منع من أداء المفترض . وذكره في رسالة ثانية ص ٢٢٩ ، وهو طلب من أبي الحسن بن سنان أن يطلب من أبي العلاء اختصار كليلة ودمنة .

١٩ – ومنهم عبد الله بن شعبان الكتامي عمل له الرسالة السندية .

٢٠ – ومنهم صالح بن مرداس ذكره في مواطن من شعره تقدم بعضها ، ومنها قوله :

بُعِثْتُ شفيعاً إلى صالحٍ وذاكَ من القوم رأيٌ فَسَد [1]

وقوله :

نجّى المعرةَ من بَراثنِ صالح ربٌ يعافي كلَّ داءٍ مُعْضل [2]

وقال ابن العديم [3] : إن كتاب (تاج الحرة) وضعه أبو العلاء لبعض الخليلات من النساء ويغلب على ظني أنها « طَرُود » زوج صالح بن مرداس .

٢١ – ومنهم شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس ، ذكره في (رسالة الغفران) حيث قال ص ٥٨ : [4] « فأقام هاتفاً يهتف في الموقف : ياعبدَ المنعم بنَ عبد الكريم قاضيَ حلب في زمان شبل الدولة ... » وقد كرر ذكره .

٢٢ – ومنهم أنوشتكين الدزْبري عمل له كتاب (شرف السيف) .

٢٣ – ومنهم معز الدولة ثمال بن صالح بن مرداس عمل له رسالة (الضبعين).

* * *

---

(١) اللزوميات هـ ص ١١٦ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٢١ ، وفيها : « نجى المعاشر ... رب يفرج كل أمر معضل » .

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٢٩ عن الانصاف والتحري – لابن العديم .

(٤) في الطبعة الأولى لرسالة الغفران تحقيق بنت الشاطئ ص ١٥٥ .

طائفة من الأحداث التي حدثت في حياة أبي العلاء

في حلب والمعرة وما يتعلق بهما منها

قدمنا أن أبا المعالي شريفاً استولى على حلب ، وكان حاصرها أربعة أشهر ثم ملكها هي والقلعة ، وتولى بكجور حمص سنة ٣٦٦ هـ . وفي سنة ٣٦٨ هـ وقعت حرب بين سعد الدولة وسلامة البرقعيدي أبي تغلب ابن حمدان متولي ديار مضر ، وساعد عضدُ الدولة سعدَ الدولة فأخذ عضُد الدولة الرقة لنفسه ، وترك مافيها لسعد الدولة .

وفي سنة ٣٧٣ هـ نزل فردوس الدمستُق على باب حلب في خمسمائة الف ، فالتقى في الميدان مع عسكر سعد الدولة ، ثم رجع عسكر فردوس ، وأتبعه سعد الدولة جيشا من قبله غازيا حتى بلغ عسكره أنطاكية .

وفي سنة ٣٧٨ هـ التقى عسكر مصر مع القائد منير الخادم مع عسكر بكجور عند داريا ، فاقتتلوا وفرّ بكجور إلى الرقة فاستولى عليها ، وكان له رفقاء في حلب ، فكتبوا اليه يُطمِعونه في حلب ، وأعلموه أن سعد الدولة مشتغل بلذاته ، فكتب إلى صاحب مصر يبذل له فتح حلب ويستعينه فكتب صاحب مصر إلى نزال القوري صاحب طرابلس بالمسير اليه متى استدعاه ، وكان نزال من صنائع الوزير عيسى بن نسطورس ، فكتب اليه عيسى أن يظهر المسارعة ، فإذا تورط بكجور مع مولاه تأخر عنه وأسلمه . فكتب بكجور إلى نزال أن يسير من طرابلس ليكون وصوله إلى حلب في وقت واحد وسار اليها ، ورحل نزال من طرابلس وأبطأ في سيره وكان يكتب إلى بكجور بنزوله في منزل بعد منزل .

أما سعد الدولة فقد كتب إلى بسيل عظيم الروم يعلمه بعصيان بكجور ، ويطلب منه ألا يكتب إلى البرجي صاحب أنطاكية بالمسير اليه متى استنجده ، فكتب اليه بسيل بذلك . فلما وصل بكجور كتب سعد الدولة إلى البرجي فسار اليه ، وبرز سعد الدولة في غلمانه وعساكره ومعه

من العرب عمرو بن كلاب وعدتهم خمسمائة فارس ، ثم استدعى كاتبه فكتب إلى بكجور عنه يستعطفه ويذكّره الله ويقطعه من الرقة إلى باب حمص ، ويدعوه إلى الموادعة ورعاية حق العبودية . فلما وقف على الكتاب قال للرّسول : الجواب ماتراه عيانا . فلما عاد الرسول أخبر سعدَ الدولة بما قاله. فتقدم سعد الدولة وتقارب العسكران ، وكان سعد الدولة كاتب العرب الذين مع بكجور وأمّنهم ووعدهم ، فانقلبوا على بكجور ونهبوا سواده واستأمنوا إلى سعد الدولة ، فلما رأى بكجور تقاعد نزال عن نصرته وانقلاب العرب عليه وإخلاف رفقائه الذين وعدوه ، قال لكاتبه أبي الحسن المغربي : لقد غرَرْتني ، فما الرأي الآن؟ فأشار عليه بالرجوع إلى الرقة وإخبار صاحب مصر بما فعله نزال واستنجاده مرة أخرى . ثم اختار بكجور جماعة من غلمانه وشجعانه وأخبرهم أنه يريد أن يحمل على سعد الدولة بنفسه فوافقوه على ذلك ، وأخبر لؤلؤاً الجراحي بما عول عليه ، فأخبر لؤلؤ سعد الدولة ، فانتقل إلى مكان غير مكانه ، ووقف لؤلؤ مكانه ، فحمل بكجور في أربعمائة غلام ، فأخرجت له العساكر حتى وصل إلى لؤلؤ وهو يظن أنه سعدالدولة فضربه فقدّ الخوذة ووصل السيف إلى رأسه فوقع لؤلؤ على الأرض وأظهر سعد الدولة نفسه وعاد إلى مكانه . فلما رآه غلمانه اشتدت شوكتهم وحملوا على بكجور حتى انهزم في سبعة نفر وتبعه عشرة فوارس من العرب فسلبوه وأصحابه واختبأ . ثم رأى جماعة من العرب وفيهم رجل من بني قطن كان يستخدمه ، فعرّفه بنفسه وجعل له حملَ بعيره ذهبا إن أوصله إلى الرقة . فأردفه وحمله إلى بيته وكساه . وكان سعدُ الدولة بثّ الخيل في طلبه ، وجعل لمن أحضره حكمه . وكان بكجور بخيلًا فخاف البدوي أن يغدر به ، فأسرع إلى سعد الدولة وأخبره بحال بكجور واحتكم عليه مائتي فدان زراعة ومائة ألف درهم ومائة راحلة محملة براً وخمسين قطعة ثيابا ، فبذل له سعد الدولة ذلك كله . ثم جاء لؤلؤ الجراحي فأخبر بما قاله البدوي فقال : أين أهلك؟ قال : في المرج على بعد فرسخ . فأمر جماعةً من غلمانه أن يسرعوا ويقبضوا على بكجور ويحملوه . فتوجهوا وبقي

قابضاً على يد البدوي خشية أن يطمعه بكجور فينجو حتى جاؤا به فقتله (١) ثم ذهب سعد الدولة إلى الرقة ، وفيها سلامة الرشيقي ، وأبو الحسن المغربي وأولاد بكجور وحرمه ، فحلف لسلامة يميناً يؤمنهم فيها ثم غدر بهم وأخذ أموالهم . وكان أبو الحسن المغربي فر من الرقة إلى المشهد بالكوفة ، فلما مات سعد الدولة خلفه ابنه أبو الفضائل ، فعظّم أبو الحسن المغربي أمر حلب عند صاحب مصر وكثر أموالها وهوّن حصولها عليه ، فقدم غلاماً يسمى منجوتكين وولاه الشام وأمر القواد والأكابر بالترجل له واستكتب اليه أحمد بن محمد القشوري (٢) وسيّره إلى حلب ، وضم اليه أبا الحسن المغربي ، فوصل إلى دمشق وأقام بها مدة ثم رحل إلى حلب ونزلها في ثلاثين ألفاً ، وتحصن أبو الفضائل ولؤلؤ بالبلد وكان لؤلؤ حين علم بورود العساكر المصرية كتب إلى بسيل عظيم الروم يذكره بما كان بينه وبين سعد الدولة من المعاهدة ، وبذل له عن أبي الفضائل الجري على تلك العادة وحمل اليه ألطافاً كثيرة واستنجده وأرسل اليه ملكونا (٣) السرياني رسولا ، فقبل ذلك وكتب إلى البرجي صاحبه بأنطاكية بجمع عسكر الروم ، وقصد حلب فسار البرجي في خمسة آلاف . وفي (الكامل) لابن الأثير ج ٩ ص ٣٧ في خمسين ألفاً ، ونزل بجسر الحديد بين انطاكية وحلب ، فعرف منجوتكين وأبو الحسن

---

(١) في (النجوم الزاهرة) ج ٤ ص ١٦٠ بكجور التركي ولي إمرة دمشق لأستاذه العزيز [صاحب مصر] نقل إليها من حمص . . ولما كثر ظلمه عزله العزيز وولى مكانه منيراً الخادم سنة ٣٧٨ هـ فلم يسلم بكجور البلد إلا بعد قتال ، وتوجه إلى جهة حلب ، ثم قتل بمكان يقال له الناعورة وكان أصل بكجور من موالي سعد الدولة . . توفي سنة ٣٨١ (ج) .

(٢) في (النجوم الزاهرة) : التفوري ، وفي (مرآة الزمان) القسوري (ج) .

(٣) في (النجوم) : ملكون (ج) .

ذلك فجمعا وجوه العسكر وتشاوروا في الأمر ، فأجمعوا على الانصراف عن حلب ومقاتلة الروم أولا ، فساروا اليهم وخاض المسلمون النهر المقلوب [(١)] وهجموا على المخاض ، وقد سبق أنه نهر يخاض في الأرض التي تعرف بالروج فالتحموا بالروم ، فقتلوا منهم نحو عشرة آلاف رجل ، وأفلت البرجي في عدد قليل [(٢)] . ومضى منجوتكين إلى انطاكية فنهب رساتيقها [(٣)] وأحرقها ، ثم رجع إلى حلب ، فكتب لؤلؤ إلى أبي الحسن والقشوري وبذل لهما من المال ما استمالهما به ، وسألهما أن يشيرا على منجوتكين بالانصراف عن حلب في هذا العام والمعاودة في العام القابل لعلة تعذّر الأقوات والعلوفات ، فخاطبا منجوتكين بذلك فقبل وعاد .

فلما بلغ ذلك صاحب مصر استشاط غضباً ، فصرف أبا الحسن وجعل مكانه صالح بن علي الروزباري ورجع منجوتكين في السنة الثانية إلى حلب ، وأقام عليها ثلاثة عشر شهراً ، وأبو الفضائل ومن معه متحصنون بالبلد ، ثم أنفذ لؤلؤ ملكوتا إلى بسيل يستنجده مرة ثانية ، وكان في بلاد البلغر ، فقال له : متى أخذت حلب فتحت أنطاكية بعدها . فسار إلى حلب وقطع ثلاثمائة فرسخ في ستة وعشرين يوماً ، وكان الزمان ربيعاً ، وقد أنفذ منجوتكين وعسكره كراعهم إلى المرج ، وقرب هجوم بسيل وهم لا يشعرون . فأرسل لؤلؤ إلى منجوتكين أن بسيل أظلكم بجيوش الروم فخذوا حِذْركم ، وأن عصمة الإسلام الجامعة لنا تدعوني إلى إنذاركم ونصحكم . وجاءت طلائع منجوتكين بمثل هذا الخبر ، فأحرق الخزائن والأسواق والأبنية التي كان أحدثها وعاد منهزماً ، ثم نزل بسيل على باب

(١) النهر المقلوب هو النهر المعروف اليوم بالعاصي .

(٢) هذا يؤيد قول ابن الأثير أن البرجي قدم في خمسين ألفاً (ج) .

(٣) الرساتيق مفردها رُستاق بالضم : الرزداق وهو السواد والقرى ، معرب .

حلب فخرج إليه أبو الفضائل ولؤلؤ ولقياه ، ثم عاد ورحل في اليوم الثالث ، ففتح حمص ونهبها وسباها . ثم نزل على طرابلس فأقام عليها نيفاً وأربعين يوماً . فلما أيس منها عاد إلى بلاد الروم . أما صاحب مصر العزيز ، فلما بلغه انهزام منجوتكين أعظم ذلك واستنفر الناس ، فنفروا وخرج مع عساكره وعُدَدِه حتى نزل بلبيس ، فأقام بظاهرها ثم اعترضته علل فقضى نحبه ، واشتغل المصريون بأنفسهم بسبب موته وبطلت تلك الحملة .

وفي سنة ٤٢١ هـ خرج ملك الروم من القسطنطينية في ثلاثمائة ألف مقاتل إلى الشام ، فبلغوا قريباً من حلب وصاحبها شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس ، فنزلوا على يوم منها ، وكان الزمان صيفا ، فلحقهم عطش شديد ، وكان أصحابه مختلفين عليه . وكان معه ابن الدوقس ، يريد هلاك الملك ليملك بعده ، فأشار الملك بالإقامة حتى تجيء الأمطار ، فقبح ابن الدوقس هذا الرأي ، وأشار بالإسراع قصداً لشر يتطرق اليه ، ولتدبير كان دبره ، فسار ففارقه ابن الدوقس وابن لؤلؤ في عشرة آلاف فارس ، وسلكوا طريقاً آخر . فجاء بعض أصحاب الملك ، وأخبر الملك بأن ابن الدوقس وابن لؤلؤ حالفا اربعين رجلا وهو أحدهم على الفتك به ، فخاف ورحل من يومه راجعاً ، وتبعه ابن الدوقس ، وسأله عن سبب عودته ، فقال : قد اجتمعت علينا العرب وقربوا منا ، وقبض عليه وعلى ابن لؤلؤ ، فاضطرب الناس ، ورحل الملك ، وتبعهم العرب وأهل السواد والأرمن ، يقتلون وينهبون ، ونجا الملك ولم يسلَم من أمواله شيء ، وقد ذكر هذه الحادثة ابن الأثير في سنة ٤٠٢ و ٤٢١ و ٤٢٦ هـ .

وذكر ابن الوردي [١] عن ابن المهذب المعري ، أن ملك الروم اسمه أرمانوس ، وكانوا ستمائة الف ، وخرج في شهر تموز ومعه ملك البلغر وملك

---

(١) انظر ديوان ابن أبي حصينة الحاشية ص ٣٤٧ عن تاريخ ابن الوردي .

الروس والألمان والخزر والأرمن والبلجيك والفرنج ، وغنم المسلمون منهم مالا يحصى ، وأسروا جماعة من أولاد ملوكهم ، وفي ذلك يقول الأمير أبو الفتح الحسن بن عبد الله بن أبي حَصِينة المعري التنوخي ، من قصيدة أنشدها شبلَ الدولة بظاهر قنسرين مطلعها :[١]

ديارُ الحيِّ مقفرةٌ يَبابُ كأن رسومَ دِمْنَتِها كتابُ

وفيها يقول :

وأرمانوسُ كان أشدَّ بأساً وحَلَّ به على يدِكَ العذابُ
أتاكَ يجرُّ بحراً من حديدٍ له في كلِّ ناحية عُبابُ
إذا سارت كتائبهُ بأرضٍ تزَلْزَلَتِ الأباطحُ والهِضاب
فعاد وقد سَلبْتَ الملكَ عنه كما سُلِبَتْ عن الميْتِ الثياب
فما أدْناه من خيرٍ مجيءٌ ولا أقصاه عن شرٍّ ذهابُ

ولعل أبا العلاء يشير إلى هذه الحادثة بقصيدته التي يقول فيها :[٢]

أيُوعِدُنا بالرّومِ ناسٌ وإنما همُ النَّبْتُ والبيضُ الرّقاقُ سَوامُ
كأنْ لَمْ يكنْ بين المَخاضِ وحارمٍ كتائبُ يُشْجِينَ الفَلا وخِيامُ
كتائبُ من شَرقٍ وغربٍ تألَّبتْ فُرادى أتاها الموتُ وهو تُؤام[٣]

(١) ديوانه ١/٣٤٧ ، ٣٤٨ .
(٢) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٦٠٢ .
(٣) في الشروح : « أتاها الموت وهي تُؤام » .

لأنه يقول فيها :

وظنّوك ممن يُطفئ البَردُ نارَهُ إذا طَلَعَتْ عند الغُروبِ جَهامِ

ويجوز أن يكون يشير بها إلى الحادثة التي قبلها ، لأنه ذكر فيها المخاض ، ويقول فيها بعد قوله : وظنوك بمن ... :

وأنَّكَ تَثْنيها قُبالةَ جِلَّقٍ متى لاحَ بَرْقٌ واستَهَلَّ غَمامُ[1]

وهذه الحادثة تدل على أن المخاض موضعٌ على النهر المقلوب[2] لانهر بقرب المعرة .

وفي سنة ٤٣٢ هـ دخل جماعة من بني جعفر بن كلاب ولاية أفامية ، فعاثوا فيها ونهبوا عدة قرى ، فخرج عليهم جمع من الروم ، فأوقعوا بهم وأزالوهم عن بلادهم ، فأرسل الناظر بحلب إلى الدزبري يعرفه الحال ، فجهز جيشاً وسيّره على مقدمته ، فالتقوا بجيش الروم بين مدينة حماة وأفامية ، واشتد القتال ، فانهزم الروم وأُسِر ابن عم للملك ، وقتل منهم خلق كثير .

الأحداث التي وقعت في المعرة في عهد أبي العلاء

في سنة ٣٩٣ هـ خرّب لؤلؤ السيفي الجراحي المتغلب على حلب بعد أبي الفضائل كفر روما ، وهي قرية من قرى المعرة ، وقد كانت حصناً حصيناً ، وحصن أروح ، مخافة أن يقصد فيها .

وفي سنة ٤١٧ هـ صاحت امرأة يوم الجمعة في جامع المعرة ، وذكرت أن صاحب الماخور أراد أن يغصبها نفسها ، وكان نصرانياً ، فنفر كل من في الجامع ، إلا القاضيَ والمشايخ ، وهدموا الماخور ، وأخذوا خشبه ونهبوه

---

(١) في الشروح : « واستقل غمام » .

(٢) النهر المقلوب هو كما مر بنا : النهر المعروف اليوم بالعاصي .

وحرقوه وقتلوا الضامن ، وكان صالح بن مرداس صاحب حلب يومئذ في نواحي صيداء ، وكان له وزير يقال له : تازروس [أو تاذروس ، أو تادروس] ابن الحسن النصراني ، وكان متمكنا عنده ، وكان صاحب السيف والقلم ، وكان أهل المعرة قتلوا حماه الخوري ، فكان في نفس تازروس شيء من أهل المعرة من أجل حميه ، فكان يؤذيهم ، ويتتبع قتلته حتى قتلهم وصلبهم ، فلما أنزلوا عن الخشب ليصلَّى عليهم ويُدْفنوا ، قال الناس : قد رأينا عليهم طيوراً بيضا ، وما هي إلا الملائكة ، يريدون بذلك كيد النصارى ، فبلغت هذه الكلمة تازروس ، فنقمها على أهل المعرة واعتدّها ذنبا لهم ، وتربص بهم السوء ، فلما وقعت حادثة الماخور ، على ماذكرنا ، وسوس الوزير لصالح وأوغر صدره على أهل المعرة . وكان صالح قد وصل إلى حلب سنة ٤١٨ هـ فحاصر المعرة ونصب المناجيق وشدد الحصار عليها واعتُقِلَ سبعون رجلا من شيوخها وأعيانها (١) ، ولبثوا سبعين يوماً في محبس الحصن ، وذلك بعد عيد الفطر بأيام ، وقد دُعِيَ للمعتقلين على المنابر بآمِدَ وميّافارقين ، وكان تازروس أشار على صالح أن يقتلَ المهذب الشيخ أبا الحسن وأبا المجد محمد بن عبد الله بن سليمان أخا أبي العلاء ، وأوهمه أن في ذلك إقامةً للهيبة ، فأبى صالح أن يوافقه على القتل ، وقطع تازروس الف دينار (٢) على أهل المعرة وكان بعضُ بني سليمان جدٌّ أبي العلاء بمن اعتُقِل ، فلما اشتد الحصار على أهلها ، وآنسوا من نفوسهم العجز عن مقاومته ، لأنه جاءهم بما لاقبل لهم به ، جاءوا إلى أبي العلاء ، وقالوا له : إن الأمر قد عَظُم ، وليس له غيرك ، وسألوه أن يخرج إلى صالح

---

(١) في الوافي والوفيات : فقبض أحد كبار كتاب صالح على سبعين . . **(ج)**

(٢) في طبقات النحاة واللغويين : ص ١٧٠ عشرة آلاف دينار **(ج)** .

بنفسه ، ويدبر الأمر برأيه ، إما بأموال يبذلونها ، أو طاعة يعطونها . فخرج أبو العلاء ويدُه في يد قائده ، فلما فتح له باب من أبواب المعرة وخرج منه ، رأى صالح شيخاً قصيراً يقوده رجل . فقال : هذا أبو العلاء ، فجيئوني به ، فلما مثل بين يديه ، سلم عليه ثم قال :

الأمير ، أطال الله بقاءه ، كالنهار الماتع اشتد هجيرُه ، وطاب أبرادُه ، وكالسيف القاطع ، لان صفحُه وخشن حدّاه ، ﴿ خُذ العفوَ وأمُرْ بالعُرْفِ وأعرِض عن الجاهلين ﴾ فقال صالح : ﴿ لاتثريبَ عليكم اليوم ﴾ وقد وهبت لك المعرة وأهلها . ثم قال له : أنشدني شيئاً من شعرك ، فقال أبو العلاء : [١]

تَغَيَّبْتُ في مَنْزِلي بُرْهَةً سَتيرَ العُيُوبِ فَقيدَ الحَسَدْ
فلمّا مضى العُمْرُ إلا الأقلّ وَحُمَّ لِروحي فِراقُ الجَسَدْ
بُعِثْتُ شَفيعاً إلى صالحٍ وذاكَ مِنَ القومِ رَأْيٌ فَسَدْ
فَيَسْمَعُ منّيَ سَجعَ الحَمامِ وأَسْمَعُ منْهُ زَئيرَ الأَسَدْ

فقال له صالح : بل نحن الذين تسمعُ منا سجعَ الحمام ونسمع منك زئيرَ الأسد . ثم أمر بتقويض الخيام والمناجيق ، فنقضت ، ورحل ولم يعلم أبو العلاء أن المال قد قطع عليهم ، ولو علم ذلك لسأل صالحا رده ، ولما رجع أبو العلاء قال : [٢]

نَجّى المَعَرّةَ من براثِنِ صالحٍ رَبٌّ يعافي كلَّ داء مُعْضِلِ

---

(١) اللزوميات هـ ص ١١٦ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٢٠ ، وانظر الحاشية (٤) ص ٤٨ .

ماكان لي فيها جَنَاحُ بَعُوضَةٍ   اللهُ ألبَسهمْ جَنَاحَ تَفَضلِ

وبعض الرواة يقول : [١] إن صالحا استدعى اليه أبا العلاء ، وهو بظاهر المعرة . وآخر يقول : [٢] استدعاه اليه وهو في حلب . ولم يثبت أن أبا العلاء خرج من المعرة إلى حلب بعد رجوعه من بغداد . وعلى كل رواية ثبت أنه خرج الى لقاء صالح ، ولقيه وقال له ماتقدم معناه ، على اختلاف في الروايات .

وروى بعضهم كلمة أبي العلاء لصالح على غير هذا الوجه ، وذكر آخرون : أنه قال الأبيات الدالية بعد مفارقته صالحا ، وهذا أقرب الى القبول ، لأن بعدها بيتا خامسا ذكره في (لزوم مالا يلزم) ورواه ابن العديم وهو قوله :

فَلا يُعْجِبَنِّيَ هذا النِّفاقُ   فَكَمْ نَفَّقَتْ مِحْنَةٌ ما كَسَدْ [٣]

والظاهر من مواضعات أهل ذلك العصر أن مثل هذا البيت لايقال لمثل صالح في مثل هذا الموقف الخطير ، وفي (لزوم مالا يلزم) قبل البيتين الآخرين اللذين على روي اللام ، بيت آخر وهو :

آليتُ أرغبُ في قميصٍ مُمَوَّهٍ   فأكونَ شاربَ حنظلٍ في حَنْضَلِ [٤]

الحنضل : الغدير الصغير وجمع حنضلة وهو الماء في الصخرة ، والحنظل نبات مر معلوم .

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٦٧ عن الانصاف والتحري ـ لابن العديم .

(٢) روى هذا الخبر ابن العديم في الانصاف والتحري وأثبت في ص ٥٦٦ من تعريف القدماء بأبي العلاء .

(٣) اللزوميات هـ ص ١١٦ ، وروى هذا الخبر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٤١ عن إرشاد الأريب ـ لياقوت .

(٤) اللزوميات هـ ص ٢٢٠ وفيها : « حنظل من . . . » بدل : « حنظل في . . . »

وهذه القصة رواها ياقوت في (معجم الأدباء) وابن العديم والقفطي والذهبي والوردي والصفدي وغيرهم ، ونقلت عن أبي غالب بن المهذب المعري في تاريخه وهو أوثق الجميع ، لأن الحادثة وقعت في حياته ، وكلهم أخذوا عنه ، وتصرف بعضهم بما لا يضر في إثبات الحادثة ، وقد لخصنا ما ذكرناه من أقوال الجميع . ولم يتبين لنا ظاهر المعرة الذي كان فيه صالح : هل هو في الشرق أم في الغرب ، أم في غيرهما ، ويغلب على الظن أنه من جهة الشرق ، فإن لم يكن فمن جهة الشمال لأنها أول ما يقابل القادم من حلب إلى المعرة . والأبيات اللامية المذكورة رويت بروايات مختلفة .

وقد ذكر أبو العلاء هذه الحادثة في قصيدة في (لزوم ما لا يلزم) فقال : (١)

أَتَتْ جامِعُ يوم العَروبةِ جامِعاً ... تَقُصُّ على الشُّهّادِ بالمصر أمْرَها

فلو لم يقوموا ناصرين لِصَوْتها ... تَخِلْتُ سماءَ اللهِ تُمطِرُ جمرَها

فهدُّوا بناءً كان يأوي فِناءَه ... فواجرُ ألْقَتْ للفواحِشِ خُمْرَها

وزامرةٍ ليستْ من الرُّبْدِ خضَّبَتْ ... يدَيْها ورِجلَيْها تنفِّقُ زَمْرَها (٢)

ألِفْنَا بلادَ الشام إِلْفَ وِلادة ... نلاقي بها سُودَ الخطوب وحُمْرَها

فَطَوْراً نداري من سُبَيْعَةَ لَيْثَها ... وحيناً نُصَادِي (٣) من ربيعةَ نَمْرَها

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ١٣٨ .

(٢) زمر يزمر ويزمر غنى في القصب وامرأة زامرة . وزمرت النعامة صوتت والزمارة الزانيـة (ج) .

(٣) نداري (ج) .

أليس تميمٌ غيّرَ الدهرُ سَعْدَها ... أليس زُبَيدٌ أهلَكَ الدهرُ عَمْرَها
وددتُ بأني في عَمايةَ[1] فاردٌ[2] ... تعاشِرني الأروى[3] فأكْرَهُ قَمْرَها[4]
أفِرُّ من الطَّغْوى[5] إلى كل قفرةٍ ... أُوانسُ طُغْياها[6] وآلفُ قُمْرَها
فإنّي أرى الآفاقَ دانتْ لظالمٍ ... يَغُرُّ بغاياها ويشربُ خَمْرَها
ولو كانت الدنيا من الإنسِ لم تكنْ ... سِوى مومِسٍ أفنت بما ساءَ عُمْرَها
تَدين لمجدودٍ وإنْ باتَ غيرُه ... يَهُزُّ لها بيضَ الحروبِ وسُمْرَها
وما العيشُ إلا لجةٌ باطليّةٌ ... ومن بلَغَ الخمسين جاوزَ غَمْرَها
وَمَا زالتِ الأقدارُ تَتْرُكُ ذا النهى ... عَديماً وتعطي مُنْيَةَ النفسِ غُمْرَها
إذا يسَّرَ اللهُ الخطوبَ فكم يدٍ ... وإنْ قَصُرَت تَجْني من الصابِ تَمْرَها
ولولا أُصولٌ في الجيادِ كوامِنٌ ... لما آبتِ الفُرسانُ تحْمَدُ ضُمْرَها

وقد استنبط صاحب (الذكرى)[7] من هذه الأبيات أن اسم المرأة التي صاحت (جامع) ، وذهب الأستاذ الميمني[8] إلى أن الجامع هي الحامل ،

---

(١) جبل (ج) .
(٢) منفرد (ج) .
(٣) الوعل (ج) .
(٤) قمر الطائر : عشاه في الليل بالنار ليصيده ، وقمره خدعه (ج) .
(٥) اسم من طغى إذا جاوز وارتفع وغلا في الكفر وجاوز الحد في العصيان (ج).
(٦) ُطغْيا : بقرة الوحش أو الصغير من بقر الوحش ، والقُمْرة لون إلى الخضرة أو بياض فيه كدرة ، حمار أقمر وأتان قمراء (ج) .
(٧) ذكرى أبي العلاء — لطه حسين — ط ٢ ص ٢٠٩.
(٨) أبو العلاء وما إليه — للميمني — ص ٢٤٠ .

وقد قال في (لسان العرب) : وامرأة جامع في بطنها ولد . وكلا القولين لا يخرج عن حدود الظن والاحتمال لأن لفظ الجامع جاء علماً ، وجاء لمعان غير ما ذكر ، وإنما يجلي الحقيقة النص التاريخي وليس لدينا ذلك .

الخلفاء الفاطميون الذين أدركهم أبو العلاء

هم خمسة : الأول : المعز لدين الله أبو تميم معدّ بن المنصور إسماعيل ، ولي الخلافة سنة ٣٤١ ﻫ وتوفي سنة ٣٦٥ ﻫ وفي آخر عهده ولد أبو العلاء سنة ٣٦٣ ﻫ

الثاني : العزيز بالله نزار بن المعز ، ولي بعد أبيه سنة ٣٦٥ ﻫ وتوفي سنة ٣٨٦ ﻫ .

الثالث : المنصور الحاكم بأمر الله ابن العزيز ولي سنة ٣٨٦ ﻫ وتوفي سنة ٤٢١ ﻫ .

الرابع : الظاهر لإعزاز دين الله علي بن المنصور ولي سنة ٤٢١ ﻫ وتوفي سنة ٤٢٧ ﻫ .

الخامس : المستنصر بالله معد بن الظاهر ولي سنة ٤٢٧ ﻫ وتوفي سنة ٤٨٧ ﻫ .
وقد توفي أبو العلاء في عهده سنة ٤٤٩ ﻫ .

وقد استولى الفاطميون على دمشق سنة ٣٥٨ ﻫ ، وخطب في حلب أبو المعالي وقرعونة للمعز الفاطمي سنة ٣٥٩ ﻫ وسلم فتحٌ غلامُ مرتضى الدولة حلبَ إلى نواب الحاكم سنة ٤٠٦ ﻫ على نحو ما تقدم .

الخلفاء العباسيون الذين أدركهم أبو العلاء :

في منتصف ذي القعدة سنة ٣٦٣ هـ كلّف سبكتكين التركي الخليفة المطيعَ لله الفضلَ بنَ المقتدر أن يخلع نفسه ففعل ، وهو الثالث والعشرون من خلفاء بني العباس ، وكانت ولادة أبي العلاء في ربيع الأول سنة ٣٦٣ هـ فيكون أدرك من خلافتــه نحواً من سبعة أشهر ونصف على اختلاف في الأقوال .

وخلفه في هذه السنة ولده الطائع لله عبد الكريم وهو الرابع والعشرون ، ثم قبض عليه بهاء الدولة ابن عضد الدولة سنة ٣٨١ هـ وحبسه في داره وأشهد عليه بالخلع ، ونهب دار الخلافة واستمر الطائع سجيناً في منزله إلى أن توفي سنة ٣٩٣ هـ .

وبويع القادر بالله أحمد بن إسحاق بن المقتدر في تلك السنة وتوفي سنة ٤٢٢ هـ . ثم خلفه ابنه القائم بأمر الله عبد الله بن القادر في تلك السنة وتوفي سنة ٤٦٧ هـ وقد كانت وفاة أبي العلاء في سنة ٤٤٩ هـ . فيكون أدرك أربعة خلفاء منهم .

طائفة من الأحداث

التي وقعت في عهد أبي العلاء في العراق وغيرها

في سنة ٣٣٤ هـ وصل معز الدولة بغداد وبايع المستكفيَ بالله ثم خلعه ونهب داره ، وبايع المطيعَ لله واستلم نواب المعز العراق بأسره ، ولم يبق في يد الخليفة غير ما أقطعه إياه معز الدولة مما يقوم ببعض حاجته ، ثم مات معز الدولة وولي بعده ابنه عز الدولة بختيار .

وفي سنة ٣٦٣ هـ سار بختيار إلى الأهواز وتخلف سبكتكين التركي عنه ببغداد . فأوقع بختيار بمن معه من الأتراك واحتاط على أقطاع سبكتكين فخرج عليه سبكتكين ببغداد فيمن بقي معه من الأتراك ونهب دار بختيار ببغداد ، وألزم المطيع أن يخلع نفسه ويسلم الخلافة إلى ولده الطائع ففعل .

وفي هذه السنة سارت القرامطة إلى بلاد مصر فحاربهم المعز العلوي ، فانهزموا ، فأرسل في إثرهم عشرة آلاف فارس ، فسارت القرامطة إلى الأحساء والقطيف ، فأرسل المعز القائد ظالم بن موهوب العقيلي إلى دمشق فدخلها وعظم أمره . ثم وقع بين أهل دمشق والمغاربة وعاملهم المذكور فتن دامت إلى سنة ٣٦٤ هـ أحرقوا خلالها بعض مدينة دمشق .

انحدر سبكتكين في سنة ٣٦٣ هـ بالأتراك إلى واسط ، وأخذ معه الخليفتين الطائع والمطيع ، فمات المطيع وسبكتكين ، وولى التركُ عليهم أفتكين ، وساروا إلى واسط وبها بختيار ، فاقتتلوا نحو خمسين يوماً ، وكان الظفر للأتراك ، فاستنجد بختيار بابن عمه عضد الدولة ، فسار في سنة

٣٦٤هـ بعساكر فارس ، فلما قارب واسط رجع أفتكين إلى بغداد ، فسار إليها عضد الدولة من الجانب الشرقي ، وسار بختيار من الجانب الغربي ، وخرجت الأتراك فقاتلوا عضد الدولة فهزمهم ، ثم شغب الجند على بختيار يطلبون أرزاقهم ، فأشار عليه عضد الدولة أن يتبرأ من الإمرة ليصلح الحال مع الجند ففعل . فأشهد عضد الدولة الناسَ على بختيار أنه عاجز وقد استعفى من الإمرة ، ثم قبض على بختيار وإخوته واستتب له الأمر ببغداد . وكان لبختيار ولد يقال له المرزبان ، كان متولياً بالبصرة ، فكتب إلى ركن الدولة أبي عضد الدولة بذلك ، فما زال يلح على ولده عضد الدولة حتى أخرج بختيار من حبسه ، وأعاده إلى ملكه ، وسار عن العراق .

وأما أفتكين التركي فقد كان مولى لمعز الدولة بن بويه ، فلما انهزم من بختيار سار إلى دمشق . فاتفق مع أهلها وأخرجوا ريان الخادم أميرها من قبل المعز العلوي الذي مات في هذه المدة سنة ٣٦٤هـ .

فلما ولي ابنه العزيز جهز القائد جوهراً إلى الشام ، فوصل إلى دمشق وحصر أفتكين فيها ، فاستنجد بالقرامطة ، فلما قربوا منها رحل جوهر إلى مصر ، وتبعه أفتكين والقرامطة ، فأدركوه قرب الرملة ، فدخل عسقلان فحصروه فيها ، فبذل إلى أفتكين أموالاً عظيمة ، فأخذها ورحل عنه .

وسار جوهر إلى مصر فأعلم العزيز بما وقع ، فخرج بنفسه إلى الرملة ، فالتقى بأفتكين والقرامطة ، فهزمهم والتجأ أفتكين إلى مفرج بن دغفل الطائي ، فأعلم العزيز به ، فأرسل من أحضره وخلع عليه واصطحبه إلى مصر وبقي عنده مكرماً حتى مات .

وفي سنة ٣٦٦هـ سار عضد الدولة بعد موت أبيه إلى العراق ، فخرج بختيار إلى قتاله بالأهواز ، ثم انهزم بختيار إلى واسط وبعث عضد الدولة عسكراً فاستولى على البصرة ، ثم سار إليها وقرر أمورها وذهب بختيار إلى بغداد .

وفي سنة ٣٦٧ هـ كتب عضد الدولة إلى بختيار يقول له : اخرج من هذه البلاد وأنا أعطيك أي بلاد اخترت غيرها . فرضي وسار إلى نحو الشام ، ودخل عضد الدولة بغداد واستقر فيها ، ولعل أبا العلاء يشير إلى هذه الحوادث بقوله : (١)

لو بُعثَ المنصورُ نادى أيا مَدينَةَ التسليمِ لا تَسْلَمي
قَدْ سكَنَ القفرَ بنوهاشمٍ وانتقل الملكُ إلى الدَّيلَمِ
لو كُنْتُ أدري أن عُقباهُمُ كذاك لم أُقْتُلْ أبا مُسلمِ
قد خَدَمَ الدولةَ مستنصِحاً فأَلْبَسَتْهُ شِيَةَ العِظْلِمِ

ثم أطمع حمدانُ بنُ ناصر الدولة بختيارَ في ملك الموصل وهوّن عليه أمر أخيه أبي تغلب ، وأرسل أبو تغلب إلى بختيار يقول له : إن سلّمت إلى أخي حمدان صرتُ معك وقاتلتُ عضدَ الدولة . فغدر بحمدان وسلمه إلى أخيه فحبسه ثم سار أبو تغلب وبختيار إلى بغداد فخرج منها عضد الدولة والتقوا بقصر الجص من نواحي تكريت فقُتِل بختيار وهرب أبو تغلب إلى ميافارقين ، فأرسل جيشاً في طلبه مقدّمه أبو الوفاء ، فهرب أبو تغلب إلى بدليس فتبعه ، فهرب إلى نحو بلاد الروم فتبعه وجرى بينهما قتال ، فانتصر أبو تغلب وهزم العسكر وسار إلى حصن زياد ، وهو خرت برت ، ثم إلى آمد فأقام بها . وكان عضد الدولة بعد قتل بختيار سار إلى الموصل فملكها .

وفي سنة ٣٦٨ هـ فتح أبو الوفاء المذكور ميافارقين بالأمان فسار أبو تغلب إلى الرحبه ، ثم فتح أبو الوفاء آمد واستولى عضد الدولة على جميع ديار بكر ثم ديار مضر والرحبة ، فاستخلف أبا الوفاء على الموصل وعاد إلى بغداد . أما أبو تغلب فإنه سار إلى دمشق ، وقد كان قسام استولى عليها ،

(١) اللزوميات هـ س ٢٥٢ ، وفيها : «لذاك لم أقتل ...» والعظلم : الليل المظلم و نبت يصبغ به

فقاتل أبا تغلب ومنعه من دخولها ، فسار إلى طبرية ، ثم سار إلى الرملة سنة ٣٦٩ هـ ، ولم يبق معه إلا سبعمائة رجل من غلمانه وغلمان أبيه . وكان في تلك الجهة ودغفل بن مفرج الطائي وقائد من قواد العزيز اسمه الفضل ، جهزه العزيز إلى الشام فساروا لقتال أبي تغلب فولى منهزما ، ثم اسر فقتله دغفل ، وكان معه أخته جميلة بنت ناصر الدولة وزوجته بنت عمه سيف الدولة ، فحملها بنو عقيل إلى حلب ، وبها ابن سيف الدولة فأبقى أخته عنده وأرسل جميلة إلى بغداد ، فاعتقلت في حجرة في دار عضد الدولة .

وفي سنة ٣٧٢ هـ سير العزيز العلوي جيشاً إلى الشام مع بكتكين ، فوصل إلى فلسطين وعليها مفرّج بن الجراح فانهزم وكثر القتل في أصحابه ، ثم سار بكتكين إلى دمشق وعليها قسام ، فغلبه بكتكين ، وأرسله إلى العزيز بمصر ، واستقر بدمشق ، وفيها توفي عضد الدولة وولي الإمارة بعده ولده كاليجار المرزبان ، ولقبوه صمصام الدولة ، وكان أخوه شرف الدولة شيرزيك بكرمان ، فسار إلى فارس فملكها .

وفي سنة ٣٧٥ هـ قصد القرامطة الكوفة ففتحوها ونهبوها ، فجهز صمصام الدولة جيشاً فهزمهم وأكثر القتل فيهم .

وفي سنة ٣٧٦ هـ سار شرف الدولة شيرزيك من الأهواز إلى واسط فملكها وركب اليه أخوه صمصام الدولة بخواصه مستأمناً ، فطيب قلبه ، فلما خرج من عنده غدر به وقبض عليه ، وسار إلى بغداد ودخلها ، وأخوه معتقل معه ، ثم أرسله إلى فارس ، فاعتقله في قلعة هناك .

وفي سنة ٣٧٩ هـ أرسل شرف الدولة محمد الشيرازي ليسمل أخاه صمصامَ الدولة ، فوصل إليها بعد موت شرف الدولة وسمله فأعماه ، ولما توفي شرف الدولة خلفه أخوه أبو نصر بهاء الدين ، وقيل اسمه خاشاذ ، وفيها وقعت الفتنة في بغداد بين الترك والديلم واقتتلوا خمسة أيام ، وظل

بهاء الدولة في داره اثني عشر يوماً يراسلهم في الصلح فلم يسمعوا ، ثم صار مع الترك ، فضعف أمر الديلم ، وأجابوا إلى الصلح ، وأخذ بعد ذلك أمرُ الترك يقوى ، وأمرُ الديلم يضعف .

وفي هذه السنة شخص أبو الطاهر إبراهيم وأبو عبد الله الحسين ابنا ناصر الدولة إلى الموصل فاستوليا عليها وطردا العامل والعسكر الذي قاتلهما إلى بغداد واستقرا في الموصل .

وفي سنة ٣٨٠ هـ استولى أبو الذواد محمد بن المسيب بن رافع أمير عقيل على الموصل ، وقتل أبا الطاهر وأولادَه وعدة من قواده بعد قتال شديد .

وفي سنة ٣٨١ هـ خلع بهاءُ الدولة الطائعَ طمعاً في ماله ، وبويع بعده القادر بالله .

وفي سنة ٣٩٠ هـ ولى الحاكمُ نيابةَ الشام فحلَ بنَ تميم فمرض ومات .

وفي سنة ٣٩٢ هـ ولى الحاكم عوضَه على دمشق عليَّ بن جعفر بن فلاح .

وفي سنة ٣٩٩ هـ ولى الحاكمَ القائدَ أبا الجيش حامد بن ملهم أميراً على دمشق بعد علي بن جعفر فوليها سنة وأربعة أشهر ، ثم عزل بمحمد بن بزال .

وفي سنة ٤٠١ هـ ولى الحاكمُ لؤلؤَ بنَ عبد الله الشيرازي البشاري أو البشراوي منتجبَ الدولة ثم عزله وولى أبا المطاع ذا القرنين ابن حمدان التغلبي (وحيد الدولة) .

وفي سنة ٤٠٣ هـ توفي بهاء الدولة ، وولي الملكَ بعده ابنُه سلطانُ الدولة أبو شجاع .

وفي سنة ٤٠٦ هـ قتل سلطانُ الدولة نائبَه بالعراق فخرَ الملك أبا غالب واستوزر أبا محمد الحسن بن سهلان .

وفي هذه السنة ولى الحاكمُ دمشقَ سائكين سهم الدولة ، وعزله سنة ٤٠٨هـ .

وفي سنة ٤١١ هـ شغب الجند ببغداد على سلطان الدولة ، فاستخلف أخاه مشرف الدولة على العراق ، وسار إلى الأهواز ، واستوزر في طريقه ابن سهلان ، ثم أرسله ليُخرج أخاه مشرفَ الدولة من العراق ، فاقتتلا فانتصر أخوه وأمسك ابن سهلان وسمله ، ففر سلطان الدولة إلى الأهواز في أربعمائة فارس ، واستقر أخوه في ملك العراق ، وخطب له في أواخر المحرم سنة ٤١٢ هـ ثم في سنة ٤١٣ هـ اصطلحا على أن يكون العراق لمشرف الدولة ، وكرمان وفارس لسلطان الدولة ، وفيها استوزر مشرفُ الدولة أبا الحسن بن الحسن الرخجي ، ولقّب مؤيدَ الملك ، ثم قبض عليه سنة ٤١٤ هـ واستوزر أبا القاسم المغربي ، وتوفي مشرف الدولة سنة ٤١٦هـ .

وفي سنة ٤١٧ هـ تسلط الأتراك في بغداد ، فأكثروا مصادرات الناس بسبب خلو بغداد من سلطان .

وفي سنة ٤١٨ هـ استدعى الجند بأمر الخليفة جلالَ الدولة أبا طاهر ابن بهاء الدولة إلى بغداد ، فحلّفه الخليفةُ القادرُ واستوثق منه . واستقر في بغـداد .

وفي سنة ٤٢٣ هـ شغب الجند ببغداد على جلال الدولة ، ونهبوا داره ، وأخرجوه من بغداد إلى عكبراء ثم اتفقوا معه ، وعاد إلى بغداد .

وفي سنة ٤٢٦ هـ انحل أمر الخلافة والسلطنة ببغـداد وعظم أمر العيّارين [1] ، فصاروا يأخذون أموال الناس ليلاً ونهاراً ، والسلطان جلال الدين عاجز ، والخليفة أعجز منه ، وانتشرت العرب في البلاد ، ونهبوا النواحي وقطعوا الطريق .

---

(١) العيار كشداد الرجل الذكي الكثير التطواف والحركة والعرب تمدح وتذم بالعيار . قال ابن الأنباري : العيار من الرجال الذي يخلّي نفسه وهواها لا يروعها ولا يزجرها ، كذا في المصباح ولعله : لا يردعها . (ج)

وفي سنة ٤٣٥ هـ توفي جـلالُ الدين ، وكان ابنُهُ العزيزُ أبو بكر منصور بواسط ، فكاتبه الجند فيما يحمله اليهم ، فلم ينتظم له أمر فسار يطلب النجدة من الملوك ، مثل قرواش وأبي الشوك ، فلم ينجده أحد. فقصد نصرَ الدولة بنَ مروان وتوفي عنده بميافارقين سنة ٤٤١ هـ .

ولما لم ينتظم أمره كاتب الملك أبو كاليجار بنُ سلطان الدولة بن بهاء الدولة ابن عضد الدولة عسكرَ بغداد ، فاستقر له الأمر ، وخطب له ببغداد سنة ٤٣٦هـ .

وفي سنة ٤٤٠ هـ خرج بهرام الديلمي عامل أبي كاليجار عن طاعته ، فسار أبو كاليجار إلى بلاد كرمان ، فقويت به الحمى فمات بمدينة جناب من كرمان ، ونهب الأتراك الخزائن والسلاح والدواب من العسكر . وكان معه ولده أبو منصور فلاستون ، فذهب إلى شيراز فملكها . وله ولد آخر كان ببغداد وهو الملك الرحيم أبو نصر خسرو فيروز بن أبي كاليجار ، فاستولى على بغداد ، ثم أرسل عسكراً إلى شيراز ، فقبض على أخيه فلاستون وعلى والدته .

وفي هذه السنه أي سنة ٤٤٠ هـ ولى المستنصرُ طارقاً الصقلي دمشقَ وعزله عنها ناصر الدولة الحسن بن الحسن بن حمدان .

وفي سنة ٤٤١ هـ سار البساسيري كبيرُ الأتراك ببغداد وملك الأنبار وقرر قواعدها ، وعاد إلى بغداد .(١)

وفيها وقعت فتنة ببغداد بين السنة والشيعة ، وعظم الأمر حتى بطلت الأسواق ، وشرع أهل الكرخ في بناء سور عليهم محيطاً بالكرخ ، وشرع السنية من القلايين ومن يجري مجراهم في بناء سور على سوق القلايين ، وكان

(١) البساسيري مملوك تركي من مماليك بهاء الدولة بن عضد الدولة اسمه أرسلان ، ينسب إلى مدينة بسا بفارس وكان سيدُ هذا المملوك منها فقيل له البساسيري . (أبو الفداء ٢ ـ ١٧٩) . (ج)

الاذان بأماكن الشيعة بـ (حي على خير العمل) ، وبأماكن السنية : (الصلاة خير من النوم) .

وفي هذه السنة صرف المستنصرُ طارقاً الصقلبي عن دمشق ، وولى مكانه عدةَ الدولة المستنصري ، ثم صرفه وبعث به إلى حلب ، وَوَلِّيَ دمشقَ حيدرةُ بن الحسين بن مفلح أبو الكرم المؤيد فأقام بها تسع سنين .

وفي سنة ٤٤٣ ﻫ وقعت فتنة بين الشيعة والسنية وعظم الأمر ، وأحْرِقَ ضريحُ موسى بن جعفر وقبر زبيدة وقبور بني بويه وجميع الترب التي حواليها ووقع النهب ، وقصد أهل الكرخ إلى خان الحنفيين وقتلوا مدرّس الحنفيين أبا سعيد السرخسي وأحرقوا الخان ودور الفقهاء ، ثم صارت الفتنة إلى الجانب الشرقي فاقتتل أهل باب الطاق وسوق يحيى والأساكفة ، وعادت الفتنة سنة ٤٤٤ ﻫ .

وفي سنة ٤٤٧ ﻫ ثارت جماعة من السنية ببغداد وطلبوا من الخليفة أن يأذن لهم أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، فأذن لهم وزاد شرهم وأذن لهم في نهب دور البساسيري ، وقد كان غائباً في واسط فنهبوها وأحرقوها ، وأرسل الخليفة إلى الملك الرحيم يأمره بابعاد البساسيري فأبعده ، وسار إلى جهة دبيس بن مرثد لمصاهرة بينهما .

وفي هذه السنة نزل طغرلبك حلوان ، فعظم الإرجاف ببغداد ، وأرسل قوادُ بغداد يبذلون له الطاعة والخطبة فأجابهم إلى ذلك ، ثم أرسل طغرلبك واستأذن في دخول بغداد ، فتوجهت إليه الرسل فحلّفوه للخليفة القائم وللملك الرحيم فحلف لهما ، ودخل بغداد ، ونزل بباب الشماسية . ثم جرى بين عسكره وبين بعض السوقية هوشة ، وثار أهل تلك المحلة على مَن فيها من الغز عسكر طغرلبك ونهبوهم ، وثارت بينهم الفتنة ببغداد ، وخرجت العامة إلى وطاقات طغرلبك ، فركب عسكره وتقاتلوا ، فانهزمت العامة ، وأرسل طغرلبك يقول : إن كان هذا من الملك الرحيم فهو لا يقدر على

الحضور إلينا ، وإن كان بريئاً من هذا فلا بد من حضوره . فأرسل الخليفة إلى الملك الرحيم أن يخرج هو وكبار القواد وهم في أمان الخليفة ، فخرجوا إلى طغرلبك ، فقبض عليهم ، فعظم ذلك على الخليفة القائم ، وأرسل إلى طغرلبك في أمرهم ، وشكا من عدم حرمته وعدم الالتفات إلى أمانه ، فأفرج عن بعض القواد واستمر الباقون والملك الرحيم في الاعتقال .

وفي هذه السنة وقعت فتنة بين الشافعية والحنابلة ببغداد ، فأنكرت الحنابلة على الشافعية الجهر بالبسملة والقنوت في الصبح والترجيع في الأذان .

ثم لما أقام طغرلبك في بغداد ثقلت وطأة عسكره على الرعية إلى الغاية ، فرحل في العاشر من ذي القعدة سنة ٤٤٨ هـ إلى نصيبين ثم إلى ديار بكر ، ولم يلق الخليفة مدة مقامه في بغداد ثلاثة عشر شهرا وأياما .

وفي سنة ٤٤٩ هـ عاد إلى بغداد بعد أن استولى على الموصل وأعمالها ، وسلمها إلى أخيه إبراهيم ينال . ولما قارب القفص خرج لتلقيه كبراء بغداد ، فلما دخلها قصد الاجتماع بالخليفة القائم ، فجلس له على سرير عال عن الأرض نحو تسعة أذرع وعليه البردة . ودخل طغرلبك في جماعته وأحضر أعيان بغداد وكبراء العساكر ، وذلك يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة ، فقبل الأرض ويد الخليفة ، ثم جلس على كرسي ثم قال له رئيس الرؤساء : إن الخليفة قد ولاك جميع ما ولاه الله تعالى من بلاده ، ورد إليك مراعاة عباده ، فاتق الله فيما ولاك ، واعرف نعمته عليك . وخلع على طغرلبك ، وأعطى العهد ، فقبل الأرض ويد الخليفة ثانياً وانصرف . ثم بعث إلى الخليفة خمسين ألف دينار وخمسين مملوكاً من الأتراك ، ومعهم خيولهم وسلاحهم مع ثياب وغيرها .

وكان أبو العلاء توفي في الثالث أو الثالث عشر من ربيع الأول من هذه السنة .

وقد أشار في شعره إلى ما كان يقع من الحوادث والفتن في مثل قوله (١) :

إنَّ العراقَ وإنَّ الشامَ مُذْ زَمَنٍ صِفرانِ ما بهما للمُلْكِ سلطانُ

وقوله (٢) :

والشّامُ فيه وَقودُ الحربِ مُشتَعِلٌ يَشُبُّهُ القومُ شُدَّتْ منهمُ الُحجَزُ
وبالعراقِ وميضٌ يَستَهِلُّ دماً وراعِدٌ بلقاء الشرِّ يَرْتجِزُ

وقوله (٣) :

ومَهْلَكُ دولةٍ وقيامُ أُخرى كذاكَ الدهر أمرٌ بعد أمرِ

وقوله (٤) :

دَعي وذري الأقدارَ تمضي لشأنِها فلم تَحْمِ مُلكاً لا دمشقُ ولا مِصْرُ
ولا الحرّةُ السّوداء حاطتْ سيادةً ولا البَصْرةُ البيضاء حصّنها البِصْرُ

---

(١) اللزوميات ﻫ س ٢٦٢ .
(٢) اللزوميات ﻫ س ١٧٢ .
(٣) اللزوميات ﻫ س ١٥٣ .
(٤) اللزوميات ﻫ س ١١٩ ، والبِصْر والبَصْر : الحجارة البيض .

الحياة السياسية في شعر أبي العلاء

اتضح مما تقدم أن أبا العلاء عاصر دولاً متعددة ، وشهد انقراض دول وقيام أخرى ، وما يستتبعه ذلك من إراقة دماء وتمزيق أشلاء ، وسمل عيون ودفن أحياء وهتك أعراض واستباحة محارم وخراب عامر وإحراق أموال وسلب ذخائر ومجاعات وما شاكل ذلك من الفظائع التي يقترفها الغالب والفاتح ، والفجائع التي يرتكبها الموتور والمغلوب إذا سنحت له الفرصة ، أضف إلى ذلك ما كانت تجره الفتن التي تضطرم باسم الدين ويشمل أذاها القاصي والداني ، حتى أفضى ذلك إلى خراب البلاد وهلاك العباد . ولم يكن هذا الويل مختصاً بالشام أو العراق أو مصر ، بل كل الأصقاع كانت مغمورة بفتن كقطع الليل المظلم . ولم تكن الأندلس أحسن حالاً من الشام وإنما كانت فيها عروش تنهار ودماء تراق وعمران يتداعى وأمراء تسوقهم أطماعهم إلى أن يخربوا بيوتهم بأيديهم وأيدي الفرنجة الذين يتربصون بهم السوء ولا يفترون عن الكيد لهم .

وفي افريقية كانت تلتهب نيران الفتن يشبها البربر وغيرهم ، فتلتهم الأخضر واليابس ، وما شئت أن تقول عن بلاد الأعاجم وما كان فيها من حروب طاحنة وفتن مبيدة فحدث ولا حرج .

كل هذا أدركه أبو العلاء ، وكان شديد العناية بحالة المسلمين عامة ، كثير التقصي لأخبارهم في الأصقاع المختلفة ، إلا أنه كان يطلع على أخبار البلاد العربية أكثر من غيرها ، لأنها كانت مقر الخلافة والملك ، ولأنها أقرب من غيرها إليه ، وكان أكثر اتصالاً بالرجال العالمين بأحوالها من أبنائها وغيرهم ، ولذلك تصدى في كلامه إلى ما كان فيها أكثر من غيرها .

وقد أورثه ما كان يسمعه من أمورها أسى وحزنا وليس لديه ما يفرج كربه إلا ما كان ينعاه على الملوك والأمراء وأعوانهم ، ولقد صور في

شعره الحياة السياسية أجمل تصوير ، فبين لنا أن شأن الملوك عزف ونزف ، ونهب الأموال واستباحة الفروج وظلم المستضعفين وتكليف الرعية ما لا تطيق وعدم حياطتها وإقامة العدل فيها و كثرة القتل وخضوع الآفاق للظالم المنهمك في ملاذه ، حتى مل المقام لما يراه من جور الحكام الذين هم أجراء الأمة .

وإن الشام والعراق خاليان من سلطان يقيم العدل ، وإنما يسوس كل مصر شيطان لا يهمه إلا ملء بطنه بالخمر وغيرها ، وأنه لا يرى موضعاً إلا وهو مغمور بالفتن والمنكرات .

وإن مصر والعراق والشام والحجاز عاجزة عن حماية الملك واستقراره ، فهو ينتقل من يد غاصب متغلب إلى يد أقوى منه سلطاناً وأشد جشعاً وعنفاً ، وستأتي أمثلة من ذلك في شعره في السياسة وفي غيره .

الحياة الاقتصادية في عصره وشعره

لا يتسنى لأمة أن تحيا حياة الراحة والدعة إلا إذا خيم فوق ربوعها السلم ، وكانت الغلبة فيها للحق والعدل ، وتفيأ أهلها ظلاً ظليلا من الأمن والطمأنينة ، وتمتعوا بنعمة الأمانة والوفاء ، فتتسع بذلك موارد الثروة ، وتخصب مرافق الحياة ، ويصبح كل إنسان آمناً في سربه على نفسه وعرضه وأهله وماله ،

وللحياة الاقتصادية صلة محكمة بالحياة السياسية ، وقد عرفنا مما تقدم أنها كانت على أسوأ حالة ، تثل فيها عروش ، ويهدم عامر ، وتستباح دماء وأموال ، قضاء لشهوة وإشباعاً لنهمة ، وربما فعل الواحد بقريبه ما لا يفعله أشد عدو بعدوه . و كثيراً ما تفضي هذه الأمور إلى وقوع الناس بين أنياب الفاقة والجوع . وفي التاريخ عجائب وعبر مما وقع في هذا العهد من البؤس والجوع الذي اضطر الناس إلى أن يأكلوا أنواع الحيوان حياً وميتاً وأن يأكل بعضهم بعضاً . وربما كانت الطبيعة

عوناً للإنسان الظالم على الضعفاء المظلومين فأعانته بزلزال أو قحط أو طاعون أو مطر عظيم أو عواصف شديدة أو نحو ذلك مما يزيدهم ضغثاً على إبالة .

وهذه جملة موجزة من الحوادث توضح فيها الحياة التي صحبها أبو العلاء من أول عمره إلى آخره ، وما وقع منها في الأمصار العربية أو ما يجاورها .

ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٣٦٣ هـ الفتنة التي أثارها المغاربة جنود المعز في دمشق ، وأحرقوا البلد من ناحية باب الفراديس ، فامتدت النار إلى جهة القبلة ، فأحرقت كثيراً من البلد وهلك من الناس والأثاث والأموال ما لا يحد . ثم عادت الفتنة سنة ٣٦٤ هـ فأحرقوا من البلد ما كان قد سلم ، وخربت المنازل وانقطعت الموارد وانسدت المسالك وقطع الماء عن البلد ومات كثير من الفقراء على الطرقات من الجوع والبرد .

وفي سنة ٣٦٥ حصر جيشُ العزيز مكةَ ومنع الميرة عن أهلها فغلت الأسعار ولقي أهلها شدة شديدة .

وفي سنة ٣٦٧ هـ وقعت زلازل في المهدية وامتدت أربعين يوماً .

وفي سنة ٣٦٨ هـ وقعت زلازل وكان أشدها في العراق .

وفي سنة ٣٧١ هـ وقع حريق في الكرخ دام اسبوعاً هلك فيه خلق كثير ومال أكثر .

وفي سنة ٣٧٣ هـ غلت الأسعار بالعراق وما يجاوره وعدمت الأقوات فمات كثير من الجوع .

وفي سنة ٣٧٦ هـ كانت بالموصل زلزلة شديدة هدم فيها كثير من المنازل وهلك كثير من الناس واشتد الغلاء بالعراق حتى جلا أكثر أهله عنه .

وفي سنة ٣٧٧ هـ اشتد الغلاء كذلك وتأخر المطر .

وفي سنة ٣٧٨ هـ كثر المطر والبَرَد الكبار حتى امتلأت الأنهار والآبار

بلاد الجبل ، وخربت المساكن وانقطعت الطرق وكثرت العواصف بفم الصلح ، وأهلكت كثيراً من الناس وأغرقت كثيراً من السفن الكبيرة المملوءة.

وفي سنة ٣٨١ ﻫ كثرت الفتن والحريق في بغداد ووقعت حرب بين الروم ومنجوتكين وعبر المسلمون المخاض بالروج كما سيأتي .

وفي سنة ٣٨٢ ﻫ غلت الأسعار ببغداد فبيع رطل الخبز بأربعين درهماً .

وفي سنة ٣٨٣ ﻫ اشتد الغلاء فيها حتى بيع كر الحنطة بستة آلاف وستمائة درهم غياثية .

وفي سنة ٣٨٤ ﻫ اشتد أمر العيارين[1] ببغداد ووقعت فتنة بين أهل الكرخ وأهل باب البصرة واحترق كثير من المال .

وفي سنة ٣٩٥ ﻫ كان بإفريقية غلاء شديد هلك فيه الناس وذهبت أموال الأغنياء وكثر الوباء .

وفي سنة ٣٩٧ ﻫ اشتد الغلاء فضج العامة وشغب الجند وكانت فتنة .

وفي سنة ٣٩٨ ﻫ زلزلت الدينور زلزلة شديدة خربت بها المساكن وهلك خلق كثير من أهلها وكان الذين دفنوا ستة عشر ألفاً سوى من بقي تحت الهدم ولم يشاهَد .

وفي سنة ٤٠١ ﻫ اشتد الغلاء بخراسان جميعها وعدِم القوت حتى أكل الناس بعضهم بعضاً ، ثم تبعه وباء عظيم حتى عجز الناس عن دفن الموتى .

وفي سنة ٤٠٢ ﻫ نهب حسان أمير طيء عسقلان وقتل أهلها .

وفي سنة ٤٠٨ ﻫ عظم أمر العيارين ببغداد فأفسدوا ونهبوا الأموال .

وفي سنة ٤١٣ ﻫ وقع غلاء شديد ومجاعة عظيمة بإفريقية لم يكن مثلها في تعذر الأقوات .

وفي سنة ٤١٤ ﻫ استولى حسان أمير طيء على الرملة ونهبها وقتل أهلها .

---

(١) انظر الحاشية (١) ص ١٠٦ في التعريف بالعيارين .

وفي سنة ٤١٦ هـ عظم شر العيارين ببغداد فقتلوا النفوس ونهبوا الأموال وأحرقوا الكرخ وغلا السعر حتى بيع كر الحنطة بمائتي دينار قاسانية ، وفيها حاصر سنان دمشق ، ووقعت بينه وبين أهلها حروب طاحنة وخربت داريّا وأعمالها كما تقدم .

وفي سنة ٤١٨ هـ سقط في العراق جميعه برَد كبار أصغره كالبيضة وفيه الواحدة تبلغ رطلاً أو رطلين ، فأهلك الغلات . وفي آخر تشرين الثاني هبت ريح باردة في العراق جمَدَ منها الماء والخل وبطل دوران الدواليب على دجلة .

وفي سنة ٤١٩ هـ عدمت الأرطاب بالعراق للبرَد الذي كان في السنة السابقة .

وفي سنة ٤٢٠ هـ سقط في البلاد برَد عظيم وكان أكثره بالعراق ، وأعقبه ريح شديدة سوداء قلعت كثيراً من الأشجار ، وكانت فتنة ببغداد قوي فيها أمر العيارين واللصوص .

وفي سنة ٤٢١ هـ ظهر ببغداد متلصصة من الأكراد فكانوا يسرقون دواب الأتراك .

وفي سنة ٤٢٢ هـ تجددت الفتنة ببغداد بين السنية والشيعة ، فنهبت دور وهدمت أسواق وأحرقت أماكن وقتل خلق كثير .

وفي سنة ٤٢٣ هـ كان في البلاد غلاء شديد ووباء عظيم في العراق والشام والجبل وخراسان وغزنة والهند وكثر الجدري ولم تخل دار من مصيبة .

وفي سنة ٤٢٤ هـ ثار العيارون ببغداد وأخذوا أموال الناس ظاهراً واشتد شرهم .

وفي سنة ٤٢٥ هـ كثرت الزلازل بمصر والشام ، وكان أكثرها بالرملة ، فقد انهدم نحو ثلثها وهلك تحت الهدم خلق كثير وهبت ريح بالموصل فقلعت كثيراً من الأشجار ، وكثر الموت بالخوانيق في العراق والشام والموصل وخوزستان وغيرها حتى كانت الدار يُسد بابها لموت أهلها .

وفي سنة ٤٢٦ هـ ضعف أمر الخلافة والسلطنة ببغداد وعظم أمر العيارين ، فصاروا يأخذون الأموال ليلاً ونهـاراً ، ونهب العرب النواحي وقطعوا الطرق ووصلوا إلى جامع المنصور وأخذوا ثياب النساء في المقابر .

وفي سنة ٤٣٢ هـ اشتد الغلاء بإفريقية لعدم الأمطار فسُمِّيت "سنة الغبار ، ودام ذلك إلى سنة ٤٣٤ هـ .

وفي سنة ٤٣٩ هـ كان بالعراق كله والجزيرة غلاء عظيم أكل الناس فيه الميتة وتبعه وباء مات فيه كثير .

وفي سنة ٤٤٨ هـ انقطعت الطرق عن العراق خوف النهب فغلت الأسعار وتعذرت الأقوات وغيرها ، وأكل الناس الميتة ولحقهم وباء عظيم ، وكان بمصر وباء شديد يموت فيه كل يوم ألف نفس ، ثم عم ذلك سائر البلاد من الشام والجزيرة والموصل والحجاز واليمن وغيرها .

وفي سنة ٤٤٩ هـ زاد الغلاء ببغداد والعراق حتى أكل الناس الميتـة والكلاب وغيرها ، وكثر الوباء حتى عجز الناس عن دفن الموتى ، فكانوا يجعلون الجماعة في الحفيرة الواحدة .

أما مصر فقد أصابها من الكوارث والنكبات ما يجعل الولدان شيبا ، وحسبك منه ما أصابها من المصائب في عهد الحاكم حين قطع الكروم ومنع بيع العنب ، ولم يُبْقِ في ولايته كَرْماً ، وأراق خمسة آلاف جرة من العسل في البحر خوفاً من أن تعمل نبيذاً ، ونهى عن السمك والملوخيا والفُقّاع[1] ، وقتل من باع ذلك ومنع بيع الرطب .

وأمر قواده وعرفاءه بالمسير إلى مصر لحرقها ونهبها ، فذهب العبيد

---

(١) الفقاع كرمان : شراب سمي بذلك لما يرتفع في رأسه من الزبد ونبات إذا يبس صلب فصار كأنه قرون .

والروم والمغاربة ، وأوقعوا النار في أطراف البلد ، واستمرت الحرب بينهم وبين المصريين ثلاثة أيام . وكان الحاكم يركب كل يوم إلى القرافة ويشاهد النار من الجبل ويسأل عن ذلك ، فيقال له : العبيد يحرقون مصر فيلعنهم ثم أنذرته كتامة والأتراك بأنهم يستنفرون العرب ويحرقون القاهرة إذا لم يكفهم ، فركب حماره ، ووقف بين الصفين ، وأشار إلى العبيد بالانصراف فانصرفوا .

واحترق ثلث مصر ونهب نصفها ، ثم تتبع المصريون من أخذ أزواجهم وبناتهم وأخواتهم وابتاعوهن من العبيد بعد أن فضحوهن ، وقتل بعضهن نفوسهن خوفاً من العار .

وفي سنة ٤٤٨ هـ أصاب مصر والشام ما أصاب غيرهما من القحط والوباء حتى أكل الناس الميتة وبلغت الرمانة والسفرجلة ديناراً ، وكذا الخيارة والليبنوفرة [1] وانقطع ماء النيل .

هذا غيض من فيض مما كان يعانيه أهل الأمصار المذكورة من أحكام الطبيعة العاتية . أما ما كانوا يقاسونه من جور الحكام واستصفاء الأموال وذهاب الكثير منها بين الحرق والنهب وغير ذلك فمما لا يحيط به وصف .

وقد قدمنا ذكر شيء من هذا القبيل وسيأتي ذكر شيء آخر منه . ومن طبيعة هذه العوامل أن توقع الناس في ضنك وفاقة وشظف . وعلى هذا يمكن أن يقال : إن الحياة الاقتصادية في العهد الذي أظل أبا العلاء كانت على أسوإ حالة ، وقد أثرت في نفسه أثراً بيناً في شعره حين يتصدى لذكر المال وأعمال الملوك والولاة وتطاولهم على أموال الرعية وإسرافهم في النهب والسلب وأخذ المكوس وما شاكل ذلك . وكونت في نفس

(١) كذا في الأصل ولعلها النيلوفرة ؛ وهي نوع من الزهر ينبت في المياه يستعمل في الدواء .

أبي العلاء رأياً في تقسيم الثروة حين رأى الناس بين غني موسر وفقير معسر ومتوسط بينهما ، فأحب أن يشترك الناس في النعمة ، وحض على الزكاة والوصية والرأفة بالمعدم على نحو ما سنذكره في فلسفته وفي مباحث أخرى وذلك مثل قوله (١) :

كَذٰلكَ مَجْرَى الرِّزقِ وادٍ بلا نَدىً ... ووادٍ به فيضٌ وآخرُ ذُو حَفْرِ

ومنه :

يعاني مقيمٌ بالعراقِ وفارسٍ ... وبالشام مالَمْ يَلْقَه ساكنُ القَفْرِ

وقوله (٢) :

ياقُوتُ ما أنت ياقوتٌ ولا ذهبٌ ... فكيف تُعْجِزُ أقواماً مساكينا...

وقوله (٣) :

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحتَه ... فقيرٌ معرّىً أو أمير مُدَوَّجُ

وقد يُرزَقُ المجدودُ أقواتَ أُمَّةٍ ... و يُحرَمُ قوتاً واحدٌ وهوأحوجُ

ومثل قوله (٤) :

فأَطْعِمْ من عَرَاكَ ولو كَظُفْر

---

(١) اللزوميات هـ س ١٤٧ .

(٢) اللزوميات هـ س ٢٦٧ .

(٣) اللزوميات هـ س ٧٣ والدُّواج كرمانَ وغراب : اللحاف الذي يُلبَس .

(٤) اللزوميات هـ س ١٥٥ وصدره : إذا أوتيتَ ملءَ يدٍ طعاماً .

وقوله[١] :

أغثتُ لهيفه بالمُسْتَدَفِّ ..

يدل على أن هذا القدر القليل شأناً كبيراً في زمن الشدائد ، وقد قدمنا ذكر طائفة منها ، اضطرت الناس إلى أن يأكلوا الإنسان والحيوان حيّاً وميتاً .

الحياة الدينية في عصر أبي العلاء

ظهر الإسلام في الحجاز بظهور النبي ﷺ ، وكان الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، رغبة في الدين وطمعاً فيما أعده الله المؤمنين من الثواب ، حتى كان الرجل يغامر بنفسه في الحرب لينال الشهادة ، رغبة في ثوابها .

وكان جمهور المسلمين في عهد النبوة والخلفاء الراشدين ، يقنعون بفهم ظاهر الآيات والأحاديث ، ولا يتنطعون في دراسة ما تشابه منها ، وغاية العالم منهم أن يستنبط شيئاً من الأحكام منها بقدر ما كانت تدعو الحاجة إليه . وكان المسلمون عامة يرجعون فيما أغلق عليهم فهمه من الكتاب أو السنة إلى النبي ﷺ مدة حياته ، وإلى الصحابة وفقهائهم من بعده . كما يرجعون إليهم فيما استعصت عليهم معرفته من الأحكام الشرعية .

ظهور الزندقة والخلاف في العقائد

ثم لما قتل عثمان رضي الله عنه وقامت خلافة بني أمية على غير إجماع من المسلمين ، انقسم المسلمون إلى فرق ثلاث ؛ إحداها مع علي ، والثانية

(١) اللزوميات ص ٢٩٥ وصدره : إذا وَرَدَ الفقير على احتياجي ، والمستدف : الممكن والمتسهل .

مع معاوية ، والثالثة أمسكت عن الفريقين ، وهي أقلها ، ثم اندمج أكثرها مع إحداهما ، وانقسم أصحاب عليّ على أنفسهم في حياته ، فخرج عليه فريق منهم .

وكان امتزاج العرب بغيرهم من الأمم التي خضعت لسلطانهم آخذاً في الازدياد ، وفي هؤلاء من لم يكن راضياً عن بقاء السلطان في العرب ، ولم يستطع انتزاعه منهم بالقوة ، فعمد إلى تمزيق الوحدة العربية من طريق الدين وبواسطة ترجمة كتب الأديان المختلفة وكتب الزنادقة والمُجّان ونشرها بين الدهماء . وقد فسح بنو أمية المجال للمناظرة في العقائد والمجاهرة بها ، كما رأينا ذلك فيما وقع بين الحسن البصري المتوفى سنة ١١٠ هـ ، وواصل بن عطاء من رؤوس المعتزلة المتوفى ١٣١ هـ حين اعتزل مجلس الحسن ، وضم إليه نفراً يقرر لهم المنزلة بين المنزلتين ، كعمرو بن عبيد وغيره .

وكذلك فقد كان عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب الوليد بن يزيد يتهم بالزندقة كما اتهم بها الوليد ، ومروان بن محمد يشايع الجعد بن درهم على زندقته وعقيدته حتى نسب إليه ، فقيل : مروان الجعدي ، وكان مؤدباً له ولولده وكان خالد بن عبد الله القسري يُعنى بالمانوية كثيراً ، وكان يرمى بالزندقة .

ثم لما قامت الدولة العباسية اتسع الخرق على الراقع ، لأن امتزاج العرب بغيرهم من الأعاجم بلغ أقصى غايته ، فقد ألقى العباسيون حبل كلّ على غاربه في البحث ، فجاهر الناس بما تكنه صدورهم من الزيغ والانحراف ، ولما ترجمت كتب الفلسفة والعقائد وغيرهما ، زاد ذلك الزنادقة والملحدين ضغثاً على إبّالة ، وأخذ أعداء الاسلام والعرب يغوون الضعفاء بما يَلبّسون عليهم من أمور دينهم ، ويلقون حبائل الشبه والشكوك ليوقعوا فيها الدهماء ، فيتمكنوا من تمزيق الوحدة الاسلامية وإضعاف

القوة العربية ، فكانوا ينقبون عن المتناقض من الحديث والمتشابه من القرآن ، ويشغَبون على القويّ ويُلبّسون على الضعيف ، ثم أخذوا ينشرون كتب المرقونية (١) والدّيصانية (٢) والمانية (٣) وغيرها من الفرق الزائغة بين أيدي المسلمين على أيدي جماعة من العجم والعرب ، من مجوس ونصارى وإسلام زنادقة من أرباب المجانة وغيرهم .

وقد اشتهر جماعة منهم بالعراق ، منهم حماد عجرد (٤) وبشار بن برد (٥)

---

(١) المرقونية : طائفة من النصارى زعمت أن الأصلين القديمين هما النور والظلمة ، وأن كوناً ثالثاً مزجهما ، واختلفوا فيه فقيل هو الحياة ، وقيل عيسى [س] ، وقيل عيسى رسوله وقالوا بتنزيه الله عن الشرور ، وأن خلق جميع الأشياء ضرر . (ج)

(٢) الديصانية : أصحاب ديصان ، أثبتوا أصلين : النور والظلام ، فالنور يفعل الخير قصداً واختياراً ، والشر يفعله طبعاً واضطراراً ، فالخير والنفع والحسْن والطيب من النور ، والشر والضر والقبح والنتن من الشر . والظلام ميت جاهل عاجز جماد لا فعل له ولا تمييز ، وقد ظهر ديصان بعد مرقيون بنحو ثلاثين سنة .(ج)

(٣) المانية : نسبة إلى ماني ، وهذا ظهر بعد مرقيون بنحو مائة سنة ، وظهر ديصان بعد مرقيون بنحو ثلاثين سنة كما قدمنا ، وزعم أنه الفارقليط الذي بشر به عيسى واستخرج مذهبه من المجوسية والنصرانية ، وقد قال : مبدأ العالم كونان ؛ نور وظلمة ، وكل منهما منفصل عن الآخر ، فالنور هو العظيم الأول ، وهو الإله ملك جنان النور وله خمسة أعضاء ، والظلمة له أعضاء أيضاً ، وإذا أردت إيضاح هذا فالتمسه في (الملل والنحل) للشهرستاني ، و (فهرست) ابن النـديم وكتب العقائد . (ج)

(٤) هو حماد بن عمر بن يونس المعروف بعجرد ، نادم الوليد بن يزيد الأموي وقدم بغداد أيام المهدي وبينه وبين بشـار أهاج مقذعة توفي سنة ١٦١ هـ . (ج)

(٥) بشار بن برد العقيلي ، أشعر المولّدين ومخضرم الدولتين ، ولد سنة ٩٥ هـ ، وكان شاعراً راجزاً سجّاعاً خطيباً ، قتل على الزندقة في البصرة سنة ١٦٧ هـ . (ج)

ويونس بن فروة (١) وأشباههم وكان خلفاء بني العباس لايهلون معاقبة هذه الفئة ، فكانوا كما قـال الجاحظ بين مقتول وهارب ومنافق .

وقد نجم عن هذا أن المسلمين فرقوا دينهم ، وكانوا شيعاً في أهوائهم ، حتى بلغ عدد الفرق أكثر من سبعين ، ما بين معتزلة وشيعية وجبرية ومرجئة وأباضية وغيرها . وأن الناس تهـاونوا بأمر الحلال والحرام ، وأخذوا بالفاسد من الأخلاق ، واستباحوا إنهاك المحارم ، فكان ذلك جناية على الدين والأخلاق معاً .

ثم أخذ المعتزلة يرتبون أقوالهم وأدلتهم على أسلوب المناطقة والحكماء ، فاضطر السنيون إلى محاربتهم بمثل هذا السلاح ، وجرى مجراهم غيرهم من من الفرق الأخرى . وانتظم أمر الجدل واتخذت له قواعد وآداب للبحث ، وعقدت له مجالس يشهدها صفوة الصفوة من علماء كل فريق . وكان الخلفاء كثيراً مايشايعون فريقاً وينصرونه على غيره ، فتفاقم أمر الخلاف واستطار شره ، حتى انقلب إلى فتن وحروب واستباحـة كل فريق دم الآخر وماله وعرضه ، وتفرع عن هذه الفرق فرق أخرى استغوت بعقائدهـا فريقاً من الدهماء ، واتخذت منهم عدة لاشباع نهمها ، والانتقام من خصومها .

ثم لما أخذ أمر العباسيين يضعف ، منذ منتصف القرن الثالث ، جاهر بعض الفرق بعقائدهم ، وجردوا السيف على خصومهم ، فأغاروا على البلاد الآمنة المطمئنة ، فنهبوا أموالها واستحيّوا نساءها ، وخربوا كل عامر فيها ، وزاد فريق منهم ، فتصدى للاستخفاف بأعظم ما يقدسه المسلمون من شعائرهم .

---

(١) كذا في الأصل والصواب: ابن أبي . وهو يونس بن محمد بن كيسان (الملقب بأبي فروة) كاتب متزندق ، عمل كاتباً للأمير العباسي (عيسى بن موسى) وخالط ابن المقفع ، ووالبة بن الحباب ، وبشاراً ، وحماداً الراوية وغيرهم ، توفي نحو سنة ١٥٠ هـ .

فهؤلاء القرامطة أغاروا على بلاد العراق ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، واستباحوا كل محرم فيها ، ولم تسلم الشام ولا مصر من شرورهم ، وتعدى تطاولهم وأذاهم إلى بيت الله الحرام ، فقتلوا الحُجّاج وسلبوهم أموالهم ، وأخذوا الحجر الأسود إلى بلادهم ، وقد لقيت البلاد منهم فتناً التهمت الأخضر واليابس ، حتى أباد الله خضراءهم .

وكذلك الاسماعيلية ، اتخذوا معاقل في بلاد الفرس ومصر ، والإباضية أقاموا دولة في جبال البربر ، وفعل كل فريق منهم الأفاعيل في البلاد التي كانوا يقطنون بها أو يجاورونها .

ومن رجع إلى التاريخ ، رأى عجائب من الفظائع والفتن التي وقعت بين الشيعة وأهل السنة في العراق ، وبين الحنابلة والشافعية ، وبين الحنابلة والحنفية ، حتى هُدم أكثرُ بغداد ، وأحرق كثيرٌ من الأموال والمساكن ، ومنيت البلاد بضروب من البلايا ذهبت بحضارتها ورونقها ، وأضعفت الأمة ، حتى استطاع التتار أن يخضد شوكتها ويذهب بسلطانها في وقت قصير وعمل قليل . ومن المؤسف جداً أن تكون كل هذه الأعمال باسم الدين ، وعلى حساب الدين .

وهذا على مافيه من شر ، يدل على أن علم الكلام والجدل نضجا في هذا العهد ، وتعديا الحياة العلمية ، إلى الحياة العملية ، فكان له ما كان من الأثر الذي ألمعنا إليه . وكذلك غيرهما من العلوم اللسانية والعقلية والدينية ، فقد بلغ كل منها الغاية القصوى من الازدهار . ونبغ في كل علم طائفة كبيرة كانوا معتصمين بحبل الدين ، فكانوا يذودون عن حياضه ، ويدفعون عنه مزاعم أهل الزيغ وشُبَه الزنادقة والملحدين . وزعم بعض المتأخرين أن بعض علماء المسلمين اطلعوا على مذاهب الهند واليونان وما

فيها من الآراء المتعلقة بوحدة الوجود ـ أي اتحاد الموجد والموجود في نفسه ، وإن اختلفا في الاعتبار ـ وعلى الأقوال المتعلقة بتهذيب النفس وإبعادها عن عالم المادة وما يتصل به حتى تتصل بخالقها . وأضافوا إلى ذلك شيئاً من الدين الإسلامي يتلاءم مع تلك الآراء ، فتكوّن المذهب الصوفي وأخذ به جماعة من المسلمين ، فمنهم من غلا فيه حتى تجاوز حدود الدين ، ومنهم من سلك سبيل القصد كالجُنَيْدِ وأمثاله . ثم تفرعت من كل فرقة فِرقٌ ، وجعلت كل واحدة لنفسها شرْعةً ومنهاجاً ، تخالف غيرها في الفروع وتوافقها ، ثم نشأت منها فرق تخالف غيرها في بعض الأصول ، وتوسع فريق في تأويل الكتاب العزيز والسنة الشريفة التي جعَلَتْها مطابقةً لما يذهب إليه ، وسيأتي شيء يوضح هذا المقال .

وصفوة القول أن علوم الدين في هذا العهد تم نضجها وتعددت فنونها ، وأن المسلمين تعددت فرقهم واختلفت نحلهم وتباينت مناهجهم وتنوعت مذاهبهم في الكلام والفقه . فكان فيهم الورع والصالح والزاهد والأشعري والماتريدي والمعتزلي والشيعي والحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي والصوفي ونحو ذلك من الفرق المسلمة ، وكان فيهم الزنديق والملحد والمارق والشاك ومن لف لفّهم . وأن غير المسلمين وبعض المسلمين كانوا يكيدون للاسلام ، وأن في الولاة والحكام والخلفاء من كان يعنى بالدين ، وأكثرهم كان يتخذ الدين وسيلة للدنيا ، فلا ينظر إليه إلا من الجهة التي يتخذ منها سبيلا إلى مال يسلبُه أو عِرْض يستبيحه أو خصم ينتقم منه ، أو ما أشبه هذا من الأمور التي تعود إلى حظوظه النفسية وشهواته الحيوانية .

وقد أثرت هذه الحياة المختلفة الألوان في أبي العلاء ، وأثارت حفيظته حتى ضاق ذرعاً بالناس واعتدّ ماتركوه من الآثار العلمية عملاً غير خالص

لله ، وإنما أراد به اصحابُه التنافسَ في الدنيا أوجذبها إلى الرؤساء ، ورأى أن رؤساء الفرق يهزلون بأصحابهم ، واشتدت نقمته على المتصوفة والقرامطة وأصحاب مذهب الحلول ، حتى سمعنا مثل قوله :

لولا التنافسُ في الدُّنيا لما وُجِدَتْ كتبُ التناظرِ لا المُغني ولا العُمَدُ (١)

* * *

إنما هذه المذاهبُ أسبا بٌ لجذبِ الدنيا إلى الرُّؤَساءِ (٢)

* * *

شهِدْتُ بأنَّ ابنَ المُعَلِّم هازلٌ باصحابه والباقلانيُّ أهْزَلُ (٣)

* * *

نحن قُطْنِيَّةٌ ، وصوفِيَّةٌ أنْـتُمْ فقَطْني من التجمُّلِ قُطْني ... (٤)

* * *

ودينُ مكةَ طاوَعْنا أئمتَه عصرا فما بالُ دينٍ جاءَ من هَجَرا (٥)

وستأتي جملة من أقواله في هذا الباب . وقد نشأ في هذا العهد غلاة من بعض الفرق ، فكان بعضهم ينال من مخالفه ويتطاول عليه بالقذف

---

(١) اللزوميات ﻫ س ٩٢ .

(٢) اللزوميات ﻫ س ٢٦ .

(٣) اللزوميات ﻫ س ١٩٥ ، وفيها « وأعلمُ أنّ » .

(٤) اللزوميات ﻫ س ٢٨١ ، قطْني بالفتح : أي حسْبي ، يكفيني .

(٥) اللزوميات ﻫ س ١٤٠ .

والطعن . ومنهم من تعدى ذلك إلى القدح في رؤســاء الفرق ، ومنهم من تجاوز هذا ، حتى قال الذهبي : وفي هذا الزمان كانت البِدَعُ والأهواء فاشية ببغداد ومصر من الرفض والاعتزال والضلال . وقد فسر صـاحب (النجوم الزاهرة) قول الذهبي ببغداد ، انه أراد ما كان بسبب عضد الدولة ، فإنه كان يتشيع ويكرم جانب الرافضة ، وبمصر ما كان يظهره خلفاءُ بني عُبيد من الرفض وسب الصحابة ، وكذلك أعوانهم وعمّالهم .



الحياة الاجتماعية

لاتكون الصِّلاتُ بين أفراد الأمة حسنة ، والروابط محكمة ، إلا إذا هيمن عليها الوازع الديني ، وخشيت بأس الوازع الدنيوي ، وهو السلطان ومن يقوم مقامه في نشر العدل والأمن وإحقاق الحق ونصرة الضعيف والضرب على أيدي العابثين بالشرائع والنظم والعاثين في الأرض فساداً ، وكان بعد ذلك كل فرد يتمتع بنصيب من الحياة الاقتصادية لاينتزعه منه متغلب ، ولا يمنعه منه متسلط ، فإذا توفرت هذه العوامل ، وأتيح للأمة ان يقوم فيها من يُرشِدُها إلى الأخلاق الفاضلة ، عاشت عيشة راضية واستقامت أمورها واستفاضت فيها مكارم الأخلاق والسجايا المرضية ، وأصبحت كلها كالجسد الواحد ، إذ اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

وفيما أسلفنا برهان واضح على اختلال الحياة السياسية وضعف الوازع الديني وفساد النظام الاقتصادي ، ومن مقتضيات هذه الأمور أن تسود الفوضى في كل عمل ، ويضطرب حبل الأمن ، وتتفكك عرى المحبة ، ويعم التدابر والتقاطع ، وتشرئب اعناق المطامع ، فيسعى كل فرد إلى انتزاع ما في يد غيره من سلطان ونعمة ولو أدّى ذلك إلى محوه من صحيفة الوجود .

ومن رجع إلى التاريخ ، في العهد الذي أظل أبا العلاء ، يجد عِبراً من تكالب الملوك وتفانيهم في سبيل الملك ، حتى أن الرجل يحارب حميمه أو يقتله ، ويثور علي سيده ويمالىء أعداءه عليه ، ليخلفه في سلطانه .

وهذا عضد الدولة ، أخرج ابن عمه بختيار من الملك بالحيلة أولاً وبالقوة ثانياً . وشرف الدولة ، اعتقل أخاه بعد أن جاءه مستأمناً ، ثم سجنه وسمل عينيه . وقد تغلب قرعونةُ على مولاه سعدِ الدولة ، ثم تغلب بكجور على قرعونةَ ، وتغلب لؤلؤ وابنه على أبي الفضائل وابنيه ، واستعان لؤلؤ بالروم لمحاربة المصريين ، وست الملك انتدبت ابن دواس لقتل أخيها الحاكم ، ثم قتلته وقتلت وليّ العهد .

وهناك ألوف من الأمور المنكرة والفظائع التي كانت تقع في بيوت الخلافة والملك والإمارة ونحوها في الأصقاع عامة . ولا شك أن الحكام صورةٌ مصغرةٌ عن الأمم التي يحكمونها ، لأن الحاكم فرد منها ينطوي على كثير مما تنطوي عليه من خصائص وسجايا في كل عصر ومصر ، فبينهما تشابه قوي على نحو ما جاء في الآثار النبوية من مثل قوله (ﷺ) : (أعمالكم عمّالكم . وكما تكونوا يولى عليكم (١)) . ولم تكن هذه الخلال الذميمة منحصرة في الأُسَر المالكة فحسب ، بل كانت الأمة كلها تطبع على غرار واحد ، ولو لم تكن أواصر المحبة فيها واهية وعرى الأخلاق مفككة ، لما لبّتْ كل داع وتبعث كل ناعِب . ولكن تمكن من قلوبها افتراق الكلمة ، وزين لها الثورة على كل سلطة وكره الحاكم الحاضر وحب الجديد ، فكانت لا تسمع بمتغلب خرج على السلطان إلا ودخلت في طاعته ولو كان صعلوكا أو عبداً مملوكا .

(١) روى الطبراني عن كعب الأحبار أنه سمع رجلاً يدعو على الحجّاج ، فقال : لا تفعل ، إنكم من أنفسكم أتيتم ، فقد رُوي : أعمالُكم عمّالُكم وكما تكونوا يولى عليكم ، وروى قوله كما تكونوا . على هذا الوجه : كما تكونون كذلك يؤمر عليكم . وقد نظر العلماء في هذا الحديث بجميع رواياته ورأوا أنه ليس بصحيح ، وإن روى بعضه الديلمي والبيهقي وابن جميع والقضاعي . (ج)

وقد ذكر ابن الأثير وصاحب (النجوم الزاهرة) أن العزيز العلوي خرج عليه رجل يقال له قسام الحارثي ، وهو من قرية تلفيتا من قرى جبل سنير ، كان ينقل التراب على الحمير ، وكان شجاعاً . وقبل كان من العيارين ، فتغلب على دمشق حتى لم يبق لنواب العزيز معه حكم ، فسير اليه العزيز جيشاً مع قائد اسمه الفضل فلم يظفر به فعاد عنه . ثم سير سليمان ابن جعفر بن فلاح ، فنزل بظاهر دمشق ، ثم أخرجه أصحاب قسام وقاتلوه ، ثم أرسل اليه بلتكين أو تكين فأخرجه .

ولفساد الحياة الاجتماعية في هذا العصر أسباب كثيرة من أعظمها :

١ - تولي الأعاجم على العرب ، فقد كان المسيطر منهم لا يبالي أفسدت أخلاق الأمة أم صلحت ، وإنما همه مال ينهبه وعرض يستبيحه وسلطان يبسطه من أي طريق كان وبأية وسيلة كانت ، ومنهم من كان يسعى لإفساد الحياة الاجتماعية حتى يسهل عليه التوصل إلى ما يريده ، ولا يجد من ينكر عليه ، وأعوان الضلال أكثر من أعوان الهدى .

٢ - توسيد الأمور إلى الغرباء عن البلاد ، فإن العبيديين كانوا يتخذون ولاة على دمشق وحلب وغيرهما من المغاربة أو الترك أو الروم ، ويتخذون القواد والأمراء وذوي الكلمة النافذة من هؤلاء الذين يؤثرون مصالحهم الخاصة على مصلحة الدولة ، أو من أمثالهم ممن لا يهمهم خراب البلاد وموت أهلها من الجوع أو الحرب إذا عمرت خزائنهم بالأموال ، وامتلأت بطونهم بالطعام الطيب والشراب اللذيذ ، وقضوا أوطارهم من الملاذ والشهوات ، وكان أحدهم يتصرف بالناس تصرف التاجر بسلعته ، ويبذل في سبيل الوصول إلى غاياته الخسيسة ما عز وهان ، ويتجرد عن كل خلق إنساني لأجل ذلك ، وربما رآه غيره فاستهان بما استهان به صاحبه ليصل إلى ما وصل إليه ، وهذا شأن من تولى العراق من الأعاجم .

٣ ـ كثرة الجواري الحسان ورخص أثمانهن ، فكان العربي يجمع الكثير منهن لقضاء شهوته ، ويدع أمر كل واحد من بنيه إلى أمه فهي تنشئه كما تشاء ، وتغذيه من طباعها وأهوائها ونزعاتها كما تهوى ، فيكون هذا فارسي النزعة كأمه وذاك تركياً والثالث هندياً والرابع رومياً والخامس عربياً وهكذا . وربما كان الولد لا يجد من العطف على أخيه من أبيه ما يجده من العطف على شقيقه . والخلاصة أن البيت الواحد كان يضم أهواء مختلفة ونزعات متباينة ، ويفقد كل آصرة من أواصر المحبة التي يجب أن تكون بين الإخوة ، وكثيراً ما تحقد المرأة على زوجها لميله إلى ضرتها ، فتنشىء أولادها على كره أبيهم وأولاده وزوجاته فيكون أعدى عدو لأبيه وإخوته منه . وكثيراً ما هان على الأخ قتل أخيه في سبب تافه .

٤ ـ كثرة الغلمان ، فقد كانت ولاة الأعاجم المختلفة تهدي إلى الخلفاء والأمراء الوصائف والوصفاء ، تتخيرهم من ذوي الجمال الرائع ، وتبعث بهم وبين زرافات ووحدانا ، والخلفاء والأمراء يصطفون لأنفسهم خيرة الخيرة منهم ، ثم يهبون مازاد عن حاجتهم إلى غيرهم . وكانت هؤلاء الجواري والغلمان أقتل من السم ، لأنهم كانوا ينقلون إلى الأمة العربية ماعند أممهم من الأخلاق الفاسدة والأعمال المنكرة ، ففشت في الأمة العربية بسببهم الدعارة والخلاعة والمجانة والعهر واللواطة ومـا أشبه ذلك من الأخلاق السيئة ، فازداد العرب بذلك ضغثاً على إبالة . وكان أكثر العمال يقلدون هؤلاء الغلمان أعمالهم العظيمة ، ويمنحونهم من السلطة أعظم مالديهم ، فكانوا لايحجمون عن منكر ولا يتورعون عن قبيح ، ويستخفون بالأعراض ويستبيحون الأموال ، وفيهم من دُرّب وعلّم في بلاده ليكون أداة شرّ في البلاد العربية ، ومن كان على شاكلة هؤلاء وارتقى إلى الولاية بمثل ما ارتقوا

لاينتظر منه أن يصلح المجتمع ويهذبه لأن ذلك مخالف لنشأته وجبلته، ولا ينكر عليه أن ينزع الملك والنعمة من سيده ولا أن يقتله ويسجنه أو يشرده. ثم بعد حين يعد في رجالات العرب وتسجل أعماله الفظيعة في حساب العرب.

٥ - تعدد الزوجات لاسيما غير العربيات، فقد دلت الحوادث التاريخية على أن الرجل قد تكون نزعته إلى أخواله أشد من نزعته إلى أعمامه، بسبب تعليم أمه وإهمال أبيه تربيته، حتى لايشق عليه معاداة عمه لموالاة خاله. على أن الرجل لايستطيع أن يعدل بين النساء، ولا أن يجمع بين رضاهن جميعاً، ومتى فسد رأيه في واحدة أو آثر عليها تنكرت له واستفرغت ماعندها من كيد وأذىً، وغيّرت قلب ولده عليه حتى تصبح الأسرة الواحدة في البيت الواحد منقسمة على أنفسها مضطغناً بعضها على بعض، وفي قلب كل ولد من الحقد والبغض لمن تبغضه أمه مالا يحد، وربما خانته في أعز شيء عليه نكاية له أو جريا مع شهواتها اللاتي لم يوفها حقها منها، ونحو ذلك من الأعمال التي أشار إليها أبو العلاء في كلامه.

٦ - جور الحكام والخوف من ظلمهم، فإن ذلك يحمل الناس على الخنوع والكذب والنفاق ومجاوزة حدود الدين والمروءة والأدب اتقاء لشرهم أو للتخلص منه أو ابتغاء لمرضاتهم.

وهناك كثير من الأسباب والعلل، فإذا أضفنا هذا إلى ما تقدم من فساد السياسة وضعف الدين هان علينا أن نرى الأخلاق في هذا العهد بلغت من الفساد والانحطاط إلى أسفل الدركات. ولو أردنا أن نستقصي الناحية الخلقية لأفضى بنا ذلك إلى الإطناب الممل، وحسبنا أن نسمع من أبي العلاء شيئاً من أخلاق أهل عصره كقوله :

وجوهُكُم كُلْفٌ وأفواهُكُم عِدىً ... وأكبادُكُم سودٌ وأعينكُم زُرقُ(١)

* * *

سجايا كلُّها غَدْرٌ وخُبْثٌ ... تَوارثَها أُناسٌ عن أُناسِ(٢)

* * *

فَأَميرُهُمْ نال الإمَارة بالخنا ... وتقيُّهُمْ بِصَلاتهِ يتصيَّدُ(٣)

* * *

أُنافِقُ في الحياةِ كَفعْلِ غيري ... وكل الناسِ شأنُهُمُ النِّفاقُ(٤)

* * *

قدأعْرَسَتْ عِرْسُ الأمِيرِ بتابِعٍ ... ضَرَعٍ فأَينَ حليلُها المِغْيارُ(٥)

* * *

واعتاضَ حِلَّ النِّكاحِ قَوْمٌ ... بِنِسْوَةٍ مالهـــا مُهُورُ(٦)

* * *

(١) اللزوميات هـ ص ٢٩٨ ، والكُلْف : ج أكلف وهو من علت وجهه حمرة كَدِرَة .

(٢) اللزوميات هـ ٣٢٢ .

(٣) « « ٩٧ وفيها « متصيد » .

(٤) « « ٣٠٠ .

(٥) « « ١٣١ .

(٦) « « ١٢٤ .

قَوْمُ سوء فالشِّبْلُ منهم يغول اللَّـ ـيْثَ فَرْساً والليث يأكل شِبلَهْ[1]

* * *

وبيعَتْ بالفلوسِ لكلِّ خِزْيٍ وجوهٌ كالدنانيرِ الحسانِ[2]

* * *

وَالحُبُّ الصَّحيح آثرتِ الرُّو مُ انتسابَ الفتى إلى أُمَّهاتِهْ[3]...

ونحو ذلك من الأبيات الآتية في الناس ، والسياسة والأخلاق ، التي تدل على أن هذا العصر فُقِد فيه الفاضل والصادق والنقي والجيد والوفي والطاهر والمخلص والكريم والعالم العامل .

★ ★ ★

(١) اللزوميات هـ ٢ ، ٢٠٩ .
(٢) اللزوميات هـ ٢٧٩ .
(٣) « « ٢ ، ٧٠ .

الحياة العقلية

لم يمر على الأمة العربية عصر كانت الحياة العقلية فيه والنهضة الفكرية أشد ازدهاراً مما وصلت إليه في العصر العباسي عامة وفي هذا العصر خاصة ، فقد استبحرت فيه العلوم ، ونضجت العقول ، واجتنت الأمة العربية فيه أطيب الثمرات التي غرست نواتها فيه وفي العصر الذي قبله ، وقد أثرت في هذه الحياة عوامل كثيرة كان لها أبلغ الأثر في إيقاظ الشعور وتنمية العقل وإرهاف الذهن وتلطيف الذوق . منها تنافس بعض الملوك في ترقية العلم وتقوية العقل ، وعناية بعضهم برفع المستوى العقلي ، فكانوا يقربون العلماء والأدباء ويتخذون المكاتب الحافلة بأنواع الكتب ، ويصطفون خلصاناً لهم من حملة العلم ويسبغون عليهم نعماً ضافية ، فأخذ الناس يجدّون في التعلم والتعليم والتأليف حتى امتلأت الخزائن العربية بالكتب المتنوعة من كل فن من فنون العلم التي اهتدى إليها العقل البشري في ذلك العهد .

واطلع العلماء على ثقافات الأمم وتنخلوا منها ما يلائم دينهم ولغتهم وعقولهم وأذواقهم ، ثم صهروا ذلك في بوتقة الإسلام وصبغوه بالصبغة العربية ، فخرج عربي النشأة والصبغة ، ولو شاء العرب أن ينسبوا أكثر المسائل من تلك العلوم وكثيراً من العلوم إليهم لجاز ذلك على كثير من الناس ، ولكنهم لم يجحدوا فضل أمة من الأمم كان لها أثر محمود في العلم فعزوا كل شيء إلى مصدره ، وإن هم نقحوه وهذبوه وصححوه وأتموه . وادخروه إلى الأجيال التي تأتي من بعدهم .

أنواع العلوم

أما العلوم التي اشتغلوا بها فكثيرة ، ولكن كان اهتمامهم ببعضها أشد منه ببعض آخر ، فمن ذلك :

الخط

علم الخط : وقد نبغ في هذا العصر والذي قبله طائفة جودوا الخط وافتنوا في أنواعه ووضعوا له أصولاً وقواعد . منهم الوزير أبو علي محمد ابن مقلة المتوفى سنة ٣٢٨ هـ . وأخوه أبو عبد الله الحسن المتوفى سنة ٣٣٨ هـ ، وقد أخذ عن الوزير ابن مقلة أبو عبد الله محمد بن أسد القارىء المتوفى سنة ٤١٠ هـ ، وأخذ عن ابن أسد أبو الحسن علي بن هلال المعروف بابن البواب الكاتب المتوفى سنة ٤١٣ هـ ، ولم يكن في المتقدمين والمتأخرين من كتب مثله أو قاربه ، وهو الذي هذب طريقة ابن مقلة ونقحها ، وإليه انتهت الغاية . وقد ذكره أبو العلاء بقوله :

وَلاحَ هِلالٌ مثلُ نُونٍ أجادَها بجاري النُّضارِ الكاتبُ ابنُ هلالِ[1]

ولابن هلال قصيدة رائية في علم الخط استقصى فيها أدواته .

القراءة والتجويد

ما عنيت أمة من الأمم بكتاب بقدر ما عني المسلمون بالقرآن الكريم ، فانهم استفرغوا كل مجهود في ضبط روايته وتفسير غريبه وإيضاح معانيه ومقاصده ، وألفوا كتباً كثيرة في عدد حروفه وآياته ، وبيان الناسخ

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٩٧ ، والنضار : الذهب .

والمنسوخ منه وأسباب نزول آياته وما نزل منه في مكة والمدينة ، ومواطن الفصل والوقف والابتداء والمد فيه ، وتحقيق مخارج حروفه وإعرابه ، ولم يدعوا شيئاً يتعلق به إلا أفردوه بتآليف متعددة .

وحسبك أن تقرأ الفن الثالث من المقالة الأولى من كتاب (الفهرست) لابن النديم . و (الإتقان في أحكام القرآن) للسيوطي ، و (منار الهدى في بيان الوقف والابتدا) لأحمد بن محمد الأشموني ، و (المرشد في الوقف والابتداء) للحسن بن علي العماني ، و (المقصد لتلخيص مافي المرشد) لزكريا الأنصاري ، و (النشر في القراءات العشر) لابن الجوزي ، و (إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر) للشيخ أحمد الدمياطي البناء ، و (شرح الشاطبية) لابن القاصح . و (المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار) لأبي عمرو الداني . وكتاب (الشكل والنقط) له . فإن في هذه الكتب مايدل على مقدار مابذله المتقدمون من العناية بالقرآن الكريم ، وعلى مقدار تفننهم في التأليف . وقد جعلوا الكلام فيه على أنواع : فما يتعلق بإعطاء كل حرف حقه وترتيله ، ورده إلى مخرجه وأصله وتلطيف النطق به على كمال هيئته من غير إسراف ولا تعسف ولا إفراط ولا تكلف يسمونه « التجويد » ، وهو حلية القرآن . وما يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التركيبية يسمونه : «التفسير والتأويل» ، وقيل : التفسير توضيح معنى الآية وشأنها وقصتها والسبب الذي نزلت فيه بلفظ يدل عليه دلالة ظاهرة . والتأويل صرف اللفظ الظاهر إلى معنى يحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه موافقاً للكتاب والسنة ، مثل قوله تعالى ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ إن أراد به إخراج الطير من البيضة كان تفسيرا ، وإن أراد به إخراج المؤمن من الكافر أو العالم من الجاهل كان تأويلا ، وقيل غير ذلك .

وقد ألف المتقدمون كتباً كثيرة في غريب القرآن ومجاز القرآن ومعانيه ومشكله ولغاته وآياته وتفسيره وغير ذلك ، وكان العصر الذي أظل أبا العلاء عصر تنافس في ذلك ، ونبغ فيه من المُجلّين في هذا العلم أبو عبد الله أحمد بن محمد الثعلبي المتوفى سنة ٤٢٧ هـ ، وأبو الحسن علي بن أحمد الواحدي المتوفى سنة ٤٦٨ هـ .

وقد نبغ فيها في المعرة طائفة واشتهر منهم أبو الحسين ابن علي بن الفضل بن جعفر بن المهذب المتوفى سنة ٤٥٥ هـ ، وسيأتي أن أبا العلاء قرأ القرآن بكثير من الروايات . وفي (رسالة الملائكة) و (لزوم مالا يلزم) شواهد وإشارات تدل على أنه كان عالماً بما وراء القراءات العشر .

الحديث

وكانت عناية المسلمين بأحاديث النبي (ﷺ) تلي عنايتهم بالقرآن الكريم ، فقد تجرد جماعة من الحفظة الثقات الأعلام المتقدمين لبيان الحديث الصحيح من غيره ، ووضعوا كتباً للجرح والتعديل وعنوا بضبط الألفاظ وتفسير الغريب وشرح معاني الحديث وبيان ما فيه من المجاز ، وقسموا الحديث إلى أقسام بحسب المتن والإسناد ، وفي عصر أبي العلاء كان اهتمام العلماء بذلك لا يقل عمن سبقهم ، وسيأتي في « ثقافته » أسماء الذين نبغوا في عهده في المعرة وأسماء شيوخه الذين روى عنهم وبيان شأن الرواية .

الفقه

هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية ، وقيل غير ذلك . وقد كان المسلمون يرجعون في معرفة الأحكام إلى القرآن الكريم والنبي (ﷺ) مدة حياته ، ثم إلى فقهاء الصحابة ، ثم التابعين فتعددت

بذلك مذاهب الفقهاء في آخر العهد الأموي وأول العهد العباسي . ثم اتفقت كلمة جمهور من المسلمين على ترجيح أربعة مذاهب على غيرها : مذهب أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي المتوفى سنة ١٥٠ ﻫ ، ومالك بن أنس الأصبحي المتوفى ١٧٩ ﻫ ، والشافعي محمد بن إدريس الهاشمي القرشي المتوفى سنة ٢٠٤ ﻫ ، وأحمد بن محمد بن حنبل المتوفى ٢٤١ ﻫ .

فاقتصر الناس على هذه المذاهب الأربعة ، ونبغ في كل مذهب طائفة من الأعلام من أصحاب الأئمة الأربعة وأتباعهم في كل عصر . وكانت للناس عناية كبرى بدراسة الفقه ومعرفة الأحكام الشرعية الفرعية ، لأن القضاء والفتوى كان على واحد من تلك المذاهب في كل صقع ، وكان الناس في عهد أبي العلاء يتنافسون في التفقه إما رغبة في قضاء أو فتوى ، أو طلباً لرجحان في حظوة أو مناظرة أو غير ذلك من المقاصد الدنيوية ، وكان فيهم فريق يتفقه لمعرفة الحلال والحرام وصحة الأعمال وبطلانها ، وقد نبغ في القرن الخامس جماعة من الفقهاء ، على مذهب الإمام الشافعي ، منهم أبو حامد أحمد بن محمد الاسفرائيني المتوفى سنة ٤٠٦ ﻫ ، وهو الذي كتب إليه أبو العلاء قصيدة في أمر السفينة كما سيأتي ، ومنهم أبو إسحق إبراهيم بن علي الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦ ﻫ ، ومنهم عبد الملك بن عبد الله إمام الحرمين المتوفى سنة ٤٧٨ ﻫ .

ونبغ فريق من الفقهاء على مذهب أبي حنيفة ، منهم : أبو الحسين أحمد ابن محمد القدوري المتوفى سنة ٤٢٨ ﻫ ، وأبو بكر محمد بن أحمد بن سهل السرخسي صاحب كتاب (المبسوط) المتوفى سنة ٤٨٣ ﻫ .

(١)

(١) في الأصل فراغ مقداره تسعة أسطر ولعل المرحوم المؤلف كان يبغي أن يضيف شيئاً .

واشتهر في المعرة جماعة من الفقهاء في هذا العصر ، منهم أبو حمزة الحسن بن عبد الله التنوخي الذي رثاه أبو العلاء بداليته ، ومنهم أبو المحاسن المفضل بن محمد بن مسعر التنوخي الآتي ذكره .

أصول الفقه

ويتصل بعلم الفقه علم أصول الفقه ، وهو العلم بالقواعد التي يُتوصل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية الفرعية من أدلتها التفصيلية ، وهذا العلم يتوقف على معرفة العلوم العربية ، وبعض العلوم الشرعية ، كأصول الكلام والتفسير والحديث وبعض العلوم العقلية كالمنطق ، وقد عني به المسلمون عناية كبرى ونبغ فيه في القرن الرابع والخامس جماعة من الأئمة منهم :

أبو بكر محمد بن علي القفال الكبير المتوفى سنة ٣٦٥ ﻫ ، وأبو بكر أحمد بن علي الجصاص المتوفى سنة ٣٧٠ ﻫ ، وأبو زيد عبد الله بن عمر الدبوسي المتوفى سنة ٤٣٠ ﻫ ، وعلي بن محمد البزدوي المتوفى سنة ٤٨٢ ﻫ ، وشمس الأئمة السرخسي المتوفى سنة ٤٨٣ ﻫ .

اللغة

أول ما ابتدأ به علماء العرب في تدوين اللغة أنهم كانوا يضعون رسائل صغيرة في مواضيع خاصة ، كالرسائل التي وضعت في خلق الإنسان أو الفَرَس أو الإبل ، وكرسالة الكَرْم أو النخل أو ما شابه ذلك .

وأول من وضع كتاباً جامعاً في اللغة الخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفى سنة ١٧٠ ﻫ ، فإنه وضع كتاب (العين) ، ومات قبل أن يتمه ، فأتمه بعض تلاميذه ، فجاء مضطرباً مختلاً ، ولم يسلم من النقد .

وقد استدرك عليه المفضّل بن سلمة بن عاصم المتوفى سنة ٢٥٠ هـ ، وللمفضل كتب كثيرة منها كتاب (البارع في اللغة) و (الفاخر فيما تلحن به العامة) و (ما يحتاج إليه الكاتب) و (الرد على الخليل) في نقد كتاب العين ، و (ضياء القلوب) في معاني القرآن و(الزرع والنبات) ، وغيرها.

ثم وضع أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي المتوفى سنة ٣٢١ هـ ، كتاب (الجمهرة في اللغة) ، وله كتب كثيرة منها : (الاشتقاق) و (المقصور والممدود) و (الملاحن) و (صفة السرج واللجام) و (السحاب والغيث) و (تقويم اللسان) و (اللغات) و (المجتنى) وغيرها .

ثم وضع إسحاق بن إبراهيم الفارابي خال الجوهري المتوفى سنة ٣٥٠ هـ ، (ديوان الأدب) .

ثم وضع أبو علي القالي إسماعيل بن القاسم المتوفى سنة ٣٥٦ هـ كتاب (البارع في اللغة) ، وله كتب كثيرة منها : (الأمالي والنوادر) ، و(المقصور والممدود والمهموز) .

ثم وضع أبو منصور الأزهري محمد بن أحمد بن الأزهر المتوفى سنة ٣٧٠ هـ كتاب (التهذيب في اللغة) . وله (غريب الألفاظ) التي استعملها الفقهاء و (تفسير القرآن) .

ووضع خلال هذه المدة جماعة من أئمة اللغة كتباً في النوادر والفصيح وغريب القرآن والخيل والإبل والسلاح والشجر والنبات ، وما أشبه ذلك من المواضيع الخاصة .

ثم عني أهل اللغة بالترتيب والتنقيح والضبط والجمع والتقريب والاختصار ، فاختصر أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الإشبيلي المتوفى سنة ٣٧٩ هـ كتاب (العين) ، وهذا أخذ عن القالي ، وله (طبقات النحويين) و (لحن العامة).

ووضع الصاحب اسماعيل بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥هـ (المحيط) وهو سبع مجلدات .

ووضع أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٥هـ (المجمل في اللغة) . وله (مقاييس اللغة) و (الصاحبي) و (الفصيح) و (تمام الفصيح) و (فقه اللغة) و (جامع التأويل في تفسير القرآن) ، وغيرها .

ووضع أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري المتوفى مابين سنة ٣٩٣هـ ، إلى سنة ٣٩٨ كتاب (الصحاح) وله كتاب في العروض ومقدمة في النحو .

ووضع أبو منصور الثعالبي عبد الملك بن محمد بن اسماعيل المتوفى سنة ٤٢٩هـ ، (فقه اللغة) وله كتب كثيرة منها (يتيمة الدهر) و (المضاف والمنسوب) و (الكتابة والتعريض) وغيرها .

وقد أجاد علماء القرن الرابع والخامس في الترتيب والجمع وفاقوا من تقدمهم في التقريب والتسهيل ، ونبغ فيها طائفة من اللغويين البارعين ، منهم أبو الحسن علي بن سيده الأندلسي المتوفى في دانية سنة ٤٥٨هـ وكان ضريراً كأبيه ، وله كتاب (المخصص في اللغة) وكتاب (المحكم) و (شرح ما أشكل من شعر المتنبي) و (الأنيق) شرح حماسة أبي تمام وغيرها .

ونبغ في المعرة في القرن الرابع والخامس طائفة من اللغويين ، منهم أبو المحاسن المفضل بن محمد بن مسعر التنوخي ، وأبو العلاء ، وأبوه عبد الله بن سليمان .

النحو والصرف

ألف أهل القرن الثاني والثالث في هذين العلمين كتباً كثيرة ، والغالب فيها أن يكون التأليف إما على مذهب البصريين أو الكوفيين . فلما كان القرن الرابع أخذ فريق من العلماء يجمعون بين المذهبين ، وقد نبغ فيه

طائفة من الأئمة ، منهم الحسن بن عبد الله أبو سعيد السيرافي المتوفى سنة ٣٦٨ هـ ، وأبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه بن حمدان المتوفى سنة ٣٧٠ هـ وله كتب منها (شرح مقصورة ابن دريد) ، و (ليس في كلام العرب) و (الاشتقاق) . وأبو علي الفارسي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار المتوفى سنة ٣٧٧ هـ ، وأبو الفتح عثمان بن جني المتوفى سنة ٣٩٢ هـ .

ويزيد علماء هذا العصر على من تقدمهم بما بحثوا فيه من المناسبات بين الألفاظ ومدلولاتها ، وما بين أصوات اللغة والطبيعة من التشابه أو التقارب . وبالبحث عن علل الإعراب والبناء ، وبما أدخلوه من مصطلحات المناطقة والأصوليين في النحو ، وجروا على طريقة المناطقة بتحرير الحدود والقواعد .

ويصح أن يقال : إن هذا العصر أسبق العصور إلى البحث في الفلسفة اللغوية ، وفي كتاب (الخصائص) ما يقنع المرتاب ويبين الحد الذي انتهى اليه علماء هذا العصر في مثل هذه المباحث .

ويتصل بعلم الصرف علم الاشتقاق ، ومن العلماء من أفرده بتأليف مستقل كالمفضّل بن سلمة والأصمعي [١] والمبرد [٢] وابن دريد والأخفش المجاشعي [٣] وابن خالويه ، وفي (رسالة الملائكة) شواهد جمة تدل على أن أبا العلاء كان إماماً في هذه العلوم .

---

(١) هو عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي راوية العرب وأحد أئمة اللغة له تصانيف كثيرة وتوفي سنة ٢١٦ هـ . (ج)

(٢) هو محمد بن يزيد الثمالي الأزدي إمام العربية وأحد أئمة الأدب ، توفي في بغداد سنة ٢٨٦ هـ ، وله كتاب (الكامل) و (المقتضب) و (إعراب القرآن) وغيرها . (ج)

(٣) هو سعيد بن مسعدة المجاشعي عالم بالنحو واللغة والأدب أخذ عن سيبويه وله كتب منها (تفسير معاني القرآن) و (الاشتقاق) و (معاني الشعر) توفي سنة ٢١٥ هـ . (ج)

علم المعاني والبيان والبديع

عني المسلمون أولاً بتدوين العلوم التي تحفظ الكلام من الخطأ في مخارج حروفه وفي إعرابه وتصريفه وتفسير المغلق والغريب منه ، حتى إذا فرغوا من ذلك وجهوا عنايتهم إلى البحث في فصاحة الكلام وبلاغته وبيان وجوهها . وكان غرضهم من ذلك كله وضع قواعد عامة لمعرفة اللغة وضبطها بقواعد كلية ليدرأوا عنها اللحن والخطأ ، ويدربوا الأعجمي ومن في حكمه على التكلم بالفصيح والصحيح ، وعلى إدراك مافي القرآن الكريم من أسرار البلاغة وأدلة الإعجاز . وكان البحث في ذلك قديماً عند المتقدمين إلا أن مسائله غير مجموعة ولا محررة .

ولعل أول كتاب وضع في البيان (المجاز في غريب القرآن) لأبي عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢١٠ هـ تقريبا . وقد تصدى الجاحظ في البيان والتبيين إلى ذكر شيء من عيوب اللسان ومحسنات البيان . واحتذى على مثاله جماعة من العلماء ، مثل قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٢٥٦ هـ ، وابن دريد ، وأبو هلال العسكري الحسن بن عبد الله المتوفى سنة ٣٨٢ هـ .

ثم جاء عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ فجمع ماتشتت من مسائل المعاني والبيان ووضع لهما قواعد ، وألف كتابين (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) ، ثم تم تحرير هذه العلوم وتمييز كل واحد منهما من الآخر بعد هذا العصر .

أما البديع فأول من ألف فيه كتاباً عبد الله بن المعتز العباسي المتوفى سنة ٢٩٦ هـ ، ثم زاد عليه قدامة بعض الأنواع ، وكذلك العسكري وابن رشيق القيرواني المتوفى سنة ٤٥٦هـ .

وسيأتي أن لأبي العلاء يداً طولى في هذا العلم والإرشاد إلى طرقه بما أورده من نقد العلماء والكتب .

العروض والقوافي

أول من وضع هذا العلم الخليل بن أحمد، ثم جاء من بعده الأخفش المجاشعي فزاد واستدرك عليه بحرا. ثم ألف فيه جماعة، منهم المازني بكر ابن محمد المتوفى سنة ٢٤٩ هـ، والمبرد، وأبو إسحق إبراهيم بن محمد الزجّاج المتوفى سنة ٣١٠هـ، والجوهري صاحب الصحاح وغيرهم.

وعني أبو العلاء بهذا العلم عناية كبرى. واشتهر به من علماء المعرة في هذا العصر أبو يعلى عبد الباقي بن أبي حصين، وله كتاب في العروض والقوافي يذكر فيه أنه سأل أبا العلاء عن بعض مسائل هذا الفن. ومنه نسخة خطية في المكتبة الظاهرية في دمشق.

التاريخ

أول ما شُرع في التاريخ في عهد بني أمية، يقال: إن معاوية استقدم عبيد بن شرية الجرهمي فكتب له كتاب (الملوك وأخبار الماضين)، وإن وهب بن منبه المتوفى نحو سنة ١٤٤ هـ وضع كتباً في ذلك. ولكن ما كتب في ذلك العهد كان أوليا بسيطا، ينقل المؤرخ ما يرويه عن غيره بالسند، ولما جاء العصر العباسي اتجهت نفوس العرب إلى العناية بالتاريخ فقسموه إلى أنواع: المغازي والفتوح وطبقات الرجال [ويقال إن العرب لم يسبقوا إلى هذا النوع] والأنساب وأيام العرب وتاريخ الملوك والأمم والبلدان وسيرة النبي ﷺ لأنهم كانوا يريدون معرفة الأزمنة والأمكنة التي نزلت فيها آيات القرآن أو قيلت فيها أحاديث الرسول ﷺ، والبلدان التي فتحت صلحاً أو عنوة لتنظيم أمر الجزية والخراج. والتعرف برواة الحديث وحملة الشريعة للبحث عن عدالتهم وطبقاتهم، ومعرفة القبائل

الكريمة من غيرها ، والقرشي من غيره ، وما كان لأنجاد[1] العرب وأمجادهم وأجوادهم من الأعمال الجليلة ، ومعرفة أسباب الشعر ومواقعه ونحو ذلك من المقاصد .

وقد ألف في كل نوع منه طائفة ، منهم محمد بن يسار المطلبي المدني المتوفى سنة ١٥١ هـ صاحب (السيرة النبوية) ومحمد بن سعيد المتوفى سنة ١٦٨ هـ ، وهشام بن محمد الكلبي المتوفى سنة ٢٠٦ هـ ، والواقدي محمد بن عمر المتوفى سنة ٢٠٧ هـ ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى ، والأصمعي ، وعبد الملك بن هشام الحميري المعافري المتوفى سنة ٢١٣ هـ ، وهو صاحب (السيرة النبوية) ، والمدائني علي بن محمد المتوفى سنة ٢٢٥ هـ ، ومحمد بن سعد بن منيع الزهري صاحب (طبقات الصحابة) المتوفى سنة ٢٣٠ هـ ، وأحمد بن واضح اليعقوبي المتوفى سنة ٢٨٧ هـ ، ومحمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ ، وأبو زيد البلخي أحمد بن سهل المتوفى سنة ٣٢٢ هـ ، والمسعودي علي بن الحسين المتوفى سنة ٣٤٦ هـ ، وابن مسكويه أحمد بن محمد المتوفى سنة ٤٢١ هـ .

وكان سبيل العرب في التاريخ أن يسرد المؤرخ ما وقع إليه من الحوادث في كل سنة أو ما انتهى إليه علمه من حوادث أمة وأخبار دولة ، ويقل عندهم نقد الرجال والتوسع في البحث عن أحوال الأمم الاقتصادية والاجتماعية ، وتعليل الحوادث والإمعان في تحقيقها ما خلا المحدثين فإنهم بالغوا في الاستقصاء والتحري والبحث عن أحوال الرجال وعدالتهم وما تتوقف عليه معرفة ذلك .

وكأنّ المؤرخ العربي يرى أن التاريخ عبارة عن نقل الحوادث كما هي ، وهذا لا يقتضي أكثر من الأمانة في النقل والتحري في ضبط الرواية وهم لم يقصروا في ذلك . على أن نمط التاريخ تغير في هذا العصر عما

---

(١) الأنجاد : مفردها نَجِدٌ ونَجُدٌ وهو الشجاع الماضي غيره فيما يعجز .

كان عليه من قبل ، فإن أكثر المؤرخين فيه كانوا يرحلون إلى كثير من الأقطار ليكتبوا مايشاهدون . وإن كثيراً منهم درس الفلسفة فتفتقت ذهنه ووجهت نفسه إلى شيء من نقد الحوادث وتعليلهـــا وإلى ما في بعض الأقاليم من الحوادث الاجتماعية والطبيعية ، كما يتمثل ذلك في كتاب (مروج الذهب) للمسعودي ، فإنه رحل إلى بلاد الفرس والشام ومصر وغيرها وذكر في كتابه طائفة بما شاهده من العادات والمعتقدات والأخلاق. وما رآه من آثار الطبيعة كالزلازل والمد والجزر ونحوها .

ومنهم من أدخل في التاريخ شيئاً من المباحث العلمية والأدبية .

وقد ألف فيه جماعة من أهل المعرة في عصر أبي العلاء ، منهم أبو غالب همام بن جعفر بن المهذب التنوخي المعري . ومنهم يحيى بن علي ابن زريق التنوخي المعري .

وآثار أبي العلاء تدل على أن له عناية كبرى بمعرفة الرجال والأمم وأخبارهم وأحوالهم .

تقويم البلدان والجغرافيا

ازدهر في العصر العباسي علم تقويم البلدان ، وعني المؤرخون به خاصة حتى أن كثيراً منهم من جمع بينه وبين التاريخ في كتاب ، وقلّ من لم يكن منهم له باع طويل في هذا الفن ، وقد ألف فيه جماعة منهم : أبو زيد أحمد بن سهل البلخي ، له كتاب (البدء والتاريخ) . ومن العلماء من ينسبه إلى المطهّر بن طاهر المقدسي ، وابن واضح اليعقوبي له كتاب (البلدان) وعبيد الله بن أحمد بن خرداذبة المتوفى سنة ٢٨٠ هـ له كتاب (المسالك والممالك) ، ومحمد بن حوقل المتوفى سنه ٣٨٠ هـ[1] له (المسالك

(١) كذا في الأصل ، وفي الأعلام للزركلي (المتوفى بعد سنة ٣٦٧ هـ) .

والممالك)، ومحمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي المتوفى سنة ٣٨٠ﻫ له كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) . وأبو الريحان محمد بن أحمد البيروني المتوفى سنة ٤٤٠ﻫ .

الفلك

كان العرب الأقدمون يعرفون كثيراً من أسماء الكواكب وأوقات طلوعها وسقوطها وقران بعضها ببعض، ويهتدون بها في ظلمات البر والبحر، وكانوا ينسبون كثيراً من الحوادث الطبيعية إليها، كالحر والبرد والمطر، ولهم فيها عقائد وأساطير ملأوا الأدب العربي بها ، ولم يحدثنا التاريخ بأكثر من هذا .

فلما جاء العصر العباسي وترجمت كتب الهند والفرس واليونان جعل بعض الناس يتكهنون بحوادث النجوم ويرتزقون بها ، والظاهر من أقوال أبي العلاء أن ذلك كان مستفيضاً في عهده ، لأنه أكثر التذمر من المنجمين ، وحض الحكام على إزالتهم عن الطرق ، وحذّر النساء منهم وحرضهن على اجتنابهم . ويقال : إن هذا النوع مقتبس من الهنود والفرس ، وقد لقي رواجاً عند الخلفاء العبيديين ، كالحاكم وغيره ، كما لقي رواجاً عند غيرهم .

أما علم الفلك الذي اقتبسه العرب من اليونان فقد كسبهم معرفة رصد الكواكب وتوقيت الحوادث ، وكان علم الفلك بأقسامه مزدهراً في القرن الرابع والخامس لا سيما في مصر . وقد تأثر أبو العلاء بهذا الفن ، ولذلك نجد في كلامه كثيراً من أسماء الكواكب وتشخيصها ، وذكر شيء من خصائصها والبحث في قدمها وفنائها ، والعناصر التي تركبت منها ، وفي حسنها وما يزعمه الناس فيها ، ونحو ذلك مما يأتي . وقد نبغ في هذا الفن أبو الحسن علي بن عبد الرحمن الشهير بابن يونس المصري المتوفى سنة ٢٩٩ﻫ

وهو صاحب (الزيج الحاكمي) المعروف (بزيج ابن يونس) صحح به أغلاط من سبقه من مصنفي الأزياج ، وأبو الريحان البيروني .

وإنما ذكرنا هذا الفن عقب التاريخ وتقويم البلدان لشدة تأثرهما به ، وكثرة مباحثه التي أدخلها المؤلفون فيه .

الفلسفة

الترجمة

أول من عني من العرب بترجمة كتب العلم إلى العربية خالد بن يزيد ابن معاوية المتوفى سنة ٨٥ هـ ترجم بعض الكتب في النجوم والطب والكيمياء[١] ، ثم ترجم ماسرجويه كتاب (أهرون) في عهد عمر بن عبد العزيز . ثم لما قامت الخلافة العباسية اهتم الخليفة الثاني المنصور بالترجمة واستقدم نفراً من الهنود والسريان والفرس وغيرهم فترجموا له كتباً كثيرة ، وسأل ملوك الروم أن يصلوه بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا إليه ما لديهم من كتب أفلاطون وأرسطاطاليس وأبقراط وجالينوس وأوقليدس وبطليموس وغيرهم . وأول ما عني بترجمته من العلوم المنطق والنجوم . وكانت للترجمة طريقتان : الأولى ، أن تفسر كل لفظة من اللغة المنقول عنها بما يرادفها من اللغة العربية ، ومن رجال هذه الطريقة يوحنا بن البطريق وابن ناعمة الحمصي .

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٢١٢ . والوفيات ١ / ٢١١ . وطبقات الأطباء ١ / ١٠٩ .

والثانية ، أن يترجم كل جملة من غير أن يتقيد بتفسير كل كلمة على حدة ، ومن رجالها العباس بن سعيد الجوهري ، وحنين بن إسحاق . وهذه الطريقة أسلم عاقبة من الأولى وأكثر فائدة منها . ثم فترت الترجمة بعد موت المنصور ، حتى قام الرشيد فبعثها من مرقدها وترجم في عهده كل ماعثر عليه من كتب الطب والنجوم والكيمياء وغيرها . فلما جاء عهد المأمون أوفد إلى بلاد الروم طائفة ليختاروا له الكتب ويحملوها اليه ، منهم الحجاج بن مطر ، وسلم صاحب بيت الحكمة ، وابن البطريق ، وبنو شاكر المنجم وغيرهم [١] . فلما تم له ما أراد اختار أفضل التراجمة فترجموا له خير الكتب ، ونبغ في عهده طائفة من العلماء المحققين فأصلحوا ما في ترجمة من تقدمهم وما في الكتب المترجمة نفسها من الخطأ . وكان من هؤلاء يعقوب بن أسحق الكندي المتوفى سنة ٢٦٠ هـ وله ٢١٣ كتاباً في الطب والفلسفة والحساب والفلك والهندسة والموسيقى ، وقد ترجم كثيراً من كتب الفلاسفة وأوضح المشكل منها ، وكان أبرع الناس في الترجمة عن اليونانية ، ثم تتابع من بعده العلماء على التأليف والتنقيح والإصلاح . وكانت التراجمة ينعمون بما يغدقه عليهم الخلفاء وغيرهم ، وفي الفهرست ص ٣٤٠ أن بني المنجم كانوا يرزقون جماعة من النقلة في الشهر نحو خمسمائة دينار للنقل والملازمة . ولم يأت العهد الذي كان فيه أبو العلاء إلا وقد انتهى نقل ما كان عند اليونان والهند وغيرهما من أنواع الفلسفة والحكمة ، وأصبح الناس يدرسونه في المدارس والمساجد والمنازل ويبينون خطأ من تقدمهم من الفلاسفة ، وقد ألف جماعة من العرب كتباً كثيرة في فنون مختلفة .

---

(١) الفهرست ٣٣٩ . (ج)

العلوم الفلسفية عند المتقدمين

قسم المتقدمون العلوم الفلسفية إلى أربعة أنواع [١]: رياضية ومنطقية وطبيعية والٰهية . وقسموا الرياضية إلى أقسام أربعة : الأول علم الأرتماطيقي ، وهو معرفة خواص العدد ، وتحته علم الوفق والحساب .

الثاني : علم الهندسة بالبراهين ، وقسموها إلى علمية وعملية ، وتحتها علم رفع الأثقال وعلم الحيل المائية والهوائية والمناظر والحرب .

الثالث : علم النجوم ، وتحته علم الهيئة والميقات والزيج والأحكام والتحويل .

الرابع : علم الموسيقى ، وتحته علم الإيقاع والعروض .

وقسموا العلوم المنطقية إلى خمسة أنواع : معرفة صناعة الشعر . والخطب . والجدل . والبرهان . والمغالطة : سوفسطيقا .

وقسموا العلوم الطبيعية إلى سبعة أنواع : الأول : علم المبادىء ، وهو معرفة خمسة أشياء لاينفك عنها جسم ، وهي الهيولى والصورة والزمان والمكان والحكمة . الثاني : علم السماء والمعالم وما فيهما . الثالث : علم الكون والفساد. الرابع: حوادث الجو . الخامس : علم المعادن . السادس : علم النبات. السابع : علم الحيوان ، ويدخل فيه علم الطب وفروعه .

وقسموا العلوم الإلهية إلى أنواع : علم الواجب وصفته ، وعلم الروحانيات، وهي معرفة الجواهر البسيطة العقلية وهي الملائكة . والعلوم النفسانية ، وهي معرفة النفوس المتجسدة . والأرواح السارية في الأجسام الفلكية والطبيعية من الفلك المحيط إلى مركز الأرض . وعلم السياسات : وهو أنواع سياسة النبوة وسياسة الملك وتحته الفلاحة والرعايا وهو الأول المحتاج اليه

---

(١) راجع كشف الظنون . (ج)

في أول الأمر لتأسيس المدن ، وعلم قود الجيش ومكايد الحرب والبيطرة والبيزرة وآداب الملوك . والعلم المدني كعلم سياسة الخاصة وهي سياسة المنزل . وعلم سياسة الذات وهو علم الأخلاق .

وقد عني العرب بهذه العلوم وألفوا فيها كثيراً من الكتب . ونبغ منهم في كل عصر طائفة كبيرة ، ومن أفضل الفلاسفة في القرن الرابع والخامس . أبو بكر محمد بن زكريا الرازي المتوفى في بغداد سنة ٣١١ هـ ، وأبو نصر محمد بن محمد الفارابي المتوفى في دمشق سنة ٣٣٩ هـ وأبو علي الحسين ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ هـ وقد ذكر ابن النديم في (الفهرست) والقفطي في (أنباء الحكماء) وابن أبي أصيبعة في (طبقات الأطباء) عدداً كبيراً من أعلام الفلاسفة وكتبهم ، كما ذكر غيرهم من المؤرخين كثيراً منهم .

طريقة فلاسفة المسلمين

وكانت لفلاسفة المسلمين طريقتان : إحداهما لم يتقيد أصحابها بدين ولا غيره ، وإنما جعلوا العقل هو المتصرف المطلق . ومن رؤساء هذا الفريق الفارابي وابن سينا ، وقد شذ أهل هذا المذهب في كثير من القضايا عن سنن الإسلام ، فأثبتوا كثيراً مما نفاه المسلمون كقدم العالم ، ونفوا كثيراً مما أثبته المسلمون كحشر الأجساد ، ولذلك رمي أكثرهم بالإلحاد والزندقة .

والثانية أراد أصحابها أن يوفقوا بين الدين والفلسفة فتكلفوا لذلك وجوهاً وفّقوا في بعضها دون بعض آخر ، ومن هذا الفريق علماء الكلام فإنهم حاولوا ذلك في كثير من المسائل وأرادوا أن يسيّروا الفلسفة وراء الدين . ومن رجال هذه الطريقة أبو الحسن الأشعري علي بن اسماعيل ، وأبو منصور الماتريدي محمد بن محمد ، وأبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب ، وأبو إسحق الإسفرائني ابراهيم بن محمد ، ومحمد بن عبد الوهاب الجبّائي ، وابن المعلم أبو عبد الله محمد بن محمد .

ومن رجال هذا الفريق المتصوفة ، وقد ذكر صاحب (الذكرى)[١] أن الفلسفة الصوفية تتألف من عنصرين يونانيين ؛ أحدهما وحدة الوجود ، وهو مذهب الرواقيين أصحاب زينون ، زعموا أن ليس في الوجود إلا قوة واحدة ذات وجهين ؛ أحدهما عقل صرف به الحركة ، والثاني صورة تظهر فيها هذه الحركة . وعلى هذا يكون الموجود وموجده شيئاً واحداً في نفسه وإن اختلفا في الاعتبار . وهذا المذهب ظهر عند الهند قبل اليونان فإن البوذيين يرون اتحاد العالم بموجده . والثاني هو الإشراق ، ويقوم هذا المذهب على قاعدة فرضها أفلاطون وهي أن هناك عالماً عقلياً مجرداً يماثل عالم المادة المركب ومنه أهبطت النفس الإنسانية إلى عالم المادة لتبتلي وتمحص ، فلما جاء الاسكندريون قالوا لاشك أن هذا حق فمن اليسير أن تتصل النفس بعالمها العقلي في أثناء حياتها المادية ، وسبيل ذلك أن يصفى جوهرها بهجر اللذات وحصر الفكر في موضوع واحد فإذا تم ذلك — وهو لا يتم إلا بعد جهاد — فقد تطلع النفس على ما في العالم العقلي من جمال وتتصل بمبدعها وفي ذلك لذة لاتعدلها لذة أخرى ، وهذا المذهب هندي أيضاً لأن المعروف عن نساك الهند الأقدمين أنهم يعتكفون في كهف مظلم وينقطعون عن اللذات ويعرضون عن المادة ليتصلوا بالإله .

وهذان العنصران نقلا إلى المسلمين في القرن الثالث ، وأضيف إليهما شيء من ظاهر الدين فنشأ مزاج فلسفي خاص أظهر الحلاج والجنيد[٢]

---

(١) ذكرى أبي العلاء — لطه حسين — ط ٢ ص ٨٩ — ٩٢ . وما أثبته المؤلف تلخيص لما جاء في الذكرى .

(٢) الحلاج : هو الحسين بن منصور توفي سنة ٣٠٩ هـ ، واختلفت الكلمة فيه ، ففريق يعده من الزهاد المتعبدين ، وفريق آخر يعده من الزنادقة الملحدين وانه كان يقول بالحلول وقتل على الزندقة ، وقد ذكره أبو العلاء وذكر كتبه في رسالة الغفران ص ١٥٠ ، والجنيد هو أبو القاسم بن محمد البغدادي المتوفى سنة ٢٩٧ هـ ويعرف بالقواريري لعمله القوارير ويعرف بالخزاز لعمله الخز وهو أول من تكلم بالتوحيد ببغداد ، وشيخ مذهب التصوف لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة . وكان الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه والشعراء لفصاحته والمتكلمون لمعانيه .

وغيرهما من متصوفة القرن الرابع ، والمتصوفة أقرب إلى الشيعة منهم إلى أهل السنة ، فظهر فيهم مذهب الباطنية وكثر تأولهم للكتاب والحديث وانتشر مذهبهم في العامة فأدى إلى فنون من الإباحة ومخالفة الدين ، واخترعوا أشكالاً للعبادة التي توصلهم الى الله فنشأت طرقهم في الذكر واتخذوا الحشيش وسيلة الى غاياتهم فكثرت منهم الحماقات والأباطيل وضاق بهم أبو العلاء ذرعاً فأشبعهم رداً وازدراء . . . ولئن كثرت أضاليلهم فإن فيهم قوماً بررة استشام أبو العلاء من ذمه اه .

وفي هذا الكلام نظر من وجوه . منها : أننا لا نسلم بأن العنصرين المذكورين نقلا الى الاسلام في القرن الثالث ثم نشأ عنها مزاج فلسفي خاص . لأن الانقطاع عن الناس واللذات أمر قديم في الإسلام ، فقد ثبت في الأخبار الصحيحة أن النبي (ﷺ) حبب اليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتحنث[١] فيه حتى جاءه الملك بالوحي ، وبعد النبوة كان يعتكف في المسجد في العشر الأواخر من رمضان . ومنها أن المتصوفة كانوا يطبعون على غرار الصحابة لا سيما أبي بكر وعمر وعلي . ومنها : أننا لم نعرف عن المتقدمين من المتصوفة أنهم اتخذوا الحشيش أو غيره من المنكرات . ومنها أن الحلاج والجنيد على طرفي نقيض ، فالأول في رأي الجمهور زنديق ملحد ؛ والثاني تقي ورع ضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة .

على أننا لا ننكر أن في الصوفية أناساً عبثوا بالشريعة وصرفوا آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ عن وجوهها وتأولوا أقوال الصحابة والعلماء على ما تقتضيه أهواؤهم ، ولكن هؤلاء فريق قليل في المتقدمين ، ومثلهم كمثل فريق من العلماء زاغوا عن سبيل الهدى وشذوا عن طريق الجماعة ، وذلك يعود إلى خصائص في نفوسهم لا إلى أصل مذهبهم وطريقتهم ،

---

(١) تحنث : تعبد الليالي ذوات العدد أو اعتزل الأصنام .

وهؤلاء انتقدهم أبو العلاء كما انتقد فريقاً من العلماء ؛ أما المتأخرون من المتصوفة فحدث عنهم ولا حرج .

الأدب

عرّفه المتقدمون بأنه علم يحترز به عن الخلل في كلام العرب لفظا أو كتابة ، واختلفوا في أقسامه فقيل : ثمانية ، وقيل : اثنا عشر ، وقيل : أربعة عشر ، وقد جعلوا له أصولاً وفروعا ، أما أصوله ، فاللغة والصرف والاشتقاق والنحو والمعاني والبيان والعروض والقافية ، والبديع ذيل للمعاني والبيان ، وأما فروعه ؛ فالخط وقرض الشعر والانشاء والمحاضرات ، منها التواريخ [١] .

الخطابة

كان للخطابة شأن عظيم في فاتحة العصر العباسي ، ونبغ طائفة من الخطباء المصاقع كداود بن علي العباسي وشبيب بن شيبة والفضل بن عيسى الرقاشي ، وكان في الخلفاء العباسيين خطباء بلغاء كالمنصور والرشيد والمأمون وكذلك كان في رجال الدولة وأمرائها وقوادها مقاول أبيناء كعبد الله ابن طاهر وعبد الملك بن صالح العباسي .

ثم لما تولى قيادة الجيوش وعمالة الولايات كثير من الأعاجم والموالي واستعجم السلطان ، أخذ شأن الخطابة يتناقص ويضمحل حتى لم يبق منها إلا الخطب الدينية في الجمع والعيدين والزواج . وزادها سقوطاً وانحطاطاً شدة اختلاط العجم بالعرب وقلة الجند من العرب .

ولما كان عهد أبي العلاء كانت الغاية من الخطب الدينية إظهار ماعند

(١) راجع كليات أبي البقاء ص ٢٥ وكشف الظنون ١ / ٧١ .

الخطيب من فصاحة مصنوعة وبلاغة مسجوعة . ومنهم من كان يستعين بغيره فيعد له الخطب ويحبرها ، وسيأتي أن أبا العلاء ألف كثيراً من الخطب لغيره .

وقد خلف الخطابة في الأمور السياسية المناشير التي كانت تصدر عن الخلفاء والأمراء ، وفي الأمور الدينية مجالس المناظرة والجدل بين المتكلمين والفقهاء وبين الفقهاء أنفسهم وبين السنيّة والشيعة ونحو ذلك ، كالمناظرة التي وقعت بين أبي الحسن الأشعري وأبي علي الجبّائي في الأصلح والتعليل وفي أسماء الله هل هي توقيفية أم لا [١] ، وكالمناظرة بين الأشعري وأبي بكر الصيرفي محمد بن عبد الله المتوفى سنة ٣٣٠ هـ [٢] والمناظرة بين أبي إسحق الشيرازي وأبي عبد الله الدامغاني محمد بن علي المتوفى سنة ٤٧٨ هـ . وبين أبي إسحق وإمام الحرمين عبد الملك الجويني . والمناظرات التي وقعت بين أبي الطيب الطبري طاهر بن عبد الله المتوفى سنة ٤٥٠ هـ وأبي الحسن الطالقاني . وبين الطبري وأبي الحسن القدوري الحنفي [٣] .

وكان للعلماء مجالس للوعظ والتنزيه والإملاء وغيرها .

الكتابة

نبغت في العصر الأول العباسي والذي بعده طائفة من الكتاب

---

(١) طبقات السبكي ٢ / ٢٥ . (ج)

(٢) طبقات السبكي ٢ / ١٧٠ . (ج)

(٣) طبقات : ١٨٢ . (ج)

والمجودين كابن المقفع[١] ويحيى[٢] وجعفر[٣] والفضل[٤] البرمكيين وإسماعيل[٥] ابن صبيح وعمرو[٦] بن مسعدة وأحمد[٧] بن يوسف ومحمد[٨] بن عبد الملك الزيات والجاحظ ومحمد[٩] بن العميد .

---

(١) هو عبد الله بن المقفع الكاتب المشهور المتوفى سنة ١٤٢ ﻫ تقريباً وقد وضعت كتاباً خاصاً سميته (عمدة الأديب) (عبد الله بن المقفع) جمعت فيه طائفة من آثاره وأخباره ودراسة أدبه وذللت على مواطن العبقرية في كتبه وهو أجمع كتاب في هذا الغرض ؛ وقد طبع في دمشق سنة ١٣٥٥ هجرية . (ج)

(٢) ويحيى بن خالد بن برمك مؤدب الرشيد سجنه الرشيد يوم نكبة البرامكة في الرقة إلى أن مات سنة ١٩٠ ﻫ . (ج)

(٣) جعفر هو ابن يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد كانت له توقيعات جميلة وهو مشهور بفصاحة اللسان والقول قتله الرشيد فيمن قتله من البرامكة سنة ١٨٧ ﻫ . (ج)

(٤) والفضل هو ابن يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد توفي سنة ١٩٣ ﻫ في سجن الرقة مع أبيه . (ج)

(٥) إسماعيل بن صبيح ، كان وزيراً للرشيد بن جعفر . (ج)

(٦) عمرو بن مسعدة بن سعد بن صول كان يوقع بين يدي جعفر البرمكي في عهد الرشيد ثم اتصل بالمأمون فكان وزيراً له وكان في إنشائه يختار الإيجاز والجزل من الألفاظ ، توفي في آذنة أي أطنة في تركية سنة ٢١٧ ﻫ . (ج)

(٧) أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح من أهل الكوفة كان كاتباً مجوداً وشاعراً وزر للمأمون وتوفي سنة ٢١٣ ﻫ . (ج)

(٨) محمد بن عبد الملك بن أبان . . المشهور بابن الزيات ، نبغ في الإنشاء والأدب واللغة ، ووزر للمعتصم وعول عليه في أموره . وكذلك ابنه الواثق ، ولما مرض الواثق أراد أن يولي ابنه ويحرم المتوكل فلم يوفق فلما ولي المتوكل نكبه وعذبه ومات في بغداد سنة ٢٣٣ ﻫ . (ج)

(٩) ابن العميد محمد بن الحسين العميد كان عالماً كاتباً حتى قيل فيه : بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد ، وكان يلقب بالجاحظ الثاني لتوسعه في العلم والأدب وتقدمه في الكتابة وولي الوزارة لركن الدولة البويهي وبه تخرج عضد الدولة توفي سنة ٣٦٠ ﻫ . (ج)

وفي العهد الذي كان فيه أبو العلاء نبغت طائفة طبعت على غرار من تقدمها وزادت عليه ما أدخلته في فن الكتابة من مسائل العلم ومصطلحاته ومن الصناعة البديعية ، وإن سمجت عند بعض المتكلفين منهم ، والمستقري لتاريخ الكتّاب وآثارهم في هذا العهد يجد كثيراً منهم من استطاع أن يجمع بين تخير الألفاظ السهلة وجمال الجمل الرشيقة وروعة المعاني اللطيفة وأن يتصرف في فنون القول بأسلوب عذب ورصف محكم .

وبين أيدينا آثار أبي بكر الخوارزمي محمد بن العباس المتوفى سنة ٣٨٣ هـ ، والصابىء إبراهيم بن هلال المتوفى سنة ٣٨٤هـ ، والصاحب إسماعيل ابن عباد المتوفى سنة ٣٨٥هـ ، والبديع الهمذاني أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٣٩٣هـ .

وهي أفضل ماتركه ذلك العهد من التراث الأدبي النثري . وبعد هذا في وسعنا أن نقول : إن صناعة الإنشاء في هذا العهد لم تنحط عما كانت عليه في العهد الذي كان قبله وإن كان في رجاله بعض المتكلفين في الصناعة وقلما وجد عصر غير مطبوع بطابع التفاوت في نظمه ونثره .

الشعر

لم يصل الينا من الأدب الجاهلي إلا الشعر وقليل من النثر ، والشعر الذي وصل الينا محكم التأليف متلاحم الأجزاء مصقول الديباجة صحيح المعنى مشذب مهذب ، وقد جعل العلماء أقصى مداه قبل الإسلام بقرن ونصف ، وليس من المعقول أن يولد الشعر ويبلغ في الجودة والإتقان وتعدد الأنواع والأغراض والأوزان إلى هذا الحد في مثل هذه المدة بل لابد أن يكون قد مرت به أطوار مختلفة من التحرير والتنقيح والتهذيب في أوزانه وقوافيه وفي ألفاظه مفردة ومركبة ، وأطوار متعددة من

التقويم والتصحيح في معانيه حتى جاء على هذه الصورة الرائعة ، فإذاً من المتيقن أن الشعر مر بضروب من النقد الأدبي في العصر الجاهلي . غير أننا لم نجد لهذا النوع مسائل مجموعاً بعضها إلى بعض محصورة تحت كل نوع منها أفراد متقاربة أو متشابهة كما هو الشأن في كل علم من العلوم . وإنما نقلت الينا مسائل مبعثرة مرتبط كل منها بحادثة ، منها انتقاد أم جندب زوجها امرأ القيس الكندي (١) أنه جهد فرسه بسوطه ، وحرك رجليه وزجره بخلاف علقمة .

ومنها ما انتقده طرفة على المسيب بن علس (٢) حين قال له : استنوق

---

(١) امرؤ القيس : حندج بن حجر الكندي إمام الشعراء الجاهليين ، قالوا : إنه تنازع هو وعلقمة بن عبدة في الشعر وادعاه كل منهما على صاحبه . فقال علقمة : قل شعراً تمدح به فرسك والصيد ، وأقول في مثل ذلك ، وحكّما أم جندب في ذلك فقال امرؤ القيس قصيدته :

خليليّ مرّا بي على أم جُندُب . . وفيها يقول :

فللساق ألهوب وللسوط دِرّةٌ وللزّجر منهُ وقعُ أهوجَ مُتعبِ

وقال علقمة قصيدته :

ذهبتَ منَ الهجرانِ في كلِّ مَذْهَبِ . . وفيها يقول :

فأقبلَ يهوي ثانياً من عِنانِهِ يَمُرُّ كمَرِّ الرائحِ المتحلبِ

فقالت لزوجها : علقمة أشعر منك ، لأنك ضربت فرسك بسوطك ، وامتريته بساقك ، وزجرته بسوطك ، وأدرك علقمة الصيدَ ثانياً من عنانه . فغضب امرؤ القيس وقال ليس كما قلت ولكنك هويته . فطلّقها وتزوّجها علقمة . وبهذا سمي علقمة الفحل اﻫ ، وتفصيل هذه القصة في كتابنا (عمدة الأديب) : امرؤ القيس . وقد طبع في دمشق سنه ١٣٥٤ ﻫ = ١٩٣٦ م . (ج)

(٢) طرفة بن العبد البكري الوائلي أحد أصحاب المعلقات توفي قبل الإسلام بأكثر من نصف قرن . وهو شاعر فحل . والمسيب بن عَلَس من ضبيعة بن ربيعة ابن نزار كان ينشد أبياتاً في وصف جمل فقال فيها :

وقد أتناسى الهمّ عند احتضاره بناجٍ عليه الصَّيْعَرِيةُ مُكدَمِ

فقال له طرفة : استنوق الجمل . أي انك كنت في وصف جمل ، فلما قلت الصيعرية عدت إلى ما توصف به النوق لأن الصيعرية سمة لا تكوت إلا في عنق الناقة . (ج)

الجمل . ومنها انتقاد أهل المدينة شعر النابغة الذبياني [١] لما فيه من الاقواء . ومنها انتقاد الخنساء بيت حسان [٢] :

لنا الجفنات الغرُّ يلمعن في الضحى ... وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

وفي هذا المنقول ما يرجع إلى اللفظ ، وفيه ما يرجع إلى المعنى . وكان المرجع في النقد عند الجاهلين هو الذوق الفني فقط ، وليس لديهم قواعد يرجع إليها في ذلك ، ولا كانوا يعمدون إلى حل الشعر والتفكير فيما بين

---

(١) نظم النابغة الذبياني قصيدته :
من آل ميةَ رائحٌ أو مُغتدِ . . . . على الدال المكسورة وفيها يقول :
زَعمَ الغُدافُ بأنَّ رحلتَنا غداً ... وبذاكَ خبَّرنا الغدافُ الأسوَدُ
ويقول :
بمخضَّبٍ رَخصٍ كأنَّ بنانَهُ ... عَنَمٌ يكادُ من اللطافةِ يعقَدُ
وفي كلا البيتين إقواء ، وهو اختلاف حركة الروي بضم وكسر . فلما دخل المدينة نُبِّهَ إلى ذلك فغيَّر البيتين . وإيضاح هذه القصة وتحقيقها مبسوط في كتابنا (النابغة الذبياني) ج ١ ص ٨٤ ، وقد طبع في دمشق سنة ١٣٦٤ هـ = ١٩٤٥ م . **(ج)**

(٢) الخنساء : تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد من بني سُليم ، أدركت الجاهلية والإسلام وهي أرقى وأرثى شاعرات العرب . توفيت قبل الخمسين من الهجرة . وحسان بن ثابت الأنصاري الخزرجي عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام أنشد النابغةَ في سوق عكاظ قصيدته الميمية :

ألم تسأل الربعَ الجديدَ التكلما

ثم أنشدته الخنساء قصيدتها الرائية :

قذى بعينيك أم بالعين عوار

فقال النابغة : أنت أشعر ذات مثانة . فقالت : وذي خصية . فقال : وذي خصية . فغضب حسان وقال : أنا أشعر منك ومنها ؛ ثم قال النابغة للخنساء : خاطبيه ! فسألته : ما أجود بيت في قصيدته فقال :

لنا الجَفَنات الغُرُّ يلمعْنَ في الضحى

فانتقدته في مواضع . وتفصيل هذه الحادثة وتحقيقها في رسالتنا في (الخنساء وحسان) وفي كتاب (النابغة) المتقدم ذكره . **(ج)**

أجزائه وعناصره من التلاحم والتوافق ونحو ذلك من عمل الفكر الذي لم يهتد إليه فكر الجاهلي أو لم نهتد نحن إلى معرفته . والحوادث تدلنا على أن ذلك الذوق كان صحيحاً سليما دقيقا . فإن امرأ القيس وعلقمة لما تحاكما إلى أم جندب ، وضعت لهما مقياساً دقيقاً لتعول عليه في الموازنة بينهما وتستند اليه في تفضيل أحدهما على الآخر ، فأمرت كلا منهما أن يقول شعراً على روي واحد ووزن واحد في غرض واحد وهو وصف الفرس والصيد أو هما اقترحا ذلك ، ويتضح من ذلك أن الذي اتخذ مقياساً للموازنة والمفاضلة في هذه القصة أمور ثلاثة : وهي وحدة الوزن والقافية والغرض . وهذا وأشباهه يدل على أن للنقد نواة صحيحة في العصر الجاهلي وإن لم نعلم كنهها على التحقيق .

فلما جاء الإسلام واطلع العرب على القرآن الكريم ، ارتقى العقل والذوق العربيان لأن الإسلام أمرهم بالنظر والاعتبار في ملكوت السموات والأرض ، ووجه نفوسهم إلى طلب العلم وأراهم مالم يروا من مشاهد الطبيعة وحضارة الأمم التي كانت تجاورهم . والقرآن لطف أذواقهم وشحذ أذهانهم ، فاتسعت دائرة النقد لديهم ، وحسبك أن تقرأ ما كان يقع من تفضيل شاعر على آخر أو تفضيل شاعر على جميع الشعراء مع بيان الأسباب التي تقتضي ذلك ، كما فعل عمر بن الخطاب في تفضيل زهير على غيره (١) .

(١) قال عمر بن الخطاب لابن عباس : هل تروي لشاعر الشعراء ؟ قال : ومن هو ؟ قال : الذي يقول :

ولو أن حمداً أخلد الناس أخلدوا . .

قال : ذاك زهير . قال : فذاك شاعر الشعراء ، قال : وبم صار كذلك ؟ قال : لأنه كان لايعاظل في الكلام ويتجنب وحشي الشعر ، ولا يقول الا مايعرف ، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه (ج)

وكما فعل جماعة بعمر بن أبي ربيعة (١) ونحوه . وما كان يفعله الخلفاء والأمراء من إرشاد الشاعر إلى الجيــد من المدح واطّراح الرديء منه كما فعل معاوية بالأخطل (٢) أو استهجان لفظ أو معنى لما يوهمه مما لا يلائم المقام أو لا يوافق مراد الشاعر كما فعل عبد الملك بجرير (٣) وذي الرُّمة (٤)

---

(١) قال ابن أبي عتيق : لشعرِ عُمر لوطةٌ في القلب وعلوق بالنفس ودرك للحاجة ليست لشعر . وقال عمر بن مصعب : إن لشعر عمر لموقعاً في القلب ومخـالطة للنفس ليسا لغيره ، ولو كان شعر يسحر لكان شعره سحراً . (ج)

(٢) قال الأخطل لمعاوية : إني امتدحتك بأبيات فاسمعهـا ! فقال : إن كنت شبهتني بالحية والأسد والصقر فلا حاجة لي بها ، وإن كنت قلت كما قالت الخنساء :

فما بلغَ المُهدونَ للناسِ مِدحةً وإن أطنبوا إلا الذي فيكَ أفضل

فقل ! فقال الأخطل : والله لقد أحسنتَ ، وقد قلت فيكَ بيتين ماهمـا بدونها ، وأنشد :

إذا متَّ ماتَ العُرفُ وانقطعَ النّدى فلمْ يبقَ إلا من قليـل مُصرَّدِ

نسبها إلى الأخطل في زهر الآداب ج ٦٤/٤ ، وأمالي المرتضى ج ١١٣/٣ ، وفي كتاب المعمرين : إن نصر بن الحجاج السلمي قالها لمعاوية ، فلما سمعها قال لابنته قرظة وهي تبكي : اسمعي إلي مرثيتي وأنا حي . (ج)

(٣) دخل جرير على عبد الملك ، فأنشده قصيدته :

أتصحو أم فؤادك غير صاح

فقال بل فؤادك يابن الفاعلة . وجرير بن عطية بن حذيفة الكلبي اليربوعي أشعر أهل عصره ولد باليمامة سنة ٢٨ هـ ومات بها سنة ١١٠ . (ج)

(٤) ذو الرمة : غيلان بن عقبة العدوي من مضر شـاعر فحل قيل : بدىء الشعر بامرىء القيس وختم بذي الرمة توفي سنة ١١٧ هـ ودخل على عبد الملك فاستنشده شيئاً من شعره ، فأنشده قوله :

مابالُ عينِكَ منها الماءُ يَنْسكِبُ .

وكانت بعين عبد الملك ريشة وهي تدمع أبداً ، فتوهم أنه عرض به ، فقال : وما سؤالك عن هذا ياجاهل ؟ وأمر بإخراجه . العمدة ١٠ ـ ١٤٨ (ج)

والحجاج بليلى الأخيليـة (١) . ونحو ذلك مما طفحت به كتب الأخبار والأدب .

وقد ينجلي للممعن في استقصـاء هذه المباحث أن النقد في العصر الإسلامي لم يقتصر على نقد الألفاظ والمعاني فحسب بل تعدى ذلك إلى الشعور والحس ، كما سمعنا من قول ابن أبي عتيق ، وعمر بن مصعب في عمر بن أبي ربيعة من تفضيل شعر عمر بما ذكراه فيه على غيره لخلوه من ذلك . ولكن النقد في هذا العصر - وإن تعددت وجوهه - لم يعتمد على قواعد فنية ، وإنما كان يعتمد على الذوق والسليقة والفطرة وكثرة الممارسة التي تجعل في النفس ملكة يتميز بها الجيد من الرديء .

ولما قامت الدولة العباسية وزخرت بحور العلوم التي وضعها العرب أو ترجموها عن الأعاجم ونضجت علوم اللغة أخذ فن النقد يتقدم وينمو على أيدي اللغويين والأدباء من كتاب وشعراء ، وتعددت وجوهه ، وكان في أول هذا العهد يعتمد على الذوق ويستند في بعض مناحيه إلى العلم . وقد كان العصر العباسي الأول أي من سنة ١٣٤ هـ إلى سنة ٢٣٢ هـ عصر ترجمة وتدوين وسماع للغة من أفواه أهل البادية الذين لم تفسد سلائقهم بمخالطة العَجَم والمستعجمين ، فهو عصر غرس وتعهد .

وأما العصر الثاني فقد كان عصر بحث وإعمال للعقل وإنتاج للفكر ، فهو عصر نضج وإزهار وإثمار . ولذلك دون فيه من الكتب والرسائل

---

(١) وَفَدت ليلى الأخيلية على الحجاج فمدحته بأبيات منها قولها :

شفاها من الداء العقام الذي بها   غلامٌ إذا هز القناة ثناها

فقال لها : لاتقولي غلام قولي همـام . الكامل ١٧٦/٣ . وليلى بنت عبد الله شاعرة ذكية لها أخبار مع توبة بن الحُمَيِّر توفيت سنة ٧٥ هـ . (ج)

مالم يعرفه أهل العصر السابق ، وحدث فيه من الفنون مالم يكن من قبل، ومن ذلك المسائل العائدة إلى علم البلاغة الشامل لعلم المعاني والبيان والبديع [١] فهذا من ثمرات هذا العصر ونتاج عقول بنيه . أما كتاب أبي عبيدة معمر بن المثنى (مجاز القرآن) فإنه وإن أراد بالمجاز اللفظ المستعمل في غير ماوضع له إلا أنه لم يفرق بين أنواع المجاز التي قسمها علماء هذا الفن بعده . والجاحظ تصدى كما قلنا في (البيان والتبيين) إلى شيء من مباحث البيان إلا أنه لم يجر فيه على طريقة علمية تميز كل نوع من غيره وتلحق كل مفرد بنوعه ، وكذلك ماجاء في مثل كتاب (الكامل) للمبرد (والشعر والشعراء) لابن قتيبة لايتعدى كونه مسائل انتقد فيها من بعض الوجوه ، لاترجع إلى قاعدة عامة ولا إلى ضابط كلي ، وقد كانت هذه المباحث في الأدب . ثم لما اختلفت كلمة العلماء في إعجاز القرآن ووجوه إعجازه وطرقه استمد كل منهم من مسائل علم البلاغة مايؤيد به رأيه ويضعف رأي غيره ، فكان ذلك باعثاً لوجود هذا العلم .

ويمكن أن يقال : إن مسائل هذا العلم التي فاضت بها كتب الجاحظ والمبرد وابن قتيبة وغيرهم ، كانت نواة له في القرن الثالث والرابع ، ولم يكد يبزغ فجر القرن الخامس حتى أصبحت هذه المسائل علوماً متميزة بمبادئها وموضوعاتها ومسائلها وغاياتها فطلع عبد القاهر الجرجاني بكتابيه وجعلها أساساً للمعاني والبيان . ثم بلغت هذه العلوم غايتها من تحرير

(١) كثير من العلماء يسمى الجميع علم البيان . وكثير من يسمي الثلاثة علم البديع . وبعضهم يسمي الأول علم المعاني ، والثاني والثالث علم البيان كما ذكر ذلك السعد وغيره من شراح التلخيص ج ١ ص ١٥١ . (ج)

المباحث وتمييز مسائل كل علم منها على حدة على يد أبي يعقوب يوسف السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ ﻫ وأشباهه .

وزعم بعض الأدباء أن البيان والنقد شيء واحد . والحق أنهما قد يتفقان ويجتمعان في بيان وجوه الحسن ، وينفرد علم البيان في بيان تأدية المعنى بطريق أوضح من غيره ، وفي بيان أقسام المجاز والاستعارة والكناية ومسائل العلوم الثلاثة كالفصل والوصل والذكر والحذف وغيرها فليس شيء من هذا يسمى نقداً . وينفرد النقد بكثير من المباحث التي لاعلاقة لها بالبيان فبينهما عموم وخصوص من وجه .

ونقل الإنبابي في حاشيته على (رسالة البيان) للصبان عن السيوطي : أن المتقدمين كانوا يسمون علم البلاغة وتوابعها علم نقد الشعر ، وصنعة الشعر ونقد الكلام ، وفيه ألف قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣١٠ ﻫ كتاباً سمّاه (نقد الشعر) وألف الحسن بن عبد الله العسكري المتوفى سنة ٣٨٢ ﻫ كتاباً سماه (الصناعتين) يعني صناعتي النظم والنثر ، وإنما التسمية بالمعاني والبيان والبديع حادثة من المتأخرين . وفي هذا الكلام نظر لأن عبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ ﻫ ألف كتاباً في البديع .

ومن الحق أن يقال : إن العرب في العصر الجاهلي والإسلامي وأول العصر العباسي عرفوا فن النقد بأذواقهم وسلائقهم وإن لم يعرفوه علماً مستقلاً ، له من الخصائص والمميزات ما لكل علم .

وإن ما قدمناه من الأمثلة التي انتقدت على امرىء القيس والنابغة والمسيب وجرير وغيرهم . وما ذكره محمد بن سلام الجمحي المتوفى سنة ٢٣٢ في (طبقات الشعراء) والجاحظ عمرو بن بحر المتوفى سنة ٢٥٥ﻫ في (البيان والتبيين) وابن قتيبة عبد الله بن مسلم المتوفى سنة ٢٧٦ ﻫ في (أدب الكاتب) والمبرد محمد بن يزيد المتوفى سنة ٢٨٦ﻫ في (الكامل)

وأبو الفرج الاصفهاني علي بن الحسين المتوفى سنة ٣٥٦ ه في (الأغاني) وعلي ابن عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٦٦ ه في (الوساطة بين المتنبي وخصومه) والآمدي الحسن بن بشر المتوفى سنة ٣٧١ ه في (الموازنة بين أبي تمام والبحتري) والصاحب اسماعيل بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ ه في (كشف مساوىء المتنبي) والحاتمي أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر البغدادي المتوفى سنة ٣٨٨ في الرسالة التي انتقد فيها المتنبي وبيّن سرقاته ، وما شاكل هذا من الكتب والرسائل . كل هذا يدل على معرفتهم النقد قبل أن يكون علما .

ولقد أظل أبا العلاء طرف من العهد الذي كان فيه علم البلاغة بأنواعه علماً كاملاً . وقد تأثر بالنقد العلمي والأدبي كما سيأتي ، وكان لنقده أثر كبير مهد به السبيل للجرجاني والسكاكي ومن لف لفّهما . وسنذكر بقية العلوم التي كانت في هذا العصر في الكلام على ثقافته .

الشعر

ابتدأ تقدم الشعر في ألفاظه ومعانيه وأخيلته ، وتعددت أوزانه وقوافيه وأغراضه من فاتحة العصر العباسي ودبت إليه صناعة البديع من عهد بشار ابن برد ، ونمت على يد مسلم بن الوليد . وتمّت على يد أبي تمام واستعذب الشعراء طريقته فاحتذوا على مثالها . ونبغت في القرن الرابع والخامس طائفة من الشعراء المفلقين كأبي الطيب المتنبي وأبي فراس الحمداني وأبي الفتح بن أبي حَصينة والشريف الرضي وأمثالهم . ولم يخل شعر هؤلاء من أثر بين للصناعة البديعية ، ولكن على الغالب كان حظها قليلاً من التكلف الذي يورث الكلام سماجة . ومنها مايزيد الشعر رونقاً وطلاوة .

ألفاظ الشعر

وكان الغالب على هذه الطبقة النزوع إلى الإيجاز واطّراح الفضول من القول والعناية بتخير الألفاظ القليلة المبنى الكثيرة المعنى ، واستعمال كثير من الاصطلاحات العلمية المتعددة وذكر كثير من أسماء رجال التاريخ كأرسطو وجالينوس ، والإشارات إلى أصحاب النحل والمذاهب كالمانوية والدهرية والتعدية ونحو ذلك بما اكتظ به شعر المتنبي والرضي والمعري وغيرهم.

المعاني

وأما المعاني فقد تأثرت بالحضارة العباسية والنهضة الفكرية والحياة السياسية والاجتماعية ، ولقد أمدت هذه المؤثرات قرائح الشعراء وشحذت فطنهم ونمت ثقافاتهم فغزرت لديهم المادة واتسعت آفاق الخيال وتعددت صوره ، فجاءت معاني الشعر وأخيلته آية في الوضوح والروعة .

ومما زاد الشعر تقدماً ورقيّـاً في هذا العهد تعدد الملوك والأمراء والمتغلبين وحرص كل منهم على أن يتخذ من الشعراء لسانا ينوه بذكره ويعدد مناقبه ويقرظ أفعاله وينال من خصومه لتصغر منزلتهم في أعين الناس . وكان كثير من هؤلاء الرؤساء على شيء من العلم والأدب ، فكانوا يجلون الشاعر بقدر إجادته ، ويغدقون عليه من الصلات والأعطيات ما يملك لسانه على مدح غيرهم ، وكانوا يخشون معرّة الشعراء ويتقون أذاهم ، كما وقع للمتنبي عند سيف الدولة أولاً وعند كافور ثانيا وابن العميد ثالثا وعضد الدولة رابعاً . فكانت هذه العوامل مع ما للشاعر من المنزلة عند العامة والخاصة تدفع الشعراء إلى التسابق في الإجادة والإفتنان في الابتكار ، وكثر بذلك سواد الشعراء ، ويكفيك برهانا على كثرتهم في كل مصر أن الصاحب ابن عباد بنى قصراً فهنأه به خمسون شاعراً ، وأنه قال : مُدحت

والعلم عند الله بمائة ألف قصيدة شعراً عربية وفارسية . وأن سيف الدولة اجتمع ببابه خلق كثير من الشعراء النوابغ ، وأن أبا العلاء وقف على قبره ثمانون شاعراً أو أكثر .

فنون الشعر

أما فنون الشعر في هذا العهد فقد تناولت جميع مانظم فيه المتقدمون ، وارتقت عليها من كل جانب ، ولم يزد الشعراء فناً جديداً على من تقدمهم . إلا أن أبا العلاء أحدث الشعر الفلسفي ولم يكن معروفاً قبله بهذا الشكل.

وليست النهضة الشعرية في هذا العهـد مختصة بالشعر العربي فحسب وإنما كانت شاملة غير العرب إذ فيه نظمت الشاهنامة الفارسية ، وهي ستون ألف بيت في سنة ٣٨٤ هـ .

ويمكن أن يقال باختصار : إن الشعر في هذا العهد بلغ أقصى غاية في الافتنان في التشبيه وتنويع المجاز والاستعارة ولطف الكناية وروعة الخيال وصحة المعاني ونيل المقاصد ، واستخلاص اللباب من الثقافات الأعجمية والعربية وإدماج مسائل العلم واصطلاحاته في الشعر . كل ذلك بأسلوب رائع جامع بين الرقة والمتانة والإيجاز الوافي بالغرض في أكثر الأحيان .

الرواية

كان لكل شاعر في الجاهلية راوية فأكثر ، ودرج على ذلك الناس في العصر الأموي وقسم من العصر العباسي . ولكن لما جاء الإسلام تعددت أنواع الرواية ، فكان للقرآن رواة وللحديث رواة وللغة رواة وللأدب رواة ، وقد عني أهل الحديث عناية كبرى بالرواية وشروطهـا وشروط

الراوي ، وقسموا المروي بحسب السند والمتن إلى أقسام متعددة . وجعلوا طرق تحمل الحديث المروي ثمانية ، الأول : سماع لفظ الشيخ وهو أعلاها. الثاني : القراءة على الشيخ ويسميه بعضهم عرَضا . الثالث : الإجازة كأن يقول لرجل : أجزتك صحيح مسلم أو أجزت لك أن تروي عني صحيح البخاري مثلاً . الرابع : المناولة ؛ كأن يدفع الشيخ إلى الطالب أصل سماعه ويقول له : هذا سماعي أو روايتي عن فلان فاروه عني أو أجزت لك روايته عني . الخامس : الكتابة ؛ وهي أن يكتب الشيـــخ مسموعه لرجل ، ويقول له : أجزتك ما كتبت به إليك . السادس : إعلام الشيخ الطالب أن هذا الحديث أو الكتاب سماعه من فلان . السابع : الوصية ؛ وهي أن يوصي الشيخ عند موته أو سفره بكتاب يرويه لشخص آخر . الثامن : الوجادة ؛ وهي أن يقف على أحاديث بخط راويها . ولكل واحد من هذه الأقسام شروط وأنواع مبسوطة في كتب المحدّثين ؛ وفي بعضهــا خلاف بين العلماء . وفي كتاب (تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي) للسيوطي ص ١٢٩ ما يكفي لإيضاح هذا المقام .

وقد جرى بعض الأدباء عــلى شيء من طريقة المحدّثين وإن قصروا عنهم في الضبط والتحري والبحث عن عدالة الراوي وصفاته التي تدعو إلى الوثوق بروايته . وكانت رواية الأدب في فاتحــة العصر العباسي بالغة أشدّها من العنــاية وتحري الصدق ؛ إلا أن كتب الأدب كانت صغيرة وأكثرها في موضوع خاص .

ثم تغيرت في العصور التي بعده رغبة الأدباء من التـأليف في غرض واحد أو نوع واحد إلى جمع أنواع متعددة من الأدب ، فظهر مثل كتاب (البيان والتبيين) و (الحيوان) للجاحظ و كتاب (المنظوم والمنثور) لأحمد ابن طيفور المتوفى سنة ٢٨٠ هـ وهو من تلاميذ الجاحظ ، ومثل كتاب

(الـكامل) للمبرد و (الأغاني) و (أمالي القالي) و (العقد الفريد) و(يتيمة الدهر) . كثير من أمثال هذه الكتب التي جمعت ماتفرق من الروايات كما جمعت صوراً مختلفة من الأدب .

وسنرى أن أبا العلاء كان متأثراً بطريقة أهل عصره وما قبله في الرواية في الحديث والأدب ، وأنه قال في كتاب (غريب الحديث) : قرأه علينا عثمان بن عبد الله وهو سمعه من عدي بن عبد الباقي وهو سمعه من علي بن عبد العزيز صاحب أبي عبيد . وأنه قال في الجزء الثاني من ذكرى حبيب : قرأ علي هذا الجزء أبو الحسن يحيى بن محمد الرازي من سنة ٤٤٦ ﻫ إلى سنة ٤٤٧ ﻫ وأجزت له أن يرويه عني على حسب ماقرأه .



المقالة الأولى

(الكامل) للمبرد و (الأمالي) و (أمالي القالي) و (العقد الفريد) لابن عبد ربه ، وكثير من أمثال هذه الكتب التي تجمع [illegible] من الروايات [illegible] صورة [illegible] عن الأدب .

ويمكن [illegible] المكتبة العربية [illegible] طريقة [illegible] في الرواية في الحديث والأدب ، [illegible] في كتاب (غريب الحديث) [illegible] [illegible] بن عبد الله [illegible] عن [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] .

* * *

نشأته وحياته :

لم نقف في كلام الذين كتبوا في أبي العلاء قديماً وحديثاً على مايفصل لنا نشأته في فاتحة حياته ، ولا مااجتازه من الأطوار وألم به من المصائب في حياته كلها . وكل ماذكروه في ذلك أنه ولد سنة ٣٦٣ هـ وعمي بالجدري في السنة الرابعة من عمره ، وأنه رحل إلى حلب وبغداد ، ثم لزم منزله في المعرة حتى توفي . وأشباه ذلك من الحوادث التي لاتنقع غلة الباحث وما قطعه من مراحل الحياة ، ومر به من الأطوار والأحوال لايزال سراً غامضاً لم تسامحنا الأيام بالاطلاع عليه .

وقد كان أبوه يحدب عليه حتى توفي في حمص سنة ٣٧٧ هـ على قول ياقوت في (إرشاد الأريب) جزء ١ ص ١٦٣ . وفي معرة النعمان سنة ٣٩٥ هـ على قول ابن العديم [١] ، فيكون عمره عند وفاة أبيه أربعة عشر عاماً على قول ياقوت ، ونحو اثنين وثلاثين عاماً على قول ابن العديم . ولعل موته في المعرة أقرب إلى الصواب لأنه لو كان ميتاً في حمص لأشار إليه أبو العلاء في مرثيته أو غيرها ؛ ولم أر في كلامه مايدل على ذلك بل قال صاحب (التنوير) في شرح قوله : [٢]

مُجاوِرَ سَكْنٍ فِي دِيارٍ بَعِيدَةٍ   مِنَ الحَيِّ سَقْياً للدِّيارِ ولِلسَّكْنِ

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٩٣ عن الانصاف والتحري — لابن العديم — .
(٢) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٩٢٤ والتنوير ١/٢٨٧ . والسَّكْن : أهل الديار .

أي حللت في البيت الجديد مجاوراً لقوم ساكنين في ديار ، يعني المقابر ، وهي بعيدة من الحي على قربها بالمسافة . وهذا يشعر بأن المقابر التي دفن فيها قريبة فهي في المعرة ولو كانت في حمص لكانت بعيدة .

وسيأتي أن أمه توفيت سنة ٤٠٠ هـ ، وهو في بغداد ، أي قبل رجوعه إلى المعرة .

لعبه في حداثته وبعدها

وذكروا أنه في حداثة سنه كان يلعب مع الصبيان ، كما يأتي ذلك في قصة الحلبيين الذين جاءوا ليختبروه ، ونقل الثعالبي في (تتمة اليتيمة)[١] عن أبي الحسن الدلفي المصيصي أنه قال : « لقيت بمعرة النعمان أعمى شاعراً ظريفاً يلعب بالشطرنج والنرد ويدخل في كل فن من الهزل والجد ، يكنى أبا العلاء » ، وسيأتي تمام قوله في الكلام على من زاره في المعرة .

قال ابن العديم :[٢] « وهذا إن صح عن أبي العلاء فقد كان في حال الحداثة لأن أبا العلاء كان بعيداً عن اللهو والهزل » . وشك صاحب (الذكرى) في صحة ذلك فقال :[٣] « وما نشك في إحدى اثنتين : إما أن تكون الرواية مكذوبة ، وإما أن يكون لعبه بالشطرنج قد كان بأحجار معلمة تميزها الأيدي ، وذلك شيء لم نصل إلى معرفته الآن . وربما كان يلعب الشطرنج بلسانه كما يلعبه أهل الغرب الآن بوسائل البرق والبريد » . ا هـ

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣ عن تتمة يتيمة الدهر – للثعالبي – .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٥٨ عن الانصاف والتحري – لابن العديم – .

(٣) ذكرى أبي العلاء – لطه حسين – ط ٢ ص ١٦١ ، باختصار في النقل .

أما أن الرواية مكذوبة فيحتاج إلى مايؤيده ، والقول المجرد في مثل هذا لايفيد شيئاً ، وأما أن يكون اللعب بأحجار معلمة أو باللسان فأيها ارتضيناه فإنه يدل على أنه كان يلعب به . وقد ذكر الشطرنـج ورقعته وأسماء قطعه في مواطن من شعره ، منها قوله في السقط :[١]

أيها اللاَّعِبُ الذي فَرَسُ الشَّطْـرَنْجِ هَمَّتْ في كَفِّهِ بالصَّهيلِ
مَنْ يُبارِيكَ والبَيَاذِقُ في كَفَّيْـكَ يَغْلِبْنَ كلَّ رُخٍّ وفيلِ
تَصْرَعُ الشَّاهَ في المجالِ ولوجا ءَ مُرَدَّى بالتَّاجِ والإكْليلِ
لُطْفُ رَأْيٍ يَسْتَأْسِرُ الملكَ الأعْـظَمَ بالواحِدِ الحقيرِ الذَّليلِ ...

وقوله في اللزوم[٢] :

إنْ لَمْ تَحَوَّلْ فَرَازِيناً بَيَاذِقُهُمْ فالشَّاهُ فيلٌ وذاكَ الفيلُ فِرْزانُ

وقوله[٣] :

في بُقْعَةٍ مِنْ رُقْعَةٍ يَسَّرَتْ لِلْبَيْذَقِ الفَتْكَ بِفِرْزَانِهـا

فمثل هذه الأبيات لايتأتى قولها إلا لعارف منزلة الرخ والفيل والفرز والبيذق ، عالم بأن البيذق أضعفها وأن الفرز أقواهـا ، وأن البيذق قد يفتك بالفرز . وقد يحول فرزا ، وقد يقتل الشاه لأن غير العالم بذلك لايستطيع أن يصوغ هذه المعاني المطابقة للعب الشطرنـج . وقد استوفى

(١) شروح سقط الزند ، ق ٤ ص ٢٠٦٨ ، والرخ : حيوان على صورة البعير له سنامان وسمي به شخص من أشخاص الشطرنج .
(٢) اللزوميات هـ ص ٢٦٢ .
(٣) اللزوميات هـ ص ٢٨٠ .

أسماء الرقعة والقطع التي يلعب بها وهي الشاه والفرز والرخ والفيل والبيذق. وقد ذكر الصفدي أنه رأى في مصر أعمى يلعب بالشطرنج مع العوالي ويغلبهم وقال في (نكت الهميان) ص ٨٦: «إنه كان عالية في الشطرنج يلعب ويتحدث وينشد الشعر ويتوجه إلى بيت الخلاء ويعود إلى اللعب ولا يتغير عليه نقل شيء من القطع ...»

وكان أبو العلاء غزير العلم واسع الاطلاع على أخبار الأمم وعقائدها ومزاعمها وأيامها كثير الحفظ للنوادر والحوادث، فكان لجليسه منه مَعين لاينضب ومورد لايمل، ولكننا لم نوفق إلى معرفة حياته بصورة مفصلة.

تعلمه

لم يفصّل لنا التاريخ الطريقة التي سلكها أبو العلاء في تعلمه، ولا بين جميع الشيوخ الذين تخرج بهم في العلوم التي تعلمها، ولا أوضح لنا ماأخذه عن كل واحد منهم، ولا أي كتاب درسه في كل فن. ومجمل ماذكره المؤرخون في هذا الباب محفوف بالغموض والإبهام، وأكثره قائم على الظن يتابع فيه اللاحق السابق من غير بحث ولا تمحيص ولا توضيح وتحقيق، وأكثر من كتب في أبي العلاء من المتأخرين طبع على غرار المتقدمين واقتفى آثارهم، ولم يبين لنا من أين استمد أبو العلاء ثقافته الواسعة واقتبس علومه المتعددة، ولهم في ذلك عذر لأن المتقدمين غفلوا عن ذكر هذه الناحية أو أغفلوها. وكل ماذكروه أنه قرأ القرآن بكثير من الروايات على شيوخ يشار اليهم في القراءات، وأنه قرأ النحو واللغة بالمعرة على أبيه وعلى جماعة من أهل بلده كبني كوثر أو من يجري مجراهم من

أصحاب ابن خالويه وطبقته ، وأنه قرأ بحلب على ابن سعـــد . ولم يعرفونا بواحد من هؤلاء إلا قليلاً وإلا بصورة مجملة . ومثل ثقافة أبي العلاء المبثوثة في نظمه ونثره والمستمدة من علوم مختلفة لايمكن أن تنال إلا بطريق الدراسة ، ولا يمكن إحرازها كلها من علم القراءة والنحو واللغة . وأراد بعضهم أن يتوسع ، فزعم أن أبا العلاء قرأ في غير المعرة : في اللاذقية أو بغداد أو غيرهما ، وهذا يكذبه أبو العلاء نفسه كما سيأتي .

وإذا كان أبو العلاء تخرج في هذه العلوم المتعددة في المعرة وجب أن تكون المعرة في عهده حافلة بالأدباء مكتظة بالعلماء ، ولم نعثر على نص تاريخي يوضح لنا الحياة العقلية فيها في ذلك العهد . ولكننا وقفنا على تراجم فريق ممن كان في عصره من العلماء والشعراء ، وفيهم القراء والفقهاء واللغويون والنحاة والمحدثون والمؤرخون وغيرهم من العلماء في علوم مختلفة ، وهذه أسماء طائفة منهم :

العلماء الذين كانوا في المعرة في عهده

١ — أبو نصر أحمد بن علي ... بن أبي الفضل الكفرطـابي المعري المتوفى سنة ٤٥١ هـ كان عالماً فاضلاً راسخاً في علم الحديث ، روى عنه جماعة من الأفاضل .

٢ — أبو الفضل أحمد بن علي بن عبد اللطيف ... بن زريق قرأ على أبي العلاء وروى عنه سبعة أجزاء خرجها من حديث أخيه أبي الهيثم .

٣ — جعفر بن أحمد بن صالح .. يجتمع مع أبي العـــلاء في جده سليمان الأعلى . وكان من أعيان كتابه وقرأ عليه كثيراً من كتب الأدب وروى عنه .

٤ - جعفر بن علي بن المهذب المعري ، روى عن سليمان بن محمد جد أبي العلاء ، وهو الذي رثاه أبو العلاء بقوله من قصيدة في السقط : (١)

فَلْيَذْرِفِ الجفْنُ على جَعْفَرٍ   إِذ كانَ لَمْ يُفْتَحْ على نِدِّهِ

٥ - أبو حمزة الحسن بن عبد الله بن محمد .. التنوخي المعري الذي رثاه بالدالية المشهورة ، وفيها يقول : (٢)

قَصَدَ الدَّهْرُ مِنْ أبي حَمْزَةَ الأوّ   ابِ مَوْلىً حِجىً وخِدْنَ اقْتِصادِ

٦ - أبو سعد عبد الغالب بن عبد الله بن الحسن بن أبي حصين المعري .

٧ - عبد القاهر أخو عبد الغالب .

٨ - أبو الحسن علي بن محمد أخي أبي العلاء ، سمع على عمه جميع أماليه وولي قضاء المعرة وحماة .

٩ - أبو الحسين علي بن محمد بن عبد اللطيف .. ابن زريق المعري ، قرأ على أبي العلاء .

١٠ - أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي هاشم كتب كُتُبَ أبي العلاء بأمرها .

١١ - الفضل بن أبي الحسين بن محمد المعري ، أحد من روى الحديث عن أبي العلاء .

١٢ - أبو الفتح محمد بن الحسن ... بن روح المعري .

١٣ - أبو الفتح محمد بن علي .. بن أبي هاشم ، وكان يكتب لأبي العلاء ووضع له كتاب (المختصر الفتحي) و (عون الجمل) .

١٤ - أبو المحاسن المفضل بن محمد بن مِسعر المعري ، قرأ على القدوري والصيمري ، وصنف كتابا في الرد على الشافعي وتاريخاً للنحاة واللغويين وتوفي سنة ٤٤٤ هـ .

---

(١) شروح سقط الزند ، ق ٣ ص ١٠٠٧

(٢) شروح سقط الزند ، ق ٣ ص ٩٨٥

١٥ — أبو الحسن ميسر بن هبة الله بن محمد بن مسعر المعري ، صنف كتاباً في معاني الشعر الذي ابتكره قائله وأبدع فيه ، فرغ من تصنيفه سنة ٤٥٠ هـ .

١٦ — أبو غالب همام بن الفضل بن جعفر بن علي بن المهذب المعري ، كان معاصراً لأبي العلاء وله تاريخ نقل عنه ابن العديم وابن الوردي وياقوت وغيرهم .

١٧ — أبو الحسن يحيى بن علي بن محمد بن عبد اللطيف .. بن زريق المعري كان عالماً بالأخبار ، وقد جمع تاريخاً على ترتيب السنين . وأدرك أبا العلاء .

١٨ — أبو زكريا يحيى بن مسعر التنوخي المعري ، روى عنه أبو العلاء وغيره .

١٩ — أبو الحسين بن علي بن الفضل بن جعفر بن المهذب المعري ، كان من القراء المجودين والشعراء المجيدين . قرأ القرآن للسبعة ولغيرهم وكان مفسراً خطيباً وتوفي نحو سنة ٤٥٥ هـ .

٢٠ — أبو طالب المعري شاعر مجيد أورد له صاحب (دمية القصر) أبياتاً جيدة .

٢١ — أبو الحسن سليمان بن محمد جد أبي العلاء المتوفى سنة ٣٣٧هـ روى عنه أبو العلاء وغيره .

الشعراء الذين كانوا في عهده في المعرة

١ — إبراهيم أبو الفضل المعري ، كان جيد الشعر وله مدائح في شبل الدولة نصر بن صالح المقتول سنة ٤٢٩ هـ .

٢ — إبراهيم بن عبد الرحمن المعري ، وذكره الباخرزي وقال : إنه من مُدّاح الصاحب .

٣ — أبو اليقظان أحمد بن علي التنوخي المعري كان شاعراً محسناً ، سمع من أبي العلاء ثلاث قصائد .

٤ — أبو الحسن أحمد بن محمد بن الدويدة المعري ، شاعر مفلق خفيف الروح كثير الدعابة .

٥ — الأمير أبو الفتح الحسن بن عبد الله ... بن أبي حَصِينة ، شاعر مفلق نال الإمارة بشعره وقد رثى أبا العلاء كما سيأتي .

٦ — أبو يعلى حمزة بن عبد الرزاق بن أبي الحصين المعري وهو الذي رثى مقلد بن منقذ والد ملوك شيزر المتوفى سنة ٤٣٥ هـ .

٧ — أبو الغنائم سالم بن الفرج بن عشاير الحصيني التنوخي المعري ، شاعر مجيد وكان متصلا بأبي الفتح بن أبي حَصِينة .

٨ — أبو المظفر سعد بن أحمد بن حماد المعري ، وهو الذي روى (ملقى السبيل) عن أبيه عن أبي العلاء .

٩ — القاضي أبو يعلى عبد الباقي بن أبي حصين ، أحد حسنات وقته كان عالماً شاعراً .

١٠ — القاضي أبو غانم عبد الرزاق بن عبد الله بن الحسن .. ابن أبي الحصين التنوخي المعري ولد سنة ٤١٨ هـ وتوفي سنة ٤٩١ هـ وكان شاعراً مجيداً .

١١ — أبو سالم عبد الله بن أحمد بن الدويدة المعري .

١٢ — علي بن أحمد بن الدويدة أخو عبد الله .

١٣ — أبو محمد عبد الله بن محمد أخي أبي العلاء الذي تولى خدمة عمه .

١٤ — أبو الهيثم عبد الواحد أخو أبي العلاء المتوفى سنة ٤٤٢ هـ .

١٥ — أبو الرضا عبد الوهاب بن نوت ، وسيأتي فيمن رثى أبا العلاء .

١٦ — أبو القاسم علي بن الحسن بن جلبات ، وبينه وبين أبي العلاء مراسلات شعرية .

١٧ — أبو الحسن علي بن همام تلميذ أبي العلاء وأحد من رثاه ، وسيأتي .

١٨ — القاضي أبو القاسم المحسن بن عبد الله .. بن عمرو التنوخي الحنفي المتوفى سنة ٤١٩ هـ ، كان من أوعية العلم وله مصنفات كثيرة ووصايا وأشعار .

١٩ — أبو المجد محمد أخو أبي العلاء المتوفى سنة ٤٣٠ هـ .

٢٠ — أبو المجد محمد بن عبد الله بن محمد أخي أبي العلاء ، روى عن عم أبيه مصنفاتِه وأشعاره وكان شاعراً ناثراً فقيهاً راوياً للحديث مفتياً خطيباً .

٢١ — أبو صالح محمد بن المهذب المعري ابن عمة أبي العلاء ، وسيأتي شيء من شعره .

٢٢ — أبو الخير المفضل بن سعيد بن عمرو الملقب بالعزيزي لاختصاصه بعزيز الدولة أبي شجاع فاتك .

٢٣ — أبو نصر مهنا بن علي بن المهنا المعروف بالناظر الشاعر المجيد المتوفى سنة ٤٥٤ هـ .

٢٤ — القاضي الرئيس أبو مسلم وادع بن عبد الله بن محمد أخي أبي العلاء كان رجل زمانه همة وعلماً وأدباً وكرماً وحلماً وله شعر ونثر ولد سنة ٤٣١ هـ .

٢٥ — أبو المقدم وجيه بن عبد الله بن نصر أو مسعر التنوخي كان شاعراً فاضلاً فصيحاً ولد سنة ٤٣٠ هـ .

٢٦ — أبو الحسين المعري المعروف بالقنوع ، له شعر جيد وكان معاصراً لأبي العلاء .

٢٧ — البليغ المعري المذكور في وقائع الفرنج في نصر بن صالح .

٢٨ — أبو العباس أحمد بن خلف الممتع .

٢٩ — إبراهيم بن الحسن البليغ .

وقد ذكرنا طائفة في (تاريخ المعرة) من العلماء والقراء والشعراء غير هؤلاء .

وأكثر هؤلاء الذين ذكرناهم هنا جمع بين العلم والشعر ، وهناك طائفة كبيرة لم نعثر على تراجمهم منفصلة وإنما ذُكروا في الشيوخ الذين روى غيرهم عنهم ، وفي أقوال من وقفنا علي تراجمهم مايدل على أن لهم حظاً وافراً من العلوم العقلية . وسيأتي أن ثمانين شاعراً رثوه على قبره ، وأكبر ظني أنهم كلهم من المعرة ومن تنوخ أيضاً ، وهذا وإن لم يوضح لنا الحياة العقلية في المعرة في ذلك العهد توضيحاً حقيقياً ، يدلنا على أن أهل المعرة فيه قد ضربوا بسهم وافر في كل علم وأخذوا حظاً جزيلاً من كل فن ، ونبغ فيهم عباقرة وأفذاذ في العلم والشعر ، وألفوا كتبا عظيمة في فنون كثيرة ، وابتكر بعضهم تأليفاً في موضوع لم يسبق اليه كالكتاب الذي ألفه مُبَشّر بن هبة الله في معاني الشعر الذي ابتكره قائله ، فإني لاأعلم أحداً تقدمه في ذلك .

ويدلنا أيضاً على أن العلماء فيها كانوا أحراراً في تفكيرهم وفي إبداء آرائهم في كل علم ، وعلى مدى تفكيرهم وجرأتهم ، حتى رأينا أبا المحاسن المفضل بن محمد بن مسعر يصنف كتاباً في الرد على الإمام الشافعي .

وقد رأينا المؤرخين يقولون في ترجمة بعضهم : كان من أوعية العلم ، وفي ترجمة آخر : صنف كتاباً في كذا . . وفي ترجمة آخر : له مصنفات

كثيرة ، وفي ترجمة آخر : كان رجل زمانه علما وأدبا وشعرا ، وفي هذا : كان شاعراً مجيداً ، وفي ذلك : كان مفسراً أو خطيباً أو مؤرخاً أو كان أحد حسنات وقته ، أو نحو ذلك من الصفات ولكننا لم نعثر على أثر لواحد منهم ولا على حسنة من حسناته ، ولا عرفنا مقدار ما ألفه كل واحد منهم ولا نوع ما ألفه ولا شيئاً من شعر شاعر إلا قليلا . وأظن أننا لو أتيح لنا الاطلاع على كل من نبغ في العلم والأدب في ذلك العهد وعلى آثار كل واحد منهم لرأينا علما جما وأدبا واسعا وشعراً رائعا وبيانا معجزا وابتكارا بارعا .

ولسهل علينا أن نصدق أبا العلاء على كثرة علمه وأدبه ، بقوله[١] : « وقد فارقت العشرين من العمر ما حدثت نفسي باجتداء علم من عراقي ولا شام » . لأنه استغنى بما في بلده من أنواع العلوم وبمن فيها من العلماء والعباقرة عن غيرهم . على أننا سنذكر بعضا من شيوخه الذين عرفناهم وما عرفناه من مزاياهم وخصائصهم .

الطريقة التي درس العلوم فيها :

لم يوضح لنا التاريخ الطريقة التي سلكها أبو العلاء في تعلمه . والعادة المتبعة التي أدركناها في معرة النعمان منذ أول هذا العصر في تعليم الأطفال المبصرين والمكفوفين أن الطفل إذا بلغ السابعة من عمره وضعه أبوه في مكتب عند شيخ . وأول ما يعلمه حروف الهجاء ، ثم يعلمه القرآن ، ثم يعلمه أحكام القراءة والتجويد ، فإذا أتم ذلك نقله إلى شيخ آخر في مسجد أو مدرسة ، فيعلمه شيئا من النحو والفقه ، ثم إذا شاء نقله إلى شيخ آخر فدرس عليه ما أراد من علوم الدين واللسان وغيرهما .

---

(١) من رسالته إلى خاله أبي القاسم علي بن سبيكة — رسائل أبي العلاء المعري — شرح شاهين عطية ص ٧٨ .

وأظن أن هذه الطريقة موروثة عن المتقدمين من أهل المعرة ، لأن أبي وقبله جدي تعلما على هذه الطريقة ، وأن أبا العلاء درج عليها في فاتحة تعلمه كما درجت عليها أنا وأمثالي من أهلها . ومن الجائز القريب أن يكون أبو العلاء تعلم الهجاء بالحروف النافرة التي يعلّم بها المكفوفون في هذا العصر ، لأنها كانت معروفة في ذلك العهد على ما يشعر به كلام أبي العلاء حيث يقول (١) :

كَأَنَّ مُنَجِّمَ الأَقْوَامِ أَعْمَى ... لَدَيْهِ الصُّحْفُ يَقْرَؤُهَا بِلَمْسِ

ويؤيد هذا تصويره أشكال بعض الحروف كقوله (٢) :

وَلاحَ هِلالٌ مِثْلُ نُونٍ أَجادَها ... بِجارِي النُّضارِ الكاتِبُ ابنُ هِلالِ

وقوله (٣) :

أنا مَنْ أَقامَ الحَرْفَ وهْيَ كَأَنَّها ... نُونٌ بِدارِكَ والمَعالِمُ أَسْطُرُ

وقوله (٤) :

وَحَرْفٍ كَنُونٍ تحتَ رَاءٍ وَلَمْ يَكُنْ ... بِدالٍ يَؤُمُّ الرَّسْمَ غَيَّرَهُ النَّقْطُ

وأما العلوم التي أتقنها وأشار إلى بعض ما اصطلح عليه أهل كل فن فكثيرة ؛ وسنذكر جملةً منها مع ما في كلامه من الاشارات إلى ما اصطلح عليه أهلها ، ونشير إلى جماعة ممن أخذ عنهم وأخذوا عنه ممن عرفناهم .

---

(١) اللزوميات هـ س ٣٠١

(٢) شروح سقط الزند ق ٣ س ١١٩٧ .

(٣) شروح سقط الزند ق ٣ س ١١١٧

(٤) شروح سقط الزند ق ٤ س ١٦٥١

شيوخه

قال في (ذكرى أبي العلاء)[١] بعد مقدمة استنتج منها أمرين ، أحدهما : أن العلم هو الذي ملك حياة أبي العلاء . والثاني : أنه اعتمد على نفسه في تحصيل علمه أكثر مما اعتمد على الأساتذة والشيوخ : .. « ويؤيد هـذا أنا لا نعرف له من الأساتذة إلا أباه ومحمد بن سعد في اللغة ، ويحيى بن مصير في الحديث » .. إلى آخر كلامه .. والصواب يحيى بن مسعر كما سنبين ذلك ؛ ومن المقرر عند العلماء أن عدم معرفة الشيء لا تستلزم عدمه . وقد عرفنا بعض شيوخه في بعض العلوم .

الحديث

ذكر ابن العديم[٢] أنه أخذ الحديث عن أبيه أبي محمد ، وعن جده سليمان بن محمد ، وعن أخيه أبي المجد محمد بن عبد الله ، وعن جدته أم سلمة بنت الحسن بن اسحاق بن بلبل . وعن أبي زكريا يحيى بن مسعر بن محمد ابن يحيى بن الفرج المعري التنوخي ، وعن أبي الفتح محمد بن الحسن بن روح المعري ، وعن أبي الفرج عبد الصمد بن احمد بن عبد الرحمن الضرير الحمصي ، وعن أبي بكر محمد بن عبد الرحمن الوحيي ، وعن أبي عبد الله محمد بن يوسف بن كركير الدقي ، وعن القاضي أبي عمرو عثمان بن عبد الله الطرسوسي قاضي معرة النعمان . وروى عن أخيه أبي الهيثم شيئاً من شعره ، وخرج من حديثه سبعة أجزاء رويت عنه .

اللغة والنحو

ذكر ابن العديم[٣] انه قرأ اللغة والنحو في المعرة على أبيه وعلى أبي

---

(١) ذكرى أبي العلاء — لطه حسين — ط ٢ ص ١٤١ — ١٤٨

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥١٦ عن الانصاف والتحري ، لابن العديم .

(٣) المصدر السابق ص ٥١٥ عن الانصاف والتحري ، لابن العديم

بكر محمد بن مسعود[١] بن محمد بن يحيى بن الفرج النحوي ؛ وأنه دخل حلب صبياً وقرأ بها على محمد بن عبد الله بن سعد راوية[٢] أبي الطيب ؛ وسيأتي تحقيق ذلك في الكلام على ثقافته في النحو . ونقل القفطي عن الخطيب التبريزي أنه قال[٣] : كنتُ قرأتُ كتاب (غريب الحديث) لأبي عبيد على أبي العلاء سنة ٤٤٥ هـ ، قال : قرأ علينا سنة ٣٨٥ هـ كتاب (غريب الحديث) القاضي أبو عمرو عثمان بن عبدالله الكرجي . وذكر أنه سمعه من أبي عمير عدي بن عبد الباقي ، وسمعه أبو عمير من علي بن عبد العزيز صاحب أبي عبيد . وذكر القفطي أيضاً أنه أخذ اللغة عن قوم من بلده كبني كوثر أو من يجري مجراهم من أصحاب ابن خالويه وطبقته ..

هؤلاء عرفناهم من شيوخه في الحديث واللغة والنحو ، ولم نقف على اسم أحد من شيوخه في بقية العلوم ، وزعم القفطي وغيره أنه ذهب إلى طرابلس واللاذقية وأخذ العلم عن راهب . وزعم ابن العديم[٤] أنه سافر إلى بغداد للاستكثار من العلم فأخذ بها عن علي بن عيسى الربعي وأبي أحمد عبد السلام البصري المعروف بالواجكا ، وأبي علي عبد الكريم بن الحسن ابن حكيم السكري النحوي اللغوي . وزعم السيوطي[٥] أنه سمع من عبد السلام البصري في بغداد . وزعم صاحب (الضرام) أنه تلمذ على عبد الوهاب بن نصر المالكي ، وقال أبو الفداء وابن الشحنة في (روض

---

(١) كذا في الأصل وأظن أنه مسعر بدلاً من مسعود ولعله أخو يحيى المتقدم (ج)

(٢) ورد في الأصل : رواية ، وصحيحها : راوية ، كما في التعريف .

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٢ عن إنباه الرواة على أنباه النحاة — للقفطي مع اختلاف يسير في النقل .

(٤) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥١٥ عن الانصاف والتحري — لابن العديم .

(٥) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٣٢ عن بغية الوعاة — للسيوطي .

المناظر) [١] : إنه لم يتلمذ لأحد أصلا . وجميع هذه الأقوال قائمة على الظن والوهم وسنبيّن بطلانها في الكلام على رحلاته وفيمن اجتمع به .

متى أتم تعلمه

لم يحدثنا التاريخ متى أتم ابو العلاء دراسته وتحصيله ، وقد ذكر في رسالته التي أنفذها إلى خاله أبي القاسم بعد رجوعه من بغداد ما يدل على الزمن الذي استغنى فيه عن أخذ العلم عن غيره دلالة إجمالية حيث يقول [٢] : وقد فارقت العشرين من العمر ما حدثت نفسي باجتداء علم من عراقي ولا شآم . وهذا يدل على أنه أتم تعلمه في العشرين أو قبلها .

أين أتم تعلمه

قد سمعنا أقوال المؤرخين أنه قرأ على أبيه وجماعة من أهل بلده ، وعلمنا من التاريخ أن المعرة في عهده كانت تعج بالعلماء والشعراء ويدل ظاهر قوله المتقدم : وقد فارقت العشرين من العمر . . على أنه لم يرحل بعد العشرين لطلب علم . وأما قبلها فسيأتي أنه لم تثبت له رحلة إلى مكان لطلب علم أو تحصيله . فهو إذن أتم تعلمه في المعرة وعلى علمائها .

وقد وقع في كلام أبي العلاء مثل قوله في رسالة الإغريض [٣] : وقد كنت عرفت سيدنا أن الأدب كعهود في غب عهود . . وإني نزلت من ذلك الغيث ببلد طسم . . . وقوله في رسالته إلى أبي نصر صدقة

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٠٩ عن روضة المناظر لابن الشحنة . وذكر صاحب كشف الظنون أن الكتاب هو روض المناظر ، كما جاء في المتن .

(٢) انظر الحاشية ص ١٨٣ .

(٣) رسالة الإغريض في الجزء الرابع من رسالة الغفران ص ٦٠٦ ـ شرح كامل الكيلاني .

الفلاحي [١] : . . وكيف يتأدى العلم إليّ وأنا رجل ضرير . . ونشأت في بلد لا عالِمَ فيه . . وأمثال ذلك من الأقوال الدالة على قلة العلم والعلماء في بلده . وهذا من باب المغالاة في تواضعه ، نظير قوله في رسالة الغفران[٢] : يظن أنني من أهل العلم وما أنا بالصاحب له ولا بالخِلم . وقوله فيها : وقد علم الله أني لا في العير ولا في النفير . . وقوله الآتي في رسالة الملائكة ، وقوله في لزوم ما لا يلزم :[٣]

مَاذَا تُرِيدُونَ لا مالٌ تَيَسَّرَ لي فَيُسْتَماحُ وَلاَ عِلْمٌ فَيُقْتَبَسُ

وغير ذلك من الأقوال التي يريد بها تحقير شأنه والتواضع ولا يريد النفي الحقيقي لأن الواقع يكذبه ، وستأتي أمثلة من ذلك في الكلام على تواضعه .

رحلاته

زعم كثير ممن كتب في أبي العلاء أنه بعد أن أتم ما أخذه عن علماء بلده رحل إلى حلب وأنطاكية واللاذقية وطرابلس من البلدان الشامية ، وإلى بغداد لأجل طلب العلم ، وهذا ما قالوه وما نراه فيه .

رحلته الى حلب

قال ابن العديم [٤] : إنه دخل حلب وهو صبي وقرأ على محمد بن عبدالله

(١) رسائل أبي العلاء المعري ، شرح شاهين عطية ص ٩٦ .
(٢) رسالة الغفران تحقيق بنت الشاطئ ط ١ ص ٣١٦ ، والخِلم : الصديق والصاحب
(٣) اللزوميات ﻫ ص ٢٩٣ .
(٤) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥١٥ عن الانصاف والتحري — لابن العديم ، وفيه : راوية ديوان المتنبي .

ابن سعد رواية ديوان المتنبي . وذكر هذه الرحلة ابن خلكان والسيوطي وغيرهما . ولم يذكر أحد منهم أنه قرأ عليه شيئاً من العلوم ، ولا عين نوع العلم ولا الكتاب الذي قرأه ، كما أنه لم يعين أحد منهم الزمن الذي رحل فيه لأن لفظ الصبي يقال للولد من حين يولد إلى أن يُفطم ، ويقال للغلام الذي طر شاربه صبي أيضا ، وقد بينا في غير هـذا الموضع أنه اختلف هو ومحمد بن عبد الله بن سعد في رواية بيت للمتنبي ، وكان القول ما قاله ابو العلاء (١) . وقد ذكر حلب في مواطن من شعره ، منها قوله في السقط (٢) :

لَيْتَ التَّحَمُّلَ عَنْ ذَرَاكَ حُلُولُ ... والسَّيْرَ عَنْ حلبٍ إليكَ رَحِيلُ

وقوله من قصيدة يهنىء بها واليا بعرس (٣) :

يا شَاكِيَ النُّوبِ انهضْ طالِباً حلَباً ... نُهوضَ مُضْنًى لحسْمِ الدّاءِ مُلْتَمِسَ

وقوله من قصيدة يهنىء بها ملكا بزفاف (٤) :

حَلَبٌ لِلْوَلِيِّ جَنَّةُ عَدْنٍ ... وَهْيَ لِلْغَادِرِينَ نارُ سَعِيرِ

وقوله من قصيدة يرثي بها أبا إبراهيم العلوي (٥) :

دَعَا حَلَباً أُخْتَ الغَرِيَّيْنِ مَصْرَعٌ ... بِسِيفِ قُوَيْقٍ لِلمَكَارِمِ والحَزْمْ

---

(١) ساق القصة المصدر السابق .

(٢) شروح سقط الزند ق ٢ ، ص ٨٦٧ . وفي رواية البطليوسي (والسير من حلب إليك قفول) .

(٣) شروح سقط الزند ق ٢ ص ٦٩٠ .

(٤) شروح سقط الزند ، ق ١ ص ٢٣٥ .

(٥) شروح سقط الزند ق ١ ص ٩٥٧ ، والغريّان : قبرا مالك وعقيل نديمي جذيمة الأبرش . والسيف : شاطىء البحر .

وقوله في (لزوم ما لا يلزم) في الخمر (١) :

حَلَبِيَّةٌ في النِّسْبَتَيْنِ لأَنَّها حَلَبُ الكُرُومِ وأَنَّ مَوْطِنَها حَلَبْ

وقوله فيه في الصوفية (٢) :

جُنْدٌ لإِبْلِيسَ في بِدْلِيسَ آوِنَةً وتارَةً يَحْلِبُونَ العَيْشَ في حَلَبَا

وشعره هذا لا يدل على أنه شعر صبي ، كما لا يدل على أنه دخل حلب . . وذكر حلب أيضا في مواطن من نثره منها قوله في رسالته إلى خاله : ما نكبت حلب في الإبداء والانكفاء (٣) . وقوله في رسالة إلى أبي عمرو : لم يطل به عن زيارة حلب انقطاع (٤) . وذكر في رسالة الغفران أسماء طائفة من رجالها . ولكن ذلك كله لا يوجب أن يكون عرفهم ، ولا أن تكون معرفته بهم في حلب ، ولا أن يكون أخذ علماً عن أحد من علمائها . وقد كانت في حلب مكاتب كثيرة في عهد أبي العلاء ، منها مكتبة بجامع حلب وقفها سيف الدولة وغيره وقد أحرقتها الشيعة سنة ٤٦٠ هـ ، على ما يفهم من كلام الذهبي . وأشار ابن العديم (٥) إلى أن خزانة الكتب في حلب نهبت في زمن أبي العلاء ، ولم يبق فيها إلا القليل ثم جدد الكتب فيها هبة الله بن بديع وزير الملك رضوان ثم وقف غيره كتبا أخرى . فلا يبعد أن يكون أبو العلاء دخلها للاطلاع على مكاتبها . والذي يتحصل معنا الآن أن أبا العلاء لم تثبت رحلته إلى حلب لطلب العلم بطريق صحيح واضح ، وإن نقل أنه رحل إليها فرحلته لغير ذلك .

---

(١) اللزوميات هـ ص ٥٥ .
(٢) اللزوميات هـ ص ٣٩ .
(٣) رسائل المعري ص ٦٩ شرح شاهين عطية .
(٤) رسائل المعري ص ٨٨ شرح شاهين عطيه .
(٥) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٥٦ عن الإنصاف والتحري — لابن العديم .

رحلة الى انطاكية

روى البديعي في (الصبح المنبي) عن الأمير أسامة بن منقذ قصة خلاصتها (١) : أنه كانت بأنطاكية خزانة كتب ، وكان الخازن بها رجلا علويا ، فقال للأمير يوما : قد خبأتُ لك خبيئة غريبة لم يسمع بمثلها ، قلت : وما هي ؟ قال : صبي دون البلوغ ضرير يتردد إليّ وقد حفظته في أيام قلائل عدة كتب ، وذلك أني أقرأ عليه الكراسة والكراستين مرة واحدة فلا يستعيد إلا ما يشك فيه ، ثم يتلو عليّ ما سمعه كأنه كان محفوظا له . قلت : لعله قد يكون محفوظا له . قال : سبحان الله أيكون كل كتاب في الدنيا محفوظا له ؟ ولئن كان كذلك فهو أعظم . ثم حضر ذلك الصبي وهو دميم الخِلْقة مجدّر الوجه على عينيه بياض من أثر الجدري كأنه ينظر بإحدى عينيه قليلا وهو يتوقد ذكاء ، يقوده رجل طويل أحسبه يقرب من نسبه . فقال له الخازن : يا ولدي هذا السيد رجل كبير القدر ، وقد وصفتك عنده وهو يحب أن تحفظ اليوم ما يختاره لك . فقال له : سمعا وطاعة فليختر ما يريد ؛ قال أسامة : فاخترت شيئا وقرأته عليه وهو يموج ويستزيد فإذا مر بشيء يحتاج إلى تقريره في خاطره قال : أعد هذا ؛ فأردده مرة أخرى حتى انتهيت إلى ما يزيد على كراسة ، فقلت له : أيقنع هذا ، قال : أجل ، ثم تلا علي ما أمليته عليه حرفا حرفا ، وأنا أعارضه بالكتاب حتى انتهيت حيث وقفت عليه فكاد عقلي يذهب لما رأيت منه ، وعلمت أن ليس في العالم من يقدر على ذلك . وسألت عنه فقيل لي : هذا أبو العلاء المعري التنوخي من بيت العلم والقضاء والثروة والغنى . وذكرها البديعي أيضاً في (أوج

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٢٣ عن الصبح المنبي — للبديعي .

التحري) عن ابن منقذ ولكنه لم يذكر اسمه . وذكرها ابن العديم [١] عن كتاب وضعه الشريف أبو علي المظفر بن الفضل بن يحيى العلوي الإسحاقي نزيل بغداد ، ورواها والده عن ابن منقذ ولم يذكر اسمه ، وعبارته مقاربة لما نقلناه عن البديعي وبعد أن اوردها ابن العديم قال : وهذه الحكاية فيها من الوهم ما لا يخفى ، وذلك أنه كان بأنطاكية خزانة كتب ... إلى آخر ما ذكرناه . وهذا شيء لا يصح فإن أنطاكية أخذها الروم من أيدي المسلمين في ذي الحجة سنة ٣٥٨ هـ وولد أبو العلاء بعد ذلك بأربع سنين وثلاثة أشهر في شهر ربيع الأول سنة ٣٦٣ هـ وبقيت في أيدي الروم إلى أن فتحها سليمان بن قطلمش في سنة ٤٧٧ هـ ، وكان أبو العلاء قد مات قبل ذلك في سنة ٤٤٩ هـ وأخلاها الروم من المسلمين حين استولوا عليها فلا يتصور أن يكون بها خزانة كتب وخازن وتقصد للاشتغال بالعلم . ثم ذكر احتمالين ، أحدهما : أن يكون ذلك في كفر طاب لأنها كانت مشحونة بالعلماء قبل أن يجيمها الفرنج في سنة ٤٩٢ هـ وهي قريبة من المعرة ، فيحتمل أن يكون تصحف كفر طاب بأنطاكية فإن كان كذلك فابن منقذ الحاكي لهذه الحكاية أبو المتوج مقلد بن نصر بن منقذ . والاحتمال الثاني : أن يكون ذلك بحلب ، فان أبا العلاء دخلها وهو صبي واجتمع بمحمد بن عبد الله بن سعد ورد عليه خطأ في شعر المتنبي ، فيحتمل أن تكون هذه الحكاية التي حكاها ابن منقذ في حلب ، وأبو المتوج كان في حلب وله فيها دار ومنزل ، وكان بها خزانة كتب في الشرقية التي في جامع حلب ، ثم نهبت في زمن أبي العلاء وجددها أبو النجم هبة الله ابن بديع وزير الملك رضوان ، فيحتمل أن أبا العلاء لما دخل حلب وهو صبي اتفق له في خزانة الكتب ما ذكره ابن منقذ . هذه خلاصة ما قاله ابن العديم ، ومحصلها أن الرحلة إلى أنطاكية لم تثبت ، لأن البلد

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٥٤ عن الانصاف والتحري ـ لأبن العديم .

كانت في أيدي الروم ، ويستبعد أن تكون بها خزانة كتب يقصدها المسلمون البصراء البالغون ، فما بالك بضرير دون البلوغ ؟ .

وقد قال صاحب (الذكرى) ص ١٤٤ : ولا شك أن هذه الرواية إما أن تكون منتحلة وإما أن يكون اسم أسامة وقع خطأ موقع اسم أحد آبائه من أبناء منقذ ، لأن أسامة ولد سنة ٤٨٨ هـ ، ولكنه قال قبل ذلك : قالوا : وكانت بها مكتبة عربية تشتمل من نفائس الكتب على عدد غير قليل ، فحفظ أبو العلاء منها ماشاء الله أن يحفظ . وقال بعد ذلك : لم ير أبو العلاء بأنطاكية تلك الحضارة الراقية ... ولكنهـا وصفت له .. وعرف آثارها بلا ريب ولعل تلك البنايات .. قد أظلت أبا العلاء حيناً ، ولعل قائده قد ذكر له محاسنها .. ولقد كان جمهور أهل أنطاكية من الروم تمثلهم لأبي العلاء طمطمتهم الإغريقية .. وكانوا .. ظاهرين على أهل العواصم من المسلمين .. فمن الواضح أن بؤس المسلمين قد كان ظاهراً يستطيع هذا الصبي .. أن يتردد إلى المكاتب ويدرس فيها العلم [ملاحظته والتفكيرَ فيه] . فكل هذه المؤثرات قد عملت من غير شك في تكوين المزاج الخلقي والعقلي لأبي العلاء قليلاً أو كثيراً .. ، إلى آخر كلامه .

وظاهر قوله أنه استبعد أن يكون أسامة بن منقذ صاحبَ الحكاية ، لولادته بعد موت أبي العلاء . وأما الرحلة إلى أنطاكية فقد قبلها بعدما شك فيها واستنتج منها ما استنتج .

والأستاذ الميمني أورد كلام البديعي في ص ٤٥ وقال في ذيل الصفحة[١]: وهذه الحكاية توجد باختلاف يسير منسوبة إلى التبريزي في (غرر الخصائص) ص ١٨٧ . وليست هذه القصة في الموضع المذكور في غرر الخصائص ، وإنما فيه قصة الأعجمي الذي سأل عن التبريزي في حلقة أبي العلاء ، وحفظ أبو العلاء كلامه بالفارسية وستأتي .

---

(١) انظر أبو العلاء وما إليه — للميمني .

ثم قال في ص ٤٦ : أقول : جمع البديعي بين الضب والنون ، وحاول أن يُجري في البراري الفلك المشحون ، فإن صاحبنا توفي سنة ٤٤٩ ﻫ وأسامة ولد سنة ٤٨٨ ﻫ ، فلعل الحكاية عن بعض متقدمي بني منقذ قبل أن يملكوا شيزر بنحو نصف قرن أو أكثر ، أو الأصل عمن حدثه عن أبي العلاء فيوجد ثمَّ واسطة" بينهما ، ثم رجع الأول وأشار إلى قول ابن العديم : أن صاحب أبي العلاء هو أبو المتوج مقلد بن نصر بن منقذ ، وان الخزانة في كفر طاب أو حلب . ثم قال ص ٦٩ : وأمـــا رحلته إلى أنطاكية وتملكها الروم سنة ٣٥٣ — سنة ٤٧٧ [١] فقد مر ذكرها في حكاية أسامة ، ولم أر أحداً من أصحاب التراجم ذكرها ولكن شعره يشهد لها ، قال[٢] :

لا يَنْزِلَنَّ بِأَنْطَاكِيَّـةٍ وَرِعٌ   كَمْ خَلَّلَ الدِّينَ عَقْدٌ لِلزَّنانِيرِ

الأبيات الثلاثة . . وظاهر كلامه أنه سلم بهذه الرحلة . هذا ماقاله بعض المتقدمين والمتأخرين في رحلته إلى أنطاكية .

والذي يظهر لي أن رحلته إلى أنطاكية غير صحيحة لأسباب :

١ — منها : أنها لو كانت حقيقية لتضافرت الروايات على نقلها ، كما تضافرت على ذكر رحلته الى بغداد ، في حين أن كثيراً ممن كتب في أبي العلاء لم يتعرض لها .

٢ — وأنها لو كانت أمراً واقعاً حقيقة لذكرها أبو العلاء في مواطن من نثره ونظمه ، كما ذكر بغداد ولكنه لم يذكرها فيما وصل إلينـــا من

(١) هكذا في معجم البلدان وهو تحريف والصواب أن الروم تملكوها سنة ٣٥٨ كما ذكر ذلك ابن العديم وأبو الفداء . (ج)

(٢) اللزوميات ﻫ ص ١٥٢ .

كتبه إلا في أبيات اللزوم السابقة . وذكرها في رسالة الغفران ص ١٩٠ بقوله [١] : وكأني به وقد مر بأنطاكية ، فذكر قول امرىء القيس :

عَلَوْنَ بِأَنْطاكِيَّةٍ فَوقَ عَقْمَةٍ كَجِرمةِ نخلٍ أَوْ كَجَنَّةِ يَثْرِبِ [٢]

وخطر له أن النَّطكَ ، وهو اللفظ الذي يجب أن يشتقّ منه أنطاكية — لو كانت — عربية مهمل لم يحكِه مشهور من الثقات .

على أن ذكرها في كلامه لا يوجب أن يكون قد رحل إليها أو نزل بها ، لأنه ذكر كثيراً من البلدان العربية والعجمية وبحث عن أحوالها المختلفة ولم يدخلها ، مثل مصر ومكة والمدينة والقدس والشام وغانة وأسوان وقُم وبدليس والهند وغيرها .

٣ — ومنها : أن نسبة الحكاية إلى أسامة ، وقد تقدم ، أنه ولد بعد وفاة أبي العلاء .

٤ — ومنها : أن قول ابن العديم يحتمل أن تكون أنطاكية تصحفت بحلب أو كفرطاب يدل على أنها لم تكن أنطاكية يقينا .

٥ — ومنها أن الروم بعد أن ملكوا أنطاكية أخلوها من المسلمين . وإذا جوزنا بقاء فريق منهم ووجود مكتبة [٣] فمن البعيد أن يتسنى لصبي

---

(١) وفي الرسالة تحقيق بنت الشاطىء ص ٥٠٥ الطبعة الأولى .

(٢) ديوانه ص ٥٨ وفي اللسان (جرم) : وجرمة النخل : ما جرم منه واصطرم .

(٣) ذكر القفطي في (أخبار الحكماء) في ترجمة ابن بطلان ، أنه شاهد في كتاب الربيع لمحمد بن هلال بن المحسن نسخة سفره إلى الرئيس هلال وقد ذكر فيها أن في أنطاكية شيخا يعرف بأبي نصر بن العطار قاضي القضاة فيها له يد في العلوم ... وكانت هذه السفرة سنة ٤٤٠ هـ .

ضرير أن ينتابها ، والروم كانوا يضطهدون المسلمين في البلاد التي أخذوها منهم .

٦ — ومنها أنه لم يعيّن أحد زمن هذه الرحلة ، ولا أي كتاب وقع عليه اختيار ابن منقذ . وأما قولهم : صبي دون البلوغ ، فيحتمل منذ زمن الولادة إلى قبيل البلوغ ، وكان ينبغي أن يكون أبوه معه في هذه الرحلة ، ولو ذكرت أمارة في التاريخ أو في كلام أبي العلاء تدل على هذه الرحلة لسرنا على ضوئها في الحكم على صحتها ؛ ولكننا لم نجد غير مانقله البديعي وابن العديم وهو محفوف بالأدلة الواضحة على بطلانه ، وبناء الحكم على الظن البعيد غير صحيح ، وبناؤه على الشيء الباطل باطل . ويتحصل معنا أن رحلته إلى أنطاكية لم تثبت من وجه صحيح .

رحلته الى اللاذقية

ذكر القفطي [١] والذهبي [٢] والصفدي [٣] والسيوطي [٤] والعثماني وغيرهم ماخلاصته : أن أبا العلاء بعد أن أخذ عن علماء بلده رحل إلى طرابلس ، وكانت بها خزائن كتب وقد وقفها ذوو اليسار ، واجتاز في طريقه باللاذقية ، ونزل في دير فيها [سماه القفطي دير الفاروس ، وهو على مقربة منها] . وكان فيه راهب له علم بأقوال الفلاسفة ، فسمع منه أبو العلاء كلامه ، أو أخذ عنه ماشككه في دينه وغيره من الديانات ، فحصل له بعض انحلال . وقال ياقوت [٥] : وقال المعري الملحد : إذ كانت اللاذقية

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٠ عن إنباه الرواة على أنباه النحاة — للقفطي .
(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٩٠ عن تاريخ الإسلام — للذهبي .
(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٦٧ عن الوافي بالوفيات — للصفدي .
(٤) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٣٣ عن بغية الوعاة — للسيوطي .
(٥) معجم البلدان — لياقوت الحموي (اللاذقية) .

بيد الروم ، بها قاض وخطيب ، وجامع لعباد المسلمين ، إذا أذّنوا ضرب الروم النواقيس كياداً لهم فقال :

فِي اللاذقيَّةِ فِتْنَةٌ   مَا بَيْنَ أحْمَدَ والمسيحْ

هٰذا يُعالِجُ دُلْبَةً   والشَّيْخُ مِنْ حَنَقٍ يَصيحْ

الدلبة : الناقوس ، والشيخ الذي يصيح : أراد به المؤذن . ا هـ . وفي كلام صاحب (الذكرى[1]) مايدل على قبول هذه الرحلة ، وأنه لايشك في أن الصلة قد اشتدت بين أبي العلاء وبين النصارى قبل رحلته إلى بغداد ، بحيث استطاع أن يدرس دينهم ودين اليهود ويناقشهم فيها ، وأنه لم يدرسها في المعرة لأن حياتها العلمية لم تكن تسمح بذلك ، فلا شك في أنه قد درس هاتين الديانتين في أسفاره الأولى ، إما في أنطاكية أو في اللاذقية ، ورجح الثاني لأمرين ، أحدهما : رواية المؤرخين المذكورين . والثاني : البيتان المتقدمان اللذان رواهما ياقوت .

وروى الأستاذ الميمني قول القفطي والذهبي وغيرهما ، ثم قال : [2] ولا نستبعد أصلا أن يستغوي راهب ناشئا هم أترابه في اللهو واللعب . وذكر كلاهما كيد الروم وضربهم النواقيس إذا أذن المسلمون . وذكر أن بعض المستشرقين شك في هذا الخبر ، وزعم أن العرب تضيف إلى الرهبان كثيراً من الآراء التي يبعد مابينها وبين الإسلام . وأن المعري احتذى في هذه الشكوك على مثال المتنبي فإنه كان لايبجل الأنبياء . وكلام الجميع يشعر بأن هذه الرحلة قبل رحلته إلى بغداد . وإذا أنعم

(١) ذكرى أبي العلاء - لطه حسين - ط ٢ ص ١٤٦ .

(٢) أبو العلاء وما إليه - الميمني - ص ٦٨ باختلاف يسير في النقل .

الإنسان النظر تبين له أن هذه الرحلة على هذا الوجه، إن لم تكن باطلة، فبينها وبين الباطل رحم واشجة، ويدل على ذلك أمور، منها :

١ — أن هذه الرحلة لم يعين زمنها على التحقيق، ولم تتبين مدة إقامته في اللاذقية، بل ليشعر كلام بعضهم أنه بات ليلة عند الراهب، ولم يبين ذلك الراهب، ولا ما سمعه من أقواله، ولا علم ماهو الذي أخذه عنه في هذه المدة القليلة، فشككه في دينه وغرره، وحصل له بسببه انحلال.. ولا علم أيضاً بأية لغة كان يخاطب الراهب والراهب يخاطبه، لأن الراهب كان رومياً وأبو العلاء لايعرف غير العربية. ولا علم من كان يصحبه في هذه الرحلة، ولا كيف اتصل بالراهب، بل هذه الرحلة كلها مغمورة بالإبهام والغموض. وقد علمنا أن أبا العلاء لم تحدثه نفسه باجتداء علم منذ فارق العشرين.

٢ — وأن هذه الرحلة مبنية على رحلة طرابلس، وسيأتي أنها باطلة، وما بني على الباطل باطل.

٣ — وأن اللاذقية كانت بيد الروم، وكانوا يشتدون في إيذاء المسلمين وكيدهم، فقد ذكر القفطي في (أخبار الحكماء) ص ١٩٥ عن ابن بطلان أنه قال : وخرجت من أنطاكية إلى اللاذقية، وهي مدينة يونانية، ولها ميناء وملعب وميدان للخيل مدور، وبها بيت كان للأصنام وهو اليوم كنيسة، وكان في أول الإسلام مسجداً، وفيها قاض للمسلمين وجامع يصلون فيه، وأذان في أوقات الصلوات الخمس، وعادة الروم إذا سمعوا الأذان أن يضربوا الناقوس، وقاضي المسلمين الذي كان بها من قبل الروم. ومن عجائب هذا البلد أن المحتسب يجمع القحاب والغرباء المؤثرين للفساد

من الروم في حلقة ، وينادي على كل واحدة منهن ، ويتزايد الفسقة فيهن لليلتها تلك ، ويؤخذن إلى الفنادق التي هي الخانات لسكنى الغرباء ، بعد أن تأخذ كل واحدة منهن خاتماً من المطران حجة بيدها من تعقب الوالي لها . فإنه متى وجد خاطياً مع خاطية بغير ختم المطران ألزمه جناية .. اه .

هذه حالة اللاذقية في عهد أبي العلاء . ومن البعيد أن يتسنى لمثله أن يجتمع براهب ويتلقى عنه ، والروم لا يألون جهداً في كيد المسلمين ، وهم على ما نعلم من الصلف والعجرفة في ذاك العهد .

٤ — وأن هذه الرحلة لو كانت واقعة حقيقة لاجتمعت الروايات على نقلها ، ولذكرها أبو العلاء كما ذكر بغداد ، لاسيما قضية القحاب والفسقة . وإننا لنجد كثيراً ممن ترجم أبا العلاء لم يذكر هذه الرحلة . كما أن ذكر اللاذقية في كلامه قليل ، فقد ذكرها في رسالة الغفران[١] ص ١٣٨ في قصة الكاتب الذي تفل المتنبي على جرحه فبرىء . والرجل الذي أخبره المتنبي بأن الكلب سيموت فمات .

٥ — وأن بيتي المعري اللذين ذكرهما ياقوت لا يصح الاحتجاج بهما على اجتيازه باللاذقية ، ولا على اجتماعه براهب فيها ، لأن أبا العلاء ، كما قلنا من قبل ، ذكر بلاداً كثيرة ، وانتقد كثيراً من الأعمال والعادات والمعتقدات من غير أن يجتاز بها ، على أن البيتين المذكورين لا يظهر عند التأمل أن بينهما وبين شعره في مثل هذا الغرض شيئاً من الشبه ، وأهل المعرة يروونهما على هذا الوجه .

فِي القُدْسِ قامَتْ ضجَّةٌ ... ما بَيْنَ أحمدَ والمسِيحْ

هٰـذا بِناقُوسٍ يَدُ قُّ وذَا بِمِئْذَنَةٍ يصيحْ

(١) وفي الرسالة تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٣٥٥ .

ويزيدون بيتاً ثالثاً وهو :

كُلٌّ يُعَظِّمُ دينَهُ   يا لَيْتَ شِعْري ما الصَّحيحْ

ولم أر أحداً من المتقدمين رواها على الوجه الأخير ، وإنما سمعت كثيراً من الناس يروونها كذلك ، واستبعد بعض المستشرقين هذه الرواية ، وزعم أن لفظ القدس لم يطلق على المدينة المشهورة إلا في القرن السادس فما بعده . وهذا غير صحيح لأن أبا العلاء ذكرها في مواطن من شعره في (السقط) و (لزوم مالا يلزم) .

كقوله [١] :

واخْلَعْ حِذاءَكَ إنْ حاذَيْتَها شَرَفاً   كَفِعْلِ مُوسى كَليمِ اللهِ في القُدُسِ

وقوله [٢] :

وَصاحِبُ الشَّرْعِ كانَ القُدْسُ قِبْلَتَهُ   صَلّى إلَيْها زَماناً ثُمَّ حَوَّلَها

وقوله [٣] :

القُدْسُ لَمْ يُفْرَضْ عَلَيْكَ مَزارُهُ   فاسْجُدْ لِرَبِّكَ في الحَياةِ مُقَدَّسا

٦ — وليس في هذين البيتين ما يحتاج إلى اطّلاع واسع على الديانة المسيحية أو درس عميق لها ، وإنما يتأتى لأي رجل كان أن يذكر ما فيها . على أن المعرة في عهد أبي العلاء ، كان فيها وفي ضاحيتها نصارى ورهبان ، والدليل على ذلك قصة صاحب الماخور المتقدمة في حوادث سنة ٤١٨ هـ ،

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٦٩١ وفيها « حاذيتها وَرَعاً » .
(٢) اللزوميات هـ ص ٢٠٤ .
(٣) اللزوميات هـ ص ٢٩٦ .

وفي رسائل أبي العلاء ص ٢١٥ [١] رسالة كتبها في رجل نصراني محبوس سرقت لأمه أربع دجاجات فطلب إطلاقه . وقد ذكرنا أن القفطي رأى راهباً ينسج الحصر في مسجد المعرة .

وقد ذكرنا في (تاريخ المعرة [٢]) في حوادث سنة ٤٢٠ هـ أن أهل كفرنبل كانوا نصارى ، فأكثروا القتلى من المسلمين ورحلوا سراً إلى الروم . وذكرنا في حوادث سنة ٤٩٢ هـ أن الصليبيين لما هجموا على المعرة انضم إليهم الأرمن وبعض نصارى البلاد ..

ولا يبعد أن يكون لأبي العلاء اتصال بهم ، تمكن بـه من أن يطلع على شيء من عقائدهم ، ثم أتمه من دراسته . كما لا يبعد أن يكون اطلع على ذلك من كتب الكلام والفقه وغيرهما ، أو تلقاه من أفواه الرواة ، كما كان ذلك بالنسبة إلى عقائد الشيعة والباطنية والحلولية والتناسخية والقرامطة والمجوس وغيرهم ، فإنه لم يرحل إلى مدينة من أجل ذلك ولم يجتمع برهبان ولا غيرهم من أجلها .

٧ ــ أن الشك مستفيض في كلام أبي العلاء في الديانات وغيرها منذ حداثة سنه ، وكثيراً ما يريد به غيرَ ظاهره ، وكثيراً ما يتخذه وسيلة لليقين ، كما بينا ذلك في غير هذا المكان .

ومما ذكرناه يتضح أن الذي يمكن قبوله من هذه الرحلة ــ إذا أمكن قبول شيء منها ــ أنه اجتاز باللاذقية في رحلته الى طرابلس ، إن صحت تلك الرحلة ، على مافيها من غموض وإبهام ، وقد يشعر بضعف هذه الرحلة قول البديعي : قيل : واجتاز باللاذقية ونزل ديرا ..، فتعبيره بلفظه « قيل » دليل على عدم جزمه بوقوعها .

---

(١) رسائل أبي العلاء المعري شرح شاهين عطية .
(٢) كتاب مخطوط للمؤلف لم ينشر بعد .

رحلة الى طرابلس

قد سمعنا قول القفطي والذهبي والسيوطي والصفدي وغيرهم في رحلة أبي العلاء إلى طرابلس ، وذكرها غيرهم على نحو النمط الذي ذكره هؤلاء ، وقد قال ابن العديم [١] : ذكر بعض المصنفين أن أبا العلاء رحل الى دار العلم بطرابلس للنظر في كتبها .

واشتبه عليه ذلك بدار العلم في بغداد، ولم يكن بطرابلس دار علم في أيام أبي العلاء ، وإنما جدد دار العلم بها القاضي جلال الملك أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن عمار في سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة ، وكان أبو العلاء قد مات قبل ذلك سنة ٤٤٩ هـ ، أي قبل تجديدها بثلاث وعشرين سنة . ووقف بها من تصانيف أبي العلاء (الصاهل) و(الشاحج) و(السجع السلطاني) و (الفصول والغايات) و (السادن) و (إقليد الغايات) و(رسالة الإغريض) .

وقد ذكروا أن هذه المكتبة كانت تسمى دار العلم ، وأن فيها كتباً قيل إن عددها نحو ثلاثة آلاف ألف كتاب . وفيها خمسون ألف مصحف ، وعشرون ألف تفسير ، وإنه لم يكن في جميع البلدان مثلها ، وقد ذهبت بها ريح الحروب الصليبية .

وقد قبل صاحب الذكرى هذه الرحلة وقال [٢] : فدرس بها أبو العلاء ماشاء ثم عاد إلى بلده . وكذلك الأستاذ الميمني قَبِلَها ، ثم قال في ص ٦٩ [٣] : وعندنا ما يعضد قول القفطي والذهبي ، وهو أنه نقل عن كتاب

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٥٧ عن الانصاف والتحري ـ لابن العديم .

(٢) ذكرى أبي العلاء ـ لطه حسين ـ ط ٢ ص ١٤٧ .

(٣) أبو العلاء وما إليه .

بدء الخلق من كتب التوراة في رسالة الغفران ص ١٨٠ ، قال : وذكر من نظر في كتاب المبتدأ حديث طالوت لما أمر ابنته - وهي امرأة داود [ص] - أن تدخله عليه وهو نائم ليقتله ، فجعلت له في فراش داود زق خمر ودسته عليه ، وضربه بالسيف ، وسالت الخمر ، فظن أنها الدم ، فأدركه الأسف والندم ، فأومأ بالسيف ليقتل نفسه ومعه ابنته فأمسكت يده وحدثته مافعلته فشكرها على ذلك . ثم قال : ولا يستغرب إن قلنا إنه أحال على غيره من ناظري الكتاب تنصلا من القذف بالإلحاد ، أو الارتياب ، على أن الرجل أعمى لاينظر ، أي إن صنيعه [هذا] أحد الملاحن والمعاذير ، وهي في الناس تكثر ، واستعمال كلمة عبرية وأخرى حبشية .. يشهد لمخالطة القوم بالبلدتين النصرانيتين ، وهذا على كثير من عاداتهم وأخلاقهم التي ألم بها في اللزوم . ا هـ .

وأراد بالكلمة العبرية لفظ « مُنَش » في قوله في اللزوم من أبيات يذم فيها الزواج والنسل ثم يقول : (١)

لعَمْري لقَدْ أمِنَ العائذونَ ... وعُونِشَ ذو بِغْضَةٍ فاعْتَنَشْ

فَيَاقسُ وَقِّعْ بِرِزْقِ الخَطِيـ ... ـبِ وانْظُرْ بِمَسْجِدِنا يا مُنَشْ

قالوا : مُنش كلمة عبرية ومعناها الناظر . وأراد بالكلمة الحبشية لفظ « أبي ضابط » في قوله في اللزوم من أبيات (٢) :

وتَغْبِطُ كُلاً على ما حَوَاهُ ... وَمَالكَ في العَيْشِ مِنْ غابطِ

وَقفْتَ على كُلِّ بابٍ رَأيْـ ... ـتَ حَتَّى نَهاكَ أبُوضابِطِ

---

(١) عانش : عانق ، واعتنشه اعتنقه في القتال وظلمه .(ج)،والبيتان فياللزوميات هـ ص ٣٢٩.

(٢) اللزوميات هـ ص ١٨٠ .

قالوا : أبو ضابط كنية الموت بالحبشية . وهذا الاستنباط غريب لأسباب ،

أولها : أن قول أبي العلاء : وذكر من نظر في كتاب المبتدأ الخ .. لايتوقف على مخالطة النصارى ولا الرحلة الى بلادهم ، بل مثل هذا الحديث يمكن ان يؤخذ عن أي شخص نظر في ذلك الكتاب في أي بلد كان وأي زمن كان .

ثانيها : أن هذا الخبر لايحتاج فيه إلى إحالته على غيره ليتنصل من القذف بالإلحاد ، لأن أبا العلاء صرح بما هو أعظم منه في رسالة الغفران وغيرها ، ولم يحسب لأحد حسابا ، ولا التجأ إلى التعريض أو إلى التلميح . فهذا ضرب من الإسراف في سوء الظن بأبي العلاء بغير موجب .

ثالثها : أن استعمال كلمة «منش» العبرية وكلمة «أبي ضابط» الحبشية لايوجب أن يكون قد خالطه القوم بهاتين البلدتين النصرانيتين خاصة ، إذ يجوز أن يكون سمعها أو علمها في غيرهما من أحد أو من كتاب ، بل هذا أقرب إلى العقل ، لأننا نرى في كلامه بعض الكلمات الفارسية مثل كلمة «آرا» في قوله[1] :

إِذَا قِيلَ لَكَ : اخشى اللهَ مَوْلاَكَ فَقُــلْ : آرَا

فقد ذكرها في موضعين في اللزوم وفي الفصول والغايات ، وقال : إنها فارسية بمعنى نعم ، واستعملها في نظمه ونثره من غير أن يذهب إلى بلاد فارس ويخالط أهلها ويطلع على دياناتهم .

الرابع : أن أبا العلاء ، كما قلنا غير مرة ، ذكر كثيراً من عــادات الأمم المختلفة وأحوالها وأخلاقها وعقائدها ، من غير أن يخالط أحداً منهم .

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٨ ، وأبو العلاء وما إليه – الميمني – ص ٥٦ .

على أننا لانسلم أن «أبا ضابط» حبشية لأنها مركبة من لفظين عربيين، ولم نر في (اللسان) و(تاج العروس) و(الأساس) و(المصباح) وغيرها من ذكر أنها كنية الموت بالحبشية أو غيرها، وإنما ذكرها شارح لزوم مالا يلزم [١]، وهو مع أنه ليس بثبت، بعيدٌ عن معرفة اللغة، كما سيتضح لك ذلك عند الكلام في اللزوم. وقد جاء الضابط في اللغة بمعنى القوي الشديد، والشديد البطش. والملازم للشيء لايفارقه. ولا يبعد أن يكون أبو العلاء كناه بهذا أو سمعه عن العرب. غير أننا لم نعثر على نص بذلك.

ومما تقدم يتضح أن صاحب (الذكرى) وصاحب (أبي العلاء وما إليه) لم يوفقا كثيراً في استنباطهما في هذا البـــاب. وأن رحلة أبي العلاء إلى أنطاكية واللاذقية وطرابلس وقصة حفظه مايملى عليه.. وتعلمه من الراهب.. وأخذه من مكتبة طرابلس.. لا تطمئن النفس الى شيء منهـــا، وليس هناك مايوجب القطع بصحتها، وإنما سداها الوهم ولحمتها الباطل. وأن قول ابن العديم في مكتبتي أنطاكية وطرابلس أقرب إلى الصواب والواقع. وأن شك بعضهم في رحلة اللاذقية وقول بعضهم: ان العرب تضيف إلى الرهبان كثيراً من الآراء.. قريب من الحق، لأن الذي نسب ذلك إلى أبي العلاء أراد أن يتخذ منه وسيلة للطعن في دينه ونسبة الشك والإلحاد إليه. وقد قال ابن قاضي شهبة في (الطبقات) ص ١٧٦: ويقال إن راهباً اجتمع به في بعض الصوامع، آواه الليل، فشككه في دينه. ورواها غيره على هذه الصورة ولم يذكر اللاذقية ولا غيرها. ولا نستطيع أن نتصور مقدار أو نوع العلم الذي تعلمه في ليلة واحدة من راهب اجتمع به مرة واحدة، ثم خرج من عنده وقد امتلأ علماً وفلسفة وشكّاً وإلحاداً.

(١) انظر الحاشية (٢) ص ٢٠٣

رحلته الى صنعاء

قال ابن حجر في (لسان الميزان) ج ١ ص ٢٠٤ في ترجمة أبي العلاء : مكث بصنعاء سنة لايأكل اللحم .. ولم يزد على هذا . فنقل الأستاذ الميمني في ص ٧٠ ذلك وقال بعده[١] : أقول : ولعله يريد قبل رحلته إلى بغداد ، فإنه بعد الرحلة لم يختص بتركه في موطن دون آخر ، على أن أحداً من مترجميه لم ينقل عنه رحلته بعد الرجوع منها .

وظاهر كلامه يشعر بقبول هذه الرحلة ، ولكنه لم يجد من ذكرها ليقوي بها هذه الرواية . وقد بحثت كثيراً في أقوال الذين كتبوا في أبي العلاء فلم أر من ذكر هذه الرحلة غير ابن حجر . ونقبت عن صنعاء فإذا هي اسم لموضعين ، أحدهما في اليمن وهي المدينة المشهورة . والثاني اسم لقرية كانت على باب دمشق دون المزة ، ثم خربت وصارت مزرعة وبساتين . ومما لاشك فيه أن هذه الرحلة غير صحيحة ، ولا يجوز أن يعول عليها لانفراد الرواية بها ، وللأسباب التي قدمناها في الرحلات السابقة . وابن حجر ، وإن كان ثقة في رواياته ، غير معصوم من الخطأ ولا من خطأ النساخ وتحريف الرواة . وأظن أن أصل عبارته هكذا : ومكث بضعاً واربعين سنة لايأكل اللحم ، ثم سقطت كلمة أربعين فتوهم الناسخ أو الطابع أنها بصنعاء . وهذا هو الموافق لما ذكره ابن حجر أيضاً في ص ٢٠٦ عن هلال الصابي في تاريخه .

ويحصّل من مجموع ماقدمناه في الرحل أن أبا العلاء لم تثبت له رحلة حقيقية إلا إلى حلب وبغداد وكلتاهما ليست لطلب علم كما مرّ و كما يأتي .

---

(١) أبو العلاء وما إليه .

رحلته إلى بغداد

كانت بغداد في عهد أبي العلاء عاصمة الخلافة الإسلامية ، ومقر الأشراف ، وملتقى الأمم من عرب وعجم ، ومجمع العلماء والأدباء والرواة والمترجمين والمعربين ، ومبعث النور إلى القاصية والدانية ، وكعبة القاصدين ، وزهرة الدنيا في حضارتها ونضرتها . وفيها من مجالس العلم والأدب والمناظرة والوعظ ما ليس في غيرها . وكان كل إنسان يهوى أن يلم بها التماساً للعلم أو الرزق أو الشهرة ، أو تقربا من الخلافة أو ما شاكل ذلك من الأسباب والأماني . وإذا كان حبل السياسة مضطربا فيها في ذلك العهد فإن النهضة العلمية فيه كانت على خير ما كانت عليه في عصر من العصور .

وكانت فيها خزائن كتب كثيرة ، منها مكتبتان عامتان ، إحداهما بيت الحكمة ، وهي التي أسسها الرشيد وهي خزانة الخلفاء ، وكان فيها من الكتب مالا يوصف كثرة . قال في (صبح الأعشى) ج ١ ص ٤٦٦ : ويقال : إن أعظم خزائن الكتب في الإسلام ثلاث خزائن ، إحداها خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد ، فكان فيها من الكتب مالا يحصى كثرة ، ولا يقدم عليه نفاسة ، ولم تزل على ذلك إلى أن دهمت التتر بغداد ، وقتل ملكهم هولاكو المستعصمَ آخر خلفائهم ببغداد ، فذهبت خزانة الكتب فيما ذهب ، وذهبت معالمها وأعفيت آثارها . وقد ذكروا في ترجمة نصير الدين الطوسي محمد بن محمد أنه اتخذ خزانة كتب مما نهب من بغداد وغيرها ، اجتمع فيها أربعمائة ألف مجلد . وذكر صاحب (الفهرست) جماعة ممن كان يعمل في هذه الخزانة أي خزانة الحكمة ، منهم : علان الشعوبي ، ص ١٥٠ ، كان ينسخ فيها . وابن أبي الحريش ، ص ١٤ ، كان يجلد فيها ، ومنهم : سهل بن هرون وشريكه فيها سعيد بن هرون ص ١٧٤ و ص ١٨٢ ، ومنهم :

الفضل بن نوبخت ص ٣٨٢ ، وسلم ص ٣٣٩ و ٤٢٤ ، ومنهم : محمد بن موسى الخوارزمي كان منقطعاً إليها ص ٣٨٣ .

الثانية : مكتبة سابور بن أزدشير وزير بهاء الدولة في الكرخ في محلة بين السورين ، وقد احترقت فيما احترق من محل الكرخ عند ورود طغرل بك أول ملوك السلاجقة إلى بغداد سنة ٤٤٧ هـ . وفي ابن الاثير سنة ٤٥٠ . قال ياقوت : ولم يكن في الدنيا أحسن كتباً منها ، كانت كلها بخطوط الأئمة المعتبرة وأصولهم المحررة . وقال ابن الأثير في سنة ٣٨٣ هـ : بنى أبو النصر سابور ببغداد داراً للعلم ، ووقف فيها كتباً كثيرة ، وجعل فيها أكثر من عشرة آلاف مجلد . ونقل عن الواني أن فيها [١٠٤٠٠] غير مائة نسخة من المصاحف المكتوبة بخط بني مقلة ، وقد اختلفت كلمة ابن الاثير فيها فقال مرة : بنيت سنة ٣٨١ هـ ثم قال : سنة ٣٨٢ ثم قال في حوادث سنة ٤١٦ هـ : وعمل دار الكتب سنة ٣٨١ هـ . وقد أشار إليها أبو العلاء بقوله (١) :

وَغَنَّتْ لَنا في دَارِ سابورَ قَيْنَةٌ ... مِنَ الوُرْقِ مِطْرابُ الأَصائِلِ مِيهالُ

وقد وقعت تسميتها بدار العلم في كلام ابن الأثير وابن خلكان وياقوت . إذ قال عن ابن الجوزي في ج ٦ ص ٣٥٨ : محمد بن أحمد بن طاهر بن حمد أبو منصور الخازن لدار الكتب القديمة من ساكني درب منصور بالكرخ . ثم قال بعد ذلك : وحدث عن غرس النعمة أبو الحسن محمد بن الصابيء في كتاب (المفوات) قال : كان بدار العلم التي وقفها سابور .. خازن يعرف بأبي منصور ...

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ س ١٢٣٩ . وميهال : مفعال من الوهل ، وهو الفزع .

أما أبو العلاء فقد قال في رسالته إلى خاله (١) : والذي أقدمني تلك البلاد مكان دار الكتب بها . وقال في كتابه إلى أهل المعرة(٢) ص ٨٣ : ولكن أثرت الإقامة بدار العلم . وقال في رسالة الغفران (٣) ص ١٠ : ولم تكن في النسخة التي في دار العلم . ونقل عنه في الوفيات ج ٢ ص ٤٦٢ ، قال أبو العلاء : حدثني عبد السلام البصري خازن دار العلم ببغداد ، وقال من قصيدة كتبها إلى عبد السلام المذكور (٤) :

أخازِنَ دارِ العِلْمِ كَمْ مِنْ تَنُوفَةٍ ... أَتَتْ دُونَنَا فيها العَوَازِفُ واللَّغْطُ

وقال في رسالة الغفران (٥) ص ٧٢ : أنا « توفيق السوداء » التي كانت تخدم في دار العلم ببغداد ، على زمان أبي منصور الخازن . وذكرها في غير هذه المواطن . وفي تاريخ بغداد ج ١١ ص ٥٨ ، وفي نزهة الألباء ص ٤١٢ في ترجمة عبد السلام البصري : وكان يتولى ببغداد دار الكتب . وفي القفطي (٦) : وحضر خزانة الكتب التي بيد عبد السلام البصري .

وما تقدم يدل على أن دار الكتب القديمة ودار العلم واحدة ولكنه يشكل من حيث إن أبا منصور بن حمدسئل عن مولده فقال سنة ٤١٨ هـ فتأمل .

---

(١) رسائل أبي العلاء المعري ـ شاهين عطية ـ ص ٧٨ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) رسالة الغفران ـ تحقيق بنت الشاطئ ـ ط ١ ص ٢٣ .

(٤) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦٧٢ ، التنوفة : البرية ، والعوازف : الجن .

(٥) الغفران تحقيق بنت الشاطئ ـ ط١ ص ١٩٣ وفيها : « على زمان أبي منصور محمد ابن علي الخازن » .

(٦) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣١ عن إنباه الرواة ـ للقفطي .

وكان في بغداد غير هاتين المكتبتين كثير من المكاتب الخاصة . منها مكتبة أبي الحسن عبد العزيز بن إبراهيم المعروف بابن حاجب النعمان . ولم يشاهد خزانة للكتب أحسن منها ، لأنها كانت تحتوي على كل كتاب عين ، وديوان فرد ، بخطوط العلماء المنسوبة . وأبو الحسين هذا أحد أفراد الزمان في الفضل والنبل ، وكان إليه ديوان السواد أيام معز الدولة ، وله كتب كثيرة ، توفي سنة ٣٥١ ﻫ وترجمته في الفهرست ١٩٣ ، وتاريخ بغداد ج ١٠ ص ٤٥٦ . وقد ذكره أبو العلاء في رسالة الغفران[1] ص ١٠ ، وذكر دار العلم في هذا الموضع .

ومنها خزانة حكمة للفتح بن خاقان ، جمعها له علي بن يحيى المنجم ، لم ير أعظم منها كثرة وحسنا ، كما في معجم الأدباء . ج ٦ ص ١١٧ ، والفهرست ص ١٦٩ و ص ٢٠٥ .

ومنها خزانة لأبي حسّان الحسن بن عثمان الزيادي وهي خزانة حسنة كبيرة كما في الفهرست ص ١٦٠ .

سمع أبو العلاء بهذه الخزائن ، لا سيما دار الكتب ، فاشرأبت نفسه إلى زيارة بغداد والاطلاع على ما فيها ، فعقد النية على ذلك واستأذن أمه كما جاء في رسالته إلى خاله أبي القاسم[2] ص ٦٩ : على أني والله قد أعْلَمْتُها أني مُرْتحل وأنّ عزمي على ذلك جادٌ مزمع ، فأذِنَتْ فيه ، وأحْسَبُها ظَنَّتْهُ مَذْقَةَ الشّارب ، ووَميض الخالِب ﴿ ولكل أجل كتاب ﴾ .

---

(١) الغفران — تحقيق بنت الشاطئ ، ط ١ — ص ٢٣ .

(٢) الرسائل — لشاهين عطية — والمذقة : اللبن الممزوج بالماء ، ويريد أنها كانت تظن أنه لن يسافر .

أسباب رحلته الى بغداد

لم تسلم هذه الناحية من اختلاف في الأقوال وتضارب في الآراء ، فقد ذكر جماعة منهم القفطي [١] والذهبي [٢] وغيرهما أن عامل أو أمير أو نائب حلب عارض أبا العلاء في وقف له ، فسافر إلى بغداد متظلماً شاكياً ، ولم يعين أحد منهم ذلك العامل أو النائب في ذلك العهد ولا في أية سنة وقعت المعارضة ولا نوعها ولا نوع ذلك الوقف .

وقد كنا قدمنا أن أبا المعالي سعد الدولة مَلَكَ حلب سنة ٣٥٦ هـ وتغلب عليه غلامه قرعونة واستولى عليها سنة ٣٥٨ هـ ثم ملكها أبو المعالي سنة ٣٦٦ هـ ، وبقيت القلعة بيد بكجور ، ثم ولاه حمص ، وبقي أبو المعالي إلى أن توفي سنة ٣٨١ هـ ، وعهد إلى ولده أبي الفضائل ، ووصى به لؤلؤ ابن عبد الله السيفي الكبير مولى سيف الدولة ، فكان المدبر لمملكته ثم سمه فمات سنة ٣٩١ هـ ، واستولى لؤلؤ على حلب واستقل بالأمر إلى أن توفي سنة ٣٩٩ هـ ، ثم ملك حلب بعده ابنه أبو منصور نصر مرتضى الدولة ، وكان خطب للحاكم العبيدي ثم تغلب عليه غلامه واستولى على حلب ثم سلمها إلى نواب الحاكم سنة ٤٠٤ هـ أو بعدها .

وكان العزيز صاحب مصر يَطْمَع في الاستيلاء على حلب ويُطمعه بعض ولاتها من عهد بكجور ، وكان يرسل الجيش تلو الجيش للاستيلاء عليها ، وتم ذلك للحاكم على يد نصر بن لؤلؤ كما تقدم . وعلى هذا ينبغي أن يكون عامل حلب الذي عارض أبا العلاء هو لؤلؤ المتوفى سنة ٣٩٩ هـ ، لأن أبا العلاء سافر من المعرة في أواخر سنة ٣٩٨ هـ . وتكون

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣١ عن إنباه الرواة ـ للقفطي .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٩٠ عن تاريخ الاسلام ـ للذهبي .

حلب غير خاضعة لسلطان بغداد ، بل هي على وشك الدخول في حوزة المصريين . ومن البعيد أن يذهب أبو العلاء الى بغداد متظلماً من عامل ليس لحكومة بغداد سلطان عليه . ولو كان ذهابه من أجل ذلك لتعرض لذكره أو لذكر ما وقع له من أجله ، كما فعل بسفينته التي اغتصبها رجال الحكومة في سفره إلى العراق . ولكن شيئاً من ذلك لم يكن . وهذا دليل على أن سفره إلى بغداد لم يكن للتظلم ، أما الوقف فسيأتي أن لأبي العلاء وقفاً يغل نحو ثلاثين ديناراً أو أقل في كل عام .

وقال أبو غالب همام بن المهذب المصري [1] : إن أبا العلاء حدثه أنه ذهب إلى بغداد ليقرأ بها العلم فلم يصادف بها مثله . وقال ابن العديم [2] : إنه رحل إليها لطلب العلم والاستكثار منه والاطلاع على الكتب التي ببغداد ، ولم يرحل لطلب دنيا ولا رفعة .

وزعم بعض المستشرقين أن سيره الى بغداد كان تبرماً من أمر اختلال معيشته ، لاتظلماً الى الخليفة في استرداد مال . وقال صاحب الذكرى في ص ١٦٣ : ونحن نعتقد أن حب العلم وطلب الشهرة وسعة العيش وبغض الحياة السياسية بحلب وما آلت اليه من الاختلاف والفتن هي التي كونت في نفس أبي العلاء عزمه على الرحلة من بلاد الشام الى العراق . .

وذكر الاستاذ الميمني في ص ١٠٢ [3] أسباباً كثيرة لرحلته ، منها دار الكتب ولقاء العلماء والإفادة والاستفادة لهم ومنهم ، والسأم والتبرم من الفتن ، والغارات والحروب التي يثيرها البدو والروم والمصريون . وأعجبه قول المستشرق : أنه رحل تبرما لا تظلما . ولقد أكثر هو وصاحب الذكرى من الأسباب حتى اذا لم تكن كلها حقيقة كان بعضها . . .

(١) ابن الوردي ج ١ ص ٣٢١ .
(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٤٢ عن الانصاف والتحري — لابن العديم .
(٣) أبو العلاء وما إليه — للميمني .

هذه خلاصة ما قاله جمهور من المؤرخين والعلماء في أسباب رحلته، وفيها ما يستسيغه الذوق ويجوّزه العقل لو كان له دليل يؤيده أو نص يعضده. ولقد ذكر أبو العلاء سبب رحلته وأغنى عن التكلف لالتماس وجوه بعيدة عن الحقيقة والواقع، وذلك حيث قال في رسالته إلى خاله أبي القاسم عند رجوعه من العراق [١] ص ٧٧: وقد فارقت العشرين من العمر ما حدثت نفسي باجتداء علم من عراق ولا شام .. والذي أقدمني تلك البلاد مكان دار الكتب بها. وقال في كتابه الذي أرسله إلى أهل المعرة من بغداد [٢] ص ٨٣: وأحلف ما سافرت أستكثر من النشب، ولا أتكثر بلقاء الرجال، ولكن آثرت الإقامة بدار العلم فشاهدت أنفس مكانٍ لم يسعف الزمن بإقامتي فيه. وقال من قصيدة أرسلها إلى عبد السلام المصري بعد عودته من بغداد إلى المعرة [٣]:

وما أربي إلاّ مُعرَّسُ مَعْشَرٍ ... هُمُ النَّاسُ لا سُوقُ العَروسِ ولا الشَّطُّ

قال التبريزي في شرح السقط: يعني بقوله: معرس، معشر، دار العلم، لأنه كان يجتمع مع أهل العلم فيها.

وقال في التنوير: أي ليست حاجتي إلا معرس معشر، يعني دار الكتب ببغداد. وسوق العروس: سوق فيها تباع فيها الطُّرَف.

وأما طلب العلم والأدب والمال والشهرة وسعة العيش وما شاكل ذلك فقد صرح في مواطن من كلامه بنفيه والتبرؤ منه.

---

(١) الرسائل — لشاهين عطية.

(٢) المصدر السابق.

(٣) شروح سقط الزند: ق ٤ ص ١٦٧١ والتنوير ج ٢ ص ١٧٢.

وقد كان أبو العلاء بعيد النظر شديد الاحتراس والحذر ، فكان في كل موطن وموقف يصرح بأنه لا يريد المال ولا الجاه ولا غيرهما . وقد قال في كتابه إلى خاله : وانصرفت وماء وجهي في سقاء غير متربَ . ما أرقت منه قطرة في طلب أدب ولا مال . وقال في كتابه إلى أهل المعرة : وأحلف ما سافرت أستكثر من النشب ولا أتكثر بلقاء الرجال . وقال في قصيدته الآتيه إلى أبي حامد الإسفرائيني (١) :

ولم أكُنْ ورَسُولي . . . . كالْفَرَزْدَقِ في إرْسَال وَقّاعِ
ولا أُثَقِّلُ في جاهٍ ولا نَشَبٍ (٢) . . . .

وقال في مرثية الشريف أبي أحمد الموسوي (٣) :

أوْضَعْتُ في طُرُقِ التشرُّف سامِياً بكُما ولَمْ أسْلُكْ طَريقَ العافي

وقال من قصيدة أنشدها في العراق :(٤)

أإخوانَنَا بَيْنَ الفُراتِ وجِلَّقٍ يَدَ اللهِ لا خَبَّرْتُكم بِمُحالِ

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ س ٧٦٠ وفيها :
ولم أكن ورسولي حين أرسله مثل الفرزدق في إرسال وقّاع
ووقاع : غلام للفرزدق : كان يوجهه في أشياء ليست بالجميلة .
(٢) شروح سقط الزند :ق ٢ س ٧٥٦ وعجزه : ولو عددت أخا عُدْمٍ وإدقاع .
(٣) شروح سقط الزند : ق ٣ س ١٣٢٠ .
(٤) جلق : دمشق ، وأراد باخوانه الذين هم بين الفرات وجلق المعرة وأهلها لوقوعها بينهما ، ويد : بمعنى العهد منصوبة بفعل مضمر أي ألزم نفسي عهد الله . وغيلان : هو ذو الرمة بن عقبة الشاعر الذي قال فيه أبو عمرو بن العلاء : فتح الشعر بامرىء القيس وختم بذي الرمة توفي سنة ١١٧ هـ . وبلال بن أبي بردة عامر ابن أبي موسى الأشعري ، كان قاضياً بالبصرة وأميرا ، توفي سنة ١٢٥ هـ وكان ذو الرمة ينتجعه ويمدحه ويأخذ صلاته وجوائزه **(ج)**.
والأبيات في شروح سقط الزند : ق ٣ س ١٢٠٤ ـ ١٢٠٥ وروى التبريزي : « أجيراننا » .

أُنَبِّئُكُم أني على العَهْدِ لم أزَلْ[١] وَوَجْهِيَ لَمَّا يُبْتَذَلْ بِسؤالِ
وأني تيمَّمْتُ العراقَ لغيرِ ما تَيَمَّمَهُ غَيْلانُ عِنْدَ بِلالِ

وقال من قصيدة قالها في العراق :[٢]

وَكَمْ ماجدٍ في سيفِ دِجلةَ لم أَشِمْ لَهُ بارِقاً وَالمرْءُ كالمُزْنِ هطَّالُ

وقال من قصيدة أرسلها إلى أبي القاسم التنوخي بعد عودته إلى المعرة:[٣]

رَحلْتُ لَمْ آتِ قِرْوَاشاً أُزاوِلُهُ وَلاَ المُهَذَّبَ أَبْغي النَّيْلَ تَقْوِيتا

فهذا القدر الذي أوردناه من كلامه يدل دلالة صريحة واضحة على أن الذي أقْدَمَهُ بغداد حبُّ الاطلاع على دار الكتب فحسب . ولم يرحل إليها رغبة في طلب علم أو أدب أو شهرة أو مال أو غيرها ، ولا تظلماً من عامل ولا تذمراً من حياة سياسية في المعرة أو غيرها . وأبو العلاء أصدق الناس فيما يحدّث به عن نفسه ، وأخبرهم بدخيلته وما يكنّه صدره .

ولو كان التذمر من الحياة هو السبب لما عاد إلى بلده ، لأن الحياة بأنواعها لم تتغير فيها خلال المدة التي غاب فيها عنها ، ولأن البغداديين

(١) في شروح السقط « أني على العهد سالم » .

(٢) شام البرق : نظر أين يمطر سحابه ، وشام برق فلان : رجا معروفه (ج) والبيت في شروح السقط ق ٣ ص ١٢٥٩ .

(٣) قرواش بن المقلد العقيلي صاحب الموصل والكوفة والمدائن وسقي الفرات ، وليها من سنة ٣٩١ هـ إلى سنة ٤٤١ هـ ، ثم سجنه أخوه فتوفي سنة ٤٤٤ هـ والمهذب : علي بن نصر أمير البطيحة ، وليها بعد وفاة خاله المظفر سنة ٣٧٦ هـ بعهد منه ، وتوفي فيها سنة ٤٠٨ هـ ، وفي التنوير ج ٢ ص ١١٩ قرواش اسم أمير كان والي بغداد والمهذب وزيره . (ج) والبيت في شروح السقط :ق ٤ ص ١٦٣٩ .

أرادوه على المقام بين ظهرانيهم ، وعرضوا عليه أموالاً كثيرة فأبى ، وسيتضح لك ذلك في الكلام على عفافه وزهده ، ويتبين مبلغه من الأنفة والقناعة .

ويتحصل من مجموع ما ذكرناه ان ما قاله العلماء المتقدم ذكرهم في أسباب رحلته إلى بغداد مخالف للحقيقة والواقع ولقول أبي العلاء نفسه . على أننا لا نستبعد أن يكون للشيء الواحد أسباب متعددة ، ولكن السبب الأول الذي عليه المعول في هذه الرحلة هو ما ذكره أبو العلاء ، وهو الاطلاع على دار الكتب .

ويشهد لهذا قول أبي الهيثم عبد الواحد أخي أبي العلاء من قصيدة أرسلها إلى أبي العلاء وهو في بغداد [1] :

بَغْدادُ لا سُقِيَتْ رُبوعُكِ دِيمَةً ... وغَدَتْ رِياضُكِ حَنظَلاً ومُرارا
أضرمْتِ قلبي باجْتِذابِكِ ماجداً ... كالسَّيفِ أعجبَ رَوْنقاً وغِرارا
مَنَّيْتِه مَحْضاً فلمَّا شَفَّهُ ... ظَمَأٌ أتاكِ بِه سَقَيتِ سَمارا [2]
وَجلَبْتِهِ فَنَحاكِ يَعتَسِفُ الرَّدى ... ويَخوضُ مِنْهُ لُجَّةً وغِمارا
شَغَفاً بِدارِ العِلْمِ فيكِ وقَلْبُه ... ما زالَ رَبْعاً للعلوم ودَارا
ما زِدْتِ عَمّا عِندَهُ فَسَقاكِ مَنْ ... رَفَعَ السماء نَقيصَةً وعِثارا
وأجارَ أهلَكِ في المعادِ فإنَّهم ... أوفى الخلائِقِ ذِمَّةً وَجِوارا

* * *

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٤٥ عن الإنصاف والتحري لابن العديم ، والأبيات من مُطَوَّلة مطلعها :

يا رُبَّ قد جَنَحَ الوميض وغارا ... فاسقِ المواطِرَ زَيْنَباً ونَوارا

(٢) السَّمار : اللبن الكثير الماء .

ابتداء سفره :

لم يتبين لنا اليوم الذي شخص فيه أبو العلاء من المعرة ، ولا على أي شيء اجتاز منها إلى بغداد . ولكنا رأينا رسالة كتبها جواباً إلى القاضي أبي الطيب الطبري طاهر بن عبد الله بن طاهر [١] قال فيها : إنه كتبها لتسع خلون من رمضان . وقد جاء فيها : وإلى الله أرغب في تسهيل الهجرة إلى فنائه السعيد على أمون مِقلات [٢] . . أو أخرى طليت بالقار من غير داء ، ولم تخبط وجه البيداء ... وكيف تفرق من الأظماء وإنما تخد في الماء [٣] . ثم قال : وفي هذا اليوم وهو يوم كذا ورد إليه الشيخ أبو سعيد الخوارزمي [٤] . قاصد البيت الحرام .. فخبرني سلامة سيدي القاضي ، وعرفني أن كتابه كان معه .. وأن البادية ظفرت به .. فأخذته في جملة كتبه .

ولكننا لم نعلم منها في أي رمضان كتبت . وقد ذكر الميمني [٥] ص ١٠٨ أن أبا سعيد الخوارزمي زار أبا العلاء في المعرة سنة ٣٩٨ هـ ، وهذه الرسالة تدل على أن أبا العلاء كان يحدث نفسه بالهجرة إلى بغداد وأن بينه وبين القاضي الطبري معرفة ومكاتبة .

---

(١) الطبري كان إماماً جليلا أخذ عنه العراقيون العلم وحلوا مذهب الشافعي ولد بآمل سنة ٣٤٨ هـ وتوفي سنة ٤٥٠ هـ ، وقد روى عنه جماعة كثيرون ، منهم الخطيب البغدادي وأبو إسحق الشيرازي ، راجع طبقات السبكي ١ / ١٧٦ ورسائل المعري ص ٩٩ — لشاهين عطية — (ج)

(٢) ناقة أمون : موثقة يؤمن عثارها ، المقلات التي تضع ولداً ثم لا تحمل غيره . (ج)

(٣) يريد سفينة . (ج)

(٤) أبو سعيد هذا اسمه أحمد بن محمد . . ابن غير الخوارزمي الضرير تفقه على أبي حامد الاسفرائيني ، ومات في العاشر من صفر سنة ٤٤٨ هـ . طبقات السبكي ج ٢ ص ٣٣ . (ج)

(٥) انظر أبو العلاء وما إليه .

طريقه الى بغداد :

رحل أبو العلاء إلى بغداد من المعرة ولم يتبين لنا على أي شيء كان رحيله ولا أي طريق سلك . والظاهر من رسالته إلى القاضي الطبري السابق ذكرها ، ومن رسالته إلى خاله أنه ركب أولاً مطيّة ثم ركب سفينة ، فإنه قال فيها[١] : وما هبطت من طريقي واديا ، ولا فَرَعتُ جبلًا ولا حملتني سفينة ولا ذات لي مطية إلا بمنّ الله . . .

وسيأتي أنه مر بشجرة وهو على جمل فقيل له : طأطيء رأسك . .

ويظهر أنه لم يمر بحلب في ذهابه إلى بغداد ، كما لم يمر بها في إيابه ، لأنه يقول في رسالته : فوالذي أخرج الجذع من الجريمة[٢] والنار من الوثيمة[٣] ما تكبّبت حاب في الإبداء والانكفاء ، إلا كما تتكّب خريدة المحار لما دونها من هول البحار .

ولكنه نزل بالرّقة وكتب منها كتاباً إلى خاله يشرح له فيه ما حمله على النزول .

وكذلك يقول في قصيدته لأبي حامد[٤] .

يا ناقُ جِدّي فَقَدْ . . .

وقد ركب في رحلته هذه سفينة ، فسارت به إلى الأنبار ، ثم اعترضه نفر من أصحاب السلطان ، فأخذوا السفينة إلى موضع يقال له الفارسية[٥] .

---

(١) رسائل أبي العلاء — لشاهين عطية — ص ٧٥ ، وفَرَعَ الجبل : صعده .

(٢) النواة . (ج)

(٣) الحجارة . (ج) والنص في الرسائل — لشاهين عطية — ص٦٩

(٤) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٧٤٢ ، والبيت :

يا ناق جدي فقد أفنت أناتك بي صبري وعمري وأحلاسي وأنساعي

(٥) الفارسية بالفاء والراء وهكذا رواها التبريزي وذكرها في شرحه ، وقال الخوارزمي : الفارسية موضع وهو بالفاء والراء عن الامامين صاحب الايضاح والتنوير . ثم قال : كان الاستاذ البارع قد أسمعنيه بالقاف والدال ، وهو —

دخوله بغداد

اختلفت كلمة العلماء في الوقت الذي دخل فيه أبو العلاء بغداد وفي مدة إقامته فيها وفي أسباب خروجه منها .

فقال الخطيب في (تاريخ بغداد) [١] : إنه دخلها سنة ٣٩٩ هـ ووافق في ذلك (لسان الميزان) ، و(مرآة الزمان) ، و(مرآة الجنان) ، والقفطي ، والذهبي ، وأبا الفداء ، و (البداية والنهاية) ، و (عقـد الجمان) ، و (الأنساب) ، و(المنتظم) .

وقال ياقوت [٢] : رحل إلى بغداد سنة ٣٩٨ هـ وأقام بها سنة وسبعة أشهر . وقال في (نزهة الألباء) [٣] : رحل إلى بغداد سنة ٣٩٨ هـ ودخلها سنة ٣٩٩ وأقام بها سنة وتسعة أشهر . وروى ابن العديم عن الخطيب التبريزي [٤] أنه رحل إليها سنة ٣٩٨ هـ ودخلها سنة ٣٩٩ هـ وأقام سنة وستة أشهر . وقال ابن خلكان [٥] : دخلها سنة ٣٩٨ هـ ودخلها ثانياً

ــ سهو ، لأن القادسية أول منزل في البادية بينها وبين الكوفة مرحلة ، وما للسفينة والبادية ؟

وقد جاءت في شرح السقط للخويي المسمى بالتنوير ص ٢٣٤ القادسية بالقاف والدال فهي خطأ على قول الخوارزمي .

وقال ياقوت : الفارسية : قرية غناء نزهة ، ذات بساتين مونقة ، ورياض مشرفة ، على ضفة نهر عيسى بعد المحول من قرى بغداد ، بينها فرسخان .

والمحول : بلدة كثيرة البساتين والفواكه والأسواق بينها وبين بغداد فرسخ . (ج)

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥ عن تاريخ بغداد ــ للخطيب البغدادي .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٦٨ عن إرشاد الأريب ــ لياقوت .

(٣) » » » » ص ١٧ عن نزهة الألباء ــ لابن الانباري .

(٤) » » » » ص ٥٤٣ عن الانصاف والتحري ــ لابن العديم .

(٥) » » » » ص ١٨٣ عن وفيات الأعيان ــ لابن خلكان .

سنة ٣٩٩ هـ . وقال غير واحد : اتفق يوم وصوله إلى بغـداد موت الشريف الطاهر والد الرضي والمرتضى ، ورثاه بقصيدته الفائية ، وكانت وفاته سنة ٤٠٠ هـ . ونقل ذلك ابن الوردي عن أبي غالب همام بن .. المهذب المعري . وهنالك أقوال متضاربة تجعل بين الباحث وبين الحقيقة سداً منيعاً من الشكوك والتناقض وقد أضربنا عن سردها مخافة التطويل .

والذي يظهر لي أنه شرع في رحلته في آخر سنة ٣٩٨ هـ ، وانتهت هذه السنة وهو في الطريق ، ثم دخل بغداد في صفر سنة ٣٩٩ هـ . ويؤيد هـذا قول بعضهم أنه رحل أو سافر إلى بغداد سنة ٣٩٨ هـ . وبعضهم يقول دخلها سنة ٣٩٩ هـ . ومنهم من التبس عليه الأمر بين رحل ودخل . ولكن يشكل على هذا قول بعضهم أنه دخلها سنة ٤٠٠ هـ ، ولعل هذا التضارب أوهم ابن خلكان أن أبا العلاء رحل مرتين إلى بغداد . وتابعه في ذلك من تابعه من غير تمحيص ولا تثبت كصاحب (الشذرات) وابن الوردي بعد نقله عن أبي غالب ما تقدم . وأكثر الأقوال يؤيد ما استظهرناه .

ولم أرَ أحداً عيّن اليوم الذي دخلها فيه ، ولا الشهر ، وإنما اكتفوا بذكر السنة عن ذلك .

منزله في بغداد

سيأتي عن القاضي أبي الطيب الطبري أن أبا العلاء نزل في سويقة غالب ، وهي من محالّ بغداد . وقال في قصيدته إلى القاضي التنوخي[1] :

أيَّامَ واصَلْتَني وُدًّا وتكْرِمَةً وَبالقَطِيعَةِ داري تَحْضُرُ النَّهَرا

(١) شروح سقط الزند : ق ٤ س ١٧٣٧ ، وفي التنوير ج ٢ ص ١٩٣ .

قال في (التنوير) : القطيعة ، محلة في بغداد على شط دجلة . وقد ذكر ياقوت مواضع تسمى قطيعة ، مضافة إلى أسماء ، مثل قطيعة إسحاق قرب الكرخ ، وقطيعة الربيع بالكرخ ، وقطيعة الفقهاء بالكرخ وغيرها . ورجح الأستاذ الميمني أنها قطيعة الفقهاء ، واستدل على ذلك بقول أبي العلاء من قصيدة يجيب بها أبا تميم البرقي (١) :

بمَحَلَّةِ الفُقَهاءِ لا يَعْشُو الفتى ناري ولا تُنْضي المَطِيَّ عَزائمي

وقال : وإن كان صاحبا التنوير والضرام أرادا بمحلة الفقهاء بغداد ، وأظن أن هذا من عدم علمها بمقامه ، وإلا فظاهر أن المحلة لا يراد بها مدينة عادة اه .

وهذا استنباط لا بأس به ، ولكني أعتقد أن أبا العلاء لو أراد قطيعة الفقهاء لأمكنه أن يقول :

بقَطِيعَةِ الفُقَهاءِ لا يَعْشُو . . . . .

وأطاعه اللفظ والمعنى والوزن ، أما إطلاق المحلة على المدينة فقد يسعه المجاز المرسل . ويجوز أن يقال : جعلها كلها محلة الفقهاء لكثرتهم بها كما قال صاحب (التنوير) . وأما الكرخ فالظاهر من كلام المعري أنه نزلها ، لأنه قال من قصيدة في السقط (٢) :

دَماءُ بِلادي كان أَنْجَعَ مَشْرَبا وَلَوْ أَنَّ ماءَ الكَرْخِ صَهْباءُ جِرْيالِ

وقال من أخرى فيه (٣) :

فَيَا بَرْقُ لَيْسَ الكَرْخُ داري وإنما رَماني إليه الدَّهْرُ مُنْذُ لَيالِ

(١) أبو العلاء وما إليه — للميمني — ص ١١٣ ، والبيت في الشروح ق ٤ س ١٥٢٣ .
(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ س ١٢٥٤ والجريال : صبغ أحمر وماء الذهب ، وسميت الخمر جريالا لشبهها بالذهب ومائه .
(٣) شروح سقط الزند : ق ٣ س ١١٩٥ .

وقال في لزوم ما لا يلزم [١] :

مالي وللنَّفَر الذين عَهِدْتُهم بالكَرْخِ مِنْ شاشٍ ومن إيلاق

ولعل أقرب الأقوال إلى الصواب ما قاله البطليوسي [٢] فقد قال : القطيعة موضع ببغداد يعرف بقطيعة الربيع يقرب من دجلة ، وكان أبو العلاء ساكنا فيه . وقال التبريزي [٣] : المراد بالنهر نهر القلائين ، والربيع هو ابن يونس حاجب المنصور .

حياته في بغداد

ذكرنا أن القاضي أبا الطيب الطبري كانت بينه وبين أبي العلاء معرفة ومكاتبة قبل أن يصل إلى بغداد ، وكتب إليه أبياتا حين وافى بغداد ، فأجابه عنها في الحال ، ثم كتب إليه أبياتا أخر فأجابه عنها مرتجلا كما سيأتي .

وقول أبي العلاء في رسالته إلى خاله [٤] : وأما سيدي أبو طاهر فقد حملني من الإنعام أوْقاً (= ثقلا) ما زالت كتبه تطرف أصدقاءه محافظة على المكارم .. حتى جعلهم إلي كعُرْفِ الفرس ، أو ُقوَى المرس .. ، يفهم منه أن أصدقاء أبي طاهر كثيرون ، وأنهم كانوا يلازمون أبا العلاء .

---

(١) اللزوميات هـ س ٣٠٨ وشاش : بلدة في ما وراء النهر .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٤ س ١٧٣٧ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) الرسائل ـ لشاهين عطية ـ س ٧٥ وفيها وفي معجم الأدباء « تطرق أصدقاءه » .

ولا شك أن شهرة أبي العلاء سبقته إلى بغداد ، لأن المعرة في عهده كانت ملتقى السبل بين الشام وما وراءها ، والعراق وما وراءه . وكان الحُجاج والتجار والرحال ورسل الملوك وغيرهم يمرون بها ، وقد كان ذكر أبي العلاء ملأ تلك النواحي ، وتخطّى إلى مسامع كثير من الفضلاء في العراق وغيره ، منهم القاضي الطبري ، وأصدقاء أبي طاهر الذين كتب إليهم . ولما دخل بغداد كتب قصيدة إلى أبي حامد الإسفرائيني (١) ذكر فيها أنه أنشأ الرحلة على ناقة ، فهو يحثها على السير ويأمرها أن تسرع في الليل ولا تهابَ بياض الصبح ، وإن كان شبيها بالسيف ، يشير بذلك إلى جِدّه ومضائه حيث يقول (٢) :

لاوَضْعَ لِلرَّحْلِ إلا بَعْدَ إيضاعِ (٣)
فَكَيْفَ شَاهَدْتِ إمْضائي وإزْمَاعي (٤)
يا نَاقُ جِدّي فَقَدْ أَفْنَتْ أَنَاتُكِ بي
صَبْرِي وعُمْرِي وأَحْلاسي (٥) وأنْسَاعي (٦)

(١) ترجمته في الوفيات وطبقات ابن السبكي . والخطيب البغدادي وشذرات الذهب وأبي الفداء ، وهو أحمد بن محمد الإسفرائيني الفقيه الشافعي الذي انتهت إليه رئاسة الدنيا والدين ، وكان يحضر مجلسه ثلاثمائة فقيه وقبل سبعمائة توفي سنة ٤٠٦ هـ في بغداد . (ج)

(٢) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٧٤١ .

(٣) سير سريع . (ج)

(٤) عزمي . (ج)

(٥) الحلس : كساء يطرح على ظهر البعير . (ج)

(٦) النسع : سير ينسج عريضاً للتصدير . (ج)

إذا رَأَيْتِ ظَلامَ اللَّيْـلِ فانْصَلِتِي[1]

وإنْ رَأَيتِ بَياضَ الصُّبْحِ فَانْصاعي[2]

ولا يَهُولَنكِ سَيْفٌ لِلصَّباحِ بَدا فَإِنَّهُ لِلْهوادي غَيْرُ قَطّاعِ

إلى الرَّئيسِ الذي أسْفـــارُ طَلْعَتِهِ

في حِنْدِسِ الخَطْبِ ساعٍ بالهُدى شاعي[3]

ثم أشار إلى رُكوبه السفينة ووصفها فقال :

يَمَّمْتُهُ وَبُوُدِّي أَنَّنِي قَلَمٌ أسْعَى إِلَيْهِ ورَأْسِي تَحْتِيَ السّاعي

عَلَى نَجاةٍ[4] مِنَ الفِرْصادِ[5] أَيَّدَها رَبُّ القَدُومِ بِأَوْصالٍ وأضْلاعِ

تُطْلى بِقارٍ وَلَمْ تَجْرَبْ كَأَنْ طُلِيَتْ

بِسائِلٍ مِنْ ذَفارَى[6] العِيسِ مُنْباعِ[7]

---

(١) فأسرعي . (ج)

(٢) دعي السير وخذي في ناحية . (ج)

(٣) مقلوب شائع : أي منتشر . (ج)

(٤) ناقة سريعة يريد بها السفينة . (ج)

(٥) التُّوت . (ج)

(٦) جمع ذفرى . عظم ناتىء خلف الأذن ، يريد مآخير الآذان . (ج)

(٧) ممتدٌّ منبعث . (ج)

ولا تُبَالي بِمَحْلٍ إِنْ أَلَمَّ بِها ولا تَهِشُّ[١] لإِخْصابٍ وإِمْراعِ

ثم ذكر المواضع التي مر بها ، وتعرُّض أصحاب السلطان لها وأخذها ، فقال :

سارَتْ فزَارَتْ بنا الأَنبارَ سالِمَةً تُزْجَى وتُدْفَعُ في أَمْواجِ دُفّاعِ[٢]

والفارِسِيَّة[٣] أَدَّتْها إلى نَفَرٍ طافُوا بها فأَناخُوها بجَعْجَاعِ[٤]

وأراد أن يصف ما عرض له في رحلته من الاستعجال والخوف في الطريق ، فعبر عن ذلك بما يتعلق باصطلاح الفقهاء الشافعية لأن أبا حامد فقيه شافعي فقال :

وَرُبَّ ظُهْرٍ وَصَلْناها على عَجَلٍ بِعَصْرِها في بَعِيدِ الوِرْدِ لمَّاعِ

بضَرْبَتَيْنِ : لِطُهْرِ[٥] الوَجْهِ واحِدَةٌ ولِلذِّراعَيْنِ أُخرى ذاتُ إِسْراعِ

وكَمْ قَصَرْنا صَلاةً غيْرَ نافِلَةٍ في مَهْمَهٍ كَصَلاةِ الكَسْفِ شَعْشَاعِ

وَمَا جَهَرْنا ولَمْ يَصدَحْ مُؤَذِّنُنا مِنْ خَوْفِ كُلِّ طَويلِ الرُّمْحِ خَدّاعِ

---

(١) ترتاح . (ج)

(٢) ما يدفع بعضه بعضاً (ج) . وفي شروح السقط : « تزجى وتدفع في موج ودفاع »

(٣) تقدم تفسيرها وأنها بالفاء والراء (ج)

(٤) الجعجاع : المحبس الضيق الخشن (ج)

(٥) في شروح السقط : « لظهر » .

فيَ[1] مَعْشَرٍ كجِمَارِ الرَّمْلِ أَجْمَعُهَا ليلاً وفي الصُّبْحِ أُلْقِيهَا إلى القَاعِ

ولقد أجاد غاية الإجادة في هذا ، فإنه ذكر جَمْع الظهر مع العصر وذلك يكون للمسافر . والتيمم بضربتين لفقد الماء ، وقصر الفريضة ، وأشار إلى طول صلاة الكسوف وهي عند الشافعي ركعتان في كل ركعة قيامان وقراءتان وركوعان طوال ، يقرأ في القيام الأول بعد الفاتحة سورة البقرة ، وفي الثاني آل عمران ، وفي الثالث النساء ، وفي الرابع المائدة ، ويسبّح في الركوع الأول قدر مائة آية من البقرة ، وفي الثاني قدر ثمانين ، وفي الثالث سبعين ، وفي الرابع خمسين ، ويسبّح في كل سجود على قدر الركوع الذي قبله ، ففي الأول قدر مائة وفي الثاني قدر ثمانين وهكذا .

وهناك أقوال أخر في الكيفية والمقدار كما هو مبسوط في كتب الشافعية . وهي عند الحنفية ركعتان كالنفل بركوع واحد . وأشار إلى جمع الجمار ليلاً ورميها نهاراً ، وهذه كلها على مذهب الشافعي . ولعله تعمد ذلك لأنه يخاطب فقيهاً شافعياً ، ولقد برع وأجاد وأبدع وزاد في تشبيه معشره بالجمار يجمعها ليلاً ويفرقها نهاراً .

ثم تصدّى لذكر البادية وحمد المقام فيها ، وانتقل إلى بيان من يحبهم في العراق وهجره أشياعه في حبهم فقال :

وبالعِرَاقِ رِجَالٌ قُرْبُهُمْ شَرَفٌ هَجَرْتُ[2] في حُبِّهِمْ رَهْطِي وأشياعي

على سِنِينَ تَقَضَّتْ عِنْدَ غَيْرِهِمُ أَسِفْتُ لا بَلْ عَلَى الأَيَّامِ والسَّاعِ

(١) كذا في الأصل وفي شروح السقط : « من معشر كجمار الرمي أجمعها » ؛ وجمار الرمي : الحصوات التي ترمى في مناسك الحج .

(٢) في شروح سقط الزند : « هاجرت » .

وخشي أبو العلاء أن يفهم أبو حامد من مدحه هذا أنه يبتغي ثواباً ، فبين له أنفته وشمائله ، وعرض عليه أخلاقه في صورة فتوى ، وأردف ذلك بالتلميح إلى قول ابن أسلت ، وهدية المسيّب ، وإرسال الفرزدق غلامه . بسط ذلك له حتى لا يُسبق إلى ظنه ما هو بعيد عنه ، وحتى يفهمه أن الحاجة التي يبتغيها عنده هي مودته ومعونته على إعادة السفينة ، وأنه يشكره ويدعو له وإن لم يُبْلِغْهُ مأمله . وهذا ما يريده بقوله :

اسْمعْ أبا حامدٍ فُتيا قَصَدْتُ بها ... مِنْ زائرٍ لَجميلِ الوُدِّ مُبتاعِ
مُؤَدّبِ النَّفْسِ أكّالٍ على سَغَبٍ ... لَحْمَ النّوائبِ شرّابٍ بأنْقاعِ (١)
أرْضي وأُنْصِفُ إلا أنّني رُبما ... أرْبَيْتُ غيرُ مُجيزٍ خرقَ إجْماعِ
وذاكَ أنّي أُعْطي الوَسْقَ مُنْتَحياً ... مِنَ المَوَدّةِ مُعْطي الوُدِّ بالصّاعِ (٢)
ولا أُثَقّلُ في جاهٍ ولا نَشَبٍ ... ولوْ غَدَوْتُ (٣) أخا عُدْمٍ وإدْقاعِ
مَنْ قالَ صادِقْ لِئامَ النّاسِ قُلْتُ لهُ ... قولَ ابنِ أسْلَتَ قدْ أبْلَغْتَ أسْماعي (٤)
كأنّ كُلَّ جوابٍ أنتَ ذاكِرُهُ ... شَنْفٌ يُناطُ بأُذْنِ السّامعِ الواعي
إنّ الهَدايا كَراماتٌ لآخِذِها ... إنْ كُنّ لَسْنَ لإسرافٍ وإطْماعِ

(١) جمع نِقع الماء : أي المستنقع يضرب للرجل الجوال (ج) .
(٢) الوسق : ستون صاعاً . (ج) وفي شروح السقط : « المُدّ بالصاع » .
(٣) في الشروح : « ولو عُدِدْتُ » ،
(٤) هو أبو قيس بن الأسلت ، صيفي بن عامر الأوسي ، شاعر حكيم اجتمع برسول الله (ص) ومات قبل أن يسلم ، يقول من قصيدة :

قالت ولم تقصد لقيل الخنا ... مهلاً فقد أبلغت أسماعي (ج)

وهي القصيدة (٧٥) من المفضليات . وفي شروح السقط : « قول ابن الأسلت ... »

وَلا هَدِيَّةَ عِنْدي غَيرَ ما حَمَلَتْ ... عَنِ المُسَيَّبِ أرْواحٌ لِقَعْقاعِ [١]

وَلَمْ أكُنْ وَرَسُولي حينَ أُرْسِلُهُ ... مِثْلَ الفَرَزْدَقِ في إرسالِ وَقّاعِ [٢]

مَطِيَّتي في مَكانٍ لَسْتُ آمَنُهُ ... على المَطَايا وَسِرْحانٌ لَهُ رَاعِ [٣]

فارْفَعْ بكَفِّي فإنّي طائشٌ قَدَمي ... وَامْدُدْ بِضَبْعي فإنّي ضَيِّقٌ باعي

وَما يكُنْ فَلَكَ الحَمْدُ الجَميلُ بِهِ ... وَإنْ أُضِيعَتْ فإنّي شاكِرٌ دَاعِ [٤]

إذا أمرّ الإنسان على ذاكرته منزلة أبي حامد في بغداد ، وتملق الشعراء في ذلك العهد ومغالاتهم في المدح ، ثم اعترض حالة أبي العلاء البصير الفقير الغريب ، وما يوهمه مدحه لمثل أبي حامد ، ثم أمعن النظر في هذه القصيدة ، ورأى ما فيها من الإشارات اللطيفة ، والاحتراس الدقيق ، تجلّى له أن أبا العلاء رأى ببصيرته ما يعتلج في الصدور ويدور في الأخلاد ، فاحترس أشد الاحتراس ، فلم يسرف في المدح ولم يغال في التملق ، وتلطف غاية التلطف في عرض حاجته بعد أن بين في فاتحة كلامه أنه زائر مبتاع لجميل الود ، مؤدب النفس محنك يقابل الود بأضعاف ،

(١) المسيب بن علس : خال أعشى قيس ، مدح القعقاع بن معبد التميمي فقال من قصيدة :

فلأهدينّ مع الرياح قصيدة ... مني مغلغلة إلى القعقاع (ج)

وهي القصيدة (١١) من المفضليات .

(٢) وقاع : غلام للفرزدق كان يراسل به في الجنايات (ج) .

(٣) مطيتي ، يريد سفينته . (ج) وفي شروح السقط : « ... لها راع » .

(٤) وفي شروح السقط : « الحمد الجزيل » .

ولا يثقل في جاه ولا نشب . ثم ختم كلامه بأنه يحمد الممدوح ويشكره سواء أنجح في قضيته أم أخفق . وإنما تعمد ذلك ليفهم الفقيه وغيرُه أنه لم يكن كغيره من الشعراء إذا نجح مدح وإذا أخفق قدح . ولم يعرفنا التاريخ ما لقيت هذه القصيدة من أبي حامد ، والظاهر أنها ذهبت كصيحة في واد .

أما السفينة فقد اجتهد آل حكار في إعادتها إليه ، وشكرهم على ذلك في قصيدة أنفذها بعد رجوعه إلى المعرة إلى خازن دار العلم في بغداد ، حيث يقول : [1]

وَعَنْ آلِ حَكّارٍ جَرى سَمَرُ العُلا بِأَكْمَلِ مَعْنًى لا انْتِقاصٌ ولا غَمْطُ

فَإِنْ يُنْسِهِمْ أَمْرَ السَّفِينَةِ فَضْلُهُمْ فَلَيْسَ بِمُنْسِيِّ الفِراقُ ولا الشَّحْطُ

أُولَئِكَ إِنْ يَقْعُدْ بِكَ الجاهُ يَنْهَضوا بِجاهٍ وإِنْ يُبْخَلْ بِنائِلَةٍ يُعْطُوا [2]

إلى أن يقول :

شَكَرْتُهُمُ شُكْرَ الوَلِيدِ بِفارِسٍ رِجالاً بِحِمْصٍ كانَ جَدَّهُمُ السِّمْطُ [3]

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦٩١ وآل حكار : قوم من آل بغداد كانوا خلصوه من العشارين .

(٢) في شروح السقط : « وإن يبخل بنافلةٍ » ، والرواية الأولى في التنوير ص ١٧٨ .

(٣) الوليد : البحتري ، شكر بني السمط ببيتين وهما :

جزى الله خيراً والجزاء بكفه بني السمط إخوان المكارم والمجد

هم وصلوني والتنائف بيننا كما ارفضّ غيث من تهامة في نجد

ويقال : إنهما لنهشل بن حري ولعله تمثل بهما . (ج) ، وبنو السمط : قوم من أهل حمص .

ولا خيرَ فيمَن ليس يَبسُطُ شُكرَهُ على القُلِّ إنَّ الخيرَ ناقتُهُ بِسْطُ[1]

وكان من عادة البغداديين أن يتعرفوا إلى من طرق ديارهم من الشعراء، وأن ينشدوه ويستنشدوه . وسيأتي في قصة الوزير المنازي أنه أنشده شعره في جملة من أنشده ، فقال له :

وَمَنْ بالعراق . . . .

وكانت لهم مجالس يتناشدون فيها الأشعار ، ويتذاكرون في الأدب ، ويبحثون فيها مع العلماء في فنون مختلفة . وسيأتي أنه كان يحضر مجتمعاً في يوم الجمعة ، وأنه كان في حلقة القاضي التنوخي ، فاعترض عليه في لفظ « بوح » . ومات الشريف أبو أحمد الموسوي فرثاه ، وعرف ابنيه الرضي والمرتضى ، وكان يغشى دار الكتب ودور العلم ويجتمع بخزنتها ، وأنهم أحضروا له دستور الخراج ليختبروا حفظه .

فهذه الأسباب التي عرفناها وغيرها مما أغفل التاريخ ذكره ، مهدت له السبيل إلى أن يخالط رجال العلم والأدب والفلسفة .

وقد قال البديعي في (أوج التحري) عند الكلام على دخوله بغداد[2] : « ولما دخلها تسامعت به أماثلها ، وأقبلت عليه أفاضلها ، ونظم بها قصائد لا يخلق جدتها مرور الدهور ولا يذهب بهجتها تكرار العصور ، منها القصيدة التي رثى بها الشريف أبا أحمد الموسوي . وذكر أنه نظم في بغداد قصيدته الضادية[3] :

مِنكَ الصُّدودُ ومِنّي بالصُّدودِ رِضى مَن ذا عَليَّ بِهذا في هواكِ قَضى

وكانوا يتغنون بها لحسنها ورقتها . . . » .

---

(١) ناقة بسط : لا يمنع منها ولدها (ج) .

(٢) أوج التحري – للبديعي . ص ١٨ .

(٣) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٦٥٤ ، وفي أوج التحري ص ٦ .

الذين عرفهم ببغداد

لا شك أن أبا العلاء عرف خلقاً كثيراً في بغداد من العلماء والأدباء والشعراء والكتاب، ولكن الذين عرفناهم منهم قلّ من كثر، منهم:

١ – القاضي أبو الطيب: طاهر بن عبد الله الطبري السابق ذكره قال:

«كتبت إلى أبي العلاء المعري الاديب حين وافى بغداد وكان قد نزل سويقة غالب (١):

وما ذاتُ درٍّ لا يَحِلُّ لحالبٍ ... تَنَاوُلُهُ واللحمُ منها مُحَلَّلُ

لِمَنْ شاء في الحالَيْنِ حيًّا ومَيّتاً ... ومَنْ شاء شُربَ الدَّرِّ فهو مُضَلَّلُ (٢)

إذا بلَغَتْ في السِّنِّ فاللحمُ طيبٌ ... وآكِلُهُ عندَ الجميعِ مُعقَّلُ (٣)

وخِرفانُها في الأكلِ فيها كراهةٌ ... فما لِسَخِيفِ الرَّأيِ فيهنَّ مأكلُ (٤)

وما يَجْتَني مَعْناهُ إلاّ مُبرِّزٌ ... عليمٌ بأسرارِ القلوبِ مُحَصِّلُ

فأجابني وأملى على الوسول في الحال ارتجالاً (٥):

جوابانِ عن هذا السُّؤالِ كلاهُما ... صوابٌ وبعضُ القائلينَ مُضَلَّلُ

(١) الوفيات ١ / ٢٩٢، ابن الوردي ١ / ٣٦١، بدائع البدائه ٢٠٤، شذرات الذهب ٣ / ٢٨٥، أوج التحري [ص ٣٠] (ج).

(٢) رويت هذه الأبيات بروايات مختلفة، وفي بعضها: «فمن رام شربَ الدر» (ج).

(٣) روي: «طعنت في السن». عند الجميع «مغفل» (ج).

(٤) روي: «.. للاكل منها كزازة فما لحصيف الرأي ...» (ج).

(٥) الأبيات مما لم يرو في الديوانين.

فَمَنْ ظَنَّهُ كَرْماً فَلَيْسَ بِكاذِبٍ ... وَمَنْ ظَنَّهُ نَخْلاً فَلَيْسَ يُجَهَّلُ
لُحُومُهما الأعْنابُ والرُّطَبُ الذي ... هُوَ الحَلُّ والدَّرُّ الرَّحيقُ المُسَلْسَلُ
ولكِنْ ثِمارُ النَّخْلِ وهِيَ غَضِيضَةٌ
تُعافُ[1] وغُصْنُ الكَرْمِ يُجْنَى ويُؤكَلُ
يُكَلِّفُنا القاضِي الجليلُ مَسائِلاً ... هِيَ النَّجْمُ قَدْراً بَلْ أعَزُّ وأطْوَلُ
ولَوْ لَمْ أُجِبْ عنها لَكُنْتُ بِجَهْلِها ... جَدِيراً ولكِنْ مَنْ يُجِيبُكَ[2] يُقْبَلُ

فأجبته ثانياً بقولي :

أثارَ ضَمِيري مَنْ يَعِزُّ نَظِيرُهُ ... مِنَ النّاسِ طُرّاً بَلْ أعَزُّ وأفْضَلُ
تَساوَى لهُ سِرُّ المَعالي وجَهْرُها ... وسائِرُها بادٍ لَدَيْهِ مُفَصَّلُ
ومَنْ قَلْبُهُ كُلُّ العُلومِ بأسْرِها ... وخاطِرُهُ في حَدِّهِ النّارُ يَشْعَلُ
ولما أثارَ الحُبُّ قادَ صَنِيعُهُ ... أسيراً بأنواعِ البيانِ يُكَبَّلُ[3]
وقَرَّبَهُ مِنْ كُلِّ فَهْمٍ بِكَشْفِهِ ... وإيضاحِهِ حَتَّى رَآهُ المُغَفَّلُ

---

(١) يروى : « وهي رطيبة ... تمرٌ . . . . . »
وهكذا روي « غصن » ، ويجوز أن يكون وغض الكرم ، ولكني لم أرمن ذكره (ج)
وفي أوج التحري ص ٣١ : « وغض »
(٢) يروى « من يودك » (ج) الأوج ص ٣٠ .
(٣) كذا في الأصل ، وفي تعريف القدماء ص ٢١٣ عن تتمة المختصر — لابن الوردي « ولما أثار الحبُّ قادى معينه » .

وأعجبُ منهُ نظمُهُ الدُّرَّ مُسرِعاً ... ومُرتجلاً مِنْ غيرِ ما يتمهَّلُ
فيَخرُجُ مِنْ بحرٍ ويَسمو مكانُهُ ... جلالاً إلى حيثُ الكواكبُ تنزِلُ
فهنّأهُ اللهُ الكريمُ بفضلِهِ ... مَحاسِنَهُ والعُمْرُ فيها مُطوَّلُ

فأجابني مرتجلاً وأملاه في الحال :

ألا أيُّها القاضِي الذي بَدهاتُه ... سُيوفٌ على أهلِ الضَّلالِ تسلَّلُ (١)
فُؤادُكَ معمورٌ منَ العِلْمِ آهِلٌ ... وجدُّكَ في كلِّ المسائلِ مُقبِلُ
فإنْ كُنتَ بينَ النّاسِ غيرَ مُموَّلٍ ... فأنتَ مِن الفهمِ المصونِ مُموَّلُ
إذا أنتَ خاصمتَ الخصومَ مُجادلاً ... فأنتَ، وهُم مثلُ الحمائمِ، أجدَلُ (٢)
كأنّكَ علمُ الشّافعيِّ مُخاطباً ... ومِنْ قلبِهِ تُملي فما تتمهَّلُ (٣)
وكيفَ يُرى علمُ ابنِ إدريسَ دارساً ... وأنتَ بإيضاحِ الهُدى مُتكفِّلُ
تفضَّلتَ حتّى ضاقَ ذَرعي تكرُّماً ... وقُلتَ وكفّي عنْ جوابِكَ أجمَلُ (٤)
لأنَّكَ في كُنهِ الثّريّا فصاحةً ... وأعلى، ومَنْ يَبغي مكانَكَ أسفَلُ

---

(١) وفي تتمة المختصر – لابن الوردي – : « بدهاته .. على أهل الخلاف » ، تعريف القدماء ص ٢١٤ .
(٢) وفي تتمة المختصر – لابن الوردي : « خاطبت » . والأجدل : الصقر .
(٣) وفي تتمة المختصر – لابن الوردي : « كأنك من في الشافعي مخاطبٌ » .
(٤) وفي تتمة المختصر – لابن الوردي : « ... بشكر ما فعلت ... » .

فَعُذْرِيَ في أنّي أجبتُكَ واثقاً ... بفضلِكَ فالإنسانُ يسهو ويَذْهَل[1]

وأخطأتُ في إنفاذِ رُقعتِكَ التي ... هي المجدُ لي منها أخيرٌ وأوّلُ

ولكنْ عداني أنْ أرومَ احتفاظَها ... رَسُولُكَ وهْوَ الفاضِلُ المتفضِّلُ

ومِنْ حقِّها أنْ يُصبحَ المِسْكُ غامِراً ... لها، وهي في أعلى المنازلِ تُجْعَلُ[2]

فمَنْ كانَ في أشعارِهِ مُتَمَثِّلاً ... فأنتَ امرؤٌ في العِلْمِ والشِّعْرِ أمْثَل

تَجَمَّلَتِ الدُّنيا بأنّكَ فوقَها ... ومثلُكَ حقاً مَنْ بِهِ يُتَجَمَّلُ ..».

٢ — ومنهم أبو أحمد عبد السلام بن الحسين المعروف بالواجكا البصري .

قال في البغية ص ٣٠٥ : «عبد السلام بن الحسن[3] بن محمد البصري اللغوي أبو أحمد القرمبسي ، ويلقب بالواجكا ، كان عالماً باللغة والآداب والقرآن صدوقاً أديباً سخيا ، قرأ على الفارسي والسيرافي وسمع محمد بن إسحاق التمار وغيره ، ومات في المحرم سنة ٣٢٩ هـ» وعلى هذه الرواية تكون وفاته قبل ولادة أبي العلاء بأربع وثلاثين سنة .

والصواب ما قاله الخطيب البغدادي[4] ج ١١ ص ٥٨ : عبد السلام بن الحسين بن محمد أبو أحمد البصري اللغوي ، سكن بغداد وحدث بها عن محمد ابن إسحق التمار وجماعة من البصريين .. وكان صدوقاً عالماً أديباً قارئاً للقرآن عارفاً بالقراءات ، وكان يتولى ببغداد النظر في دار الكتب ، وإليه

---

(١) وفي تتمة المختصر — لابن الوردي : « والإنسان » .

(٢) وفي تتمة المختصر — لابن الوردي : « المواضع » .

(٣) كذا في الكامل والتنوير ، وذكره في البغية في ترجمة أبي العلاء بن الحسين (ج) .

(٤) انظر تاريخ بغداد .

حفظها والإشراف عليها ، سمعت أبا القاسم عبيد الله بن علي الرقي الأديب يقول : كان عبد السلام البصري من أحسن الناس تلاوة للقرآن وإنشاداً للشعر ، وكان سمحاً سخيا ، وربما جاءه السائل وليس معه شيء يعطيه فيدفع إليه بعض كتبه التي لها قيمة كثيرة وخطر كبير . . وتوفي يوم الثلاثاء في التاسع عشر من المحرم سنة ٤٠٥ هـ ، وكان مولده سنة ٣٢٩ هـ كما قال البطليوسي وغيره . وترجمته في (نزهة الألباء) ص ٤١٢ قريبة من هذه ، فلعل السيوطي اشتبه عليه المولد بالوفاة ، أو وقع في النسخة نقص في العبارة . وهذا أقرب . ولم يذكر الواجكا غير السيوطي ، وفي فهرست أبي الخير الاشبيلي : قال أبو بكر المصحفي ، قال لي الفقيه الراوية أبو الحسن علي بن إبراهيم في بعض ما كان يخبرني به : أكبر من لقيت من رواة كتب اللغة والنحو والتفسير والأخبار ونوادر العرب وأيامها الشيخ أبو أحمد عبد السلام بن الحسين البصري وكان راوية بغداد يومئذ .

وقد ذكره أبو العلاء في (رسالة الغفران) ص ١٨٤ حيث قال [١] : «وقد شاهدت عند أبي أحمد عبد السلام بن الحسين المعروف بالواجكا رحمه الله ، فلقد كان من أحرار الناس ، كتباً عليها سماع لرجل من أهل حلب . .» وذكره في قصيدة أرسلها إلى أبي القاسم علي التنوخي ، وكان حمل إليه وهو ببغداد جزءاً من أشعار تنوخ في الجاهلية ، فتركه أبو العلاء عند عبد السلام البصري وسأله أن يردّه إلى أبي القاسم فقال :

أُهْدِي السَّلامَ إلى عَبْدِ السَّلامِ فَمَا يَزالُ قَلْبِي إِلَيْهِ الدَّهْرَ مَلفوتا [٢]

---

(١) رسالة الغفران تحقيق بنت الشاطئ. ط ١ س ٤٨٦ .

(٢) رواه القفطي : تحقيق عبد السلام « فلي جيد إلى نحوه مازال ملفوتا » . (ج)
والبيتان من قصيدة في شروح سقط الزند : ق ٤ س ١٦٤٣ .

سَأَلْتُهُ قَبْلَ يَوْمِ السَّيْرِ مَبْعَثَهُ إِلَيْكَ دِيوانَ تَيْمِ اللاَّتِ مَالِيَتَا؟[١]

وذكره مرة ثانية في (السقط)، ولكنه لم يصرح باسمه وإنما كنى عنه بالثقة في قوله من قصيدة أرسلها إلى التنوخي: [٢]

وَحَمْلُكَ الشِّعْرَ مِنْ أَشْعَارِ طَائِفَةٍ وَحْشِيَّةٍ مِنْ تَنُوخٍ تُنْكِرُ الجُدُرَا
جُزْءٌ بِدَرْبِ جَمِيلٍ فِي يَدَيْ ثِقَةٍ سَأَلْتُهُ رَدَّ مَضْمُونٍ إِذَا قَدَرَا

وكان أبو العلاء يكثر إقامته عنده أيام كان ببغداد، ويظهر من أقواله أن عبد السلام كان في درب جميل بالكرخ، بدليل قوله السابق: جزء بدرب جميل.. وأنه كان يجتمع به في كل جمعة بدليل قوله: [٣]

تُهَيِّجُ أَشْوَاقِي عَرُوبَةُ إِنَّهَا إِلَيْكَ ذَوُو تَنِي عَنْ حُضُورٍ بِمَجْمَعِ

وفي (التنوير) ج ٢ ص ١٢١: وقال، وهو محتجب بمعرة النعمان يخاطب خازن دار العلم ببغداد، ويصف حال الفتنة بالشام، وأمر الزورق، ثم ذكر قصيدته الطائية التي يقول فيها: [٤]

أَخَازِنَ دَارِ العِلْمِ كَمْ مِنْ تَنُوقَةٍ أَتَتْ دُونَنَا فِيهَا العَوَازِفُ وَاللَّغَطْ

وقد ذكر جماعة كالميمني [٥]، أن المراد بخازن دار العلم عبد السلام. وليس في القصيدة مايدل دلالة صريحة على ذلك، وإن كان عبد السلام

---

(١) تيم اللات: مجتمع تنوخ في النسب (ج).
(٢) شروح سقط الزند: ق ٤ ص ١٧٣٨ وفيها: «وحملك الجزء».
(٣) شروح سقط الزند: ق ٤ ص ١٥٨٣.
(٤) انظر ما سبق ص ٩ الحاشية (٤).
(٥) أبو العلاء وما إليه — الميمني — ص ١٢١.

خازن دار العلم ، بل في أبياتها مايدل على أن المراد غيره ، لأنه يذكر فيها فتنة طائية عامرية امتدت من الفرات الى مصر ، وأظنه يريد بها الفتنة التي أثارها صالح بن مرداس الكلابي من بني عامر بن صعصعة ، وحسان أمير طيء ، وسنان بن عليان ، واتفقوا على أن يكون لصالح من حلب إلى عانة ، ولحسان من الرملة الى مصر ، ولسنان دمشق ، ثم وقع ماوقع من الحروب التي ذكرناها في سنة ٤١٤ ﻫ فما بعدها . وقد قدمنا عن الخطيب البغدادي و (نزهة الألباء) أن عبد السلام توفي سنة ٤٠٥ ﻫ ، فلعله يشير إلى فتنة غير هذه ، أو أن هذه الفتنة ابتدأت في سنة ٤٠٤ ﻫ ثم استفحل أمرها بعد ذلك . وجاء في (التنوير) أيضاً ج ٢ ص ١٠١ : « وقال يخاطب أبا أحمد عبد السلام بن الحسين البصري صاحب الدولة » ، ثم ذكر قصيدته العينية .

ولم أعلم ما أراد بهذه الدولة، ولارأيت أحداً ذكرها غيره، وقال الخوارزمي والبطليوسي [١] : وقال أبو العلاء يخاطب أبا أحمد عبد السلام بن الحسين البصري صاحب الرواية ، وكان يكثر الجلوس عنده أيام إقامته ببغداد .

وقال القفطي [٢] : وحضر خزانة الكتب التي بيد عبد السلام البصري ، وعرض عليه أسماءها ، فلم يستغرب فيها شيئاً لم يره في دور العلم بطرابلس سوى (ديوان تيم اللات) ، فاستعاره منه ، وخرج عن بغداد ، وقد سها عن إعادته ، ولم يذكره حتى صار بالمعرة فأعاده إليه ، وفي صحبته القصيدة الثانية التي أولها :

هاتِ الحديثَ عنِ الزَّوْراءِ أوهِيتا ومُوقَدِ النَّارِ لا تَكْرَى بتكريتا

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦٤٦ الحاشية .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٢ عن إنباه الرواة — للقفطي ، وفي شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦٣٠ .

ويقول فيها :

إقْرَ السَّلامَ على عَبْدِ السَّلامِ فَلي ... جِيدٌ إلى نَحْوِهِ ما زالَ مَلفوتا[١]

وذكر فيها (ديوان تيم اللات) فقال :

سَأَلْتُهُ قَبْلَ يَوْمِ السَّيْرِ مَبْعَثَهُ ... إليكَ ديوانَ تَيْمِ اللاَّتِ ما إيتَا؟

هذا ماقاله القفطي . وفيه خطأ من وجوه .

أولها : ماقدمنـــاه من أنه لم يكن في طرابلس دار للكتب في عهد أبي العلاء .

ثانيها : أن أبا العلاء استعار (ديوان تيم اللات) من أبي القاسم التنوخي ، وأودعه عبد السلام ، ورغب إليه أن يرده إلى صـــاحبه ، وأنه لم يصحبه إلى المعرة .

ثالثها : أن القصيدة التائية المذكورة إنما قالها في التنوخي لا في عبد السلام ، لأنه يقول فيها :

إلى التَّنوخيِّ واسأَلْهُ أُخُوَّتَهُ ... فَقَبْلَهُ بالكرامِ الغُرِّ أوخيتا

يا بْنَ الُمحَسِّنِ ما أُنسيتَ مَكْرُمَةً ... فاذكُرْ مَوَدَّتَنا إِنْ كُنْتَ أُنسيتا

ثم يقول فيها :

إقر السلام على عبد السلام ... .

ويقول بعده :

سَأَلْتُهُ قَبْلَ يَوْمِ السَّيْرِ مَبْعَثَهُ ... إليكَ ديوانَ تيم اللاَّت . . .

وهذا عجيب من القفطي .

وقال في (الوفيات) ج ٢ ص ٤٦٢ في ترجمة أبي محمد يوسف بن أبي سعيد

(١) انظر ما سبق ص ١٢٢ حاشية ٢ .

الحسن السيرافي : قال أبو العلاء المعري : حدثني عبد السلام البصري خازن دار العلم ببغداد ، وكان لي صديقاً صدوقاً ، قال : كنت في مجلس أبي سعيد السيرافي ، وبعض أصحابه يقرأ عليه (إصلاح المنطق) لابن السكيت ، فمضى ببيت حميد بن ثور وهو :

وَمَطْوِيَّةُ الأَقْرابِ أَمَّا نَهارُها فَسَبْتٌ وأَمَّا لَيْلُها فَذَمِيلُ

فقال أبو سعيد : ومطويةٍ : أَصْلِحْهُ بالخفض ! ثم التفت الينا فقال : وَاوُ رُبَّ . فقلت : أطال الله بقاء القاضي إن قبله مايدل على الرفع ، فقال : وما هو ؟ فقلت :

أَتاكَ بِيَ اللهُ الذي أَنْزَلَ الهُدى وَنُورٌ وإِسْلامٌ عَلَيْكَ دَلِيلُ
ومطويَّةُ الأقراب . . . .

فعاد وأصلحه . وروي عنه غير هذا ، فتوهم بعض العلماء والمؤرخين ، كالسيوطي في (البغية) ، والخضر الموصلي في (الإسعاف في شرح أبيات الكشاف) ، أنه سمع أو قرأ على عبد السلام وهو غير صحيح .

وقد ظن الأستاذ الميمني (١) أن الواجكا خازن خزانة الخلفاء . وقد تقدم مايدحضه ، وقال البطليوسي في (شرح السقط) صفحة ١٦٧٣ : « ويعني بخازن دار العلم هلال بن المحسّن الصابي ، وكان شيخ بغداد في عصره » . وأظنه قد وهم ، إذ لم يثبت اجتماعه بأبي العلاء في بغداد . ولو اجتمع به لذكره في كتبه وأسفاره .

---

(١) أبو العلاء وما إليه ــ للميمني ــ ص ١١٥ .

٣ — ومنهم القاضي التنوخي .

وهو أبو القاسم علي بن المحسّن التنوخي ولد سنة ٣٥٥ (١) ، وكان شيعياً معتزلياً ، ساكناً وقوراً ، ثقة في الحديث متحفظاً في الشهادة محتاطاً ، صدوقاً ، ظريفاً ، جيد النادرة . ولي القضاء في نواح كثيرة وتوفي سنة ٤٤٧ هـ .

وقد ذكر العلماء أنه قرأ على أبي العلاء شعره أو ديوان شعره ، ومنهم من قال : أخذ عنه . ولم أر من قال : إنه قرأ عليه (سقط الزند) فقط . على أن في (سقط الزند) ماقيل بعد رجوع أبي العلاء من بغداد ، ومنه قصائد أرسلها إلى التنوخي هذا ، وكان يزور أبا العلاء في القطيعة ، كما قال (٢) :

أيامَ واصلْتَني ودًّا وتكرُمَةً   وبالقَطِيعةِ داري تحضُرُ النُّهرا

وحمل إلى أبي العلاء جزءاً من أشعار تنوخ في الجاهلية ، كان أبوه المحسّن جمعه ، فلمّا رحل أبو العلاء إلى المعرة ترك الجزء عند عبد السلام البصري ليوصله الى أبي القاسم . وكتب إليه من المعرة قصيدة يذكر فيها الجزء حيث يقول :

سَألتُهُ قبلَ يوم السَّيْرِ مَبْعَثَهُ   إليْكَ ديوانَ تَيْمِ اللاّتِ ماليتا؟

وقد تقدم ذلك ، وذكر هذا الجزء في قصيدة ثانية يقول فيها :

---

(١) وقيل ولد سنة ٣٦٥ هـ ، وتجد ترجمته وشيئاً من أخباره في (ياقوت) ج ٥ س ٣١٠ ، وتاريخ بغداد ج ١١ ص ١١٥ ، ونزهة الألباء والوفيات ج ١ ص ٥٦٥ ، والفوات ص ٦٨ ، والشذرات ج ٣ ص ١١٣ ، وابن الوردي ج ٢ ص ٣٥٧ ، ولسان الميزان (ج) .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٣٣٧ .

وحملكَ الشِّعْرَ مِنْ أشْعارِ طائفةٍ ... وحْشِيّةٍ من تَنُوخ تُنكِرُ الجُدُرا (١)

إلى أن قال :

وكَمْ بعثْتُ سُؤالاً كاشفًا نبأً ... عَنْهُ فلمْ أقضِ مِنْ علمي به وطرا

وفي التنوير ج ٢ ص ٦٦ : وقال ببغداد يهنىء أبا القاسم بن القاضي التنوخي بولوده ، ثم ذكر قصيدة يقول فيها : (٢)

كُنِيٌّ مُحمَّدٍ نَسَبي مُفيدي ... ودادُكَ والهوى أمْرٌ بَدِيٌّ

عُلُوٌّ زائدٌ بأبي عَلِيٍّ ... أتاكَ بفضلِهِ اللهُ العَلِيُّ

فعاشَ مُحمَّدٌ عُمرَ الثُّرَيّا ... فإنَّ ثرى الكرامِ به ثَرِيُّ

يريد بقوله : كني محمد ، أبا القاسم . وبنسبي : نسبته الى تنوخ ، وبأبي علي : كنية المولود ، ومحمد اسمه ، وقوله بعد ذلك فيها :

إذا نأتِ العِراقَ بنا المطايا ... فلا كُنّا ولا كانَ المَطِيُّ

علَى الدُّنيا السّلامُ فما حياةٌ ... إذا فارقْتُكمْ إلاّ نَعِيُّ (٣)

يشعر بأنه قال هذه القصيدة وهو في بغداد . وقد ذكر ياقوت في ترجمة أبي القاسم ، أنه ولد له ولد من جاريته سنة ٤٤٠ هـ وهو أبو الحسن محمد بن علي . والمذكور في الأبيات أبو علي محمد ، فلعله أكبر أولاده فتأمل .

---

(١) انظر ما سبق ص ٢٣٦ الحاشية ٢ .

(٢) وفي شروح السقط ق ٣ ص ١٣٢٣ .

(٣) وفي شروح السقط ق ٣ ص ١٣٣١ : « إلا النّعِيُّ » .

٤ — ومنهم الشريف المرتضى .

أبو القاسم علي بن الطاهر أبي أحمد الحسين بن موسى .. العلوي ولد سنة ٣٥٥ هـ ، وتوفي في بغداد سنة ٤٣٦ هـ ، وكان إماماً في علم الكلام والأدب والشعر ، وكان نقيب الطالبيين بعد أبيه أبي أحمد الموسوي . قيل : إنه هو الذي جمع (نهج البلاغة) ، وقيل : جمعه أخوه الرضي . وله الكتاب الذي سماه (الغُرَر والدُرَر) وهو مجالس أملاها في فنون من معاني الأدب[1].

وقد ذكر كثير من المؤرخين اجتماع أبي العلاء بالمرتضى أكثر من مرة ، ولكن لم يعين واحد منهم تاريخ كل اجتماع ليتسنى لنا ربط الحوادث وترتيبها ، ومنهم من جمع بين النقاءين فصيّرهما واحدا . ونحن نذكرها على حسب مايتراءى لنا ترتيبه .

الاجتماع الاول

قال ياقوت ج ١ ص ١٦٩ : ودخل على المرتضى ، فعثر برجل ، فقال : من هذا الكلب ؟ فقال المعري : الكلب من لايعرف للكلب سبعين اسما[2]. وسمعه المرتضى ، فاستدناه واختبره ، فوجده عالماً مشبعاً بالفطنة والذكاء ، فأقبل عليه إقبالاً كثيراً وهذا يدل على أنه لم يعرفه من قبل . ويؤيد ذلك مافي

---

(١) ترجمته في (الوفيات) وتاريخ بغداد والخزانة لابن حجة ٢٣١ وفي (أوج التحري) أنه توفي عن ثمانين سنة ص ٢٤ (ج) .

(٢) وهي مذكورة في نزهة الألباء ، والبغية ، ومعاهد التنصيص ص ٦٠٣ ، وحياة الحيوان ج ٢ ص ٢٣٠ ، وفي طبقات النحاة واللغويين ص ١٦٩ : أنه سرد أسماءها وقد تتبع السيوطي اللغة فحصل أكثر من ستين اسماً للكلب ، فنظمها في أرجوزة سماها (التبري من معرة المعري) كما قال في كشف الظنون ، ومنها نسخة بخزانة برلين ، وأخرى في بانـكي بور في الهند ، وثالثة في حيدرآباد ، ونسختان في مصر ، وقد طبعت فيها في كتاب تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٢٩ (ج).

(أوج التحري) ، أنه أول مادخل عليه قبل معرفة المرتضى . وذكر ابن العديم عن أبيه عن أسلافه [١] ؛ أنه اتفق يوم وصول أبي العلاء إلى بغداد وفاة الشريف الطاهر والد الرضي والمرتضى ، فدخل الى تعزيتها ، والمجلس غاص بأهله ، فتخطّى بعض الناس ، فقال له بعضهم ولم يعرفه : إلى أين يا كلب ! فقال : الكلب ... ، ثم جلس في أخريات المجلس ، إلى أن قام الشعراء وأنشدوا ، فقام وأنشد قصيدته الفائية التي أولها :

أودَى فَلَيْتَ الحادثاتِ كَفَافِ ... مالُ المسيفِ وعَنْبَرُ المسْتافِ [٢]

يرثي بها الشريف المذكور ، فلما سمعها ولداه قاما إليه ورفعا مجلسه ، وقالا له : لعلك أبو العلاء المعري ، قال : نعم . فأكرماه واحترماه . ثم طلب أن تعرض عليه الكتب التي في خزائن بغداد ، فأدخل إليها ، وجعل لايقرأ عليه كتاب إلا حفظ جميع مايقرأ عليه . وفي (مسالك الأبصار) نحو [٣] من هذا . فهذه الرواية والتي قبلها تفيدان أن العثور برجل وقوله : الكلب من لايعرف ... في أول اجتماعه بالمرتضى وتعرفه إليه . ولا يبعد أن يكون أول دخوله على الشريف كان يوم التعزية بأبيه سنة ٤٠٠ هـ . ولكن قول ابن العديم : واتفق يوم وصوله إلى بغداد موت الشريف .. ، إلى آخره غير صحيح لأن المرجح أنه دخل بغداد قبل ذلك كما قدمنا .

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٤٣ عن الانصاف والتحري — لابن العديم .
(٢) البيت مطلع قصيدة في شروح سقط الزند : ق ٣ س ١٢٦٤ ، ومالُ المسيف : أي مالُ من ذهب ماله ، والمستاف : الشامُّ .
(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٢٣ عن مسالك الأبصار — للعمري .

الاجتماع الثاني

قال في (المعاهد) ص ٦٠٣ : إن أبا العلاء كان يتعصب المتنبي ، وشرح ديوانه ، وسماه (معجز أحمد) ، فحضر يوما مجلس الشريف المرتضى ، فجرى ذكر المتنبي ، فهضم المرتضى من جانبه ، فقـــال المعري : لو لم يكن له من الشعر إلا قوله :

لَكِ يامَنازِلُ في القُلُوبِ مَنازِلُ . . . .

لكفاه فغضب المرتضى وأمر بسجنه [بسحبه] وإخراجه ، وقال للحاضرين : أتدرون ماعنى هذا بذكر هذا البيت ؟ قالوا : لا . قال عنى به قول المتنبي :

وإذا أتَتْكَ مَذَمّتي مِنْ ناقِصٍ فهِيَ الشّهادَةُ لي بأنّي كامِلُ

وأوردها ابن حجة في (الخزانة) ٢٣٠ على هذا النحو ، وكثير ممن جمع هذه الحادثة إلى حادثة عثوره برجل ، وقوله : الكلب من لا .. كياقوت و (البغية) والدميري ، ومنهم من أفرد كل واحدة ، (كالمعاهد) و (النزهة) و (الصبح المنبي) و (أوج التحري) ، ولا يبعد أن تكونا حادثتين في وقتين لقول صاحب (المعاهد) : فحضر يومـــاً . وفي (الوافي بالوفيات) و (نكت الهميان) بعد أن ذكر هذه الحادثة ، أي عثوره برجـــل وقوله الكلب[١] : « وكان المعري يتعصب لأبي الطيب . والمرتضى يبغضه ويتعصب عليه ، فجرى ذكره يوما .. » وكثير ممن قال ذلك .

الاجتماع الثالث أو الأخير

روى أبو منصور الطبرسي في (الاحتجاج) [٢] أن أبا العلاء دخل

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٦٧ و ٢٨٧ عن الوافي بالوفيات ونكت الهميان .
(٢) هو أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي من رجال المائة الخامسة وأدرك أوائل السادسة . له كتاب (الاحتجاج) في حجـــاج الشيعة مـــع مخالفيهم . (ج) والخبر في تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٨٠ عن الاحتجاج .

على المرتضى ، فقال : أيها السيد ! ما قولك في الكل ؟ فقال السيد : ماقولك في الجزء ؟ فقال : ما قولك في الشعرى ؟ فقال : ما قولك في التدوير ؟ فقال : ما قولك في عدم الانتهاء ؟ فقال : ما قولك في التّحيّز والناعورة ؟ فقال : ما قولك في السَبْع ؟ فقال : ماقولك في الزائد البري على السبع ؟ فقال : ماقولك في الأربع ؟ فقال . ماقولك في الواحد والاثنين ؟ فقال : ماقولك في المؤثر ؟ فقال : ماقولك في المؤثّرات ؟ فقال : ماقولك في النّحْسَيْن ؟ فقال : مـاقولك في السّعْدَيْن ؟ فبهت أبو العلاء ، فقال السيد المرتضى عند ذلك : ألا كل ملحـد ملهد ، فقال أبو العلاء : من أين أخذته ؟ قال : من كتاب الله عز وجل : ﴿ يابُنَيَّ لاتُشْرِكْ باللهِ إنَّ الشِّرْكَ لظُلْمٌ عظيم[١] ﴾ . ثم قام وخرج ، فقال السيد : قد غاب عنا الرجل ، وبعد هذا لا يرانا . فسئل السيد عن شرح هـذه الرموز والاشارات ، فقـال : سألني عن الكل ، وعنده الكل قديم ، ويشير بذلك إلى عالمٍ سماه العالمَ الكبير ، فقال لي : ما قولك فيه ؟ أراد أنه قديم ، فأجبته عـن ذلك ، وقلت له : ما قولك في الجزء ؟ لأن الجزء عندهم محدث ، وهو متولد عن العالم الكبير ، وهذا الجزء عندهم هو العالم الصغير ، و كان مرادي بذلك أنه إذا صح أن هذا العالم محدَث ، فذلك الذي أشار إليه ، إن صح فهو محدث أيضا ، لأن هذا من جنسه على زعمه ، والشيء الواحد والجنس الواحد لا يكون بعضه قديما وبعضه محدثا ، فسكت لما سمع ما قلته .

وأما الشعرى : أراد أنها ليست من الكواكب السيارة ، فقلت له

(١) سورة لقمان / ١٣ .

ماقولك في التدوير ؟ أردت أن الفلك في التدوير والدوران ، والشعرى لايقدح في ذلك [١] .

وأما عدم الانتهاء : أراد بذلك أن العالم لاينتهي لأنه قديم ، فقلت له : قد صح عندي التَّحَيُّز والتدوير ، وكلاهما يدلان على الانتهاء .

وأما السَّبْع : أراد بذلك النجـوم السيارة التي هي عندهم ذوات الأحكام ، فقلت له : هذا باطل بالزائد البري الذي يحكم فيه بحكم لايكون ذلك الحكم منوطا بهذه النجوم السيارة التي هي : الزهرة ، والمشتري ، والمريخ ، وعطارد ، والشمس ، والقمر ، وزحل .

وأما الأربع : أراد بها الطبائع ، فقلت له : ما قولك في الطبيعة الواحدة النارية يتولد منها دابة بجلدها تمس [٢] الأيدي ثم يطرح ذلك الجلد على النار فتحرق الزُّهومات [٣]، فيبقى الجلد صحيحا لأن الدابة خلقها الله على طبيعة النار ، والنار لاتحرق النار ، والثلج أيضا تتولد فيه الديدان وهو على طبيعة واحدة ، والماء في البحر على طبيعتين ، يتولد منها السموك والضفادع [٤] والحيات والسلاحف وغيرها ؟ وعنده لايحصل الحيوان إلا بالأربع ، فهذا مناقض بهذا .

---

(١) هكذا في الأصل ، وهو غير واضح فلعل أصله ، والشعرى لاتخرج عن ذلك أو نحوه ، فتأمل (ج) .

(٢) لعل أصلها تمس أي تمسح ، ولعل هذه الدابة هي التي يسمونها السمندل (ج) .

(٣) الزهومة والزهمة بالضم : ريح لحم سمين منتن .

(٤) في نسخة : « الضفدع » (ج) .

وأما المؤثّر : أراد به الرجل ، فقلت له : ماقولك في المؤثّرات ؟ أردت بذلك أن المؤثّرات كلهن عنده مؤثرات ، فالمؤثر القديم كيف يكون مؤثراً .

وأما النَّحْسَيْن : أراد أنها من النجوم السيارة ، إذا اجتمعا يخرج من بينها سعد ، فقلت له ماقولك في السعدين اذا اجتمعا خرج من بينهما نحس ؟ هذا حكم أبطله الله تعالى ، ليعلم الناظر أن الأحكام لاتتعلق بالمسخرات ، لأن الشاهد يشهد أن العسل والسكر إذا اجتمعا لايحصل منها الحنظل والعلقم ، والحنظل والعلقم إذا اجتمعا لايحصل منها الدبس والسكر ، هذا دليل على بطلان قولهم .

وأما قولي : ألا كلُّ ملحد ملهد ، أردت أن كل مشرك ظالم ، لأن في اللغة ألحد الرجل : إذا عدل عن الدين . وألهد : إذا ظلم . فعلم أبو العلاء ذلك ، وأخبرني عن علمه فقرأت ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ ... ﴾ ، الآية . وقيل : إن المعري لما خرج عن العراق سئل عن السيد المرتضى ، فقال :

يَاسَائِلي عَنْهُ لمَّا جِئْتُ أَسْأَلُهُ ... أَلاهُوَالرَّجُلُ العاري عَنِ العارِ[1]

لَوْ جِئْتَهُ لرَأَيْتَ النّاسَ في رَجُلٍ ... والدَّهْرَ في ساعَةٍ والأَرْضَ في دارِ

وهذان البيتان لم يذكرا في ديوانيه ، ولا رأيتها في غير هذا المكان .

ومنهم علي بن عيسى بن فرج بن صالح الربَعي :[2] ولد سنة ٣١٨ هـ وتوفي سنة ٤٢٠ هـ في بغداد عن نيف وتسعين سنة ، وكان

---

(١) وفي تعريف القدماء بأبي العلاء وفي (أبو العلاء وما إليه) : « العاري من العار » .

(٢) ترجمته في تاريخ بغداد ١٢ / ١٨ ، ومعجم الأدباء ٥ / ٢٨٧ ، والبغية ٣٤٤ ، والوفيات ، والكامل (ج) .

من أكابر النحاة ، درس على أبي علي الفارسي في شيراز عشرين سنة تقريبا ، وعاد إلى بغداد . وقد ذكروا له قصصاً تدل على أنه كان مجنونا أوقريباً من المجنون ، منها : أنه شرح (كتاب سيبويه) ثم نازعه تاجر في مسألة ، فجعل الشرح في إجّانة [1] وصب عليه الماء ، وجعل يَلْطم به الحيطان ، ويقول : لا أجعل أولاد البقالين نحاة .

وسأل أولاد الأكابر الذين يحضرون مجلسه أن يمضوا معه إلى كلواذي ، فركبوا خيولهم وهو يمشي بين أيديهم ، حتى وصل إلى خرابها ، فوقفهم على ثلم وأخذ عصا وكساء ، وتبع كلبا ، ووقع بينه وبينه مواثبة حتى أعيـاه ، وعاونوه حتى أمسكوه فجعل يعض الكلب بأسنانه ، والكلب يستغيث ، حتى اشتفى ، وقال : هذا عضني منذ أيام ، وأريد أن أخالف قول الأول :

شاتَمَني كَلْبُ بَني مَسْمَعٍ　　فَصُنْتُ عَنْهُ النَّفسَ والعِرْضا
ولَمْ أُجِبْـهُ لاحْتِقاري بِهِ　　مَنْ ذا يَعَضُّ الكَلْبَ إنْ عَضّا

وقال أبو منصور موهوب الجواليقي فيه : كان يحفظ الكثير من أشعار العرب مما لم يكن غيره من نظرائه يقوم به ، إلا أن جنونه لم يكن يدعه يتمكن منه أحد في الأخذ عنه والإفادة منه . وقال ياقوت ج ٣ ص ١٦٩ : «إن أبا العلاء لما ورد بغداد قصد أبا الحسن علي بن عيسى الرَّبَعي ليقرأ عليه ، فلما دخل إليه قال علي بن عيسى : ليصعد الإصطبل ! فخرج مغضبا ولم يعد إليه . والإصطبل في لغة أهل الشام : الأعمى ، ولعها معربة » . ولم يبين ياقوت ما كان يريد أن يقرأ على الرَّبَعي ،

---

(١) الإجانة : آنية من زجاج .

وقد بينه ابن الأنباري في (الطبقات) ص ٤٢٦ وابن العديم ، فقالا : دخل على الرَّبَعي ليقرأ عليه شيئا من النحو . وهذا ينافي قول أبي العلاء : « وقد فارقت العشرين من العمر ما حدثت نفسي باجتداء علم من عراقي ولا شآم » . ولا يبعد أن يكون قصده للزيارة أو الاطلاع على ما عنده ، لا للأخذ عنه . وقال الخفاجي في (شفاء الغليل) ص ٣٣ : اصطبل بلغة أهل الشام ، معناه الأعمى كما في كتاب (الهميان) ، ولذا قال ابن عباد : جرّوا الإصطبل ، في قصته مع المعري ، وهذا خطأ لأن ابن عباد توفي سنة ٣٨٥ قبل ذهاب المعري إلى بغداد ولم يثبت اجتماعه بـه في مكان مطلقا .

ومنهم ابن فورّجة

قال[1] في[2] (فوات الوفيات) ج ٢ ص ١٩٨ : محمد بن حمد بن فورّجة بالفاء المضمومة وبعد الواو المضمومة والزاي جيم مشددة البروجردي ! ونقل عن الثعالبي في اليتيمة أبياتا من شعره ، ثم قال : قال ياقوت : وفاة ابن فورجة[3] بنهاوند في ذي الحجة سنة ٣٨٠ هـ وله (التجني على ابن جني) (والفتح على أبي الفتح) ، والكتابان يرد فيهما على ابن جني في شعر المتنبي اهـ .

وعلى هذا القول لا يمكن اجتماعه بأبي العلاء في بغداد لأن أبا العلاء كان فيها سنة ٤٠٠ هـ كما تقدم .

وقال السيوطي في (البغية) ص ٣٩ : محمد بن حمد بن محمد بن عبدالله بن محمود ابن فورّجة ، بضم الفاء وسكون الواو وتشديد الراء المهملة وفتح الجيم البروجردي ، ونقل عن ياقوت أن له كتابي (الفتح والتجني) . ثم قال : وذكره الشيخ مجد الدين الشيرازي في كتابه (البلغة في أئمة اللغة) . لكن سماه حمد بن محمد ، ثم قال : مولده في ذي الحجة سنة ٣٣٠ هـ ، وقال

الثعالبي : هو من أهل أصبهان المقيمين بالري ، المتقدمين في الفضل ، المبرزين في النظم والنثر ، كان موجودا في سنة ٤٥٥ هـ وذكر له ثلاثة أبيات آخرها :

إنَّ لي غِيرَةً عليكَ مِن اسمِي ‎ ‎ ‎ ‎ إنَّهُ دائمٌ يُقبِّـــلُ فاكَ

وقال : قلت هذا الشعر يؤيد أن اسمه حمد ، اهـ .

وقال الباخرزي في (دمية القصر) ص ٩١ : حمد بن فورجه ، هو في الصنعة من الفحول ، والتنبيه على فضله طرف من الفضول ، وشعره فرخ شعر الأعمى ، أعني شاعر معرة النعمان ، وإن كان هذا الفاضل منزها من معرة العميان ... ، ثم أورد له أبياتا منها ما سمعه بالري .

وفي رواية (البغية) عن الثعالبي أنه كان موجودا سنة ٤٥٥ هـ خطأ ، لأن الثعالبي توفي سنة ٤٢٩ هـ ، على ما ذكره ابن خلكان ، وكذلك قوله إنه ولد سنة ٣٣٠ هـ لأنه اجتمع بأبي العلاء سنة ٤٠٠ هـ ولم يكن عمره سبعين بل كان شابا .

وفي (كشف الظنون) ج ١ ص ٥٢٢ : محمد بن أحمد المعروف بابن فورّجة النحوي وكان حيا في سنة ٤٣٧ هـ ، في ج ٢ ص ١٧٢ محمد بن حمد وكان حيًّا في سنة ٤٢٧ هـ فقـــد جعل أباه مرة أحمد ومرة حمداً ، وجعله حيا سنة ٤٢٧ هـ و سنة ٤٣٧ هـ .

وذكر العكبري ج ٢ ص ٤٣٠ عن ابن فورّجة أنه قال : قرأت على أبي العلاء المعري ، ومنزلته في الشعر ما قد علمه من كان ذا أدب ، فقلت له يوما في كلمة : ماضرَّ أبا الطيب لوكان قال مكان هذه الكلمة كلمة أخرى أوردتها ، فأبان لي عوار الكلمة التي ظننتها ثم قال : لا تظنن أنك تقدر على إبدال كلمة واحدة من شعره بما هو خير منها ، فجرب إن كنت مرتابا ... .

وقال البديعي في (الصبح المنبي) : قال ابن فورّجة في كتاب (التجني) عن أبي العلاء المعري عن رجل من أهل الشام .. ، ثم أورد قصة خلاصتها : أن المتنبي استدعى غلاماً ، وبات معظم ليلة يكتب من دفاتره لا يلتفت إلى الغلام ، ثم نام وكان وكيل المتنبي معه شاهداً ... .

هذه جملة مما قالته العلماء في ابن فورّجة وأبي العلاء ، وقد رأينا ما فيها من الاختلاف والتباين . وإذا رجعنا إلى قول أبي العلاء نجد فيه ما يقنع الباحث من بعض الوجوه ويدفع الشك من بعض النواحي .

فقد ذكر في (التنوير[1]) ج ٢ ص ٨٠ أن أبا علي النهاوندي محمد بن حمد بن فورجة مدح أبا العلاء بقصيدة أولها :

أَلا قَامَتْ تُجاذِبُني عِنانِي ... وَتَسْأَلُني بِعَرْصَتِها مَقِيلا

فأجابه أبو العلاء ، وهو في مدينة السلام ، بقصيدة أولها :

كفىٰ بِشُحُوبِ أَوْجُهِنا دَليلاً ... عَلى إِزْمَاعِنا عنْكَ الرَّحيـلا

وفيها يقول ، وقد بين كنية ابن فورجة ، وأنه كان بالعراق :

كَلِفْنا بِالْعِراقِ ونَحْنُ شَرْخٌ ... فَلَمْ نُلْمِمْ بِـهِ إِلاَّ كُهُولا

وشَارَفَنَا فِـراقُ أَبي عَلِيٍّ ... فَكانَ أَعزَّ داهِيَـةٍ نُزُولا

ثم وصف السيف بما لم يسبَق إليه ، وبين اسم ابن أبي فورجة بقوله :

فَذٰلِكَ شِبْهُ عَزْمِكَ يابنَ حَمْدٍ ... ولكِنْ لا نُبُـوَّ ولا فُلُولا

---

(١) وفي التنوير ٢ ص ١١٠ طبعة المكتبة التجارية ـ مصر .

ثم بين أن هذه القصيدة جواب عن قصيدة ابن فورّجة بقوله :

وقَدْ كافأْتُ عَنْ شِعْرٍ بِشِعْرٍ ولكِنْ حازَ مَنْ بَدأَ الجَميلا

وأشار إلى عمر ابن فورّجة بقوله :

بَهرْتَ ويَومُ عُمْرِكَ في شُرُوقٍ فَدامَ ضُحىً ولاَ بَلَغَ الاَصِيلا

ويتبين من هذه الأبيات أن كنية الرجل أبو علي ، وأن أباه حمد ، وأنه لقي المعري في شروق عمره وضحوته ، وأن اللقاء في بغداد . فأقرب الأقوال في حياته أن يكون حياً سنة ٤٢٧ هـ ليصح كلام الثعالبي وغيره .

اجتماعه بالخليفة

لم أر أحداً من مؤرخي العرب وأدبائهم ذكر أن أبا العلاء اجتمع بالخليفة أو بأحد من وزرائه إبان إقامته في بغداد . وقد قدمنا أن الخليفة في ذلك العهد هو القادر بالله أحمد بن إسحق بن المقتدر بالله . ولكن دولت شاه الفارسي قال في كتابه (تذكرة الشعراء) ما هذه ترجمته :[١] المعرة من جملة بلاد الشام في جوار حمص ، ومنها أبو العلاء ، وكان ذا فضل كامل وعلم شامل ، وله تصانيف في علمي المعاني والبيان ، وكان أمير المؤمنين القائم بأمر الله العباسي يعزه ، وكان ولي نعمته ، ولأبي العلاء قصائد في مدح البيت العباسي .

ويحكى أن أبا سعيد الرستمي كان تلميذاً لأبي العلاء ، وأبو سعيد هذا من أكابر الشعراء الفضلاء ، وفي نهاية الحال عمي أبو العلاء ويسمى لذلك أبا العلاء الضرير . وكان أبو العلاء كلما نظم قصيدة في مدح الخليفة قاده أبو سعيد الرستمي

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٦٦ عن تذكرة الشعراء ـ لدولت شاه .

وأحضره مجلس الخليفة . ويحكون أنه كان لدار الخلافة أبواب عالية بحيث يتمكن حاملو الأعلام أن يمروا تحتها دون أن ينكسوا أعلامهم ، إذ كانوا يتشاءمون بخفض العَلَم . وكان أبو سعيد الرستمي كلما بلغ بأبي العلاء الباب يقول : أيها الأستاذ ، انحن ! فينحني أبو العلاء ، فيضحك الخليفة وأركان الدولة ، فيقول أبو العلاء : أحسنت كثيراً نعم التلميذ البار أنت ! ثم قال : قال المعري هذه القطعة في عماه وهجاء أهل زمانه :

أبا العَلا يا ابْنَ سُلَيْمانا عَماكَ قَدْ أَوْلاكَ إِحْسانا[1]
إِنَّكَ لَوْ أَبْصَرْتَ هٰذا الوَرى لَمْ يَرَ إِنْسانُكَ إِنْسانا

وقال ايضاً[2] :

ألا إِنَّما الأَيَّامُ أَبْناءُ واحِدٍ وَهٰذي اللَّيالي كُلُّها أَخَواتُ
فَلا تَطْلُبَنْ مِنْ عِنْدِ يَوْمٍ ولَيْلَةٍ خِلافَ الذي مَرَّتْ بِهِ السَّنَواتُ

وقال[3] :

مَنْ راعَهُ سَبَبٌ أو هالَهُ عَجَبٌ فلي ثمانونَ حَوْلاً لا أرى عَجَبا
الدَّهْرُ كالدَّهْرِ والأَيَّامُ واحِدَةٌ والنَّاسُ كالنَّاسِ والدُّنيا لِمَنْ غَلَبا

هذه خلاصة ما ذكره .

---

(١) وفي تعريف القدماء ص ٤٦٥ : « أبا العلاء ابن سليمانا » .
(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٠٣٨ .
(٣) البيتان مما لم يرو في الديوانين .

ودولت شاه هذا ، ابن علاء الدين بخت شاه من أدباء الفرس ، وضع (تذكرة الشعراء) وهو كتاب في طبقة شعراء الفرس . بدأ في تأليفه حين أشرف على الخمسين ، وأتمه في سنة ٨٩٢ هـ ، وقد ذكر في مقدمته فضل العرب على الشعر الفارسي وأثرهم العظيم فيه . وصدّر كتابه هذا بذكر جماعة من شعراء العرب ، كلبيد ، والفرزدق ، ودعبل ، وابن الرومي ، والمتنبي ، وأبي العلاء المعري ، والحريري ، والبستي ، وزهير بن أبي سلمى .

أما أبو سعيد الرستمي ، فلا أعلم مكنىً بهذه الكنية ، إلا محمد بن محمد بن الحسن .. بن رستم من فضلاء أصبهان . وقد ذكره الثعالبي في يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٢٩ في المختصين بالصاحب ابن عباد ، ولم أرَ من ذكر أنه كان يختلف إلى الخليفة القائم بأمر الله ، ولا من ذكر أنه كان تلميذاً لأبي العلاء ، ولا من ذكر أن أبا العلاء اجتمع بالخليفة المذكور . وفيما ذكره دولت شاه أغلاط كثيرة ، منها قوله : إن المعرة في جوار حمص ، وهو غير صحيح لأن حماة وضاحيتها ، كلها تفصل بين حمص والمعرة ، ومسافة الطريق من حمص إلى المعرة نحو من ١٣٥ كيلو مترا . ومنها قوله : ان لأبي العلاء تصانيف في علمي المعاني والبيان ، وهذا لم يذكره أحد غيره ، ولا يعرف لأبي العلاء كتاب في هذين العلمين . ومنها قوله : إن لأبي العلاء قصائد في مدح البيت العباسي ، وان القائم بأمر الله ولي نعمته وكان يعزه .. وإن الرستمي تلميذه .. فكل هذا مما انفرد براويته ولم نره لغيره . وأغرب ما في كلامه قوله : وفي نهاية الحال عمي أبو العلاء . لأن المؤرخين مجمعون على أنه عمي في بداية الحال . وفي كلامه تناقض بيّن لأنه يقول : إن الخليفة يعزه ، وإن الرستمي كان يقول : انحن . فينحني ، فيضحك الخليفة . ومن البعيد أن يقع مثل هذا مرات في حضرة الخليفة مع من يعزه .

ومجموع ما ذكرناه يشهد بأن ما ذكره دولت شاه لا نصيب له من الحقيقة ، ولو كان شيء منه واقعاً لتضافرت الروايات على نقله ، ولذكره أبو العلاء في شيء من كلامه ، لا سيما اجتماعه بالخليفة ومدحه إياه . وأكبر غلط فيه جعل الحادثة مع القائم بأمر الله مع أن أبا العلاء كان في بغداد في سنة ٤٠٠ هـ ، والقائم بأمر الله ولي الخلافة في سنة ٤٢٢ هـ بعد وفاة أبيه القادر بالله فتأمل .

ويقرب من هذا ما ذكره ابن كثير في (البداية والنهـاية) في ترجمة أبي العلاء ، حيث قال [١] : ودخل بغـداد سنة ٣٩٩ هـ فأقام بها سنة وسبعة أشهر ، ثم خرج منها طريداً منهزماً لأنه سأل سؤالاً بشعر ، يدل على قلة دينه وعلمه وعقله فقال [٢] :

تَناقُضٌ مَا لَنا إلا السُّكوتُ لهُ . . . .

البيتين

ثم قال : ولما عزم الفقهاء على أخذه بهذا وأمثاله ، هرب ورجع إلى بلده ولزم منزله ، فكان لا يخرج منه ، [٣] وكان يوماً عند الخليفة ، وكان الخليفة [٤] يكره المتنبي ويضع منه ، وكان أبو العلاء يحب المتنبي

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٠٢ عن البداية والنهاية ـ لابن كثير .

(٢) اللزوميات هـ ص ١٥٢ ، والبيتان :

تناقض مالنا إلا السكوت له   وأن نعوذ بمولانا من النار

يد بخمس مئين عسجد فديت   ما بالها قطعت في ربع دينار

(٣) نقل هذا في طبقات النحاة واللغويين ص ١٧٥ عن ابن الجوزي في المنتظم ، ولم أجده في القسم المطبوع منه في تعريف القدماء بأبي العلاء ونقله العيني في عقد الجمان عن ابن كثير (ج) .

(٤) كذا ، وإنما هو الشريف المرتضى .

ويرفع من قدره ويمدحه ، فجرى ذكر المتنبي في ذلك المجلس ، فذمه الخليفة ، فقال أبو العلاء : لو لم يكن للمتنبي إلا قصيدته التي أولها :

لَكِ يا مَنازِلُ في القُلوبِ مَنازِلُ . . . .

لكفاه ذلك ، فغضب الخليفة وأمر به ، فسحب برجله على وجهه . وقال : أخرجوا عني هذا الكلب ، وقال الخليفة : أتدرون ماذا أراد هذا الكلب من هذه القصيدة وذكره لها ؟ أراد قول المتنبي فيها :

وإذا أتتْكَ مَذَمَّتي مِنْ ناقِصٍ فَهِيَ الدَّليلُ عَلَى أني كامِلُ (١)

وإلا فالمتني له قصائد أحسن من هذه ، وإنما أراد هذا ، وهذا من فرط ذكاء الخليفة حيث تنبه لهذا . وقد كان المعري أيضاً من الأذكياء اه .

ولم أر أحداً ذكر أن فقهاء بغداد عزموا على أخذه من أجل شعره ، ولا أنه هرب إلى المعرة ، ولا أنه اجتمع بالخليفة الذي لم يسمّه ابن كثير ، وقد قدمنا أن هذه الحادثة وقعت مع الشريف المرتضى ، ورواها جمهور كبير من المؤرخين والعلماء ، وابن كثير انفرد بهذه الرواية ، وأغفل ذكر اسم الخليفة ، واختلق هرب أبي العلاء . وأخل بوزن بيت المتنبي المشهور . فلا يقام لكلامه وزن ولا يعوّل عليه .

* * *

---

(١) المشهور في رواية البيت : « فهي الشهادة لي بأني كامل » . ورواية ابن كثير مختلفة الوزن (ج) .

المجالس العلمية في بغداد

لم يكن في ملوك الأرض قاطبة ، في ذلك العهد ، من يشبه الخلفاء العباسيين في ترقية العلم وتنميته ، ولا في إعلاء شأن العلماء ، وكتب التاريخ والأدب طافحة بما لهم من الأعمال الجليلة ، وبما أنفقوه من الأموال الجزيلة في هذا السبيل . وحسبك دليلا على ذلك أن الرشيد ، على عظم شأنه وجلالة سلطانه ، صب الماء على يدي أبي معاوية الضرير بعد أن أكل طعاماً عنده ، ثم قال له : أتدري من يصب الماء على يدك ؟ قال : لا ، قال : أنا . فقال : أنت يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، إجلالا للعلم .

وعهد إلى الكسائي بتأديب ولديه الأمين والمأمون ، ثم أشرف عليه ، وهو لا يراه ، فقام الكسائي ليلبس نعله ، فابتدراها ، فوضعاها بين يديه ، فأقسم عليهما أن لا يعاودا ذلك . فلما جلس الرشيد مجلسه قال : أي الناس أكرم خادما ؟ قالوا : أمير المؤمنين ، قال : بل الكسائي ، يخدمه الأمين والمأمون . ثم حدثهم الحديث .

وكذلك فعل المأمون ، بل زاد على أبيه ، حين عهد إلى الفراء أن يلقن ولديه النحو ؛ فأراد يوما أن ينهض إلى بعض حاجته ، فابتدرا إلى نعله وتنازعا أيهما يقدمها له ، ثم اتفقا على أن يقدم كل واحد منهما واحدة . فكتب صاحب الخبر إلى المأمون ذلك . فاستدعى الفراء ، فلما دخل عليه قال له : من أعز الناس ؟ قال : لا أحد أعز من أمير المؤمنين . قال : بل من إذا نهض تقاتل على تقديم نعله وليّا عهد المسلمين ، حتى رضي كل منهما أن يقدم له فردا . فقال يا أمير المؤمنين ، لقد أردت منعهما عن ذلك ، ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها . فقال له المأمون :

لومنعتهما عن ذلك لأوجعتك لوما وعتبا ، وما وضع ما فعلاه من شرفهما بل رفع قدرهما . ثم عوض كلًا منهما عشرين ألف دينار ، وأعطى القراء عشرة آلاف درهم على حسن تأديبه إياهمـــا . ثم طبع من بعده من الخلفاء على غراره .

ولما فشت الزندقة ، واتسعت شقة الخلاف بين أصحاب المذاهب والآراء ، أخذ الخلفاء يحضون العلماء على تصنيف كتب في مواضيع متعددة . وكانت هناك مجالس يجتمع فيها العلماء المناظرة ؛ حتى إذا كان عهد المأمون ، وظهر القول بخلق القرآن ، أخذ يعقد مجالس للمناظرة فيه وفي سواه ، وعين لذلك يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، فإذا حضر الفقهاء ومن يناظر من أهل المقالات ، أدخلوا حجرة مفروشة ، وقيل لهم : انزعوا أخفافكم ! ثم أحضرت الموائد ، وقيل لهم : أصيبوا من الطعام والشراب ، وجددوا الوضوء ، ومن كان خفه ضيقا فلينزعه ، ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها ، فإذا فرغوا أتوا بالمجامر فتبخروا وتطيبوا ثم خرجوا ، فاستدناهم حتى يدنوا منه ، ويناظرهم أحسن مناظرة وألطفها وأبعدها من مناظرة المتجبرين ، فلا يزالون كذلك إلى أن تزول الشمس ، ثم تنصب الموائد ثانية فيطعمون وينصرفون .

ثم استفاضت مجالس العلم في بغداد ، فكانت تعقد عند الحاجة إلى إثبات رأي جديد ، أو إدحاض شبهة أو ما ماثل ذلك.

وقد كان ليحيى بن علي بن المنجم مجلس يحضره جماعة من المتكلمين بحضرة المكتفي . ولأبي حامد الإسفرائيني مجلس يحضره ثلاثمائة فقيه أو سبعمائة ، وقد أشار ابن السبكي في طبقات الشافعية ج ٣ ص ٢٤ فما بعد إلى ما كان يقع بينه وبين غيره من المناظرات ، وذكر شيئا من المناظرات التي وقعت بين أبي إسحق الشيرازي والدامغاني ، وبين أبي الطيب الطبري وأبي عبد الله الصيمري ، وبين أبي إسحق وعبد الجبار المعتزلي ، وبين الطبري وأبي الحسن الطالقاني ، وبين الطبري والقدوري ، وغيرها .

وكان للشريف المرتضى علي بن الحسين مجالس ، يملي فيها ضروبا من المسائل . وكتابه الذي سماه (الغرر والدرر) مجالس أملاها في فنون من معاني الأدب كالنحو واللغة وغيرهما .

وكانت لأبي القاسم علي بن المحسّن التنوخي حلقة يحضرها طائفة من العلماء والأدباء . وقد ذكر في (معاهد التنصيص) ص ٥٩٨ أن البغداديين اعترضوا على أبي العلاء في كلمة (بوح) في حلقة التنوخي ، وكذلك ذكر البطليوسي في (شرح السقط)ج ١ ص ٢٧٩ هذه الحادثة في حلقة التنوخي .

اخوان الصفاء

وقد ذكر صاحب (ذكرى أبي العلاء) ص ١٧٩ وتجديده ص ١٥٠ أن أبا العلاء كان يحضر المجمع الخاص الفلسفي الذي كان يأتلف يوم الجمعة بدار عبد السلام البصري ، وفيه يقول من قصيدة بعث بها إليه : (١)

تَهِيجُ أَشْوَاقِي عَرُوبَةُ إِنَّهَا إِلَيْكَ زَوَتْنِي عَنْ حُضُورٍ بِمَجْمَعِ

ثم قال : وهذا المجمع السري الذي أسماه « إخوان الصفاء » لشيوع هذا اللفظ بين المسلمين في ذلك العصر ، ودلالته الخاصة على جماعة فلسفية تشترك في الأغراض والآراء ، وذلك حيث يقول من أبيات ثلاثة (٢)

وَإِذَا أَضَاعَتْنِي الْخُطُوبُ فَلَنْ أَرَى لِعُهُودِ إِخْوَانِ الصَّفَاءِ مُضِيعَا

(١) انظر ما سبق ص ٢٣٦ الحاشية ٣ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٧٢١ ، والأبيات :

كم بلدةٍ فارقتُها ومعاشرٍ يُذرون من أسفٍ عليّ دموعا

وإذا أضاعتني . . . .

خالت توديع الأصادق للنوى فمتى أودّعُ خِلِّيَ التوديعا

وزاد على ذلك في المقدمة التي وضعها لكتاب (رسائل إخوان الصفاء) فقال في ص ٧ : « فهذا الكتاب . . . يمثل من جهة فساد الحياة السياسية الإسلامية في ذلك الوقت ، لأن الذين كتبوه جماعة لا نعرف منهم أحدا ، لأنهم كانوا يعملون من وراء ستار . وكانوا يعملون لغرض سياسي قبل كل شيء ... وإنما كانت لهم أغراض سياسية متطرفة ، مسرفة في التطرف ؛ فهم من غلاة الشيعة ، ولعلهم من الإسماعيليين ... » .

وقال في ص ٨ : « كان هؤلاء الناس إذن يعملون من وراء ستار ، ويؤلفون جماعة سرية ، وكان قوام جماعتهم هذه ، فيما يظهر ، سياسي عقلي (١) ، فهم يريدون قلب النظام السياسي المسيطر على العالم الإسلامي يومئذ . . . » .

وقال في ص ٩ : « وقد احتاط هؤلاء الناس في التستر والاستخفاء ، فلم نكد نعرف منهم أحدا — كما قلنا — وإنما سميت أسماء لا تتجاوز الخمسة ، ولا تخلو من أن يحيط بها الشك . وكل ما نستطيع أن نعرفه من أمر هذه الجماعة ، أنها نشأت في البصرة في منتصف القرن الرابع ، وعرف لها فرع في بغداد . وليس عندي شك في أن أبا العلاء قد اتصل بهذا الفرع حين ارتحل إلى بغداد آخر هذا القرن . وكان يحضر اجتماعه يوم الجمعة من كل أسبوع . نرى ذلك في (سقط الزند) ، بل نرى بعض أسماء الذين كانوا يحضرون جلسات هذا الفرع ؛ ونكاد نعرف المكان الذي كانوا يجتمعون فيه يوم الجمعة من كل أسبوع ؛ ونكاد نلمح في هذه الاجتماعات شيئا من اللهو المعتدل .... وقد أشرت إلى شيء من ذلك في (ذكرى أبي العلاء) على أني أشد استيقانا به الآن ، وأعتقد أنا نجد في رسائل إخوان الصفاء أحسن تفسير لكثير من غوامض اللزوميات . . » ، إلى آخر كلامه .

---

(١) كذا في الأصل (ج) .

ويُلخّص قولَه : بأن جماعة إخوان الصفاء من غلاة الشيعة أو من الاسماعيليين ؛ وأنهم يعملون لغرض سياسي وهو قلب نظام الحكم ، وأنهم يجتمعون سراً في دار عبد السلام ، وهو مجمعهم الخاص في كل يوم جمعة ؛ وأنهم احتاطوا في التستر والاستخفاء . . .

وهذا كله وهم باطل ، والدليل على ذلك أمور كثيرة منها :

أن قول المعري « عَنْ حُضُور بِمَجْمَع » ليس فيه تصريح بأن المجمع دار عبد السلام ، ولأنه مجمع فلسفي . والأقرب أن يكون ذلك المجمع دار الكتب التي كان عبد السلام خازنا لها . وتخصيص يوم الجمعة يجوز أن يكون عبد السلام اختاره للمعري ليتمكن من زيارته بسبب فراغه في ذلك اليوم ، أو ليجمعه برجال من العلماء والأدباء كانوا يجتمعون فيه في دار العلم أو غيرها للمحادثة والمذاكرة والمفاكهة ونحوها . وهذا أقرب إلى القبول ، وأكثر ملاءمة لما عرف به عبد السلام من الصدق والتقوى ، والاشتهار بالقراءة ورواية الاحاديث والتفسير والأخبار وغيرها ، ولو شعر الناس أنه ينحو منحى الفلاسفة في عقيدته لأعرضوا عن روايته .

ومنها أن هذا اليوم ، لوكان يوم المجمع السري ، لما صرح بذكره أبو العلاء ، كيلا يتنبه له خصومه . على أن من البعيد أن يركن إخوان الصفاء إلى أبي العلاء ، وهو غريب عنهم ؛ وقد نقل عن أبي حيان أنهم كانوا يجتمعون في منزل أبي سليمان النهرجوري ، فإذا اجتمع معهم أجنبي التزموا الكنايات والرموز والإشارات . . .

ومنها أن كلمة ، إخوان الصفاء ، في أبيات المعري المتقدمة ، لاتدل على ما أراده الأستاذ . بل الأقرب أن يراد بالصفاء هنا مصافاة المودة ؛ وقد وقعت هذه الكلمة في كلام كثير من الشعراء والكتاب ، منهم عمرو بن شاس الأسدي حيث يقول : [1]

---

(١) معجم البلدان (أرمات) . (ج)

تذكّرتُ إخوانَ الصّفاء تيمّموا   فوارسَ سعدٍ واستبدّ بِهِمْ جهلا

ومنهم الخنساء حيث تقول : (١)

ولمْ يجزِ إخوانَ الصّفاءِ ويكتسي   عجاجاً أثارَتهُ السّنابكُ أكدرا

ومنهم البرءا بن ربعي الفقعسي حيث يقول : (٢)

أولئكَ إخوانُ الصّفاء رُزِئتُهُمْ   وما الكفُّ إلاّ إصبعٌ ثُمّ إصبعُ

ومنهم إسماعيل بن بشار أو يسار ، حيث يقول : (٣)

وإنْ أيقنْتَ أنَّ الغيَّ فيما   دعاكَ إليهِ إخوانُ الصّفاء

ومنهم عبد السلام بن رغبان ، حيث يقول : (٤)

فهاكَ أخاً لمْ تحوِهِ بقرابةٍ   بلَى إنَّ إخوانَ الصّفاءِ أقاربُ

ومنهم ابن الرومي حيث يقول (٥) :

لو أنَّ إخوانَ الصّفاء تناصفُوا   لمْ يفرحُوا بتفاضُلِ الأعمارِ

ومنهم ابن المقفع حيث قال في باب الحمامة المطوقة من كتاب (كليلة ودمنة) :

« فهذا مثل إخوان الصفاء وائتلافهم في الصحبة » .

---

(١) ديوان الخنساء س ١٢٣ (ج) .

(٢) حماسة أبي تمام ـ شرح التبريزي ـ ج ١ ص ٣٥٢ . (ج)

(٣) حماسة البحتري (ج) . ص ٢٥٣ من مقطعة مطلعها :

فدع عنك المراء ولا ترده   لقلة خير أسباب المراء

(٤) زهر الآداب ج ٣ ص ١٧١ . (ج)

(٥) ديوانه ص ٥٣ — كامل كيلاني .

فهؤلاء كلهم ذكروا إخوان الصفاء ، وهم يريدون إخوان المودة الصافية الخالصة قبل أن تؤلف جمعية إخوان الصفاء . وأبو العلاء احتذى على مثـالهم .

على أن ياقوتا روى في (معجم الأدباء) ج ١ ص ١٧٥ عن أبي الوليد الدربندي ، قـال : « أنشدني أبو العلاء التنوخي في داره عند وداعي إياه » . وذكر الأبيات الثلاثة العينية التي ذكرفيها إخوان الصفاء . وأبو الوليد هذا هو الحسن بن محمد البلخي الدربندي المحدّث الصوفي طاف الآفاق في طلب الحديث ، ثم رجع إلى سمرقند ، وتوفي بها سنة ٤٥٦ هـ ، كما قـال ابن عساكر في ج ٤ ص ٢٤٧ ، وذكره ياقوت في (دربند) . وفي (سقط الزند) ج ٢ ص ١٣٦ : أنه قال هذه الأبيات على لسان البلخي .

وفي كلام الدوكتور تناقض صريح يتمثل في أقواله : « لانكاد نعرف منهم أحدا ... احتاط هؤلاء في التستر . . فلم نكد نعرف أحداً منهم . . لاتخلو من أن يحيط بها الشك .. وكل ما نستطيع أن نعرفه ... أنها نشأت في البصرة ... وعرف لها فرع في بغداد » .

وفي أقواله : « ليس عندي شك في أن أبا العلاء اتصل بهذا الفرع وكان يحضر اجتماعه . . . نرى ذلك في سقط الزند . . نرى بعض أسماء الذين كانوا يحضرون . . . ونكاد نعرف المكان ... ونكاد نلمح . . على أني أشد استيقانا » . إلى آخر ما قال .

والواقف على كلامه لايدري على أيها يعول ، أعلى قوله : «ولانكاد نعرف» ؟ أم على قوله : « نكاد نعرف . . ونرى . . ونلمح » ومن الغريب حكمه على إخوان الصفاء بأنهم من غلاة الشيعة أو الإسماعيليين؟ ثم جعله أبا العلاء منهم ، وهو أشد الناس إنكاراً على الفريقين .

وأغرب منه ، أن يكون ممن يعمل لأعراض سياسية متطرفة .

وأغرب من كل ذلك ، أن يرى الدوكتور ، بعد ألف سنة تقريباً وهو في مصر ويعرف ويلمح . مالم يره ويعرفه ويلمحه أهل البصرة وبغداد من هذه الجماعة مع شدة تحري الحكومات والعلماء والبحث عنهم .

وقد بينت بطلان هذه المزاعم بأوسع من هذا في مقالة نشرت في مجلة المجمع العلمي الدمشقي في الجزء ٧ من المجلد ١٦ ص ٣٤٦ .

وقد ذكر ابن تيمية في (منهاج السنة) ج ١ ص ٢٣١ : أن الرافضة كذبوا على جعفر بن محمد الصادق حتى نسبوا إليه كتاب (الجفر والبطاقة والهفت) . وحتى زعم بعضهم أن كتاب (رسائل إخوان الصفاء) من كلامه ، مع علم كل عاقل بفهمها ، ويعرف المسلم أنها تناقض دين الإسلام . وأيضا فهي إنما صنفت بعد موت جعفر بن محمد ، رضي الله عنه ، بنحو مائة سنة ، فإن جعفر بن محمد توفي سنة ١٤٨ هـ وهي صنفت في أثناء المائة الرابعة ، لمـــا ظهرت الدولة العبيدية بمصر وبنوا القاهرة ، فصنفت على مذهب أولئك الاسماعيلية ، كما يدل على ذلك ما فيهـــا . وقد ذكروا فيها ما جرى على المسلمين من استيلاء النصارى على سواحل الشام ، هذا إنما كان بعد المائة الثالثة في الجملة .

حنينه الى المعرة وهو في بغداد

كان أبو العلاء ، وهو في بغداد ، يكثر الحنين إلى وطنه ، ويفيض شعره بالشوق إليه . والذي ظهر لي أن ذلك لأمرين .

أحدهما : فقد أمه التي كانت تتعهده ، وفقد أسرته الذين كان يقضي

إليهم بشقوره (١) ، وفقد أصحابه الذين ألفهم وألفوه منذ الصبا ، ورضي عنهم ورضوا عنه .

ثانيهما : أن أبا العلاء كان شديد الأنفة والإباء ؛ وقد ضاق المال الذي اصطحبه إلى بغداد عن حاجاته الكثيرة في السفر ولم يستطع أن يستقدم غيره من المعرة لبعد الشقة ، أو لعدم وجود ما يسد حاجته ؛ كما أنه لم يستطع أن يبذل ماء وجهه بسؤال أحد . ويدل على هذا أقواله في بغداد ، منها قوله من قصيدة :[٢]

تَمَنَّيْتُ أنَّ الخمرَ حلَّتْ لِنَشْوَةٍ ... تُجَهِّلُني كَيْفَ اطْمأَنَّتْ بيَ الحالُ

فَأَذْهلُ أني بالعِراقِ على شَفاً ... رَذِيُّ الأماني لا أنيسٌ ولا مالُ[٣]

مُقِلٌّ مِنَ الأَهْلَيْنِ يُسْرٍ وأسرة ... كَفَى حَزَناً بَيْنٌ مُشِتٌّ وإقلالُ...

* * *

مَتى سألَتْ بَغْدادُ عَنِّي وأهلُها ... فإنِّي عَنْ أهْلِ العَواصِمِ سَآلُ

إذا جَنَّ لَيْلِي جُنَّ لُبِّي وَزائدٌ ... خُفُوقُ فُؤادِي كُلَّما خَفَقَ الآلُ[٤]

وَماءُ بِلادِي كانَ أنْجعَ مَشْرَباً ... وَلَوْ أنَّ ماءَ الكَرْخِ صَهْباءُ جِرْيالُ

---

(١) الشقور بالضم : الحاجة والأمور اللاصقة بالقلب .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٥١ .

(٣) شفاً : بقية الشيء ، وإذا قارب الرجل الهلكة ، والرذي : البعير الذي أضعفه السفر فلا يقدر على القيام ، شبه به أمله .

(٤) خفوق الآل : اضطرابه في الهاجرة .

إلى أن قال :

فياوطني إنْ فاتني بكَ سابقٌ[1] من الدّهرِ فلْينعَمْ لساكنِك البالُ

فإنْ أستطعْ في الحشرِ آتِكَ زائراً وهيهاتَ لي يومَ القيامةِ أشغالُ[2]

ولما ذكر الإقلال من اليسر ، خشي أن يسبق إلى الظن مالا يتفق مع كرامة نفسه ؛ فصرح بإبائه وشممه في هذه القصيدة بقوله :

وكَمْ ماجدٍ في سيفِ دِجلةَ لمْ أشِمْ لهُ بارقاً والمرءُ كالمُزنِ هطّالُ

إلى آخر الأبيات الآتية منها .

ومنها قوله من قصيدة ثانية :[3]

ومَنْ لي بأنّي في جناحِ غمامةٍ تُشبّهها في الجِنحِ أمُّ رِئالِ[4]

تهاداني الأرواحُ حتّى تحطّني على يدِ ريحٍ بالفراتِ شمالِ

فيا برقُ ليسَ الكرخُ داري وإنّما رماني إليهِ الدّهرُ منذُ ليالِ

فهلْ فيكَ منْ ماءِ المعرّةِ قطرةٌ تُغيثُ بها ظمآنَ ليسَ بسالِ

وكلمة : « رماني إليه الدهر . . » تدل على حزن عميق لفراق داره ،

---

(١) رواه البطليوسي « فاتت » .

(٢) في الشروح : « وإن أستطع » .

(٣) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٩٢ .

(٤) الجِنح بالكسر والضم : إقبال الليل ، وأم رئال : النعامة .

وأسف شديد من مقامه في الكرخ التي اجتواها . ثم أشفق أن يظن ظان أنه ذهب إلى بغداد ليتخلى عن شممه وعزة نفسه فقال :

أإخوانَنا بَيْنَ الفُراتِ وجِلَّقٍ ... يَدَ اللهِ لا خَبَّرْتُكُمْ بِمُحالِ[1]
أُنَبِّئُكُمْ أنّي عَلَى العَهْدِ سالِمٌ ... ووَجْهِي لَمّا يُبْتَذَلْ بِسُؤالِ ...

* * *

نَدِمْتُ على أرْضِ العَواصِمِ بَعْدَما ... غَدَوْتُ بِها في السَّوْمِ غَيْرَ مُغالِ ...

عزمه على مفارقة بغداد وأسبابها

اختلفت كلمة القوم في أسباب رحلته عن بغداد ؛ كما اختلفت في أسباب شخوصه إليها ، كما قدمنا . فذهب صاحب (الذكرى) إلى أن أبا العلاء إنما رحل إلى العراق يلتمس الشهرة وخفض العيش ، وليفر من الحياة السياسية السيئة بحلب . وقال (٢) : « فأما الشهرة فقد ظفر بها ، إذ لم يبق من أدباء بغداد وعلمائها وفقهائها من لم يعرفه ولم يعجب بـه . وأما الدعة السياسية ، وخفض العيش فلم يوفق إليهما . ذلك أن حال العراق لم تكن خيراً من حال الشام ؛ ولاسيما في عهد أبي العلاء . . . وكذلك لم يتح لأبي العلاء من الثراء ما كان يريده ؛ فإن تشدده في العفة ، وإباءه التكسب بالشعر ، وامتناعه عن سؤال الناس ، جعل وصوله إلى الثراء أمراً لاسبيل إليه . وفوق كل هذا لم يسلم من حسد الحساد ، ومن أن

(١) يد الله : أي ألزم نفسي عهد الله . والمراد بقوله « بين الفرات وجلق » المعرة .(ج)
ورواه البطليوسي : « أجيراتنا » .

(٢) ذكرى أبي العلاء — لطه حسين — ط ٢ . ص ١٨١ وما بعدها .

يتلقاه بعض الناس بما يكره ؛ إما لخطأ منه أو لحسد من خصومه » . واستشهد للأول بقصته مع الشريف المرتضى وتعصبه للمتنبي . وللثـاني بقصته مع علي بن عيسى الربعي ... ثم قال : « وإنما كل تلك خصال قهرية ، اجتمعت لإزعاج أبي العلاء عن بغداد ، وانضم إليها خبر جاءه من المعرة ينبئه بمرض أمه . . . . » . وذهب الميمني [١] إلى أنه لقي في مجلس المرتضى غضاضة ، ورأى ببغداد مظاهر العز والخفض ، وليس بيده غير أصفار الراحة . ثم أضاف إلى هذا حسد حساده ، وورود خبر بمرض أمه ، وأنه كان يرغب أن لو آتاه الله رغدا من العيش من وجهه ؛ ولكن مظنته أخفقت . . .

وقد قدمنا عن ابن كثير وغيره ، أنه هرب إلى بلده لما عزم الفقهاء على أخذه .

هذه جملة مما قاله العلماء في الأسباب التي أزعجته من بغداد . أما أبو العلاء ، فقد بيَّن الأسباب التي حملته على مفارقة بغداد ، فقال من قصيدة كتبها إلى القاضي التنوخي بعد عودته إلى المعرة : [٢]

أثارَني عَنكُمُ أمرانِ : وَالِدةٌ ... لم أَلْقَها وثراءٌ عادَ مَسْفُوتا [٣]

أحياهُما اللهُ عَصْرَ البَيْنِ ثُمَّ قَضَى ... قَبْلَ الإيابِ إلى الذُّخْرَيْنِ أنْ مُوتا

لَوْلا رَجاءُ لِقائِيها لَما تَبِعَتْ ... عَنْسِي دَليلاً كَسِرِّ الغِمْدِ إِصْليتا [٤]

(١) أبو العلاء وما إليه — للميمني ص ١٧٢ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦٣٤ .

(٣) وفي الشروح : « أسارني » . ومسفوتا : قليل البركة . (ج)

(٤) سر الغمد : السيف . (ج) الاصليت : السيف المنصلت الماضي .

وقد تقدم في قصيدته اللامية المرفوعة ، شكواه من فقد المال والأهل ، حتى تمنى حل ّ الخمر ليذهل أنه في العراق مُقِلّ من الأهلَيْن اليسر والأسرة .

وقال في رسالته التي كتبها إلى خاله ، بعد رجوعه إلى المعرة[١] : « وكنت أظن أن الأيام تسمح لي بالإقامة هناك ، فاذا الضارية [٢] أحجأ بعُراقها ، والأمة أبخل بِصَرْبَتِها [٣] ، والعبد أشح بكُراعه [٤] ، والغراب أضَنّ بتمرته ، ووجدت العلم ببغداد أكثر من الحصى عند جمرة العقبة ، وأرخص من الصَيْحاني [٥] بالجابرة [٦] ، وأمكن من الماء بخُضارة [٧] ، وأقرب من الجريد [٨] باليمامة ، ولكنْ على كل خير مانع ، ودون كل درة خرساءُ [٩] مُوحِيَة [١٠] أوخضراءُ طامية [١١] .

---

(١) رسائل أبي العلاء المعري — لشاهين عطية — ص ٧٣ ، وفيها « ظننت » .

(٢) الضاري : المفترس المولع بأكل اللحم ، وحجئ بالشيء : ضن به وتمسك به ، والعُراق : اللحم والعظم . (ج)

(٣) لعل المراد بالضربة العسل ، وفي نسخة بصربتها ، بالصاد المهملة ، وهي واحدة الصرب ، وهو اللبن الحقين الحامض . (ج)

(٤) الكراع : مستدق الساق . (ج)

(٥) تمر أسود صلب المضغ . (ج)

(٦) اسم للمدينة . (ج)

(٧) البحر . (ج)

(٨) سعف النخل ، وهو كثير باليمامة ، قصير الساق . (ج)

(٩) سحابة لا رعد فيها ولا برق ، تمنع من التقاط الدر . (ج)

(١٠) معجلة . (ج)

(١١) لجة مرتفعة . (ج)

إذا لَمْ تَستَطِعْ شَيْئًا فَدَعْهُ وَجاوِزْهُ إلى ما تَستَطيعُ[١]

يكفيك ما بلّغك المحل ، إن عجز ظلٌّ عن شخصك ، فلا يعجـزن عن عضو منك . فلما زَبَنَتِ[٢] الضروس[٣] الحالب . ونَزت[٤] العنودُ[٥] تحتَ الراكب ، ومنعت القلوع[٦] النازعَ ، ولم تعمّ القلّوتُ[٧] شاكي الأريز[٨] وغشيَ القولُ[٩] وجهَ المُشتارِ ، وخيّبت رائداً سحابٌ ، وكذّبَ شائماً برْقٌ ، وأخلف رويعيًا[١٠] مَظِنّة . عادتْ الى عترِها لَميسُ[١١] ،

---

(١) هذا البيت لعمرو بن معدي كرب . (ج) . من عينيته وهي في الخزانة ، وروايتها : « فذره » .

(٢) دفعت برجلها . (ج)

(٣) الناقة السيئة الخلق . (ج)

(٤) وثبت . (ج)

(٥) العنود بالنون : الدابة المتقدمة في السير ، وناقة عنود : تنكب الطريق من نشاطها وقوتها ، والعنود من الإبل الذي لا يخالطها ، ولا يزال ينفرد عنها ، وفي نسخة (العتود) بالتاء ، وهو من أولاد المعز ما أتى عليه حول ، وفي حديث عمر ، وقد ذكر سياسته فقـال : « وأضم العتود » ، أي أرده إذا ند وشرد . (ج)

(٦) القوس إذا نزع فيهـا انقلبت . (ج)

(٧) كساء لا ينضم طرفاه صغراً وضيقاً . (ج)

(٨) الصقيع والبرد . (ج)

(٩) هكذا في النسخ ، ولا معنى للقول هنا ، ولعله محرف عن الثول : وهو جماعة النحل . والمشتار : من يشتار العسل ، أي يجتنيه ويخرجه من وقبته . (ج)

(١٠) مصغر راع ، والمظنة : الموضع يظن فيه الشيء . (ج)

(١١) أي إلى أصلها ، وهو مثل يضرب لمن رجع إلى خلق كان تركه . (ج)

وذكر وِجاره (١) ثعالة (٢)، وطرب لِوَكنته (٣) ابن دَأْية (٤) » .

فهذه النصوص تدل على أن أبا العلاء ضاق ذرعه ببغداد لضيق ذات يده ، وأن إفراطه في التعفف مع قلة ماله ، لاشك بما يحرج صدره ، ويضيّق بغداد على رحبها به . وفوق هذا حنينه إلى أمه ، ورجاؤه لقاءها كان من أكبر البواعث على إزعاجه من بغداد . وليس في كلامه ما يدل على تذمره من الحياة السياسية أو الاجتماعية في بغداد أو المعرة ، ولا رغبة في تظلم من عامل ، أو على أن لحسد الحساد أثراً في ذلك . ولكن قوله المتقدم : «على كل خير مانع .. فلما زبنت الضروس الحالب .. » يدل على أنه كان منغصا لفقد الدّعة والخفض ، آسفا لحيلولة الفاقة بينه وبين كثير مما كان يتمناه .

احتفاء البغداديين به

لم نعثر فيما وصل إلينا من تاريخ أبي العلاء ، على تفصيل مقامه في بغداد ، ولا على ما كان يلقاه من كل واحد ممن عرفه فيها ، ولكننا رأينا في كلامه شذرات يدلنا مجموعها على أنه كان يلقى من ضروب الحفاوة القولية شيئا كثيرا ، وأنهم عرضوا عليه أموراً أبتهـا قناعته ، ولعلهم عرفوا أنه لايقبل من أحد هبة ولا صلة ، فعرضوا عليه ماعرضوا ولم يتعدوا حدود القول . يشير إلى ذلك قوله السابق : « ... على كل خير مانع

---

(١) جحره . (ج)

(٢) الثعلب . (ج)

(٣) عشه . (ج)

(٤) الغراب . (ج)

ودون كل درة خرساءُ موحية ، فلما زبنت الضروس الحالب . وخيبت رائداً سحابٌ ، وكذب شائماً برق .. »

أما مالقيه من الإيناس في مقامه ، والأسف لفراقه ، فقد ذكره في رسالته إلى خاله أبي القاسم وأشار فيها إلى ارتيابه فيما لقيه منهم ، وهذا كلامه في الرسالة بعد أن ذكر فيها أن أبا طاهر مازالت كتبه تطرق أصدقاءه محافظة على المكارم ، ومراعاة لأمر غير لازم ، قال :[1]

« وكلما عرضوا قضاء حاجة ، أعرضتُ عن تكليف المشقة ، لأني أعتقد حكمة زهير في قوله :

وَمَنْ لا يَزَلْ يَسْتَحْمِلُ النَّاسَ نَفْسَهُ ... وَلا يُعْفِها يَوْماً مِنَ الذَّمِّ يَسْأَمِ

ولو علمت أني أرجع على قَرْوَائي [2] لم أتوجه لهذه الجهة . ولكن البلاء موكل بالمنطق ، والخيرَة مُغيَّبة . والخطوبَ مثلُ دَوْكِ [3] النَّوْفل ، يُفتح بعضُهُ عن مثل نبات الغَمَق [4] وبعضُهُ عن ذوات النسق . لايدري الرجل بمَ يُولَع هَرِمُهُ [5] . ولا إلى أي أجمة يسوقه جَدُّه ،

﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [6]

يا أَيُّها المُضمِرُ هَمّاً لا تَهَمْ ... إِنَّكَ إِنْ تُقْدَرْ لَكَ الحُمَّى تُحَمْ [7]

---

(١) الرسائل ـ لشاهين عطية . ص ٧٦ ، وتعريف القدماء بأبي العلاء ص ٨٣ـ٩١ .
(٢) قفاي (ج) .
(٣) الدوك : ضرب من محار البحر ، والنوفل : البحر (ج) .
(٤) الغمق : ركوب الندى الأرض ، وغمق النبات : فسد من كثرة الأنداء عليه فوجدتْ لريحه خمةٌ وفساد (ج) .
(٥) عقله (ج) .
(٦) سورة الأعراف الآية ١٨٨ .
(٧) في تعريف القدماء ص ٨٨ عن إرشاد الأريب ـ لياقوت ـ زيادة وهي : « وجد في لوح :
يأيها المضمر همـاً لا تهم ... إنك إن تقدر لك الحمى تحم »
وانظر الرسائل ـ لشاهين عطية ص ٧٦ .

وَلوْ عَلَوْتَ شاهِقًا مِنَ العَلَمْ كَيْفَ تَوَقِّيكَ وقَدْ جَفَّ القَلَمْ

وَخُطَّ أَيَّامُ الصِّحاحِ والسَّقَمْ[١]

ورعايةُ الله شاملةٌ لمن عرفته ببغداد ؛ فلقد أفردوني بحُسْنِ المُعامَلَةِ ، وأثنَوْا عليَّ في الغَيْبة ، وأكرموني دونَ النُّظراء والطَّبقة . ولما آنسوا تشميري للرحيل ، وأحسوا بتأهبي للظعن ، أظهروا كسوف بالٍ ، وقالوا من جميل كل مقال ، وتلفعوا من الأسف ببُرد قشيب ، وذرفت عيونُ أشياخ وشيب . فلا إله إلا الله ، أيُّ نابِتَةٍ ليست لها راعية ! لا تخلو فاغية[٢] من سائفة[٣] . ولا تَعدمُ الخرقاءُ[٤] ثَلَّةً[٥] ، ولا الثِّقال[٦] سائقة ، ولا السَّميجة قانية .

وأمروني ، لرغبتهم في صقبي[٧] منهم ، بأمور تنهى عنها القناعة ، وتكف دونها العادة ، وما أبعد نَضادِ[٨] من جبال الضَّريب[٩] ، وأشدَّ اختلافَ الغائر والمنجدين .

---

(١) لم ترد هذه الشطرات الثلاث في الرسائل وتعريف القدماء .

(٢) زهر الحناء (ج) .

(٣) شامّة ، ساف : شم (ج) .

(٤) الخرقاء : الأرض الواسعة (ج) .

(٥) جاعة الغنم ، والثل المشهور : « لا تعدم الخرقاء علة » والخرقاء : الحمقاء ، والعلة الحدث يشغل صاحبه عن حاجته ، كأن تلك العلة صارت شغلاً ثانيـاً منعه عن شغله الأول . والمعنى : أن العلل كثيرة موجودة تحسنها الخرقاء ، فضلاً عن الكيس ، وهذا مثل يقال لكل معتل معتذر وهو يقدر (ج) .

(٦) البطيئة (ج) .

(٧) قربي (ج) .

(٨) جبل بالعالية (ج) .

(٩) الثلج (ج) .

شَتانَ ما يَوْمي عَلى كُورِها   ويَوْمُ حَيّانَ أخي جابرِ[1]

* * *

عَلى حِينَ أنْ ذَكّيْتُ[2] وابْيَضَّ مَفْرِقي   أُسامُ الذي أعْيَيْتُ إذْ أنا أمْرَدُ

* * *

أَماوِيَّ ما يُغْنِي الثَّراءُ عَنِ الفَتى   إذا حَشْرَجَتْ[3] يوماً وضاقَ بها الصَّدْرُ

والله يحسن جزاءهم . إن كان مافعلوه حِفاظاً[4] فهو منّة عظيمة ، وإن كان نفاقا فهو عشرة جميلة . وانصرفتُ ، وماء وجهي في سقاء غير مَرِب[5] ، ما أرَقْتُ منه قطرة في طلب أدب ولا مال . وقد[6] فارقت العشرين من العمر ، ماحدثت نفسي باجتداء علم من عراقي ولا شآم . ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً﴾[7] والذي أقدمني تلك البلاد مكانُ دار الكتب بها .

ولَسْتُ وإنْ أحْبَبْتُ مَنْ يَسْكُنُ الغَضا   بِأوّلِ راجٍ حاجَةً لا يَنالُها

---

(١) البيت للأعشى ، ومعنى شتان : تباعد ما بينهما (ج) ديوانه ص ١٠٤-١٠٨.

(٢) كبرت ، وفي نسخة : الذي أعييت ، وفي نسخة : أعيت (ج) . وأعيته : أراد ، عددته عيباً . والقياس : « أعيت » تعريف القدماء ص ٨٩ .

(٣) غرغرت عند الموت ، البيت لحاتم الطائي . (ج) . من قصيدة له في مجموع خمسة دواوين العرب ص ١١٨ .

(٤) غيرة . (ج)

(٥) سائل . (ج)

(٦) وفي نسخة : « ومنذ فارقت » .(ج) . ورواها هكذا ياقوت في إرشاد الأريب . انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٨٩ .

(٧) سورة الكهف ، الآية ١٧ .

شرفاً لذلك المنزل منزلا ، وللساكنين به نفرا ، ولماء دجلة وادياً ومشرَبا .

وإني و تَهيامي بعَزَّةَ بَعْدَمَا تَخَلَّيْتُ مِنْ حَبْلِ الهوَى وتَخَلَّتِ

لكالمرْتَجِي ظِلَّ الغَمامَةِ كُلَّما تَبوَّأَ مِنْها لِلْمَقِيلِ اضْمَحَلَّتِ (١)

وكنتُ إذا خبَّرتُ رجلا بسيري بانت فيه كآبة ، وبدت عليه كبوة ، فكتمت ذلك عنهم كتمان المرأة ضرَّتها بالغيب ، ما في جسدها من سوء وعيب ، فلما علق حِرْباءُ البين تَنَضُبَتَه (٢) ، ووقف صُرَدُ (٣) الفراق موقفه ، كنت وإياهم كأبي قابوس (٤) وبني رواحة :

قالَ لَهُمْ خَيْراً وأثْنَى عَلَيْهِمُ ووَدَّعَهُمْ وداعَ أنْ لا تلاقيا » .

فهذا صريح في أن أبا العلاء لم يُرِقْ ماء وجهه في سؤال مال ولا علم ولا أدب . وأن القوم جاملوه بالعشرة الحسنة ، ولم يتعدوا حدود القول ، وأنه غير جازم بأن ما فعلوه كان حفاظا أو نفاقا . وأظن أنه لم يورد هذا الشك إلا وهو يعتقد الشق الثاني منه ، ولكنه كان كثير الاعتراف بالجميل ، كثير الشكر لأية يد أسديت إليه . وفي قوله السابق :

(١) البيتان لكثير عزة . ويروى : «لكالمتبقي ظل» . (ج) . انظر أمالي القالي ج ٢ ص ١٠٧ — ١١٠ .

(٢) الحرباء : هي ذكر أم حبين تستقبل الشمس وتدور معها كيفما دارت ، وتتلون ألواناً ، والتنضب : شجر له شوك تألفه الحرابي ، واحدته تنضبة . (ج)

(٣) طائر يتشاءم به . (ج)

(٤) النعمان بن المنذر ، طلبه كسرى ، فجعل يطوف على القبائل ولا يقبله أحد منهم غير أن بني رواحة بن قطيعة بن عبس قالوا له : إن شئت قاتلنا معك ، لمنة كانت له عندهم في أمر مروان القرظ ، فقال : ما أحب أن أهلككم ، فإنه لا طاقة لكم بكسرى . أغاني ٢ / ٢٩ . (ج)

« ولو أعلم أني أرجع على قرواني . . » ما يشعر بأنه آسف على ذهابه إلى بغداد ، وأن بقاءه فيها كان ممضا له . ولذلك جعلها أجمة ساقه إليها جدُّه .

وفي قصيدته اللامية ما يشعر بمثل ذلك كقوله : (١)

نَدِمْتُ عَلَى أَرْضِ العَوَاصِمِ بَعْدَمَا غَدَوْتُ بِهَا فِي السَّوْمِ غَيْرَ مُغَالِ

وصرح في رسالته التي أنفذها (٢) إلى أهل المعرة ، بأنه ما سافر إلى بغداد ليستكثر من المال ، ولا ليتكثر بلقاء الرجال ، وإنما آثر الإقامة بدار العلم . وأشار في هذه الرسالة إلى أن القوم ألحوا عليه بالأموال ، فأبى . وسنذكر هذه الرسالة .

ونستنتج من هذه الآثار أن البغداديين أجملوا عشرته ، وعرضوا عليه الأموال رغبة في بقائه عندهم ، وأنه لم يقبل شيئا ، ويعترف بالجميل كيف ما كان ، وأن الذي أشخصه إلى بغداد دارُ العلم والإقامةُ فيها ، والذي أزعجه منها إقلالهُ من المال والآل ، وشوقه إلى أمه . وليس فيها ما يدل على أن لاضطراب الحياة السياسية أو الاجتماعية في بلده أو بغداد أثرا في رحيله إليها أو عنها ، ولا أثر فيها للتظلم من عامل أو غيره .

متى خرج من بغداد

قال في رسالته إلى خاله (٣) : « وصرت عن بغداد لستٍ بقين من شهر رمضان » . كما سيأتي . وكفانا بذلك مؤونة الاختلاف . فعلى قول

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ، ص ١٢٠٧ .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٩٢ عن إرشاد الأريب — لياقوت . وفي الرسائل لشاهين عطية ص ٨١—٨٣ .

(٣) انظر ما سبق ص ٢٧٢ الحاشية (١) .

من قال : إنه أقام فيها سنة وتسعة أشهر ، يكون وصوله إليها في ٢٤ ذي الحجة سنة ٣٩٨ هـ . وعلى قول من قال : إنه أقام فيها سنة وسبعة أشهر ، يكون وصوله إليها في ٢٤ صفر سنة ٣٩٩ هـ . وعلى قول من قال : إنه أقام فيها سنة وستة أشهر يكون وصوله إليها في ٢٤ ربيع الثاني سنة ٣٩٩ هـ . والخطب يسير على جميع هذه الأقوال . أما من قال : إنه دخلها سنة ٤٠٠ هـ أو إنه رحل إليها مرتين ، فلا يتفق مع شيء مما ذكر ، لأنه قال في ثبت كتبه : « لزمت مسكني منذ سنة أربعمائة » . وهذا كان بلا شك بعد رجوعه من بغداد وإقامته فيها سنة فأكثر .

مسيره عن بغداد وطريقه الى المعرة

يفهم من قوله في قصيدته اللامية المكسورة : [1]

دعا رَجبٌ جيشَ الغَرامِ فأَقْبلَتْ رِعالٌ تَرُودُ الهمَّ بَعْدَ رِعالِ
يُغِرْنَ عَلَيَّ اللَّيْلَ إذْ كُلُّ غارَةٍ يَكُونُ لَها عِنْدَ الصَّباحِ تَوالي

أن شوقه إلى بلاده وأهله ازداد لما دخل شهرُ رجب . وقد ذكر رحلته من بغداد إلى المعرة في رسالته إلى خاله أبي القاسم ، وبيّن الطريق التي سلكها ، والمطية التي ركبها فقال : [2]

«وصرتُ عن بغداد لِستٍ بقين من رمضان ، سيرا تنحط إبله ،

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٦٥ ، والرعال : واحدها رعلة ورعيل وهي جماعات الخيل وغيره .

(٢) انظر ما سبق ص ٢٧٢ الحاشية ١ .

وتَنْئِطُ نسوعه [١] ، وتَوَقّعُ الفرقَ سفنُه ، يود الماشي الرجيل [٢] فيه أنه بعض الركب ، ولو كانوا ركبان الجذوع ، وأنه انتقل [٣] ولو بأديم الوجه والجبين ، واضطجع ولو على القَصَد والشّبَهان [٤] . عند الصباح يَحْمَدُ القومُ السُّرى . الغمرات ثم ينجلين . ومررتُ بطرف الشهباء ، لأني سلكت طريق الموصل وميافارقين ، وفيها أمواه كأمواه الطّثْرة والعُذيب [٥] . . . » ثم قال : « ولما نزلنا بالحَسَنِيّة تساوى حامل المال وحامل الرمال ، وقل بلاه الغادي أين قال ، والرائح أين عرّس وبات . فلم نزل كذلك حتى بلغنا آمد ، ثم لما [٦] عادت السبيل إلى غوائلها ، وسَدِكت [٧] الرفاق بمخاوفها .

فما بَلَغْتَنا إلاّ جَريضاً بِلا نِقْيِ العِظامِ ولا سَنامِ ». [٨]

فتكون رحلته هذه من بغداد على طريق الموصل ، وهي مدينة على طرف دجلة ، تقابل من الجانب الشرقي نينوى وميافارقين ، وهي بلدة

---

(١) نحط ينحط كضرب : زفر ، وأطّ يئط : صوّت ، والنسوع : جمع نسع ، سَيْر يضفر على هيئة أعنة النعال ، تشد به الرحال . (ج)

(٢) القوي على المشي الصبور . (ج)

(٣) هكذا في رسائله ، وفي ياقوت : انتعل ، وهو الأقرب إلى الصواب . (ج)

(٤) القَصَد : العوسج ، والشبهان : نبت يشبه الثمام أو ضرب من العضاه . (ج)

(٥) طثرة : وادٍ في ديار بني أسد . والعذيب : ما بين القادسية والمغيثة ، وقيل : وادٍ لبني تميم وهو من منازل الحاج للكوفة . (ج)

(٦) كذا في الاصل ، وفي الرسائل ـ لشاهين عطية ، والارشاد ـ لياقوت : « ثم عادت »

(٧) سدك بالشيء : لزمه . (ج)

(٨) الجريض : غصص الموت . والجريض : الفلت بعد شر ، وأفلت فلان جريضاً : أي يكاد يقضي . والنقي : مخ العظام وشحمها . (ج)

بديار بكر بقرب آمد . ثم إلى الحسنية ، وهي بلدة شرقي الموصل على يومين بينها وبين جزيرة ابن عمر . ثم منها إلى آمد ، وضبطها بعضهم بضم الميم ، وهي بلدة بالثغور في ديار بكر، ودجلة محيط بأكثرها. ثم منها الى الرقة ، وهي مدينة على الفرات،معدودة في بلاد الجزيرة ولما وصلها كتب فيها إلى خاله كتابا شرح له فيه ماحمله على النزول . وليس في كلامه ما يدل على أنه نزل بالموصل أو ميافارقين .

والظاهر من كلامه أنه عاد من بغداد على ناقة ، فإنه قال : « سرت عن بغداد سيراً تنحط إبله وتئط نسوعه » . وقال في قصيدته العينية : (١)

وَلَيْتَ قِلاصاً مِلْعِراقِ خَلَعْنَنِي جُعِلْنَ وَلَمْ يَفْعَلْنَ ذاكَ مِنَ الخِلَعِ

وقد وصل المعرة ، فوجد أمه قد توفيت قبل مقدمه بمدة يسيرة ، ولم يعلم بذلك قبل قدومه ، كما يدل على ذلك عنوان رسالته الى خاله أبي القاسم (٦٧) (٢) ، وعنوان مرثيته في التنوير ج ٢ ص ٨٧ ، وقوله في رسالة إلى بعض العلوية أنفذها إليه من المعرة قال فيها ص (٨٤) (٢) ، « ووجدت الوالدة رحمها الله قد سبق بها القدر الى المدر ، فأتت النية بالمنية » . فقول صاحب (الذكرى) والميمني : (٣) « ورده خبر مرض أمه » . يحتاج الى مايؤيده . وقال البطليوسي في شرحه ص ١٤٥٣ : « قال أبو العلاء على قافية الميم في أمه ، وكانت توفيت قبل مقدمه من العراق . ولذلك قال في بعض شعره :

وَوالِدَةٌ مَنَّيْتُ نَفْسِي لِقاءَها فَعاجَلَها يَوْمٌ أَلَمَّ خَؤُونُ »

وهذا البيت لم نجده في ديوانيه .

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٦٥ ، وخلعنني : أي أخرجنني .
(٢) الرسائل ــ لشاهين عطية .
(٣) الذكرى ــ لطه حسين ــ ط ٢ ص ١٩١ ، وأبو العلاء وما إليه ــ للميمني ص ١٧٦ .

اجماعه على الانفراد والعزلة وسبب ذلك

قضى أبو العلاء نحو خمس وثلاثين سنة في المعرة ، ونحو سنة وتسعة أشهر في بغداد . وكان دقيق الحسّ شديد الفطنة كثير الشك ، لاتكاد تمر به حادثة إلا أشبعها بحثاً ودراسة وتفكيرا ، وربمـا فهم من همس الشفاه وحركات الأعضاء أكثر ممـا يفهمه البصراء . وكان منذ حداثة سنه سيء الظن بالناس لا ينظر إليهم نظر الرضي والطمأنينة ، وكان كما قال : « وحشي الغريزة أنسيّ الولادة .. » . فزين ذلك كله له الانقباض عن الناس ، وحبب إليه العزلة .

فلما رحل إلى بغداد ، وكانت ملتقى الأمم من عرب وعجم ، ورأى مارأى أو سمع ماسمع ازداد مقته للناس بقدر ما ازداد علمه بهم ، واطلاعه على ماتكنه صدورهم من أخلاق لاتتفق مع شيمه ، ومعرفته من أعمالهم ماتأباه الإنسانية . وقد صرح في قصيدة درعية بسبب سجنة فقال :(١)

بَنُوالوَقتِ إِنْ غَرُّوكَ مِنْهُمْ بِحِكْمَةٍ ... فَما خَلْفَها إِلاَّ غَرائِزُ جُهَّالِ

لِذاكَ سَجَنْتُ النَّفسَ حَتَّى أَرَحْتُها ... مِنَ الإِنْسِ ماأَخْلاهُ رَبْعٌ بِإِخْلالِ

إِذاماحَلَلْتَ الجَدْبَ فَرْدًا بِلاأَذىً ... فَسَقْياً لَهُ مِنْ رَوْضَةٍ غَيْرِ مِحْلالِ

وكان فوق ذلك كله قليل المال كثير الأنفة ، مفرطـاً في التعفف والإباء ، شديد الحسرة لفقد ناظريه ، وضيق ماله عن بلوغ آماله ، وتلبية سؤّاله ، كثير الحساد ، كثير الحياء ، شديد الاحتياط والحذر . يكره أن يرى الناس منه مالا يحمدون ، أو مايجعله عرضة للازدراء والاستهزاء به .

ولم يجد شيئاً ينجو به من كل ذلك أو من جله إلا اعتزال الناس . وزاده ضغثاً على إبالة فقد أبيه ، وما لقيه في بغداد من الخشونة في بعض

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٤ س ١٨٨٠ .

الطبقة التي كان يتوقع أن تقدره حق قدره ، وتعرف له فضله وأدبه وعلمه، فاسودت الدنيا عنده ، كما اسود أهلها ، وقوى ذلك في نفسه الميل إلى الانفراد عن الناس ، وربما كانت نفس أبي العلاء تطمح إلى أسمى مكانة في الحياة ، ولكن الدهر ضرب بينه وبين أمانيه بالأسداد ، فزهد في الدنيا كلها ، لأنه لايرضيه الا أن ينال الإنسان أعظم منزلة فيها ، أو يعرض عن كل مافيها . ولعله فكر في الزمان وتصرفاته ، فلم يجد فيه سبيلاً إلى الحياة الطيبة التي يبتغيها ، وجرب الناس ، فلم يزده ذلك الا زهداً في الدنيا وأهلها ، ولقد أشار إلى هذا بأبيات من قصيدة قالها في بغداد جواباً لابن فورجة ، حيث يقول :[1]

تَأَمَّلْنا الزَّمانَ فَمَا وَجدْنا ... إِلىٰ طِيبِ الحياةِ بِهِ سَبيلا
ذَرِ الدُّنيا إِذا لَمْ تَحظَ مِنْها[2] ... وَكُنْ فِيها كَثِيراً أَوْ قَلِيلا
وأَصْبِحْ واحِدَ الرَّجلَيْنِ إِمَّا ... مَلِيكًا في المَعَاشِرِ أَوْ أَبِيلا[3]

وبقوله من قصيدة قالها في بغداد أيضا :[4]

جَرَّبْتُ دَهْرِي وأَهْلِيهِ فما تَرَكَتْ ... لِيَ التَّجارِبُ في وُدِّ امْرِىءٍ غَرَضا

متى حدثت له فكرة العزلة وأين كان ذلك ؟

زعم بعضهم أن فكرة العزلة حدثت لأبي العلاء في بغداد ، وأنها أثر من آثار اطلاعه على كتب الفلسفة فيها واحتكاكه بالفلاسفة . وأطال في

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٧٠ .
(٢) البطليوسي : « فيها » .
(٣) الأبيل : المتدين أو القس ، والمراد به الراهب ها هنا .
(٤) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٦٥٦ .

إثبات ذلك . ويظهر عند التأمل أن ذلك غير صحيح ، وأن هذه الفكرة قديمة في نفس أبي العلاء ، تدور في خلده قبل ذهابه إلى بغداد . ولعله لم يتمكن من المجاهرة بها قبل سفره . يدلنا على ذلك قوله في كتابه الآتي إلى أهل المعرة : [١] « وهو أمر أمري عليه بليل ... ليس بنتيج الساعةِ ، ولا ربيب الشهر والسنة ، ولكنه غَذِيُّ الحِقبِ المتقادِمة ، وسليل الفِكْرِ الطويل » .

متى جاهر بالعزلة وأين كان ذلك ؟

أجمع أبو العلاء على اعتزاله الناس وانفراده عنهم ، وجهر بهذه الفكرة ، وهو في بغداد ، كما يتبين ذلك من رسالة كتبها إلى علوي يقول له فيها : [٢] « وقد كنتُ عَرَّفته بالعراق ، ما عزمت عليه من انفراد ، يَحجُز عن المراد ، ووجدت الوالدة ، رحمها الله ، قد سبق بها القدر الى المدر ، فأتت النَّبَّة بالمنيّة ، فانطويت على يأس ومجانبة للناس . . . » . وفيها يقول : [٣] « ولما فاتني المقام بحيث اخترت ، أجمعت على انفراد يجعلني كالظَّبي في الكناس ، ويقطع مابيني وبينَ الناس ، إلا من وصلني الله به وصل الذراع باليد ، والليلة بالغد ... » .

وكتب إلى أهل المعرة كتاباً مَقْدَمَه من بغداد ، ولم يصل إليهم . وقد رسم في هذا الكتاب خطته التي يسير عليها مدة إقامته بين ظهرانيهم ،

(١) الرسائل ـ لشاهين عطية . ص ٨٢ ، وتعريف القدماء ص ٩٢ عن إرشاد الأريب ـ لياقوت ، وفيه : « سُري عليه » .
(٢) رسائل أبي العلاء ـ لشاهين عطية ، ص ٨٤ .
(٣) النص من رسالته إلى خاله أبي القاسم كما في الرسائل ـ لشاهين عطية ، ص ٨٠ ، وكما في تعريف القدماء ص ٩١ ، وليس من رسالته إلى العلوي كما ذكر المؤلف ، والكناس : مأوى الظبي .

ويخبرهم فيه عما أجمع عليه من العزلة، وينهاهم عن زيارته؛ ويبين لهم السبب الذي رحل من أجله إلى العراق، وما لقيه فيها. وهذا الكتاب. وإن لم يصل إلى أهل المعرة، درج عليه أبو العلاء مدةَ حياته. وهذا هو الكتاب: (١)

« بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب إلى السَّكْنِ المقيم بالمعرة، شَمِلَهم الله بالسعادة، من أحمدَ بن عبد الله بن سليمان، خَصَّ به من عرفه وداناه، سلَّم اللهُ الجماعةَ ولا أسْلَمَها، ولمّ شعثها ولا آلمها.

أما الآن فهذه مُناجاتي (٢) بعد منصرفي عن العراق، مجتمع أهل الجدل، وموطن بقيّة السَّلف، بعد أن قَضَّيتُ الحداثة فانقضت، وودَّعت الشَّبيبةَ فمضَتْ، وحَلَبْتُ الدهر أشطُرَه، وجرَّبت خيرَه وشرَّه، فوجدت أوفق (٣) ما أصنعه في أيام الحياة عُزلةً تجعلني من الناس كبارح الأرْوَى (٤) من سانح النَّعام، وما ألَوْتُ نصيحة لنفسي، ولا قصَّرت في اجتذاب المنفعة إلى حيِّزي؛ فأجمعت على ذلك، واستخرت الله فيه، بعد جلائه على نفر يوثق بخصائلهم، فكلهم رآه حزماً، وعدّه إذا تم رشداً،

---

(١) انظر ما سبق ص ٢٨٢ الحاشية (١).

(٢) كذا في الأصل، وفي الرسائل، وإرشاد الأريب: « مناجاتي إيامَ مُنْصَرَفي ».

(٣) في ابن العديم: «أقوى ما أصنعه أيام الحياة أن أخذت». (ج)

(٤) البارح من الصيد: ما مرّ من ميامنك إلى مياسرك، وبعض العرب يتطيرون به، والأروى: الوعول. والسانح: ما مر من مياسرك إلى ميامنك. ومن أمثالهم « من يجمع بين الأروى والنعام »، وذلك أن مساكن الأروى شعف الجبال، ومساكن النعام السهولة، فهما لا يجتمعان أبداً. (اللسان، نعم).

وهو أمر أمري عليه بليل [١] ، فغي بِرَقّةَ [٢] ، وخبّتْ [٣] به النعامة ، ليس بنتيـج الساعة ، ولا ربيب الشهر والسنة ، ولكنّه غذِيُّ الحقب المتقادمة ، وسليل الفكر الطويل . وبادرت إعلامهم ذلك ، مخافة أن يتفضل منهم متفضل بالنهوض إلى المنزل الجارية عادتي بسكناه ، ليلقاني فيه ، فيتعذر ذلك عليه ، فأكون قـد جمعت بين سَمْجين [٤] : سوء الأدب وسوء القطيعة . ورُبَّ مَلومٍ لاذنب له . والمثل السائر : خلِّ امرأً وما اختار . وما أسمحت [٥] القرون بالاياب حتى وعدتها أشياء ثلاثة : نَبْذةً كنبذة [٦] فنيق النجوم ، وانقضاباً [٧] من العالم كانقضاب القائبة من القُوب ، وثباتاً في البلد إنْ حال [٨] أهله من خوف الروم . فإن أبى من يُشْفق عليَّ أو يظهر الشَّفَق إلا النَّفْرة مع السَّواد كانت نفرة الأعفر [٩] أو الأدماء .

---

(١) في مجمع الأمثال : أمر سري عليه بليل . أي قد تقدم فيه ، ولبس فجأة . (ج)

(٢) في نسخة « بِقّة » وهو الصواب . وبقّة : موضع قرب الحيرة ، كان به جذيمة الأبرش ، فاستشار قصيراً بالمسير الى الزباء ، فأشار عليه فلما قرب منها ، وأحاط به جيشها ، قال : ما الرأي يا قصير ؟ فقال له : ببقّة خلفت الرأي . ولفظه في مجمع الامثال : ببقة صرم الأمر . وقال : بقة موضع بالشام من شاطئ الفرات ، وذكره مرة أخرى فقال : ببقة خلفت الرأي . (ج)

(٣) من الخبب : وهو ضرب من المشي .

(٤) قبيحين .

(٥) كذا ، وفي الرسائل ــ لشاهين عطية ، وإرشاد الأريب: « سَمَحت » والقَرُون : النفس .

(٦) نبذة : من نبذ الشيء إذا طرحه ، والفنيق : ما انشقَّ عن الشيء ، والنجوم : مفردها نجم ، ما نجم من النبات على غير ساق ، يريد أنه يطرح نفسه كما يطرح هذا النبات على وجه الارض بعد أن تنشق الحبة عنه وينجم .

(٧) انقضاباً : انقطاعاً ، القائبة : البيضة ، القوب : الفرخ .

(٨) في العدم : « إن جلا أهله » . (ج) وحال أي تحول .

(٩) وفيه : « الأعصب » . (ج) ، والأعفر : الظبي تعلو بياضه حمرة ، ونفرة الأعفر : شروده .

وأحلف ماسافرت أستكثر من النشب ، ولا أتكثر بلقاء الرجـال . ولكن آثرت الإقامة بدار العلم فشاهدت أنفس مكان[1] لم يسعف الزمن بإقامتي فيه ، والجاهل مُغالِب القدر . فلَهِيت عما استأثر به الزمان . والله يجعلهم أحلاسَ الأوطان ، لا أحلاسَ الخيل والركاب . ويسبغُ عليهم النعمة سبوغ القمراء[2] الطلقة على الظبي الغرير ، ويحسن جزاء البغداديين ، فلقد وصفوني بما لا أستحق ، وشهدوا لي بالفضيلة على غير علم ، وعرضوا عليّ أموالهم عرض الجِد ، فصادفوني غير جَذِلٍ بالصفات ، ولا هشٍ إلى معروف الأقوام ، ورحلت وهم لرحيلي كارهون ، وحسبي الله وعليه يتوكل المتوكلون » .

وقال في الفصول والغايات ج ١ ص ٢٧٣ : « طفت الآفاق ، فإذا الدنيا نفاق ، ومللت من مداراة العالم بما يضمر غيرَه الفؤاد ، فاخترت الوحدة على جليس الصدق ، ليتني مع الظليم المجهاج[3] » .

وقال في ص ٢٩٧ : « إنما أنا حي كالميت ، أو ميْت كالحي ، وما اعتزلت إلا بعد ما جَدَدْتُ وهَزَلْت ، فوَجَدْتُني لا أنفُذُ في جِدٍ ولا هَزْلٍ ، ولا أخْصِبُ في التصريح[4] ولا الأزْل ، فعليّ بالصبر ، لا بد للمُبْهَمَةِ مِنَ انفراج » .

ومحصل ما يستنتج من أقواله : أن فكرة العزلة كانت تدور في خلده قبل أن يشخص إلى بغداد ، وأنه عزم على إخراجها إلى حيز الوجود في بغداد ، ثم في المعرة . وليست أثرا من آثار احتكاكه بالفلاسفة واطلاعه على كتبهم .

---

(١) وفي ابن العديم : « أنفس ما كان » . (ج)

(٢) البيضاء . (ج) . والطلقة : الليلة لا حر فيها ولا برد .

(٣) الظليم : ذكر النعام ، والمجهاج : النفور أو الكثير الصياح . (ج)

(٤) كذا في الأصل ، وفي الفصول : « في التسريح » . والأزْل : الحبس .

ماذا فعل بعد رجوعه الى المعرة ؟

بعد أن عاد إلى المعرة ، وجد أمه قد ماتت ، أقام في منزله حينا لا يدخل عليه ، ثم اضطره أقرباؤه وأصحابه إلى فتح بابه للزائرين والمتعلمين ولم يوفق إلى الاعتزال ، كما سيأتي في لزومه بيته .

حنينه الى بغداد

قدمنا فيما سبق شيئاً من حنينه إلى المعرة والعواصم حين كان ببغداد ، وبعد أن عاد إلى المعرة ، وألقى عصا التسيار فيها ، تذكر بغداد ومن كان يلقاهم فيها من إخوان الصفاء والمودة ، وما مر له معهم فيها من الأوقات الطيبة والمجالس المستعذبة ، فهاجت الذكرى أشواقه ، وجعل يبعث الزفرة تلو الزفرة ، والحسرة بعد الحسرة على مفارقتهم . وكان كلما ضاق ذرعا ببغداد تشوق إلى المعرة وأهلها ، فصار كلما ضاق ذرعه في المعرة تشوق إلى بغداد ومن عرفه فيها . شأن كل إنسان يجتوي مكانه ويسأم مَن حوله من إخوانه وأخدانه . وقد أكثر في شعره من اللوعة والحنين إلى بغداد ومن فيها ، ومدحها ومدحهم . من ذلك قوله في قصيدة كتبها إلى القاضي التنوخي (١) :

سَقْياً لِدِجلَةَ والدُّنيا مُفَرَّقَةٌ　　حَتَّى يَعُودَ اجْتِمَاعُ النَّجْمِ تَشْتِيتا (٢)
وبَعْدَها لا أُرِيدُ الشُّرْبَ مِنْ نَهَرٍ　　كَأَنَّما أَنا مِنْ أَصْحابِ طَالُوتا (٣)

* * *

(١) شروح سقط الزند : ق ٤ س ١٦٣٨ .
(٢) النجم : الثريا . يريد أن الدنيا تفرق كل مجتمع حتى الثريا . (ج)
(٣) طالوت : ملك ، يشير إلى الآية الكريمة (فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني) . (ج)

ذمّ الوليدُ[1] ولم أذُمّ جوارَكم ... فقال ما أنصفتْ بغدادُ حُوشيتا

فإنْ لقيتُ وليداً والنوى[2] قذفٌ[3] ... يومَ القيامةِ لم أعدمْهُ تبكيتا

وقوله من قصيدة أرسلها إلى أبي أحمد عبد السلام البصري :[4]

أَلَمْ يأتِكُمْ أنّي تفرّدْتُ بعدكُمْ ... مِنَ الإنسِ مَنْ يَشْرَبْ مِنَ العِدِّ يَنْقَعِ[5]

نعمْ حبّذا قيظُ العراقِ وإنْ غدا ... يَبُثُّ جماراً في مَقيلٍ ومَضْجَعِ

فكمْ حلّهُ مِنْ أصمعِ القلبِ آيسٍ ... يَفُوقُ ابنَ أوسٍ فَضْلُهُ وابنَ أصمعِ[6]

أخفُّ لذِكْراهُ وأحفظُ غَيْبَهُ ... وأنهضُ فعلَ الناسكِ المتشرّعِ[7]

* * *

---

(١) الوليد : البحتري ، قال من أبيات :

ما أنصفت بغداد حين توحشت ... لنزيلها وهي المحل الآنس . (ج)

(٢) الخوارزمي : « والمدى » والقذف : البعيدة .

(٣) البطليوسي : « كثب » .

(٤) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٥٨٨ .

(٥) العد : الماء الذي لا ينقطع ، وينقع : يروى ويشفي غلته . (ج) . وفي الشروح : « عن الإنس » .

(٦) ابن اوس : أبو تمام حبيب بن أوس : وابن أصمع : عبد الملك بن قريب الأصمعي . ورواه التبريزي : « يطول ابن أوس » وقال : هو حبيب بن أوس الطائي ، وكذلك البطليوسي . وقال الخوارزمي : ابن أوس ، هو أبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت ابن زيد الأنصاري ولد سنة ١٢١ هـ ومات سنة ٢١٤ هـ ، ثم قال : ويحتمل أن يريد أبا تمام حبيب بن أوس فراجعه ص ١٥٨٩ . (ج)

(٧) وفي الشروح : « المتخشع » .

ومنها :

لَقَدْ نَصَحَتْني في المُقامِ بأَرْضِكُمْ ... رِجالٌ ولكِنْ رُبَّ نُصْحٍ مُضَيَّعِ
فلا كانَ سَيْري عَنْكُمْ سَيْرَ[1] مُلْحِدٍ ... يَقُولُ بيأْسٍ مِن مَعادٍ ومَرْجِعِ

وقوله من قصيدة كتبها إلى خازن دار العلم :[2]

وَلي حاجةٌ عِنْدَ العِراقِ وأهْلِهِ ... فإِنْ تَقْضِياها فالجَزاءُ هُوَ الشَّرْطُ
سَلا عُلَماءَ الجانِبَيْنِ وفِتْيَةً ... أبَنُّوهُما[3] حتَّى مَفارِقُهُمْ شُمْطُ
أعِنْدَهُمُ عِلْمُ السُّلُوِّ لِسائِلٍ ... بِهِ الرَّكْبُ لَمْ يَعْرِفْ أماكِنَهُ قَطُّ
وَما أرَبي إلاَّ مُعَرَّسُ مَعْشَرٍ ... هُمُ النَّاسُ لا سُوقُ العَرُوسِ ولا الشَّطُّ

. . .

ومنها :

ألا لَيْتَ شِعْري هَلْ أدِينُ رَكائِباً ... أمُطُّ بِها حَتَّى يُطَلِّحَها المَطُّ[4]
وَهَلْ يُنْشِطَنِّي مِنْ عِقالي إليْكُمُ ... رِضى زَمَني أمْ كُلُّ شِيمَتِهِ سُخْطُ

. . .

---

(١) وفي شروح السقط : « رأي » .
(٢) شروح سقط الزند : ق ٤ س ١٦٦٨ .
(٣) أبنّ : أقام . (ج)
(٤) المط : المد . طلّحه : أتعبه حتى أعيا . (ج)

ومنها :

وإنْ خلطَتْني بالتّراب منيّةٌ ... فبعضُ ترابي من مودّتكم خِلْطُ
فيا ليتني طارَتْ بكوري إذا دنا ... بكوري قطاةٌ بالصَّراة لها وَقْطُ(١)
لأقضيَ همَّ النفس قبل مَجلّةٍ(٢) ... كأنّ عظامي الباليات بها خطُّ

ومما جاء في (لزوم مالا يلزم) قوله : (٣)

يا لهف نفسي على أنّي رجعتُ إلى ... هذي البلاد ولم أهلك ببغداذا
إذا رأيتُ أموراً لا توافقني ... قلتُ الإيابُ إلى الأوطان أدّى ذا

وقوله : (٤)

شُئِمتِ يا همّةً عادتْ شآميةً ... من بعدما أوطنتْ عصراً ببغداذ
ولستِ ذاتَ نخيلٍ لا ولا أُنُفٍ ... كرْميّةٍ فتقولي شفّني داذي(٥)

---

(١) الوقط : نقرة في صخرة يجتمع فيها ماء المطر ترده القطا . (ج) ، ورواية الشروح : « بكوري إذ دنا » ، والكور : الرحل ، والصراة : مجتمع دجلة والفرات .

(٢) أراد بالمجلة : القبر ، وشبه عظامه البالية بعد موته بالخيط الذي درس معظمه وبقيت منه آثار يستدل بها عليه . وفي الخوارزمي : السماع « محلة » بالحاء وروي بالجيم وهي الصحيفة التي فيها الحكمة . (ج)

(٣) اللزوميات ﻫ ص ١١٦ .

(٤) اللزوميات ﻫ ص ١١٧ .

(٥) الداذي : نبت . وقيل هو شيء له عنقود مستطيل وحبه على شكل حب الشعير ، يوضع منه مقدار رطل في الفَرَق ، فتعبق رائحته ويجود إسكاره ، جاء على لفظ النسب وليس بنسب . (ج)

حزنه في بغداد على مفارقتها ومفارقة أهلها

كان قبل أن يفارق بغداد يكثر من إظهار اللوعة لفراقها ، ويكثر الولوع بمن فيها ، ويعبّر بشعره عما يعتلج في صدره من الأسف على فراقها ، وعما يضمره في نفسه من الولاء والحب والاعتراف بالجميل لأهلها ، من ذلك قوله من قصيدة قالها في بغداد يرثي القاضي التنوخي : (١)

إذا نَأَتِ العِراقَ بِنا المَطَايا ... فَلا كُنّا وَلاَ كَانَ المطِيُّ
عَلَى الدُّنْيا السَّلامُ فَمَا حياةٌ ... إذا فَارَقْتكمْ إلاَّ نَعِيُّ (٢)

وقال من قصيدة قالها ببغداد يودعها : (٣)

أُوَدِّعُكُمْ يَاأَهْلَ بَغْدادَ والحَشَى ... عَلَى زَفَراتٍ مَا يَنِينَ مِنَ اللَّذْعِ (٤)
وَدَاعَ ضَنٍ لَمْ يَسْتَقِلَّ وإِنَّما ... تحامَلَ مِنْ بَعْدِ العِثارِ عَلَى ظَلْعِ (٥)
إِذا أَطَّ نِسْعٌ قُلْتُ واللَّوْمُ كارِبي ... أَجِدَّكُمُ لَمْ تَفْهَمُوا طَرَبَ النِّسْعِ (٦)
فَبِئْسَ البَدِيلُ الشَّامُ عَنْكُمْ وأَهْلُهُ ... عَلَى أَنَّهُمْ قَوْمِي وبَيْنَهُمُ رَبْعِي (٧)

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ س ١٣٣٠ .
(٢) كذا في التنوير والتبريزي ، وروايته في الشروح : « النَّمِيُّ » .
(٣) شروح سقط الزند : ق ٣ س ١٣٤٩ .
(٤) ينين : يفترن . (ج)
(٥) الضنى : مرض ملازم ، وضن : مضنى . والظلع : الغمز في مشي الدابة ، وهو شبيه بالعرج . (ج) . ورواية الشروح : « وداع ضنًى » .
(٦) أطّ : صوّت ، والنسع : سير مضفور . (ج)
(٧) في الشروح : « الشَّأْمُ منكم » .

أَلا زَوِّدُوني شَرْبَةً ولَوَ أنَّنِي قَدَرْتُ إِذاً أَفْنَيْتُ دِجْلَةَ بِالجَرْعِ
وأَنَّى لَنا مِنْ مَاءِ دِجْلَةَ نَغْبَةٌ عَلَى الخِمْسِ مِنْ بُعْدِ المَفاوِزِ والرِّبْعِ (١)

* * *

ومنها :

سَأُعْرِضُ إِنْ ناجَيْتُ مِنْ غَيرِكُمْ فَتًى
وأَجْعَلُ زَوّاً مِنْ بَنانِيَ في سَمْعِي (٢)

* * *

ومنها :

أَبَيْتُ فَلَمْ أُطْعَمْ نَقِيعَ فِراقِكُمْ مُطاوَعَةً حَتَّى غُلِبْتُ عَلَى النَّشْعِ (٣)

* * *

ومنها :

لَبِسْتُ حِداداً بَعْدَكُمْ كُلَّ لَيْلَةٍ
مِنَ الدُّهْمِ لا الغُرِّ الحِسانِ ولا الدُّرْعِ (٤)

---

(١) نغبة : جرعة . والخمس والرِّبْع : من أظماء الإبل . (ج)

(٢) الزوّ : الزوج . (ج)

(٣) النقيع : ما نقع في ماء أو ما يجري مجراه . والنشع : الإسعاط . (ج)

(٤) الدهم : السود . والغر : البيض . والدرع : قيل : التي تسود أوائلها وبيض سائرها وقيل : والغر ، ليلة ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة . والغرر : ثلاث ليال من أول الشهر ، والدرع : الثلاث من ليالي الشهر بعد البيض . وقال الخارزنجي : ثلاث ليال أول الشهر درع وثلاث من آخره درع . (ج)

ثم تمنى في بقية هذه القصيدة أن يحم له أجله في العراق ، حتى لا يفارق آهلها ، وتمنى للنوق التي حملته من العراق أن تنحر ويطبخ لحمها في الخلع (١) .

ومنها قوله من قصيدة أجاب بها ابن فورجة : (٢)

وردْنا ماءَ دِجلَةَ خيْرَ ماء وزُرْنا أشْرفَ الشجَرِ النَّخيلا
وزُلْنا بالغَليلِ وما اشْتَفَيْنا وغايَةُ كُلِّ شَيْءٍ أنْ يَزُولا

ولا أعلم شاعراً زار مدينة من المدن فأكثر من الثناء عليها وعلى آهلها ، ومن الحنين إليها وإليهم مثل أبي العلاء . فإنه أكثر من الثناء والمدح على بغداد وأهلها ، واعترف لهم بكل جميل ، وأكثر اللوعة والحزن على مراقها ، وتمنى أن يموت فيها في نظمه ونثره . وقد رأيتَ مثالاً من ذلك .

★ ★ ★

(١) الخلع : أن ينحر الجزور ويطبخ لحمها بشحمها ويطرح فيها توابل ثم يفرغ في جلد .
(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٩٩ .

المقالة الثانية

[illegible] في بقية هذه القصيدة [illegible] في العراق [illegible] الأبيات [illegible] التي [illegible] من [illegible] ويقال إنها [illegible] [1]

ومنها قوله من قصيدة [illegible] [2]

وردنا ماء دجلة خير ماء … وزرنا أشرف الشجر النخيلا

وزلنا بالقليل وما اقتضينا … وغاية كل شيء أن يزولا

[illegible]

* * *

(1) [illegible]

(2) [illegible]

حياة أبي العلاء في المعرّة

بَعدَ عَودَتِهِ مِنْ بَغدَاد

قدمنا شيئاً من الكلام على حياة أبي العلاء، من أول نشأته إلى أن عاد من بغداد. ورافقناه في أكثر المواقف التي استطعنا معرفتها، ووصفنا المشاهد التي أمكننا وصفها. وألممنا بما وقع له وعليه في هذا الطور، إلى أن رجع من بغداد، وألقى عصاه في وطنه. والآن نذكر ما انتهى إلينا من أخباره وأطواره، وما اكتنف حياته كلها إلى أن فارق الحياة. ولما كان المال أساس كل شيء في هذه الحيـــاة، وبسبب اختلافه في القلة والكثرة، تختلف أحوال الإنسان، رأينا أن نقدم الكلام على ماله، فنقول:

ماله

اختلفت كلمة القوم في مال أبي العلاء. فقال القفطي [١]: «لم يكن من ذوي الأحوال في الدنيا، وإنما خلّف له وَقف يشاركه فيه غيره من قومه ... وكان الذي يحصل له في السنة مقدار ثلاثين ديناراً، قدر لمن يخدمه النصف، وأبقى النصف الآخر لمؤونته».

وقال الذهبي وابن حجر في لسان الميزان نحواً من هذا [٢]. وسيأتي أنه كتب الرسالة السندية إلى سند الدولة في معنى خراج على مُلكه في

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣١ عن إنباه الرواة — للقفطي.

(٢) تعريف القدماء بأبي العـــلاء ص ١٩٠، ٣١٢، عن تاريخ الاسلام — للذهبي — ولسان الميزان — لابن حجر.

معرة النعمان ، ولم أر أحداً عين هذا الملك ، ولا ذلك الوقف . وسيأتي أيضاً أن له داراً قوراء ، وخدماً ونحو ذلك . وكل هذا كلام مجمـل غامض قائم على الظن .

أما أبو العلاء ، فقد قال في جوابه إلى داعي الدعاة (١) : « ومما حثّني على ترك أكل الحيوان أن الذي لي في السنة نيفٌ وعشرون دينـاراً ، فإذا أخذ خادمي بعضَ مايجب ، بقي مالا يعجب » .

والنيف مازاد على العقد ، ولم يبين مقداره ، ولا بيّن الجهة التي يحصل له منها هذا المقدار ، هل هي ملك أم وقف ؟ . ولما كان هذا المبلغ قليلاً لايسد حاجات أبي العلاء لأنه كان يجري على كتّابه أرزاقاً معينة ، وينفق على طلابه ، ويعطي قاصديه ، وهم كثر ، كان يعد هذا المال كلا مال . ولذلك كان يشكو قلة المال حينا ، وينفيه حيناً آخر ، كقوله من أبيـات قالها بعد أن وهب له المعرةَ صالحُ بن مرداس : (٢)

مَا كَانَ لِي فِيهَا جَنَاحُ بَعُوضَةٍ   وَاللهُ أَلْبَسَنِي جَنَاحَ تَفَضُّلِ

وقوله : (٣)

مَاذَا تُرِيدُونَ لا مَالٌ تَيَسَّرَ لِي   فَيُسْتَمَاحُ وَلاَ عِلْمٌ فَيُقْتَبَسُ

وقوله في كتابه إلى صدقة بن يوسف : (٤) « ولم أكن صاحب ثروة فكيف الحُداء بغير بعير .. » وستأتي في الكلام على المال طائفة من كلامه في ذلك .

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٢٥ ، ٣١٦ ، عن إرشاد الأريب ـ لياقوت ـ ولسان الميزان ـ لابن حجر .

(٢) اللزوميات ٥ ص ٢٢٠ ، وفيها « ألبسهم » .

(٣) اللزوميات ٥ ص ٣١٣ .

(٤) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٥٤ عن مسالك الابصار ـ للعمري .

فالذي يمكن التعويل عليه ، هو أن ماله نيف وعشرون دينارا ، يأخذ خادمه بعضها ، والباقي يسد به رمقه ، ويؤدي بها حقوق أضيافه وقاصديه ، ويجري على كتّابه ، ويقوم بكل مايحتاج إليه منها .

طعامه

بعد أن علمنا ما كان لأبي العلاء من المال في السنة ، لانستنكر أن نراه يعيش عيشة الشظف والخشونة ، ويصاحب صوم الدهر منذ بلغ ثلاثين عاما ، ويقتصر على النبات حتى صار ذلك طبعا له . وقد قال في رسالته إلى داعي الدعاة [١] : « فلما بلغ العبد الضعيف العاجز اختلاف الأقوال ، وبلغ ثلاثين عاما ، سأل ربه إنعاماً ، ورزقه صوم الدهر ، فلم يفطر في السنة ولا في الشهر إلا في العيدين ... وظن اقتناعه بالنبات يثبت له جميل العافية .... فاقتصرت على فول وبُلسن ، وما لا يعذب على الألسن ... » .

وقال في رسالة ثانية إليه [٢] : « فالعبد الضعيف العاجز ماله رغبة في التوسع ومعاودة الأطعمة ، وتركها صار له طبعا ثانياً . وإنه ما أكل شيئاً من حيوان خمساً وأربعين سنة » .

وذكر الرحالة الفارسي ، أنه لم يكن يأكل غير نصف مَنٍّ [٣] من خبز الشعير ، وربما أكل طعاماً بلا إدام ليلا .

---

(١) ياقوت ١ : ١٩٩ ، لسان الميزان ١ : ٢٠٦ . (ج) وفي تعريف القدماء ص ١٢٣ عن الإرشاد — لياقوت — « فلم يفطر في السنة ولا الشهر إلا العيدين » .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٣٢ عن إرشاد الأريب — لياقوت .

(٣) المنّ : الذي يوزن به رطلان ، والرطل ١٢٨ درهما تقريباً (ج) تعريف القدماء ص ٤٦١ عن سفرنامة — لناصر خسرو ، وفي النص اختلاف .

وفي (لسان الميزان) [١] : « بقي خمساً وأربعين سنة ، لا يأكل اللحم ولا البيض ولا اللبن ، ويقتصر على ماتنبت الأرض ، ويلبس خشن الثياب ، ويديم الصوم » . وذكر ابن الجوزي في (المنتظم) ، وياقوت نحواً من هذا . وقال القفطي والصفدي [٢] : « كان أكله العدس إذا أكل مطبوخاً ، وحلاوته التين » . وسيأتي أنه أكل دبسا .

هذا ماقاله العلماء في طعامه ، وما نقلوه عنه ، وقد أشار في شعره إلى ماكان يرتضيه من الأطعمة ، وما كان يأباه منها . فمن الأول قوله :

يُقْنِعُنِي بُلْسُنٌ يُمارَسُ لي وإنْ أتَتْنِي حَلاوَةٌ فَبَلَسْ [٣]

فَلُسَّ ماأخْتَرْتَ إنَّ أرْوَحَ مِنْ يَسارِ قارُونَ عِفَّةٌ وفَلَسْ [٤]

* * *

وقوله : [٥]

وقُوتِيَ الشَّيْءُ أبى مِثْلَهُ فَصِيحُ هذا الخَلْقِ والألْكَنُ

* * *

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣١٥ عن لسان الميزان — لابن حجر .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣١ ، ٢٧٤ عن إنباه الرواة — للقفطي ، والوافي — للصفدي .

(٣) البلسن : العدس أو حب مثله ، والبلس : التين (ج) والبقان في اللزوميات هـ ص ٣٢٦ ، وفيها « فإن » .

(٤) لسّ : أكل . ولسّت الدابة الحشيش : تناولته ونتفته بجحفلتها ، والفلس : عدم النيل (ج) .

(٥) اللزوميات هـ ص ٢٦٣ ، والألكن : من لا يقيم العربية لعجمة لسانه .

وقوله : (١)

أقفرتُ من جهتين قفرِ مفازةٍ ... وطعامِ ليلٍ جاء وهو قفارُ

* * *

وقوله : (٢)

ومَا عِرْسِيَ حَوْراءُ ... ولا خُبْزِيَ حُوَّارَى

* * *

وقوله :

وإذا غلا البُرُّ النَّقِيُّ فشارِكِ الـ ... ـفَرسَ الكريمَ وساوِطِرْفَكَ تَمجُدِ (٣)

واجْعَلْ لنفسِكَ من سَلِيطِ ضيائِها ... أُدْمًا ونَزْرَ حلاوةٍ من عنْجَدِ (٤)

* * *

(١) أقفر الرجل : صار إلى القفر ، وهو الخلاء من الأرض ، وأقفر : أكل طعامه بلا إدام . (ج) والبيت من قصيدة في اللزوميات ﻫ س ١٣١ .

(٢) حوراء : من الحور ، وهو شدة سواد المقلة في شدة بياضها في شدة بياض الجسد . والحوراء : البيضاء ، والحوارى : الدقيق الأبيض ، وهو لباب الدقيق وأجوده وأخلصه . (ج) اللزوميات ﻫ س ٢٨ .

(٣) البر : الحنطة ، والطرف : الفرس ، والمراد مساواته في أكل الشعير . (ج) والبيتان في اللزوميات ﻫ س ١١٣ .

(٤) السليط : الزيت ، والعنجد كجعفر وقنفذ : حب العنب والزبيب ، والإدام : ما يؤتدم به مائعاً كان أو جامداً ، وجمعه أدُم مثل كتاب وكتب ويسكن للتخفيف فيعامل معاملة المفرد ، ويجمع على آدام ، مثل قفل وأقفال (ج) .

وقوله : (١)

يَكفيكَ أُدْمًا سَليطٌ مَا أُرِيقَ لَهُ دَمٌ ولا مَسَّ رُوحًا إذْ جَرى أَلَمُ

* * *

وقوله : (٢)

فَاتْرُكْ لِأهْلِ المُلْكِ لَذّاتِهِمْ فَحَسْبُنا الكَمْأَةُ والْأَحْبَلُ

* * *

وقوله : (٣)

طَهَتْ لَكَ الشَّمْسُ ما يُغْنِي أخادَعَة عَنْ أنْ يَكُونَ لَهُ فِي الارضِ طاهُونا

* * *

وقوله : (٤)

غَدَوْتُ أُعِدُّ الحُرْفَ سَعْدًا كَأَنَّني ظَلِيمٌ تَغَذّى راضِيا بِهَبِيدِ

ومن الثاني قوله (٥) :

أَبى اللهُ أكْلِي دَرَّ ضَأْنٍ ومَاعِزٍ وإدْخالِيَ الأَمْرَ المُضِرَّ عَلى السَّخْلِ

* * *

---

(١) اللزوميات ﻫ س ٢٣٢ .

(٢) الأحبل كأحمد وإثمد : اللوبياء (ج) اللزوميات ﻫ س ٢٠٠ .

(٣) طهت : طبخت وأنضجت ، والدعة : الخفض في العيش والراحة . (ج) اللزوميات ﻫ س ٢٦٤ .

(٤) الحرف : حب الرشاد ، وهو حب كالخردل ، والظليم : ذكر النعام ، والهبيد : الحنظل . (ج) اللزوميات ﻫ س ١٠٦ .

(٥) الدر اللبن ، والسخل جمع سخلة : ولد الشاة من الضأن والمعز . اللزوميات ﻫ س ٢١٠ وفيها : « أبى الله أخذي » .

وقوله : (١)

لا أشركُ الجدْيَ في درّ تعيشُ بِهِ ولا أروعُ بناتِ الوحْشِ والضّأنِ

* * *

وقوله : (٢)

لا أفجعُ الامَّ بالرّضيعِ ولا أشْركُ هذا الفرِيرَ باللبَنِ
أقتاتُ مِنْ طِيبِ النّباتِ وهلْ يَسْلَمُ عودُ الفتى مِنَ الأُبَنِ (٣)

* * *

وقوله : (٤)

تَقِ اللهَ حتّى في جَنى النّحْلِ شرْتهُ فما جمعَتْ إلا لأنْفُسِها النّحْلُ

* * *

وقوله : (٥)

أعْرِضْ عَنِ الثوْرِ مصْبُوغاً أطايبُهُ بالزّعْفرانِ إلى ثوْرٍ مِنَ الأقِطِ

* * *

(١) الجدي : الذكر من أولاد المعزى . (ج) اللزوميات هـ س ٢٧٧ .

(٢) الفرير: ولد البقرة الوحشية . (ج) البيتان في اللزوميات هـ س ٢٨١ . وفيها : « في اللبن » .

(٣) الأبن جمع أبنة : العقدة ، وفي اللزوميات « طيب النهات » ولعلها تصحيف .

(٤) الجنى : العسل ، وشاره يشوره : استخرجه من الوقبة واجتناه . (ج) اللزوميات هـ س ١٩٤ .

(٥) الثور : ذكر البقر ، والقطعة العظيمة من الأقط ، وهو لبن جامد مستحجر ، وأطاب الجزور : خيره . (ج) اللزوميات هـ س ١٧٩ .

وقوله : (١)

فَلاَ تأْكُلَنْ ما أَخْرَجَ البَحْرُ ظَالِماً   وَلاَ تَبْغِ قُوتاً مِنْ غَرِيضِ الذَّبَائِحِ

* * *

إلى آخر هذه الأبيات الآتية في الرفق بالحيوان .

ترك أكل لحم الحيوان وما تولد منه

يحدثنا أبو العلاء أنه ما أكل حيوانا ، ولا ماتولّد من حيوان ، خمسا وأربعين سنة ، وظل متشدّداً في اجتناب اللحم إلى ان مات . وقد ذكر ياقوت(٢) ج ١ ص ١٧٠ ، أنه مرض مرة ، فوصف له الطبيب فرُوجا ، فلما جيء به لمسه بيده وقال : استضعفوك فوصفوك ، هلا وصفوا شبل الأسد ؟!. وفي (نزهة الألباء) : « وصف لمريض فرّوج ... » .

سبب ترك اللحم

ذهب بعض الأدباء إلى أن أبا العلاء كان برهميا ، فكان لا يأكل الحيوان ولا ماتولد منه تدينا واعتقادا . وذهب بعض آخر إلى أنه كان لا يأكل ذلك زهادة .

وذكر أبو العلاء نفسه ، في رسائله إلى داعي الدعاة ، أن السبب الأول الذي حمله على ترك أكل الحيوان وما تولد منه ، هو الرأفة به ، لأن الحيوان كله حساس يقع به الألم ، ولم يوصل إلى اللحوم إلا بايلام الحيوان ، وأنه تركه اجتهادا في التعبد ورحمة للمذبوح . وأن مما حثه على ترك أكله

---

(١) الغريض : الطري . (ج) اللزوميات ه‍ س ٨٤ ، وفيها : « أخرج الماء » .
(٢) انظر معجم الأدباء .

أن الذي له في السنة نيف وعشرون ديناراً ، يأخذ بعضها خادمه . وقد أشار تلميذه علي بن همام المعري بقوله الآتي في رثائه (١) :

إِنْ كُنْتَ لَمْ تُرِقِ الدِّمَاءَ زَهَادَةً . . . .

إلى أن ذلك كان منه زهادة ، وقال ابن الوردي في تاريخه ج ١ ص ٣٥٨ أن قول تلميذه : « لم ترق الدماء زهادة » ، يدفع قول من قال : إنه لم يرق الدماء فلسفة ونسبة إلى رأي الحكماء . وتلميذه أعرف به ممن هو غريب يرجم بالغيب . . . وستأتي تتمة القول في هذا عند الكلام في دينه وزهده . وسيأتي أنه لم يأكل من البطيخ الذي استقدمه من حلب للجماعة ، وأنه كان يتناول ما يقوم بأوده من أيسر الموجودات .

شرابه

لم تكن زهادة أبي العلاء في اللاذ منحصرة في ترك اللحم واللبن ونحوه مما يتولد من الحيوان ، بل تعدى ذلك إلى هجر الأشربة وما يتصل بها من لذة وسرور ، وحكم على نفسه في ذلك حكما قاسيا . فلم يحدثنا التاريخ أنه شرب خمراً أو نبيذا ، ولا شهد مجلساً تدار فيه كؤوس الخمر . بل كتابه اللزوم يحدثنا أنه يعتقد في الخمر أنها باب كل بلية ، وأنها سم يودي باللب ، وأنها تجر ملاحاة الصديق ، وأنها ، وأنها ... ولو كانت حلالاً لما شربها ، لأنها تخفف ميزان حلمه . وأما قوله ، وهو في العراق :

تَمَنَّيْتُ أَنَّ الْخَمْرَ حَلَّتْ لِنَشْوَةٍ . . . .

فلا يناقض اعتقاده في الخمر ، لأنه أراد بهذه الأبيات أن يبين مابلغ به الضيق والوحدة ، فتمنى أن تحل الخمر لتخفف من عنائه شيئا ، على كرهه لها ، والتمني ليس بفعل ، وإنما هو طلب مستحيل أو ما في حكمه في الغالب . وسيأتي في الكلام على مرضه أن ابن أخيه أتاه بقدح من سكنجبين ، حين حضرته الوفاة ، فامتنع . فحلف ابن أخيه أن لابد من أن يشربه ، فأجابه ببيتين .

(١) عجز البيت : « فلقد أرقت اليوم من جفني دما »
انظر تعريف القدماء ص ٢٥ عن ياقوت .

آنيته

ولما كان أبو العلاء زاهداً في المطعم الطيب والمشرب الطيب ، كان زاهداً في اتخاذ الآنية النفيسة ، معرضاً عن اقتناء الفاخر منها ، ولقد بين في شعره ما كان يرتضيه ومالا يرتضيه منها فقال : (١)

وَنَشْرَبُ الماءَ بِراحاتِنـــا ... إِنْ لَمْ يَكُنْ مَا بَيْنَنَا جُنْبُلُ

* * *

وارْسُمْ بِفَخَّارٍ شَرابَكَ لا تُرِدْ ... قَدَحَ اللُّجَيْنِ ولا إِناءَ العَسْجَدِ (٢)

* * *

مِنْ مَذْهَبِي أن لا أشُدَّ بِفِضَّةٍ ... قَدَحِي ولا أُصْغِي لِشَرْبٍ مُعَوَّجِ (٣)

* * *

فَعُجْ يَدَكَ اليُمْنَى لِتَشْرَبَ طَاهِراً ... فَقَدْ عِيفَ لِلشُّرْبِ الإِناءُ المُعَوَّجُ (٤)

* * *

(١) الجنبل : قدح عظيم من خشب (ج) اللزوميات هـ ص ٢٠٠ .
(٢) اللزوميات هـ ص ١١٢ .
(٣) شده : أوثقه وقواه . وصغى إليه : مال ، وأصغى إليه رأسه : أماله . ومعوج : ركب فيه العــاج وهو ناب الفيل أو عظمه . (ج) اللزوميات هـ ص ٧٨ وفيها « ألا أشد » .
(٤) اللزوميات هـ ص ٧٣ .

قَدْ شَرِبْتُ المِيَاهَ بِالخَزَفِ الوَخْـــشِ فَأَغْنَى عَنْ مُحْكَمَاتٍ بِخَرْشِ (١)

ومنها يتبين أن إناءه الذي يشرب به من خشب أو فخار ، فإن لم يكن أحدهما شرب بيده ، ولا يتخذ قدحاً من فضة أو ذهب ولا مذهّبا ولا مُعَوّجا .

وقد وصف الماء الذي كان يشربه في الشتـــاء ، والكوز الذي كان يشرب به في السقط فقال : (٢)

وَالمَاءُ وِرْدِي لا تَزَالُ نَوَاجِذِي ... في مُنْتَضَاهُ سَوَابِحًا كَأَوَازِمِ

يُمْسِي وَيُصْبِحُ كُوزُنَا مِنْ فِضَّةٍ ... مَلأَتْ فَمَ الصَّادِي كُسُورَ دَرَاهِمَ

يقول : إنه يشرب الماء وقد جمُد بعضُه لشدة البرد ، فنواجذه سابحة فيه عاضة عليه . والكوز قد جمد عليه الماء ، فكأنه معمول من فضة ، فإذا شرب امتلأ فمه فضة ككسور الدراهم .

لباس وأثاث وفراش

ولد الإنسان عاريا من كل ساتر ، ثم استفظع أن تكون سوأته بادية ، لأن الله لم يجعل لها في بنيته مايسترها ، فاتخذ لها لباساً يسترها من جهة ، ويقيه أذى الحر والبرد ، ويدفع عنه عادية الحيوان والطبيعة من جهة ثانية . ثم أخذ الناس يتنافسون في الملابس ، ليظهر فضل الغني على الفقير ؟ ولم

(١) الوخش : الردي‌ء ، والخرش : الخدش . (ج) اللزوميات هـ ص ٣٢٨ .
(٢) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٥١٨ ، والأوازم : العاضّة ، يقال ، أزم عليه إذا عض .

يقتصروا في ذلك على الأحياء ، بل تعدى إلى أكفان الموتى كما سيأتي .

وأبو العلاء يرى أن الغاية المقصودة من اللباس تحصل بأي نوع كان ، واتخاذ اللباس الفاخر ، فيه كسر لقلب الفقير وإسراف فيما يمكن الاستغناء عنه ، ولذلك كان لباسه خشن الثياب من القطن . وكان فراشه من لباد في الشتاء وحصير من البردي في الصيف . وقد قص علينا في شعره ما كان يختاره من لباس وأثاث ، وهو يمثل صورة قاسية من الزهد ألزم بها نفسه ، من ذلك قوله :

لَمْ يَكُنْ لِي عَرْشٌ فَيُثْلَمَ عَرْشِي　　كَمْ جُرُوحٍ جُرْحُتُها ذاتُ أرْشِ [1]

مُقْنِعِي في الزَّمَانِ سِتْرِي ودِفْئِي　　مِنَ لِباسٍ رَاقَ العُيُونَ وفَرْشِ [2]

وقوله : [3]

لِبَاسِيَ البِرْسُ فلا أخضَرٌ　　وَلاَ خَلُوقِيٌّ ولا أدْكَنُ

وكان يلبس ثوبا ليست له بطانة ، فيقاسي في الشتاء من شدة البرد

---

(١) العرش : البيت والمنزل وسرير الملك ، وشبه بيت من جريد يُجعل فوقه الثمام . ويثلم : يحدث فيه خلل . والأرش : الفساد ، ثم قيل لدية الجراحات : أرش . (ج) البيت والذي بعده في اللزوميات هـ ص ٣٢٨ .

(٢) الفرش : المفروش من متاع البيت . (ج)

(٣) البِرْس : القطن ، والخلوقي : نسبة إلى الخَلُوق ، وهو طيب يتخذ من الزعفران وغيره وتغلب عليه الحمرة والصفرة . والدكنة : لون يضرب الى الغبرة بين الحمرة والسواد وقيل يضرب الى السواد ، دكِنَ كفرح فهو أدكن . (ج) اللزوميات هـ ص ٢٦٣ .

مالا يحتمله غيره، ولذلك كان يتمنى انقضاء الشتاء، وقدوم الربيع والصيف ليدفأ، كما يصور ذلك قوله : (١)

أُجاهِدُ بالطَّهارَةِ حِينَ أشْتُو وذَاكَ جِهادُ مِثْلي والرِّباطُ
مَضى كانُونُ ماﭐسْتَعْمَلْتُ فِيهِ حَمِيمَ المَاءِ فَاقْدَمْ يا سُباطُ
تُشابِهُ أنْفُسَ الحَشَراتِ نَفْسِي يَكُونُ لَهُنَّ بِالصَّيْفِ ارْتِباطُ (٢)

وسيأتي أن عبد الله بن الوليد بن عريب رأى أبا العلاء قاعداً على سجادة لبد يسبّح . وقال الرحالة ناصر خسرو : « إنه تردى ببرجد » . ويأتي عن (النور السافر) أن لأبي العلاء سريراً يجلس عليه . ولكن لم يبين لنا نوع ذلك السرير . وكلامه في السقط يدل على أن له بساطاً ونمرقة أثرت فيهما ناره مع ضعفها، وذلك قوله : (٣)

وَلَدَيَّ نارٌ لَيْتَ قَلْبِي مِثْلُها فَيَكُونَ فاقِدَ وَقْدَةٍ وسَخائِمِ
عَبِثَتْ بِثَوْبِي والبِساطِ وغَادَرَتْ في نُمْرُقي أثراً كَوَسْمِ الوَاسِمِ

---

(١) الجهاد : محاربة العدو، والمبالغة، واستفراغ مافي الوسع والطاقة من قول أو فعل، والطهارة في الثوب : ماعلا وظهر ولم يل الجسد تقبض البطانة، وهي ماولي الجسد منه وكان داخلاً . أشتو : أقيم في الشتاء . والرباط : ملازمة ثغر العدو . (ج) اللزوميات ھ س ١٧٧ .

(٢) الحشرات : هوام الأرض . (ج)

(٣) شروح سقط الزند : ق ٤ س ١٥٢٠، والسخائم : مفردها سخيمة، وهي العداوة والحقد . وفي البطليوسي : « كوشم الواشم » .

مسكنه

ماوقفنا عليه من تاريخ أبي العلاء لايصور للباحث حياته تصويراً كاملا يجعله كأنه يراه في مطعمه وملبسه ومسكنه وغير ذلك مما يقتضيه البحث . وزادنا ضغثاً على إبالة مافي أقوال المؤرخين والعلماء من التناقض في ثروة أبي العلاء ويساره . ولم يصف أحد ممن زاره الدار التي كان يسكنها ، إلا أن أبا الفرج محمد بن أحمد قال : « إن لأبي العلاء داراً حسنة » . كما سيأتي . وذكر العلماء في قصة الضيوف الخمسين الآتية ، أنه أنزلهم في دار الضيافة ، ولم يُبيّن ماهي ولا لمن هي . ومنهم من جعل له عبيداً وخدماً كثيرة ، وهذا يحتاج إلى مسكن واسع . ومنهم من جعله حاكماً في المعرة ، وجعل سكانها خدما له . ونحو ذلك من المبالغات والإسراف القائم على التخيل والظن . وهذا يقتضي أن تكون له دار حسنة قوراء . والغريب الملائم لحياة أبي العلاء وزهده في كل شيء ، أن تكون داره مشابهة بقية النواحي من حياته . وكلامه في (الفصول والغايات) ص ٤٧ يدل على أنه ليس له مسكن يأوي اليه ، وذلك حيث يقول : « الله يملك الملوك ، وأنا معترفٌ مُقِرٌ أن تُشْهَدَ الدنيا مَقِرٌ[١] ، وأن غنيها مفتقر ، أعوزني فيها مسكن آرِزُ اليه[٢] وأستكن ، وتبوأتِ الناسجةُ بينَ المثاب » .

ومن الغريب أن يدفن في دويرة من دور أهله ، أو في ساحة منها ، ولا يدفن في داره التي وصفها أبو الفرج . وذكر الذهبي وابن حجر[٣]

---

(١) المقر : الصبر وهو عصارة شجر مر .

(٢) آرز : أوى ، والناسجة : دودة القز أو العنكبوت ، والمثاب جمع مثابة : المنزل . (ج)

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص : ١٩٢ ، ٣١٢ عن تاريخ الإسلام — للذهبي — ولسان الميزان — لابن حجر .

أن لأبي العلاء مغارة كان ينزل اليها ويأكل فيها منفردا ، ويقول : « العمى عورة ، والواجب استتاره في أحواله » . وقال القفطي مرة : سرداب ، ومرة : مغارة . ولما أرادت الحكومة السورية بناء ضريحه الجديد ، وجدوا مغارة تحت قبره ، فملؤوها ترابا ولم يحفروها ليعلموا مافيها . ولا نعلم إن كانت هي المغارة التي أكل فيها دبسا أم لا .

عفافه وإباؤه

لايعرف التاريخ شاعراً ولا عالما قليل المال كثير العفاف والجود مثل أبي العلاء ، فقد كان يعيش عيشة الشظف ويتجلد ، ولا يبذل ماء وجهه بسؤال ، ولا يمد يده لقبول صلة او منحة ، ولو كانت من أمير أو ملك ، بل يكتفي بما يحبوه به الله كما قال :[1]

وَلَمْ يَحْبُنِي أَحَدٌ نِعْمَةً وَلٰكِنَّ مَوْلَى المَوَالِي حَبَا

وأبو تمام والبحتري والمتنبي وأمثالهم ، كانوا يجوبون الآفاق ، ويستندون الأكف بعد أن أصبح كل منهم يملك من الأموال أو الاقطاع والضياع شيئا كثيرا . وأبو العلاء ، يعرض عليه الخلفاء والأمراء وغيرهم أموالاً جمة ، فيأبى على شدة فاقته وحاجته .

فقد ذكر ياقوت وابن العديم أن المستنصر المتولي على مصر أحد العبيديين بذل لأبي العلاء مابيت المال بمعرة النعمان من المال الحلال ، فلم يقبل منه شيئا ، وقال :

---

(١) اللزوميات ه‍ ص ٤٤ .

كَأَنَّما غَانَةُ لي مِنْ غِنىً ... فَعَدٌّ عَنْ مَعْدِنِ أُسوانِ
سِرْتُ بِرَغْمِي عَنْ زَمَانِ الصِّبا ... يُعْجِلُنِي وَقْتي وأكْوَانِي
صَدَّ أبِي الطَّيِّبِ لمَّا غَدا ... مُنْصَرِفاً عَنْ شِعْبِ بَوّانِ[1]

وكتب داعي الدعاة بمصر إلى تاج الأمراء، ثمال بن صالح، وكان إذ ذاك نائبا عن العبيديين بحلب وبمعرة النعمان، بأن يجري لأبي العلاء ماتدعو اليه حاجته، بجميع مهامه وأسبابه، وما يحتاج اليه مما هو بُلغة له من ألذ الطعام، وأن يضاعف حرمته ويرفع منزلته عند الخاص والعام، فامتنع من قبول ذلك.

---

(١) البيت الثالث في رواية ياقوت، وفيه بعدها: وقال:

لا أطلب الأرزاق وال ... مولى يُفيض علي رزقي
إن أعط بعض القوت أع ... لم أن ذلك ضعف حقي

وفي نسخة (الإنصاف) لابن العديم، البيتان الأولان فقط. والأبيات الخمسة ليست في ديوانه. وغانة: بلاد يكثر فيها الذهب، وقد ذكرها أبو العلاء، في لزوم مالا يلزم فقال ص ١٢١:

لي القوت فليغمر سرنديب حظها ... من الدر أو يكثر بغانة تبرها

وقال ياقوت: انها مدينة كبيرة في جنوبي بلاد المغرب، متصلة ببلاد السودان، يجمع اليها التجار، ومنهـا يدخل في المفازات الى بلاد التبر. وقد ذكر في «تبر» أن الذهب ينبت في رمل تلك البلاد، وبين كيف يأتي به التجار منها فراجعه. وأُسوان: مدينة وكورة في آخر صعيد مصر، وأول بلاد النوبة، في جبالها مقاطع العمد التي بالاسكندرية، وزعم بعضهم أن فيها معادن الذهب. وسرنديب: جزيرة عظيمة في أقصى بلاد الهند. قال ياقوت: وفي سرنديب الجبل الذي هبط عليه آدم (ص)، والياقوت الأحمر على هذه الجبال، تحدره السيول والأمطار وفيه ألماس ومنه يجلب العود. (ج)

انظر في ذلك تعريف القدماء بأبي العلاء، ص ٩٩، ٥٦٥ عن الارشاد لياقوت، والانصاف والتحري — لابن العديم.

وكتب الوزير الفلاحي الى عزيز الدولة أبي شجاع فاتك متولي حلب وأعمالها، بأن يحمل أبا العلاء الى مصر ليبني له دار علم يكون متقدما فيها، ويمنح له بخراج معرة النعمان في حياته وبعده. فسار عزيز الدولة إلى المعرة، واجتمع بأبي العلاء، وقرأ عليه السجل فاستمهله وكتب الى الوزير الفلاحي يستعفيه من ذلك، فأعفاه وسمح بترك ذلك كله.

وقال أبو اليسر شاكرُ بنُ عبد الله المعري التنوخي في أبي العلاء: «لم يكن من شأنه أن يلتمس من أحد من خلق الله شيئا، ولم يمدح أحداً لأخذ عطاء أو جائزة، ولم يقبل هدية أو صلة من شريف». وقد صرح في رسالته الى أهل المعرة بقوله (١): «ماسافرتُ أستكثر من النشب..» وقال فيها عن البغداديين: «وعرضوا عليّ أموالهم عرض الجدّ، فصادفوني غير جَذِلٍ بالصفات، ولا هشّ الى معروف الاقوام». وصرح وهو في بغداد بقصيدة قالها فيها بقوله: (٢)

أُنَبِّئُكُمْ أنِّي عَلَى العَهْدِ سَالِمٌ ... وَوَجْهِيَ لَمَّا يُبْتَذَلْ بِسُؤَالِ

وقال في قصيدته إلى أبي حامد الإسفرائيني: (٣)

ولَمْ أَكُنْ ورَسُولِي في رِسَالَتِهِ ... مِثْلَ الفَرَزْدَقِ في إِرْسَالِ وَقَّاعِ

وقال في قصيدته (٤) إلى التنوخي، يذكر فيها بغداد ورحيله إليها:

---

(١) رسائل أبي العلاء المعري — لشاهين عطية — ص ٨٣
(٢) شروح سقط الزند: ق ٣ ص ١٢٠٥
(٣) شروح سقط الزند: ق ٢ ص ٧٦٠ وفيها: « ورسولي حين أرسله.. »
(٤) شروح سقط الزند: ق ٤ ص ١٦٣٩

رَحلتُ لَمْ آتِ قِرْواشاً أُزاوِلُهُ ولا المُهَذَّبَ أَبْغِي النَّيْلَ تَقْوِيتا
والمَوْتُ أَحسَنُ بالنَّفْسِ الَّتي أَلِفَتْ عِزَّ القَنَاعَةِ مِنْ أَنْ تَسْأَلَ القُوتا

وذكر في مقدمة السقط ما يدل على أنه لم يمدح أحداً ابتغاء ثواب أو صلة ، وذلك حيث يقول : (١) « ولم أطْرُقْ مسامعَ الرؤساء بالنشيد ، ولا مدحتُ طالباً للثواب ، وإنما كان ذلك على معنى الرياضة وامتحان السوس . (٢) فالحمد لله الذي ستر بِغُفَّةٍ (٣) من قوام العيش ، ورزق شعبةً من القناعة أوفت بي على جزيل الوفر » . كثيراً ما كان يصرح بالفاقة والعدم ، ويفتخر بالقناعة والصبر في مثل قوله في اللزوم : (٤)

أَعَانَنا اللهُ كُلٌّ في مَعيشَتِهِ يَلْقَى العَناءَ فَدُرِّي فَوْقَنا دُبَسُ
مَاذَا تُرِيدُونَ لا مَالٌ تَيَسَّرَ لِي (٥) . . . .

وقوله : (٦)

الحَمْدُ لِلهِ قَدْ أَصبَحْتُ في دَعَةٍ أَرْضَى القَلِيلَ ولا أَهْتَمُّ بِالقُوتِ

وقوله : (٧)

لٰكِنْ أُقَضِّي مُدَّتِي بِتَقَنُّعٍ يُغْنِي وأَفْرَحُ بِاليَسِيرِ الأَرْوَجِ

---

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢٢
(٢) السوس : الطبيعة . (ج)
(٣) الغُفَّة : البلغة من العيش والقليل منه . . (ج)
(٤) اللزوميات ﻫ ص ٢٩٣ ، يقال : درّي دبس ، ودُبَس : اسم السماء .
(٥) عجزه : « فيُستماح ولا علمٌ فيُقتبسُ »
(٦) اللزوميات ﻫ ص ٦٦ .
(٧) اللزوميات ﻫ ص ٧٨ .

وقوله : (١)

مَا سَرَّنِي بِقَنَاعَةٍ أُوتِيتُهَا   فِي العَيْشِ مُلْكًا غَالِبٍ وَذَمَارِ

وأحياناً يَعُدّ الجوعَ قربة : (٢)

إِذَا خَمِصْتُ قَلِيلاً   عَدَدْتُ ذَلِكَ قُرْبَه

وأحياناً يكتم ذلك حتى لا يشمت به حساده ، كقوله : (٣)

إِنِّي أُوَارِي خَلَّتِي فَأُرِيهِمُ   رِيًّا وَفِي سِرِّ الفُؤَادِ أُوَارُ

ويعتقد أن التقنع يشق على النفس كما يشق عليها الجهاد في العمل ، ولكنه يورث النفس عزة ورفعة لصيانتها عن الابتذال كما قال : (٤)

قَنِعْتُ فَخِلْتُ أَنَّ النَّجْمَ دُونِي   وَسِيَّانِ التَّقَنُّعُ وَالجِهَادُ

* * *

قبول الهدايا

تقدم قول أبي اليسر ، أن أبا العلاء لم يقبل هدية أو صلة ، وذكر ذلك البديعي في (أوج التحري) . ولم يحدثنا التاريخ أنه قبل شيئاً من المال

(١) غالب : موضع نخل دون مصر . وموضع بالحجاز . وذمار كسحاب أو قطام : مدينة باليمن على مرحلتين من صنعاء ، سميت بقيل من أقيال اليمن ، وقيل : ذمار اسم صنعاء ، ولعل أبا العلاء أراد بغالب وذمار ماذكرناه . (ج) اللزوميات ه س ١٦٠ .

(٢) اللزوميات ه س ٤٣ ، وخمص البطن مثلثة : خلا .

(٣) اللزوميات ه س ١٣٠ .

(٤) شروح سقط الزند : ق ١ س ٢٨٣ .

والأثاث والرياش . وربما كان يقبل بعض الهدايا من أصحابه ، ولكننا لم نوفق إلى معرفة نوعها . ومما لا شك فيه أنها تكون من أنواع الطرف والألطاف والتحف من الأطعمة ، وليست من الذهب والفضة . وقد زعم صاحب (شرح التنوير على سقط الزند ج ٢ ص ٥١) في شرح قوله :

لكَ الخيرُ قدْ أنفذْتَ ماهُوَ مُلْبِسِي حياءً وعِندَ اللهِ مِنْ قائلٍ عِلْمُ[١]

أن هذا الشاعر قد بعث تحفة إلى أبي العلاء . فهو يحمده على ذلك . وعلى هذا يجب أن تقرأ كلمة « أنفذت » ، بفتح التاء ، وعلى فرض أن ذلك صحيح فقد بين أنها ليست من النقدين بقوله بعده :

ولوْ أنهُ أضعافُ[٢] . . . .

وفي (ضوء السقط) ما يدل على أن شاعراً عراقياً كتب إلى أبي العلاء قصيدة ذكر فيها مضض الغربة ولبسه السواد خشية سرعة الاتساخ ، فكتب إليه أبو العلاء أبياتاً وأرسل معها شيئاً من النفقة .

وقال الخوارزمي : [٣] « الرواية في (أنفذت) ضم التاء على الحكاية . ورواه بعضهم (أنفذت) بفتح التاء على الخطاب ، وهو سهو لأن الأبيات التي تردف هذا البيت تدفع ذلك ، ولا سيما قوله :

فَمنّيَ تقْصِيرٌ ومِنكَ تَفَضُّلٌ بِعُذْرٍ فَلا حَمْدٌ لَدَيّ[٤] ولا ذَمُّ

* * *

ولَوْ أنّهُ أضعافُ أضْعافِ مِثْلِهِ مِنَ التِّبْرِ لَمْ يَثْبُتْ لهُ مِنْ[٥] نَداكَ اسْمُ

---

(١) وفي شروح السقط ق ٣ ص ١١٥٧ « أنفذتُ » بالضم .
(٢) وتمامه : « ... أضعاف مثله من التبر لم يثبت له في نداك اسم » .
(٣) المصدر السابق .
(٤) في الشروح : « عليّ » .
(٥) في الشروح والتنوير : « في » .

ويؤيد ما قاله في (ضوء السقط) أن عنوان هذه الأبيات جاء في الديوان هكذا: « وقال في هذا المعنى » وفي شرح البطليوسي: « وقال أيضاً ». وفي الخوارزمي: « وقال أيضاً في المعنى » والمشار إليه بكلمة أيضاً، وبكلمة في المعنى، أبيات تقدمت هذه الأبيات، قالها أبو العلاء لشاعر « صريع البين [1] »، وأرسل إليه معها شيئاً من النفقة. فهذه الأبيات في معنى تلك، ويكون المُهدِي أبا العلاء.

وقال التبريزي: « وكان هذا الشاعر قد لبس السواد كما يلبسه الغرباء، وذكر ذلك في شعره إلى أبي العلاء مع ما ذكره من شكاية من الزمان. وسواد الثياب كناية عن اتساخها ».

ومن البعيد بعد ما تقدم أن يكون هذا الشاعر هو الذي أهدى إلى أبي العلاء مع حاله هذا. وبذلك يتبين عدم صحة ما قال في التنوير، وأن الأبيات لا تصلح دليلاً على قبول المعري هدية.

كرمه وسخاؤه

عرفنا أن لأبي العلاء نيفا وعشرين ديناراً في السنة، يعطي بعضها خادمَه، ويعيش بالصبابة الباقية منها، ويجري منها على جماعة من الكتّاب الذين يكتبون عنه ما يمليه وما ينظمه. وقد ذكر ابن العديم [2]، أن له أربعة رجال من الكتاب الموجودين في جرايته وجارِيهِ. وكان فوق ذلك يدفع شيئاً لذوي الحاجات ممن يتردد إليه. فقد قال أبو زكريا التبريزي: « إن المعري كان يجري رزقا على جماعة ممن كان يقرأ عليه، ويتردد لأجل

(١) صريع البين: شاعر كان يلقب بهذا اللقب، الشروح ق ٣ س ١١٤١.
(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء س ٥٢٤ و ٥٧٥ عن الانصاف والتحري لابن العديم

الأدب إليه » . وذكر البديعي ذلك أيضا [1] . ونقل عن أبي الفرج محمد ابن أحمد بن الحسن الكاتب [2] ، أنه رحل في سنة ٤٢٨ هـ من أذربيجان إلى الحج ، ومر بمعرة النعمان ، واجتمع بأبي العلاء ، وأنه ذكر فصلاً في تقريظه والثناء عليه ؛ ومن جملة قوله : « وقصر همه على أدب يفيده ، وتصنيف يجيده ، ومتعلم يفضل عليه ، ومسترفد صعلوك يحسن إليه ، وله دار حسنة يأويها ، ومعاش يكفيه ويمونه ، وأولاد أخ باق يخدمونه ، ويقرؤون بين يديه ، ويدرسون عليه ويكتبون له ، ووراق برسمه مستأجر ، ثم ينفق على نفسه من دخل معاشه نفقة طفيفة ، وما يفضل عنه يفرق على أخيه وأولاده ، واللائذين به ، وللفقراء والقاصدين من الغرباء » . اهـ

انفاقه على الخطيب التبريزي مدة مقامه عنده

نقل المؤرخون [3] أن الخطيب أبا زكريا التبريزي قدم على أبي العلاء ، وأقام عنده مدة يقرأ عليه ، وقد أعطاه الخطيب صرة فيها ذهب ، وقال له : أوثر من الشيخ أن يدفعها إلى بعض من يراه ليشتري لي بها خبزاً ولحما ، وما تدعو حاجتي اليه ، ويجري ذلك علي في كل يوم ، لأتناوله مدة مقامي عنده للقراءة ، وأتوفر بذلك على الاشتغال ويتفرغ بالي للاستفادة ، ويترفه خاطري ، ولا يكون في شغل غير ما أنا بصدده ، فأخذ أبو العلاء الصرة منه ووضعها عنده ، وتقدم إلى وكيله ، وأجرى للخطيب ماتدعو اليه حاجته ، فتناول ذلك مدة مقامه بمعرة النعمان ، وهو يظن أنه من ذهبه الذي دفعه إلى أبي العلاء ، فلما أراد الانصراف ودع أبا العلاء ، فدفع اليه صرته بعينها ، فقال الخطيب للشيخ : ماظننت أنك تفعل هذا ، ولا أردت

---

(١) أوج التحري ـ ليوسف البديعي ـ ص ١٢ تحقيق ابراهيم الكيلاني .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٧٥ عن الإنصاف والتحري ـ لابن العديم .

(٣) انظر من ذلك الإنصاف والتحري لابن العديم . في تعريف القدماء ص ٥٧٦ .

التثقيل عليك بغير الاستفادة من علمك ، وعرض له بأخذها ، فقال أبو العلاء: قد كان ذلك ولا سبيل إلى رد هذه الصرة عليّ ، وهذا ذهبك بعينه ، وانصرف وكان فقيراً محتاجا .

وسيأتي بيان المدة التي أقامها عنده وزمنها . ويأتي أيضاً أن أبا العلاء أعطى صريع البين أو الدلاء ، والقاضي عبد الوهاب ، وبعض شعراء العراق وغيرهم شيئاً من المال ، وقد تقدم بعض من هذا .

وذكر القفطي[1] أن ابا العلاء سمع الجماعة يذكرون بطيخ حلب ، فتكلف وسيّر من ابتاع منه حملا ، وأحضرهم إياه ، فأفردوا له منه عدداً يسيرا ، وتركوه في سرداب كان يأكل فيه ، فنزل الخادم بعد أيام لتفقد المغارة فوجد البطيخ بحاله لم يعرض له وقد فسد ، فراجعه في ذلك فلم يجبه . واستدل الجماعة بذلك على أنه ما كان يتفكه . وربما كان يتناول مايقوم بالأود من أيسر الموجودات .

وزار الرحالة الفارسي ناصر خسرو المعرة في سنة ٤٣٨ هـ ، وقال في رحلته :[2] « وكان بها ــ أي المعرة ــ رجل ضرير ، يدعي أبا العلاء وكان أمير البلدة ، وله من النعمة والعبيد والخدم مايستكثر . وكان جل أهلها كالعبيد له ، إلا أنه سلك طريق النسك ، وتردى ببرجد في بيته ، وكان يأكل كل يوم نصف منّ من خبز الشعير . وبلغني أنه فتح بابه ، ويتولى عنه نوابه وعماله أمور البلدة إلا فيما يهم ، فيرجعون اليه ، وهو لايمنع أحداً مما آتاه الله . ويصوم الدهر ، ويقوم الليل ، ولا يشغل نفسه بشيء من أمور الدنيا . وقد قيل له : إن الله خولك ماترى من المال والنعمة ، فلماذا

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٦ عن إنباه الرواة ــ للقفطي .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٦١ عن سفر نامة ــ لناصر خسرو

تعطي الناس ولا تتمتع أنت بنفسك ؟ فقال : ليس لي منه إلا ما أتبلغ به من القوت فحسب » .

وقد ظن صاحب (الذكرى) [١] من كلام الرحالة الفارسي أن أبا العلاء ملك المعرة ، وذهب يلتمس لذلك وجها ، فتأول قول صالح بن مرداس لأبي العلاء حين شفع عنده في المعرة « قد وهبتها لك » أنه أقطعه إياها إقطاعاً ثم أعنت نفسه في تلفيق هذه القضية . وظن أيضا أن أبا العلاء غني ، واستأنس لهذا الرأي بقول الرحالة المتقدم ، وبما كان يعطيه أبو العلاء من الصلات والهدايا ، حتى لايناقض حاله هذا أقواله الدالة على قلة ماله ، وأغرب شيء في كلامه اعتقاده أن أبا العلاء كان يقبل الهدايا ويشكر عليها ، وأن أخواله كانوا يواصلون البر إليه . وأظن أنه لم يقبل من أخواله براً إلا ما كان من باب الطرف والاطعمة والفواكه . وما في رسائله مما يوهم ذلك ، جرى فيه أبو العلاء على عادته في عد كل شيء نعمة يجب شكرها ، ولو كانت سؤالاً عن حاله .

وأنا أقول : إن العادة جارية في المعرة ، على عهدنا هذا ، أن الرجل منهم إذا كان وجيهاً في قومه ، وكان غير موسر ونزل به ضيوف ، هب أهله وأصحابه إلى القيام بما يجب للضيف من الحفاوة والإكرام من غير أن يشعر الضيف بشيء من هذا ، وقد لايشعر المضيف نفسه إلا بالارزاق والطرف والطعام تتوافد إلى بيته من غير أن يعلم بمن هي . وإذا لم يكن بيته أو أثاث بيته لائقــا بالضيف أنزله قريبه أو صديقه في داره ، ولا يشك الضيف في أنها دار المضيف . وأن كل مارآه من ماله ، وربما ظن بعض القائمين بخدمته أنهم خدم لصاحب الدار . وأهل المعرة كرماء ولو مع الفاقة ، ولهم ولع شديد بإيناس الضيف والمبالغة في إكرامه وقِراه . وهم لايعدون ذلك من باب الصلة أو الصدقة أو التفضل ، وإنما يرونه من باب الواجب ، لأن للضيف حقا على البلدة كلها لا على المضيف وحده .

---

(١) ذكرى أبي العلاء ط ٢ ص ٢١٢ ـ ٢١٦ — لطه حسين .

والعادة جارية أيضا أن الناس يحدقون بالرجل السري أو العالم ، ويجعلون كلمته نافذة وإن لم يل شيئا من عمل الحكومة وإن لم يكن غنيا .

فإذا جاز قياس الماضي على الحاضر ، جاز لنا أن نقول : إن أبا العلاء نفسه كان فقيراً لايملك غير نيف وعشرين ديناراً كما أسلفنا ، وكان يقتر على نفسه ، لانه لايأكل إلا من ماله لامن مال عمه ولا خاله ، وان الناس كانوا يجلونه ويصدرون عن أمره لمكانته ولمكانة أسرته في المعرة . أما مكانته فقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن ملوك دمشق وحلب وأمراءها كانوا يجلونه ويبالغون في الحفاوة به ، ويكلفونه أن يضع لهم كتباً ، وأن خليفة مصر أراد أن يعطيه ما في بيت المال في المعرة ، وأنه لايمر بالمعرة رجل خطير إلا يزوره . وحسبك دليلًا على علو مكانته في المعرة وغيرها انهم بعثوه شفيعاً إلى صالح فوهبه المعرة ، ورفع الحصار عنها .

وأمامكانةأسرته فقد كان فيهم المفتون والقضاةوالعلماء والشعراء والمؤرخون ، وفيهم عمداء المعرة وأصحاب الكلمة النافذة فيها مثل الحوارى بن حطان ابن المعلي التنوخي المعدود من رجال الدهر ، ومن ولده أبو بشر الحوارى ابن محمد بن علي .. التنوخي عميد المعرة . ووادع بن سليمان من أحفاد أخي أبي العلاء ، كان قاضي المعرة والمستولي على أمورها في عصره ، وكان رجل زمانه همة وعلماً كما قال ابن الأثير ، وهم كثيرون .

فإذا نزل به ضيوف قام إخوته وبنوهم وذوو قرباه بما يجب من القِرى ، وأحاطوا به هم وخدمهم وأشياعهم ، حتى يخيل إلى الضيف أنه ملك مطاع ، وأن كل من يراه من الخدم والحشم والعبيد مُلك له وما يراه من غيرهم أعوان له ، وما يراه من أثاث ورياش وأبنية ملك له . ولا يرى أبو العلاء في ذلك غضاضة بحكم العادة المتبعة . وإذا سلمنا هذا لانرى تناقضاً بين أحواله وأقواله . وأظن أن دار الضيافة التي أنزل بها الضيوف المحسين الذين جاءوا ليحملوه إلى حلب كانت لأحد إخوته أو

أعمامه أو بني عمه . وفي كلام أبي العلاء ما يدل على أنه كان يتضجر من قلة ماله ، لأنه كان يحب أن يقوم من ماله بكل ماتوجبه الضيافة عليه لأضيافه وهم كثيرون ، وأن يعطي كل سائل ما يسأله أو فوق ما يأمله ، وسائلوه كثيرون ، ولكنه لا يجد ما يلبي به طلب كل طالب ، ويشق عليه أن يأخذ من أحد شيئاً . فهذا هو السبب في تذمره من قلة المال ، وقد كثر ذلك في شعره كقوله :

صَدَقْتُكَ صَاحِبِي لامَالَ عِنْدِي وقَدْ كَثُرَ الضَّيَافِنُ والضُّيُوفُ[(١)]

وكان الناس يظنون به اليسر وكثرة المال ، فيكلفونه ما لا يطيقه إلا الموسرون ، وكان ذلك يزيده تذمراً لأنه لا يستطيع أن يجيب ما يطلب منه ، ويشعر بذلك مثل قوله :

واتِّهامِي بِالمَالِ كَلَّفَ أنْ يُطْـ ـلَبَ مِنِّي مَا يَقْتَضِي التَّمْوِيلُ[(٢)]

أما أبياته الدالة على كرمه فكثيرة ، منها قوله :

إذا وَرَدَ الفَقِيرُ عَلَى احْتِياجِي أغَثْتُ لَهِيفَهُ بالمُسْتَدَفِّ[(٣)]

وَلَوْ كَانَ الكَثِيرُ لَقَلَّ عِنْدِي وأهْوِنْ بِالطَّفِيفِ المُسْتَطَفِّ[(٤)]

* * *

(١) الضيف من نزل بغيره ، وهو الضيّف ، يكون للواحد والجمع ويكسر على أضياف وضيوف وضيفان . والضيفن الذي يجيء مع الضيف والنون زائدة ، والجمع ضيافن . (ج) اللزوميات ﻫ س ٢٩٢ .

(٢) اللزوميات ﻫ س ٢٠٢ .

(٣) اللزوميات ﻫ س ٢٩٥ ، والمستدف : الممكن .

(٤) الطفيف : القليل والغير التام ، والمستطف من استطفّ : أي أمكن ودنا .

وقوله (١) :

فَما دِرْهَمِي إنْ مَرَّ بِي مُتَلَبِّثاً ... ولا طِفْلَ لِي حَتَّى تُرى الشَّمْسُ مُطْفِلا
وَيرْزُقُنِي اللهُ الذِي قامَ حُكْمُهُ ... بأرْزاقِنا في أرْضِهِ مُتَكَفِّلا

* * *

وقوله (٢) :

إذا وَهَبَ اللهُ لي نِعْمَةً ... أفَدْتُ المَساكِينَ مِمَّا وَهَبْ

تولي المناصب

حدثنا التاريخ أن أكثر قضاة المعرة وعلمائها وأدبائها وشعرائها في عهد أبي العلاء كانوا من أسرته تنوخ ومن بني سليمان جد أبي العلاء الأعلى ، وأن الفتاوى كانت في بيتهم على مذهب الشافعي أكثر من مائتي سنة بالمعرة. ولم أر أحداً ذكر أن أبا العلاء ولي الإفتاء أو القضاء أو شيئاً آخر من الأعمال ، وإنما كلامه في اللزوم يدل على أنه كان يكره أمثال هذه الأمور لأقاربه وأصادقه ، فمن الأولى أن يكرهها لنفسه ، يشعر بذلك من قوله : (٣)

أنهاكَ أنْ تَلِيَ الحُكُومَةَ أوْ تُرَى ... حِلْفَ الخَطابَةِ أوْ إمامَ المَسْجِدِ
وَذَرِ الإمارَةَ واتِّخاذَكَ دِرَّةً ... في المِصْرِ تَحْسِبُها حُسامَ المُنْجِدِ
تِلْكَ الأُمورُ كَرِهْتُها لأقارِبِ ... وأصادِقٍ فابْخَلْ بِنَفْسِكَ أوْ جُدِ

(١) اللزوميات هـ س ٢٠٣ .
(٢) اللزوميات هـ س ٥٧ .
(٣) اللزوميات هـ س ١١٢ .

ولكنني رأيت قوله في اللزوم :(١)

قَلَّدَتْنِي الفُتْيا فَتَوَّجْنِي غَداً تاجاً بِإِعْفائِي مِنَ التَّقْلِيدِ

وهذا يدل على أنه ولي الفتيا. وربما كانت على مذهب الشافعي أسوة بأقاربه، ولعله استقال منها فأقيل، لأنه كرهها لأقاربه، ولأنه كان ينفرُ عقله من تركه سدى واتباع غيره كما قال :(٢)

ويَنْفِرُ عَقْلِي مُغْضَباً إِنْ تَرَكْتُهُ سُدًى واتَّبَعْتُ الشَّافِعِيَّ ومَالِكا

ولعله كان يلي الفتيا حين زار الرحالة الفارسي (ناصر خسرو) مدينة المعرة ورأى ما رأى من مكانة أبي العلاء فيها .

★★★

(١) اللزوميات ﻫ س ١١٤ .
(٢) اللزوميات ﻫ س ١٨٥ .

القول الجامع في أخلاقه وسيرته

توفر أبو العلاء منذ حداثة عهده على الدرس، وأدبه أبوه فأحسن أدبه، وأدب هو نفسه فجمع بين أدب النفس وأدب الدرس. وتوفر فيه من مكارم الأخلاق مالم يتسن لغيره من العلماء والحكماء والشعراء بعضه.

صبره

الصبر في الأصل الحبس. ويختلف اسمه باختلاف موقعه، فحبس النفس عن الجزع عند المصيبة يسمى صبرا، وإمساكها في وقت المحاربة يسمى شجاعة، وإمساكها عن الفضول قناعة وعفة، وإمساك كلام الضمير يسمى كتمانا. وقال بعض المحققين: الصبر ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله تعالى. وقد كان أبو العلاء قليل المال كثير العلل والخصوم. فكان يصبر على محن الأيام والأنام، وكثيراً ما ألمع في شعره إلى صبره كقوله: (١)

طَالَ صَبْرِي فَقِيلَ: أَكْثَمُ شَبْعَا نُ وإِنِّي لَمُنْطَوٍ طَيَّـانُ

وقوله في الزمان: (٢)

غَدَوْتُ وَرَيْبَهُ فَرَسَيْ رِهانٍ يُجيدُ نَوائِبًا وأُجيدُ صَبْرًا

وفي نثره كثير من هذا فقد قال في (رسالة الإغريض ص ٥١): (٣) «فأما في التَّشَبُّبِ فلمْ تزل لي بحمد الله وبقاء سيدنا بلغتان؛ بلغة صبر

(١) اللزوميات هـ ص ٢٦٣، والأكثم: الواسع البطن والشبعان. ورجل طيان: لم يأكل شيئا.
(٢) اللزوميات هـ ص ١٤٢.
(٣) رسائل أبي العلاء المعري – لشاهين عطية – . . وبلغة الشيء: قوامه ومايكتفى به.

وبلغة وفر . . » . وهو يعد الصبر من خير حالاته التي يكون عليها ، كما يشعر بذلك قوله في السقط : [١]

وَحالي خَيْرُ حالٍ كُنْتُ يَوْماً عَلَيْها وَهيَ صَبْرٌ واعْتِزالُ

ويبدو أن مصائب الدهر تختلف . فمنها مالا تستطيع النفس احتماله والصبر عليه ولا رده ، ولكنها تصبر عليه كرهاً لا طوعاً ، كما قال : [٢]

والنَّفْسُ لَيْسَ لَها عَلَى مَا نَالَها صَبْرٌ ولٰكِنْ بِالْكَرَاهَةِ تَصْبِرُ

وهذا النوع لايرى في الصبر عليه فضلا ، لأن الصبر فيه عن عجز واضطرار . ومنها مايستطيع الانسان احتماله أو رده . وهذا النوع يرى الصبر فيه فضلاً لأنه عن قدرة واختيار . كما يشير اليه قوله : [٣]

وَصَبْرُكَ فَضْلٌ فيكَ إِنْ كُنْتَ قادِراً وإِلاَّ فَعَجْزٌ مِنْ خَلائِقِكَ الصَّبْرُ

احتمال للأذى

وكان شديد الاحتمال للأذى من خصومه ومن غيرهم ؛ فقد قال له الوزير المنازي [٤] في قصة تأتي : علام حسدوك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة ؟ فلم يكلمه حتى قام . وقال للقاضي عبد السلام القزويني : [٥] لم أهج أحدا . فقال له : صدقت إلا الأنبياء . فلم يرد عليه شيئا . ووقع له كثير من مثل هذا فاحتمله .

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦٩٩ .
(٢) اللزوميات ﻫ ص ١٢٧ .
(٣) اللزوميات ﻫ ص ١١٨ .
(٤) هو أبو نصر أحمد بن يوسف الوزير الشاعر ، ينسب إلى منازجرد من أرمينية توفي في ميافارقين سنة ٤٣٧ ﻫ ، انظر وفيات الأعيان .
(٥) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٧٧ ، عن إرشاد الأريب — لياقوت .

قناعته وعفافه

قدمنا طائفة صالحة مما يدل على قناعته وعفـافه وإبائه . وفي (اللزوم والسقط) أمثلة كثيرة من ذلك .

لين جانبه

لم نجد في كلام خصومه الذين يتسقطون هفواته وسيئاته ، فضلاً عن محبيه وأنصاره ، مايدل على أنه كان شرساً شكساً جافي الطبع متكبراً صلفا . بل المعروف أنه كان دمث الأخلاق لين الجانب .

طهارة يده وذيله ولسانه

لايعرف التاريخ أن أبا العلاء لوث يده باقتراف منكر ، ولا دنس ذيله بارتكاب فسوق أو فجور ، بل كان يترك كثيراً من الحلال خشية الوقوع في الحرام . ويربأ بنفسه عن كثير من الملاذ المباحة زهداً فيهـا واحتقاراً لشأنها . ولم يحدثنا التاريخ أنه تصدى لإيذاء أحد بلسانه أو بغيره . ولم يعرف أنه هجا أحداً مطلقا . وقد رويت له أبيات في السقط مطلعها :(١)

وَرَائِي أَمَامٌ والأَمامُ وَرَاءُ إِذَا أَنَا لَمْ تُكْبِرْنِيَ الكُبَرَاءُ

ولم يعيّن فيها أحد . وأظن أنه يخاطب بها رجلاً متخيلاً ، كما فعل في قصائده الفخرية ، وفي بعض أبياته التي يفتخر بها أو يعرض بحساده أوأعدائه . وهذا شائع مستفيض بين الشعراء . أما البيتان اللذان قالهما في أبي القاسم :(٢)

هٰذا أَبُو القَاسِمِ أُعْجُوبَةٌ في كُلِّ مَا يَدْرِي وَلاَ يَدْرِي ...

---

(١) شروح السقط ق ١ ص ٣٩٢ .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٩٧ ، عن إرشاد الأريب – لياقوت – وفيه : « لكل من يدري ولا يدري » . وثاني البيتين :

لاينظم الشعر ولا يحفظ الـــقرآن وهو الشاعر المقري

والبيتان مما لم يرو في الديوانين .

فقد أراد بها التظرف والمزاح . وأغرب من ذلك كله أنك لاتجد في كلامه على كثرته لفظاً بذيئا ، ولا لفظاً يدل على شيء من أعضاء الإنسان أو الحيوان التي يستهجن ذكرها . وقد اضطر في (رسالة الملائكة) إلى ذكر كلمة فاؤها ولامها من جنس واحد ، وقد تحذف لامها ، وليس لديه إلا كلمة « حرح » فلم يصرح بها وإنما كنى عنها بما يدل عليها .

زهده

الزهد في اللغة : ترك الشيء والإعراض عنه . وفي (اللسان) الزهد : ضد الرغبة والحرص على الدنيا . وأما عند العلماء والمتصوفة فقد اختلفت كلمتهم فيه بحسب أحوالهم ومقاماتهم على أكثر من أربعين قولا . فقيل : الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس ، لأن لقاءهم من الدنيـا وهو مرغوب فيه . وقيل : الزهد في الدنيا هو الزهد في الجوف ، فبقدر ماتملك من بطنك تملك من الدنيا ، وقيل : الزهد في الدنيا أن تبغض أهلها وتبغض مافيها . وقيل: هو قصر الأمل . وقيل : هو النظر الى الدنيا بعين الزوال . وقيل :هو أن لاتفرح بموجود من الدنيا ، ولاتأسف على مفقود . وقيل : هو بغض المحمدة . وقيل . وقيل . وقيل .

وإذا تصفحنا أقوال أبي العلاء في الزهد تبين لنا أنه زاهد على كل قول . فإن مثل قوله : (١)

بُعْدِي عَنِ النَّاسِ بُرْءٌ مِنْ سَقَامِهِمُ وقُرْبُهُمْ لِلْحِجَا والدِّينِ أدْواءُ

* * *

طَهَارَةُ مِثْلِي في التَّبَاعُدِ عَنْكُمُ وقُرْبُكُمُ يَجْنِي هُمُومِي وأدْنَاسِي (٢)

* * *

(١) اللزوميات ٨ ص ٢٣ ، وفيها : « بعدي من الناس » . وفي شروح اللزوم — لطه حسين والأبياري : « بعدي من الناس » .

(٢) اللزوميات ٨ ص ٢٩٨ .

وَخَيْرُ بِلادِ اللهِ ماكانَ خَالِياً
مِنَ الإِنْسِ فَاسْكُنْ في القِفَارِ البَسَابِسِ[(١)]

يمثل زهده في الناس وكراهيته لهم . ومثل قوله :[(٢)]

الحَمْدُ للهِ قَدْ أَصْبَحْتُ في دَعَةٍ   أَرْضَى القَلِيلَ وَلا أَهْتَمُّ بِالْقُوتِ

* * *

فَاتْرُكْ لِأَهْلِ المُلْكِ لَذَّاتِهِمْ   فَحَسْبُنَا الكَمْأَةُ والأَحْبَلُ[(٣)]

والأبيات التي تقدمت في طعامه وشرابه تمثل قناعته وزهده في الجوف ومقدار مايملك من بطنه . ومثل قوله :[(٤)]

وَنَحْنُ كَرَكْبِ المَوْجِ مَا بَيْنَ بَعْضِهِمْ   وَبَيْنَ الرَّدَى إِلاَّ الذِّرَاعُ أَوِ الشِّبْرُ

* * *

وأَيَّامُ الحَيَاةِ ظِلالُ عِتْرٍ   وَمَنْ لِي أَنْ تَكُونَ ظِلالَ دَوْمِ[(٥)]

* * *

وَمَنْ لَمْ تُبَيِّتْهُ الخُطُوبُ فَإِنَّهُ   سَيَصْبَحُهُ مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ صَابِحُ[(٦)]

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٩٨ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٦٦ .

(٣) للزوميات هـ ص ٢٠١ ، والأحبل كاثمد وأحمد : اللوبياء .

(٤) لم نعثر على هذا البيت في الديوانين أو فيما لم يرو فيهما ، وقد ورد في اللزوميات هـ ص ١١٨ بيت في لزومية يوافق في معناه ما رواه المؤلف ويختلف في مبناه :
عجبت لركب الموج يرجون كوكبا   وجيش المنايا من تقوسهم يفتر

(٥) اللزوميات هـ ص ٢٥١ ، والعتر : نبات قصير يرتفع عن الأرض قدر ذراع ، والدّوْم : شجر عظيم يعلو في السماء وظله مستحسن .

(٦) اللزوميات هـ ص ٨١ .

يمثل قصر أمله في الحياة . ومثل قوله :(١)

يَسْعَى الفَتَى لابتِغاءِ الرِّزْقِ مُجْتَهِداً
بالسَّيْفِ والرُّمْحِ فوْقَ الطِّرْفِ والجَمَلِ
ولَوْ أقامَ لَوافاهُ الَّذي سَمَحَتْ بهِ المَقادِيرُ مِنْ نَقْصٍ ومِنْ كَمَلِ

* * *

ويأْتي الفَتَى رِزْقُهُ وَادِعًا ولَوْ كانَ في النِّيقِ عِنْدَ الفُدُرْ(٢)

يمثل ترك طلب المضمون . ومثل قوله :(٣)

ولَوْ كانَتِ الدُّنْيامِنَ الإنْسِ لَمْ تَكُنْ سِوَى مُومِسٍ أفْنَتْ بِمَاسَاءَ عُمْرَها

* * *

بِئْسَتِ الأُمُّ لِلأنامِ هِيَ الدُّنْـــيا وبِئْسَ البَنُونُ لِلأُمِّ نَحْنُ(٤)

يمثل بغض الدنيا . ومثل قوله :(٥)

ومَاسَرَّني أنِّي ابنُ سَاسَانَ أغْتَدِي عَلَى المُلْكِ في الإيوانِ أُصْبِحُ أمْ أُمْسِي

* * *

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢١٤ ، والطرف : الكريم من الخيل .
(٢) اللزوميات ﻫ ص ١٧١ . والنيق : أرفع موضع في الجبل ، الفُدُر : مفردها فَدَر وهو الوعل الداقل في الجبل .
(٣) اللزوميات ﻫ ص ١٣٨ .
(٤) اللزوميات ﻫ ص ٢٦٣ .
(٥) اللزوميات ﻫ ص ٢٩٧ وفيها « أو أمسي » .

وأفضلُ مِن عَيْشِ الغِنى عَيْشُ فاقةٍ ... ومِن زِيِّ مُلْكٍ رائقٍ زِيُّ راهِبِ[1]

يمثل حبه للفقر . ومثل قوله :[2]

أأخشى عذابَ اللهِ واللهُ عادلٌ ... وقدْ عِشتُ عيشَ المُستضامِ المُعَذَّبِ

* * *

وإِنِّي ولَمْ آتِ خيراً أُعِدُّهُ ... لَآمُلُ إِرْواءً بِغَيْرِ ذَنُوبِ[3]

يمثل ثقته بالله . ومثل قوله :[4]

وكَيْفَ أُجِيدُ في دارٍ بِناءً ... ورَبُّ الدّارِ يُؤْذِنُني بِنَقْلِ

* * *

هَوِّنْ علَيْكَ فَما الدُّنيا بدائمةٍ ... وإِنَّما أنتَ مِثلُ النّاسِ مَغْرُورُ[5]

يمثل نظره إلى الدنيا بعين الزوال . ومثل قوله :[6]

لا تَفْرَحَنَّ بِما بَلَغْتَ مِنَ العُلا ... وإِذا سَبَقْتَ فَعَنْ قَلِيلٍ تُسْبَقُ

* * *

---

(١) اللزوميات هـ س ٤٦ .

(٢) اللزوميات هـ س ٤٥ .

(٣) اللزوميات هـ س ٤٧ ، وفيها :

« وإني وإن لم آت خيراً أعده ... لآمل إرواء بغير ذنوب »

ويبدو أن المؤلف قد أسقط سهواً (ان) من الشطر الأول لأنه لايستقيم وزنه بدونها .

(٤) اللزوميات هـ س ٢١٨ .

(٥) اللزوميات هـ س ١٢٣ .

(٦) اللزوميات هـ س ٣٠١ .

لا يَفْرَحَنْ بِالحَيَاةِ غِرٌّ فَإِنَّهَا مَهْلَكاً تَسُوقُ[١]

* * *

لا تَأْسَفَنَّ لِفَائِتٍ مَا وَاجِدٌ يُقْضَى لَهُ في نَفْسِهِ إِيثَارُ[٢]

يمثل لنا أنه لايفرح بموجود ، ولا يأسف على مفقود . ومثل قوله : [٣]

إِنْ مَدَحُونِي سَاءَنِي مَدْحُهُمْ وَخِلْتُ أَنِّي في الثَّرَى سُخْتُ

* * *

دُعِيتُ أَبَا العَلاءِ وَذَاكَ مَيْنٌ وَلَكِنَّ الصَّحِيحَ أَبُو النُّزُولِ[٤]

يدل على أنه يبغض المحمدة . وهناك أبيات تدل على أنه جرى في الزهد على مذهب قوم آخرين . وعلى هذا يمكن أن يقال : إنه زاهد على كل قول ورأي . وإنّ تعدد قوله في هذا الغرض ليس من باب التكرار المجرد عن الفائدة . وإنما هو للدلالة على أنه زاهد على كل وجه وفي كل رأي .

حض على العمل والكسب

رأى بعض الأدباء أن أبا العلاء أكثر من الزهد والتزهيد في الدنيا ، وحض على عدم الاسترسال اليها ، والانصراف إلى الآخرة . فظُن أنه هدام للمجتمع ، داعية إلى الخمول والكسل . ومن نظر في أقواله نظر مدقق

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٣٠٠ .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ١٢٩ .

(٣) اللزوميات ﻫ ص ٦٢ ، وسخت : غبت .

(٤) اللزوميات ﻫ ص ٢١٩ .

منصف تبين له بأجلى وجه أنه على غير مايظن ، وأنه يريد بتزهيده في الدنيا وتنفيره عنها أن لاينخدع بها الإنسان فيجعلها أكبر همه وأقصى أمله ، ويغفل عما تقتضيه الواجبات الإنسانية في الدنيا ، وعما يجب للآخرة . يدل على ذلك ماتراه في أقواله من الحث على العمل ، واطراح التوكل ، وامتهان النفس في المسألة . كما ترى ذلك في مثل قوله في اللزوم :[١]

اعْمَلْ لِأُخْراكَ شِرْوَى مَنْ يَمُوتُ غَداً
وادْأَبْ لِدُنْيـاكَ فِعْلَ الغَابِرِ البَاقي

* * *

وقوله :[٢]

تَرُومُ رِزْقاً بأنْ سمَّوْكَ مُتَّكِلاً وأدْيَنُ النّاسِ مَنْ يَسْعَى ويَحْتَرِفُ

* * *

وقوله :[٣]

إذا قِيلَ : إنَّ الفَتَى نَاسِكٌ وَرَامَ الجَمالَ فلاَ نُسْكَ لَهْ
يُصَلِّي وَهِمَّتُـهُ أنْ يُقَا لَسابِقَ خَيلٍ رِضاً[٤] فسْكِلَهْ[٥]

(١) اللزوميات ﻫ س ٣٠٧ ، وشروى : مثل .
(٢) اللزوميات ﻫ س ٢٩١ .
(٣) اللزوميات ﻫ س ٢٠٩ .
(٤) كذا . (ج)
(٥) الفسكل ، كقنفذ وزبرج : الفرس الذي يجيء في الحلبة آخر الخيل .

وأفضَلُ مِنْـهُ ٱمْرُؤٌ خَامِلٌ   يَقُوتُ بِمَكْسَبِـهِ حِسْكِلَهْ[1]

* * *

وقوله : [2]

لا تَكُـوني رَوَّادَةً هزَالَهْ   واحْذَري مِنْ نوائِبَ جزَّالَه
اغْزِلي[3] في الحياةِ فالشَّمْسُ قِدْمًا   غَزَلَتْ خَيْطَها فقيلَ غزَالَهْ

* * *

وقوله : [4]

لا تَقُومَنَّ في المسَا   جِدِ تَرْجُو بِهـا الزُّلَفْ
مُعْمِلاً بَسْطَ راحتَيْـ   ـكَ إلى نَائِـلٍ يُلَفْ
وَرُمِ الرِّزْقَ في البِلا   دِ فَإِنْ رُمْتَـهُ ازْدَلَفْ

* * *

وقوله : [5]

خَيْرٌ فِيما أراهُ لِامْرأةِ الْجُنْـ   ـدِيِّ مِنْ بَعْـدِ زَوْجِها المَقْتُولِ
إِذْ[6] أغارَتْ حَبْلَ القَناعَةِ تَبْغي الرْ   رِزْقَ مِنْ عِنْدِ خَيْطِها المَفْتولِ

---

(١) الحسكل : بالكسر الصغير من ولد كل شيء جمع حساكل وحسكلة .
(٢) اللزوميات هـ س ٢٠٩ .
(٣) في اللزوميات « اعذلي » وما رواه المؤلف أصح .
(٤) اللزوميات هـ س ٢٩٧ .
(٥) اللزوميات هـ س ٢٢٣ .
(٦) أغار : شدّ الفتل .

وقوله في (الفصول والغايات ج ١ ص ٨٥) :

«وَحارِثُ الأَرْضِ عِنْدَ رَبِّهِ أَوْجَهُ مِنَ الحارِثِ الحَرّابِ[1]»

وقوله في سقط الزند : [2]

وَالموْتُ أَحسَنُ بِالنُّفْسِ الَّتي أَلِفَتْ عِزَّ القَناعَةِ مِنْ أَنْ تَسْأَلَ القُوتَا

ولكنه كان يكره طلب الرزق من الحروب كما كان يكره الحروب . يدل على ذلك قوله : [3]

وَاطْلُبِ الرِّزْقَ بِالمُرُورِ مِنَ الشَّجْراءِ لا مِنْ أَسِنَّةٍ وَمَناصِلْ

وقد ذكرنا في الكلام على الحروب شيئاً مما يتعلق بهذا .

التشاؤم أو التطير

الشؤم في اللغة : خلاف اليمن ، كما في (اللسان) . ونقيض اليمن كما في (الصحاح) . وضد اليمن كما في (القاموس) . وعلماء اللغة قد يتسامحون فيستعملون كلاً من الألفاظ الثلاثة : الخلاف ، والنقيض ، والضد ، مكان الآخر . والمناطقة والمتكلمون ومن طبع على غرارهم يفرقون بينها . فالنقيضان عندهم لايجتمعان ولا يرتفعان ، كالعدم والوجود ، والضدان لايجتمعان ولكن يرتفعان ، كالسواد والبياض . والخلاف ، بمعنى المخالف ، أعم من الضدين ، لأن كل ضدين مختلفان . وأهل اللغة المفسرون كثيراً مايفسرون التطير بالتشاؤم والتشاؤم بالتطير . والسبب في ذلك أن العرب كانوا يزجرون الطير ، فكان أحدهم إذا أراد عملاً أو سفراً أثار الطير من مجاثمها ، فكانوا

---

(١) الحارث الحراب : ملك من ملوك كندة .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦٤٠ .

(٣) اللزوميات هـ ص ٢٢٦ .

يتشاءمون ببارحها ، فسموا الشؤم طائراً وطيراً لتشاؤمهم بها . قال الجوهري: وتطيرت من الشيء وبالشيء ، والاسم منه الطيرة ، مثال العِنَبَة . وهو ماينشاءم به من الفأل الرديء .

وفي (المصباح) : الشؤم الشر .. وتشاءم القوم به مثل تطيروا به . وفيه : وتطير من الشيء واطّير منه والاسم الطيرة وزان عنبة ، وهي التشاؤم . فالتطير والتشاؤم مختلفان من جهة اللفظ ، لأن المادة التي اشتق منها أحدهما غير المادة التي اشتق منها الآخر . ولكنهما متفقان فيما يصدقان عليه ، وهو ماينشاءم به .

وقد ذكر العلماء أمثلة للتطير أو التشاؤم . منها : أن النابغة الذبياني ، وزبان بن يسار ، خرجا يريدان الغزو ، فرأى أحدهما جرادة ، فتطير وقال : حرب ذات ألوان ، ثم رجع عن عزمه . ومنها : أن ابن الرومي تطير من لفظ « إقبال » لأنه ينقلب إلى « لابقا » . ومن قول العصافير « سيق سيق » ومن رؤية الدرفتين كهيئة « اللام ألف » وتحتها نوى تمر . وقال : هذا يشبه « لا تمرّ » .

وإذا تأملنا أقوال العلماء في التطير أو التشاؤم ، وما ذكروه من الأمثلة لهما ، تبين لنا أن المراد منهما أن يتوهم الإنسان وقوع شر من شيء أو أمر يجهل عاقبته ، وهو في ذاته ليس شراً متيقناً ، ولا دليل له على مايتوقعه منه كما توقع النابغة أو زبان حربا ذات ألوان ، لأنه رأى الجرادة ذات ألوان ؛ وليست الجرادة في نفسها شرا ، وليس لديه دليل قاطع على وقوع ماتوهمه ، بل كان الأمر بالعكس ، لأن رفيقه مضى فغزا وغنم وعاد سالماً غانماً . وكذلك ماتوهمه ابن الرومي .

وكلام أبي العلاء في (رسالة الغفران[1] ص ١٦١) يدل على أنه كان ينكر التشاؤم فقد قال : « ومن أولع بالطِّيَرَة ، لم يرِ فيها مِن خِيَرَة ، وإنما هي شر متعجّل ، وللأنفس أجل مؤجّل ، وكل ذلك حَذَرٌ من الموت الذي هو رِبَقٌ في أعناق الحيوان ، حكمٌ لقاؤه في كل أوان ، وفي الناس من يظن أن الشيء إذا قيل جاز أن يقع ، وكذلك[2] قالت العامة : الإرجاف أول الكون ... » ثم قال : « وكان ابن الرومي معروفاً بالتطير ، ومَنِ الذي أجريَ على التخير ! ? وقد جاءت عن النبي - ﷺ - أخبار كثيرة تدل على كراهة الاسم الذي ليس بحسن ، مثل « مرة » و « شهاب » و « الحُباب » لأنه يتأوله في معنى الحية » . ثم قال : « وإذا كان الرجل خُتارماً[3] لم يزل في الكثكث آرما :[4] إن رأى سَمامةً[5] من الطير ، حسبها من السِّمام ، أو حمامة فَرِق من الحِمام » . إلى أن قال : « ولهذه الطويّة جعل « ابن الرومي » جعفراً من الجوع والفرار ، ولو هُدِيَ صرفَه إلى النهر الجرار ، لأن الجعفر النهر الكثير الماء . ولكن إخوان هذه الخليقة ، لا يحملون الأشياء الواردةَ على الحقيقة » .

ثم ذكر أن الرجل قد يحتفر قبراً له في الشام فيموت في اليمن أو الهند ، وقد يظن أنه يهلك بسيف فيهلك بحجر ، أو أنه يموت على مهاد فيموت في وهاد .

---

(١) الرسالة تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٤١٩ .

(٢) في المصدر المتقدم : ولذلك .

(٣) الختارم : الرجل المتطير (ج) .

(٤) الكِثْكِث والكَثْكَث : رِقاق التراب ، وفتات الحجارة أو التراب مع الحجر . وأرَم : أكل وعض وبلي وشد (ج) .

(٥) السمامة بفتح السين : ضرب من الطير دون القطا وجمعها سمام . والسِّمام بالكسر : جمع سم .

وكلامه في (لزوم ما لا يلزم) صريح في إنكار الطّيرة ، وهو كثير ، منه قوله : (١)

أَسُرِرْتَ إِذْ مَرَّ السَّنِيحُ تَفَاؤُلاً   والفَأْلُ مِنْ رَأْيٍ لَعَمْرُكَ فَائِلِ
أَرَأَيْتَ فِعْلَ الدَّهْرِ فِي أُمَمٍ مَضَتْ   قَبْلاً وَمَرْجَ قَبَائِلٍ بِقَبَائِلِ

* * *

وقوله : (٢)

إِنْ تَتَطَيَّرْ أَوْ تَفَاءَلْ فَمَا   تَمْلِكُ رَيْبَ الدَّهْرِ أَنْ تَرْسُنَهْ
خِيرِيَّةٌ فِي لَفْظِهَا خِيرَةٌ   جَاءَتْكَ بِالسُّوءِ مِنَ السَّوْسَنَهْ

* * *

وقوله : (٣)

لا تَفْرَحَنَّ بِفَأْلٍ إِنْ سَمِعْتَ بِهِ   ولا تَطَيَّرْ إِذَا مَا نَاعِبٌ نَعَبَا
فَالخَطْبُ أَفْظَعُ مِنْ سَرَّاءَ تَأْمُلُهَا   والأَمْرُ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ تُضْمِرَ الرُّعُبَا

* * *

---

(١) اللزوميات هـ س ٢٢١ ، والسنيح والسانح : ما أتاك عن يمينك من طائر أو ظبي وأكثر العرب على التيمن به . والمرج : الخلط .
(٢) اللزوميات هـ س ٢٧٠ . والخيريّ : المنثور الأصفر .
(٣) اللزوميات هـ س ٣٩ .

وقوله : (١)

زُجِرَ الغُرابُ تَطَيُّرًا ونَقِيضُهُ ديكٌ لأَهلِ الدَّارِ أبيضُ أفرَقُ

* * *

وقوله : (٢)

تَعَرَّضُ لِلطَّيْرِ السَّوانِحِ زاجِرًا أمالكَ مِنْ عَقْلٍ يَكُفُّكَ زاجِرُ

* * *

وقوله : (٣)

آلَيْتُ لا يَدْرِي بِما هُوَ كائِنٌ مُتَفائِلٌ بالأَمْرِ أَوْ مُتَطَيِّرُ

كالدَّارِ صَبَّحَها سِوى قُطَّانِها فَثَوَوْا بِهَا وتَحَمَّلَ المُتَدَيِّرُ

* * *

وقوله : (٤)

لِلْحالِ بِالْقَدَرِ اللَّطِيفِ تَغَيُّرٌ فَلْيَنْأَ عَنْكَ تَفاؤُلٌ وتَطَيُّرُ

* * *

وقوله : (٥)

لا يَتَطَيَّـرْ بِنَاعِبٍ أَحَدٌ فَكُلُّ ما شاهَدَ الفَتَى طِيَرَهْ

رُؤْيَتُكَ المَيْتَ في الكَرى سَبَبٌ يَقُولُ مَنْ يَفْقِدِ الحَياةَ يَرَهْ

* * *

(١) اللزوميات ﻫ ص ٣٠١ ، وديك أفرق : عرفه مفروق بيّن الفرق .
(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢٢١ .
(٣) اللزوميات ﻫ ص ١٢٦ .
(٤) اللزوميات ﻫ ص ١٢٥ .
(٥) اللزوميات ﻫ ص ١٤٤ .

وقوله : (١)

وَمَا طَيْرُ اليَمِينِ بِمُبْهِجاتي فَأَخْشَى الهَمَّ مِنْ طَيْرِ الشَّمالِ

* * *

وقوله : (٢)

هَلْ تَرى ناعِبًا كَعَنْتَرَةَ العَبْسِيِّ يَبْكِي عَلى مَنازِلِ عَبْلَهْ
أَوْ خُفافٍ يَرْثي رِجالَ سُلَيْمٍ أَوْ سُحَيْمٍ يَحْدُو مَعَ الرَّكْبِ إِبْلَهْ
لا تَهَبْهُ وَلاَ سِواهُ مِنَ الطَّيْرِ فَمَا يَتَّقِي أُخو اللُّبِّ تَبْلَه(٣)

وقد زعم بعض الأدباء أن أبا العلاء كان من المتشائمين . وزعم آخر أنه في طليعة المتشائمين . وجعلوا موازنة بينه وبين بعض فلاسفة الغرب المتشائمين ؛ وذكروا الوجوه التي يتشابه فيها الرجلان ، والوجوه التي يختلفان فيها ، وقالوا : إن أبا العلاء ينظر إلى الدنيا بمنظار قاتم ، وقالوا غير ذلك .

وإذا استقرينا أقوال أبي العلاء في هذا الباب ، وجدناها ثلاثة أنواع : الأول منها مثل قوله في السقط (٤) :

سَنَحَ الغُرابُ لَنا فَبِتُّ أَعِيفُهُ خَبَرًا أَمَضَّ مِنَ الحِمامِ لَطِيفُهُ
زَعَمَتْ غَوادِي الطَّيْرِ أَنَّ لِقاءَها بَسَلٌ تَنَكَّرَ عِنْدَنا مَعْرُوفُهُ(٥)

* * *

(١) اللزوميات ﻫ س ٢١٩ .
(٢) اللزوميات ﻫ س ٢٠٩ .
(٣) التبل : الترة والذحل والعداوة وتبله الدهر : رماه بصروفه وأفناه .
(٤) شروح سقط الزند : ق ٣ س ١١٠٣ ، وسنح : عرض ، وعفتُ الطير : زجرته .
(٥) في الشروح « بعدنا معروفة » . والبسل : الحرام ، وهو من الأضداد .

وقوله فيه [١] :

نَبيٌّ مِنَ الغِرْبانِ لَيْسَ عَلى شَرْعِ ... يُخَبِّرُنا أَنَّ الشُّعُوبَ إِلى الصَّدْعِ

أُصَدِّقُهُ في مِرْيَةٍ وَقَدْ امْتَرَتْ ... صَحَابَةُ مُوسَى بَعْدَ آياتِهِ التِّسْعِ

إلى آخر الأبيات . ولا شك أن هذه الأقوال وأشباهها لا تدل على أنه كان يعتقد صحة الطيرة ، ولا أنه كان يتطير ، وإنما أراد أن يتلاعب بهذا المعنى في أبياته ، جريا على عادة الشعراء المتقدمين في نسبة الفراق إلى الغراب ، فجعل الغراب نبيّاً ، ووصفه به في هذه الصورة الخيالية البديعة ، ودل على أنه لا يعتقد صحة ذلك بقوله في البيتين الأولين : « زعمت عوادي الطير .. » وبقوله في البيتين الأخيرين . « أصدقه في مرية .. » وبقوله في الدرعيات[٢] :

وَلَيْسَ غِرْباني بِمَزْجُورَةٍ ... ما أنا مِنْ ذِي الخِفَّةِ الأَسْحَمِ

النوع الثاني مثل قوله في (لزوم ما لا يلزم) [٣] :

يَدْعُو الغُرابَ أُناسٌ حاتِماً سَفَهاً ... لأَنَّهُ بِفِراقٍ عِنْدَهُمْ حَتَمَا

هذا التَّكَذُّبُ ما لِلْجُونِ مَعْرِفَةٌ ... ولا يُبالي أنالَ المَدْحَ أَمْ شُتِمَا

وقوله المتقدم : « ويُغْنِيكَ عَنْ طَرْحِ فألٍ بعود باليمن طعنك في القائل » .

وقوله في رسالة الغفران المتقدم . « وهــذا النوع صريح في إنكار التطير أو التشاؤم » .

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٣٢ وفيها « إلى صَدْعِ » ، والمرية : الشك .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٨٠٩ ، وذو الخفة الأسحم : الغراب .

(٣) اللزوميات هـ س ٢٤١ وفيها : « أو شتما » والجون : مفردها جَوْن وهو الأسوَد .

النوع الثالث ما نراه في مثل قوله (١) :

وكَيْفَ أقضّي ساعَةً بِمَسَرَّةٍ وأعْلَمُ أنَّ الموْتَ مِنْ غُرَمائي

. . .

وإذا الفتى كانَ التُّرابُ مآلهُ فَعلامَ تَسْهَرُ أُمُّهُ وتُرَبِّتُ (٢)

. . .

تَهْوَى السَّلامَةَ والقبورُ مضاجِعٌ سَلَبَتْ عَنِ اليَقَظاتِ مُضْطَجِعاتِها (٣)

وَكَيْفَ أُرَجِّي مِنْ زَمَانِي زِيادَةً

وَقَدْ حذَفَ الأَصْلِيَّ حَذْفَ الزَّوائِدِ (٤)

. . .

تَعَبٌ كُلُّها الحياةُ فَمَا أعْـ ـجَبُ إلاَّ مِنْ رَاغِبٍ في ازْدِيادِ (٥)

. . .

وَجدْتُ المَوْتَ لِلْحَيَوانِ داءً وكَيْفَ أُعالِجُ الدَّاءَ القَدِيما (٦)

وَمَا دُنْياكَ إلاَّ دارُ سُوءٍ وَلَسْتَ عَلَى إساءَتِها مُقِيما

---

(١) اللزوميات هـ س ٢٦ .

(٢) اللزوميات هـ س ٦١ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) اللزوميات هـ س ١٠٥ .

(٥) شروح سقط الزند : ق ٣ س ٩٧٧ .

(٦) اللزوميات هـ س ٢٤٢ .

إلى آخر الأبيات .

فهذا وما أشبهه ، كله لا يرى فيه المتأمل شيئاً مما يراه في قصة النابغة وابن الرومي وأشباههما ، ولا يرى شبيهاً بينه وبينهما . لأن كلامه هذا ، إما بيان للحقيقة الواقعة في الحال ، وإما بيان للحقيقة المتوقعة في المستقبل . فمثله في ذلك مثل الطبيب الحاذق إذا عرض عليه مريض فرأى من حاله ما يدل على تفاقم مرضه ، أو على هلاكه بسبب المرض بحسب ما أرشده إليه طبه ودله عليه علمه ، فإذا سألنا هذا الطبيب عن حقيقة حالة المريض ، وعن السماح له بأكل ما يشتهيه ، فإن أخبرنا بخلاف الواقع كان كذاباً خداعا ، وإن أخبرنا بالحقيقة كان صادقا ، ولكن هل نعده متشائماً لأنه قال الحق وأخبرنا بالحقيقة ؟ والحكماء والشعراء في باب الوعظ والإرشاد قد يجنحون إلى التهويل والمبالغة ، ويجعلون حكم الأكثر للجميع . وقد يقتصرون في باب التحذير والتنفير من الشيء على ذكر مساوئه ومضاره ، ويمسكون عما يكتنفه من ملاذ ومنافع . وقد ذكرنا غير مرة أن كتب أبي العلاء ليست كتبا شرعية تقدر فيها الألفاظ على قدر الحقيقة ، وإنما هي كتب أدب ، وحكمة يجري فيها على طريقة الأدباء والحكماء .

وقد كان علي بن أبي طالب (ض) يخطب مرة ، فقال له رجل : « يا أمير المؤمنين ، صف لنا الدنيا ، فقال : ما أصف من دار أولها عناء وآخرها فناء ، في حلالها حساب وفي حرامها عقاب ، من صح فيها أمِن ، ومن مرض فيها ندم ، ومن استغنى فيها فُتن ، ومن افتقر فيها حزن »(١)

---

(١) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٥٠ (ج)

وقال في خطبة أخرى : « انظروا إلى الدنيا نظر الزاهدين فيها ، الصادفين عنها ، فانها والله ، عما قليل تزيل الثاوي الساكن ، وتفجع المترف الآمن ، لا يرجع ما تولى منها فأدبر ، ولا يُدرى ما هو آت منها فينتظَر ، سرورها مشوب بالحزن ، وجلد الرجال فيها الى الضعف والوهن » .

وقال في خطبة أخرى : « ألا فما يصنع بالدنيا من خلق للاخرة ، وما يصنع بالمال من عما قليل يُسلَبه ، وتبقى عليه تبعته وحسابه ؟ » .

فانظر كيف نظر علي (ض) إلى الدنيا وهو أمير المؤمنين ومن الأئمة الزاهدين والمرشدين وكيف وصفها . ولم يعد من المتشائمين .

وللشعراء والحكماء في باب التزهيد والوعظ ألوان مختلفة وصور متعددة من التحذير من الدنيا ، والتخويف من الاغترار بما فيها من نعيم زائل ، وتذكير بالمصير والمآل ، وربما كان المزهد أو الواعظ منغمساً في ملاذها مستميتاً في سبيلها ، فهذا أبو تمام يقول من قصيدة مطلعها : (١)

أَتأْمَلُ في الدُّنيا تَجِدُّ وتَعْمُرُ ... وأَنْتَ غَداً فيها تَموتُ وتُقْبَرُ
وهٰذا صَباحُ اليَوْمِ يَنْعاكَ ضَوْؤُهُ ... ولَيْلَتُهُ تَنْعاكَ إِنْ كُنْتَ تَشْعُرُ
فَلا تَأْمَنِ الدُّنيا وإِنْ هِيَ أَقْبلَتْ ... عَلَيْكَ فَمازالَتْ تَخُونُ وتَغْدِرُ
فَمَا تَمَّ فِيها الصَّفْوُ يَوْمًا لِأَهْلِهِ ... ولا الرَّنْقُ إِلاَّ رَيْثَمَا يَتَغَيَّرُ
فَهٰذِي اللَّيالي مُؤْذِناتُكَ بِالْبِلَىٰ ... تَرُوحُ وأَيَّامٌ كَذٰلِكَ تُبْكِرُ

ويقول من قصيدة ثانية مطلعها : (٢)

أَلَمْ يَأْنِ تَرْكِي لا عَلَيَّ ولا لِيا ... وعَزْمِي عَلَى مَا فِيهِ إِصْلاحُ حَالِيا

(١) ديوانه شرح محي الدين الخياط ص ٤٨٢
(٢) المصدر السابق ص ٤٨٣

وَمَا تبرحُ الأَيَّامُ تحذِفُ مُدَّتي | بعدِّ حسابٍ لا كَعَدِّ حسابِيا
لِتَمْحُوَ آثاري وتُخْلِقَ جِدَّتي | وتُخْلِيَ مِنْ رَبْعِي بكُرْهٍ مَكانيا
أقولُ لِنفسي حينَ مالتْ بصفوِها | إلى خَطَراتٍ قدْ فتحْنَ أمانيا
هَبيني مِنَ الدُّنيا ظفِرْتُ بكلِّ ما | تمنَّيْتُ أوْ أُعطيتُ فوقَ الأمانيا
أليْسَ الليالي غاصِباتي مُهجتي | كما غَصَبَتْ قبْلي القُرونَ الخَوالِيا

* * *

ويقول : (١)

إنْ شئْتَ أنْ يَسْوَدَّ ظَنُّكَ كُلُّهُ | فأَجِلْهُ في هذا السَّوادِ الأعْظَمِ

وهذا البحتري يقول من قصيدة : (٢)

أطِلْ جفْوَةَ الدُّنيا وتهْوينَ شأنِها | فما العاقِلُ المغْرورُ مِنْها بعاقِلِ
يُسارُ بِنا قَصْدَ المَنونِ وإنَّنا | لَنَشْغَفُ أحياناً بِطَيِّ المراحِلِ
عِجالاً مِنَ الدُّنيا بأسْرعِ سَعْيِنا | إلى آجِلٍ مِنْها شَبيهٍ بِعاجِلِ
غَفِلْنا عنِ الأيَّامِ أطْولَ غفلَةٍ | ومَا خَوْنُها المَخْشِيُّ عَنَّا بِغافِلِ
تَغَلْغَلَ رُوَّادُ الفَناءِ ونَقَّبَتْ | دَواعِي المَنُونِ عنْ جَوادٍ وباخِلِ

(١) ديوانه - شرح محي الدين الخياط ص ٣١٢ وهو البيت السابع من قصيدة مدح بها ابن شبانة أبا الحسن محمد بن الهيثم .

والسواد الأعظم : العالم الآدمي ، أصل السواد ، الشخص .

(٢) ديوانه ٦٣٨/٢ طبعة بيروت . والأبيات من قصيدة يمدح بها الشاه بن ميكال ، مطلعها :

تقضَّى الصبا إلا تلوم راحل | وأغنى المشيبُ عن ملام العواذل

وكتب الوعظ والأدب مكتظة بمثل هذا من التنفير من الدنيا والنظر اليها بمنظار قاتم، حتى من أناس مغمورين بنعيم الدنيا، غرقين في ملاذها ومسراتها. ولم يعدّ أحد منهم متشائماً، لأن طبيعة الوعظ تقتضي ذلك. وما رأينا ولا سمعنا واعظاً يعدد أصناف النعم في الحياة ويحض عليها، لأن النفوس البشرية لاتحتاج إلى ذلك.

نفي التشاؤم عنه

إذا تأملنا سبيل الزاهدين والوعاظ والمزهّدين من الأئمة والحكماء والعلماء والشعراء، وأنعمنا النظر فيما قاله اللغويون في معنى التشاؤم والتطير، وفيما ضربوه لهما من الأمثال اتضح لنا أن أبا العلاء غير متشائم، وأن مافي كلامه مما يوهم ذلك بيان للحقيقة الواقعة في الماضي أو الحال أو المتوقعة في المستقبل. وقد فرض عليه التشاؤم فرضا، وألزم به وهو لم يلتزمه، وأن سبيله في التزهيد سبيل غيره. إلا أنه أكثر منه، لأن اختباره للدنيا وأهلها كان أكثر، وتفكيره فيها كان أدق وأعمق، وكرهه لها أشد لأنها فجعته ببصره وهو صغير، ثم فجعته بأبيه ثم بأمه فتركته عاجزا لايستطيع شيئاً إلا بغيره. وهناك شيء آخر وهو أنه كان غزير المادة، واسع الاطلاع قوي البديهة فياض القريحة كثير الابتكار والاختراع محباً للحكمة والأمثال، وكان يحب أن يعرض عبقريته على الناس في نثره ونظمه، وكان يربأ بنفسه عن المدح إلا لضرورة، ولا يحب الهجاء ولا الغزل إلا قليلا، فلم ير في الأغراض أوسع مجالاً من نقد الدنيا وأهلها، والتحذير منها. واستطاع أن يكون مجلّياً في هذا الغرض، وأن يعرض صوراً رائعة من أمثلته وحِكَمِه وأخيلته وافتنانه، على أن هذا الغرض أقرب إلى الله، وأبعد عن الناس، وهذا مايحبه ويرتضيه.

ولعل أول من نعته بالتشاؤم فريق من المستشرقين ، ثم تبعهم جماعة من المشارقة المولعين بكل غريب ، ولو كان باطلاً صريحـا . وظنوا أنهم أطرفوا الأدب العربي بما لم تستطعه الأوائل .

ويظهر لمن استقرى آراء المتشائمين وأقوالهم ، أنهم فريقان : فريق متشائم مطلق ، وهذا يعتقد أن الوجود كله شر محض وأن العدم خير منه . وفريق متشائم في بعض الأشياء دون بعض ، وهذا لايعتقد أن الوجود شر مطلق، وإنما يعتقد أن في الدنيا شيئاً من الخير وشيئاً من الشر ، وأن العـاقل يستطيع أن يتغلب على الشر بسعيه وجده .

اعتقاده في الخير والشر

بينا أن أبا العلاء غير متشائم للأسباب التي ذكرناها ، وأما اعتقاده في الخير والشر ، فالظاهر من أكثر أقواله أنه لايعتقد أن الوجود شر مطلق ، وإنما يعتقد وجود الأمرين معا ، فيوافق الفريق الثاني من المتشائمين أو هم يوافقونه ويدل على هذا أمور :

١ — منها : أنه يعتقد تنزه الله عن الشر ، ولا ينسب اليه إلا الخير . ولو اعتقد فيه الشر المطلق لما أثبت له صفات الكمال والخير ، ولما اعتقد أنه عادل حكيم رحيم يثيب الطائع ويجزي المحسن ويضاعف الأجر .

٢ — ومنها : أنه أثبت وجود الخير في الدنيا ، كما أثبت وجود الشر ، في مثل قوله : (١)

خيْرٌ وشَرٌّ وليْلٌ بَعْدَهُ وَضَحٌ ... والنَّاسُ في الدَّهْرِ مِثْلُ الدَّهْرِ صِنْوانِ

* * *

(١) اللزوميات هـ ص ٢٧٧ ، وفيها : « قسمان » .

وَيَعْلَمُ كُلٌّ أَنَّ لِلْخَيْرِ مَوْضِعاً وَفَضْلاً عَلَى إِثْبَاتِهِ أَجْمَعَ الدَّهْمُ(١)

. . .

وَلاَ تَكُنْ لِسَبِيلِ الشَّرِّ مُبْتَكِراً

وَاصْرِفْ إِلَى الْخَيْرِ مِنْ نَهْجِ الْهُدَى سُبُلَكْ(٢)

٣ — ومنها : أنه أثبت للخير أحكاماً إيجابية ، في مثل قوله :(٣)

وَالْخَيْرُ مَحْبُوبٌ وَلَكِنَّهُ يَعْجِزُ عَنْهُ الْحَيُّ أَوْ يَكْسَلُ

. . .

وَالْخَيْرُ أَزْهَرُ مَا إِلَيْهِ مُسَارِعٌ وَالشَّرُّ أَكْدَرُ لَيْسَ عَنْهُ مُحْجِمُ(٤)

. . .

وَالْخَيْرُ بَيْنَ النَّاسِ رَسْمٌ دَاثِرٌ وَالشَّرُّ نَهْجٌ وَالْبَرِيَّةُ مَعْلَمُ(٥)

. . .

وَالْخَيْرُ يُغْدِي كَغَادِي مُزْنَةٍ هَطَلَتْ أَرْضاً فَلَمَّا رَآهَا رَائِحٌ هَطَلا(٦)

. . .

مَا الْخَيْرُ صَوْمٌ يَذُوبُ الصَّائِمُونَ لَهُ وَلاَ صَلاَةٌ وَلاَ صُوفٌ عَلَى الْجَسَدِ(٧)

وَإِنَّمَا هُوَ تَرْكُ الشَّرِّ مُطَّرَحاً وَنَفْضُكَ النَّفْسَ مِنْ غِلٍّ وَمِنْ حَسَدِ

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٢٨ .

(٢) اللزوميات هـ ص ١٩٠ .

(٣) اللزوميات هـ ص ٢٠١ .

(٤) اللزوميات هـ ص ٢٣٥ ، الزهرة بالضم : الحسن والبياض ، ومنه زهر فهو أزهر .

(٥) اللزوميات هـ ص ٢٣٥ ، والمعلم : مايستدل به .

(٦) اللزوميات هـ ص ٢٠٤ .

(٧) اللزوميات هـ ص ١٠٩ .

والقاعدة عند العلماء أن ثبوت شيء لشيء فرع عن ثبوت المثبت له، يعني، إذا قلت: الشمس مضيئة، فقد أثبت الإضاءة للشمس، وثبوت الإضاءة للشمس دليل على ثبوت الشمس وفرع عن وجودها.

وقد حضّ على الخير في مواطن من شعره مثل قوله: (١)

بَدارِ بَدارِ الخيْرَ ياقلْبُ تائِباً ... ألَسْتَ بِدارٍ أنّ مَنْزِليَ الرَّمْسُ

ولا يناقض هذا مثل قوله: (٢)

مَنِ ادَّعى الخيْرَ مِنْ قَوْمٍ فَهُمْ كُذُبٌ ... لا خيْرَ في هذهِ الدُّنْيا ولا خِيَرُ

وقوله: (٣)

مَا كانَ في الأرْضِ مِنْ خيْرٍ ولا كَرَمِ

فَضَلٌ مَنْ قالَ إنَّ الأكْرَمينَ فَنُوا

فإنه من باب الغلوّ المراد به المبالغة في القلة والندرة، كما في قوله: «مافي البرية جيد ... فما في هذه الدنيا تقي ...» ونحو ذلك من الأبيات الآتية. وإنما قلنا هذا لأنه صرح مرة بوجود الخير في الأبيات المتقدمة وغيرها، وصرح مرة أخرى بندرته في مثل قوله: (٤)

والخيْرُ يَنْدُرُ تاراتٍ فَنَعْرِفُهُ ... ولا يُقاسُ على حَرْفٍ إذا نَدَرا

* * *

---

(١) اللزوميات هـ س ٣٠٩ .

(٢) اللزوميات هـ س ١٢٢ .

(٣) اللزوميات هـ س ٢٦١ .

(٤) اللزوميات هـ س ١٤١ .

حياؤه

وكان شديد الحياء، دقيق الحس، شديد الاحتراس، حتى حمله ذلك على أن يأكل وحده في مغـارة خجلاً من أن يرى مؤاكله أو غيره مايكرهه منه . وكثيراً ما كلفه الناس نظم قصائد وكتابة رسائل وإنشاء خطب وتأليف كتب فكان الحياء يمنعه من أن يمنع أحداً منهم . ولم يخبرنا التاريخ أنه رد سائلاً أو صد مستنجدا .

صدقه

لم ينقل الينا التاريخ أن أبا العلاء كذب بشيء مطلقا، وأن اعتصامه بحبل الصدق لم يدع له صديقا، ولو ظفر أحد من حساده وأعدائه عـلى كثرتهم بكذبة منه لنشرها في القاصية والدانية . أما قوله : (١)

أُصْدُقْ إلى أنْ تظنَّ الصِّدْقَ مَهْلَكَةً   وَبَعْدَ ذلكَ فاقْعُدْ كاذِباً وَقُمِ
فَالمَيْنُ مِيتَةُ مُضْطَرٍّ ألمَّ بِهـا   والحقُّ كالماءِ يُجْفَى خِيفَةَ السَّقَمِ

فإنه حض على الصدق وتنفير من الكذب إلا عند الضرورة الملجئة، وإبداع في التشبيه، وإحكام للمطابقة، وبيان للحقيقة الواقعة في عصره . وهو قول محض لايدل على أنه فعل الكذب .

وقد قدمنا قوله في (الفصول والغايات ج ١ ص ٢٠٩) : «كنيت وأنا وليد بالعلاء، فكأن علاء مات ... لا أختار لرجل صدق ما ولد له أن يدعى أبا فلان ... »

يدل على حبـه الصدق في كل شيء ، حتى في الكنيـة ،

---

(١) اللزوميات ٥ ص ٢٤٨ .

وكذلك قوله في اللزوم: [1]

عَلَيْكَ بِالصِّدْقِ فَلا حَظَّ لي   في كَذِبٍ يَنْظِمُهُ السَّارِدُ

وقد جعل الكذب مساويا للظلم، وفضّل الصخرة على أفضل الناس لأنها لاتكذب ولا تظلم.

فقال [2]:

أفضَلُ مِنْ أفضَلِهِمْ صَخْرَةٌ   لاَ تَظْلِمُ النّاسَ وَلا تَكْذِبُ

جرأته

وكان على ضعف جسمه جريئا قوي القلب، لايخـاف في الحق لومة لائم، وفي حديثه مع الشريف المرتضى حين أراد أن يغض من كرامة المتنبي دليل أوضح من الفلق على رباطة جأشه وجرأته، وكذلك قوله في مجلس المرتضى: «الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسما». وأدل من ذلك كله تصريحه بما يعتقده، ومجاهرته بانتقاد الشرائع والنظم الاجتماعيه، وغمزه قناة الأمراء والوزراء والشعراء وسائر أصناف الناس من غير مبالاة ولا جزع. وفي هذا مثال جلي يدلنا على مقدار ما كانت تكنه النفس الضعيفة من القوة والجرأة.

التقية

وزعم صاحب (الذكري) [3] أن أبا العلاء كان يضطر إلى المصانعة أحيانا، ويلجأ إلى إخفاء آرائه تقيّة وضناً بنفسه. وقد بينا بطلان ذلك في مواضع من هذا الكتاب.

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٠٠.
(٢) اللزوميات هـ ص ٣٦.
(٣) انظر ذكرى أبي العلاء ـ لطه حسين ـ ط ٢، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٧.

وفاؤه واعترافه بالجميل

قلما وجد الإنسان رجلا وفيا لأصحابه، شكورا للجميل، مقراً بالنعمة مثل أبي العلاء. فإنه خالط جماعة من علماء العراق وغيرهم، فكان كثير التشوق والنزوع إليهم كثير الثناء على ما أسدوه إليه من جميل العشرة والمؤانسة، وقد أثنى عليهم في قصائده ورسائله، وذكر أن لهم أيديا جميلة عنده؛ وليس لهم غير ماذكرنا.

وكان أبو الحسن علي بن أبي هاشم وولده أبو الفتح يكتبان للمعري، فأثنى عليهما كثيراً وشكرهما، ووضع للولد كتابين (المختصر الفتحي) و(عون الجمل). وكان ابن أخيه يخدمه، فأطال الثناء عليه والدعاء له، وإذا كتب إليه أحد كتابا عده نعمة تستوجب الشكر، وبالغ في الثناء عليه وعلى أدبه. وإذا ابتدأه أحد بالمدح غالى في شكره ومدحه. وقد ذكرنا طرفاً من ذلك يدلنا على أنه صادق حين حدثنا عن نفسه بقوله (١) :

وَإِنْ وُصِلْتُ فشُكْرِي شُكْرُ بَرْوَقَةٍ ... تَرْضَى بِبَرْقٍ مِنَ الأمْطارِ خلاَّبِ

تواضعه

كان أبو العلاء شديد التواضع، يحب أن يتضاءل ويصغّر شأنه حتى يكاد يخفى لا سيا في علمه وأدبه، وقد قال التبريزي (٢) : « إنه كان يكره أن يقرأ شعره في صباه الملقب « بسقط الزند » ..... ويقول معتذراً من امتناع سماعه : مدحت نفسي فيه فلا أشتهي أن أسمعه »

وقد بلغ من تغاليه في تواضعه أن أنكر اسمه وكنيته لما يُشعِران به من المدح

---

(١) اللزوميات ﻫ س ٤٨ ، والبَرْوَقة : واحدة البروق ، وهي شجيرة ضعيفة إذا غامت السماء اخضرت ، ومنه « أشكر من برَوقة » .

(٢) انظر مقدمة التبريزي لشرح سقط الزند ، شروح السقط ق ١ س ٣ .

فقال [١] :

وأحمدُ سمّاني كَبيري وَقلّما فَعلْتُ سوى ما أستحقُّ بهِ الذَمّا

* * *

دُعيتُ أبا العلاء وَذاكَ مَيْنٌ وَلكنّ الصحيحَ أبو النُزولِ [٢]

وسأل ذويه أن لا يميلوا إلى تكرمته :

سَألتُكُمْ لا تُكَنّوني لِتكْرِمَةٍ وَصَغّروني تَصْغِيراً بِتَرْخيمِ [٣]

وَما ألومُكَ في خَفْضي ومَنْقَصتي لكنْ ألومُكَ في رَفعي وَتَفخيمي

وكتبه مفعمة بما يدل على تواضعه ، منها قوله في رسالة المنيح [٤] : « هل أدبي في أدبه إلا كالقَطْرة في المَطْرة ، والنحلة عند النخلة .. » وقوله في رسالة الإغريض [٥] : « كنتُ عرفْتُ سيدنا أن الأدب كعُهودٍ في غِبِّ عهود ... وأني نزلتُ من ذلك الغيث ببلد طسم كأثر الوسم » . وقوله في رسالته إلى صدقة بن يوسف الفلاحي [٦] : « وإن العامة عَهِدَتني في صَدْرِ العمر أستصحب شيئاً من أساطير الأولين ، فقالت عالم ، والناطق بذلك هو الظالم ... ، ونشأت في بلد لا عالم فيه وإنما تَشَبّثُ النامية بالجوازع السامية .. » وقوله في (الفصول والغايات ص ٢٦٦) : « لو كنت عبداً لغير الخالق لم يجزىء عتقي في الكفارة ، ولو كنت ضائنة لم أجزىء

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٣٨ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢١٩ ، والمَيْن : الكذب .

(٣) اللزوميات هـ ص ٢٥٠ .

(٤) رسائل أبي العلاء المعري ـ لشاهين عطية ـ ص ٢٩ .

(٥) المصدر السابق ـ ص ٥١ ، والعهود : مفردها عهد وهو مطر بعد مطر يدرك آخره بلل أوله . والطسم . المندرس .

(٦) رسائل أبي العلاء ـ لشاهين عطية ـ ص ٩٥ ـ ٩٧ ، وتعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٥٤ ـ عن مسالك الأبصار ـ للعمري .

في الأضحية » وقوله في (رسالة الملائكة ص ٥) : « وحق لمثلي أن لا يُسأل ، فإن سئل تعين عليه أن لا يجيب ، فإن أجاب ففرض على السامع أن لا يسمع منه ، فإن خالف باستماعه ففريضته أن لا يكتب ما يقول ... »

وفي (لزوم ما لا يلزم) ألوان مختلفة من ذلك كقوله[1] :

مَاذَا تُرِيدُونَ لاَ مَالٌ تَيَسَّرَ لِي   فَيُسْتَمَاحُ وَلاَ عِلْمٌ فَيُقْتَبَسُ

وقوله : [2]

أَجْهَلُ مِنِّي رَجُلٌ يَبْتَغِي   عِنْدِيَ مَا لَسْتُ لَهُ مُحْسِنَا

وقوله : [3]

مَنْ يَبْغِ عِنْدِي نَحْواً أَوْ يُرِدْ لُغَةً   فَمَا يُسَاعَفُ مِنْ هَذَا وَلاَ هٰذِي

وقوله : [4]

لَوْ يُنَادَى فِي كُلِّ سُوقٍ عَلَيْهَا   مَا اشْتَرَاهَا أَخُو رَشَادٍ بِفَلْسِ

فخره

ولا يرد على ماذكرناه من تواضعه ماورد في كلامه في باب الفخر من الأشياء الدالة على تعاظمه وإكباره نفسه ، لأن ذلك شيء كان في عهد الحداثة ، ولأن طبيعة الفخر تقتضي ذلك . والفخر غرض من أغراض الشعر يتنافس فيه الشعراء وقلما خلا شعر شاعر مجوّد منه ، والإتيان به لايكون

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٩٣ .
(٢) اللزوميات هـ ص ٢٧٠ .
(٣) اللزوميات هـ ص ١١٧ .
(٤) اللزوميات هـ ص ٣٢٥ .

إلا في مدح المرء نفسه وقومه ، وستأتي أمثلة رائعة من كلامه في الفخر كقوله من قصيدة يقول فيها [١] :

وقدْ سارَ ذكْري في البلادِ فَمنْ لَهُمْ بإخفاء شمْسٍ ضَوْؤُها مُتكاملُ

وقوله من قصيدة ثانية [٢] :

وكَمْ مِنْ طالبٍ أمَدِي سَيَلْقى دُويْنَ مَكانيَ السَّبْعَ الشِّدَادَا

وما مثل كل هذا من أبيات القصيدتين وغيرهما ، وقد قدمنا أنه كان لايحب أن يَسْمَعَ شعرَه هذا لما فيه من المدح لنفسه .

كره الظلم

اتفقت الشرائع السماوية ، وأجمعت أهل العقول على تحريم الظلم وتقبيحه ولم تتشدد شريعة من الشرائع في تحريمه بقدر الشريعة الإسلامية ، فإن القرآن الكريم نهى عنه في غير موطن ، وحذّر وأنذر وبيّن عاقبة الظالمين . وكتب الأحاديث النبوية طافحة بمثل ذلك ، منها قول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تعالى [٣] : « ياعبادي إني حرّمت الظلمَ على نفسي وجعلتُه فيما بينكُم محرّماً فلا تظالموا » . ومنها قوله [٤] لمعاذ لما بعثه إلى اليمن : « اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » . ومنها قوله [٥] : « اتق دعوة المظلوم فإنها تصعدُ إلى السماء كأنها شرارة » .

---

(١) شروح سقط الزند ، ق ٢ س ٥٢٣ .

(٢) شروح سقط الزند ، ق ٢ س ٥٦٥ .

(٣) رواه مسلم والترمذي وابن ماجه (ج) .

(٤) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي مختصراً ومطولا . (ج)

(٥) رواه الحاكم (ج) .

ومنها قوله[1] « اتقوا دعوة المظلوم فإنها تحمل على الغمام ، يقول الله : وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين » ومنها قوله[2] : « إن الله ليملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ . إلى غير ذلك مما هو مذكور في كتب السنة .

وأبو العلاء كان يكره الظلم ولو كان من ورائه فوائد جمة ، ويقبحه ولا يجوزه في حال من الأحوال ، وينعي على الظالمين وذلك حيث يقول[3] :

وَمَا سَرَّنِي أني أَصبْتُ مَعاشِراً بِظُلْمٍ وأنّي في النَّعِيمِ مُخَلَّدُ

ويقول :[4]

والظُّلْمُ عنْدِي قَبيحٌ لا أُجوِّزُهُ وَلَوْ أُطِعْتُ لَما فاؤا بأَجلابِ

ولقد فضل الحجارة على الإنسان لأنها لا تظلم غيرها في مثل قوله :[5]

أَفْضَلُ مِنْ أَفْضَلِهِمْ صَخْرَةٌ لا تَظْلِمُ النّاسَ ولا تَكْذِبُ

---

(١) رواه الطبراني . (ج)

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي .

والمراد من قوله : ليس بينها وبين الله حجاب أن ليس بينها وبين القبول حجاب مانع . وقوله : كأنها شرارة كناية عن سرعة الوصول ، شبه سرعة صعودها بسرعة طيران الشرارة . وقوله : تحمل على الغمام . . كناية عن إثارة الآثار العلوية وجمع الأسباب السماوية على الانتصار له والانتقام من الظالم ويجوز غير هذا الوجه . (ج)

(٣) اللزوميات ھ س ٨٩ .

(٤) اللزوميات ھ س ٤٨ ، وفاؤوا : أي رجعوا ، وأجلاب : مفردها جَلَب وهو ما جلب من خيل أو غيره ، والجلْب بسكون اللام : الجناية ولعله المقصود ها هنا .

(٥) انظر ما سبق ص ٣٤٩ .

وفضّل صاحب الشرطة العادل على العدل الجائر فقال :(١)

صَاحِبُ الشُّرْطَةِ إنْ أنْصفَني　　فَهُوَ خَيْرٌ لِيَ مِنْ عَدْلٍ ظَلَمْ

وقد تعرض للظلم في مواضع من شعره ، منهـا قوله في وصف ناقة بالسرعة :(٢)

رُوحُ الظَّلُومِ إذَا هوَتْ فإذا ارْتقَتْ　　فَكَأَنَّما هِيَ دَعْوَةُ المظْلُومِ

وفيه إشارة إلى الحديث الثالث : « تصعد إلى السماء كأنها شرارة »

ومنها قوله :(٣)

لاشَيْءَ في الجـوِّ وآفاقِهِ　　أصْعَدُ مِنْ دَعْـوَةِ مَظْلُومِ

وقوله :(٤)

والظُّلْمُ يُمْهِلُ بَعْضَ مَنْ يَسْعَى لَهُ　　وَيُحَلُّ نِقْمَتَهِ بِنَفْسِ الظَّالِمِ

وفيه إشارة إلى الحديث الرابع والخامس ، ومن الغريب قوله :(٥)

عَجِبَ النَّاسُ لِلْجَنِيـنِ إذَا مَسَّـهُ الأَلَمْ

عَلِمَ اللهُ أنَّـهُ إنْ يُطِلْ عُمْرَهُ ظَلَمْ

(١) اللزوميات هـ س ٢٥٦ .

(٢) اللزوميات هـ س ٢٥٣ .

(٣) اللزوميات هـ س ٢٥٤ .

(٤) اللزوميات هـ س ٢٥٣ .

(٥) اللزوميات هـ س ٢٥٨ .

فإن كان من نوع حسن التعليل عند أهل البديع فهو حسن جداً ، وإن كان يعتقد أن ألم الجنين عقاب له على ما يفعله إذا طال عمره فهو غير صحيح ، لأن الله لا يعاقب على ذنب قبل اقترافه ، ولا يعاقب غير مكلف بلغ سن التكليف . ويعتقد أن الظلم كامن في كل نفس ، تظهره عند إمكان إظهاره ، وتخفيه عند عدم ذلك .

كانَ تَقِيّـاً قَبْلَ إِمْكانِهِ   حَتَّى إِذا مُكِّنَ مِنْها ظَلَمْ[1]

وهو يشير إلى قول المتنبي :[2]

الظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النُّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ   ذَا عِفَّـــةٍ فَلِعِلَّةٍ لا يَظْلِمُ

ويقبح الظلم مهما كان صاحبه ، سواء أكان تقياً صالحاً أم شقياً طالحاً ، فهو يعتقد أن :

ظُلْمُ الحَمامَةِ في الدُّنْيا وإِنْ حُسِبَتْ
في الصّالِحاتِ كَظُلْمِ الصَّقْرِ والبَازِي[3]

رأفة ورقة قلبه

من نظر إلى شعر المعري حين يتكلم في الناس ، يظن أن قلبه قُدّ من صخر ، ولكن من يتقرّى أبياته بدقة لا يجد قلباً من قلوب البشر وعى من الرأفة والرفق والعطف على كل حي معشار ما وعاه قلب المعري ،

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٥٧ .

(٢) من قصيدة مطلعها :

لهوى النفوس سريرة لا تعلم   عرضاً نظرت وخلت أني أسلم

انظر العرف الطيب — لليازجي — ص ٦٣٠ .

(٣) اللزوميات هـ ص ١٧٤ .

والذي حمله على ما يرى من القسوة على الإنسان في كلامه ، حرصه على أن يكون الإنسان إنساناً كاملاً طاهراً من أدناس الخداع والرياء والخيانة وما أشبه ذلك من الخلال السيئة ، فهي قسوة ولدتها الرحمة له ، لأنه لا يريد أن يكون الآدمي ذئباً في مسلاخ إنسان . وربما ظهر عطف المعري على الحيوان الأعجم الضعيف الغر أكثر من عطفه على الإنسان العاقل القوي المحتال . فهو يرفق بالحيوان ويرحمه ، فلا يأكل من لحمه ، لأنه لا يصل إلى ذلك إلا بذبحه ، وفي الذبح إيلام لحيوان يحس كما يحس الإنسان بالألم ، ويحرص على الحياة كما يحرص الإنسان عليها ، ويتوقى من الأذى كما يتوقى الإنسان . ويزيد رأفة بالحيوان الضعيف ، فلا يرى من الرحمة أن تُفجع الطير بأوكارها ، والسمك في مقارها ، ويشق عليه أن تذهب الأم لتكسب لأفراخها أو أولادها ما تسد به الرمق من طعام أو شراب فيفاجئها صياد فيودي بحياتها ويتلذذ بلحمها ، وتبقى أولادها وليس لها من يعولها ، فتموت جوعاً أو عطشا .

ويؤلمه أن يُذبح ولد الحيوان أو يمنع من ابن أمه ليتمتع غيره بلبنها أو ليرفه به غيره ، ويكره أن تدأب النحلة الضعيفة على جمع العسل ليكون غذاء لها ولصغارها ، ثم ينتزع منها قسراً ، ويعطى من يمكنه الاستغناء عنه بغيره أو يمنح لمن لا حاجة له به إلا قضاء الشهوة . وقد قدمنا أبياتاً بين فيها ما يكرهه من هذا النوع وسيأتي في باب الرفق بالحيوان والإنسان ما يدل على أمره بالإحسان لكل ذي روح ونهيه عن الإساءة إلى الحيوان وغيره . ولقد غالى في عطفه على الحيوان حتى جعل تسريح البرغوث أبر من درهم يعطى لمحتاج إليه ، وسوّى بين الملك المطاع والبرغوث اللذاع . على أنه يجوز أن يكون مراده بمثل هذه الأقوال الدلالة على

شدة تذمره من أعمال الإنسان ، أو أن يريد إفناء غير الصالح منه ، وقد سبقه إلى مثل هذا سيدنا نوح عليه السلام حين قال ﴿ لا تَذَرْ عَلى الأَرْضِ مِنَ الكافِرِينَ دَيّارا ﴾(١) .

رأفته بالإنسان

لا يقل عطفه على الإنسان عن عطفه على الحيوان ، فهو يحض على الإحسان للضعيف والمعتر والعاري والظامىء في مثل قوله :(٢)

إذا كُنْتَ في نَخْلٍ جَناهُ مُيَسَّرٌ لِكَفِّكَ فاهْتِفْ بالضَّعِيفِ إِلى النَّخْلِ

* * *

إذا أُوتِيتَ مِلْءَ يَدٍ طَعامًا فَأَطْعِمْ مَنْ عَراكَ ولو كَظُفْرِ(٣)

* * *

وانْبِذْ إِلى مَنْ تَشَكَّى قِرَّةً سَمَلاً مِنَ الثِّيابِ وأَوْرِدْ ظامِئًا سَمَلَكْ(٤)

---

(١) تمام الآية : « وَقالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلى الأَرْضِ مِنَ الكافِرِينَ دَيارا » . الآية ٢٦ سورة نوح .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢١٠ .

(٣) اللزوميات ﻫ ص ١٥٥ ، وعراك : أي غشيك طالباً معروفك .

(٤) اللزوميات ﻫ ص ١٩٠ ، والقرة : بالكسر ما أصابك من البرد . والسمل : الثوب الخلق . والسمل في آخر البيت : بقية الماء .

ويحض على معاملة الرقيق بالحسنى في أبيات كثيرة منها قوله :[١]

أَسَأْتَ بِعَبْـدِكَ في عَسْفِهِ   وَحمَّلْتَ غيرَكَ مَا لَمْ يُطِقْ ...

* * *

إِذَا كَسرَ العَبْدُ الإِناءَ فعُدَّهُ   أَذاةً لَهُ إِنَّ الإِناءَ إِلى الكَسْرِ..[٢]

رَقيقُكَ أَسْرى في يَدَيْكَ فلا تكُنْ   غَليظًا عَلَيْهِمْ واتّقِ اللهَ في الأَسْرِ

* * *

ولا تكُ مِمَّنْ قَرَّبَ العَبْدَ شارِخاً   وَضيَّعَهُ إِذْ صارَ مِنْ كِبَرٍ هِمًّا[٣]..

ويحض على رحمة الأعمى والأصم :

تَصَدَّقْ عَلى الأَعْمى وخُذْ بِيَمِينِهِ   لِتَهْدِيَهُ وامْنُنْ بِإِفْهامِكَ الصُّمَّا

وعلى مشاركة المضيقين في النعم ، وعلى إكرام الطفيلي ، ويقبح الحروب وإراقة الدماء في طلب دولة ، ويعد الإقـدام على ذلك بعداً عن السداد والرشاد :

فَإِنْ تَرْشُدُوا لَمْ تَخْضِبُوا السَّيْفَ مِنْ دَمٍ

ولَمْ تُلْزِمُوا الأَمْيالَ سَبْرَ الجَرائِحِ[٤]

---

(١) اللزوميات ﻫ س ٣٠٨ .

(٢) اللزوميات ﻫ س ١٤٧ وفيها : « إلى كسر » .

(٣) اللزوميات ﻫ س ٢٣٨ ، والشارخ : الشاب . والهِمّ : الشيخ الفاني .

(٤) اللزوميات ﻫ س ٨٤ وفيها : « لاتخضبوا ... ولا تلزموا » . والسبر : امتحان غور الجرح وغيره .

وسيأتي في الكلام على أغراض شعره ما يدل على شدة عطفه على الإنسان والحيوان .

رأفته بالمرأة

وقد نظر إلى المرأة من حيث انها سبب للنسل الذي دنس وجه البسيطة بأعماله ، فأمطرها وابلاً من سخطه وقسوته ونظر إليها من حيث انها حي فيه حس وشعور ، وموضع لصنع البر والجميل ، فأولاها من العطف والشفقة نصيباً أوفر مما أعطاه الرجل ، لأنه يعتقد أن الأجر يلتمس في كل نفس حية ، وإذا تأملنا حملاته في شعره على المرأة تبين لنا أن السبب في ذلك إفراطه في الغيرة عليها لأنها موطن العار والشنار ، وإفراطه في سوء الظن في الرجل بالنسبة لما علمه من أهل عصره ومن قبله . على أنه أوصى بها خيراً ، ونهى عما يجلب لها الضر والتنغيص ، ونهى عن مضارتها وفضل الأم على الأب ، وأوصى أن يزاد برها وحظها من الإرث ؛ كما سترى ذلك في الكلام على المرأة في أغراض شعره . ولعل الإنسان لا يبالغ إذا قال : إن في قلب المعري من الرحمة والرأفة بكل ذي نفس حية ما لا يجده في كثير من قلوب الناس ، وحسبك دليلاً على هذا إعراضه عن أكل الحيوان وما تولد منه ، وامتناعه عن أكل الفرّوج لما وصفه له الطبيب . وسترى في كلامه ما يدل على أن سبب كرهه الإنسان هو الإشفاق على النسل مما يعانيه في حياته .

عدم تزوجه

كان أبو العلاء فقيراً أبيّاً عفيفاً زاهداً في الحياة وما فيها ، وكانت أمه تقوم بأوده مدة حياتها ، فلما توفيت كانت حاجته شديدة إلى من يخدمه

ويصلح أموره، ولا يتأتى مثل ذلك إلا من امرأة. ولو أراد الزواج لوجد في بنات عمه وغيرهن من لا يأباه، ولكنه أشفق أن يحمله الزواج على إنفاق أكثر مما كان يستغله، فيضطر إلى أن يقبل شيئاً من إخوته أو بني عمه أو أخواله أو غيرهم، فآثر أن يصاحب الجهد والتعب مدة حياته، ولا يبذل ماء وجهه بسؤال.

وربما أضاف الى هذا مايحتاج اليه الولد من العناية بتربيته والإنفاق عليه، وهو عاجز عن القيام بأمر نفسه مستطيع بغيره. وهناك شيء آخر ربما كان له أعظم أثر في إعراضه عن الزواج، وهو رأفته بالولد وإشفاقه مما يعانيه في حياته، شأن كل حي، كما يشير الى ذلك قوله: (١)

إِذَا مَا اسْتَهَلَّ الطِّفْلُ قَالَ وُلاتُهُ وإِنْ صَمَتُوا: عَانِ الخُطُوبَ وَرَشْقَهَا

وقوله في أبيات منها: (٢)

فَإِمَّا أَنْ يُرَبِّيَهُ عَدُوّاً وإِمَّا أَنْ يُرَبِّيَهُ سَقِيماً . . .

وربما خاف ألا ينجب في نسله، فيكون ذلك منغصاً له في حياته مسيئاً لسمعته في حياته وبعد مماته، ويشعر بهذا قوله: (٣)

لَوَ انَّ بَنِيَّ أَفْضَلُ أَهْلِ عَصْرِي لَمَا آثَرْتُ أَنْ أُحْظَى بِنَسْلِ
فَكَيْفَ وَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ مِثْلِي خَسِيسٌ لا يُجِيءُ بِغَيْرِ فَسْلِ

---

(١) اللزوميات ﻫ س ٣٠٣ .
(٢) اللزوميات ﻫ س ٢٤٣ ، وفيها : « أن يُخَادِمَهُ يتيما » .
(٣) اللزوميات ﻫ س ٢١٨ . والفسل : الرذل .

وشيء آخر ربما كان هو أعظم باعث له على عدم الزواج وهو أنه كان شديد الغيرة ، مسرفاً في إساءة الظن بالمرأة ، حتى لا يريد منها التعلم ولا الخروج إلى الحج والمسجد والحمام والسطح والعراف والمنجم ونحو ذلك مما رأيته وستراه في كلامه ، فربما خشي منها ما لا يرضاه ولا يساعده على مراقبتها عماه . وقد كانت حالة المرأة في عصره ، على ما وصفه في شعره ، تدعو إلى إساءة الظن ، فهذه جملة من الأسباب التي دعته إلى عدم الزواج . وهناك أسباب أخر ، وسيأتي تفصيل هـذا في الكلام على الزواج والنسل والمرأة .

تقواه

أشرنا فيما تقدم وفيما يأتي إلى أن أبا العلاء كان شديد التمسك بدينه ، محافظاً على شعائره ، وقد كانت الصلاة عنده أنفس شيء وأفضله ، يدل على ذلك مثل قوله (١) :

وَشَاهِدُ خالِقِي أنَّ الصَّلاةَ لَهُ   أبَرُّ عِنْدِيَ مِنْ دُرِّي وياقُوتي

وقد حض عليها في مواطن من شعره كقوله (٢) :

خُذُوا سِيَرِي فَهُنَّ لَكُمْ صَلاحٌ   وَصَلُّوا في حَياتِكُمُ وَزَكُّوا ...

وقوله (٣) :

إذا كُنْتَ في دَارِ الشَّقاءِ مُصَلِّياً   فَإنَّكَ في دارِ السَّعادَةِ سَابِقُ
إذا الحُرُّ لَمْ يَنْهَضْ بِفَضْلِ (٤) صَلاتِهِ   فَذَلِكَ عَبْدٌ مِنْ يَدِ الدَّهْرِ آبِقُ

(١) اللزوميات هـ ص ٦٦ ، وفيها : « أجَلّ عندي » .
(٢) اللزوميات هـ ص ١٨٤ .
(٣) اللزوميات هـ ص ٢٩٨ .
(٤) في اللزوميات : « بفرض » . والآبق : من أبق العبد أي ذهب أو استخفى .

ولم يحدثنا التاريخ أنه ترك صلاة في سفر ولا حضر ولا صحة ولا مرض ، ولما عجز عن القيام كان يصلي قاعداً ، وكان يصوم الدهر ما عـدا أيام الأعياد ، ولم تجب عليه زكاة ولا حج . ومن تتبع أعماله لم يجد فيهـا ما يخالف التقى ، وفي أقواله ما يدل على أنه كان يحب التقى والنسك وعمل الخير والإخلاص في العمل ، وأنه يرى التقى أفضل ذخيرة ، وذكر الله خير ما يتكلم به المرء ، وهذه طائفة من كلامه في ذلك :

لِيُشْغَلْ بِذِكْرِ اللهِ عَنْ كُلِّ شَاغِلٍ فَذَلِكَ عِنْدَ اللُّبِّ خَيْرُ كَلامِ (١)

* * *

وَمَنْ يُبْلَ بِالدُّنْيا وسُوءِ فعالِها فَلَيْسَ لَهُ إلا التَّعَبُّدُ والنُّسْكُ (٢)

* * *

فَعَلَيْكَ بِالتَّقْوَى ذَخِيرَةَ ظَاعِنٍ إِنَّ التَّقِيَّةَ أَفْضَلُ الأَذْخارِ (٣)

* * *

وَمَنْ يَذْخَرْ لِطُولِ العَيْشِ مَالاً فَإِنَّ تُقَايَ عِنْدَ اللهِ ذخرِي (٤)

* * *

أُعِدُّ أَسْنَى الرِّبْحِ فِعْلَ التقَى فَلا أَكُنْ رَبَّ مِنَ الخَاسِرِينْ (٥)

---

(١) اللزوميات ﻫ س ٢٤٦ .

(٢) اللزوميات ﻫ س ١٨٢ .

(٣) اللزوميات ﻫ س ١٦٤ .

(٤) اللزوميات ﻫ س ١٥٤ .

(٥) اللزوميات ﻫ س ٢٨٥ .

وأنه يرى الناسكين خير الناس :

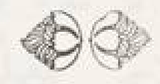
ذَوُو النُّسكِ خَيرُ النَّاسِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ
وَزِيُّهُمُ بَيْنَ المعَاشِرِ خَيْرُ زِيّْ (١)

وأن المصيبة بالدين أجل من المصيبة بالموت :

مُصِيبَةُ دِينِهِ لَوْ كانَ يَدْرِي أَجَلُّ مِنَ الْمُصِيبَةِ بالدَّفِينِ (٢)

* * *

وقد ذكرنا عند الكلام في اعتقاده بالله ما يشهد بأنه من الأتقياء البررة .



---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٣٤٧ .
(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢٧٩ .

رجاؤه وخوفه

الرجاء

الرجاء في اللغة الأمل والإرادة ، يقال : رجا الشيء إذا أراده ، وقال بعضهم : هو ظن يقتضي حصول ما فيه مسرة ، وقال آخر : هو ترقب الانتفاع بما تقدم له سبب ما ، وقال آخر : هو لغــة الأمل ، وعرفاً : تعلق القلب بحصول محبوب مستقبلا ، وفي المصباح : « ويستعمل الرجاء بمعنى الخوف ، لأن الراجي يخاف أنه لا يدرك ما يترجاه » ، وفي التاج : « إنما يستعمل الرجاء بمعنى الخوف إذا كان معه حرف نفي ، ومنه قوله تعالى ﴿ مالَكُمْ لا تَرْجُونَ لله وقاراً (١) ﴾ المعنى : مالكم لا تخافون لله عظمة » ونقل نحو ذلك عن الفراء .

والرجاء مقام من مقامات السالكين ، وهو عنــد فريق من الصوفية ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده بعد أن تتوفر فيه جميع الأسباب التي تكون داخلة تحت اختياره ، فإذا آمن الإنسان بالله ، وقام بكل ما يجب عليه من الأعمال الظاهرة ، ونزع ما في صدره من غل وحقد ، وطهره من الأخلاق الذميمة والعقائد الزائفة ، ثم انتظر ثواب الله وعفوه كان انتظاره هذا رجاء محمودا ، فإن لم تتوفر جميع هذه الأسباب وانتظر الثواب أو العفو كان انتظاره هذا غروراً مذموما ، وهذا ما أراده يحيى ابن معاذ (٢) بقوله : « من أعظم الاغترار التمادي في الذنوب مع رجاء العفو

---

(١) سورة نوح الآية (١٣) .

(٢) أبو زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي ، واعظ زاهد ، من أهل الري ، أقام ببلخ ومات في نيسابور سنة ٢٥٨ هـ انظر : العروسي على شرح الرسالة القشيرية : ١١٩/١ ، وطبقات الصوفية ١٠٧ – ١١٤ .

وتوقع القرب من الله بغـير طاعة ..» .

وفي كلام أبي العلاء أمثلة مختلفة تدل على أنه كان حسن الظن بالله ، واسع الرجاء في رحمته وعدله ، كثير الطمع بعفوه ، وهذه جملة منها :

وَمَا كَانَ ٱلْمُهَيْمِنُ وهْوَ عَدْلٌ لِيَقْصُرَ حِيلَتِي وَيُطِيلَ لَوْمِي (١)

* * *

إِنْ أَدْخُلِ النَّارَ فَلِي خَالِقٌ يَحْمِلُ عَنِّي مُثْقَلاتِ العَذابْ (٢)

* * *

أُؤَمِّلُ عَفْوَ اللهِ والصَّدْرُ جَائِشٌ إِذا خَلَجَتْنِي لِلْمَنُونِ الخَوالِجُ (٣)

* * *

أَأَخْشَى عَـذابَ اللهِ واللهُ عادِلٌ
وقَدْ عِشْتُ عَيْشَ ٱلْمُسْتَضَامِ ٱلْمُعَذَّبِ (٤)

* * *

وَإِنِّي وإِنْ لَمْ آتِ خَيْراً أُعِدُّهُ لَآمُلُ إِرْوَاءً بِغَيْرِ ذَنُوبِ (٥)

* * *

لِيَفْعَـلِ الدَّهْرُ مَا يَهُمُّ بِهِ إِنَّ ظُنُونِي بِخَالِقِي حَسَنَهْ (٦)
لا تَيْأَسُ النَّفْسُ مِنْ تَفَضُّلِهِ وَلَوْ أَقَامَتْ فِي النَّارِ أَلْفَ سَنَهْ

* * *

(١) اللزوميات ھ س ٢٥٢ .
(٢) اللزوميات ھ س ٥٦ .
(٣) اللزوميات ھ س ٧٣ .
(٤) اللزوميات ھ س ٤٥ .
(٥) اللزوميات ھ س ٤٧ ، وفيها : « ... بغير ذنوب » ، والذنوب : الدلو إذا كان فيها ماء .
(٦) اللزوميات ھ س ٢٧١ .

الخوف

والخوف في اللغة الفزع ، وقال الراغب : الخوف توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة ، كما أن الرجاء توقع محبوب عن أمارة مظنونة أو معلومة .

والخوف مقام من مقامات السالكين ، وهو عند بعض المتصوفة عبارة عن تألم القلب بسبب توقع مكروه في المستقبل . وليس الرجاء مضاداً للخوف ، بل كل منهما باعث على مجاهدة النفس والحض على الطاعة المقربة من الله ولكن أحدهما بطريق الرغبة والثاني بطريق الرهبة .

والخوف قد يكون من المخلوق ، وهو إما أن يكون سببه ذنب الخائف ، كمن جنى على رجل أقوى منه فإنه يخاف انتقامه ، وإما أن يكون سببه طبيعة المخوف منه كالأسد والنار والحية .

وقد يكون الخوف من الخالق ، وهذا قد ينشأ عن ارتكاب الإنسان ما نهاه الله عنه . وقد ينشأ عن معرفة الله وصفاته ، فإن من يعلم أن الله شديد العقاب ، وأنه لا يسأل عما يفعل ، وأنه لا تجب عليه إثابة الطائع بل تجوز عليه معاقبته . لا يأمن عقاب الله . وقد ينشأ الخوف عما يتوقعه الانسان من المكاره قبل الموت ، كزوال النعم وتتابع النقم من الآفات والسقم . أو بعد الموت كالقبر وما في القيامة من حساب وعذاب ودخول نار .

والخوف من الله إما أن يكون خوفاً من عذابه ، وهو خوف عامة الناس ، وإما أن يكون خوفاً من الله نفسه ، وهو خوف الخاصة العارفين من صفات الله ما يوجب الحذر منه والمدركين معنى قوله تعالى : ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ وأشد الناس خوفاً الأنبياء ثم العلماء العارفون صفات الله التي توجب الخوف منه .

وللخائفين أحوال مختلفة ، وقد وقع في كلام المعري ما يدل على أنه شارك القوم في نواح كثيرة ، فقد كان فريق منهم يرى أنه حقير في نفسه ، وأن أعماله لا تؤهله لدخول الجنة فيستعيذ بالله من النار . وقد روي عن عبد الله بن المبارك (١) أنه خرج يوماً على أصحابه فقال لهم : « إني اجترأت البارحة على الله وسألته الجنة » . ومن هذا النوع قول أبي العلاء :(٢)

يَا رِضْوَ لا أرْجُـــو لِقَا ءَكَ بَلْ أخافُ لِقَاءَ مالِكْ

وفريق منهم تذكر ما بينه وبين الموت من الخطر الذي يخاف منه سوء الخاتمة ، وعدم الثبات على الهدى ، وتذكر ما بعد الموت من حساب وعذاب فغلب عليه الوجوم ، وقد روي أن الحسن البصري (٣) ما ضحك أربعين سنة . وقيل لسعيد بن جبير (٤) : إنك لم تضحك قط . فقال : كيف أضحك وجهنم قد سعرت ، والأغلال قد نصبت والزبانية قد أعدت ؟

وإليك أمثلة من كلام أبي العلاء تمثل الخوف مما يعانيه المرء في حياته وبعدها ويتوقعه من شر ومكروه فيها وما يخشاه من ربه .

---

(١) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح المروزي الحنظلي بالولاء ، التميمي . ولد سنة ١١٨ هـ وتوفي بهيت سنة ١٨١ هـ . انظر تذكرة الحفاظ ٢٥٣/١ والشذرات ٢٩٥/١ .

(٢) اللزوميات هـ ص ١٩١ .

(٣) هو الحسن بن يسار البصري أبو سعيد ، تابعي ، إمام ولد سنة ٢١ هـ وتوفي سنة ١١٠ هـ .

(٤) هو أبو عبد الله سعيد بن جبير الأسدي بالولاء ، تابعي ، ولد سنة ٤٥ هـ وتوفي سنة ٩٥ هـ ، انظر الوفيات ٢٠٤/١ .

الخوف من عناء الحياة :

ضَحِكْنا وكانَ الضِّحْكُ مِنّا سَفاهَةً(١) . . . .

إلى آخر البيتين .

الخوف من الله :

أمّا الحياةُ فلا أرجو نَوافِلَها لكِنَّني لإلٰهي خائفٌ راجِ(٢)

الخوف من الخلود في النار :

يا هُونَ ما أوْعَدَ اللهُ العِبادَ بِهِ إنْ صارَ جِسْمي في تَحْريقِهِ رِمَما(٣)

وإنَّما هُوَ تَخْليدٌ بِلا أمَدٍ تَمْضي الدُّهورُ وَصالي النّارِ ما رُحِما

الخوف من تغير الحال :

لا يُعجِبَنَّكَ إقْبالٌ يُريكَ سَناً إنَّ الخُمودَ لَعَمْري غايَةُ الضَّرَمِ(٤)

* * *

يَبْتَني راغِبٌ فَما تَكْمُلُ الرَّغْـــبَةُ حَتّى يُهَدَّمَ البُنْيانُ(٥)

* * *

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٨٢ ، وعجز البيت : وحُقّ لِسُكّان البَسيطةِ أنْ يَبْكوا .

(٢) اللزوميات هـ ص ٧٧ .

(٣) ورد البيتان في لزومية واحدة : الميم المفتوحة واللازم حاء ص ٢٤١ — ٢٤٢ وبهذا كانت قافية البيت الأول فيها : « فحما » .

(٤) اللزوميات هـ ص ٢٤٧ .

(٥) اللزوميات هـ ص ٢٦٣ .

فَرَاقِبِ اللهَ إِنَّ السَّعْدَ يَتْبَعُهُ   نَحْسٌ وَإِنَّ لِجَمْعِ الدَّهْرِ تَفْرِيقَا[١]

الخوف من الله وسخطه ومن تفريطه في حقوق الله وإفراطه في هوى نفسه :

أَعُوذُ بِرَبِّي مِنْ سُخْطِهِ   وَتَفْرِيطِ نَفْسِي وَإِفْرَاطِهَا[٢]

* * *

لَوْلَا حِذَارِيَ أَنَّ اللهَ يَسْأَلُنِي   عَمَّا فَعَلْتُ لَقَلَّتْ عِنْدِيَ الكُلَفُ[٣]

وهناك أمثلة مختلفة من خوفه تدل على أنه كان كثير الحزن والوجوم من خوفه من الله ومن عقابه . وقد ظن بعض الأدباء أن هذا من باب التشاؤم ، وقد تقدم الكلام فيه .

الخلاص في الأعمال

الأعمال التي تصدر عن الإنسان أنواع : منها ما هو من عمل القلب ، وهو النية والقصد ، ومنها ما هو عمل الجوارح ، وهذه ثلاثة أنواع : طاعة ، ومباح ، ومعصية . وكل واحد منها لا يخلو في الغالب عند وقوعه من نية وقصد ، وللنية مع كل واحد شأن .

أما الطاعة فتتوقف صحتها أو ثوابها على النية ، وتنقلب مع النية معصية ، كما لو صلى وأراد بالصلاة أن يظهر أنه من أهل النسك .

وأما المباح فينقلب بالنية إلى طاعة ومعصية ، كما لو أعطى درهماً إلى فقير ليسد به رمقه ، أو ليشتري به خمرا .

(١) اللزوميات هـ ص ٣٠٤ .
(٢) اللزوميات هـ ص ١٨٠ .
(٣) اللزوميات هـ ص ٢٩١ .

وأما المعصية فلا تؤثر فيها النية ولا تقلبها طاعة ، كما لو سرق درهماً ليتصدق به .

فالنية هي التي تميز الغرض المقصود من الطاعة والعمل المباح .

الإخلاص

وقد اختلفت كلمة القوم في معنى الإخلاص وتعريفه ، لسبب اختلاف مقاماتهم وأحوالهم ، وبالنظر إلى تنوع درجات الإخلاص ، واختلاف السائلين عنه ، ولعل أقرب ما يقال فيه إلى الصواب هو أن يريد الإنسان بعمله وجه الله تعالى فقط ، ولا يمر بباله شيء من الحظوظ النفسية العاجلة أو الآجلة ، وهو شرط في كل عبادة ، وقد قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ كانَ يرْجو لِقاءَ ربّه فليعمل عملًا صالحاً ولا يُشْرِكْ بِعِبادةِ ربّه أحداً ﴾[1].

ومما لا ريب فيه أن الإنسان محفوف بالشهوات منغمس في الحظوظ ، فلا يتسنى له تنقية قلبه منها بسهولة ، ولذلك قال بعض العلماء : من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا .

ثم إن العمل قد يكون خالصاً محضاً بأن لا يريد به إلا الله ، وقد يكون رياء محضاً بأن يريد به غير الله ، وقد يكون ممزوجاً منهما بأن يريد به وجه الله وشيئاً آخر من الحظوظ الدنيوية أو الأخروية أو منهما . وقد اتفقت كلمة الجمهور على أن الإخلاص سبب للثواب ، وأن الرياء سبب للعقاب . واختلفوا في المشوب منهما ، فقيل : إنه لا ثواب له . وقال قوم : إذا كان الباعث دينياً ونفسياً فإن كانا متساويين تساقطا ، وكان العمل لا له ولا عليه ، وإن كان الرياء هو الغالب ، فالعمل ليس بنافع ، بل يفضي إلى العقاب لكنه أخف من عقاب الرياء المحض ، وإن

(١) سورة الكهف ١٨/١١٠ .

كان الباعث الديني هو الغالب فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني . والأقرب إلى العقل أن العمل إذا لم يكن خالصاً لله فليس بنافع .

وأبو العلاء كان يحب الاخلاص في العمل ويحض عليه في مثل قوله :

إذا مَا فعلْتَ الخيْرَ فاجعلْهُ خالِصاً
لِرَبِّكَ وازْجُرْ عَنْ مَديحِكَ ألْسُنا (١)

* * *

إذَا أخْلَصْتَ لِلْخَلاّقِ سِرّاً   فَلَيْسَتْ مِنْ ضَوائِرِكَ الضَّوارِي (٢)

وقد وافق القومَ في أن الرياء محبط للعمل في مثل قوله :

إذَا قِيلَ : إنَّ الفتَى ناسِكٌ   ورَامَ الجمَالَ فَلا نُسكَ [له] (٣)

وله في باب الأعمال أقوال وآراء يمكن أن تلخص بما يأتي .

١ - إن النسك الظاهر والتلبس بشعار الصالحين ليسا من الخير في شيء ، وإنما الخير في تزكية النفوس وتطهيرها من الأخلاق الذميمة ، وهذا يتجلى في مثل قوله (٤) :

مَا الخَيْرُ صَوْمٌ يَذُوبُ الصّائِمُونَ لَهُ   وَلا صَلاةٌ وَلا صُوفٌ عَلَى الجَسَدِ
وإنَّمَا هُوَ تَرْكُ الشَّرِّ مُطَّرَحاً   وَنَفْضُكَ الصَّدْرَ مِنْ غِلٍّ ومِنْ حَسَدِ

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٦٤ .
(٢) اللزوميات هـ ص ١٥٦ .
(٣) اللزوميات هـ ص ٢٠٩ .
(٤) اللزوميات هـ ص ١٠٩ .

فالصوم في رأيه كف النفس عن شهواتها الظاهرة ، وتطهيرها من الشرور الباطنة والظاهرة ، وليس هو عبارة عن منعها عن الطعام والشراب والجماع فقط ، وعلى هذا يرى أن القول الباطل مبطل للصوم ، مفيت للغاية المقصودة منه ، مذهب للثواب المتوقع منه وهذا مجمل قوله[1] :

إذا القَوْمُ صامُوا فَعافُوا الطعَامَ ... وقالُوا المُحالَ فَقَدْ أفطَرُوا

وقال في (الفصول والغايات ص ٢٨) : « صوم الآبد أفضل من صوم المفطر على حرام فاذا صمت عن المـآثم فعند ذلك صم عن الطعام . . »

وقد قال بعض المحققين : الصوم أقسام ، صيام العوام وهو الصوم عن مفسدات الصيام ، وصيام الخواص وهو الصوم عنهـــا وعن إطلاق الجوارح في غير طاعة ، وصيام خواص الخواص ، وهو حفظ قلوبهم عما سوى الله ، ففطرهم ظاهرا كفطر المسلمين ، ولا يفطرون باطناً إلى يوم الدين ، فاذا شاهدوا مولاهم ونظروا إليه عياناً أفطروا .

فأبيات أبي العلاء المتقدمة تدل على أنه يريد بالصوم صوم الخواص ، ويجوز أن يكون أراد به صوم خواص الخواص .

وأما قوله :

أَنَا صَائِمٌ طُولَ الحياةِ وإِنَّما ... فِطْرِي الحِمَامُ ويَوْمَ ذاكَ أُعَيِّدُ

فالظاهر أنه يريد به القسم الأخير .

٢ ـ إن الإنسان مهما فعل من أنواع النسك لا يعـــد ناسكا إذا لم يمسك نفسه عن أطماعها ، بل يعد جاهلاً بحقيقة الدين وهذا يظهر في

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٣٥ .

مثل قوله (١) :

سَبِّحْ وَصَلِّ وطُفْ بمكّةَ زائراً   سَبْعِينَ لا سَبْعاً فلَسْتَ بناسِكِ
جَهِلَ الدِّيانَةَ مَنْ إذا عَرَضَتْ لهُ   أطْماعُهُ لَمْ يُلْفَ بالمُتَماسِكِ

٣ ـ إن كل عبادة يجب أن تكون خالصة لله ، لا يراد بها إلا تعظيمه وامتثال أمره ، يدل على هذا قوله (٢) :

وأعْبُدُ اللهَ لا أرْجو مَثُوبَتَهُ   لكِنْ تَعَبُّدَ إعْظامٍ وإجْلالِ

٤ ـ إن الواجب على الإنسان أن يفعل الخير ، لأنه خير ، لا طمعاً في الثواب المترتب عليه :

فَلْتَفْعَلِ النَّفْسُ الجَميلَ لأنَّهُ   خَيْرٌ وأحْسَنُ لا لأجْلِ ثَوابِها (٣)

٥ ـ إن ترك الواجب أقرب إلى الله من فعله إذا لم يكن خالصاً لله :

إذا رامَ كَيْداً بالصَّلاةِ مُقيمُها   فَتارِكُها عَمْداً إلى اللهِ أقْرَبُ (٤)

فإنّ ترك الصلاة عمداً كبيرة ، والصلاة لغير الله شرك ، وهو أعظم من تركها عمدا . وقال في (الفصول والغايات) : « صلاة المنافق صلاء النار ، وطهارة الخلد أبلغ من طهارة الجسد بالماء » .

الرياء

يقال راءيت الرجل إذا أريته أني على خلاف ما أنا عليه . هذا هو الأصل فيه ، والرياء عند المحققين ترك الإخلاص في العمل بملاحظة غير الله

---

(١) اللزوميات ـه س ١٨٩ .
(٢) انظر فائت شعر أبي العلاء س ١١ جمع عبد العزيز الميمني . وفيه « تعبد إكرام » .
(٣) اللزوميات ـه س ٥٢ .
(٤) اللزوميات ـه س ٣١ .

فيه ، وقال بعضهم : هو إظهار العمل للناس ليروه ويظنوا به خيرا . فالعمل لغير الله . وقد يكون الرياء فيما لايوجب كفرا ، كما إذا أراه أنه غني وهو فقير ، أو أنه قوي وهو ضعيف . ومن هذا النحو مارواه البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب (ض) أنه قال : فما لنا وللرَمل إنما كنا راءينا به المشركين وقد أهلكهم الله . ثم قال : شيء صنعه النبي ﷺ فلا نحب أن نتركه . ومعنى قوله : كنا راءينا ... أردنا أن نظهر القوة للمشركين بالرمل ليعلموا أنا لانعجز عن مقاومتهم ولا نضعف عن محاربتهم ، وقد أهلكهم الله ، فما لنا من حاجة اليوم الى ذلك .

وفي كلام أبي العلاء أبيات كثيرة تدل على أنه كان يحكم على نفسه بما يحكم به على الناس المشاكلة ، وهو يريد ذمهم بتلك الصفة كقوله (١) :

إِذَا سَأَلُوا عَنْ مَذْهَبِي فَهُوَ بَيِّنٌ ... وَهَلْ أَنَا إِلاَّ مِثْلُ غَيْرِي أَبْلَهُ

ومن هذا النوع قوله (٢) :

أُرَائِيكَ فَلْيَغْفِرْ لِيَ اللهُ زَلَّتِي ... بِذَاكَ وَدِينُ الْعَالَمِينَ رِئَاءُ

وَقَدْ يُخْلِفُ الإِنْسَانُ ظَنَّ عَشِيرِهِ ... وَإِنْ رَاقَ مِنْهُ مَنْظَرٌ وَرُوَاءُ

فإنه لايراد منه أنه مراء حقيقة . إذ من البعيد أن يصرح بمثل هذا لو كان حقيقيا ، وإنما يراد منه أن هذه الخصلة الذميمة تفشت في جميع الناس حتى يكاد كل واحد منهم يعمل بها ليجاري الناس ، لأنهم لم يألفوا غيرها ، أو لم يرج في أسواقهم سواهـا ، يدل على هذا قوله بعد البيتين المتقدمين :

إِذَا قَوْمُنَا لَمْ يَعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ ... بِنُصْحٍ فَإِنَّا مِنْهُمُ بُرَءَاءُ

---

(١) اللزوميات هـ ص ٣٢٩ .
(٢) اللزوميات هـ ص ٢١ .

النفاق

ومن هذا القبيل ما جاء في كلامه من ذم النفاق وأهله وفشوه في أصناف الناس وطبقاتهم. والنفاق، في الأصل، مصدر نافق اليربوع إذا دخل في نافقائه، وهو موضع يرققه من جحره، فإذا أتي من قبل القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فخرج، وقيل إن جحرة اليربوع سبعة: القاصعاء والنافقاء وغيرهما. ومن النافقاء اشتق المنافق في الدين، والنفاق فعله، وهو الدخول في الإسلام من وجه والخروج عنه من وجه آخر، فقيل نافق منافقة ونفاقا، وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به، وهو ستر الكفر وإظهار الإيمان ومحله القلب (١).

وقد تكرر ذكر هذا اللفظ وما تصرف منه اسماً أو فعلًا في الأحاديث النبوية، ولا يلائم تفسيرهُ بهذا المعنى في كثير من المواطن كقوله ﷺ: «أكثر منافقي أمتي قراؤها» وهذا الحديث رواه الإمام أحمد والطبراني (٢) وقوله: «آية المنافق ثلاث إذا حدَّث كذب ...». وهذا حديث صحيح (٣). وقوله: «أربع من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا حدَّث كذب ...» وهذا حديث صحيح (٤). إلى غير ذلك من الأحاديث، ولا يصح تفسيره هنا بالمعنى السابق، أي إظهار الإيمان

---

(١) وبهذا يتبين أن قول الحافظ ابن حجر الآتي وهو: «النفاق لغة مخالفة الباطن» إلى آخره: فيه نظر لأن اللفظ إسلامي. (ج)

(٢) والبيهقي وغيرهم وأحد أسانيد أحمد ثقات. (ج)

(٣) رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي وغيرهم. (ج)

(٤) رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد وأبو داود والنسائي. (ج)

وإبطان الكفر ، ولذلك فسر ابن الأثير الحديث الأول ، فقال : أراد بالنفاق ها هنا الرياء لأن كليهما إظهار غير ما في الباطن . ونقل المناوي ذلك عن الزمخشري ، وقال الحافظ ابن حجر : النفاق لغة مخالفة الباطن للظاهر ، فإن كان في اعتقاد الايمان فهو نفاق الكفر ، وإلا نفاق العمل ، ويدخل فيه الفعل والترك وتتفاوت مراتبه .

وقال القرطبي في (الجامع لأحكام القرآن ج ٨ ص ٢١٢) : النفاق إذا كان في القلب فهو الكفر فأما إذا كان في الأعمال فهو معصية ، ثم أورد الحديث المتقدم « أربع من كُنّ فيه ... »

وقد توسع بعض الأدباء فاستعمل لفظ النفـاق وما اشتق منه في كل ما كان فيه إظهار غير ما في الباطن وإبطان غير ما في الظـاهر ، سواء أكان من الأعمال الدينية أم من غيرها ، فإذا أظهر له المحبة وأبطن غيرها عدّه منافقاً ، وإذا جاراه في استحسان شيء أو استقباحه عده منافقا ، وهكذا .

وأبو العلاء أكثر التذمر ممن كان على هذه الشـاكلة في مثل قوله في السقط [1] :

وَيُظْهِرُ لي مَوَدَّتَهُ مَقَـالاً ... وَيُبْغِضُني ضَمِيراً واعْتِقَادا

وقوله في اللزوم [2] :

أَرَاهُمْ يَضْحَكُونَ إِلَيَّ غِشّاً ... وتَغْشَاني المَشَاقِصُ والحِظَاءُ
فَلَسْتُ لَهُمْ وإِنْ قَرُبُوا أَلِيفاً ... كَمَا لَمْ تَأْتَلِفْ ذَالٌ وَظَاءُ

---

(١) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٥٦٧ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٢ ، والمشاقص : مفردها مشقص . وهو الطويل أو العريض من السهام أو النصال . والحظاء : القصار .

ومن يتأمل اقوال أبي العلاء في هذا الموضوع يتبين له بجلاء تام أن هذا الخلق الذميم تفشّى بين الناس واستطار شره ، وقلما خلا منه أحد حتى الأخلاء والخلصان فكم :

يُضاحِكُ خِلٌّ خِلَّهُ وَضميرُهُ عَبُوسٌ وضاعَ الودُّ لولا مَرافِقُهْ[1]

وإذا امتحن خليله لايجد عنده غير النفاق :

وَمَا عِنْدَ خِلِّكَ غَيْرُ النِّفاقِ وما خِلْتُهُ نَاسِياً فَادَّكَرْ[2]

وقد تفاقم هذا الشر حتى أضحى النفاق جُنّة يتقى بها شر الأعداء ، وعادية الأحباب ، وقد ضعف تأثيره وحده لطول العهد ، فأخذ الناس يؤيدونه بالأيمان الكاذبة :

أضْحَى النِّفاقُ دُرُوعاً يُستَجَنُّ بها مِنَ الرَّدَى ويُقَوِّي سَرْدَها الحلِفُ[3]

وأصبح الإنسان عُرضة للردى والحسرات إذا لم يلجأ الى هذا الحصن الحصين ، ويتجر بهذه البضاعة التي لايروج غيرها في أسواق الناس ، وقد اضطر أبو العلاء الى مجاراة الناس والتظاهر بما يألفون ويحبون على مايشعر به قوله [4] :

أنافِقُ في الحياةِ كَفِعْلِ غَيْرِي وَكُلُّ النّاسِ شَأْنُهُمُ النِّفَاقُ

لأنه إذا لم يجارهم في هذا المضار اضطر إلى أن يعيش منعزلا عنهم ،

---

(١) اللزوميات هـ ص ٣٠٠ .
(٢) اللزوميات هـ ص ١٧٠ .
(٣) اللزوميات هـ ص ٢٩٢ ، وسرد الدرع : نسيجها .
(٤) اللزوميات هـ ص ٣٠٠ .

منفرداً ، لأنه لايجد رجلاً بريئاً من هذه الخصلة كما يشعر به قوله [١] :

تَخَيَّرْ فإمَّا وَحْدَةٌ مِثْلُ مِيتَةٍ وإمَّا جَلِيسٌ في الحَياةِ مُنافِقُ

وقد قدمنا أنه كان يحكم على نفسه بما يحكم به على غيره من أبناء زمانه ، ولا يريد حقيقة ، وإنما يريد أن هذه الخصلة عمت أبناء زمنه كلّهم فهو يذمهم ويذم نفسه معهم لأنه منهم ، ولا يكاد واحد منهم يكون خالياً منها . وإنما قلنا ذلك لأنه كان يعتقد أن النفاق يجلب ضيراً ولا يجرّ خيراً ، وأنه داء عضال وعثرة لا تقال ، كما قال [٢] :

يُنافِقُونَ وَمَا جَرَّ النِّفَاقُ لَهُمْ خَيْراً فَعَثْرَتُهُمْ مُعْيٍ تلافِيها

وقوله في الفصول والغايات :

« طُفْتُ الآفاق ، فإذا الدنيا نفاقٌ ، وملَلْتُ من مداراةِ العالم ، بما يُضمر غيرَه الفؤاد ، فاخترتُ الوحدةَ على جليسِ الصدق [٣] » . الى آخر ماتقدم يدل على أنه اختار الوحدة لله من مداراة الناس بما لايضمره فؤاده .

دينه ومعتقده

اتفقت كلمة المتقدمين والمتأخرين على أن أبا العلاء واسع العلم ، كثير الاطلاع والحفظ ، ذكي فطن ، شاعر مفلق . واختلفوا في دينه واعتقاده على أنحاء شتى ، فنقل ابن الجوزي عن أبي زكريا أنه قال : « قال لي المعري : ما الذي تعتقد ؟ فقلت له : ما أنا إلا شاك . فقال : وهكذا شيخك » . وزعم

(١) اللزوميات هـ س ٢٩٩ .
(٢) اللزوميات هـ س ٣٣٦ .
(٣) كذا في الأصل . (ج)

فريق أنه في حيرة ، ومنهم ابن دقيق العيد محمد بن علي المتوفى سنة ٧٠٢ هـ .
وقال فريق : إنه كان لايثبت على نحلة ، ولا يبقى على قانون واحد ، بل يجري مع القافية إذا حصلت . ونقل هذا القول عن السّلفي . وقيل إنه شيعي ، وقيل معتزلي ، وقيل جبري ، وقيل يرى رأي البراهمة في إثبات الصانع وإنكار الرسل (١) وتحريم الحيوان وإيذائه حتى الحيات والعقارب (٢) وقال ابن الشحنة في روضة الناظر (٣) : إنه ترك أكل اللحم خمساً وأربعين سنة على مذهب الهنود ، وترك البيض واللبن ، وحرم إتلاف الحيوان .

وقال ابن كثير (٤) : إنه لايأكل اللحم ، ولا اللبن ولا البيض ، ولا شيئاً من حيوان ، على طريقة البراهمة الفلاسفة . وقال اليافعي (٥) يرى رأي الحكماء المتقدمين اذ لايأكلون اللحم لكيلا يذبحوا الحيوان إذ لايرون إيلام الحيوان . وقال ياقوت : (٦) كان متهما في دينه ، يرى رأي البراهمة ، لايرى إفساد الصورة ، ولا يأكل لحما ولا يؤمن بالبعث والنشور . وقال في مرآة الزمان (٧) : إنه يرد على الرسل ، ويعيب الشرائع ، ويجحد البعث . وقال الذهبي (٨) : رسالة الغفران في مجلد ، قد احتوت على مزدكة

---

(١) لسان الميزان . (ج)

(٢) الذهبي . (ج)

(٣) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٠٩ عن روضة الناظر ـ لابن الشحنة

(٤) المصدر السابق ص ٣٠٣ عن البداية والنهاية ـ لابن كثير

(٥) « « ص ٢٩٩ ، عن مرآة الجنان ـ لليافعي

(٦) « « ص ٧٦ ، عن إرشاد الأريب ـ لياقوت

(٧) « « ص ١٤٤ ، عن مرآة الزمان ـ لسبط ابن الجوزي

(٨) « « ص ١٨٩ ،عن تاريخ الإسلام ـ للذهبي ـ والمزدكة : مذهب مزدك المجوسي الفارسي ، الذي يقول بالثنوية التي ترد العالم الى أصلين هما النور والظلمة ، وأن للخير إلاهاً وللشر إلاها .

واستخفاف . وقال في المنتظم عن ابن عقيل[1] : إن أبا العلاء كافر في الظاهر ، مسلم في الباطن ، على عكس المنافقين .

ومنهم من قال : إنه ساحر ، واستدل على ذلك بأنه قتل الضيوف الخمسين بسحره ورصده .

وزعم بعض المستشرقين أنه قرمطي . وزعم آخرون أنه درزي ، وآخرون أنه من أصحاب التقية . وزعم بعض المتأخرين أنه جامع للمتناقضات فهو مؤمن كافر ، برّ فاجر ، تقي زنديق ، وما شئت أن تقول فيه فقل . وزعم آخرون غير ماتقدم .

ومنهم من جزم بصحة دينه وقوة يقينه ، ومنهم من قال : إنه تاب وارعوى وأناب . ومنهم من قال : هو جوهرة جاءت إلى هذا الوجود وذهبت ، وهذا القائل هو الشيخ كمال الدين الزملكاني المتوفى سنة ٧٢٧ هـ ، ومن احتذى على مثاله .

وأكثرهم على أنه كافر أو زنديق أو ملحد أو متهم في دينه ، وقلما تكلم أحد فيه وبرأه من مثل هذه النعوت . وفيهم من لو طولب بدليل على ما يقول لما استطاع أن يأتي بشيء .

أسباب تكفيره ورميه بالزندقة ونحوها

ولعل قائلاً يقول : ما السبب في تألب الناس على تكفيره والطعن في دينه ؟ فنقول : من استقرى حياة أبي العلاء ، وأمعن النظر فيما وهبه الله من المواهب الفطرية والكسبية ، وما أتيح له من الحظوة عند الملوك والأمراء وأعيان الأمة ، وجد أسباباً كثيرة للطعن فيه . من أعظمها الحسد ، وتشدد العلماء في الدين ، وحب الظهور ، والولوع بالإغراب واللؤم . ولكل واحد من هذه الأمور سبب يوجبه أو أسباب تقتضيه .

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٠ ، عن المنتظم — لابن الجوزي — وما نقله المؤلف تلخيص للخبر .

الحسد

أما سبب الحسد ، فإن الله وهب أبا العلاء من الفطنة ، وقوة الحافظة ، وحصافة العقل ، ودقة التفكير ، وسعة الخيال ، وغزارة القريحة ، وفيض الخاطر ، وسعة العلم ما لم يهبه لكثير من الشعراء والعلماء . وآتاه من العفاف والقناعة والشمم ما لم يؤته كثيراً منهم . ورزقه بسبب ذلك من الحظوة عند أعيان الدولة والأمة ما لم ينل معشاره كثير من العلماء والشعراء . ومنحه من سيرورة الذكر والشهرة ما لم يتح لغيره في عصره ، فكانت الملوك والأمراء وعظماء الأمة يبالغون في إكرامه والاحتفاء به ، ويكلفونه أن يصنف لهم الكتب والرسائل . وكان الفضلاء يؤمونه من كل حدب وصوب ، حتى قال ابن العديم[1] : «ماعلمت وزيراً مذكوراً ، أو فاضلاً مشهوراً ، مر بمعرة النعمان في ذلك [العصر و] الزمان ، إلا وقصده واستفاد منه ، أو طلب من تصنيفه ، أو كتب عنه» .

وقد بذل له الخلفاء والأمراء وأصحاب الكلمة النافذة أموالاً جمة فأباها على ضيق ذات يده ، وكان غيره من العلماء والشعراء يبذل ماء وجهه في عتبات الأمراء والمثرين ، ويجوب الآفاق ليزيد ثروته الزائدة عن حاجاته . فهذه الحظوة عند الأمراء ، والمنزلة عند الكبراء ، وتلك المواهب ، أججت نار الحسد في قلوب أعدائه وخصومه ، فكانوا يكيدون له ، ويتربصون به السوء ، وقد يدفع الحسد صاحبه إلى استصغار كل كبير ، واستحسان كل قبيح ، ويزين له ما يأباه الدين والمروءة ، وزادهم حسداً وحقداً عليه أنه أحدث في النظم والنثر ما لم يوفقوا إلى مثله ، حتى

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٦٥ ، عن الإنصاف والتحري ـ لابن العديم

أخمد جذوتهم ، وأخمل ذكرهم ، فكانوا يدأبون في إخماد جذوته ، وإخمال ذكره ، ولم يجدوا سبيلاً يوصلهم إلى غاياتهم أيسر من الطعن في دينه .

التشدد في الدين

كان أبو العلاء يعتقد أن كل عقل نبي ، ولذلك كان يعول في أحكامه على العقل ، ويأبى أن يتركه سدى . وكان حراً في تفكيره جريئاً في إبداء آرائه ، فلا يماري ولا يداري ، وقد تصدى في كلامه إلى كثير من المِلل والنِّحل ، واعترض على كثير مما يعتقده أهل كل ملة ، وجبّه رؤساء المذاهب والنحل والملوك والأمراء والعلماء والشعراء بالنقد اللاذع ، والتهكم المض ، في مثل قوله (١) :

إنَّما هٰذِهِ المَذاهِبُ أسْبا ... بٌ لِجَذْبِ الدُّنْيا إلى الرُّؤَساء

وقوله (٢) :

ظَلَمُوا الرَّعِيَّةَ واسْتَجازُوا كَيْدَها ... فَعَدَوْا مَصالِحَها وَهُمْ أُجَراؤُها

وقوله (٣) :

وَلَمْ آمَنْ عَلَى الفُقَهاءِ حَبْساً ... إذا ما قِيلَ لِلأُمَناءِ جُوزُوا

وقوله (٤) :

وَمَا شُعَراؤُكُمْ إلاَّ ذِئابٌ ... تَلَصَّصُ في المَدائِحِ والسِّبابِ

---

(١) اللزوميات هـ س ٢٦ .
(٢) اللزوميات هـ س ٢٣ .
(٣) اللزوميات هـ س ١٧٣.
(٤) اللزوميات هـ س ٥١ .

وقوله (١) :

تَقُولُ الغُوَاةُ الخِضْرُ حَيٌّ عَلَيْهِمُ عَفَاءٌ نَعَمْ لَيْلٌ مِنَ الفِتَنِ أخْضَرُ

وقوله (٢) :

مَا اسْوَدَّ حَامٌ لِذَنْبٍ كَانَ أحْدَثَهُ لَكِنْ غَرِيزَةُ لَوْنٍ خَطَّهُ المَلِكُ

وقوله (٣) :

لَمْ يَسْقِكُمْ رَبُّكُمْ عَنْ حُسْنِ فِعْلِكُمُ وَلَا حَمَاكُمْ غَمَامًا سُوءُ أعْمَالِ

إلى غير ذلك مما يأتي عند الكلام على إيمانه واعتقاده في المزاعم ، وقد يتضح بما ذكرنا وبما يأتي أنه لم يتخير لنقده قولاً ليناً ، ولا سلك أسلوباً لطيفاً ، وإنما كان يجبههم بالحقائق الصريحة ، ويقرعهم بالحجج الدامغة ، وربما واجههم بالتهكم اللاذع ، فوقع في أضعاف كلامه كثير مما لا يرتضيه المتشددون في الدين ، فحكموا عليه بالكفر ، وإن لم يكن فيه ما يوجب الكفر أو المروق . والعلماء ، لا سيما الفقهاء منهم ، يسارعون إلى التكفير على الشبهة ، ويحكمون بالإلحاد على الظن ، ويضيقون الخناق على الباحث ، ولا يتحرون في البحث والتحقيق ؛ وهم أسخى الناس بالتكفير والرمي بالزندقة ، وسترى ما يدل على ذلك .

يجب أن لا ننسى أن تخطئة الناس في مزاعمهم وإنكار شيء من معتقداتهم من شأنه أن يثير سخطهم ونقمتهم ويجعل صداقتهم عـداوة . وقديماً قال الأول : ما ترك لي قول الحق صديقاً .

(١) اللزوميات هـ ص ١٣٧ ، وفيها : « يقول . . . »
(٢) اللزوميات هـ ص ١٨٣ ، وفيها : « خطها الملك . . . »
(٣) اللزوميات هـ ص ٢١٥ .

حب الظهور

إذا نظر الإنسان نظر مدقق منصف فيما كُتب في أبي العلاء ، وفيمن كتب فيه ، رأى كثيراً منهم لم يستطع أن يفهم كلام أبي العلاء على وجه صحيح ، ولا أن يدرك مرامي كلامه الدقيقة وكناياته اللطيفة ، وقد يأتي أحدهم بشيء من كلام المعري على أنه حجة له فيما يزعم ، فيكون حجة عليه ، وقد يتصرف في القول على وفق ما يريده ، لا على وفق ما يدل عليه اللفظ والمقام ، وتؤيده القرائن ، ولكنه اعترض على المعري ليقال : إنه اعترض عليه ، وانتقده ليقال : إنه انتقد أبا العلاء . ولو أنعم النظر فيما يقول لتكشف عن مخزيات يندى لها الجبين ، وسخافات تدل على جهل فاضح وفهم سقيم .

الولوع بالإغراب

وقد رأينا فريقاً من الكتاب والعلماء يتسقط لأبي العلاء هفوة ، أو ينقب عن شبهة ، فإذا ظفر بشيء يوجب الطعن في دينه ، بخبخ وفخفخ ، كأنما اهتدى إلى ما لم يهتد إليه غيره من أسرار الكائنات ، أو أتى بما لم يستطعه أحد من المعجزات ، وقد يظهر للمتأمل أن كثيراً من هؤلاء أعرب بما كتب عن غباوة ، وعثر فيما قال عثرة لا تقال ، ودل فيما استدل به على جهل في العلم وسقم في الفهم ووهن في التفكير .

اللؤم

ورأينا فريقاً آخر يلصق بأبي العلاء ما هو بريء منه ، وآخر يحرف كلامه عن مواضعه ، وآخر يتقول عليه أقوالاً لا علم له بها ، يريد بذلك

إهلاكه وتغيير نية إخوانه ، وقد قال المنازي [١] : « حسدني قوم فكذبوا عليّ وأساؤوا إليّ » . ومن هؤلاء كثير من تلامذته وأوليائه .

وقد نقل ياقوت (ج ١ ص ١٧٩) وغيره عن ابن العديم عن أبي اليسر المعري ، وهو شاكر بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن محمد أخي أبي العلاء : أن أبا العلاء كان يرمى من أهل الحسد له بالتعطيل ، وتعمل تلامذته وغيرهم على لسانه الأشعار يضمنونها أقاويل الملحدة ، قصداً لهلاكه ، وإيثاراً لإتلاف نفسه فقال :

حَاوَلَ إِهْوانِيَ قَوْمٌ فَمَا ... وَاجَهْتُهُمْ إِلاَّ بِإِهْوَانِي
يخرسُونِي [٢] بِسِعَايَاتِهِمْ ... فَغَيَّرُوا نِيَّـةَ إِخْوانِي
لوِ اسْتَطَاعُوا لَوَشَوْا بِي إِلى الْـ ... ـمَرِّيخِ والشُّهْبِ وكِيوانِ

وقال أيضاً [٣] :

غَـرِيتْ [٤] بِذَمِّي أُمَّةٌ ... وبِحَمْدِ خَالِقِها غَرِيتُ
وعَبَدْتُ رَبِّي مَا اسْتَطَعْـ ... ـتُ وَمِنْ بَرِيَّتِهِ بَرِيتُ
وَفَرَتْنِيَ الْجُهّـالُ حَا ... شِدَةً عَلَيَّ وَمَا فَرِيتُ
سَعَرُوا عَلَيَّ فَلَمْ أُحِسَّ وعِنْدَهُمْ أَنِّي هَرِيتُ

(١) هو الشاعر أحمد بن يوسف المنازي ، المتوفى سنة ٤٣٧ هـ ، انظر الوفيات ، والقفطي في إنباه الرواة .

(٢) في معاهد التنصيص : « يحرشوني » . (ج) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٤٠ ، والأبيات مما لم يرد في الديوانين .

(٣) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٠٠ ، ٢٧٠ ، ٢٩٠

(٤) غريَ به : أولع به .

وهذه الأبيات السبعة ليست في ديوانيه ، وفيهـا روايات مختلفة ، وهي مذكورة كلها أو بعضها في (الوافي بالوفيات) ، و (النكت) و (المعاهد) و (أوج التحري) وغيرها . وروى الصفدي في النكت بعد الأبيات الأخيرة هذا البيت :

وَجَمِيعُ مَا فَاهُوا بِهِ كَذِبٌ لَعَمْرِي حَنْبَرِيتُ[1]

وقد أكثر أبو العلاء من ذم الحسد والحساد ومكايدهم ، مما يدل على أن الحسد في نفسه أثراً ممضاً ، وسنذكر شيئاً من كلامه في ذلك .

ما كاد به حساده وأعداؤه

حاول أعداء أبي العلاء أن يلتمسوا مغمزاً في علمه ، واجتهدوا ليجدوا مطعناً في سيرته ، فلم يجدوا . فاتخذوا من الدين سلاحاً لمحاربته ، والغض من كرامته ، وهو أقرب شيء تستثار به العامة ، وأقدم سلاح يتخذه المدلسون لمحاربة أهل الفضل ، فتألبوا على تكفيره أو رميه بالإلحـاد أو الزندقة ، أو ما شاكل ذلك من النعوت الممقوتة . وقد اختلفوا في الأسباب التي توجب تكفيره ، والطرق التي تؤدي اليها .

فمنهم من كفره بأبيات لا توجب التكفير ، وفي نسبتها إليه شك ، وفي مقدمة هؤلاء ياقوت ، فقد جعله ملحداً ، وروى له البيتين المتقدمين[2] :

فِي اللاذِقِيَّةِ فِتْنَـــةٌ مَا بَيْنَ أَحْمَدَ والمَسِيحْ

. . . .

وليس فيهما مايدل على إلحاد أو كفر ، وما فيهما من ركاكة يشهد بأن المعري بريء منهما ، وأنهما ليسا من سنخ كلامه .

(١) كذب حنبريت : أي خالص .

(٢) معجم البلدان « اللاذقية » .

ومنهم من زعم أن المعري عارض القرآن الكريم ، أو السور والآيات بكتاب (الفصول والغايات) كابن الجوزي [١] ، والباخرزي ، والذهبي ، وياقوت . وزعم بعض المعاصرين أنه لم يذكر النبي - ﷺ - في (الفصول والغايات) إلا خمس مرات ، وأنه لم يعارضه معارضة ، وإنما بينهما مشابهة . وقد بينا بطلان هذا كله في الكلام على (الفصول والغايات) .

ومنهم من ألصق بالمعري شيئاً من أقوال غيره ، ليتمكن من الطعن فيه . ومن هؤلاء ياقوت ، فقد أورد أبو العلاء في (رسالة الغفران) أبياتاً لسمير بن أدكن مطلعها [٢] :

يَصُولُ أبُو حَفْصٍ عَلَيْنَا بِدِرَّةٍ رُوَيْدَكَ إِنَّ الحَقَّ يَطْفُو وَيَرْسُبُ

فقال ياقوت : « هذا يشبه أن يكون شعر المعري ، قد نحله هذا اليهودي ، أو أن إيراده واستلذاذه به من أمارات سوء عقيدته ومذهبه » . وهذا خطأ من ياقوت ، لأنه هو أورد هذه الأبيات ، فيجوز لقائل أن يقول : إن إيراده الأبيات المذكورة من أمارات سوء عقيدته ومذهبه ، كما قال ذلك في أبي العلاء . وياقوت أحد المفرطين في التعصب على أبي العلاء ، ولو استطاع أن يجعل كل أقواله مكفرة لما تأخر .

ومنهم عبد الوهاب السبكي ، فإنه نسب في (طبقات الشافعية ج ٣ ص ٩٧) هذين البيتين :

كَمْ عَاقِلٍ عَاقِلٍ أعْيَتْ مَذَاهِبُهُ وَجَاهِلٍ جَاهِلٍ تَلْقَاهُ مَرْزُوقا
هٰذا الذِي تَرَكَ الأوْهَامَ حَائِرَةً وَصَيَّرَ العَالِمَ النِّحْرِيرَ زِنْدِيقا

---

(١) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص : ٨ ، ٩٨ ، ١٥١ ، ١٩٢ .
(٢) رسالة الغفران — تحقيق بنت الشاطئ — ط ١ ص ٣٧٧ .

الى أبي العلاء ، وقال : قبحه الله ما أجرأه على الله ! . وهذان البيتان لابن الراوندي ، كما ذكر ذلك في (معاهد التنصيص ص ٧١). وأورده ابن السبكي ببيتين نقضا على أبي العلاء ، في وزنها خلل ، وفي إعرابها لحن ، وفي تأليفها ركاكة وسخف ظاهر لمن اطلع عليها .

ومنهم أبو الحسين الجزار ، فقد قال من قصيدة مدح بها برهان الدين ابن الفقيه نصر (١) :

وفي عِلمِ العَرُوضِ دَخَلْتُ جَهْلاً   وَعُمْتُ بِخِفَّتي في كُلِّ بَحْرِ
فَأَذْكَرَني بِهِ التَّفْعِيلُ بَيْتاً   تَضَمَّنَ نِصفَهُ الشَّيْخُ المَعَرِّي
مُفَاعلَتُنْ مُفاعلَتُنْ فَعُولُنْ   حَدِيثُ خُرَافَةٍ يا أُمَّ عَمْرِو

وقد نسب الشطر الأخير الى أبي العلاء ، وهو من بيت لعبد الله ابن الزبعرى ، على ما قاله المحبي في كتاب (مايعول عليه) وأوله :

حَيَاةٌ ثُمَّ مَوْتٌ ثُمَّ نَشْرٌ   حَدِيثُ خُرَافَةٍ يا أُمَّ عَمْرِو

وروي بغير هذا الوجه ، ونسبه ابن قتيبة في كتاب (الأشربة ص ٤٣) الى أبي نواس وروايته :

حَيَـاةٌ ثُمَّ مَوْتٌ ثُمَّ بَعْثٌ   حَدِيثُ ...

وأكثر الناس يتعصب لكل من أنكر على غيره شيئاً باسم الدين ، ويشايعه على أقواله من غير تثبت ولا تبين . وإذا اشتهر إنسان بشيء ألحق الناس به كل ما هو من جنس ما اشتهر به بغير تحقيق . وعلى

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٨ عن المُغرب في حُلى المغرب ، والمشرق في حُلى المشرق .

هذه الطريقة إذا رأوا بيتاً فيه مجون أو خلاعة ألحقوه بأبي نواس ، وإذا رأوا بيتاً فيه إلحاد أو زندقة ألحقوه بأبي العلاء .

وزعم بعض المتعصبين على أبي العلاء أنه خرج ليلة الى بعض مراقب موسى عليه السلام ، ورفع رأسه الى السماء ، وقال : يارب كلمني ، فإني أفصح من موسى ، قال ذلك مرارا ، فلم يجبه أحد ، فأنشد هذين البيتين [١] :

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا ... وَلٰكِنْ لا حَياةَ لِمَنْ تُنَادِي
وَلَوْ نَاراً نَفَخْتَ بِهَا أَضَاءَتْ ... وَلٰكِنْ أَنْتَ تَنْفُخُ فِي رَمَادِ

وهذا افتراء محض من قائل ذلك ، والبيتان هما من نظم عمرو بن معدي كرب ، وقيل لدريد بن الصمة ، كما ذكر ذلك ابن نباتة في (سرح العيون ، شرح رسالة ابن زيدون ص ٢٣١ و ص ٣٢٧).

ومنهم من نسب اليه أقوالاً ليست في شيء من كتبه التي وصلت الينا . ومن هؤلاء : القفطي ، وياقوت ، وابن الجوزي ، وسبط ابن الجوزي ، ومن لف لفهم ، فقد رووا له هذين البيتين [٢] :

فَلا تَحْسَبْ مَقَالَ الرُّسْلِ حَقًّا ... وَلٰكِنْ قَوْلُ زُورٍ سَطَّرُوهُ
وَكَانَ النَّاسُ فِي عَيْشٍ رَغِيدٍ ... فَجَاؤُوا بِالمُحَالِ فَكَدَّرُوهُ

ورووا له كثيراً من مثل هذا .

---

(١) ورد البيت الأول في الفصل الذي كتبه إلى أبي نصر صدقة بن يوسف الفلاحي لما استدناه إلى حضرة الأمير عزيز الدولة . انظر رسائل أبي العلاء المعري ـ لشاهين عطية ـ ص ٩٧ ، وتعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٥٥ ، ٥٧٤ .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء : الصفحات ٢٢ ، ٦٢ ، ١١٧ ، ١٥٠ .

ومنهم من كان يحرف قول أبي العلاء من صورة لاتخالف ما يقتضيه الإيمان الى صورة توجب الحكم عليه بالكفر ، ومن هؤلاء : أبو الفداء ، والذهبي ، وابن الشحنة ، فقد رووا هذه الأبيات (١) :

أَتى عِيسَى فَبَطَّلَ شَرْعَ مُوسَى ‏ ‏ ‏ وَجَاءَ مُحَمَّدٌ بِصَلاةِ خَمْسِ
وَقَالُوا لا نَبِيٌّ بَعْدَ هَـذَا ‏ ‏ ‏ فَضَلَّ القَوْمُ بَيْنَ غَدٍ وَأَمْسِ

إلى آخر الأبيات على هذا الوجه ، والمعروف في البيت الثاني :

وَقِيلَ يَجِيءُ دِينٌ غَيْرُ هٰذا ‏ ‏ ‏ . . . .

وهو المذكور في ديوانه (لزوم مـــالا يلزم) ، وهو على هذه الرواية صحيح لاشك فيه ، ولكنهم حرفوه ليكفروا صاحبه .

ومنهم من كفره بغير سبب ولا مناسبة ، ومن هؤلاء الزمخشري ، فإن أبا العلاء رثى الشريف الموسوي ، وهو ببغداد ، بقصيدة وصف فيها نار القرى بأبيات ، منها قوله (٢) :

حَمْرَاءُ سَاطِعَةُ الذَّوَائِبِ فِي الدُّجى ‏ ‏ ‏ تَرْمِي بِكُلِّ شَرَارَةٍ كَطِرَافِ

فأورده الزمخشري في تفسيره في سورة المرسلات . ثم قال : « شبهها بالطراف ، وكأنه قصد بخبثه أن يزيد على تشبيه القرآن ، ولقد عمي ، جمع الله له عمى الدارين ... »

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء : الصفحات ١٨٧ ، ١٩٦ ، ٣١٠ . واللزوميات ٥ ص ٣٠١ وفيهـا :

دعا موسى فزال وقام عيسى ‏ ‏ ‏ وجاء محمدٌ بصلاة خمس
وقيل يجيء دينٌ غير هذا ‏ ‏ ‏ وأودى الناس بين غدٍ وأمس

(٢) شروح سقط الزند ، ق ٣ ص ١٣٠٧ ، والطِّراف : قبة من أدم .

وهذا البيت أجمل بيت قالته العرب في وصف النار فيما أعلم ، وليس فيه ، بل ولا في القصيدة كلها ، ما يدل على شيء مما زعمه الزمخشري .

ولهذا أنكر عليه هذا الافتراء جماعة منهم فخر الدين الرازي في تفسيره (مفاتيح الغيب) حيث قال : « زعم صاحب (الكشاف) أنه ذكر ذلك معارضة لهذه الآية ﴿ تَرْمي بِشَرَرٍ كالقَصْرِ (١) ﴾ وكان الأولى له أن لايذكر ذلك » . وأطال الكلام في تفسيره ج ٨ ص ٣١٧ .
ومنهم صدر الأفاضل الخوارزمي ، حيث قال ، بعد أن نقل قول الزمخشري : ولا أدري من أين له أنه قصد الزيادة على تشبيه القرآن . فمن المعلوم أن القصر أعظم من الطراف ، ولكن الزمخشري مع فضله كان حديد المزاج كثيرا .

وأنا أعتقد أن أبا العلاء ، لما نظم هذا البيت ، لم تخطر بباله هذه الآية الكريمة ، ولكن الزمخشري عمي عما في البيت من جمال وروعة ، وأبصر ما ليس فيه ، فافترى على صاحبه . ومنهم الشيخ البناني ، فإن سعد الدين التفتازاني ذكر في شرحه (المختصر على متن التلخيص) قول أبي العلاء (٢) :

وَالَّذِي حَارَتِ البَرِيَّةُ فِيهِ حَيَوَانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِنْ جَمادِ

ثم قال : يعني تحيرت الخلائق في المعاد الجسماني ، والنشور الذي ليس بنفساني ، بدليل ماقبله :

بَانَ أمْرُ الإلـهِ واخْتَلَفَ النّا سُ ، فَداعٍ إلى ضَلالٍ وَهادِ

(١) سورة المرسلات .
(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٠٠٤ .

يعني : بعضهم يقول بالمعاد وبعضهم لايقول به » ا هـ .

فقال الشيخ مصطفى بن محمد البناني في (تجريده على المختصر ج ١ ص ١٨٨) : « قوله : يعني بعضهم يقول بالمعاد ؟ وبعضهم لايقول به ، لايبعد أن يكون تقديم القول بالمعاد في تفسير البيت ، مع أن الظاهر هو اللف والنشر المرتب إيماء إلى أن مراد الشاعر بالداعي الى الضلال هو القائل بالمعاد بناء على ما اشتهر في التواريخ من أن أبا العلاء ملحد منكر للحشر ، ويومىء اليه بيته المشهور عند من له ذوق سليم وهو قوله[1] :

يَدٌ بِخَمْسِ مِئِينَ عَسْجَدٍ وُدِيَتْ   مَا بَالُهَا قُطِعَتْ فِي رُبْعِ دِينَارِ

ونقل ذلك عن الفتري . وهو استنباط غريب من البناني والفتري ، لأن أبا العلاء ذكر في هذه القصيدة ما يدل على المعاد كقوله[2] :

خُلِقَ النَّاسُ لِلْبَقَاءِ فَضَلَّتْ   أُمَّةٌ يَحْسَبُونَهُمْ لِلنَّفَادِ

إِنَّمَا يُنْقَلُونَ مِنْ دَارِ أَعْمَا   لٍ إِلَىٰ دَارِ شِقْوَةٍ أَوْ رَشَادِ

وأمثال هذا كثير في أقوال المتقدمين والمتأخرين ، وسيأتي أن الصفدي نقل عن كتاب (الأربعين) قول الفخر الرازي في قول أبي العلاء[3] : «قلتم لنا صانع قديم» وزعم أن الرازي قال عن أبي العلاء : « وقد هذى هذا في شعره » . وليست هذه الجملة في كلام الرازي .

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٥٢ وفيها : « فُديت » .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ٩٧٨ .

(٣) انظر في ذلك تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٦٧ والحاشية (٢) و (٣) عن الوافي بالوفيات ـ للصفدي ، ورواية هذا الشطر في اللزوميات هـ ص ١٩٨ : « قلتم لنا خالق حكيم » وتمامه : « قلنا صدقتم كذا نقول » . . . . .

النظر في الأقوال والمزاعم المتقدمة وفي أدلتها

الشك

أما من ذهب إلى أنه شاكّ ، فدليله قول التبريزي : « ما أنا إلا شاك » ، وقول أبي العلاء : « وهكذا شيخك » . وقد روى هذا الخبر جماعة [١] منهم ابن الجوزي في (المنتظم) وياقوت في (إرشاد الأريب) وسبط ابن الجوزي في (مرآة الزمان) وغيرهم ، وكلهم اقتصر على هذا القدر ، ولم يبين الشك في أي شيء حتى يتبين مايترتب عليه من تكفير أو تفسيق أو غيرهما ، فإن أراد أنه شاكّ في الله ، فهو باطل وافتراء ، لأن له كثيراً من الأقوال الدالّة دلالة صريحة لاتحتمل الشك على وجود الله وصفاته ، وستأتي أمثلة منها . وإن أراد الشكّ في الكتب أو الأنبياء أو الرسل أو الملائكة أو الآخرة فهو باطل أيضاً ، بشهادة أقواله الكثيرة الصريحة في ذلك ، وسترى كثيراً منها . والتكفير بشيء مبهم لايعتدّ به عند العلماء . وإن أراد الشكّ بغير ماذكر ، فلا نستطيع الحكم عليه حتى نعلم ماهو . واستــدل بعض المعاصرين على شكه في الآخرة بقوله في مرثية أبيه [٢] :

طَلَبْتُ يَقِيناً مِنْ جُهَيْنَةَ عَنْهُمُ ... وَلَنْ تُخْبِرِيني يَاجُهَيْنُ سِوى الظَّنِّ
فَإِنْ تَعْهَدِيني لا أزالُ مُسَائِلاً ... فَإِنِّي لَمْ أُعْطَ الصَّحِيحَ فَأَسْتَغْنِي

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ، الصفحات : ١٩ و ٧٧ و ١٤٤ .
(٢) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٩٢٥ - ٩٢٧ وفيها : « سوى ظَنّ » .

وهذا وهم وباطل ، لأنه يريد بقوله هـذا أنه طلب من جهينة التي يقال في المثل : « عندها الخبر اليقين » أن تخبره خبرا عمن مات ، فلم تستطع أن تخبره ، لأن أحوال الموتى لايعلمهـا إلا الله ، وهو يحرص على أن يعلم مصير أبيه ، ليطمئن باله ؛ ولذلك يلح بالمسألة ، مـا دام لم يقف على الصحيح . وليس في هذا شيء من الكفر ولا الشك في الآخرة بل صرح في هذه القصيدة بالآخرة وما فيها في مواطن ، منها قوله [1] :

فَيا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَخِفُّ وَقَارُهُ إِذَا صَارَ أُحْدٌ فِي القِيامَةِ كالْعِهْنِ

وقوله [2] :

وَهَلْ يَرِدُ الحَوْضَ الرَّوِيَّ مُبادِراً . . . . .

وقوله [3] :

. . . . . وَقَدْ وُعِدَا مِنْ بَعْدِهِ جَنَّتَيْ عَدْنِ

إلى غير ذلك من الأبيات .

وحاول فريق من الأدباء أن يجعل الشك مذهبا لأبي العلاء ، واستدل على ذلك بمثل قوله [4] :

إِنَّمَا نَحْنُ فِي ضَلالٍ وتَعْلِيـــلٍ فَإِنْ كُنْتَ ذَا يَقِينٍ فَهاتِهْ

وَلِحُبِّ الصَّحِيحِ آثَرَتِ الرُّو مُ انْتِسَابَ الْفَتَى إِلَى أُمَّهاتِهْ

جَهِلُوا مَنْ أَبُوهُ إِلاَّ ظُنُونًا وَطَلا الوَحْشِ لاحِقٌ بِمَهاتِهْ

---

(١) المصدر السابق ص ٩١١ .

(٢) شروح سقط الزند ق : ٢ ص ٩١١ وعجزه : « مع الناس أم يأبى الزحام فيستأني » .

(٣) المصدر السابق ص ٩٢٢ ، وصدر البيت : « وما استعذبته روح موسى وآدم » .
ورواه البطليوسي : « نفس موسى » ، والتبريزي « وصنوه » .

(٤) اللزوميات هـ ص ٧٠ .

ومن البديهي أن أبا العلاء لايريد أن يقرر عقيدة دينية في هذه الأبيات ، حتى يترتب عليه حكم بالكفر أو نحوه . وإنما يريد أن يبيّن فيها أمرين :

أحدهما : حالة الناس في عصره ، فإنهم في ضلال وتعليل ، يبنون أمورهم على الظن ، ولا يتحرون اليقين فيها ، أو لايجرؤون على إظهار اليقين ، لما يترتب عليه من المفاسد والمضار .

والثاني : تهاون المرأة بالاحتفاظ بعفافها ، لاسيما المرأة الرومية ، وكلا الأمرين لاعلاقة له بالعقائد الدينية ، وإنما هو من باب الإسراف في الظن أو من باب التصريح بالحقيقة الواقعة في الغالب ، وهو إن أساء إلى المرأة فقد أحسن إلى الأدب والحقيقة بهذه الصورة الرائعة والمعنى البديع . وزعم صاحب (ذكرى أبي العلاء) [١] أن أبا العلاء لم يؤمن بأن آدم شخص حقيقي ، واستدل على ذلك بقوله [٢] :

قَالَ قَوْمٌ ، وَلَا أَدِينُ بِمَا قَا لُوهُ : إِنَّ ابْنَ آدَمٍ كَابْنِ عِرْسِ
جَهِلَ النَّاسُ مَا أَبُوهُ عَلَى الدَّهْـ ـرِ وَلَكِنَّهُ مُسَمًّى بِحَرْسِ
فِي حَدِيثٍ رَوَاهُ قَوْمٌ لِقَوْمٍ رَهْنَ طِرْسٍ مُسْتَنْسَخٍ بَعْدَ طِرْسِ

وابن عرس : دُوَيبة دون السنور ، أشتر أصلم أصك لها ناب ، وتجمع على بنات عرس . والحرس : الدهر ، يريد أن قوماً زعموا أن ابن آدم لا أب له ، كما أن ابن عرس لا أب له ، فآدم على زعمهم شيء لاحقيقة . وأبو العلاء صرح بأنه لايدين بما قاله هؤلاء . فادعى صاحب

---

(١) ذكرى أبي العلاء ـ طه حسين ـ ط ٢ ص ٣٧٠ .
(٢) اللزوميات هـ س ٣٢٥ .

(الذكرى) أن المعري لا يؤمن بأن آدم شخص حقيقي ، وجعل قوله : « لا أدين بما .. » من باب التقية ، وهذا غريب وأغرب من كل غريب ، لأن أبا العلاء أثبت وجود آدم في عدة مواطن في كلامه وجوز أن يكون قبله آدم ، بل صرح بقوله [1] :

وما آدمٌ في مَذْهبِ العَقْلِ وَاحِداً . . . . .

كما سيأتي .

وبعد ما تقدم فإن الشك باب من أبواب البلاغة ، وأسلوب بديع من أساليب البلغاء ، قد يتخيرونه لنكتة طريفة ، لا تؤدى بغير الشك كما تؤدى به ، ألا ترى أن زهيراً قال في هجاء آل حصن :

وَمَا أدْرِي وَلَسْتُ إِخَالُ أدْرِي   أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نِسَاءُ

فأظهر أنه لم يعلم أن آل حصن رجال أم نساء ، مع أنه يعلم ذلك ، لأن في هذه الصورة دلالة على قرب الشبه بين الرجال والنساء ، حتى لا يكاد يفرق بينهما ، ولا يستطيع أن يميز أحدهما من الآخر ، فهو أجمل من قوله : « هم نساء » وأقرب الى التصديق . وأجمل من قوله : هم يشبهون نساءهم ، أو ما شاكل ذلك من الصور .

وكان المتقدمون يسمون هذا النوع التشكك . والمتأخرون يسمونه : تجاهل العارف ؛ وهو من مُلح الشعر وطرف الكلام . وكلام البلغاء طافح بمثل هذه الصور ، ولا يراد بها الشك حقيقة ، وإنما يراد بها نكتة طريفة إما مبالغة في تقارب الشبهين ، أو الإيناس أو إظهار المعجز الذي لا يعلمه المخاطب ، أو التوبيخ لمن يدعي المشكوك فيه ، أو المبالغة في مدح أو ذم

(١) اللزوميات ﻫ ص ٣٣١ : وعجز البيت : « ولكنه عند القياس أوادم » .

أو تحقير ، أو تدله في الحب ، أو غير ذلك مما هو مبسوط في كتب البديع والأدب . وفي القرآن الكريم كثير من هذه الصور مثل قوله تعالى لعيسى : ﴿ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ . . . ﴾ (١) وقوله : ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ ﴾ (٢) فإن هذه الصور وأمثالها لا يصح أن يراد بها الشك حقيقة ، لاستحالة ذلك على الله . وكذلك نفي اليقين قد يراد به غير ظاهره . فقد يراد به جعل الخبر أو الأمر ضعيفاً حقيقة أو ادعاء ، وقد يراد به تعجيز المخاطب أو تكليفه إثبات اليقين فيما يتعذر عليه أو يشق ، كنفي اليقين عن حالة الموتى والآخرة ، ومعرفة الأب الحقيقي ، وما يكون في المستقبل . وأبو العلاء يحتذي على مثال البلغاء في كلامه ، ولا يسعنا أن نجعل كل شك ، أو نجعل نفي اليقين في كل موضع ، موجباً للكفر ، ألا ترى أن قوله (٣) :

أَصْبَحْتُ في يَوْمِي أُسَائِلُ عَنْ غَدِي ... مُتَخَبِّراً عَنْ حالِهِ مُتَنَدِّسَا

أَمَّا اليَقِينُ فَلا يَقِينَ وإِنَّمَا ... أَقْصَى اجْتِهَادِي أَنْ أَظُنَّ وأَحْدِسَا

وهو صحيح ، لأنه لا يعلم ما في غد إلا الله .

الحيرة

وأما قول من قال : إنه في حيرة ، فإنه رأى في كلام أبي العلاء ما يدل على تناقض في الرأي ـ بحسب زعمه ـ فحكم على ما رآه بحسب

---

(١) سورة المائدة / ١١٦ .

(٢) سورة النازعات / ٢٧ .

(٣) اللزوميات هـ ص ٢٩٦ ، والمتندس : المتتبع للخبر يستخبره . وأحدس : أظن وأخمن .

الظاهر . ولكن هذا القائل لم يعيّن الحيرة في شيء ، لنعلم ما هي وما يترتب عليها . وظاهر كلامهم أنه في حيرة في اعتقاده بالله ، أو بالآخرة ؟ وقد مرّ وسيمر ما يدل على بطلان هذا .

عدم الثبات على نحلة واحدة

وأما من قال : إنه كان لا يثبت على نِحلة واحدة ، بل يجري مع القافية إذا حصلت . . . . فقد قربه إلى الإسلام والتقوى أكثر من غيره . لأننا إذا استقرينا قوافيه المتعلقة باعتقاده لا نجد في المائة منها واحدة صريحة توجب الطعن في دينه . وإذا جهلنا المتأخر منها ، ونظرنا إلى قوة الأدلة وتعددها وصراحتها اضطررنا إلى الحكم بصحة إيمانه وسلامة اعتقاده ، وإذا أسقطنا الأدلة لتعارضها ، اضطررنا إلى أن نحكّم التاريخ ، وهو يخبرنا بأنه كان صوّاماً قوّاماً برّاً تقياً . وسيأتي إيضاح هذا وبسطه .

التشيع

وأما من قال : إنه شيعي ، فقد استدل على تشيعه بقوله في لزوم ما لا يلزم (١) :

لَقَدْ عَجِبُوا لِأَهْلِ البَيْتِ لَمَّا ... أَتَاهُمْ عِلْمُهُمْ فِي مَسْكِ جَفْرِ (٢)

وَمِرْآةُ المُنَجِّمِ وَهْيَ صُغْرَى ... أَرَتْهُ كُلَّ عَامِرَةٍ وَقَفْرِ

---

(١) اللزوميات ١ ص ١٥٤ .

(٢) إذا بلغ ولد المعزى أربعة أشهر ، وجفر جنباه وفصل عن أمه وأخذ في الرعي فهو جَفْر والأنثى جفرة . قال الدميري في حياة الحيوان ج ١ ص ٢٩٠ : قال ابن قتيبة في أدب الكاتب : وكتاب الجفر جلد جفر كتب فيه الإمام جعفر بن محمد الصادق لآل البيت كل ما يحتاجون إلى علمه وكل ما يكون إلى يوم القيامة ، وإلى هذا الجفر

ـــ أشار أبو العلاء المعري في قوله : لقد عجبوا لأهل البيت . . . وظاهر كلامه يدل على أن قوله : وإلى هذا الجفر أشار ... من كلام ابن قتيبة ، وذلك لا يصح لأن ابن قتيبة توفي سنة ٢٧٦ هـ قبل ولادة أبي العلاء وقد ذكر ذلك ابن قتيبة في كتابه تأويل مختلف الحديث ص ٨٤ حيث قال : وأعجب من هذا التفسير تفسير الروافض للقرآن وما يدعونه من علم باطنه بما وقع إليهم من الجفْر الذي ذكره هرون بن سعد العجلي ، وكان رأس الزيدية ، ثم أورد ثمانية أبيات ، ثم قال : قال أبو محمد ، وهو جلد جفر ادّعوا أنه كتب فيه لهم الإمام كل ما يحتاجون إلى علمه وكل ما يكون إلى يوم القيامة .... إلى آخر كلامه ، ونقل شيئاً من ذلك في مرآة الجنان ج ٣ ص ٣١٧ مع تغيير قليل فراجعهما . ثم قال الدميري : وقيل ، ابن تومرت المعروف بالمهدي ظفر بكتاب الجفر فرأى فيه ما يكون على يد عبد المؤمن صاحب المغرب وقصته وحليته واسمه . . .

وقال ابن تيمية في (منهاج السنة ج ١ ص ٢٣١) : ويقال : ثالثاً الكذب على هؤلاء في الرافضة من أعظم الأمور ولا سيما على جعفر بن محمد الصادق فانه ما كذب على أحد ما كذب عليه حتى نسبوا إليه كتاب الجفر والبطاقة والهفت واختلاج الأعضاء وأحكام الرعود والبروق وما يذكر عنه من حقائق التفسير التي ذكر كثيراً منها أبو عبد الرحمن السلمي . . . وحتى زعم بعضهم أن كتاب (رسائل إخوان الصفاء) من كلامه . . .

وقال السيد الشريف الجرجاني في (شرح المواقف ج ٦ ص ٣٢) عند قول العضد : « إذ من علم شيئاً علم علمه به بالضرورة وإلا جاز أن يكون أحدنا عالماً بالجفر والجامعة » وهما كتابان لعلي رضي الله تعالى عنه ، قد ذكر فيهما على طريقة علم الحروف الحوادث التي تحدث إلى انقراض العالم ، وكانت الأئمة المعروفون من أولاده يعرفونهما ويحكمون بهما . وفي كتاب قبول العهد الذي كتبه علي بن موسى – رضي الله عنهما – إلى المأمون : أنك قد عرفت من حقوقنا ما لم يعرفه آباؤك فقبلت منك عهدك . إلا أن الجفر والجامعة يدلان على أنه لا يتم . ولمشايخ المغاربة نصيب من علم الحروف ينتسبون فيه إلى أهل البيت . ورأيت أنا بالشام نظماً أشير فيه بالرموز إلى أحوال ملوك مصر وسمعت أنه مستخرج من ذينك الكتابين اهـ .

وفي كشف الظنون : « الجفر والجامعة عبارة عن العلم الإجمالي بلوح القضاء والقدر المحتوي على كل ما كان وما يكون كلياً وجزئياً . والجفر عبارة عن لوح القضاء الذي هو عقل الكل ، والجامعة لوح القدر الذي هو نفس الكل . وقد ادعى طائفة أن الإمام علياً (رضي الله عنه) وضع الحروف الثمانية والعشرين على طريق البسط الأعظم في جلد الجفر يستخرج منها بطرق مخصوصة وشرائط معينة وألفاظ مخصوصة ما في لوح القضاء والقدر ، وهذا علم توارثه أهل البيت ومن ينتمي إليهم وقيل : لا يفقه في هذا الكتاب حقيقة إلا المهدي المنتظر .... » . ـــ

قال صاحب (نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس) العباس بن علي المكي الحسيني من رجال القرن الثاني عشر: «هذان البيتان، على تشيع أبي العلاء يدلان». ثم قال: «ومما يدل على تشيعه أيضاً قوله من قطعة: (١)

أَمَرَ الوَاحِدُ فَافْعَلْ مَا أَمَرْ ... واشْكُرِ اللهَ إِنِ الفِعْلُ أَمَرّْ
أَظْهِرِ الخِيفَةَ واضْمُرْ قَلَّمَا ... أَدْرَكَ الطَّرْفُ المَدَى حَتَّى ظَهَرْ
أَيُّهَا المُلْحِدُ لا تَعْصِ النُّهَى ... فَلَقَدْ صَحَّ قِيَاسٌ واشْتَهَرْ
إِنْ تَعُدْ فِي الجِسْمِ يَوْماً رُوحُهُ ... فَهُوَ كَالرَّبْعِ خَلا ثُمَّ عَمَرْ

ــ قال ابن طلحة: الجفر والجامعة كتابان جليلان أحدهما: ذكره الإمام علي وهو يخطب بالكوفة على المنبر، والآخر: أسره إليه رسول الله ﷺ وأمره بتدوينه فكتبه... حروفاً متفرقة على طريق سفر آدم في جفر يعني في رق قد صبغ من جلد البعير فاشتهر بين الناس به، لأنه وجد فيه ما جرى للأولين والآخرين. والناس مختلفون في وضعه وتكسيره، فنهم من كسره بالتكسير الصغير وهو جعفر الصادق..» وتتمة هذا القول في كشف الظنون ج ١ ص ٣٩٥. **(ج)**

(١) قالوا في كتاب (تعريف القدماء بأبي العلاء) في ذيل ص ٣٥٣: هذه الأبيات مما لم يرد في الديوانين، ولم نعثر عليها في غير هذا الموضع. والصحيح أنها مذكورة في لزوم ما لا يلزم وهي مطلع قصيدة عدد أبياتها أربعة عشر بيتاً ولكن بعض الأبيات المذكورة هنا محرفة مما في الديوان، فالشطر الأخير من البيت الثاني روي في الديوان هكذا: أحرز الطرف المدى حتى ضمر. ومن البيت الثالث هكذا: فلقد صح قياس واستمر، وعلى هذه الرواية يكون في البيتين لزوم ما لا يلزم. **(ج)**، وفي اللزوميات ھ ص ١٦٨ هذه الأبيات مع اختلاف إيراد بعض ألفاظها مما لم تثبته هذه الحاشية وذلك في قوله:

أمر الواحد فاقبل ما أمر ... واشكر الله إن العذبُ أمَرّ
أضمر الخيفة واجْمُر قلّما ... أحرز الطّرف المدى حتى ضمر

والطِّرف: بالكسر الكريم من الخيل.

وَهِيَ الدُّنْيَا أَذَاهَا أَبَداً زُمَرٌ وَارِدَةٌ إِثْرَ زُمَرْ
يا أَبَا السِّبْطَيْنِ لا تَحْفِلْ بِهَا أَعَتِيقٌ سَادَ فِيهَا أَمْ عُمَرْ

والشيعة فرق متعددة عند المتقدمين ، ولم يبيّن لنا من أي فرقة هو. وسيأتي عند الكلام على الأديان والملل عن (رسالة الغفران) و (لزوم مالا يلزم) مالا يدل على ذلك ، كقوله في (رسالة الغفران) وقد ذكر التناسخ : [1] « وهو مذهب عتيق يقول به أهل الهند ، وقد كثر في جماعة من الشيعة » . وقوله : [2] « أما الذين يدّعون في علي مايدّعون ، فتلك ضلالة قديمة » . وقوله : [3] « واعتقاد الكيسانية في محمد ابن الحنفية عجيب ، لايصدق بمثله نجيب » . وقوله في (لزوم مالا يلزم) : [4] .

لَعَمْرُكَ مَا أُسَرُّ بِيَوْمِ فِطْرٍ ولا أَضْحَى ولا بِغَدِيرِ خُمِّ
وَكَمْ أبدى تَشَيُّعَهُ غَوِيٌّ لِأَجْلِ تَنَسُّكٍ بِبِلَادِ قُمِّ

وهو ينكر مجيء الإمام المنتظر . ومن البعيد أن يكون شيعياً وهو يقول : [5]

والنَّاسُ في ضِدِّ الهُدَى مُتَشَيِّعٌ لَزِمَ العُلُوَّ [6] وَنَاصِبِيٌّ شَارِ

---

(١) رسالة الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٣٩٧ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٣٩ .
(٣) المصدر السابق ص ٤٤٠ .
(٤) اللزوميات هـ ص ٢٥١ وفيها : « لأجل تَذَبُّبٍ » .
(٥) اللزوميات هـ ص ١٦٢ .والناصبي: واحد الناصبية وهم قوم متدينون ببغضة علي ـ عليه السلام.
(٦) كذا في الاصل وفي اللزوميات أيضاً ، ولعلها : « الغلو » .

على أن أبا العلاء مدح ورثى كثيراً من أهل البيت الطاهر .

من ذلك قصيدته الحائية التي أجاب بها الشريف أبا إبراهيم موسى بن أحمد أو إسحق ؟ وهي في (السقط [١] ج ١ ص ٥٦) .

وقصيدته النونية التي أجاب بها الشريف أبا إبراهيم موسى أيضاً : وهي في (السقط [٢] ج ١ ص ٩)

وقصيدته الميمية التي يهنىء بها محمداً بيرنه : وهي في (السقط [٣] ج ١ ص ١٤٠)

وقصيدته الميمية التي رثى بها أبا إبراهيم : وهي في (السقط [٤] ج ١ ص ٢٠١)

وقصيدته الفائية التي رثى بها الشريف أبا أحمد والد المرتضى والرضي : وهي في (السقط [٥] ج ٢ ص ٥٥)

وسيأتي أن له كتابا جمع فيه فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) . وروى له القفطي هذه الأبيات : [٦]

شَهِدْتُ بِأَنَّ الكَلْبَ لَيْسَ بِنَابِحٍ   يَقِيناً وأَنَّ اللَّيْثَ في الغَابِ مَازِرْ

---

(١) شروح سقط الزند : ق ١ س ٢٣٧ ، ومطلع القصيدة :

أَلاحَ وَقَدْ رأى بَرْقاً مُليحاً   سرى فأتى الحِمَى نضواً طليحاً

(٢) شروح سقط الزند : ق ١ س ٤٢٥ ، ومطلع القصيدة :

علّلاني فان بيضَ الأماني   فنيَت والظلام ليس بفانِ

(٣) شروح سقط الزند : ق ٢ س ٦٦٣ . ومطلع القصيدة :

عظيم لعمري أن يُلِمّ عظيم   بآل عليّ والأنام سليم

(٤) شروح سقط الزند : ق ٣ س ٩٤٩ ، وفيها : « قال يرثي أبا إبراهيم العلوي ويخاطب أولاده . . » . ومطلع القصيدة :

بني الحسَبِ الوضّاح والشرف الجمّ   لسانيَ إن لم أرث والدكم خصمي

(٥) شروح سقط الزند : ق ٣ س ١٢٦٤ ، ومطلع المرثية :

أودى فليت الحادثات كفاف   مال المسيف وعنبر المستاف

(٦) تعريف القدماء بأبي العلاء س ٦١ عن إنباه الرواة — للقفطي .

وأنَّ قُرَيْشاً لَيسَ مِنْهَا خَلِيفَةٌ ... وأنَّ أبَا بكرٍ شَكَا الحَيفَ مِنْ عُمَرْ
وَأنَّ عَليًّا لَمْ يُصَلِّ بِصَحْبِهِ ... ومَا هُوَ واللهِ العَظِيمِ مِنَ البَشَرْ

وهذه الأبيات انفرد بروايتها القفطي ، ولم أر من ذكرها غيره ، وليست في شيء من كتبه التي وصلت الينا ، وهي شبيهة بهذيان المحموم .

الاعتزال

وأما من قال : إنه يذهب مذهب المعتزلة ، واستدل بما يوهم ذلك من كلامه ، فلم يبين الى أي فريق منهم ينتسب ، ولا بأي شيء ذهب مذهبهم ؟ وإنما رأى جملة من كلامه توافق شيئاً من آرائهم ، فعده من الذاهبين مذهبهم ، ومن هذا النوع قول الصفدي في (الغيث المسجم) : (١) « ووجدت منسوبا الى أبي العلاء المعري [أيضاً] :

زَعَمَ الجَهُولُ وَمَنْ يَقُولُ بِقَوْلِهِ ... أنَّ المَعَاصِي مِنْ قَضاءِ الخَالِقِ
إنْ كَانَ حَقًّا مَا يَقُولُ فَلِمْ قَضَى ... حَدَّ الزِّنَا ، وقَطْعَ كَفِّ السَّارِقِ

وهذه من مسائل الاعتزال ، والجواب عنها مذكور في مسألة خلق الأفعال » . وهذان البيتان لم نرهما فيما وصل الينا من كتبه .

وقد قال صاحب (نزهة الجليس) : (٢) « ومما يدل على حسن مذهبه وإلزامه لأهل الكسب والجَهْمية قوله . . » ثم أورد هذين البيتين ، ورواية الثاني عنده هكذا :

إنْ كَانَ حَقًّا مَا زَعَمْتَ . . . .

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٠٦ ، عن الغيث المسجم — للصفدي .
(٢) المصدر السابق ص ٣٦٣ ، عن نزهة الجليس — للعباس المكي .

فقد جعلها دليلًا على حسن مذهبه ، وأسلوبها أضعف من أسلوب أبي العلاء ، وعلى فرض أنها من شعره لانجد فيها مـــا يوجب القدح في دينه ، ولا ما يوجب جعله من المعتزلة . وسيأتي إيضاح هذا عند قوله : (١)

إنْ كانَ مَنْ فَعَلَ الكبائِرَ مُجْبَراً   فعِقابُهُ ظُلْمٌ على ما يفْعَلُ

وأبو العلاء يوافق المعتزلة في التعويل عـــلى العقل ، وفي بعض المسائل ، ولكنه يخـــالفهم في كثير من آرائهم ، وقد صرح بأنه لم يوافقهم وتبرأ منهم . وَعدّ رؤساءهم من الهازلين بأصحابهم ، وأن ما ألفوه من كتبهم سببه التنافس في الدنيا ، وحسبك الآن من الأدلة على ذلك قوله : (٢)

ومُعْتزِليٍّ لمْ أُوافِقْهُ ساعةً   أقولُ لهُ في اللفظِ: دِينُكَ أجزَلُ

وقوله : (٣)

واسْتغْفِرِ اللهَ واتْرُكْ ما حكَى لهمُ   أبو الهُذَيلِ وما قالَ ابْنُ كَلَّابِ

وإذا وافق الإنسان أصحـــاب مذهب أو نحلة في قول أو رأي ، لايجب أن يكون من أهل ذلك المذهب ، لأن المذاهب والنحل تتوافق في كثير من الأصول والفروع ، ولا يكون الإنسان من أهل مذهب حتى يلتزم كل ما التزمه أهله . وعلى هذا لايصح أن يقال : إن أبا العلاء معتزلي . وستأتي تتمة القول في هذا عند الكلام على الاعتزال في شعره .

---

(١) اللزوميات هـ س ١٩٨ .

(٢) المصدر السابق س ١٩٤ .

(٣) اللزوميات هـ س ٤٨ ، وفيها : « استغفر الله » .

الجبر

وأما من قال : إنه جبري ، فإنه رأى في بعض أقواله ما يوهم الجبر ، فحكم عليه بذلك من غير أن يستقري جميع أقواله . وسيأتي في الكلام على الجبر أن أقواله في ذلك مختلفة ، منها ما يوهم الجبر المحض ، ومنها مايقف فيه موقف الشاكّ ، ومنها ماينقل فيه آراء غيره ، ومنها مايصرح فيه بأنه غير جبري كقوله (١) :

وإنْ سَأَلُوا عَنْ مَذْهَبِي فَهْوَ خَشْيَةٌ   مِنَ اللهِ لا طَوْقاً أَبُثُّ ولا جَبْرا

وأنه يرى في الجبر نسبة الظلم إلى الله تعالى في مثل قوله (٢) :

إنْ كانَ مِنْ فِعْلِ الكَبائِرِ مُجْبَراً   فَعِقَابُهُ ظُلْمٌ عَلَى مَا يَفْعَلُ

وأكثر أقواله وأصرحها يدل على أنه غير جبري كما سيأتي .

البرهمية

وأما من قال : إنه برهمي ، فقد استدل على ذلك بأنه لم يأكل اللحم خمساً وأربعين سنة ، وأنه كان لايرى إيلام الحيوان ... وهذا كلام أبي العلاء في جوابه الى داعي الدعاة (٣) : « ... ومشهورٌ أن الأم إذا ذُبِحَ وَلَدُها وجِدَتْ عليه وجداً عظيما ، وسهرت لذلك ليالي ، وقد أُخِذَ لحمه ، وتوفّر على أصحاب أمه ما كان يرضع من لبنها ، فأي

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٣٦ .
(٢) أنظر ماسبق ص ٤٠٥ الحاشية (١) .
(٣) داعي الدعاة : هو أبو نصر بن أبي عمران داعي الدعاة بمصر ، أنظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١١٩ و ١٢٩ عن إرشاد الأريب ـ لياقوت الحموي .

ذنب لمن تحرّج عن ذَبْح السليل ، ولم يرغب في استعمال اللبن ، ولا يزعم أنه محرم ، وإنما تركه اجتهاداً في التعبد ، ورحمة للمذبوح ، رغبةً أن يجازىَ عن ذلك بغفران خالق السموات والأرض ... » ثم ذكر الحديث الشريف : « أقِرّوا الطيرَ في وُكناتها » والآية الكريمة : [١] ﴿ يا أيُّها الذينَ آمنُوا لاتقتُلوا الصَّيْدَ وأنتُمْ حُرُم ﴾ ثم قال : « فإذا سمع من له أدنى حس هذا القول ، فلا لوم عليه إذا طلب التقرب من رب السموات والأرضين ، بأن يجعل صيد الحل كصيد الحرم ... وإن كان ذلك ليس بمحظور » . وقال في كتاب آخر له [٢] : « ومما حثَّني على ترك أكل الحيوان ، أن الذي لي في السنة نَيِّف وعشرون دينارا ، فإذا أخذ خادمي بعض مايجب ، بقي مالا يعجب . » . وقد تقدم هذا . فكلامه هذا صريح في أنه ترك اللحم اجتهاداً في التعبد ، ورحمة للمذبوح ، ورغبة بغفران الله . وأن ماله يضيق عن التوسع في النفقة ، ولا يرضى أن يسأل الناس ، أو يأخذ منهم شيئاً ليأكل به لحما . وقد ذكر أن النبي ﷺ أبى شُربة من لبن وعسل تواضعاً لله . وأن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أبى شربة من ماء بارد وعسل [٣] وروى ابن الوردي أن أبا طالب المكي محمد بن علي المتوفى سنة ٣٨٦ هـ ألف كتابه (قوت القلوب) وقوته إذ ذاك عروق البردي ، وقال السيوطي في (البغية ص ٦) : « إن بهاء الدين بن النحاس محمد بن ابراهيم المتوفى سنة ٦٩٨ هـ لم يتزوج ولم يأكل العنب قط . قال : لأني أحبه فآثرت أن يكون نصيبي في الجنة . وكان ثقة حجة .. » وفي (بغية الوعاة

---

(١) سورة المائدة الآية « ٩٥ » .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٢٥ عن الإرشاد — لياقوت .

(٣) تتمة المختصر لابن الوردي وأوج التحري ص ٣٨ .

ص ٢٤٦) أن داود بن يزيد الغرناطي السعدي المتوفى سنة ٥٧٣ هـ كان يأكل الشعير ولم يأكل لحماً من الفتنة الأولى ، لأجل المغانم والمكاسب . وفيها في ص ٢٧٨ أن عبد الله بن أحمد المالقي المتوفى سنة ٦٤٨ هـ كان عالماً جمع الله له العلم والعمل ، وهو آخر الورعين بالاندلس ؛ وكان لا يأكل ممن لا يتحقق طيب كسبه ، ولا سيما بعد حدوث الفتن ، فإنه قطع أكل اللحم .

وقال البديعي : « وقول تلميذه : لم ترق الدماء زهادة ، لم يعط من المعنى ماقالوه ، ولو أراده لقال : فلسفة . ثم ماذا على من ترك اللحم وهو من أعظم الشهوات خمساً وأربعين سنة زهادة ؟ خصوصاً وقد قال صاحب (قوت القلوب) : إباحة حلال الدنيا حسن والزهد فيه أحسن . ثم ذكر أن رسول الله ﷺ ترك شرب القدح الذي فيه لبن وعسل . وأن عمر رضي الله عنه أبى أن يشرب ماء بارداً وعسلا في يوم صائف . ثم قال : وقد نهى النبي ﷺ عن التنعم ، والكتب مشحونة بترك السلف الصالح للشهوات والملاذ الفانية ، رغبة في النعيم الباقي ، والرحمة للحيوان من الخصال المندوبة ، كما قيل : والشاة إن رحمتها رحمك الله . وقد ترك جماعة من الزهاد والعباد أكل الطيبات تقربا إلى الله تعالى ، وعد ذلك في مناقبهم ومحاسنهم ، ولم ينكر عليهم فكيف يجعل الامتناع من أكل اللحم تركا للآخرة على رأي المنازي » اهـ .

وقوله : « والشاة إن رحمتها . . » لعله يشير به إلى ما روي عن معاوية بن قرة عن أبيه أن رجلا قال : يارسول الله إني لأرحم الشاة أن أذبحها ، فقال : إن رحمتها رحمك الله . رواه الحاكم ، وقال صحيح الاسناد ، ورواه الأصبهاني . ولفظه : « قال : يارسول الله إني آخذ شاة وأريد أن أذبحها ، فأرحمها . قال : والشاة إن رحمتها رحمك الله » .

والتاريخ مكتظ بأخبـار المتدينين الذين أمسكوا عن تناول الأطعمة والأشربة المباحة، زهادة فيها ورغبة في التقرب إلى الله، ولم ينكر عليهم أحد ذلك . وأبو العلاء المسكين يقول للناس : أنا لاأعتقد أن اللحم حرام ، وأتركه اجتهاداً في التعبد . . . وهم يقولون له : أنت برهمي تعتقد حرمته ، شئت أم أبيت .

المزدكية

وأما نسبته إلى المزدكية ، فأغرب من نسبته إلى ماقبلها ، لأن مزدك كان يستحل المحارم ، ويسوّي بين الناس في الأموال والنساء ، فيأخذ امرأة هذا ويسلّمها إلى ذاك . . والمعروف من أحوال أبي العلاء وأقواله أنه كان يتشدد في حجاب المرأة ، فيمنعها من الصعود إلى السطح ، ومن الخروج إلى الحمام ، والعراف ، والمنجم ، والمسجد ، ومن الذهاب إلى الحج ومن التوسع في تعلم القراءة والكتابة ، ومن دخول الوليد عليها ، ونحو ذلك مما بينه في كلامـه . كل هذا غيرة عليها ، وكان يأبى زواج الحرائر وقد قال في اللزوم (١) :

بَرِئتُ إلى الخلاّقِ مِنْ أهلِ مَذْهَبٍ يَرَوْنَ مِنَ الحقِّ الإباحةَ للأهْل

وقال في اللزوم (٢) :

قد أعرَسَتْ عِرْسُ الأميرِ بتابعٍ ضَرَعٍ فأينَ حليلُها المِغْيارُ

فالحكم عليه بعد هذا بأنه مزدكي لايعدو أحد أمرين : إما أن يكون قائله جاهلاً بالمزدكية وبأبي العلاء معاً . وإما أن يكون مفترياً على أبي العلاء .

---

(١) اللزوميات هـ س ٢١١ .

(٢) المصدر السابق س ١٣١ .

وستأتي تتمة القول في هذا ، عند الكلام على رأيه في الزواج ، وفي المذاهب والنحل .

الدرزية

لبعض الأدباء ولع شديد بالإتيان بالغريب ، واستنباط الأحكام من الأدلة والحوادث ، ولو كانت على وجه بعيد ، كأن أحدهم يظن أن الناس يتقبلون منه كل مايقوله من غير أن يعرضوه على محك العقل والنقل والنقد . وإذا لم ير من يرد عليه قوله اعتقد ان قضيته مسلمة لايختلف فيها اثنان . وربما كان السكوت عنه احتقاراً لقوله أو رأيه . وقد ذهب بعض المتأخرين إلى أن أبا العلاء كان يعتنق المذهب الدرزي ، واستدل على رأيه هذا بأنه عاصر الدعوة الدرزية في عنفوانها ، وأنه تنوخي ، وأكثر التنوخيين أجابوا هذه الدعوة ، وأنه من المعرة ، وقد كان شمالي سورية من ميادين تلك الدعوة ، وأن في شعره شبهاً لما جاء في المذهب الدرزي ، وأنه ذكر العقل ، وجعله إماما . ولهذه الكلمة عندهم معنى خاص ، وأعظم منزلة عندهم رتبة شيخ العقل إلى غير ذلك من الاستنباط الغريب .

وأنا لم أطلع على حقيقة المذهب الدرزي ، حتى أعلم منزلة هذه الأقوال من الصحة وعدمها ، ولكن ما سمعته وما رأيته في أقوال العلماء والأدباء يدل دلالة قاطعة على أنه لم يعتنق هذا المذهب .

ومن ذلك أنه أنكر التناسخ في مواطن من شعره . وأنه ترك الزواج ، وحض على تركه وعلى قطع النسل ، وعلى عدم تعليم المرأة ، ونحو ذلك مما لا يتفق مع المذهب الدرزي . وذكر في (رسالة الغفران ص ١٥٢) مذهب الحلولية ، ثم قال [1] : « وتؤدي هذه النحلة إلى التناسخ ، وهو

(١) أنظر ما سبق ص ٤٠٢ الحاشية (١) .

مذهب عتيق يقول به أهل الهند ، وقد كثر في جماعة من الشيعة ، نسأل الله التوفيق والكفاية » . ثم قال في ص ١٥٧ : « والحلولية قريبة من مذهب التناسخ » . ثم أورد قصتين عمن يقول بالتناسخ ، وقال في (لزوم ما لا يلزم) (١) :

يَقُولُونَ: إنَّ الجِسْمَ يُنْقَلُ رُوحُهُ ... إلى غَيْرِهِ حَتَّى يُهَذِّبها النَّقْلُ
فَلاَ تَقْبَلَنْ مَا يُخْبِرُونَكَ ضَلَّةً ... إذَا لَمْ يُؤَيِّدْ مَا أَتَوْكَ بِهِ العَقْلُ

وقال فيه (٢) :

مَضَى قَيْلُ مِصْرَ إلى رَبِّهِ ... وَخَلَّى السِّيَاسَةَ لِلْخَائِلِ
وَقَالُوا يَعُودُ فَقُلْنَا يَجُوزُ ... بِقُدْرَةِ خَالِقِنَا الآئِلِ
إذا هَبَّ زَيْدٌ إلى طَيِّئٍ ... وَقَامَ كُلَيْبٌ إلى وَائِلِ

وهذا وأمثاله ، مما سيأتي ، يدل على أنه لم يكن يعتقد ما يعتقده أهل هذه النحلة .

القرمطية

زعم بعض المستشرقين أن أبا العلاء كان يدين بمذهب القرامطة ، وبنى قوله هذا على شُبَهٍ واهية ، وتلقفها فريق من المولعين بكل غريب من غير بحث ولا تدبر . والدليل على بطلان هذا الزعم أن أبا العلاء كفّر القرامطة ، ولعنهم وفضل عليهم الجاهلية ، وافتنّ في التنديد بهم في

(١) اللزوميات هـ س ١٩٥ .
(٢) اللزوميات هـ س ٢٢٤ والآئل : السائس من آل الملك الرعية إذا ساسها .

(رسالة الغفران [١] ص ١٤٥ وص ١٤٧) وفي (لزوم ما لا يلزم) ولا أعلم كيف يستجيز هؤلاء أن يقولوا : إن أبا العلاء يدين بمذهب يسب أصحابه ويكفرهم ويقول فيهم [٢] :

إنَّمَا هـذِهِ المَذَاهِبُ أَسْبا ... بٌ لِجَذْبِ الدُّنيا إلى الرُّؤساءِ

كَالذِي قَامَ يَجْمَعُ الزَّنْجَ بالبَصْـــرَةِ ... والقَرْمَطِيِّ بِالأَحْسَاءِ

وستأتي تتمة القول في القرامطة على وجه لا يبقى معـــه شك في أنه لم ينتحل هذه النحلة .

التقية

وقد زعم فريق أن أبا العلاء كان من أهل التقية ، يبطن غير ما يظهر من العقائد ، كما أنه كان يستعمل الغموض في كلامه والغريب في لغته ليخفي مقاصده وأغراضه ولا يصرح بهـا تقية ، واستدلوا على ذلك بأدلة هي أوهى من بيت العنكبوت . ومن البديهي أن الإنسان لا يلجأ إلى التقية إلا في موطن يخاف فيه فتنة أو شراً ، أو يخشى أذية وانتقاماً . وأعظم هذه المواطن خطراً الملوك والأمراء والكبراء ، ورؤساء المذاهب والعقائد والأديان والشرائع ونحوهـا من المواطن التي تثير أهل الحول والطول ، أو تستثير الدهماء والغوغاء . وقد رأينا أبا العلاء في كثير من هذه المواطن ، إن لم نقل في كلها ، غير هيّابة في بحثه ، ولا وجل في إبداء رأيه . وقد صرح بكثير من الأمور التي هي أجدر من غيرها بالتقية ،

(١) أنظر الرسالة تحقيق بنت الشاطئ ط ١ ص ٣٧٨ و ٣٨٥ .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢٦ .

وجبه الكبراء والرؤساء بالنقد اللاذع والتنديد القارص ؟ ولم يحسب لأحد حسابا . فأين التقية ممن يقول في ملوك عصره :

ظَلَمُوا الرَّعِيَّةَ واسْتَجَازُوا كَيْدَهَا   فَعَدَوْا مَصَالِحَهَا وهُمْ أُجَرَاؤُهَا[1]

* * *

سَاسَ البِلادَ شَيَاطِينٌ مُسَلَّطَةٌ   في كُلِّ مِصْرٍ مِنَ الوَالِينَ شَيْطَانُ[2]

* * *

فَإِنِّي أَرَى الآفَاقَ دَانَتْ لِظَالِمٍ   يَغُرُّ بَغَايَاهَا وَيَشْرَبُ خَمْرَهَا[3]

الى غير ذلك من الأبيات الآتية في الكلام على السياسة . ويقول في الشرائع[4] :

إِنَّ الشَّرَائِعَ أَلْقَتْ بَيْنَنَا إِحَناً   وَعَلَّمَتْنَا أَفَانِينَ العَدَاوَاتِ

ويقول في الأديان[5] :

هَفَتِ الحَنِيفَةُ وَالنَّصَارَى مَا اهْتَدَتْ   وَيَهُودُ حَارَتْ وَالمَجُوسُ مُضَلَّلَهْ

ويقول في رؤسائها[6] :

يَتْلُونَ أَسْفَارَهُمْ وَالحَقُّ يُخْبِرُنِي   بِأَنَّ آخِرَهَا مَيْنٌ وأَوَّلَهَا

* * *

---

(١) اللزوميات ﻫ س ٢٣ .

(٢) اللزوميات ﻫ س ٢٦٢ وفيها : « ساس الأنام . . » .

(٣) اللزوميات ﻫ س ١٣٨ .

(٤) اللزوميات ﻫ س ٦٧ وفيها : « . . وأودعتنا . . » .

(٥) اللزوميات ﻫ س ٢٠٦ .

(٦) اللزوميات ﻫ س ٢٠٤ .

فَمَا العِظَاتُ وإنْ رَاعتْ سوى حِيَلٍ مِنْ ذِي مَقَالٍ عَلى نَاسٍ تَحَوّلهَا

* * *

يَدْعُونَ في جُمُعَاتِهِمْ بِسَفَاهَةٍ لِمَلِيكِهِمْ فيَكَادُ يَبْكِي المِنْبَرُ[1]

* * *

ولمْ آمَنْ عَلَى الفُقَهاءِ حَبْسًا إذَا مَا قِيلَ لِلأُمَنَاءِ جُوزُوا[2]

ويقول في الناس عامة :

قَالُوا : فُلانٌ جَيِّدٌ فَأَجَبْتُهُمْ لا يَكْذِبُوا مَا في البَرِيَّةِ جَيِّدُ[3]

* * *

فَسْلٌ أبُو عَالَمِنَا آدَمٌ ونَحْنُ مِنْ وَالِدِنَا أفْسَلُ[4]

ولم يدع صنفاً من الناس إلا قرّعه بمثل هـذه الصراحة القارصة . وقد تناول الملوك والكبراء والشعراء والخطباء والوعاظ والقضاة والفقهاء والمتكلمين والنحاة والعدول والتجار ورؤساء النصارى واليهود وغيرهم من أرباب النحل ، ولم يسلم من نقده حي ولا ميت ، وسلك في جميع هذه المواطن سبيل الصراحة الواضحة ؛ ولو كان عنده شيء من التقية لكانت

---

(١) اللزوميات هـ س ١٢٦ وفيها : « لأميرهم .. » .

(٢) المصدر السابق س ١٧٣ .

(٣) اللزوميات هـ س ٩٧ ، وفيها : « .. جيد لصديقه » .

(٤) اللزوميات هـ س ٢٠١ ، والفسل : الرذل الذي لا مروءة له .

في هذه المواضع أولى منها في غيرها . ومن الأدلة الواضحة على براءته من التقية قوله في حضور الجمعة (١) :

وَهَلْ لِيَ خَيْرٌ في الْحُضُورِ وإنَّما   أُزاحِمُ مِنْ أخيارِهِمْ إبلاً جُرْبا

فقد صرح بأنه لا يرى خيراً في حضورها ، وكان في وسعه أن يقول : إنها لا تجب عليه ، لأن بعض الأئمة اشترط لوجوبها سلامة العينين ، ولكنه أراد أن يحافظ على القصد الذي أراده من ذم الناس حتى خيارهم . وأصرح منه قوله (٢) :

ويَنْفِرُ عَقْلي مُغْضَباً إنْ تَرَكْتُهُ   سُدًى واتَّبَعْتُ الشَّافِعِيَّ وَمَالِكا

وقوله (٣) :

سأتْبَعُ مَنْ يَدْعُو إلى الخَيْرِ جاهِداً   وأرْحَلُ عَنْها ما إمامي سِوَى عَقْلي

وقد أشرنا إلى ذلك في مواطن من هذا الكتاب فدل على أن أبا العلاء نسيج وحده في جرأته الأدبية .

★ ★ ★

---

(١) اللزوميات هـ س ٣٨ .
(٢) المصدر السابق س ١٨٥ .
(٣) المصدر السابق س ٢١٠ .

خلاصة ما أراه في اعتقاد أبي العلاء

رأينا من المفيد ، قبل أن نبين رأينا في اعتقاده ، أن نذكر مقدمات تيسر لنا الوصول إلى النتيجة بسهولة ، وهي :

الأولى : اتضح لنا جلياً بما ذكره المؤرخون أن أبا العلاء كان محسوداً على فضله ، وأن حساده وأعداءه كانوا لا يتورعون عن الافتراء عليه . وكانوا يعملون على لسانه الأبيات قصداً لإهلاكه . ولكن لم يبين لنا واحد منهم شيئاً من تلك الأبيات ، لنعلم مدى ذلك الافتراء ، ولنميز بينها وبين شعره الحقيقي .

وأن اثنين حرّفا بيتاً من (لزوم ما لا يلزم) ليكفراه ، فكتب (رسالة الضبعين) إلى معز الدولة يشكوهما اليه ، وذكر أن في حلب نسخاً من هذا الكتاب بريئة من التحريف والعبث .

وأنه ألف كتابا في الرد على من نسبه إلى معارضة القرآن . وفي الجواب عن أبيات استخرجوها من (لزوم مالا يلزم) وكفروه بسببها . وقد سماه (زجر النابح) ثم طعنوا فيه بأبيات أخر ، فوضع كتاباً آخر سماه (نجر الزجر) و (بحر الزجر) وبين فيه التحريف ووجوه الأبيات ومعانيها التي يريدها منها . ولو أتيح لنا الاطلاع على تلك الرسالة وهذين الكتابين لكشفت لنا نواح عديدة تعين على الدرس وتزيل اللبس .

الثانية : اتضح لنا وسيتضح بما ذكرناه وبما سنذكره أن كثيراً حرفوا أبياتاً من كلام المعري لأسباب مختلفة . فمنهم من فعل ذلك ليتخذ منه مغمزاً في دين المعري . ومنهم من فعله متابعة لغيره . ومنهم من فعله

لعدم فهمه كلامه ولولا خشية الإطالة لاوردنا أمثلة كثيرة من هذا القبيل ولكننا نكتفي بالإشارة إلى ماسبق وما سيلحق .

الثالثة : أن كتب المعري التي وصلت الينا مغمورة بالشعور الإسلامي وليس في شيء منهـا مستمسك لاعدائه إلا ثلاثة : (الفصول والغايات) و (رسالة الغفران) و (لزوم ما لا يلزم) .

أما الفصول والغايات : فقد زعم بعض المتقدمين أنه عارض به السور والآيات ، واقتفى أثرهم بعض المتـأخرين ، وزعم فريق أنه ليس بين الفصول والغايات وبين القرآن الكريم معارضة ، وإنما بينهما مشابهة ، وهذا يدل على أن باب التقوّل لا يزال مفتوحاً إلى هذا اليوم ، وقد بينا بطلان هذا كله في الكلام على الفصول والغايات .

وأما رسالة الغفران : فقد زعموا أن فيها تهكماً واستخفافا . وهما من الأمور النفسية الخفية التي لا يستطيع أحد أن يعلمها ، إلا إذا أخبره بها صاحبها . ولم ينقل عن المعري أنه قال : أريد برسالة الغفران التهكم والاستخفاف . وإذا قيل : إن كلامه في بعض المواطن يحتمل ذلك ، فنقول : إن الاحتمال يضعف الدليل ، ويسقط الاستدلال به ، وأكثر كلام الناس يحتمل مثل ذلك ، والتكفير على الاحتمال لا قيمة له في نظر العلم .

وأما لزوم ما لا يلزم : وهو أكثر ما يعول عليه الطاعنون في دين أبي العلاء ، وأكثر ما عبث به وحرّف من كلامه ، فقد طبعت منه نسخة مغمورة بالتحريف والغلط ، وعَبَث الشارح بضبط بعض الكلمات وفي تفسيرها وشرحها ، كما ستري ذلك في الكلام على لزوم ما لا يلزم ، وعلى هذا فلا يأمن الانسان من تحريف يقع في الأبيات التي تتعلق باعتقـاد أبي العلاء ، أو خطأ في تفسيرها .

الرابعة : أن لزوم ما لا يلزم ديوان شعر ؛ والشاعر فيه يبالغ في بعض الامور ، ويتجوز في بعض آخر ، وقد يتخيل غير الواقع واقعا ؛ ويقول ما لا يعتقده حرصاً على نكتة أو نادرة ، وينظم المعنى ولا يخطر في باله ما يترتب عليه ، ويقول ما لا يفعل ، ويهيم في كل واد ، وقد يعرض نفسه للمؤاخذة في كلامه لحرصه على نكتة أو غرض يريده ، كما وقع لذي الرُمّة في قوله (١) :

مَا بَالُ عَيْنَيْكَ مِنْهَا المَاءُ يَنْسَكِبُ . . . .

ولجرير في قوله (٢) :

أتصحُو أم فُؤادكَ غَيْرُ صَاحِ . . . .

وقوله (٣) :

تَعَرَّضَتْ تيمٌ لي [عمداً] لِأَهْجُوَها كما تَعَرَّضَ لاسْتِ الخَارِىءِ الحجَرُ

وقد يلجأ إلى كناية دقيقة أو مجاز ، كما قال أبو العلاء (٤) .

لا تُقَيِّدْ عَلَيَّ لَفْظِي فَإِنِّي مِثْلُ غَيْرِي تَكَلُّمِي بِالمَجَازِ

وإذا كان الأمر على ما ذكرنا ، فليس من الحق والعدل أن تزن أقواله في (لزوم ما لا يلزم) بما توزن به النصوص الشرعية ، من آيات القرآن الحكيم ، وأحاديث النبي الكريم ، ولا أن نحترز في كلامه بمثل

---

(١) ديوانه طبعة أوربا ص ١ وعجز البيت : « كأنه من كلى مفرية سرب » .

(٢) ديوانه ص ٩٧ والبيت مطلع قصيدة يمدح بها عبد الملك بن مروان وعجزه : « عشية هم صحبك بالرواح » .

(٣) ديوانه ص ٢٨٣ وهو البيت الرابع من قصيدة يهجو بها الفرزدق ، وروايته في الديوان : « تعرض التيم لي عمداً ليهجوني ... » .

(٤) اللزوميات ٥ ص ١٧٥ .

ما يحترز به في أقوال العلماء في كتب الدين . ولا أن ندقق في مفاهيمها وقيودها مثل ما يدقق في كتب العقائد ؛ لاننا لو سلكنا هذا السبيل لوجدنا أكثر الشعراء كفاراً وملحدين ، من حيث لا يشعرون ولا يقصدون .

وأن تشدد بعض العلماء في مثل هذا سهّل على بعض آخر أن يطعن في عقيدة الإمام الغزالي لقوله : « ليس في الإمكان أبدع مما كان » . ولا يعتقد عاقل منصف أن الغزالي يريد بكلمته هذه نسبة العجز إلى الله تعالى . وكذلك كفر بعضهم ابن الرومي بقوله (١) :

كَثُرَتْ مُوبِقَاتُ بُورانَ حَتَّى ضَاقَ عَنْهَا عَفْوُ الغَفُورِ الرَّحِيمِ

وكفر فريق أبا الطيب بقوله (٢) :

وكُلُّ مَا خَلَقَ اللهُ وَمَا لَمْ يَخْلُقِ

مُحْتَقَرٌ في هِمَّتِي كَشَعْرَةٍ في مَفْرِقِي

وكفر فريق ابن النبيه بقوله (٣) :

اللهُ أكْبَرُ لَيْسَ الحُسْنُ في العَرَبِ . .

وأمثال هذا كثير .

الخامسة : أن أبا العلاء جرى على طريقة المعتزلة والحكماء النظريين ، فجعل العقل أساساً لجميع آرائه ، وزاد عليهم فجعل كل عقل نبيا . وعلى هذا الأساس ذهب في (الفصول والغايات) إلى أن الله يقدر على المستحيلات ،

---

(١) ديوانه شرح كامل كيلاني طبعة القاهرة ص ٤١٥ القصيدة ٤٣٩ .

(٢) انظر العرف الطيب ص ٣٤ ، ومطلع المقطعة : « أي محل أرتقي أي عظيم أتقي »

(٣) ديوانه طبعة القاهرة .

لأن عدم القدرة عليها عجز ، والعجز صفة نقص يجب أن ينزه الله عنها . فقد قال في (الفصول ص ١٧٤) : « يقدر الله على المستحيلات ، رد الفائت وجمع الجسمين في مكان وما لا تحتمله الالباب ، إذ كان لا ينسب إلى عجز ولا انتقاص . . . » وفي اللزوم كثير من هذا القبيل .

ولا نستطيع أن ننكر أن كثيراً من الأمور الشرعية يقصر العقل عن إدراك حكمة الشارع فيه . فإنكار أبي العلاء بعض القضايا لقصور عقله عن إدراك حكمتها ، لا لمجرد الاعتراض على الشرائع . ولو تسنى لإنسان أن يطلع على قلوب العلماء ، لرأى فيها من الإنكار أضعاف ما ظهر على لسان المعري ، ولكنهم يتسترون ولا يبدون ما في ضمائرهم . وأبو العلاء اجترأ وأظهر للناس ما في قلبه .

السادسة : قد يكون فيما انتهى إلينا من أقوال المعري ، بيت أو شطر أو جملة ، توهم الحكم عليه بسوء الاعتقـــاد ، ويكون إلى جانبها أبيات وأقوال كثيرة صريحة في الدلالة على حسن اعتقاده ، فيتمسك الطاعنون بالبيت أو الشطر على ما فيه من احتمال أو نظر أو شبهة ، ويعرضون عن الأبيات الصريحة الكثيرة . ولم يلتفتوا إلى قوة الادلة ولا إلى تكافئها ولا إلى رجحان الصريح على غيره ، ولا إلى ترجيح المتأخر على المتقدم .

مع أن القاعدة عند العلماء ، أن الدليل إذا طرقه الاحتمال كساه ثوب الإجمال ، وسقط به الاستدلال ؛ وأن الصريح من الأدلة يرجح على غيره ، إذا كانا متساويين في القوة . وأن الأدلة المتعددة أقوى من الدليل الواحد ، إذا كانت مساوية له في طريق الإثبات . وأن الأدلة المتساوية في القوة إذا تعارضت تساقطت . وليست لدينا نصوص تاريخية موثوق بها تعيّن لنا زمن كل قول من أقوال أبي العلاء حتى نجعل المتأخر منها

ناسخاً المتقدم ، فإذا فرضنا أن أقواله الدالة على إيمانه مساوية لأقواله الدالة على كفره من كل وجه ، وجب أن نحكم بسقوطها معاً حتى لا يكون العمل بأحدهما ترجيحاً بغير مرجح ، ووجب أن نلتمس دليلاً آخر من غير أقواله نستدل به على إيمانه أو كفره ، ولم يبق لدينا إلا حياته العملية . والتاريخ يحدثنا أنه كان يصوم الدهر ، ولم يعهد أنه ترك الصلاة حتى ترك الحياة ، وكان طاهر اللسان واليد والذيل ، ولم يعرف أنه أساء إلى أحد أو أضر بأحد أو انهمك في منكر ، أو اقترف كبيرة ، أو ارتكب ما يخالف الدين والأدب ، ولم ينقل عن أحد من الناس على كثرة من كانوا يتسقطون عثراته ، وينقبون عن زلاته ومساوئه ، أنه شذ في شيء من أعماله عن سنن الشريعة الإسلامية .

وهذا القدر كاف في الدلالة على صحة إيمانه وبراءته مما تقوّل عليه المفترون من حساده وأعدائه ، على أن أقواله الدالة على إيمانه أكثر عدداً من أضدادها ، وأشد ثبوتاً وأكثر صراحة وإحكاماً .

السابعة : أن بعض خصومه أو حساده ، إذا رأوا في كلامه شبهة ، توهم نسبته إلى الإلحاد تمسكوا بها ، وجعلوها من الأدلة القاطعة . وربما أيدوها بما لا حقيقة له ، كما فعل الزمخشري في البيت الذي وصف فيه النار [١] ،

---

(١) البيت من فائية أبي العلاء التي رثى بها النقيب أبا أحمد الموسوي والد الشريف الرضي والمرتضى وهو :

حمراء ساطعة الذوائب في الدجى ترمي بكل شرارة كطراف

وقد علق الزمخشري عليه بما نصه : « إنه أراد وقصد الزيادة على تشبيه القرآن العظيم بالقصر » . وذلك في الآية : « إنها ترمي بشرر كالقصر » .
انظر شروح السقط : ق ٣ ص ١٣٠٧ ، وتعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٦١ .

وياقوت في أبيات سمير بن دكين (١) . والبناني في قوله (٢) :

. . . . فداعٍ إلىٰ ضَلالٍ وهَادِ

وإذا رأوا في كلامه ما يوجب إيمانه من الأدلة القاطعـة قالوا : هذا تقية ، وإننا إذا جرينا على هـذه الطريقة الفاسدة ، نستطيع أن نحكم بالكفـر على كل إنسان ، حتى في قوله : « لا إله إلا الله » فنجعل قوله « لا إله » نفياً للاله ، وهو موجب للكفر ، ونجعل قوله « إلا الله » من باب التقية . وهذا غاية في السخف والعسف .

الثامنة : قد أنكر الناس على أبي العلاء مواطن كثيرة من قوله ، يكاد ينحصر معظمها في أمور :

الأول : ما يتعلق باعتقاده بالله ، والناظر في أقواله يجد أنه أثبت لله جميع الصفات التي أثبتها أهل السنة ، ونفى عنه ما نفوا ، ولم يشذ عنهم

---

(١) كذا في الأصل ، وفي رسالة الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٣٧٦ أن اسمه سمير بن أدكن ، وجاء فيها : « ولما أجلى عمر بن الخطاب ـ رحمة الله عليه ـ أهل الذمة عن جزيرة العرب ، شق ذلك على الجالين ، فيقال إن رجلاً من يهود خيبر يعرف بسمير بن أدكن قال في ذلك :

يصول أبو حفص علينا بدرة ... رويدك أن المرء يطفو ويرسب
كأنك لم تتبع حمولة مائط ... لتشبـع ، إن الزاد شيء محبب
فلو كان موسى صادقاً ماظهرتم ... علينـا ولكن دولة ثم تذهب
ونحن سبقنا كم إلى الدين فاعرفوا ... لنا رتبة البادي الذي هو أكذب
مشيتم على آثارنا في طريقنا ... وبغيتكم في أن تسودوا وترهبوا

وعلق ياقوت في إرشاد الأريب ج ٣ ص ١٦٥ على هذه الحادثة بقوله : وهذا يشبه أن يكون شعره قد نحله هذا اليهودي ، أو أن إيراده لمثل هذا واستلذاذه به من أمارات سوء عقيدته وقبح مذهبه . اهـ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٠٠٤ ، والبيت :

بان أمر الإله واختلف النا ... س فداع إلى ضلال وهـاد

إلا في مسألتي الزمان والمكان ، وجعل الله قادراً على المستحيل . وقد نسبه بعضهم إلى الجبر ، وصرح هو ببراءته منه ، واستدل على بطلانه . وما يراه الإنسان في بعض أبياته ، مما يوهم الجبر ، فهو من نوع ما يقوله العلماء في إثبات الجزء الاختياري أو الإرادة أو الكسب ، وسيأتي إيضاح هذا والاستدلال عليه .

الثاني : ما يتعلق بالكتب السماوية .

أما القرآن فقد عظمه في مواطن كثيرة ، وأنكر جواز نسخه ، ووصفه في (رسالة الغفران في ص ١٥٨)[١] وصفاً يدل على أنه خرج من قلب مفعم بالايمان الصحيح ، وقد تقدم أن السروجي دخل عليه في وقت خلوته فسمعه ينشد أبياتا ثم تلا شيئا من القرآن ثم قال : « سبحان من تكلم بهذا في القدم . . . . . » وسنتكلم على هذا مفصلا . واما بقية الكتب السماوية فلم ينكرها ، وإنما انكر ما أدخله أهلها عليها : في مثل قوله[٢]:

آلَيْتُ مَا الحِبْرُ المِدَادُ بِكَاذِبٍ   بَلْ تَكْذِبُ العُلَمَاءُ والأحْبَارُ

وقوله[٣] :

آلَيْتُ مَا تَوْرَاتُكُمْ بِمُنِيرَةٍ   إِنْ أُلْفِيَتْ فِيهَا الكُمَيْتُ مُحَلَّلَه

الثالث : ما يتعلق بالنبوات والرسل .

لا يجد الباحث في كلام ابي العلاء شيئا يدل على إنكاره الرسل ، أو على تحقيره واحداً منهم ، بل لم يذكر واحداً منهم إلا أردفه بالصلاة عليه .

---

(١) انظر الرسالة تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٤١٣ .

(٢) اللزوميات هـ ص ١٣٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٠٦ .

وقد مدح محمداً ﷺ في مواطن من شعره ، وحسبك منها قصيدته التي يقول في أولها[١] :

دَعاكُمْ إلى خَيرِ الأُمورِ محمّدٌ ... وَلَيسَ العَوالي في القَنا كالسَّوافِلِ

وتوعد بالعقاب ، لو استطاعه ، من أنكر نبوة موسى وعيسى صلى الله عليهما وسلم في قوله[٢] :

قَالَتْ مَعاشِرُ: لَمْ يَبعَثْ إلَهُكُمُ ... إلى البَرِيّةِ عِيساهَا ولا مُوسَى

وإنّما جَعَلُوا لِلْقَوْمِ مَأكَلَةً ... وَصَيّرُوا لِجَمِيعِ النّاسِ نَامُوسا

وَلَوْ قَدَرْتُ لَعاقَبْتُ الذينَ طَغَوْا ... حتى يَعُودَ حَلِيفُ الغَيِّ مَرْمُوسا

ولا أذكر أني رأيت في كلامه شيئاً يؤاخذ به في أحد من الأنبياء ، إلا أقواله في آدم ﷺ حين يتكلم في النسل والإنسال ، ففيها شيء من الشذوذ . ولكن يمكن تأويلها تأويلاً حسنا . وإلا أبياتاً انفرد بروايتها راو واحد ، وقد ذكر له ياقوت أبياتا من هذا النوع ولكنها ليست في شيء من كتبه التي رأيناها .

الرابع : الملائكة .

لقد اثبت أبو العلاء الملائكة في نثره ونظمه ، ولم ينف عن قدرة الله إيجادها ، وأثبت وجودها في الأرض ، وذكرها في مواطن من كلامه ، وقلما خلا كتاب له من ذكرها . فقد قال في لزوم ما لا يلزم[٣] :

لَسْتُ أنفِي عَنْ قُدْرَةِ اللهِ أشْبا ... حَ ضِياءٍ بِغَيْرِ لَحْمٍ ولا دَمْ

(١) اللزوميات هـ س ٢١٢ .
(٢) المصدر السابق س ٢٩٦ .
(٣) المصدر السابق س ٢٥٨ .

وقال فيه [١] :

إنْ لمْ يَكُنْ في سَماءٍ فوقَنا بشرٌ فليسَ في الأرضِ أوما تحتَها مَلَكُ

وقال في السقط [٢] :

هُوَ مِثْلُهُ في الفَضْلِ إلاّ أنّهُ لَمْ يَأْتِهِ بِرِسَالةِ جِبْرِيلُ

وفي (رسالة الملائكة) [٣] سمى طائفة منهم ، وذكر أسماء بعضهم وأوزانها في ص ٥ - ٨ - ٩ - ٢٣ - ٢٥ - ٤٣ وغيرها .

وفي (رسالة الغفران) ذكر رضوان والملائكة في ص ٨ - ١٨ - ٥٤ - ٥٥ - ٥٦ - ٥٩ - ٦٠ - ٧٣ - ٧٤ وغيرها .

وذكر الملك في (ملقى السبيل) ص ١٤ - ١٥ .

وذكره في (الفصول والغايات ج ١ ص ٧٣) .

وذكر الملك والملائكة في رسائله [٤] في ص ٩ - ١٠٦ - ١٦٠ وغيرها .

الخامس : الجن

زعم بعض الأدباء أن أبا العلاء ينكر الجن ، وهذا الزعم باطل لأنه صرح بذكر الجن في مواضع من كلامه منها قوله في (لزوم ما لا يلزم [٥]) :

مَنْ لي بأنّي وَحيدٌ لا يُصاحِبُني حَيٌّ سِوى اللهِ لا جِنٌّ ولا إِنْسُ

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٨٣ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٨٧٣ .

(٣) انظر رسالة الملائكة تحقيق المؤلف .

(٤) الرسائل – لشاهين عطية .

(٥) اللزوميات هـ ص ٣٠١ .

وقوله في سقط الزند [١] :

وَقَدْ كانَ أَرْبابُ الفَصَاحَةِ كُلَّما رَأَوْا حَسَنًا عَدُّوهُ مِنْ صَنْعَةِ الجِنِّ

وذكر الجن في (رسالة الغفران) في مواطن متعددة وذكر اشعاراً على ألسنتهم ، وذكرهم في (رسالة الملائكة ص ٤٠ - ٤١) ولم ينكر وجودهم لا تصريحاً ولا تلميحا ، وإنما قال : إنه لم يعلم حسا بحس لجني ، ومـا صح عنده أن المرأة تـُقتفى بتابع من الجن ، وكلا الأمرين لا يوجب كفراً ولا زندقة ، وستأتي تتمة القول في هذا الموضوع .

السادس : الحشر .

في (لزوم ما لا يلزم) وحده أكثر من مائة بيت كلها صريحة في ذكر الحشر ، أو ما يكون فيه من جنة أو نار أو حساب أو ميزان ، أو ذكر الآخرة وما يقع فيها ، كقوله [٢] :

اِعْمَلْ لِأُخْراكَ شَرْوَى مَنْ يَمُوتُ غَداً

واذأبْ لِدُنْياكَ فِعْلَ الغـابِرِ الباقِي

وقوله [٣] :

ومَتَى شاءَ الذي صَوَّرَنا أَشْعَرَ المَيْتَ نُشُوراً فَنُشِرْ

وفي (سقط الزند) عدد كبير من ذلك كقوله [٤] :

فَإِنْ أَسْتَطِعْ في الحَشْرِ آتِكَ زائِراً وَهَيْهاتَ لِي يَوْمَ القِيامَةِ أَشْغالُ

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٩١٧ .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٣٠٧ .

(٣) المصدر السابق ﻫ ص ١٦٨ .

(٤) انظر ماسبق ص ٢٦٥ الحاشية -٢- .

وفي (ملقى السبيل) ذكر الآخرة في مواطن كقوله[١] :

نِمْتُ عَنِ الأُخْرَى فَلَمْ أَنْتَبِهْ وَفِي سِوى الدِّينِ هَجَرْتُ الكَرَى

* * *

« والعين لِلْمُحَذِّرِ تدمع . والسُّحُبُ بالأقضية هُمَّع . وفي الآخرة يكون المُجْتَمَع »[٢] . و (رسالة الغفران) كلها قائمة على الحشر وما فيه . وفي (رسالة الملائكة) ذكر الملائكة والجنة ، وما فيها من فاكهة ومتع ، وماء الحيوان ، وطوبى ، والنار ، وغيرها . وذكر في (الفصول والغايات) النار ([ج ١] ص١) والآخرة (ص ٢٣ و ١٤٣) ، والحشر (٤١ و ١٣٥) ، والقيامة (٤٨ و ٨٠) ، والبعث (١٣٥) ، وفي غير هذه المواضع ، وذكر مثل ذلك في (رسالة المنيح)[٣] ورسالته الى خاله ، وإلى أبي عثمان النكتي وغيرها . ولو جمعنا أقواله في الحشر وما يتعلق به فيما وصل إلينا من كتبه ، على قلتها ، لخرج منها كتاب عظيم ، وكلها صريحة في الدلالة على ما تقدم ، وقد تمسك بعض الباحثين بقوله[٤] :

تُحَطِّمُنا الأَيَّامُ حَتَّى كَأَنَّنا زُجاجٌ وَلٰكِنْ لا يُعادُ لَنا سَبْكُ

فجعله منكراً للبعث فيه ، وسيأتي بطلان ذلك ، وإيضاح هذه المسألة والاستدلال عليها .

---

(١) ملقى السبيل — تحقيق كامل كيلاني — ج ٤ ص ٣٢٨ وفيه : « نمتُ . . . فلم تنتبه » .

(٢) المصدر السابق ج ٤ ص ٣٤٣ ، والسحب الهمع : الممطرة .

(٣) انظر الرسائل — لشاهين عطية — ص ٥ ، ٦٧ ، ١٠٥ .

(٤) اللزوميات ٢ ص ١٨٢ ، ورواية البيت فيها :

يحطمنا ريب الزمان كأننا زجاج ولكن لايعادُ لهُ سبكُ

وبعد هذه المقدمات نقول :

إن الحكم على إنسان بالتكفير أو الزندقة حكم شرعي ، والأحكام الشرعية طرق معروفة وشروط لابد من رعايتها حتى يكون الحكم صحيحا .

منها : أن الإنسان لايجوز أن يحكم عليه بالكفر ، إلا إذا أنكر أمراً معلوماً من الدين بالضرورة ، أو أمراً مجمعاً عليه .

ومنها : أن الحكم على إنسان بالكفر بسبب قوله لايكون صحيحاً إلا إذا أثبت بدليل صحيح أنه تكلم بذلك القول على هذا الوجه المكفر .

ومنها : أن الدليل لايكون موجباً للحكم إلا إذا كان صريحا في دلالته على التكفير ، سالما من الاحتمال والمعارضة بدليل يساويه في القوة أو يزيد عليه . ولم يتوفر ذلك كله في شيء من الأبيات المنسوبة الى أبي العلاء ، بعد أن علمنا ما علمنا من عبث النساخ والشراح ، وتقوُّل المتقوِّلين ، وافتراء المفترين ، وتحريفهم عمداً أو جهالة ، وتعارض الأدلة المتناقضة . وعلى هذا لانستطيع أن نحكم حكما جازما بكفر أبي العلاء أو بزندقته ، لفقد الدليل الصحيح على ذلك ؛ فترجع القضية الى تكفيره على سبيل الشك والاحتمال ، وهذا لاقيمة له في نظر العلم . ولا يزن جناح بعوضة عند العلماء .

ولسنا نحاول في كلمتنا هذه أن نبرىء أبا العلاء من كل ما ألصق به ، ولا أن نجعله في مصاف الأنبياء والمرسلين ، ولا في منزلة الأولياء المقربين ؛ ولا أن ننكر أن في كلامه ما يوجب المؤاخذة ، والحكم عليه بمثل ماحكموا ، إن صح ما قالوه ، وإنما نريد أن نبين أن تكفيره يتوقف على ثبوت ما نسب اليه من الأقوال المكفرة بطريق صحيح . وهذا لم يكن للأسباب التي قدمناها . وإننا لاننكر فوق ذلك أن في أبياته التي

نسبوه الى الكفر بسببها ، وفي غيرها أيضا ، مالم تستعد مدارك الامة بعدُ لإدراك غايته منها . ومنها مالم تستعد الامة لقبوله . ولا بد أن يأتي يوم يدرك الناس فيه مراميه من أقواله ويفهموهـــا حق الفهم ، فيعلمون من هو أبو العلاء وما هو .

والذي أعتقده أن أبا العلاء ما كان يتعمد الكفر في تلك الأقوال ، ولا يرى فيها ما يوجب الكفر ، لاننا رأينا كثيراً من العلماء والحكماء والشعراء من يتكلم بالكلمة ، يريد أن يقرر بها رأيا ، أو يعرب فيها عن معنى استجاده ، ولا يلتفت إلى ما يترتب عليها من الوجهة الدينية أو الادبية . وقد يجوز ان لاينتبه الى ذلك . ومن هذا القبيل ما وقع من الغزالي ، وابن رشد ، وابن سينا ، وأمثالهم . فإن المشهور من حال كل منهم أنه كان مؤمنا بالله ، وأنه يريد ان يوفق بين الحكمة والشريعة الإسلامية ؛ ولكنه وقع في كلامه مالا يوافق الشريعة ، إما لعدم تنبهه ، وإما لأنه كان يعتقد أن ذلك القول لا يوجب الكفر ، ولكنه لم يتعمد الكفر في قوله . وفرق عظيم بين تعمد القول المكفر وبين وقوعه من غير انتباه الى ما يترتب عليه ، أو وقوعه مع اعتقاد أنه غير مكفر لشبهة .

وقد بينا في الكلمة التي قلناها في المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري ونشرت في (ص ٢٨١) من الكتاب الذي نشره المجمع العلمي العربي في دمشق سنة ١٣٦٤ هـ = ١٩٤٥ م وسماه بهذا الاسم ، طرفا مما ذكرناه هنا ، وزيادة في بعض النواحي ؛ وستـــأتي تتمة القول في معتقـــده ؛ ونبين فيها ما آخذه به العلماء من أقواله ، عند الكلام على فلسفته إن شاء الله تعالى .

لزوم بيته

كان أبو العلاء ، في عنفوان حياته ، يتخبط في ظلمة سجن واحد وهو العمى . فلما عاد من بغداد وأجمع على الانفراد أضاف إلى الأول سجناً ثانيا وهو لزوم بيته ، وسمى نفسه رهن المحبسين . وقد بين سبب ذلك بقوله من قصيدة درعية في (السقط ج ٢ ص ١٧٣ [١]) :

لِذاكَ سَجَنْتُ النَّفْسَ حَتَّى أَرَحْتُها
مِنَ الإِنْسِ ما إِخْلاءُ رَبْعٍ بِإِخْلالِ

وقد تقدم بعض أبيات منها في الكلام على إجماعه على الانفراد والعزلة .

ثم لما أمعن في التفكير ، ودَرَس الحياة وما فيها درساً عميقا ، أضاف إليها سجناً ثالثاً ، وهو حبس الروح في الجسد فأصبح في ثلاثة سجون كما قال [٢] :

أَرَاني في الثَّلاثَةِ مِنْ سُجُوني ... فَلاَ تَسْأَلْ عَنِ الخَبَرِ النَّبِيثِ
لِفَقْدِي نَاظِرِي وَلُزُومِ بَيْتِي ... وَكَوْنِ الرُّوحِ فِي الجَسَدِ الخَبِيثِ

ولما عاد من بغداد أرسل كتابا إلى أهل المعرة ، يؤذنهم فيه بما عزم عليه من الانفراد والعزلة ، وينذرهم بعدم زيارته . ثم أقام في منزله مدة طويلة مختفيا لا يدخل عليه أحد . ولكن الناس توسلوا بوسائل شتى حتى دخلوا إليه للزيارة والشفاعة وغيرهما . وقد كتب ابن عمه أبو صالح محمد ابن المهذب إلى أخيه أبي الهيثم قصيدة يذكر فيها شوقه إلى لقاء أبي العلاء

(١) انظر شروح السقط ق ٤ ص ١٨٨١ وفيها : « ما أخلاه . . » .
(٢) اللزوميات هـ ص ٧٢ وفيها : « وكون النفس . . » .

وفيها يقول [1] :

فَكُنْ حَامِلاً مِنِّي إِلَيْهِ رِسالةً تَبين ليما [2] في هِضاب أبانِ

فإنْ قالَ: أخشى مِنْ فُلانٍ تشبُّهاً فَقُلْ: مَا فُلانٌ عِنْدَنا كَفُلانِ

هُوَ الخِلُّ مَا فِيهِ اخْتِلالُ مَوَدَّةٍ فَلا تَخْشَ مِنْهُ زَلَّةً بِضَمانِ

فإنْ خُنْتُ عَهْداً أوْ أسأتُ خليقةً ولمْ يَكُ شَأْني في المَوَدَّةِ شاني

فلا أحسنَتْ في الحَرْبِ إِمْساكَ مَقْبِضي يَميني ولا يُسْرايَ حِفظَ عِنانِ

لعلَّ حياتي أنْ تَعُودَ نَضيرَةً لدَيْهِ كما كانَتْ وطِيبَ زَمانِي

ثم فتح بابه للزائرين والمتعلمين ، فكانوا يفدون إليه من كل حدب وصوب . ولم أوفق لمعرفة اليوم الذي قبل فيه الزائرين ، ولا معرفة السبب الأخير الذي حمله على ذلك . وكان يتذمر أحيانا من ملازمة البيت ، ويتخذها أحيانا حجة لأمر يريده ، قال في (سقط الزند ج ٢ ص ١٥٦) [3] :

مَا لِيَ حِلْسَ الرَّبْعِ كالمَيْتِ بَعْـــدَ السَّبْعِ لَمْ آسَفْ وَلَمْ أَنْدَمِ

عَلى أُناسٍ مَنْ يُعاشِرْهُمُ تُعْوِزْهُ فِيهِمْ عِشْرَةُ المُكْرِمِ

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٤٨ ، وقد أورد ابن العديم هذه القصيدة في الإنصاف والتحري ، ومطلعها :

ألما وإن كان الجميع شجاني بشمس زرود لا ببدر معان

(٢) كذا في الأصل ولعلها : « إلينا » ، وفي تعريف القدماء : « تبين اليه ... » .

(٣) شروح السقط ق ٤ ص ١٨١٠ .

وتطرق إلى هذا المعنى في رسالته إلى أبي نصر صدقة بن يوسف الفلاحي حيث قال :[١] « فَنَغْدَوْتُ حِلسَ رَبع ، كالميت بعد ثلاث أو سبع ... » وقال في (الفصول والغايات [ج ١] ص ٢٩٧) : « إنما أنا حي كالميت ، أو ميت كالحي ، وما اعتزلت إلا بعد ما جددت وهزلت » وقد تقدم .

وقال نحواً من هذا في (رسالة الملائكة ص ٣) « فأما أنا فحِلْس البيت إن لا أكن الميت ، فشبيه بالميت » . وقد قال البطليوسي في(شرح السقط ص ١١٩٦) : « وكان المعري متدينا كثير الصيام والصدقة ، تسمع له بالليل هينمة لا تفهم ، وكان لا يقرع أحد عليه الباب حتى تطلع الشمس ، فإذا سمع قرع الباب علم أن الشمس قد طلعت فقطع تلك الهينمة ، وأذن في الدخول عليه . وكان لا يرى أكل اللحم ولا شرب المسكر ولا النكاح . وكان ذا عفة ونزاهة نفس ، إلا انه كان مخالفاً لما عليه أهل السنة » .

حلية أبي العلاء

لم أعثر في كلام أحد من المتقدمين على وصف جامع لحلية أبي العلاء ، وإنما ورد منها طرف في كلامهم ، وفي كلامه طرف آخر ، وهذا ماعثرت عليه من الكلامين :

قامته

روى ياقوت (ج ١ ص ٣٠٧)[٢] أن صالح بن مرداس لما حاصر المعرة خرج شيخ قصير أعمى يقوده رجل . فقال : هذا أبو العلاء . وكان كما قال . وقال أبو العلاء في رسالته إلى أبي الحسين النكتي وقد قصر اسمه[٣] : « فما كفاني ذلك ، مع قصر الجسم ، حتى يضاف إليه قصر الاسم ؟! » .

(١) رسائل أبي العلاء المعري ـ لشاهين عطية ـ ص ٩٦ ، والحلس : من يلزم مكانا لايبرحه .
(٢) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب .
(٣) رسائل أبي العلاء المعري ـ لشاهين عطية ص ١٣٤ .

نحافته

يدل قوله في اللزوم (١) :

تَحَفَّوْا بِالكَلامِ وأكْرَمُونِي عَلَى مَا كَانَ مِنْ جَسَدٍ نَحِيلِ

وقوله في رسالته إلى داعي الدعاة عن نفسه (٢) : « فإذا بسط يده انهضة ، ضربت عظامه ، لأنها عارية من كسوة كانت عليها . . » يدل على أنه كان قليل اللحم نحيف الجسم . وهذا أمر طبيعي لمن يقل الغذاء ويكتفي بما تطهوه ذكاء .

انحناء قامته

وقد انحنت قامته من الضعف ، وعجز عن القيام والقعود في آخر عمره . كما قال نفسه في رسالته إلى داعي الدعاة (٣) إن شخصه أشبه العود المنحني ، وإنه ضعف حتى عجز عن القيام في الصلاة ، فإنما يصلي قاعداً ، وإذا اضطجع عجز عن القعود ، فربما استعان بإنسان .

عيناه

تقدم أن الجدري أصابه في السنة الرابعة ، فذهب ببصره ، فكانت عينه اليمنى نادرة ، وقد غشيها بياض . وكانت اليسرى غائرة ، فكان كأنه ينظر بإحدى عينيه قليلا .

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢١٩ .
(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٣١ عن إرشاد الأريب – لياقوت .
(٣) المصدر السابق ص ١٣٢ .

وجهه

وقد أثر الجدري في وجهه ، فلم تكن أدمة وجهه مستوية ، بل كان فيها نتوء وانخفاض .

أسنانه

ولم تشأ الايام أن تترك أسنانه سليمة ، حتى لاتسلم له جارحة من آفة . وقد قال في اللزوم (١) :

فَمِي أَخَذَتْ مِنْهُ اللَّيالي وَإِنَّنِي ... لَأَشْرَبُ مِنْهُ في إِناءٍ مُثَلَّمِ
وَأَوْدَى بِظَلْمِ الثَّغْرِ صُبْحٌ وَحِنْدِسٌ ... مَتى يَنْظُرا في نَيِّرِ العَيْنِ يُظْلِمِ

والظاهر أن أسنانه وأضراسه دب اليها الفساد قبل أن يبلغ الخمسين. يدل على ذلك قوله في رسالة أرسلها جواباً لأبي الحسن محمد بن سنان الحلبي (٢) : « الآنَ علَت السن ، وضَعُف الجسم .. وعُطّلَت رحىً .. كنتُ أقصر طحنها على نفسي .. ولم يبقَ إلا أن يخلو مكانها العامر .. وإن تَشَبَّه بها في الظعن أخواتها ، صار لفظي من أجل ذلكَ مشيناً ، وجعلتُ سين الكلمة شيناً .. فإذا قلتُ العَسَل ظُن أني أقول العَشَل ، بالشين المعجمة .. » .

وهذه الرسالة جواب عن كتاب كتبه إليه محمد بن سنان ، يخبره فيه أن سلطان حلب يطلب من أبي العلاء أن يضع له كتابا يُذكر فيه أمثال على معنى (كليلة ودمنة) ، فوضع له كتاب (القائف) .. وهذا

(١) اللزوميات ج ص ٢٤٤ ، والظَّلْم : بفتح وسكون ، ماء الأسنان وبريقها .
(٢) رسائل أبي العلاء المعري ــ لشاهين عطية ــ ص ٢٢٢ .

السلطان هو عزيز الدولة أبو شجاع فاتك بن عبد الله الرومي ، مولى منجوتكين ، ولي حلب من قبل المصريين سنة ٤٠٧ هـ ، وقتله مملوكه الهندي سنة ٤١٣ هـ وكان أبو العلاء عمل لعزيز الدولة كتاب (الصاهل والشاحج) كما سيأتي . فيكون جوابه لابن سنان نحو سنة ٤١٠ هـ أو سنة ٤١٢ هـ ، ويكون مبدأ ذهاب أسنانه في ذلك العهد تقريبا .

سمعه

يدل قوله في رسالته الى داعي الدعاة (١) : « وقد علم الله أن سمعي ثقيل .. » ، وقوله لابن أخيه (٢) :

أجِدَّكَ ما تركْتَ وأنتَ قاضٍ　　　تَعَهُّدَ مُقْعَدٍ أعمى أصمّ

على أن سمعه ثقل في آخر عمره .

شعره

كان شعره أسود ، وقد وخطه الشيب قليلا قبل رحلته الى بغداد ، ولذلك قال في قصيدة قالها فيها (٣) :

طَوَيتُ الصِّباطَيَّ السِّجِلِّ وزارني　　　زمانٌ بهِ للشَّيبِ حُكْمٌ وإسجالُ

(١) انظر ما سبق ص ٤٣٣ الحاشية -٢- .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٩٧ عن الإنصاف والتحري - لابن العديم ، والبيت من مقطعة لم ترو في الديوانين مطلعها :

أعبد الله ما أسدى جميلا　　　نظير جميل فعلك غير أمي

(٣) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٥٢ .

ولكن شعره لم يبيض كله ، وإنما تأخر شيبه ، وقد قال في قصيدة أرسلها إلى أبي القاسم التنوخي بعد رجوعه من بغداد (١) :

وَحلَتْ كُلّي سِوى شَيْبٍ تجَاوَزَني ... ولَمْ يُبيِّضْ على طُولِ المدى الشَّعَرا

ويغلب على ظني أن هذه القصيدة قالها في سنة ٤٢٠ هـ . ويظهر من كلامه أنه كان غير مستحسن تأخر الشيب عن وقته ، فقد قال من أبيات(٢) :

أيا مفرِقي هلاّ ابيضضتَ على المدَى ... فَمَا سَرّني أنْ بِتّ أسْوَدَ حالِكا

قَبيحٌ بفَوْدِ الشّيْخِ تشْبيهُ لَوْنِهِ ... بفَوْدِ الفَتى واللهُ يَعْلَمُ ذلِكَ

وقال (٣) :

تأَخُّرُ الشّيْبِ مِنّي مِثْلُ مَقْدَمِهِ ... على سِوايَ ووقتُ الشّيْبِ قدْ حضرَ

وذلك لأنه لا يسره أن يكون لون شعره لون شعر الشباب ، وأن يكون ضعفه ضعف الشيوخ كما قال (٤) :

ومَا يَنْفَعُ الغِرْبيبَ والضّعْفُ وَاقِعٌ ... إذَا كانَ لوْنُ الرّأْسِ غيْرَ هِجَانِ

وكان لا يخضب شعره ، وإنما يعتقد أن

مَنْ يَخْضِبِ الشّعَرَاتِ يُحْسَبْ ظَالِماً ... ويُعَدَّ أخْرَقَ كالظّلِيمِ الخَاضِبِ (٥)

---

(١) شروح السقط : ق ٤ ص ١٧٤٣ ، ورواه الخوارزمي : « .. يجاورني » .

(٢) اللزوميات هـ ص ١٨٥ .

(٣) اللزوميات هـ ص ١٤٠ وفيها : « .. الشيب عني .. ما حضرا » .

(٤) اللزوميات هـ ص ٢٧٥ . والغربيب : الشيخ يسود شيبه بالخضاب . والهجان : ككتاب ، الخالص من كل شيء وورد (الغربيب) مضمومة الآخر في اللزوميات .

(٥) اللزوميات هـ ص ٥١ ، والظليم الخاضب : ذكر النعام إذا اغتلم فاحمرت ساقاه ، أو أكل الربيع فاحمر ظنبوباه . والنجيع : الدم الطري .

والشَّيْبُ في لَوْنِ الحُسَامِ فَلا تَدعْ جَسَدَ النَّجِيعِ عَلى الحُسَامِ القَاضِبِ

ولعله يكره الخضاب ، لأن فيه تغييراً لما ارتضته الطبيعة ، وشيئاً من الغش والتمويه . وقد رغب المتنبي قبله عن الشعر المكذوب فقال [١] :

وَمِنْ هَوى الصِّدْقِ في قَوْلي وَعَادَتِهِ رَغِبْتُ عَنْ شَعَرٍ في الرَّأْسِ مَكْذُوبِ

وقد قطع على نفسه عهداً لشعره أن لا يروعه بقراض ينقيه ، ولا بحناء يخفيه ، حيث يقول [٢] :

أَيُّها الشَّيْبُ لا يُرِيبُكَ مِنْ كَفِّــي مِقَصٌ وَلا يُوارِيكَ خِطْرُ

وله أبيات يفضل بها الشيب على الشباب وهي في (السقط ج ٢ ص ٢٢٦) [٣] :

خَبِّرِيني مَاذا كَرِهْتِ مِنَ الشَّيْــبِ فَلاَ عِلْمَ لِي بِذَنْبِ المَشِيبِ

أَضِياءَ النَّهارِ أَمْ وَضَحَ اللُّؤْ لُؤِ أَمْ كَوْنَهُ كَثَغْرِ الحَبِيبِ

واذْكُرِي لي فَضْلَ الشَّبابِ وَمَا يجْــمَعُ مِنْ مَنْظَرٍ يَرُوقُ وطِيبِ

غَدْرُهُ بِالْخَلِيلِ أَمْ حُبُّهُ لِلْــغَيِّ أَمْ أَنَّهُ كَدَهْرِ الأَرِيبِ

ومن مراجعاته الرائعة قوله في (السقط ج١ ص ١٢٧) [٤]

هِيَ قَالَتْ لَمَّا رَأَتْ شَيْبَ رَأْسِي وَأَرَادَتْ تَنَكُّراً وَازْوِرَارَا

---

(١) العرف الطيب ص ٤٨٢ .

(٢) الخطر : نبات يجعل ورقه في الخضاب الأسود يختضب به الشيوخ . (ج)
انظر اللزوميات هـ ص ١٣٤ .

(٣) وفي الشروح ق ٥ ص ٢٠٧٣ .

(٤) المصدر السابق ق ٢ ص ٦٥٢ .

وقد ذكرت الأبيات في [الكلام على] أسلوبه . ويدل قولـه من قصيدة درعية في (السقط ج ٢ ص ١٧٢) [١]

وَقَدْ طَالَ فَوْقَ الأَرْضِ كَوْنِي وَشَبَّهَتْ
ثَغَاماً بِجَوْنِي عَاذِلاَتِي وعُـذّالي

* * *

وَلَمْ تُغْدِرِ الأَيَّامُ بَيْنَ مَفَارِقِي وأَرْجَائِها كِنَّا لِأَدْهَمَ جَوّالِ

على أن الكبر ذهب بشعر رأسه حتى لم يدع فيه ، كِـنّا لِبُرغوث أدهم . وقد أجمل ما أثره الكبر في شعره وجسمه بقوله [٢] :

بَقِيتُ حَتَّى كَسَا الخَدَّيْنِ جَوْنُهُما ثُمَّ اسْتَحَالَ ومَسَّ الجِسْمَ تَخْدِيدُ

ضعفه وإقعاده

يدل قوله المتقدم في ابن أخيه :

« تَعَهَّدَ مُقْعَدٍ أَعْمَى أَصَمَّ [٣] »

وقوله في رسالته الى داعي الدعاة : « ومُنيت في آخر عمري بالإقعاد ، وعداني عن النهضة عاد » . وقوله في رسالة أخرى إليه : « أنه عجز عن القيام في الصلاة وإذا اضطجع عجز عن القعود .. » . على أنه مني بالإقعاد فلم يستطع القيام ولا القعود بنفسه .

---

(١) الشروح ق ٤ ص ١٨٧٨ و ١٨٨٠ ، والثغـام : نبت أبيض . والجون : الأسود . وتغدر : أي تترك ، وقال الخوارزمي : « عنى بأدهم جوال : القمل » .
(٢) اللزوميات ھ ص ٩٥ .
(٣) انظر ما سبق ص ٤٣٥ الحاشية — ٢ — .

وقد صور شخصه بصورة تنم على ما كان يعتوره من البلايا ، في مثل قوله [١] :

شَخْصِيَ هٰذَا غَرَضٌ لِلرَّدَى ‎ وَلَمْ يَزَلْ مَعْدِنَ عِصْيَانِ
مِنْ كُلِّ فَنٍّ فِيهِ أُعْجُوبَةٌ ‎ كَأَنَّهُ جَامِعُ سُفْيَانِ

هذا ما أمكنت معرفته من حالته الظاهرة ، وما أثره فيها الزهد والهرم . وأما القوى الباطنة فلم يعتره خلل ولا آفة في شيء منها ، الا قبيل موته ، فإنه أملى على بعض طلابه شيئا فغلط فيه ، فأخبر بذلك المختار ابن بطلان ، فأخبرهم بقرب موته كما سيأتي .

من كان يتعهده ويخدمه

رجع أبو العلاء من بغداد ، فوجد أمه قد ماتت ، وقد غُمَّ علينا تفصيل حياته البيتية ، لأن ما وصل الينا من تاريخ حياته لم يكفل بيان ذلك . وكل ما علمناه من النتف المبعثرة في أقوال المؤرخين والعلماء ما يأتي :

قال الميمني [٢] : « ذكر في رسالة له الى خاله أبي القاسم أنه كانت له خادمة عجوز تسمى سكينة ، فاستدعاها الى حلب لضبط منزله ، فاعتل أخوها ، فأرادت الخروج اليه . ولحقت أبا العلاء علة ، فأظهرت أن خروجها اليه وأنه محتاج اليها ، وكانت [هذه العجوز] تسخن له الماء وتصلح له القدر ، وتوقد النار ، وعزم على خاله ألا يوقفها على كتابه ، لئلا يدركها ما يدرك الآدميين اذا سمعوا في أنفسهم مثل ذلك » .

وجاء في بعض الروايات في قصة وزير محمود والضيوف الخمسين ، أنه قال

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٨١ .
(٢) انظر (أبو العلاء وما اليه) ص ١٨٩ .

لغلامه قنبر : « قدم الماء . وانظر المريخ أين هو . . »[١] وذكر في جوابه الى داعي الدعاة أن خادمه كان يأخذ من ماله بعض ما يجب . وذكر ابن العديم في ترجمة أبي محمد عبد الله بن أبي المجد أخي أبي العلاء أنه تولى خدمة عمه بنفسه وكان براً به [٢] . وذكروا أن رجلاً كان معه في رحلاته ، ولكن التاريخ لم يبين لنا اسم واحد ممن صحبه الى بغداد أو حلب أو غيرهما ، ولعله كان يكابد عناء من خادم كان لا يطيعه ، كما يشعر به قوله [٣] :

وَمِنْ عَنَاءِ اللَّيالي خَادِمٌ ضَغِنٌ   إِنْ يُؤْمَرِ الأَمْرَ يَفْعَلْ غَيْرَ مَا أُمِرَا

ومن مجموع هذه الأقوال لا نستطيع معرفة الحقيقة ، لأن ابن أخيه كان قاضيا ، ومن البعيد أن يقوم بنفسه بكل ما يتطلبه عمه من تهيئة طعام وغسل ثياب وآنية وما شاكل ذلك ، والذي أظنه أن ابن أخيه كان يخدمه في تقديم طعامه ولباسه وما يحتاج اليه في مجالسه ، وهذا يتولاه بنفسه . وأما ماعداه فإنه يقوم به خدم ابن أخيه أو خدمه ، وهو يتولى الإشراف على ذلك ويتعهده .

مرضه الأخير ووفاته

حالف أبو العلاء البؤس من المهد الى اللحد ، وكانت الأوصاب والعلل تنتابه حيناً بعد آخر . قال أبو اليسر شاكر التنوخي : « كان أبو العلاء كثير الأمراض . . » وقد أشار في مواطن من شعره الى ما بلغ به

---

(١) ورد هذا الخبر في تعريف القدماء في الصفحات (١٥٣ ، ٢٨٠ ، ٢٩٣ ، ٣٢٦) . ولم يذكر اسم الغلام قنبر .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٩٦ عن الانصاف والتحري ــ لابن العديم .

(٣) اللزوميات ﻫ ص ١٤١ .

مر الزمان وتعب الحياة ، وما كان يعتوره من العلل ، من ذلك قوله في اللزوم (١) :

وَأَخلقَني مَرُّ الزّمانِ وَكَدُّهُ فَصَارَ أديمِي كالسِّقاءِ المُرَمَّمِ

وقوله في (السقط ج ٢ ص ١٧٣) (٢) :

أُبِلُّ مِنَ الأَمْرَاضِ والعِلْمُ واقِعٌ بِعِلّةِ يَوْمٍ جانَبَتْ كُلَّ إِبْلالِ...

وقد قدمنا شيئاً مما كان ينتابه من الضعف والخلل ، ولم يتبين لنا ما هو مرضه الذي توفي به ، غير أنهم ذكروا أن الأطباء وصفوا له في مرضه فرُّوجا ، فلمسه بيده وقال : « استصفروك ... » ويروى : « استضعفوك فوصفوك ، هلا وصفوا شبل الأسد ؟ » . ولم ينص أحد على أن هذا الوصف في مرضه هذا . ذكر القفطي أنه : « لما حضرته الوفاة ، أتاه ابن أخيه عبد الله بقدح من سكنجبين فامتنع من شربه فحلف ابن أخيه ايماناً مؤكدة أنه لا بد أن يشربه ، فقال مجيباً له عن يمينه :

أَعَبْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنْ حَيَاتِي وَطُولِ ذَمَائِها مَوْتٌ مُرِيحُ
تُعَلِّلُنِي لِتَسْقِيَنِي (٣) فَذَرْنِي لَعَلِّي أَسْتَرِيحُ وَتَسْتَرِيحُ

وقد مرض ثلاثة أيام ، ومات في اليوم الرابع ، وكان عنده بنو عمه . فقال لهم في اليوم الثالث : اكتبوا عني ، فتناولوا الأقلام والدُّويّ ،

(١) اللزوميات ه ص ٢٤٥ .
(٢) وفي الشروح ق ٤ ص ٨٧٩ .
(٣) كذا في الأصل ولعلها محرفة عن « لتشفيني » فتأمل (ج) انظر تعريف القدماء ص ٦٤ ، عن إنباه الرواة — للقفطي . والذماء : بقية النفس .

فأملى عليهم غير الصواب ، فقال ابن أخيه القاضي عبد الله : أحسن الله عزاءكم في الشيخ ، فأنه ميت ، فمات في اليوم الثاني .

وكان المختار بن بطلان إذ ذاك في المعرة ، فحدثه بعض الطلبة أن أبا العلاء قد أملى عليهم شيئاً فغلط فيه ، فتنبأ ابن بطلان بأن ذبالته قاربت الذبول ، لأن من كان مثله في قوة العقل والذكاء لا يدركه الخطأ فيما يملي إلا إذا اضطربت قواه وفسد مزاجه . ولم يبين لنا أحد ما الذي أملاه وغلط فيه وإنما روى ذلك المتأخر عن المتقدم ، على ما فيه من غموض وإبهام .

سبب موته

وقد اتفقت كلمة القوم على أنه مرض فمات ، إلا ابن المبارية [1] ، فإنه زعم أنه سم نفسه فمات لما أمر داعي الدعاة بإحضاره إلى حلب ، وقد تبين بطلان ذلك .

يوم وفاته

اختلفت كلمة القوم في يوم وفاته ، فقيل : ليلة الجمعة ، وقيل : يوم الجمعة ثاني ربيع الأول سنة ٤٤٩ هـ ، وقيل : في ثالثه ، وقيل : في الثاني عشر منه ، وقيل : في الثالث عشر منه .

مجموع عمره

قدمنا أنه ولد في ربيع الأول سنة ٣٦٣ هـ ، وذكرنا هنا أن وفاته في ربيع الأول سنة ٤٤٩ هـ مع الاختلاف في يومي الولادة والوفاة ، فيكون مجموع عمره ٨٦ سنة تقريبا .

---

(١) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٥٦ عن مرآة الزمان . وص ٣٢٧ عن عقد الجمان .

وصاياه

ذكر ابن خلكان ، والذهبي ، والبديعي وغيرهم (١) : أن أبا العلاء لما قارب الموت أوصى أن يكتب على قبره هذا البيت :

هٰذَا جَنَاهُ أَبِي عَلَيَّ وَمَا جَنَيْتُ عَلَى أَحَدْ

ورواه بعضهم :

هٰذا جَنَاةُ أَبي عَلَيَّ . . . .

بالتاء لا بالهاء ، والجَنَاة : ما يجنى من الشجر كالجَنَى ، أو واحدة الجنى . وقال (في نسمة السحر) : « إنه كان يقوله ويكرره في مرض موته » . ولم أر هذا البيت على قبره ، ولا أعرف أحداً ذكر أنه رآه عليه ، وهو غير موجود في شيءٍ من كتبه التي اطلعنا عليها فلعل من أوصاهم بكتبه لم ينجزوا وصيته .

وفي (أوج التحري) وغيره أن هذا البيت متعلق باعتقاد الحكماء ، فإنهم يقولون : « ايجاد الولد واخراجه الى هذا العالم جناية عليه لأنه يتعرض للحوادث والآفات » .

وقال في (الفصول والغايات ص ٧٩) : « أوصيكُمْ إنْ نفَعت الوَصَاة ، إذا أَشْفَيْتُ على موردِ جُرْهُم وعادٍ ، ألاّ يَلِجَ عليَّ آسٍ ، ولا يكثُر حولِيَ العُوَّاد ، ولا تبكيَنَّ عنديَ باكية ، ولا يُحسَّ نادِبي في النُدَّاب » .

---

(١) انظر الصفحات ١٥٦ ، ١٨٤ ، ٢٠٨ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٢٥ ، ٣٣٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٨ من تعريف القدماء بأبي العلاء

وله وصايا أخر يحض بها على أخذ سيره ، ومتابعته على آرائه ، وسيُذكر بعض منها في مواطنه .

قبر أبي العلاء

في المعرة مسجد ، يقال له مسجد أبي العلاء ، ومقام أبي العلاء ، وضريح أبي العلاء ، وهو في المحلة القبلية . وله باب صغير من الغرب ، يدخل منه الى ساحة ، ويقابل الباب المذكور غرفة صغيرة لها قبة ، وفي وسط الغرفة قبر أبي العلاء ، وطوله « ١٢٥ سانتيم » وعرضه « ٧٥ » وفوقه حجران قائمان مكتوب عليهما بالخط الكوفي ، وطول الحجر الذي عند رأسه متر واحد . وفي جنوبي هذه الغرفة غرفة ثانية تزيد في طولها عن الأولى نحو متر . وكلتا الغرفتين متجهتان إلى الغرب . وفي جنوبي الساحة مسجد فيه محراب يتجه بابه إلى الشمال . وفي شرقيه وشرقي الغرفتين ساحة فيها بئر ماء ، وبعض شجرات من التين والرمان . وكانت فيها قبور كثيرة ، فأخذ حجارتها جيران المسجد ، وجعلوها في عمائر دورهم ، وبقي فيها قبر طوله نحو مترين ، وارتفاع شاهدته نحو متر .

هذه خلاصة صفة المسجد التي كان عليها يوم هاجرت من المعرة سنة ١٣١٩ هـ ، ورأيته مراراً بعد ذلك على هذه الصفة . وأصل هذا المسجد ، ساحة من دور أهله بني سليمان . والغرفة التي فيها القبر ليس لها إلا باب يتجه إلى الغرب . وبناؤه حادث ، وقد زاره القفطي بعد الستمائة ، فرأى عليه خبّازى يابسة ، وهو على غاية من الاهمال . ثم زاره علاء الدين بن المظفر الوداعي سنة ٦٧٩ هـ فرآه قد دثر ولصق بالأرض ، وهذا يؤيد أن البناء الذي فوق القبر حادث ، وقد رأيته مراراً كما رآه القفطي والذهبي . وفي سنة ١٣٤٤ هـ الموافق سنة ١٩٢٥ ميلادية ، عزمت الحكومة السورية

على بناء ضريح لأبي العلاء، ثم وقفت عن العمل بسبب الثورة السورية، ثم أصدرت طوابع بريدية في سنة ١٣٥٣ هـ الموافق سنة ١٩٣٤ م نقش عليها اسم أبي العلاء، ثم هدمت المسجد. وفي سنة ١٣٥٨ هـ الموافق سنة ١٩٣٩ م وضع الحجر الأساسي من البناء المذكور، ثم تم بناؤه على شكله الحاضر بعد حين. أما الحجارة التي على قبره، وما عليها من كتابة، فقد بسطنا القول فيها وفي هذا القبر والمسجد الجديد في (تاريخ المعرة). على أن الحكومة هدمت بناءه الأخير وبنته على نمط أجمل مما قبله، وإن كان لا يرتضيه أبو العلاء والناس أيضاً.

ما فعل على قبره بعد موته

روى ياقوت (ج ١ ص ١٧١) [١] أن أبا العلاء لما مات أنشد على قبره أربعة وثمانون شاعراً مراثي. وفي تاريخ ابن الوردي [٢]: «قرىء على قبره سبعون مرثية». وقال غيره [٣]: «ختم على قبره في اسبوع واحد مائتا ختمة». وفي (أوج التحري [٤]): «اجتمع على قبره ثمانون شاعراً، وختموا في أسبوع واحد مائتي ختمة، وقرىء على قبره سبعون مرثية». والغالب على الظن أن أكثر من رثاه من أهل المعرة، ومن التنوخيين الذين كانوا يقرؤون عليه. فقد ذكر ناصر خسرو [٥] أنه كان في جميع أوقاته يحيط به مائتان من الطلاب.

---

(١) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب.

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٠٨ عن تتمة المختصر في أخبار البشر — لابن الوردي.

(٣) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء، الصفحات ٢٠٠، ٣١٤، ٣٤٠ عن تاريخ الاسلام — للذهبي، ولسان الميزان — لابن حجر، ومعاهد التنصيص — للعباسي.

(٤) أوج التحري — للبديعي — ص ٣٧ تحقيق الدكتور ابراهيم كيلاني.

(٥) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٦٣، عن سفرنامه — لناصر خسرو.

الذين رثوه

ذكرنا أن الذين رثوه على قبره أربعة وثمانون أو سبعون ، ولم يتبين لنا من رثاه بعد ذلك على غير قبره ، كما أننا لم نعلم بمن رثاه إلا نفراً يسيرا منهم : علي بن الهمام على قول ياقوت (١) ، وعلي بن همام على قول غيره (٢) وقد نقلوا عنه هذه الأبيات من قصيدة طويلة :

إِنْ كُنْتَ لَمْ تُرِقِ الدِّمَاءَ زَهَادَةً فَلَقَدْ أَرَقْتَ اليَوْمَ مِنْ عَيْنِي دَمَا
سَيَّرْتَ ذِكْرَكَ فِي البِلَادِ كَأَنَّهُ مِسْكٌ مَسَامِعُهَا تُضَمَّخُ أَو فَمَا (٣)
وَتَرَى الحَجِيجَ إِذَا أَرَادُوا لَيْلَةً ذِكْرَاكَ أَوجَبَ فِدْيَةً مَنْ أَحْرَمَا

يريد أن ذكرك طيب ، والطيب لا يحل للمحرم فإذا ذكرك وجبت عليه فدية . وقيل إنه أشار في البيت الأول إلى ما كان يعتقده ويتدين به من عدم الذبح . وقال البديعي (٤) : « قول تلميذه : لم ترق الدماء زهادة ،

---

(١) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، انظر تعريف القدماء ص ٧٧ .
(٢) رأيت في التنوخيين همام بن عامر جد بني المهذب ، وهذا توفي سنة ٢٣٤ هـ ، وهمام بن الفضل بن جعفر بن علي بن المهذب ، وهذا هو صاحب التاريخ ، وقد أدرك أبا العلاء ، وأظن أن عليا الذي رثى أبا العلاء هو ابن هذا وبنو المهذب ينتسبون إلى عدي بن الساطع التنوخي ، وبنو سليمان جد أبي العلاء ينتسبون إلى أسحم بن الساطع التنوخي (ج) .
(٣) في المعاهد وأوج التحري : « مسامعه يضمخ » وروي « مسامعه يعصر » وروي « مسك يضمخ منه سمعاً أو فما » . وفي ابن الوردي « مسامعة يضمخ . . » وهذه الأبيات رواها ياقوت في (معجم الأدباء) وصاحب (معاهد التنصيص) و (نكت الهميان) ، (الوفيات) و (اليافعي) و (أوج التحري) وغيرهم ، وكلهم قالوا علي بن همام . إلا ياقوت فإنه قال : ابن الهمام (ج) .
(٤) البديعي – أوج التحري عن حيثية أبي العلاء المعري ص ٣٧ تحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني .

لم يعط من المعنى ما قالوه ولو أراده لقال فلسفة . . . وقوله ، زهادة ، رد على من يقول : إن عدم إراقة الدماء مجاراة للبراهمة » .

ورثاه الأمير أبو الفتح الحسن بن عبد الله بن أحمد . . . بن أبي حصينة المعري . وبنو حصين ينتسبون الى أسحم بن الساطع التنوخي جد أبي العلاء . وكان أبو الفتح من الشعراء المجودين ولد قبل سنة ٣٩٠ هـ وتوفي سنة ٤٥٧ هـ وقد قيل : إن أبا العلاء جمع شعر الأمير هذا ، وشرح مواضع منه في ثلاث مجلدات . وهذا ما وقفنا عليه من رثائه لأبي العلاء (١) :

العِلْمُ بَعْدَ أبي العَلاءِ مُضَيَّعُ ... والأَرْضُ خالِيَةُ الجَوانِبِ بَلْقَعُ
أَوْدَى وَقَدْ مَلأَ البِلادَ غَرائباً ... تَسْرِي كما تَسْرِي النُّجومُ الطُّلَّعُ
ما كُنْتُ أعلمُ وَهْوَ يُودَعُ في الثَّرى ... أنَّ الثَّرى فِيهِ الكَواكِبُ تُودَعُ
جَبَلٌ ظَنَنْتُ وقَدْ تَزَعْزَعَ رُكْنُهُ ... أنَّ الجِبالَ الرَّاسِياتِ تُزَعْزَعُ
وَعَجِبْتُ أنْ تَسَعَ المَعَرَّةُ قَبْرَهُ ... وَيَضيقَ بَطْنُ الأرْضِ عَنْهُ الأوْسَعُ
لوْ فاضَتِ المُهَجاتُ يَوْمَ وَفاتِهِ ... مَا اسْتُكْثِرَتْ فِيهِ فَكَيْفَ الأدْمُعُ
تَتَصَرَّمُ الدُّنيا وتأْتي بَعْدَهُ ... أُمَمٌ وأنتَ بِمِثْلِهِ لا تَسْمَعُ
لا تَجْمَعِ المَالَ العَتِيدَ وَجُدْ بِهِ ... مِنْ قَبْلِ تَرْكِكَ كُلَّ شَيْءٍ تَجْمَعُ
وَإنْ اسْتَطَعْتَ فَسِرْ بِسِيرَةِ أَحْمَدَ ... تَأْمَنْ خَديعَةَ مَنْ يَغُرُّ (٢) وَيَخْدَعُ

(١) انظر أوج التحري للبديعي ص ٣٨ ـ تحقيق الدكتور ابراهيم كيلاني .
(٢) في معجم الأدباء « يضر »

رَفَضَ الحياةَ وَمَاتَ قَبْلَ مَمَاتِهِ   مُتَطَوِّعاً بِأَبَــرّ مَا يُتَطَوَّعُ
عَيْنٌ تُسَهَّدُ لِلعَفَافِ وِلِلتُّقَى   أَبَداً وقَلْبٌ لِلْمُهَيْمِنِ يَخْشَعُ
شِيَمٌ تُجَمِّلُهُ فَهُنَّ لِمَجْدِهِ   تَاجٌ وَلكِنْ بِالثَّنَاءِ يُرَصَّعُ
جَادَتْ ثَرَاكَ أَبَا العَلاءِ غَمَامَةٌ   كَنَدَى يَدَيْكَ ومُزْنَةٌ[1] لا تُقْلِعُ
مَا ضَيَّعَ البَاكِي عَلَيْكَ دُمُوعَهُ   إِنَّ الدُّمُوعَ عَلَى سِوَاكَ تُضَيَّعُ[2]
قَصَدَتْكَ طُلاّبُ العُلُومِ وَلا أَرَى   لِلْعِلْمِ بَاباً بَعْدَ بَابِكَ يُقْرَعُ
مَاتَ النُّهَى وتَعَطَّلَتْ أَسْبَابُهُ   وَقَضَى التَّأَدُّبُ والمَكَارِمُ أَجْمَعُ[3]

وهذه الأبيات رواهـا ياقوت في (معجم الأدباء) وابن الوردي في تاريخه [4] .

ورثاه أبو الرضا عبد الواحد بن الفرج بن نوت المعري المتوفى سنة ٤٨٠ هـ، هكذا ذكره صاحب (فصول الحكماء) وذكره العماد في (الخريدة) في رجال بني أبي حصين المعريين ، ونقله عن العماد صاحب (بدائع البدائه ص ١٧١) وذكر الصفدي في (نكت الهميان) اسمه

---

(١) في أوج التحري : « سرية » (ج) .
(٢) في معجم الأدباء : « إن البكاء على سواك مضيع » .
(٣) » » » : « وقضى العلا والعلم بعدك أجمع » .
(٤) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٠٩ ، عن تتمة المختصر في أخبـار البشر — لابن الوردي .

عبد الوهاب بن نوت المعري . . وذكر في الوافي اسمه عبد الواحد ، ولم أقف على شيء من مرثيته الا قوله (١) :

سُمرُ الرِّماحِ (٣) وبيضُ الهِندِ تشتَوِرُ في أخذِ ثأرِكَ والأقدارُ تعتذِرُ
والدَّهرُ فاقِدُ (٢) أهلِ العِلمِ قاطبةً كأنهُمْ بِكَ في ذَا القبرِ قدْ قُبِروا
فهلْ تُرى بِكَ دارُ العِلمِ عالِمةً أنْ قدْ تزعزعَ مِنها الرُّكنُ والحجَرُ
والعِلمُ بَعْدكَ غِمدٌ فاتَ مُنصلُهُ والفَهمُ بَعدَكَ قوسٌ مالَهُ وَتَرُ

كيف رؤي في النوم بعد موته

مات أبو العلاء ، وانقطع عمله في هذه الدنيا ، وكيد أعدائه وحساده حي لم يمت ، وافتراؤهم عليه لم ينقطع . وكان أذاهم في حياته مقتصراً على ما كان في اليقظة ، فتعدى ذلك إلى النوم . ومن طبيعة السخفاء أن أحدهم إذا عجز عن الدليل في اليقظة لجأ إلى المنام والأحلام ، فافترى ما شاء من زور ، وخلق ما شاء من إفك ، ورأى حوله كثيراً ممن يصدق ما يقول ، وإن كذبته العقول . وقد رؤي أبو العلاء في النوم على حالتين : إحداهما سيئة ، وهي السابقة على أختها في الزمن . والثانية حسنة ، وهي المتأخرة .

---

(١) انظر تعريف القدماء الصفحات ٢٨٤ ، ٢٩٦ .
(٢) ويروى : « العوالي » (ج) .
(٣) في بعض الروايات : « ناقد » (ج) .

الرؤيا السيئة

نقل القفطي ، والذهبي ، وسبط ابن الجوزي ، والعيني ، وصاحب (معاهد التنصيص) وغيرهم [١] عن غرس النعمة قال في كلامه على أبي العلاء : « أذكر عند ورود الخبر بموته ، وقد تذاكرنا إلحاده ، ومعنا غلام يعرف بأبي غالب بن نبهان ، من أهل الخير والعفة ، أو الفقه ، فلما كان من الغد ، حكى لنا ، قال : رأيت في منامي البارحة شيخاً ضريراً ، وعلى عاتقه أفعيان متدليان إلى فخذيه ، وكل منهما يرفع فمه إلى وجهه ، فيقطع منه لحماً يزدرده ، وهو يستغيث ، فقلت وقد هالني ما رأيت منه : مَنْ هذا ؟ فقيل لي هذا المعري الملحد ، فعجبنا من ذلك ، واستطرفناه ، حيث وقع عقب ما تفاوضناه من أمره » .

الرؤيا الحسنة

وقال القفطي في (إنباه الرواة) [٢] : « كنت في سنّ الصبا ، وذلك في حدود سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، أقدح في اعتقاد أبي العلاء ، لما أراه من ظواهر شعره ، وما ينشد له في محافل الطلب ، فرأيت ليلة في النوم ، كأنني قد حصلت في مسجد كبير ، في شرقيه صفة كبيرة ، وفي الصفة سلّ الحصر مفروش من غير نسج ، وعليه رجل مكفوف سمين ،

---

(١) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات : ٦٤ ، ١٩٦ ، ١٥٢ ، ٣٢٨ ، ٣٤٤ .

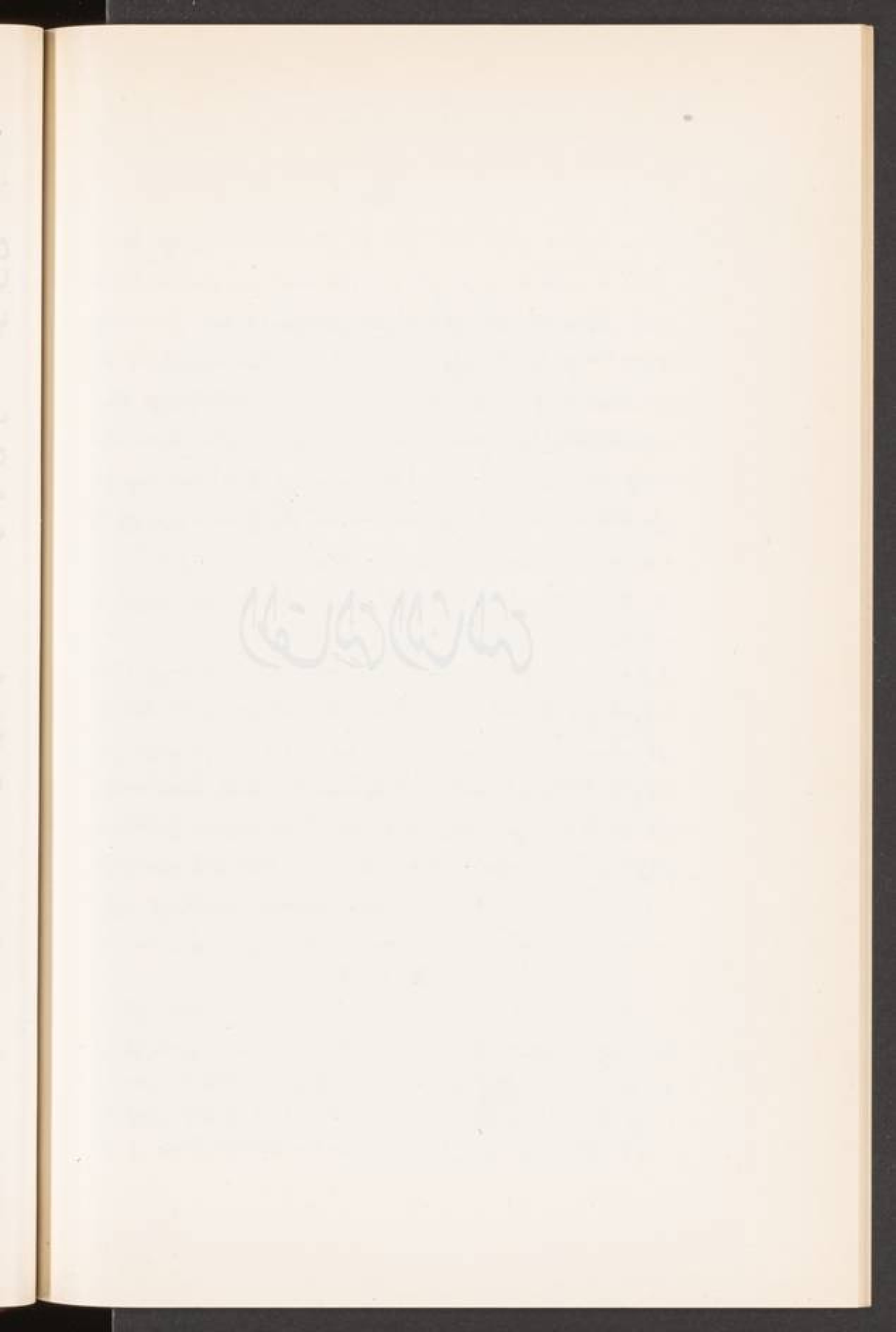
(٢) توهم صاحب (ذكرى أبي العلاء) فظن قائل هذا هو أبو عمرو عثمان الكرجي لتقدم ذكره في كلام القفطي ، والصواب ما ذكرناه ، لأن أبا عمرو توفي قبل ذلك التاريخ . والذي زار المعرة سنة ٦٠٥ هـ هو القفطي كما نقله الذهبي فتأمل (ج) . انظر تعريف ا... ص ٥٢ ، عن إنباه الرواة ــ للقفطي .

متوسط البياض ، ورأسه مائل إلى جهة كتفه الأيسر ، وهو مستقبل القبلة في جلسته ، وإلى جانبه طفل ، وكأنني فهمت أنه قائده ، وكأنني واقف أسفل الصفة ، ومعي ناس قليل ، ونحن ننظر إليه ، وهو يتكلم بكلام لم أفهم منه شيئاً . ثم قال في أثناء كلامه مخاطباً لي : ما الذي يحملك على الوقيعة في ديني ؟ وما يدريك لعل الله غفر لي ؟ فخجلت من قوله ، وسألت عنه من إلى جانبي ، فقال لي أحدهم : هذا أبو العلاء المعري . فابتسمت متعجباً للرؤيا ، واستغفرت الله لي وله ولم أعد إلى الكلام في حقه إلا بخير . ومرت على ذلك سنون ، فلما كان في سنة خمس وستمائة أرسلني من كنت في صحبته بحاب إلى القوم المقيمين في جبل بهراء [١] في حصونهم ، لإصلاح ما بينهم وبين أمير من أمراء الدولة ، يعرف بأحمد بن علي بن أحمد ، وكان قد خشي عاديتهم ، فلما عدت ، اجتزت بالمعرة ، فدخلت للصلاة في جامعها ، وعندما شاهدته رأيته قريباً مما رأيته في المنام ، فأذكرني من ذلك ما أنسيته على طول المدة . ونظرت فإذا الصفة إلى جانبه الشرقي ، وهي قريب مما رأيته ، وإذا فيها رجل عليه هيئة الرهبان ، وبيده قش يفتله ، فقصدته وسألته عما يفعله ، فقال : إن هذا الجامع إذا احتاج إلى حصر حصل له النواب هذا البردي ، وعلى رهبان الدير الذي أنا منهم عمل ذلك ، وقد آلت النوبة إلي ، فحضرت لذلك ، فعجبت من أمر الرؤيا . وقربها مما رأيته من الصحة بعد حين . . » .

★ ★ ★

(١) بهراء قبيلة من العرب يضاف إليها هذا الجبل ، قال الاصطخري : جبل اللكام داخل في بلاد الروم – ويظهر في بلد الإسلام بين مرعش والهارونية وعين زربة فيسمى اللكام إلى أن يجاوز اللاذقية . ثم يسمى جبل بهراء وتنوخ إلى حمص ، ثم يسمى إلى جبل لبنان ، ثم يمتد على الشام حتى ينتهي الى بحر القلزم (ج) .

المقالة الثالثة



شهرة أبي العلاء ومن أخذ عنه

اشتهر أبو العلاء ، منذ حداثة سنه ، بالنباهة والذكاء ، حتى بلغ جماعة من أعيان حلب ما لم يصدقوه من فطنته وعبقريته ، فقصدوه واختبروه ، فرأوا من حدة ذهنه وقوة قريحته فوق ما سمعوا ، فانصرفوا وهم معجبون بما رأوا منه .

ولم يكد يبلغ العشرين من عمره ، حتى ظهر نبوغه ، وأبرز من علمه وأدبه ما حدثنا به بقوله (١) :

وَإِنِّي وإِنْ كُنْتُ الأَخِيرَ زَمَانُهُ ... لَآتٍ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ الأَوَائِلُ

فملأ صيته الآفاق ، وذاعت شهرته في الأصقاع القاصية والدانية ، كما قال(٢) :

وَقَدْ سَارَ ذِكْرِي فِي البِلَادِ فَمَنْ لَهُمْ ... بِإِخْفَاءِ شَمْسٍ ضَوْؤُهَا مُتَكَامِلُ

وكانت المعرة في عهده مجازاً يصل ما بين حلب وما يليها إلى العراق والفرس والهند والترك ، بما بين دمشق وما يليها إلى أقصى جزيرة العرب ومصر والمغرب والأندلس . فكان الناس ينقلون أخباره ، ويروون أشعاره . كما كان كثير من العلماء والشعراء والأمراء يكاتبونه ويقارضونه الشعر ، ويعجمون عوده ، ويرجعون إليه في المعضلات العلمية ، والمشكلات الأدبية .

---

(١) شروح سقط الزند : ق٢س ٥٢٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٢٣ .

ولما ذهب إلى بغداد ، وكانت يومئذ ملتقى الشعوب والأمم ، وينبوع المدنية العربية ، اتصل بكثير من رجالها ، وحضر كثيراً من مجالسها العلمية ، وأبان في بعضها عن علم واسع وأدب جم ، وتثبّت في الرواية والحفظ ، وذكاء باهر ، فازدادت بذلك شهرته .

ثم لما عاد إلى المعرة ، قصده طلاب العلم من عرب وعجم ، وأقبل الناس عليه يأخذون عنه ، وكاتبه العلماء والوزراء وأهل الأقدار ، وأتاح الله له ألسنة حساده ، فانتشر بذلك فضله ، وازداد صيته ذيوعا ، حتى ضرب المثل بذكائه ونباهته ، قال ابن سعيد [1] في أبي بكر المخزومي وهما أندلسيان :

يا ثانيـــاً للمعرّي   في حُسْنِ نَظْمٍ ونَثْرِ

وسترى أن رجلا من الفرس ، والأندلس ، واليمن ، وغيرها من الأصقاع القاصية ، كانوا يؤمونه لدراسة ، أو رواية ، أو زيارة ، أو استرشاد ، أو شفاعة ونحو ذلك . وان جماعة مختلفين كانوا يكاتبونه نثراً ونظما ، طلباً للاستفادة من علمه ، أو الاشتهار بمكاتبته وإجابته . ولما نظم قصيدته الحائية [2] .

غَدَوْتُ مَرِيضَ العَقْلِ والدِّينِ فالقَنِي   . . . .

انتقلت إلى مصر بأسرع من لمح البصر ، واعترض عليــه داعي الدعاة من أجلها .

---

(١) البيت أول أبيات ثلاثة رواها المقري في نفح الطيب ١/١١٧ وتمامها :

وفرط ظرف ونبل   وغوص فهم وفكر
صل ثم واصل حفيّاً   بكل شكر وبرّ

(٢) اللزوميات ﻫ س ٨٤ ، وعجزه : « لتسمع أنباء الامور الصحائح »

تلاميذه

لم نوفق إلى الوقوف على أسماء جميع الذين قرؤوا على أبي العلاء ، ورووا عنه ، وهم كثير بلا شك ، وفيهم عدد عظيم من أهل المعرة ، من أقاربه وغيرهم . وقد ذكر ابن الوردي أنه « كان يملي على بضع عشرة محبرة (١) » . وقال الرحالة الفارسي في كلامه على أبي العلاء (٢) : « ولا يزال جماعة وافرة من الطلبة يقيمون ببابه ، ويقرؤون عليه كتب الشعر والأدب وهم أكثر من مائتي رجل » .

وسنذكر فيما يلي أسماء الذين عرفناهم من تلاميذه :

أسماء من أخذ عنه في المعرة .

أما الذين أخذوا أو رووا عنه في المعرة - وإن لم نعرف ما أخذوه على وجه التفصيل - فمنهم :

ابو المظفر إبراهيم بن أحمد بن الليث الأزدي .

وفي بعض النسخ « الأذري » ولعله نسبة إلى أذربيجان .

إبراهيم بن الحسن البليغ المعري ابن أخت الممتع .

إبراهيم بن علي بن إبراهيم الخطيب المعري (كاتب) .

وكان كاتباً حسن الخط ، متقناً في الضبط ، كتب معظم كتب المعري وتصانيفه بخطه ، وكتب عنه في السماع عليه ، والإجازة منه ، وقرأ عليه . وقد ذكر في جملة كُتّابه .

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٠٧ عن تتمة المختصر - لابن الوردي .

(٢) المصدر السابق ص ٤٦٣ عن سفر نامه - لناصر خسرو . مع اختلاف يسير في رواية الخبر .

القاضي أبو الفتح بن أحمد بن أبي الروس السروجي .

أبو سعد أحمد بن حماد المعري (راو) .

وهو الذي روى عنه (ملقى السبيل) وفي نسخة الأسكوريال : أحمد بن كمال .

أبو العباس أحمد بن خلف الممتع المعري .

ذكره ابن العديم [1] فيمن قرأ على أبي العلاء وروى عنه من أهل المعرة . وذكره أبو العلاء في (رسالة الغفران ص ١٧٤) [2] بقوله : « وسيدي الشيخ أبو العباس الممتع ، في السن ولد ، وفي المودة أخ ، وفي فضله جد وأب ... » .

أبو مالك أحمد بن الصنديد العراقي (شارح) .

قال ياقوت (ج ١ ص ١٥) [3] كان من أهل الأدب والشعر ، روى شعر المعري عنه . وله فيه شروح ، وله مع الحصري مناقضات ، دخل الأندلس ، وكان عند بني طاهر ، ومدح الرؤساء والأكابر .

أبو الفضل أحمد بن علي بن عبد اللطيف المعري المعروف بابن زريق .

قرأ على أبي العلاء ، وروى عنه سبعة أجزاء من حديث أخيه أبي الهيثم .

أبو اليقظان أحمد بن محمد بن حواري المعري .

أبو الخطاب أحمد بن أبي المغيرة الأندلسي .

---

(١) تعريف القدماء ص ٥١٨ عن الانصاف والتحري – لابن العديم .

(٢) الغفران تحقيق بنت الشاطيء ط ١ ص ٤٥٩ .

(٣) ارشاد الأريب الى معرفة الأديب .

أبو عثمان اسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني : المتوفى سنة ٤٤٩ هـ .

قال ياقوت (ج ٢ ص ٣٤٨)(١) أنه دخل المعرة ، فلقي أبا العلاء . وروى عنه الباخرزي في (دمية القصر ص ٥١)(٢) ثلاثة أبيات من (اللزوم) وثمانية عشر بيتاً من قصيدة :

يا ساهرَ البرقِ أيقِظْ راقدَ السمرِ (٣) . . . .

وقوله :

حيٍّ من أجل أهلهنّ الديارا (٤) . . . .

وهو أربعة أبيات . وقوله في وصف الشمعة :

وصَفراءَ لونَ التبرِ مثلي جليدة (٥) . . . .

وهو أربعة أبيات .

الشيخ الزاهد أبو سعد إسماعيل بن علي بن الحسين . الرازي السمان المتوفى سنة ٤٠٥ هـ .

---

(١) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٩ عن دمية القصر ، ومطلع الأبيات :
محمودنا الله والمسعود خالقه   فعد عن ذكر محمود ومسعود
وانظر اللزوميات ص ١١٠ .

(٣) شروح سقط الزند : ق ١ ص ١١٤ وعجزه : « لعل بالجزع أعواناً على السهر » . وهي قصيدة طويلة روى منها الباخرزي في الدمية ثمانية عشر بيتاً ، انظر تعريف القدماء ص ٩ — ١٠ .

(٤) وعجزه : « وابك هنداً لا النؤي والأحجارا » .
انظر شروح السقط ق ٢ ص ٦٥٢ .

(٥) عجزه : « على نوب الأيام والعيشة الضنك » . انظر شروح السقط ق ٤ ص ١٧٢٣ .

كان شيخ المعتزلة في الري ، وكان حافظاً رحّالا ، روى عن أبي العلاء ، وقرأ عليه بالمعرة ، وقد ذكرنا له حديثاً رواه ابن العديم في الإنصاف (١) .

جعفر بن أحمد بن صالح بن جعفر بن سليمان المعري .

قرأ على أبي العلاء ، وكتب الكثير عنه

أبو عبد الله الحسن بن ابراهيم بن محمد الحاجي .

وذكر الميمني (٢) (ص ٢٢١) ، ممن أخذ عنه .

الامير أبا الفتح الحسن بن عبد الله بن أبي حصينة المعري .

شاعر أسد الدولة ، وقد ولاه المعرة وتوفي حــدود سنة ٥٠٠ هـ . والصحيح أنه توفي سنة ٤٥٧ هـ ولم يتول المعرة ، وإنما مدح نصر بن صالح ابن مرداس فقال : تمن عليّ ! قال : أتمنى أن أكون أميراً . فجعله أميراً ، واستلم السجل بتأميره سنة ٤٥١ هـ من قبل المستنصر العلوي ، وكان وفد إليه رسولاً من قبل تاج الدولة ومدحه سنة ٤٣٧ هـ ، ثم مدحه سنة ٤٥٠هـ ، ولم أر من ذكر أنه أخذ عن أبي العلاء ، وإنما قال ابن العديم (٣) : إن أبا العلاء جمع شعر الأمير في ثلاث مجلدات ، وشرح مواضع منه كما سيأتي .

ابو محمد الحسن بن علي بن عمرو المعروف بقحف العلم .

قال ابن العديم في (ملقى السبيل) : «اخبرنا به أبو إسحاق إبراهيم بن عثمان

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٢٤ عن الانصاف والتحري ـ لابن العديم .

(٢) انظر (أبو العلاء وما اليه) .

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٤١ عن الإنصاف والتحري ـ لابن العديم .

السكامري (كذا) قال أخبرنا فحف العلم ، قال : أخبرنا أبو العلاء » . وقال الذهبي في (ميزان الاعتدال ج ١ ص ٢٤٦) : «الحسن بن علي ... كثير المحفوظ ، واعظ قصاص » . وقال ابن السمعاني : « لم يكن موثوقاً به ، وزعم أنه لقي أبا العلاء بن سليمان . ومات سنة ٥١٥ هـ » .

أبو الوليد الحسن بن محمد بن علي بن محمد الصوفي البلخي الدوبندي الحافظ المتوفى سنة ٤٥٦ هـ .

روى عنه ياقوت في (معجم الأدباء) أنه قال : أنشدني أبو العلاء التنوخي في داره عند وداعي إياه [١] :

كَمْ بَلْدَةٍ فارَقْتُها ومَعاشِرٍ   يَذْرُونَ مِنْ أَسَفٍ عَلَيَّ دُمُوعا

الأبيات . وستأتي . وذكر في (معجم البلدان) أنه كان يكنى قديماً بأبي قتادة ، وكان ممن رحل في طلب الحديث . وذكر ابن عساكر (ج ٤ ص ٢٤٧) ، أنه شيخ مشهور معروف من المشايخ الجوالين في طلب الحديث ، المكثرين منه ، طاف في الآفاق ، ودوخ البلاد والأطراف ، وحصّل الأسانيد والغرائب والحكايات ، ثم رجع إلى سمرقند ومات بها ، وفي (سقط الزند ج ٢ ص ١٢٦) أنه قال الأبيات المذكورة على لسان البلخي [٢] .

أبو إبراهيم الخليل بن عبد الجبار القزويني .

ذكره في (لسان الميزان) [٣] في جملة من أخذ عن أبي العلاء ، وروى

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٨٢ عن ارشاد الأريب — لياقوت .

(٢) في شروح السقط ق ٤ ص ١٧٢١ .

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣١٥ عن لسان الميزان — لابن حجر .

السلفي عنه حديثاً رواه عن أبي العلاء بالمعرة ، يرويه عن أصحاب خيثمة ابن سلمان القرشي الطرابلسي . وقال ابن العديم (١) : « الخليل بن عبد الجبار ابن عبد الله التميمي القرائي . . » . وهذا توفي سنة ٥١٠ هـ .

أبو الحسن رشأ بن نظيف بن ماشاء الله المقرىء .

وفي (مختصر ابن عساكر): المعري انتهت إليه الرآسة في قراءة ابن عامر . وكان ثقة وقرأ على جماعة من قراء العراق ومصر بعدة روايات ، وهو صاحب دار القرآن الرشئية التي كانت في دمشق ، شمالي السميساطية ولد نحو سنة ٣٧٠ هـ وتوفي سنة ٤٤٤ هـ وذكره ابن العديم (٢) فيمن قرأ على أبي العـــلاء .

أبو الربيع سليمان بن أحمد السرقسطي المتوفى سنة ٤٧٩ هـ عن ثمانين سنة .

نقل الذهبي وابن حجر في (اللسان ج ٣ ص ٧٥) عن أبي القاسم الأرجي عن هبة الله بن علي المقرىء قال : أنشدنا أبو الربيع السرقسطي ، أنشدنا أبو العلاء المعري لنفسه (٣) :

أَنَا صَائِمٌ طُولَ الحَياةِ وإِنَّمَا ⁂ فِطْرِي الحِمَامُ ويَوْمَ ذَاكَ أُعَيِّدُ

وأورد أربعة أبيات أخر .

القاضي أبو يعلى عبد الباقي بن أبي حصين عبد الله بن أبي القاسم المحسن بن عمرو بن سعيد التنوخي المعري .

كان عالماً جليلا وشاعراً مجيداً ، ولي قضاء المعرة ، وهو ابن خمس

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥١٨ عن الإنصاف والتحري — لابن العديم .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق ص ٣٧٨ — عن سر العالمين للغزالي .

وعشرين سنة ، ورأيت له كتاباً في القوافي في المكتبة الظاهرية في دمشق . يقول في خاتمته : « سألت الشيخ أبا العلاء ، ما تسمى القصيدة من الرجز تجتمع فيها القافية المتكاوسة ، والمتراكبة والمتداركة .. ؟ » .

أبو القاسم ، عبد الدائم بن مرزوق بن خير القيرواني [1]

نحوي قديم ، روى عنه (السقط) أخو ابن السيد البطليوسي أبو الحسن علي بن محمد وتوفي بطليطلة سنة ٤٧٢ هـ .

القاضي أبو سعد عبد الغالب بن أبي حصين عبد الله بن أبي القاسم السابق ذكره .

عبد الله بن أبي القاسم المحسن بن عمرو بن سعيد التنوخي .

أبو محمد عبد الله بن محمد بن حسنون بن بازل .

أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي .

القاضي أبو محمد عبد الله بن أبي المجد محمد أخي أبي العلاء .

ولد بالمعرة سنة ٣٩٧ هـ ، وكان أديباً شاعراً وله ديوان شعر ، ورسائل ، وولي القضاء في المعرة سنة ٤٤٣ هـ ، وروى عن أبيه أبي المجد محمد ، وعن عمه أبي العلاء ، وتولى خدمة عمه بنفسه ، وكان يكتب له تصانيفه ، ويكتب عنه بإذنه السماع والإجازة لمن يطلب ذلك من عمه . وكان يخدمه ويعلله في مرضه ، فقال فيه أبو العلاء : [2]

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٨٦ عن الفهرست – لابن خير الإشبيلي .

(٢) المصدر السابق الصفحات ٦٥ ، ٤٩٦ ، وانظر (أبو العلاء وما إليه) الميمني ص ١٢ في فائت شعر أبي العلاء .

وَقاضٍ لا يَنامُ الليلَ عَنّي   وَطُولُ نَهارِهِ بَيْنَ الخُصُومِ
يَكُونُ أَبَرَّ بِي مِنْ فَرْخِ نَسْرٍ   بِوالِدِهِ وأَلْطَفَ مِنْ حَمِيمِ
سَأَنْشُرُ شُكْرَهُ في يَوْمِ حَشْرٍ   أَجَلْ وَعلى الصِّراطِ المُستَقِيمِ

وقال فيه :

أَعَبْدَ اللهِ مَا أَسْدَى جَمِيلاً   نَظِيرَ جَمِيلِ فِعلِكَ غَيْرُ أُمِّي
سَقَتْنِي دَرَّهَا ودَعَتْ وَبَاتَتْ   تُعَوِّذُنِي وتَقْرأُ أَوْ تُسَمِّي
هَمَمْتَ بِأَنْ تُجَنِّبَنِي الرَّزَايَا   فَرُمْتَ وِقايَتِي مِنْ كُلِّ هَمِّ
كَأَنَّ اللهَ يُلْهِمُكَ اخْتِيارِي   فَتَفْعَلُهُ ولَمْ يَخْطُرْ بِوَهْمِي
حَمِدْتُكَ في الحَياةِ أَتَمَّ حَمْدٍ   وَأَيّامِي ذَمَمْتُ أَتَمَّ ذَمِّ
أَجَدَّكَ مَا تَرَكْتَ وأَنْتَ قاضٍ   تَعَهُّدَ مُقْعَدٍ أَعْمَى أَصَمِّ
جَزاكَ البَارِىءُ ابْنَ أَخٍ كَرِيمٍ   أَبَرَّ بِمُعْجِزٍ في بِرِّ عَمِّ

وتقدم قوله فيه لما أراد أن يسقيه السكنجبين . وتوفي عبد الله سنة ٤٦٥ ه . وقد ترجمته في (تاريخ المعرة) .

أبو المنصور عبد المحسن بن محمد بن علي الصوري البغدادي .

أبو المكارم عبد الوارث بن محمد الأسدي .

وقيل : ابن محمد بن عبد المنعم الأسدي المالكي الأبهري . روى السلفي جملة من الأشعار والأخبار عنه عن أبي العلاء وقد روى (السقط)

وكثيراً من غيره عن أبي العلاء ، قال السمعاني (١) : « تلمذ لأبي العلاء وقرأ عليه الأدب » . وروى أبو عبد الله الحسين بن عبد الملك الخلال بأصبهان قال : أنشدنا أبو العلاء المعري لنفسه :

غَيْرُ مُجْدٍ فِي مِلَّتِي وَاعْتِقَادِي (٢) . . .

وروى ابن العديم (٣) عن مزيد بن نبهان ابن أخ أبي المكارم الأبهري قال : « بقي عمي – يعني أبا المكارم – عند أبي العلاء أربع سنين يقرأ عليه ، وكان الحافظ يثني على أبي المكارم كثيرا . وقال أحمد بن محمد الأصبهاني الحافظ : هذان الإمامان – يعني أبا زكريا التبريزي وأبا المكارم الأبهري – من أجلاء من رأيته من أهل الادب والمتبحرين في علوم العرب ، وإلى أبي العلاء انتماؤهما ، وقد أقاما عنده برهة من الزمن للقراءة والأخذ عنه والاستفادة . وقد أدركت سواهما جماعة من أصحابه الناقلين عنه بمكة والعراق ، والجبل والشام ، وديار مصر ، وأنشدوني عنه ما أنشدهم وحدثهم . ومن جملتهم أبو ابراهيم الخليل بن عبد الجبار القرائي ، رأيته بقزوين ، وروى لي عنه حديثاً واحداً مسنداً يرويه عن أصحاب خيثمة ابن سليمان القرشي الطرابلسي » .

أبو القاسم عبيد الله بن علي بن عبد الله الرقي الأديب (٤) .

سكن بغداد وكان من العلماء بالنحو والأدب واللغة والفرائض وكان

---

(١) الأنساب .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٩٧١ وعجزه : « نوحُ باكٍ ولا ترنم شادِ » .

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٢٠ ، عن الإنصاف والتحري – لابن العديم . وقد اختصر المؤلف رواية النص .

(٤) البغية ٣٧٠ والأنساب ٢٧٥ (ج) .

صدوقا ، أخذ عن الربعي والمعري وله كتاب في القوافي وتوفي سنة ٤٥٠ هـ .

أبو عمرو السفاقسي عثمان بن أبي بكر بن حمود الصدفي .

رحل إلى المشرق بعد سنة ٤٢٠ هـ وعاد إلى الأندلس سنة ٤٣٦ هـ وروى عن أبي العلاء خطبة الفصيح .

أبو الخطاب العلاء بن عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن حزم الأندلسي المرني [١]

ويعرف بابن أبي المغيرة ، وفي ابن العديم [٢] : « أبو الخطاب العلاء بن حزم » .

أبو القاسم علي بن أحمد المقرىء الحلبي .

شيخ الإسلام أبو الحسن علي بن أحمد بن يوسف بن جعفر بن عرفة الهكاري الزاهد [٣]

من ولد عتبة ابن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية المتوفى سنة ٤٨٦ هـ . لقي أبا العلاء وسمع منه ، فلما انفصل عنه سأله بعض أصحابه عما رآه منه ، وعن عقيدته ، فقال : هو رجل من المسلمين . والهكارية قبيلة من الأكراد لهم معاقل وحصون وقرى من بلاد الموصل من جهتها الشرقية .

أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي هاشم المعري .

مستملي أبي العلاء ، ومتولي أوقاف جامع المعرة ، وفي نسخة من (العدل والتحري) علي بن عبيد الله . وكان من العدول الأمناء الفضلاء

---

(١) نفح الطيب ٢/١٢ ، والميمني ٢١٤ (ج) .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥١٨ عن الإنصاف — لابن العديم .

(٣) الوفيات ، لسان الميزان ١٤٣/٣ ، الإنصاف . (ج) .

لزم أبا العلاء ، وكتب كتبه بأمرها ، وكتب من المصنف الواحد عدة نسخ . وكان حسن الخط والإتقان والضبط ، وقد قال أبو العلاء في بعض كتبه أو في مقدمة فهرست كتبه : « لزمت مسكني منذ سنة أربعمائة ، واجتهدت أن أتوفر على تسبيح الله وتمجيده ، إلا أن أضطر إلى غير ذلك ، فأمليت أشياء ، وتولى نسخها الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي هاشم ، أحسن الله معونته ، فألزمني بذلك حقوقاً جمة ، وأيادي بيضاء ، لأنه أفنى فيّ زمنه ، ولم يأخذ عما صنع ثمنه » . وكتب أبو العلاء (رسالة الضبعين) إلى ثمال بن صالح ، وفيها يزكي بني أبي هاشم وسيأتي ذلك .

أبو الحسن علي بن غنائم الرخيمي الكفوطابي المعري .

القاضي أبو الحسن علي بن محمد أخي أبي العلاء .

ولد سنة ٤٠٥ هـ وكان فاضلا ، سمع على عمه أبي العلاء جميع أماليه ، ونسخها بخطه . وقد ولي قضاء المعرة وحماة ، وتوفي سنة ٤٥١ هـ .

أبو الحسين علي بن محمد بن عبد اللطيف المعري .

المعروف بابن زريق ، ووالد أحمد السابق ذكره .

أبو الحسن علي بن همام المعري .

وهو الذي رثى أبا العلاء بقوله المتقدم [1] :

إِنْ كُنْتَ لَمْ تُرِقِ الدِّمَاءَ زَهَادَةً ... فَلَقَدْ أَرَقْتَ اليَوْمَ مِنْ عَيْنِي دَمَا

أبو تمام غالب بن عيسى الأنصاري الأندلسي .

ذكره ابن حجر في (لسان الميزان ج ١ ص ٢٠٦) في جملة من

---

(١) انظر ما سبق ص ٤٤٦ .

روى عن المعري وذكر ابن الأبار في (التكملة) أنه روى عن المعري وروي عنه :

أَبَا العَــلاءِ بْنَ سُلَيْمَانَا عَمَاكَ قَدْ أَوْلاكَ إِحْسَانَا[1]
لَوْ أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ هٰذَا الوَرَى لَمْ يَرَ إِنْسَانُكَ إِنْسَانَا

وفي ابن العديم أبو الهمام غالب بن عيسى بن أبي يوسف الأنصاري ، وقد ترجمه ابن الأبار في التكملة .

القاضي أبو القاسم المحسن بن عمرو بن سعيد بن عمرو التنوخي .

وفي (الخريدة) المحسن بن عبد الله بن محمد بن عمرو بن سعيد أبو الطاهر محمد بن أحمد بن أبي الصقر الخطيب الأنباري المتوفى سنة ٤٧٦ هـ. قرأ عليه بالمعرة ، وقد ذكره في (لسان الميزان) وذكره السيوطي في (بغية الوعاة) وروى عنه حديثاً في ص ٤٥١ . رواه عن المعري قراءة عليه بالمعرة ، وذكره ابن العديم [2] فيمن روى عنه .

أبو الفرج محمد بن أحمد بن الحسن الكاتب الوزير . [3]

أبو الفرج محمد بن أحمد بن الحسن التبريزي [4]

القاضي أبو سعد محمد بن أحمد .

روى عن المعري فوائد كثيرة ، ووجد على حاشية نسخة من

---

(١) التكملة ٢/٦٩٩ وفيها : « إن العمى أولاك إحساناً » وانظر تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات ٤٠٨ ، ٤٦٥ .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥١٦ عن الانصاف والتحري .

(٣) ابن العديم . (ج)

(٤) ابن العديم . (ج)

(الجمهرة) يقول فيها : « قال لي الشيخ أبو العلاء » وقد ذكره القفطي في (إنباه الرواة) .

أبو الفضل الوزير محمد بن عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحوت ابن أسد بن الليث بن سليمان بن الأسود بن سفيـــان التميمي الدارمي البغدادي .[1]

خرج من بغداد سنة ٤٣٥ هـ رسولاً عن الخليفة القائم بأمر الله العباسي إلى صاحب إفريقية المعز بن باديس ، واجتمع بأبي العلاء في المعرة ، وأنشده قصيدة لامية ، يمدح بها صاحب حلب ، فقبل عينيه ، وقال له : لله أنت من ناظم ، ثم خرج من إفريقية إلى طليطلة ، وتوفي نحو سنة ٤٥٥ هـ وكانت ولادته سنة ٣٨٨ هـ . وهو من بيت علم وأدب . والظاهر أنه روى شيئاً عن أبي العلاء ، لأن أبا بكر بن الخير الأندلسي قال في (فهرست مروياته) : وحدثني بالسقط أيضاً عبد الملك بن محمد ابن هشـــام عن أبي محمد بن السيد البطليوسي عن أبي الفضل البغدادي عن المعري .

أبو اليمن محمد بن الخضر بن أبي مهزول الملقب بالسابق المعري .

وكان شاعراً مجيداً عالما باللغة حسن الخط ، وله رسالة سماها (تحفة الزمان) أو الندمان أتى فيها بكل معنى غريب ، وكل شعر مختار لأديب وتوفي بعد المائة الخامسة ، وتجد ترجمته في (الفوات) و (بغية الطلب) و (ابن عساكر) و (الشذرات) و (بدائع البدائه) وقد استوفينا ترجمته في (تاريخ المعرة) وعدّه ابن العديم فيمن قرأ عن أبي العلاء من أهل بلده .

---

(١) نفح الطيب ١٠٣/٢ ، ابن العديم ، الميمني ٢١٢ . (ج)

أبو النصر محمد بن محمد بن أحمد بن همهاه الراشي النيسابوري النحوي المتوفى سنة ٤٨٩ هـ .

قال ياقوت (ج ٧ ص ١٠٠) أنه أخذ الأدب عن أبي العلاء ، وفي ابن العديم : ابن هتمهاه وفي (بغية الوعاة ص ١٠٠) ابن ممهاه [1] .

أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الأصبهاني .

وكان عالماً فاضلاً ، قصد المعرة ولازم أبا العلاء مدة حياته ، يقرأ عليه . وروى عنه كتبا متعددة من تصانيفه ، وسأله أن يشرح له (سقط الزند) فشرحه له ، وسماه (ضوء السقط) وفي ابن العديم : روى عن أبي العلاء ، وعن أبي صالح محمد بن المهذب المعري وتوفي سنة ٤٩٦ هـ وسيأتي ذكره في الكلام على (ضوء السقط) وفي أقوال العلماء في المعري ، والظاهر أنه قدم المعرة نحو سنة ٤٤٧ هـ كما سيأتي .

الشيخ أبو صالح محمد بن المهذب بن علي بن المهذب المعري .

ابن عمة أبي العلاء وكان عالماً فاضلاً محدثاً شاعراً ، حدث بالكثير عن أبي العلاء .

أبو الفضل بن صالح المعري .

ذكره ابن العديم فيمن أخذ عن أبي العلاء وقرأ عليه .

نصر بن صدقة القابسي الأندلسي النحوي أبو عبد الله .

كما في (بغية الوعاة ص ٤٠٣) وفي ابن العديم : « أبو القاسم نصر ... » كان أديباً فقدم مصر ، وأخذ عن أدبائها وعلمائها ، ثم توجه الى المعرة ، فلازم أبا العلاء ، وأخذ عنه ديوانه (سقط الزند) وكتب منه نسخة

(١) انظر السمعاني ص ٢٤٤ ، والمنتظم في وفيات سنة ٤٨٩ هـ .

جيدة ، ورجع إلى مصر ، فقدمها للحاكم ، فقرىء عليه فأعجبه نظمه ، وأرسل إلى عزيز الدولة الوالي بحلب أن يحمله إلى مصر ، فاعتذر فكف عنه .

القاضي أبو الفضل هبة الله بن أحمد بن يحيى بن زهير .

قال في (معجم الأدباء ج ٦ ص ٢٠) : « ولعله لقي أبا العلاء المعري وقرأ عليه شيئاً » وهو من أجداد كمال الدين بن العديم الحلبي ، وذكره ابن العديم فيمن قرأ على أبي العلاء وروى عنه .

أبو غالب همام بن الفضل بن جعفر بن علي بن المهذب المعري المؤرخ .

وقد سبق ذكره ، وذكره ابن العديم فيمن قرأ على المعري .

أبو الحسن يحيى بن علي بن محمد بن عبداللطيف المعروف بابن زريق المعري .

اجتمع بأبي العلاء صغيراً ، وسمع منه بيتين من شعره ، وله تاريخ على ترتيب السنين ، قيل إنه ولد سنة ٤٤٢ ﻫ وفي (كشف الظنون) سنة ٤٢٢ ﻫ .

أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد بن الحسن بن بسطام الشيباني التبريزي .

المعروف بالخطيب وقيل : هذا وهم بل هو ابن الخطيب ولد سنة ٤٢١ هجرية . وقرأ على جماعة كثيرين ، حتى كانت له معرفة تامة بالأدب والنحو واللغة . ومنهم أبو العلاء وكان سبب توجهه إليه أنه حصلت له نسخة من كتاب (التهذيب في اللغة) تأليف أبي منصور الأزهري ، وأراد تحقيق ما فيها وأخذها عن رجل عالم باللغة ، فدل على أبي العلاء ، فحمل الكتاب في مخلاة على كتفه من تبريز الى المعرة ، إذ لم يكن له ما يستأجر به مركوباً . فنفذ العرق من ظهره اليها فأثر فيها البلل ، وذكره في (البغية ص ١٣٦) فيمن قرأ على أبي العلاء في بغداد ، وهو خطأ لأنه ولد بعد رجوع أبي العلاء منها بنحو ٢١ سنة ، وقرأ على أبي العلاء شيئاً من كتب اللغة ، وشيئاً

من تصانيفه ، وكان يحثه على الاشتغال بغير (السقط) من كتبه ، وكان يقول : أفضل من رأيته بمن قرأت عليه أبو العلاء ، ولما قرأ عليه (إصلاح المنطق) طالبه بسنده متصلاً فقال له : إن أردت الدراية فخذه عني ولا تتعد ، وإن قصدت الرواية فعليك بما عند غيري . وله كتب كثيرة منها (شرح الحماسة) وهي طافحة بأقوال أبي العلاء ، وآرائه ، وتخريجه في اللغة ، ومنها (شرح سقط الزند) و (شرح ديوان المتنبي) و (القصائد العشر) و (المفضليات) وله (تهذيب غريب الحديث) و (إصلاح المنطق) و (مقدمات في النحو) و (الملخص في إعراب القرآن) و (الكافي في العروض والقوافي) وغيرها .

وقد أقام بالمعرة يقرأ عليه أكثر من سنتين في قول ابن العديم . وقد تقدم عن القفطي أنه قال : قال الخطيب التبريزي : قرأت كتاب (غريب الحديث) لأبي عبيد سنة ٤٤٥ هـ على أبي العلاء ؛ ولم أر من العلماء من ذكر في أية سنة قدم التبريزي على أبي العلاء ، وفي أية سنة فارقه ، ولكن قالوا إنه قرأ عليه (غريب الحديث) سنة ٤٤٥ هـ وأنه أقام عنده أكثر من سنتين . وأنه قرأ على أبي القاسم التنوخي وهذا توفي سنة ٤٤٧ هـ ويفهم من مجموع هذه الأقوال وأشباهها أنه فارق المعرة نحو سنة ٤٤٦ هـ وأقام فيها نحو ثلاث سنوات قبلها .

أبو الحسن يحيى بن محمد الوازي .

قال القفطي (١) قصد : أبا العلاء : من الطلبة رجل أعجمي يعرف بالكرداني وكتب عنه فيما كتب (ذكرى حبيب) فتقدم أبو العلاء الى بعض نسابه بما كتبه له على الكتاب المذكور وهو :

« قال أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي من أهل معرة النعمان :

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٧ عن إنباه الرواة — للقفطي .

قرأ علي هذا الجزء وهو الجزء الثـاني من الكتاب المعروف (بذكرى حبيب) الشيخ الفاضل أبو الحسن يحيى بن محمد الرازي ، أدام الله عزه من أول الجزء الى آخره ووقع الاجتهـاد مني في تصحيح النسخة ، وكان ابتداؤه بقراءته لسبع بقين من شعبان سنة ست وأربعين وأربعمائة ، وفرغ من قراءته لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة سبع وأربعين وأربعمائة ، وأجزت له أن يرويه عني على حسب ما قرأه ، ويشهد الله أني معتذرالى هـذا القارىء من تقصيري فيما هو عليّ مفترض من حقوقه ، والاعتراف بالمعجزة تمنع من اللائمة المنجزة .

وكتب جابر بن زيد بن عبدالواحد بن عبدالله بن سليمان بإذن أحمد بن عبدالله ابن سليمان [المعري] في المحرم سنة ثمان وأربعين وأربعمائة . »

أبو الفتح بن أحمد السروجي أخو القاضي أبي المهذب عبد المنعم .

وسيأتي أنه دخل عليه فوجده يبكي .

أبو عبد الله بن جابر القوطي .

روى عن أبي العلاء شعره ذكره ابن الأبّار في التكملة .



الذين كاتبوه نثراً

الذين كاتبوا أبا العلاء ودارت بينه وبينهم رسائل نثرية كثيرون منهم :

التكتي أبو الحسين أحمد بن عثمان البصري .

وهذا كتب رسالة (١) لأبي العلاء ؛ فقصر كنيته ، وبدل اسمه ، فأجابه برسالة انتقد فيها ذلك ، كما سيأتي ، ويتبين من فحوى هذه الرسالة أن أبا العلاء كان يعرفه من قبل ، وأنها كتبت بعد أن حبس نفسه في البيت ، وأن له صديقاً يقال له أبو القاسم المبارك بن عبد العزيز حدث أبا العلاء عن ابن خالويه .

أبو القاسم الوزير المغربي الحسين بن علي المتوفى سنة ٤١٨ هـ .

والظاهر من كلام أبي العلاء في (رسالة المنيح) (٢) أن أبا القاسم زار المعرة وهو صغير قبل أن يلي الوزارة ، ثم ذهب مع أبيه الى مصر ، فكتب منها رسالة إلى أبي العلاء ، وأرسل معها قصيدتين ، ميمية وواوية ، ثم أرسل إليه كتاب (مختصر إصلاح المنطق) فأجابه أبو العلاء عن الأولى برسالته المعروفة (برسالة المنيح) وهذا كله قبل أن يصير وزيراً ، لأنه ولد سنة ٣٧٠ هـ وقتل الحاكم أباه سنة ٤٠٠ هـ وذهب أبو القاسم الى الرملة ، فالحجاز ، فالعراق هارباً من الحاكم ، وأقام في بغداد حيناً ، ثم ذهب الى الموصل ، ثم وزر في بغداد سنة ٤١٥ هـ لمشرف الدولة البويهي ، ثم توجه إلى ديار بكر ، فوزر لسلطانها .

وقد مدح أبو العلاء في (رسالة المنيح) كتاب الوزير وأثنى على براعته وبلاغته ، وأشار الى الكتاب والقصيدتين ، وأثنى على والده ، الى غير ذلك مما يدل على أن كتاب أبي القاسم كان إلى أبي العلاء من مصر ، وأن ذلك كان قبل سنة ٤٠٠ هـ . وأما (رسالة الإغريض) فقد أرسل أبو القاسم إلى أبي العلاء كتاب (مختصر إصلاح المنطق) مع رجل يقال

---

(١) أنظر الرسالة في (رسائل أبي العلاء) ص ١٠٥ ـ لشاهين عطية .

(٢) رسائل أبي العلاء ص ٥ ـ لشاهين عطية .

له مومى ، وكتابا مع آخر يقال له الزهيري ، فمدحه أبو العلاء ، ومدح أباه ، وتكلم في (مختصر إصلاح المنطق) وشواهده ، واعتذر عن عدم مكاتبته أباه . وذكر أنه علم أن رسالته الأولى (المنيح) وصلت إلى أبي القاسم ، الى غير ذلك مما يدل على أن الرسالة والمختصر والكتابين وردت من مصر قبل سنة ٤٠٠ هـ ، ولما مات أبو القاسم رثاه أبو العلاء بأبيات في لزوم ما لا يلزم أولها : (١)

لَيْسَ يَبْقَى الضَّرْبُ الطَّوِيلُ عَلَى الدَّهْـ ـرِ وَلَا ذُو العَبَالَةِ الدِّرْحَايَهْ (٢)

أبو الحسن علي بن منصور بن طالب الحلبي الملقب بدوخلة والمعروف بابن القارح .

درس بحلب على ابن خالويه ، وسافر الى بغداد والموصل ، وأقام بمصر مأدب أبا القاسم المغربي ، وولدي الحسين بن جوهر القائد ، وأقام بالمعرة سنة على ما يشعر به قول أبي العلاء في (رسالة الغفران ص ١٩٢) : « كان حق الشيخ إذ أقام في معرة النعمان سنة ألا يسمع لي بذكر (٣) .. » كتب الى أبي العلاء رسالته المشهورة ، فأجابه عنها (برسالة الغفران) ونقل ياقوت أنه ولد سنة ٣٥١ هـ ، وفي (رسالة الغفران ص ١٤٩) : « ولا يجوز أن يخبر مخبر ، منذ مائة سنة ، أن أمير حلب ، حرسها الله ، في سنة أربع وعشرين وأربعمائة ، اسمه فلان ابن فلان ، وصفته كذا ، فإن ادعى ذلك مدع ، فإنما هو متخرص كاذب (٤) » اهـ .

وترجمته في (البغية ص ٣٥٥) و (ياقوت٥/٤٢٤ (٥)) ويمكن أن تكون هذه السنة هي التي كتب فيها (رسالة الغفران) بل هذا الظاهر من كلامه .

---

(١) اللزوميات هـ ص ٣٤٦

(٢) العبالة : الغلظ ، والدرحاية : القصير .

(٣) انظر الغفران تحقيق بنت الشاطئ ط ١ ص ٥١٥ ، وفيها : « إذا أقام » .

(٤) المصدر السابق ص ٣٨٧ .

(٥) إرشاد الأريب الى معرفة الأديب .

أبو الحسن محمد بن سعيد بن سنان .

كان بينه وبين أبي العلاء تزاور وتحاور ، كتب اليه كتابا في أمر اختصـــار (كليلة ودمنة) وأجابه أبو العلاء برسالة ذكر بعضها في (رسائله ص ٢٢١) [١] وفيهـــا يقول : « وأحسبه أدام الله قدرته يحسبني على ما يعهد من القوة والصبر ، ولست كذلك .. » .

موجّى بن كوثر المقرىء النحوي المؤدب أبو القاسم .

قال ياقوت : نحوي مقيم بحلب له (المفيد) في النحو وكتاب في الضاد والظاء ، وبينه وبين أبي العلاء مكاتبة [٢] .

داعي الدعاة أبو نصر هبة الله بن موسى بن أبي عمران .

اشتهر أن أبا العلاء يمتنع عن أكل الحيوان ، ويحض على تركه ، واجتنـــاب ما تولد منه ، فاتخذ ذلك حساده وخصومه وسيلة للطعن في دينه ، وقالوا إنه يدين بدين البراهمة ، فلما قال قصيدته التي مطلعها : [٣]

غَدَوْتَ مَرِيضَ العَقْلِ والدِّينِ فالقَنِي   لِتُخْبَرَ أنباءَ الامُورِ الصَّحائحِ

كتب اليه داعي الدعاة أبو نصر المذكور كتابا ، يذكر فيه أنه مريض بهذا المرض ، وقد أتاه مستشفيا ، ثم جرت بينهما مـــكاتبات في هذا الموضوع ، والظاهر أن داعي الدعـــاة كتب اليه ذلك ، وهو في بلاد الشام ، لأنه يقول في بعض أجوبته : [٤] « فلما رمت بي المرامي إلى

---

(١) انظر الرسائل شرح شاهين عطية .
(٢) البغية ٣٩٠ (ج)
(٣) اللزوميات هـ س ٨٤ وفيها : « لتسمع » .
(٤) تعريف القدماء بأبي العلاء س ١٣٤ عن إرشاد الأريب ـ لياقوت .

الشام ، وسمعت أن الشيخ يفضّل في الأدب والعلم .. فقصدته قصد موسى للطور اقتبس منه نارا .. » .

وقد نقل ياقوت (ج ١ ص ١٩٤) عن ابن المبارية « أنه جرت بينهما مكاتبات كثيرة ، أمر في آخرها بإحضاره إلى حلب ، ووعده على الإسلام خيراً من بيت المـــال ، فلما علم أبو العلاء أنه يحمل للقتل أو الإسلام سم نفسه ومات » . ثم قال ياقوت : « لما وقفت على هذه القصة ، اشتهيت أن أقف على صورة ما دار بينهما على وجهه ، حتى ظفرت بمجلد لطيف وفيه عدة رسـائل من أبي نصر هبة الله بن موسى الى المعري في هذا المعنى ، انقطع الخطاب بينهما على المساكتة ، ولم يذكر فيها ما يدل على ما ذكره ابن المبارية من سم المعري نفسه ، ونقلها على الوجه يطول، فلخصت منها الغرض دون تفاصح المعري وتشدقه » ثم أورد ثلاث رسائل لداعي الدعاة ، ورسالتين لأبي العلاء يظهر أثر الحذف والمسخ فيها .

وقـــال ابن حجر في (لسان الميزان ج ١ ص ٢٠٧) : « وقد طالعت ما دار بينهما - المعري وداعي الدعاة - واستندت منه فيما يتعلق بترجمة المعري ، أنه ذكر عن نفسه ، قال : قضي علي وأنا ابن أربــع لا أفرق بين البازل والربع . قال ومسست [١] في آخر عمري بالإقعاد وحكم الله عليّ بالإزهاد ، فصرت من العوا [٢] في جهاد » . وقـال في جوابه عن ترك اللحم : « قالوا : إن كان ربنا لا يريد إلا الخير ، فالشر لايخلو من أمرين : إما أن يكون علمه أو لا ، وعلى الأول فإن كان يريده فيجب أن ينسب الفعل إليه ، وإن كان بغير إرادته جـاز عليه

---

(١) في ياقوت : « ومنيت » (ج) .

(٢) وفيه : « من العدم » . (ج) .

ما لا يجوز على أصغر الأمراء [١] ، إلا أنه لايرضى أن يفعل في ولايته ما لا يريد . وهذه عقدة قد اجتهد المتكلمون في حلها ، فأعوزهم » .

ومن تأمل ما قاله ياقوت ، وما فعله من مسخ رسائل أبي العلاء ، وما قاله ابن حجر ، يتبين له الفرق بين المؤرخ العالم والمؤرخ الأديب .

ومن تأمل أجوبة أبي العلاء ، يلوح له من خلال كلماته ، أنه كان يستشعر الريبة والخوف من ملاينة داعي الدعاة وتعظيمه أمر المعري ، وأنه كان يكبح جماح قلمه ، فلا يسترسل في الجواب .

والذي يمكن فهمه من أجوبة أبي العلاء ، أنه كان يصوم الدهر منذ بلغ ثلاثين عاما ، وأنه ما أكل شيئاً من حيوان منذ خمس وأربعين سنة ، والذي حثه على ذلك أن غلته في السنة نيف وعشرون دينارا ، يعطي خادمه بعضها ، وأنه لايريد في رزقه زيادة ، وأنه لم تبق فيه بقية ، وعجز عن القيام في الصلاة ، والقعود إذا كان مضطجعا ، وقد عريت عظامه من اللحم .

وقد كاتب ابن عمران داعي الدعاة ، تاج الأمراء [٢] أن يجري له ما هو بلغة أمثاله من ألذ الطعام ، ويعيشه على أحسن صورة فأبى .

* * *

---

(١) في ياقوت : « ما لا يجوز على أمير مثله في الأرض » . (ج) .

(٢) ذكر ياقوت ج ١ ص ١٨٨ أن أبا العلاء عمل كتاب (اللامع العزيزي) في تفسير شعر المتنبي للامير عزيز الدولة وغرسها ابن تاج الأمراء أبي الدوام ثابت بن ثمال بن صالح بن مرداس ثم قال : ويقال له (اللامع العزيزي) . وقال ابن العديم : عمله للامير عزيز الدولة أبي الدوام ثابت بن ثمال ... ويقال له (الثابت العزيزي) .

وقال الميمني ص ٢٣٤ وصنع أبو العلاء لحفيده وسماه الأمير عزيز الدولة وغرسها ابن تاج الأمراء أبي الدوام ثابت بن ثمال كتابه اللامع العزيزي في تفسير شعر المتنبي ويسمى (معجز أحمد) أيضاً وعزا ذلك الى ياقوت ، وأعاد نحو ذلك في ص ٢٧٤ ، —

الذين كاتبوه نظماً :

وأما الذين كاتبوه نظماً فكثيرون منهم :

الشريف أبو ابراهيم محمد بن أحمد العلوي .

مدح أبا العلاء بقصيدة أولها : (١)

غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ وِصَالُ الغَوَانِي بَعْدَ سِتِّينَ حِجَّةٍ وثَمَانِ

وفيها يقول :

كُلُّ عِلْمٍ مُفَرَّقٍ في البَرَايا جَمَعَتْـــهُ مَعَرَّةُ النُّعْمانِ

فأجابه أبو العلاء بقصيدته وهي (في السقط ج ١ ص ٩٠) (١) :

عَلِّلاني فَإِنَّ بِيضَ الأَمَاني فَنِيَتْ والزَّمانُ لَيْسَ بِفانِ

ـــ وقال في ص ٢٤٦ : وهذا التاج هو أبو الدوام ثابت بن ثمال بن صالح بن مرداس الذي عمل لابنه عزيز الدولة وغرسها صاحبنا (اللامع العزيزي) ... فقد توهم أن تاج الأمراء لقب لثابت بن ثمال ، وعبارة ياقوت قد توهم ذلك ، وقد ذكر ابن العديم في الكلام على حرمته عند الملوك .. أن داعي الدعاة كتب الى تـــاج الأمراء ثمال بن صالح ، وكان إذ ذاك نائبا عن العبيديين بحلب وبمعرة النعمان . وفي كتاب داعي الدعاة : وقد كاتبت مولاي تاج الأمراء . وقد ذكره أبو العلاء في جوابه ، فألحق ما ذكره ابن العديم ، لأن أبا الدوام لم يكن نائبا للعبيديين ، وكانت ولاية ثمال من سنة ٣٣٤ هـ الى سنة ٣٤٩ هـ وهذا يدل على أن هذه المكاتبة في آخر حياة المعري ، وذكر ابن قاضي شهبة في (طبقات النحاة واللغويين) أن الخطاب بين المعري وداعي الدعاة انقطع على المـــاكتة . وذكر ياقوت (ج ٦ ص ٣٥٨) أن أبا العلاء وجه الرسالة ١٩ الى أبي منصور محمد بن أحمد بن طاهر بن حمد المولود سنة ٤١٧ هـ ـ ٤١٨ هـ والمتوفى سنة ٥١٠ هـ والخازن لدار الكتب القديمة **(ج)** .

(١) انظر شروح السقط ق ١ ص ٤٢٥

ومَدَحه أبو إبراهيم بقصيدة مطلعها : (١)

بِعَادُكَ أسهَرَ الجفْنَ القَرِيحَا ودَارُكَ لا تَنِي إلا نُزُوحَا

فأجابه بقصيدة مطلعها (ج ١ ص ٥٦) (٢) :

ألاحَ وَقَدْ رأى بَرقاً مُلِيحاً سَرَى فأتَى الحِمَى نِضواً طَلِيحا

---

(١) شروح سقط الزند : ق ١ س ٢٣٧ .

(٢) ذكر صاحب التنوير في ج ١ ص ٥٦ و ص ٩٠ أنه قال : « علاني فان بيض .. » و « ألاح وقد رأى .. » يجيب بها الشريف أبا إبراهيم موسى ابن إسحق . فقد جعل المجاب والممدوح فيها واحداً وهو موسى بن إسحق وجعلها الميمني في (ص ١٦٥) أخوين أحدهما ابو ابراهيم محمد بن إسحق والثاني أخوه موسى .

وفي التبريزي والخوارزمي والبطليوسي : « قال يجيب الشريف أبا إبراهيم » وبعضهم زاد « العلوي » في القصيدتين ، فقد جعلوا المجاب والممدوح فيها واحداً .

وأبو العلاء بيّن في القصيدة الأولى أن كنيته أبو ابراهيم بقوله :

يا أبا ابراهيم قَصّر عنكَ الشعــر لما وُصفتَ بالقرآن

وأن اسمه محمد وأباه أحمد بقوله :

وافق اسم ابن أحمد اسم رسول الله لما توافق الفرضان

وسجايا محمد أعجزت في الوصف لطف الأفكار والأذهان

وبين في القصيدة الثانية أنه علوي بقوله :

وأرباب الجياد بنو عليّ . . . .

وأنه ابن أحمد بقوله :

ومعرفة ابن أحمد آمنتني . . . .

فقد جعل الرجلين ابن أحمد ، وما أظن إلا أنهما واحد ، على أن أبا العلاء ، قال في هذه القصيدة :

وأحمى العالمين ذمار مجد بنو إسحق إنْ مجدٌ أبيحا

وقال :

فلَوْ صحّ التناسخ كنتَ موسى وكان أبوك إسحق الذبيحا —

وقال البطليوسي في (شرح السقط ج ٢ ص ٢٥٠) : إن أبا العلاء مدح الشريف أبا إبراهيم العلوي بقصيدته التي مطلعها :

إِلَيْكَ تَنَاهى كُلُّ فَخْرٍ وسُؤْدُدِ   فَأَبْلِ اللّيالي والأَنامَ وجَدِّدِ

القاضي أبو الطيب الطبري ، طاهر بن عبد الله بن طاهر المتوفى سنة ٤٥٠ هـ .

كتب إلى أبي العلاء أبياتاً على روي اللام ألْغَزَ فيها بعد أن دخل بغداد ، ثم دارت بينهما محاورة ذكرناها في الكلام على بداهته .

أبو القاسم علي بن جلبان المعري .

مدح أبا العلاء بقصيدة فأجابه بقصيدة مطلعها [1] :

يَرُومُكَ والجَوْزَاءُ دُونَ مَرَامِهِ   عَدُوٌّ يَعِيبُ البَدْرَ عِنْدَ تَمَامِهِ

وفي (ضوء السقط) أن قول أبي العلاء [2] :

أَيَدْفَعُ مُعْجِزَاتِ الرُّسْلِ قَوْمٌ   وَفِيكَ وفي بَدِيهَتِكَ اعْتِبَارُ

— وإسحق ربما كان جداً للممدوح مثل علي ومحمد ، وقد قال صاحب (بحر الأنساب ص ٦٧) في نسب بني زهرة . وجمهور عقب اسحق المؤتمن ينتهي الى ابراهيم العالم الشاعر ممدوح أبي العلاء المعري وهو محمد الحراني بن أحمد الحجازي ، ولعل الأصل الى أبي ابراهيم العالم ..

ويجوز أن يكون قول أبي العلاء في القصيدة الأولى :

حلبا حجت المطي ولو أنـــــجمت عنها مالت الى حران

إشارة الى أن الممدوح حراني (ج) .

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٤٧٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٨١٠ .

إلى آخر الأبيات . أجاب به أبا القاسم بن جلبات ، وقد ذكرت ترجمة أبي القاسم في (تاريخ المعرة) .

أبو علي النهاوندي محمد بن حمد بن فورّجة

كتب إلى أبي العلاء قصيدة أولها (١) :

أَلا قَامَتْ تُجَاذِبُنِي عِنانِي وَتَسْأَلُني بِعَرْصَتِها مَقِيلا

فأجابه بقصيدة في (السقط ج ٢ ص ٨٠) (١) أولها :

كَفَى بِشُحُوبِ أَوْجُهِنا دَلِيلاً عَلَى إِزْماعِنا عَنْكَ الرَّحِيلاَ

أبو الخطاب الجبلي محمد بن علي المتوفى سنة ٤٣٩ هـ .

مدحه بقصيدة ، فأجابه بقصيدة في (السقط ج ١ ص ١٥٣) (٢) أولها :

أَشْفَقْتُ مِنْ عِبْءِ البَقَاءِ وَعَابِهِ وَمَلَلْتُ مِنْ أَرْيِ الزَّمانِ وَصَابِهِ

ومدحه بعض الشعراء بقصيدة قيل (إنه المفضل بن سعيد بن عمرو المعري)

فأجابه بقصيدة في (السقط ج ١ ص ١٤٢) منها قوله (٣) :

يَا لَلْمُفَضَّلِ تَكْسُونِي مَدائِحَهُ وَقَدْ خَلَعْتُ لِباسَ المَنْظَرِ الأَنِقِ

وفي (ضوء السقط) أنه يجيب بها بعض تلاميذه ، وقد زاد بيتا في أول القصيدة .

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٦٩ .

(٢) الأري : العسل ، والصاب : شجر مر ، مفردها صابة . الشروح ق ٢ ص ٧١٥ .

(٣) انظر الشروح ق ٢ ص ٦٧٣ .

ابن تميم البرقي .

كتب إلى المعري أبياتاً يعاتبه، لأنه لم يعده في مرضه، فأجابه بأبيات، منها قوله في (السقط ج ٢ ص ٩٨) :

أَمُعَاتِبِي فِي الهَجْرِ إِنْ جَارَيْتَنِي طَلْقَ الجِدَالِ وُجِدْتَ عَيْنَ الظَّالِمِ (١)

وفي (سقط الزند) كثير من الأبيات التي أجاب بها غيره، ولكن لم يتبين لنا من هو المجاب بها، ولعله أسقط أسماءهم كما أسقط بعض الأبيات من شعره كقوله في (السقط ج ٢ ص ٣٦) (٢) :

أوالي نعتِ الرّاحِ مِنْ شَغَفٍ بِها كَأَنَّكَ خالٌ لِلْمُدامَةِ أَوْ عَمُّ

فإنها جواب لشاعر عراقي، عن قصيدة نعت فيها الخمر وتغزل، وذكر مضض الغربة كما في (ضوء القند) .

* * *

الذين زاروه في المعرة

الذين زاروه في المعـرة كثيرون، ولكن من عرفناه منهم قليل، منهم :

الشيخ أبو سعيد الخوارزمي، أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن نمير المتوفى سنة ٤٤٨ هـ .

كان حافظاً متقناً للفقه، ولم يكن في عصره بعد أبي الطيب الطبري أفقه منه، تفقه على الشيخ أبي حامد الإسفرائيني، وقد زار أبا العلاء

(١) الشروح ق ٤ س ١٥١٦ .

(٢) انظر الشروح ق ٣ س ١١٥٠ . وفيها : « أملك » .

في المعرة في رمضان سنة ٣٩٨ هـ ، وكان يحمل كتابا من أبي الطيب الطبري إلى أبي العلاء ، فنهبه أهل البادية في جملة مانهبوه ، وكان أبو العلاء يعد العدة للسفر إلى بغداد كما تقدم (١) .

الوزير أبو نصر أحمد بن يوسف السليكي المنازي الكاتب المتوفى سنة ٤٣٧ هـ .

وزر لأبي نصر أحمد بن مروان ، صاحب ميافارقين وديار بكر ، واجتمع بأبي العلاء في معرة النعمان ، فشكا إليه حاله ، وأنه منقطع عن الناس وهم يؤذونه ، فقال : مالهم ذلك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة فقال أبو العلاء : والآخرة أيضاً ؟ ! وجعل يكررها ويتألم لذلك ، وأطرق ولم يكلمه إلى أن قام (٢) وقال غرس النعمة : « حدثني أبو نصر بن جهير ، حدثنا أبو نصر المنازي ، قال : اجتمعت بأبي العلاء ، فقلت ماهذا الذي يروي عنك ويحكي ؟ قال : حسدوني و كذبوا علي ، فقلت : على ماذا حسدوك ؟ فقد تركت لهم الدنيا والآخرة » .

ونقل الحافظ ابن سيد الناس اليعمري الأندلسي أن أبا نصر المنازي دخل على أبي العلاء في جماعة من أهل الأدب ، فأنشد كل واحد منهم من شعره ماتيسر ، فأنشده أبو نصر في وادي بطنان :

وَقَانَا لَفْحَةَ الرَّمْضَاءِ وَادٍ سَقَاهُ مُضَاعَفُ الغَيْثِ العَمِيمِ (٣)

---

(١) ترجمته في طبقات الشافعية (٣/٣٣) (ج) .

(٢) الوفيات ١/٥٥ (ج) .

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٥٩ ، ٤١٣ ، وأوج التحري ٣٧ تحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني ، ورواية العباس المكي في نزهة الجليس : « وقاه مضاعف النبت العميم »

إلى آخر الأبيات (١) فقال أبو العلاء : « أنت أشعر من بالشام » . ثم رحل إلى بغداد ، فدخل عليه المنازي في جماعة من أهل الأدب ببغداد ، وأبو العلاء لايعرف منهم أحداً ، فأنشد كل واحد ماحضره من شعره ، حتى جاءت نوبة المنازي فأنشد :

لَقَدْ عَرَضَ الحَمَامُ بِسَجْعٍ … إِذَا أَصْغَى لَهُ رَكْبٌ تَلَاحَى (٢)

إلى آخر الابيات ، فقال أبو العلاء : « ومن بالعراق » عطفا على قوله : من الشام . وفي (نسمة السحر) أن العرض الثاني وقع بالمعرة بعد نحو عشرة أعوام ، قال : « وكان الشعراء يعرضون عليه أشعارهم » .

وقال ابن العديم في (تاريخ حلب) : وبلغني أن المنازي عمل هذه الأبيات (الميمية) ليعرضها على أبي العلاء ، فلما وصل إليه أنشده الأبيات ، فجعل المنازي كلما أنشده المصراع الأول من كل بيت سبقه

---

(١) تكملتها :

نزلنا دوحة فحنا علينا … حنو الوالدات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالاً … ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا … فيحجبها ويأذن للنسيم
تروع حصاه حالية العذارى … فتلمس جانب العقد النظيم

(٢) وبعده :

شجا قلبَ الخلي فقال غنى … وبرّح بالشجي فقال ناحا

عزاها (الشريشي ج ١ ص ١٦٥) إلى ابن قاضي ميلة . وقد سبقه أبو العلاء إلى هذا المعنى بقوله :

بأرض للحمامة أن تغنى … بها ولمن تأسف أن ينوحا

أبو العلاء إلى المصراع الثاني الذي هو تمـام البيت كما نظمه ، ولما أنشده قوله :

نَزَلْنا دَوْحَةً فَحَنَا عَلَيْنَا . . . .

قال أبو العلاء :

. . . . حُنُوَّ الوَالِدَاتِ عَلَى الفَطِيمِ

فقال المنازي إنما قلت « على اليتيم » فقال أبو العلاء : « الفطيم أحسن » .

وقول المنازي : « تركت لهم الدنيا والآخرة » يدل على أن هذه الزيارة كانت بعد رجوع المعري من بغداد . وقولهم : « ثم رحل إلى بغداد فدخل عليه المنازي . . » يدل على أن زيارته التي أنشده فيها الأبيات الميمية كانت قبل ذلك ، وقول نسمة السحر : « إن عرض الأبيات الحائية كان في المعرة بعد عشر سنوات » ، يشعر بأن العرضين وقعا بعد رجوعه من بغداد ، ولم نجد نصاً يبين أن عرض الأبيات الميمية كان في الزيارة التي قال له فيها : « تركت لهم الدنيا والآخرة » أم في غيرها ، ولكن قولهم : « فأطرق ثم لم يكلمه إلى أن قام » بأن العرض كان في غير هذه الزيارة ؟ ولعلها كانت بعد العرضين أو قبلها .

وقال البديعي في (أوج التحري)[1] : « وروى عن أبي نصر أحمد ابن يوسف المنازي الكاتب وزير أبي نصر . . وكان من أعيان الفضلاء ، وأماثل الشعراء ، قال : اجتمعت بأبي العلاء المعري بمعرة النعمان ، وقلت : ما هذا الذي يروى عنك ويحكى ؟ فقال : حسدني قوم وكذبوا علي وأساءوا ، فقلت : على ماذا حسدوك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة ؟

---

(١) أوج التحري ص ٣٦ تحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني .

فقال : والآخرة أيضاً ! والآخرة أيضاً ! قلت : أي والله ثم قلت له : لم تمتنــع عن أكل اللحم ، وتلوم من يأكله ؟ فقال : رحمة للحيوان . قلت : لا ، بل تقول إنه من شره الناس ، فلعمري إنهم يجــدون ما يأكلون ويتجزّ ون به عن اللحم ، ويتعوضون ، فما تقول في السباع والجوارح التي خلقت لاغذاء لها غير لحوم الناس والبهائم والطيور ودمائها وعظامها ، ولا طعام تعتاض به عنهـا حتى لم يخلص من ذلك حشرات الأرض ، فإن كان الخالق لها الذي نقوله نحن ، فما أنت منه بخلقه أعلم ولا أحكم منه في تدبيره ، وإن كانت الطبائع المحدثة لذلك على مذهبك ، فما أنت بأحذق منها ، ولا أتقن صنعة ، ولا أحكم عملا حتى تعطلهـا ، ويكون رأيك وعقلك أوفى منها وأرجــح ، وأنت من إيجادها غير محسوس عندها فامسك (١) .

على أن المنازي هذا هو الذي مدح أبا العلاء بقوله :

لِلّهِ لُؤْلُؤُ أَلفَاظٍ تُسَاقِطُها ... لوْكُنَّ لِلْغِيدِمَا اسْتَأْنَسْنَ بِالعَطَلِ
وَمِنْ عُيُونِ مَعَانٍ لَوْ كُحِلْنَ بِها ... نُجْلُ العُيُونِ لأَغْنَاهاعَنِ الكَحَلِ
سِحْرٌ مِنَ اللَّفْظِ لوْدَارَتْ سُلاَفَتُهُ ... عَلَى الزَّمَانِ تَمَشَّى مِشْيَةَ الثَّمِلِ».

والأبيات الميمية قالها المنازي يصف واديا يقال إنه عند بُزَاعة ، ويقال له بُطْنَان ، فيه أنهار جارية ، وقرى متصلة كانت قصبتها بزاعة ،

---

(١) وفي كلام المنازي نظر وقياس مع الفارق ، فان كون السباع خلقت لا غذاء لها غير لحوم الإنسان والحيوان ، لا يوجب على الإنسان أن يأكل الحيوان ، ألا ترى أن السباع تقتل الإنسان وتجرحه ، وكون ذلك من طبيعتها لا يبيح قتل الإنسان للانسان ولا جرحه . وتبيين ما في كلامه كله من المغالطة يحتـــاج إلى تطويل لا يتسع له هذا المقام خشية السآمة . (ج)

وبالقرب منها بلدة يقال لها الباب ، ويعرف بباب بزاعة ، وقرية أخرى ويقال لها تاذف ، وقد ذكرها امرؤ القيس بقوله :

وَيَارُبَّ يَوْمٍ صَالِحٍ قَدْشَهِدْتُهُ   بِتَاذِفَ ذَاتِ التَّلِّ مِنْ فَوْقِ طَرْطَرَا

وطرطر : قرية في وادي بطنان ، يسمونهـا طَلْطَل . وقد مررت بطرف هذا الوادي سنة ١٣٥٠ ﻫ بطريقي إلى منبج ، وهو كثير المياه والأشجار بالنسبة إلى تلك الأصقاع . وإذا جاوز الإنسان قرية بزاعة بمقدار ربـع ساعة لا يرى شجراً ولا ماء حتى يصل الى منبج . ولعل المنازي قدم من هذه الطريق القاحلة ، فلفحته الشمس واشتد به العطش ، فلما وصل إلى هذا الوادي رأى تلك البقعة الخضراء قطعة من الجنة .

وقد نسب هذه الأبيات الميمية إلى المنازي ياقوت في (معجم البلدان) ، وأبو الفداء في (تاريخه) ، والعثماني في (معاهد التنصيص ص ١٢٤) وابن الوردي في (تاريخه) وابن حجة في (خزانة الأدب) وصاحب (شذرات الذهب) ، و (ثمرات الأوراق) وفي (عنـوان المرقصات) ، وابن الشحنة في (الدر المنتخب) وغيرهم . على اختلاف في الرواية ، ففي بعضها : « سقاه مضاعف الظل ... والنبت » وفي بعضها : « حنو المرضعات ... » .

وذكر في (نفح الطيب ج ٢ ص ٤٩١) أن هذه الأبيات لحمدة أو حمدونة بنت زياد المؤدب ، من وادي آش ، وأنها قالتها قبل أن يخرج المنازي من العدم إلى الوجود . ومن العجيب أن يتفق هذا الجمهور من المؤرخين والرواة على نسبتها إلى المنازي وهي ليست له .

أبو الوليد الحسن بن محمد البلخي الدربندي : وقد تقدم ذكره .

أبو يوسف عبد السلام بن محمد القزويني المعتزلي المتوفى سنة ٤٨٨ هـ .

قال ياقوت في (معجم الأدباء ج ١ ص ١٧١) : « قال القاضي أبو يوسف عبد السلام القزويني : قال لي المعري : لم أهج أحداً قط ، فقلت له صدقت إلا الأنبياء ، عليهم السلام ، فتغير وجهه » . وروى عنه في (ج ١ ص ١٧٢) أنه قال : قال لي ملحد المعرة : ما سمعت في أمر الحسين بن علي ، رضي الله عنها ، شيئاً يجب أن يحفظ ، فقلت له : قد قال سوادي من أهل بلادنا أبياتاً لا يقول مثلها تنوخ جدك الأكبر :

رَأْسُ ابْنِ بِنْتِ مُحَمَّدٍ وَوَصِيِّهِ ... لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى قَنَاةٍ يُرْفَعُ
وَالْمُسْلِمُونَ بِمَنْظَرٍ وَبِمَشْهَدٍ ... لا جَازِعٌ فِيهِمْ وَلَا مُتَفَجِّعُ (١)

إلى آخر الأبيات الخمسة ، وهي مذكورة في (ج ٩ ص ٢٦٦ من الكامل) لابن الاثير ، وكان عبد السلام هذا مولعاً بجمع الكتب ، وله تفسير كبير قيل إنه في سبعمائة مجلد كبار ، على قول السبكي في (طبقاته ج ٣ ص ٢٣٠) وثلاثمائة على قول ابن حجر ، منها سبعة في الفاتحة ، وقد قال في (لسان الميزان ج ٤ ص ١١) وله توسع في العلماء الذين يخالفونه ، وكان طويل اللسان تارة بعلم ، وتارة بسفه ، وطول لسانه مع أبي العلاء في هذا المقام من النوع الثاني .

---

(١) في تعريف القدماء ص ٧٩ : « بمنظر وبمشهد » وتكملة الأبيات :

كحلت بمنظرك العيون عماية ... وأصم رزؤك كل اذن تسمع
أيقظت أجفاناً وكنت لها كرى ... وأنمت عيناً لم تكن بك تهجع
ماروضة إلا تمنت أنها ... لك تربة ولخط قبرك مضجع

القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر

من ذرية مالك بن طوق التغلبي ، كان فقيها أديبا شاعراً له تصانيف كثيرة ، ضاقت يده في بغداد حتى قال لأهلها : لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة وعشية ، ما عدلت عن بلدكم لبلوغ أمنية ، ورحل في آخر عمره عن بغداد ، واجتاز بالمعرة ، فأضافه أبو العلاء ، ثم شخص إلى مصر وتوفي فيها سنة ٤٢٢ هـ . وقال في (التنوير ج ٢ ص ١٣٢) : « قال أبو العلاء يخاطب بعض الفقهاء وكان أبو العلاء قد بعث من القطيعة إليه قدراً من الدراهم ، وكتب إليه هذه الأبيات :

أَيَبْسُطُ عُذْرِي مُنْعِمٌ أَمْ يَخُصُّنِي ... بِمَا هُوَ حَظِّي مِنْ أَلِيمِ عِتَابِ ».

* * *

وفيها يقول :

فَيَا لَيْتَنِي أَهْدَيْتُ خَمْسِينَ حِجَّةً ... مَضَتْ لِي فِيهَا صِحَّتِي وشَبَابِي

وقُلْتُ لَهُ فَاتْرُكْ ثَلَاثِينَ أَسْوَداً ... مَتَى مَا تُكَشَّفْ تُلْفَ غَيْرَ لُبَابِ

وذكر بعضهم أن الدراهم ثلاثون . والقطيعة : محلة في بغداد ، كان أبو العلاء نزل بها وهذه الأبيات يجوز أن تكون في أبي المتوج مقلد بن نصر ، ولكن يشكل على ذلك إرسال الدراهم إليه ، ويجوز أن تكون في القاضي عبد الوهاب ، أرسلها إليه وهو في بغداد ، ولكن يشكل على هذا قوله : « فياليتني أهديت خمسين حجة .. » لأنه لم يبلغ هذه السن وهو في بغداد . ويشكل عليه أيضا قوله :

وَبَيْنَ يَدَيْهِ كَفْرُطَابُ وإِنْسُهَا ... يَعِيشُ لِفَقْدِ الماءِ عَيْشَ ضِبَابِ

إلا أنْ يريد أنّ كفرطــاب ماؤها قليل ، وهي في طريقه . والدراهم التي أرسلها إليه ، لا تكفيه إلا لشراء الماء للشراب والطهور ، كناية عن قلتها ، وكلام التبريزي في (ج ١ ص ٨٣) [١] يصرح بأن قوله : « فياليتني أهديت خمسين حجة ... » في القاضي عبد الوهاب المالكي .

وقد علمنا أن المعري ولد سنة ٣٦٣ هـ فيجب أن تكون هذه الأبيات قيلت في نحو سنة ٤١٣ هـ إلا أن يكون أبو العلاء ذكر الخمسين وسكت عما زاد لضرورة الشعر ، وزعم بعض المستشرقين أن القاضي عبد الوهاب اجتاز بالمعرة سنة ٤٢٠ هـ ، ويجوز أن يحتج لقوله هذا بقول أبي العلاء الآتي : « وألهى خاطري وسن عشرين حولا .. » لأنه عاد من بغداد سنة ٤٠٠ هـ ، وأبو العلاء ذكر هــذا القاضي في قصيدة أرسلها إلى أبي القاسم التنوخي بعد عودته من بغداد ، وهي في (السقط ج ٢ ص ١٣٩) [٢] وفيها يقول :

والمالكيّ ابْنُ نصرٍ زارَ في سَفرٍ بلادَنا فحَمِدْنا النَّأْيَ والسَّفرَا
إذَا تَفقَّهَ أحيا مَالِكاً جَدَلاً ويَنْشُرُ الملكَ الضِّليلَ إنْ شعَرَا

* * *

ثم قال فيها :

جَنَيْتُ ذَنْباً وألهى خَاطِري وسَنٌ عِشْرينَ حولاً فلَمَّا نبَّهَ اعْتَذَرَا

وذكر ابن عساكر في (تبيين كذب المفتري ص ٢٥٠): « أن عبد الوهاب خرج في آخر عمره إلى مصر فمات بها سنة ٤٢٢ هـ » وقال البطليوسي

---

(١) انظر شروح السقط ق ٤ ص ١٧٣٢ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٧٤٠ ومطلع القصيدة :

لولا مساعيك لم تعدد مساعينا ولم نسام بأحكام العلا مضرا

(ص ١٧٣٢)[1] : « إنه يخاطب بهذه الأبيات القاضي عبد الوهاب بن نصر ، وكان اجتاز بالمعرة ، فبعث إليه بثلاثين درهماً » وقال الخوارزمي : « كان أبو العلاء قد تلمذ عليه »[2] . وهذا يحتاج إلى دليل ، لأن أبا العلاء ما تلمذ على أحد بعد ما جاوز العشرين كما تقدم .

أبو الحسن علي بن عبد الواحد الفقيه البغدادي المعروف بصريع الدّلاء .

قتيل الغواني . أو الغواشي . ذي الرقاعتين . وقيل : اسمه علي بن عبد الرحمن . وقيل : اسمه محمد بن عبد الواحد القصار البصري ، قدم مصر سنة ٤١٢ ه . وتوفي فيها في تلك السنة ، وطلب من أبي العلاء شرابا ، وما يليق به ، فسير اليه قليلاً من النفقة ، واعتذر اليه بأبيات ، المذكور منها في (السقط ج ٢ ص ٣٤)[3] اثنا عشر بيتا أولها :

تَفَهَّمْ ياصَرِيعَ البَيْنِ بُشْرى ... أَتَتْ مِنْ مُسْتَقَلٍّ مُسْتَقِيلِ

دُعِيتَ بِصارِعٍ فَتَدارَكَتْهُ ... مُبالَغَةٌ فَرُدَّ إلى فَعِيلِ

* * *

وفيها يقول :

قَدِاسْتَحْيَيْتُ مِنْكَ فَلا تَكِلْني ... إلى شيْءٍ سِوَى عُذْرٍ جَمِيلِ

وَقَدْ أَنْفَذْتُ ماحَقِّي عَلَيْهِ ... قَبِيحُ الهَجْوِ أو شَتْمُ الرَّسُولِ

* * *

(١) انظر شروح السقط .

(٢) المصدر السابق .

(٣) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٤١

وآخرها :

فَإنْ يَكُ مَا بَعثْتُ بِهِ قَليلاً   فَلِي حالٌ أقلُّ مِنَ القَلِيلِ

وترجمته في (الوفيات) ، وفي (أبي الفداء) وابن الوردي .

أبو الحسن علي بن محمد التهامي .

سيأتي ذكره في الكلام على فراسته .

أبو محمد بن سندي القنسري .

روى ابنه القاضي أبو عبد الله محمد بن سندي القنسري ، قال : « حدثني أبي ، قال أتينا عند أبي العلاء المعري ، في الوقت الذي كان يملي فيه شعره المعروف (بلزوم ما لا يلزم) فأملى في ليلة واحدة ألفي بيت . نقل ذلك ابن العديم [١] عن (جنان الجنان) وسيأتي الكلام في قوله هذا .

أبو الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي .

وقد ذكرنا في ذكاء أبي العلاء أنه زاره في المعرة ، واستنشده ، فعرفه وحذّره الناس .

أبو الخطاب محمد بن علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي المعروف بالجَبُّلي المتوفى سنة ٤٣٩ هـ .

وجَبُّل : قرية بين النعمانية وواسط ، في الجانب الشرقي . كان شاعراً مجيداً ، وكان بينه وبين أبي العلاء المعري مشاعرة ، وفيه قال أبو العلاء قصيدته : [٢]

غَيرُ مُجْدٍ في مِلَّتي واعْتِقَادِي   نَوْحُ بَاكٍ ولا تَرَنُّمُ شَادِ

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٦٠ عن الإنصاف والتحري ـ لابن العديم .
(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ٩٧١ .

كذا زعم ياقوت في (معجم البلدان ج ٣ ص ٥١) . وقال السمعاني : « كتب اليه أبو العلاء هذه القصيدة » . وقال ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٢٦) : هذا غلط منه بل كتبها أبو العلاء الى أبي حمزة الحسن بن عبد الله الفقيه الحنفي ، قاضي منبج ، ونقله عن ابن العديم .

والذي يظهر أن هذه القصيدة ، رثى بها أبا حمزة الحسن بن عبد الله ابن محمد بن عمرو بن سعيد التنوخي المعري المتوفى قبل سنة ٤٠٠ ﻫ لأنه يقول فيها :

قَصَدَ الدَّهْرُ مِنْ أَبِي حَمْزَةَ الأَوّ   ابِ مَوْلَى حِجًى وخِدْنَ اقْتِصَاد

وأنه كتبها الى المحسّن أخي أبي حمزة ، لأنه يقول فيها :

فَلْيَكُنْ لِلْمُحَسِّنِ الأَجَلُ المَمْـ   ـدُودُ رَغْماً لآنُفِ الحُسَّادِ
ولْيَطِبْ عَنْ أَخِيهِ نَفْساً وأَبْنا   ءُ أَخِيهِ جَرَائِحُ الأَكْبَادِ

وفي (الأقصى القريب) أنه قالها يرثي بها أحد أقاربه من بني عمه . وعزّى فيها أهله .

وعلى كل حال ليست هذه القصيدة من المشاعرة أو المساجلة في شيء ، وإنما هي تعزية ، وأما القصيدة التي كتبها أبو العلاء الى أبي الخطاب فهي في (السقط ج ١ ص ١٥٣)(١) وعدد أبياتها ٢٢ بيتاً وأولها :

أَشْفَقْتُ مِنْ عِبْءِ البَقَاءِ وعَابِهِ   ومَلَلْتُ مِنْ أَرْيِ الزَّمانِ وصَابِهِ

وكان أبو الخطاب قصيراً فمدح قصره وفضله بقوله :

---

(١) وفي الشروح ق ٢ ص ٧١٥ .

عَجِبَ الأنامُ بِطُولِ هِمَّةِ مَاجِدٍ أَرْبَى بِهِ قِصَرٌ عَلَى أَضْرَابِهِ
سَهْمُ الفَتَى أَقْصَى مَدًى مِنْ سَيْفِهِ والرُّمْحِ يَوْمَ طِعَانِهِ وضِرَابِهِ

وأشار الى خروجه من العراق بقوله :

هَجَرَ العِرَاقَ تَطَرُّباً وتَغَرُّباً لِيَفُوزَ مِنْ سِمْطِ العُلا بِغَرابِهِ

وأشار الى أن أبا الخطاب مدحه بشعر ، فأجابه بهذه القصيدة بقوله :

أَلْبَسْتَنِي حُلَلَ القَرِيضِ وَوَشْيِهِ مُتَفَضِّلاً فَرَفَلْتُ فِي أَثْوَابِهِ
وَظَلَمْتَ شِعْرَكَ إذْ حَبَوْتَ رِيَاضَهُ رَجُلاً سِوَاهُ مِنَ الوَرَى أَوْلَى بِهِ
فَأَجَابَ عَنْهُ مُقَصِّراً عَنْ شَأْوِهِ إِذْ كَانَ يَقْصُرُ عَنْ بُلُوغِ ثَوَابِهِ

وذكر ابن الأثير (ج ٩ ص ٢٢٦) [١] « إنه مضى الى الشام ، ولقي المعري ، وعاد ضريراً وله شعر » وفي (النجوم الزاهرة) « أنه رحل الى البلاد ، ثم عاد الى بغداد ، وقد كف بصره ، فمات بها ، وكان رافضياً خبيثا » . وذكر له بيتين . وفي (تاريخ بغداد) للخطيب (ج ٣ ص ١٠١) : « سافر في حداثته الى الشام ، فسمع بدمشق ، ثم عاد الى بغداد ، وقد كف بصره ، وأنه كان رافضيا ، ثم روى عن أبي القاسم علي بن المحسن التنوخي ، قال : أنشدنا أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري لنفسه ، يجيب أبا الخطاب الجبلي ، عن أبيات كان مدحه بها عند وروده معرة النعمان » ، ثم ذكر القصيدة . وهذا يدل على أن هذه القصيدة قيلت قبل سفره الى بغداد .

---

(١) الكامل .

محمد بن أبي بكر الحاتمي .

ذكر ابن العديم عنه أنه قال : (١) « ارتحلت أريد المعرة ، لألقى أبا العلاء بن سليمان ، فبينا أنا في بعض طريقي ، وإذ بشاب حسن الصورة ، وهو أعور راكب على عير ، ومعه شخص وضيء الوجه يعتبه عتابا لطيفا ، فلما انتهى الى آخر عتابه ، قال له الشاب الأعور منشدا :

إِنْ كُنْتُ خُنْتُكَ في الهَوَى فَحُشِرْتُ أَقْبَحَ مِنْ فَضِيحَهْ

قال الحاتمي : فرمت أن أزيد على هذا البيت شيئا ، فلم أستطع لكثرة طربي به . الى أن انتهيت الى المعرة ، ودخلت على أبي العلاء ابن سليمان ، وكان أول حديثي معه ، أن تذاكرنا في أبيات من الشعر ، ذكر منها بيت جهل قائله وهو :

إِنَّمَا تَسْرَحُ آسَادُ الشَّرَى حَيْثُ لا تُنْصَبُ أَشْرَاكُ الحَدَقْ

فقال : لقد أضاء بصيرة وإن عمي بصرا . فقلنا له : أتعرف لمن الشعر ؟ قال : لا . فبحثنا عنه ، فوجدناه لبشار بن برد ، ثم خلوت معه ، فسألني : من أنت ؟ فقلت : أنا فلان . فقال : أنشدني شيئا من شعرك ! فأنشدته ، ثم انتهى حديثي معه الى أن حكيت له حكاية الشاب الذي لقيته في طريقي ، وأنسيت أن أقول له إنه كان أعور ، فلما أنشدته :

إِنْ كُنْتُ خُنْتُكَ في الهَوَى فَحُشِرْتُ أَقْبَحَ مِنْ فَضِيحَهْ

قلت له : لم أستطع أن أزيد على هذا البيت شيئا فأسرع أن قال لي : فألا زِدْتَ عليه :

وَجَحَدْتُ نِعْمَةَ خَالِقِي وَفَقَدْتُ مُقْلَتِيَ الصَّحِيحَهْ

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٦١ — ٥٦٢ عن الإنصاف والتحري — لابن العديم .

قال : فقلت : والله ما كان إلا أعور ، فمن أين لك هذا ؟ قال : شممت إحدى عينيه على بيته . ولعله محرف عن شمت إحدى عينيه ، أي نظرت .

أبو الحسن المختار بن بطلان المتطبب البغدادي المتوفى سنة ٤٥٥ هـ .

ذكر القفطي (١) ان ابن بطلان كان يألف أبا العلاء المعري ، وكان قبل موته بالمعرة ، فحدثه بعض الطلبة أن أبا العلاء قد أملى عليهم شيئا ، فغلط فيه ، فتنبأ ابن بطلان بأن ذبالته قاربت الذبول ، كما تقدم . ونقل في (طبقات الأطباء) عن المختار أنه ذكر أبا العلاء المعري في جملة من فقد من العلماء .

أبو الحسن الدلفي المصيصي .

قال الثعالبي في (تتمة اليتيمة ج ١ ص ٩) : « وكان حدثني أبو الحسن الدلفي المصيصي الشاعر ، وهو ممن لقيته قديما وحديثا ، في مدة ثلاثين سنة . قال : لقيت بمعرة النعمان عجبا من العجب ، رأيت أعمى شاعراً ظريفا ، يلعب بالشطرنج والنرد ، ويدخل في كل فن من الجد والهزل ، يكنى أبا العلاء . وسمعته يقول : أنا أحمد الله على العمى كما يحمده غيري على البصر . فقد صنع لي وأحسن بي ، إذ كفاني رؤية الثقلاء والبغضاء . قال : وحضرته يوما وهو يملي في جواب كتاب ورد عليه من بعض الرؤساء :

وَافى الكِتَابُ فَأَوْجَبَ الشُّكْرَا ... فَضَمَمْتُهُ وَلَثَمْتُهُ عَشْرَا
وَفَضَضْتُهُ وقَرَأْتُهُ فَإِذَا ... أَحْلَى كِتَابٍ في الوَرَى يُقْرَا
فَمَحَاهُ دَمْعِي مِنْ تَحَدُّرِهِ ... شَوْقاً إِلَيْكَ فَلَمْ يَدَعْ سَطْرَا

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٦٥ عن إنباه الرواة ــ للقفطي

فتحفظتها واستعملتها كثيراً في مكاتبات الإخوان » . هـذا هو نص (تتمة اليتيمة) وقـد نقله ياقوت (ج ١ ص ١٧٢) عن (اليتيمة) والصواب عن (تتمة اليتيمة) وفي روايته . « وهو من لقيته قديماً وحديثا » . . فإذا هو أجلى كتاب في الورى . وزاد ياقوت بعد الأبيات الثلاثـة قوله : قال وأنشدني لنفسه :

لَسْتُ أدْري ولا المنجمُ يَدْري   ما يُريدُ القضَاءُ بالإنْسانِ
غَيْرَ أني أقولُ قَوْلَ مُحِقٍّ   قَدْ يَرى الغَيْبَ فِيهِ مِثْلَ العيانِ
إنّ مَنْ كَانَ مُحْسِناً مَا بَكَتْـــهُ لجميلٍ عَواقِبُ الإحْسَانِ

هذه رواية ياقوت وفي (تتمة اليتيمة) :

. . . . . مُحْسِناً قَابَلتهُ بِجَميلٍ عَواقِبُ . . . . .

والأبيات الثلاثة الأول ، الرائية : لم ترد في ديوان أبي العلاء . والأبيات الثانية ، النونية ، لم ينسبها الثعالبي الى أبي العلاء ، وإنما نسبها لأبي القاسم المحسن بن عمرو . . المعري ، في ترجمته في (تتمة اليتيمة) . فتوهم ياقوت أنها لأبي العلاء .

وقد نقل هذه القصة عن الثعالبي جماعة ، منهم : [١] صاحب (معاهد التنصيص) ، والصفدي في (الوافي بالوفيات) وفي (نكت الهميان) نقلوا الى قوله : « كما يحمده غيري على البصر » ونقلهـا ابن العديم الى قوله : « إذ كفاني رؤية الثقلاء والبغضاء » ونقلها البديعي في (أوج التحري ص ٤) مع الأبيات الثلاثة الأول .

---

(١) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات ٢٦٥ ، ٢٨٦ ، ٣٣٦ ، ٥٥٨ .

وأبو الحسن الدلفي .

قال الميمني (ص ٥٥)[1] : «إنه استفرغ مجهوده في التطلب عنه ، فوجده في (الصبح المني) . وهو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن حمدان الدلفي العجلي النحوي المتوفى سنة ٤٦٠ هـ» . ونقل ما نقله صاحب (البغية ص ٥٢) عن ياقوت .

وفي ذيل (تعريف القدماء ص ٣) : هو أبو الحسن علي بن مأمون الدلفي المصيصي ، وقد روى عنه الثعالبي (ج ١ ص ٢٢ ج ٢ ص ٢٨٦) . هكذا قالوا . . وكلا الرجلين كان معاصراً للثعالبي ولأبي العلاء . ولكن الذي نقل عنه الثعالبي في (تتمة اليتيمة) هو أبو الحسن الدلفي المصيصي الشاعر كما تقدم . والذي ظفر به الاستاذ الميمني أبو الحسن الدلفي العجلي النحوي واسمه محمد بن عبد الله . والذي ذكره الثعالبي في (اليتيمة) ذكره في صور مختلفة : ففي (الجزء الأول ، ص ٢٠٦) قال أبو الحسين المصيصي ، ثم قال : المصيصي . وفي (ص ٢٢٠ ، ٢٢٢) : أبو الحسن علي بن مأمون المصيصي . وفي (ص ٢٢٣ ، ٣٥٢) : المصيصي وفي (ص ٢٤٧) : علي بن مأمون المصيصي وفي (ص ٥٣٥) : أبو الحسن المصيصي الشاعر . وفي (الجزء الثاني ص ١٣٦) أبو الحسن المصيصي . وفي (ص ٢٨٦) : علي بن مأمون المصيصي . ولم يذكر في موضع من هذه المواضع أنه دلفي أو عجلي .

ولم أجد نصاً يدل على أن الثعالبي نقل عن الأول ، ولا نصاً يدل على أن الثاني دلفي فتأمل ، وتذكر أن الأول توفي سنة ٤٦٠ هـ . والثعالبي توفي سنة ٤٢٩ هـ وكان لقيه وعرفه منذ ثلاثين عاما ، حين روى عنه هذه القصة فيجب أن يكون عمره فوق الثمانين .

---

(١) أبو العلاء وما إليه .

أبو محمد الخفاجي الحلبي :

وسيأتي ذكره في الكلام على فراسته .

هبة الله بن موسى المؤيد في الدين : وسيأتي في الكلام على حفظه .

أبو الفتيان محمد بن سلطان بن حيوس الشاعر المشهور :

قال ابن عساكر في ترجمة عبد المحسن الصوري : « وذكر أن أبا العلاء ابن سليمان كان يعيب عبد المحسن الصوري بقصر النفس ، فحدثت أن أبا الفتيان ابن حيوس لما حضر عند أبي العلاء المعري أنشده أبو العلاء أبياتاً لعبد المحسن الصوري ، وقال : هذه لقصيرك ، فقال له أبو الفتيان : هو أشعر من طويلك ، يعني المتنبي ، فمد أبو العلاء يده إليه ، وقبض على ثوبه ، وقال : الأمراء لا يناظرون » .

****

منزلته عند الملوك والأمراء وعظماء الناس

حاول أبو العلاء أن ينقبض عن الناس، ويقبع في منزله، ولكنه لم يوفق الى ذلك، فاضطره الناس الى أن يفتح بابه على مصراعيه، وأن يبسط جاهه عند العظماء في الشفاعات. ويطلق لسانه للاقراء والإملاء والتأليف والاجابة.

وقد ذاع صيته في القاصية والدانية وأولع أهل الفضل بأدبه وعلمه، وأحبوا مكاتبته ومخاطبته، وطمعوا في الاستفادة منه. فكان لا يمر بالمعرة رجل مشهور الا قصده واستفاد منه، أو طلب منه نظم أبيات على لسانه أو تصنيف كتاب باسمه.

وقد كان فريق من الفضلاء يراسله أو يمدحه، ويلتمس الوسائل للتعرف إليه، ولم يكن أبو العلاء من الملوك أو العظماء، ولا الأغنياء حتى يظن أن الناس يتوقعون منه صلة، أو يطلبون عنده جاهاً ومنزلة. وإنما كانوا يتوقعون شهرة تتصل بشهرته، وخلوداً في شعره الخالد، وآثاره الباقية. ومن تتبع ما وصل إلينا من أخباره، يتضح له أن الناس كانوا يجشمونه ضروباً من التكاليف، وكان لا يرد سائلاً ولا يخيب آملاً، إلا أن كثيراً من أبياته ورسائله، لم تصل وافرة إلينا، ولا ذكر فيها أسماء أصحابها. ومنها ما ذكر فيه لفظ «الشيخ» أو «أبي فلان» ومنها ما أغفل سببه وما ترتب عليه، ونحو ذلك من الأمور التي تحول بين الباحث والحقيقة التي يتوخاها في دراسة آثاره. من ذلك ما جاء في (السقط ج ١ ص ١٨٧): «وقال، وقد سئل إجازة هذا البيت بالمعنى الذي يأتي ...»، ثم ذكر ستة عشر بيتاً لأبي العلاء في الغزل أجاز بها البيت المذكور، ولم يبين من سأله ذلك.

ومنه في (ج ١ ص ١٤٧): «وقال يهنىء بعض الأمراء بعرس، بعد أن تقضاه ذلك ...»، ثم ذكر أربعة وثلاثين بيتاً على روي السين، ولم يُعلم من سأله ذلك ولا الممدوح بها، ويظن أنه أسد الدولة صالح ابن مرداس، لأنه ذكر فيها حلب، وأن المهنأ بها والٍ شجاع فارس، يدعوه العدى أسداً.

ومنه في (ج ١ ص ١٧٤) : « وقال وكان أبو عبد الله بن السقا الكاتب سأله أن يعمل قصيدة الى صاحبه يصف له ما شاهده من الوفاء والإخلاص منه ... » . ثم أورد ثلاثة وعشرين بيتاً على روي الدال الموصولة بالهاء ،

ومنه ما جاء في (السقط ج ٢ ص ٢١٣) : « وقال على لسان امرأة توصي ابنها بلبس الدرع وترك الزواج ... » . وفي (ص ٢١٩) : « وقال على لسان سائق الحاج ... » وفي (ص ١٧٣) : « وقال على لسان رجل يخاطب امرأة خانه أبوها في درع ... » وأمثال هذا كثير في السقط .

وفي رسائله كثير من الرسائل المحفوفة بمثل هذا الغموض . منها رسالة كتبها الى أولياء السلطان يشفع في صديق له كان عاملا .. وهي في (ص ٥٣ من رسائله) [1] .

ويزيد الباحث ضغثا على إبالة أن أكثر رسائله ناقص ، وأكثر الرجال فيها لا يسمون ، وإنما يقول فيها : « سيدي أبو فلان أو سيدي الشيخ ... » أو ما شاكل ذلك .

وإليك طرفاً من الأخبار الدالة على حرمته عند العظماء في زمانه .

الدولة العلوية بمصر وحلب :

ذكرنا أن المستنصر العلوي صاحب مصر ، بذل لأبي العلاء ما لبيت المال في المعرة من المال فلم يقبل منه شيئا .

وأن الحكم العلوي أعجبه نظمه ، فأرسل الى عزيز الدولة ، والي حلب ، أن يحمله الى مصر فاعتذر .

وأن داعي الدعاة كتب الى تاج الأمراء أن يضاعف حرمته عند الخاص والعام ، وأن يجري عليه ما تدعو إليه حاجته بجميع مهامه ، فلم يقبل شيئا .

وأن الوزير الفلاحي [2] كتب الى عزيز الدولة أبي شجاع فاتك ، متولي حلب وأعمالها أن يحمل أبا العلاء الى مصر ليبني له دار علم . وسمح له بخراج المعرة في حياته ، فأبى

---

(١) رسائل أبي العلاء المعري ـ لشاهين عطية .

(٢) هو علي بن جعفر بن فلاح وزير الحاكم (ج) .

ذلك كله ، وكان عزيز الدولة هذا يطلب من أبي العلاء أن يصنف له تصانيف ويحترمه ويقبل شفاعته .

وكان أنوشتكين الدزبري أمير حلب ودمشق يثني على أبي العلاء ، ويسأل عنه ، ويوجه إليه بالسلام .

وأن أبا القاسم الوزير المغربي استدعاه الى مصر .

وأن صالح بن مرداس وهب له المعرة ، ورفع الحصار عنها وأطلق السجنى من أهلها . الى كثير من مثل هذا .

وسنذكر أن رجلاً من المتدينين سأله أن يضع له كتاباً ، فوضع له (سيف الخطبة) وأن أبا الفتح عبد الله بن إسماعيل سأله وضع كتاب ، فوضع له (الحلي والجلي) الى غير ذلك مما يأتي ذكره في رسائله وتآليفه .

وقد ذكرنا شيئاً مما وقع له من العلماء والشعراء ، وسنذكر شيئاً آخر مما يدل على علو مكانته بين العلماء والشعراء والكبراء .

أقوال العلماء فيه

اتفقت كلمة العلماء على أن أبا العلاء عالم لغوي ، شاعر حكيم ، ذكي فطن ؛ واختلفوا في عقيدته ، حتى إن الرجل الواحد ليمدح فضله وعلمه وذكاءه ، ثم يقدح في معتقده ونحلته . ومنهم من اقتصر على مدحه ، ومنهم من اقتصر على ذمه . وهذه جملة من أقوالهم :

أما ما قيل في مدحه فكثير منه :

أن شيخ الإسلام علي بن أحمد الهكاري ، سئل عنه فقال : هو رجل من المسلمين [١] .

ونقل السلفي عن القاضي أبي المهذب عبد المنعم بن أحمد السروجي [٢] .

« أنه سمع أخاه القاضي أبا الفتح يقول : إنه دخل على أبي العلاء في المعرة ، ذات يوم في خلوة ، على غير علم منه . وكان يتردد إليه ويقرأ عليه فسمعه ينشد :

(١) وفيات ج ١ س ٣٤٦ وغيرها (ج) .

(٢) رواها في معاهد التنصيص ص ٦٧ والذهبي في تاريخ الإسلام وفي نزهة الجليس وأوج التحري (ج) .

كَمْ بُودِرَتْ غَادَةٌ كَعابُ   وَعُمِّرَتْ أُمُّها العَجُوزُ[1]

أَحْرَزَهَا الوالِدَانِ خَوْفاً   وَالقَبْرُ حِرْزٌ لَها حَرِيزُ

يَجُوزُ أَنْ تُبْطِئَ المَنَايَا   والخُلْدُ في الدَّهْرِ لا يَجُوزُ

ثم تأوّه مرات ، وتلا قوله تعالى :

﴿ إِنَّ في ذلك لآيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الآخِرَةِ ذلكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وذلك يَوْمٌ مَشْهُودٌ وما نُؤَخِّرُهُ إلا لأجَلٍ مَعْدُودٍ يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إلاّ بإذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ[2] ﴾ ثم صاح وبكى بكاءً شديداً ، وطرح وجهه على الأرض زماناً ، ثم رفع رأسه ، ومسح وجهه ، وقال : سبحان من تكلم بهذا في القدم ، سبحان من هذا كلامه . قال : فصبرت ساعة ثم سلمت عليه ، فرد علي ، وقال : متى أتيت ؟ فقلت : الساعة . ثم قلت : ياسيدي ! أرى في وجهك اثر غيظ ، فقال : لا يا أبا الفتح ، بل أنشدت شيئا من كلام المخلوق ، وتلوت شيئاً من كلام الخالق ، فلحقني ماترى . فتحققت صحة دينه ، وقوة يقينه » .

وقال ابن خلكان : « كان متضلعا من فنون الأدب ..... وله التصانيف الكثيرة المشهورة ، والرسائل المنثورة ..... وحكى لي من وقف على المجلد الأول بعد المائة من كتاب (الهمزة والرِّدف) ، وقال :

---

(١) يروى : « كم غودرت » . ويروى : « غادة كعوب » وهذه الأبيات من شعره في ملقى السبيل ص ٩ وأولها :

يموت قوم وراء قوم   ويثبت الأول العزيز

ورواية البيت الثاني فيه :

كم هلكت غادة كعاب   .... (ج) .

(٢) هود الآية ١٠٤ وما بعدها .

« لا أعلم ما كان يعوزه بعد هذا الجلد . وكان علامة عصره . وأخذ عنه الناس ، وسار اليه الطلبة من الآفاق ، وكاتبه العلماء والوزراء وأهل الأقدار » .

وقال الصفدي : « كان آية في الذكاء المفرط ، عجباً في الحافظة » ثم ذكر قصة التبريزي وجاره الأعجمي ، وإعادة أبي العلاء مادار بينهما باللغة الاذربيجانية . ثم قال : « وهذا أمر معجز ، فإنه بلغنا عن جماعة من الحفاظ ، وما يحكى عن البديع الهمذاني ، وابن الأنباري وغيرهما ، ماهو أمر قريب من الإمكان ، لأن حفظ مايفهمه الإنسان ويعرف تراكيبه ومفرداته سهل ؛ وأما أنه يحفظ مالم يسمعه ، ولا يعلم مفرداته ولا مركباته ، وهو أقل مايكون أربعمائة سطر من سؤال غائب عن أهل بلده سنين وجوابه . وكان اطلاعه على اللغة وشواهدها أمراً باهراً » .

ونقل عن الشيخ كمال الدين بن الزملكاني ، أنه قال في حقه : « هو جوهرة جاءت إلى الوجود وذهبت ... » .

وقال السيوطي فيه : « كان غزير الفضل ، شائع الذكر ، وافر العلم غاية في الفهم ، عالماً باللغة ، حاذقاً بالنحو ، جيد الشعر ، جزل الكلام شهرته تغني عن صفته . وأما حافظته ....[1] » ثم ذكر قصة التبريزي وجاره.

وقال الباخرزي فيه : « ضرير ماله في أنواع الأدب ضريب ..».[2]

وقال ابن الأثير فيه : « علمه أشهر من أن يذكر . . .[3] »

---

(١) بغية الوعاة ص ١٣٦ وما بعدها .

(٢) دمية القصر ص ٥٠ طبعة المطبعة العلمية بحلب سنة ١٣٤٩ .

(٣) الكامل ٢٣٨/٩ بولاق سنة ١٢٩٠ .

وقال ياقوت [1] : « كان غزير العلم ، شائع الذكر ، وافر العلم ، غاية في الفهم ، عالماً باللغة ، حاذقاً بالنحو ، جيد الشعر جزل الكلام ، شهرته تغني عن صفته . وفضله ينطق بسجيته . . » إلى أن قال : « وسمعه المرتضي فاستدناه ، واختبره فوجده عالماً مشبعاً بالفطنة والذكاء ، وأقبل عليه إقبالاً كثيراً . . » ثم ذكر قصة التبريزي وجاره ، وقال : « وهذا غاية ليس بعدها شيء في حسن الحفظ ، وأنا كثير الاستحسان لقوله :

أَسَالَتْ أَتِيَّ الدَّمْعِ فَوقَ أَسِيلِ وَمَالَتْ لِظِلٍّ بِالعِراقِ ظَلِيلِ »

الأبيات . .

وقال في (معاهد التنصيص) : « وكان اطلاعه على اللغة وشواهدها أمراً باهراً . . وتصانيفه كثيرة جداً ، وشعره كثير إلى الغاية ، وأحسنه (سقط الزند) .

وقال الذهبي [2] : « ويقال عنه : إنه كان يحفظ كل مامر بسمعه . . وكان عجباً من الذكاء المفرط ، والاطلاع الباهر على اللغة ، وشواهدها » .

وقال الخطيب في (تاريخ بغداد) [3] : « كان حسن الشعر ، جزل الكلام ، فصيح اللسان ، غزير الأدب ، عالماً باللغة حافظاً لها . . »

وقال السمعاني في (الأنساب) والقفطي في (إنباه الرواة) مثل قول البغدادي .

وقال ابن الأنباري في (نزهة الألباء) : « كان غزير الفضل ،

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات ٦٧ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ عن إرشاد الأريب ـ لياقوت .

(٢) تاريخ الإسلام ، انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٩١ .

(٣) تاريخ مدينة السلام ٤/٢٤٠ .

وافر الأدب ، عالماً باللغة ، حسن الشعر ، جزل الكلام ، وصنف تصانيف كثيرة ، وأشعاراً جمة [١] . . »

وقال ابن الجوزي في (المنتظم) : « وله أشعار كثيرة ، وسمع اللغة ، وأملى فيها كتباً . وله بها معرفة تامة [٢] ... »

وقال سبط ابن الجوزي في (مرآة الزمان) : « سمع اللغة ، وأملى فيها كتباً ، وله بها معرفة تامة ... ولا خلاف في سعة علم الرجل وغزارة فضله وصحة نسبه ؛ وأنه أوحد زمانه ، وله المصنفات الحسان » .

وقال أبو الفداء في (المختصر) : « وكان عالماً لغوياً شاعراً [٣] » .

وقال ابن الوردي في (تتمة المختصر) : « وله التصانيف المشهورة ، والرسائل المأثورة . . . . وكان متضلعاً من فنون الأدب [٤] .. »

وقال ابن فضل الله العمري في (مسالك الأبصار) : « وكان مطلعاً على العلوم . لا يخلو في علم من الأخذ بطرف . متبحراً في اللغة ، متسع النطاق في العربية ، جامع الشعوب للطرق الأدبية ، ندرة في العالم ، وشذرة في بني آدم ، ما ولدت مثله الليالي ، ولا أوجدت شبيهه المعالي [٥] » . وقد أطال في مدحه ووصفه .

وقال اليافعي في (مرآة الجنان) : « ... اللغوي الشاعر المشهور ، صاحب التصانيف الكثيرة المشهورة ، والرسائل البليغة المأثورة ، والزهد

---

(١) نزهة الألباء ص ٤٢٥ طبعة القاهرة سنة ١٢٩٤ .
(٢) المنتظم في أخبار الأمم ١٨٤/٨ طبعة حيدر آباد سنة ١٣٥٨ .
(٣) المختصر في أخبار البشر حوادث سنة ٤٤٩ هـ طبعة الأستانة سنة ١٢٨٦ .
(٤) تتمة المختصر في أخبار البشر ، حوادث سنة ٤٤٩ طبعة المطبعة الوهبية سنة ١٢٨٥ .
(٥) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢١٨ .

والذكاء المفرط ، كان متضلعاً من فنون الأدب . . . وكان علامة عصره في فنون . . [1] » .

وقال ابن حجر في (لسان الميزان) : « اللغوي الشاعر المشهور ، كان عجبا في الذكاء المفرط ، والاطلاع على اللغة . . [2] » .

وقال العيني في (عقد الجمان) : « الشاعر اللغوي صاحب الدواوين ، والمصنفات في الشعر واللغة . . وكان علامة دهره [3] . . » .

وقال المكي في (نزهة الجليس) : « فاضل ، سار ذكر فضله في البراري والبحور ، وأجمع على تقدمته الجمهور ، بأنه فارس المنظوم والمنثور [4] » .

المتعصبون له

وقال الصفدي في (نكت الهميان ص ٢٩٧) : « إن مكي بن ريان ابن شبة الماكسيني المتوفى سنة ٦٠٣ هـ كان يتعصب لأبي العلاء المعري ، ويطرب إذا قرىء عليه شعره ، للجامع بينهما من الأدب والعمى ، لأنه أضر بآخرة » .

وقال السيوطي في (البغية) : « إنه أضر بالجدري وسنه ثمان أو تسع » .

وأما ما قيل في ذمه فكثير جداً منه ما يأتي :

قال الذهبي فيه : « له (رسالة الغفران) في مجلدة قد احتوت على مزدكة واستخفاف . . . والذي يظهر أن الرجل مات متحيراً ، لم يجتم بدين من الاديان » .

---

(١) مرآة الجنان حوادث سنة ٤٤٩ طبعة حيدر آباد سنة ١٣٣٩ .

(٢) لسان الميزان ١/٢٠٣ طبعة حيدر آباد سنة ١٣٢٩ .

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣١٩ .

(٤) نزهة الجليس ١ / ٢٧٨ طبعة مصر سنة ١٢٩٣ .

وقال في (العبر) : « ولعله مات على الإسلام ، وتاب من كفرياته ، وزال عنه الشك والارتياب » . وقال غرس النعمة فيه : « كان يرمى بالإلحاد في شعره ، وأشعاره دالة على ما يزن بـه » . وأول من نشر شعر إلحاده غرس النعمة .

وقد نقل السيوطي في (بغية الوعاة) ما قاله ياقوت ، والصفدي ، والسلفي ، وابن العديم ، ولم يذكر رأيه فيه ؛ وإنما ذكر أنه أسند حديثه في الطبقات الكبرى .

ونقل عبد الرحيم العباسي [1] ما ذكره ياقوت ، والصفدي ، والتبريزي ، والقزويني ، والسلفي .

ونقل ابن الوردي في (تاريخه ج ١ ص ٣٥٧) ما قال ابن خلكان ، وياقوت ، وأبو الفداء ، وذكر قصة الضيوف الخمسين . وأن بعض الناس زعم أن المعري قتلهم بدعائه وتهجده ، وبعضهم زعم أنـه قتلهم بسحره ورصده . وكان ابن الوردي يتعصب له لكونه من المعرة ، ثم اطلع على كتاب (استغفر واستغفري) و (لزوم ما لا يلزم) فأبغضه وتبرأ منه ، ثم وقف على كتاب (ضوء السقط) فكان عنده مصلحا لفساد أبي العلاء موضحا لصحة اعتقاده . وسيأتي تمام ذلك .

وقال ابن قاضي شهبة في (طبقـات النحاة واللغويين ص ١٧٨) : « وزعم بعضهم أنه أقلع عن ذلك وتاب . وقال قصيدته التي أولها :

يَامَنْ يَرى مَدَّ البعُوضِ جنَاحَها ... في ظُلْمَةِ اللّيْلِ البَهيمِ الأَلْيَلِ
وَيَرَى مَنَاطَ عُروقِها في نَحْرِها ... والمُخِّ في تِلْكَ العِظَامِ النُّحَّلِ
أمْنُنْ عَلَيَّ بِتَوبَةٍ تَمْحُو بِها ... مَا كَانَ مِنِّي في الزَّمانِ الأَوَّلِ

(١) انظر كتابه الموسوم بـ (معاهد التنصيص على شرح شواهد التلخيص) .

وذكر الصفدي في (نكت الهميان ص ١٠٣) رحلته إلى طرابلس ، واجتيازه باللاذقية ، وسماعه كلام راهب فيها . ثم قال : « والنـاس مختلفون في أمره ، والأكثرون على إكفاره وإلحاده . وأورد له الإمام فخر الدين الرازي في كتاب الأربعين [1] قوله :

قُلْتُمْ لَنَـا صَانِعٌ قَدِيمٌ   قُلْنَا صَدَقْتُمْ كَذَا نَقُولُ [2]

إلى آخر الأبيات الثلاثة . ثم قال : « وقد هذى هذا في شعره » .

وأورد مثل هذا في (الوافي بالوفيات) ثم أورد قول القزويني ، والمنـازي ، والتبريزي . ثم قال : « وأما الشيخ شمس الدين الذهبي ، فحكم بزندقته ، وذكر عنه قبائح وأظن الحافظ السِّلفي قال إنـه تاب وأناب » : ثم ذكر أبياتاً تدل على أن أهل الحسد كانوا يعملون على لسانه أشعاراً يضمنونها قول الملاحدة ثم قال : « أما الموضوع على لسانه ، فلعله لا يخفى على من له لب » . وأما الأشياء التي دّونها وقالهـا في (لزوم ما لا يلزم) وفي (استغفر واستغفري) فما فيه حيلة وهو كثير كما سيأتي .

---

(١) هذه الأبيات ذكرها فخر الدين الرازي في كتاب الأربعين في المسألة الرابعة ، في أن الله قديم أزلي ، باق ، سرمدي . وهي في ص ٩٥ من كتاب الأربعين وروايته : « قلتم لنا صانع حكيم » ، ورواية لزوم ما لا يلزم « لنا خالق حكيم » وليس في كتاب الأربعين : « وقد هذى هذا في شعره » وإنما عد هذه المسألة عقدة محيرة . ومن المضايق المضلة المعمية ، ولم يدفع اعتراض المعري بحجة واحدة فراجعه إن شئت . ورواها البديعي في أوج التحري ص ٤٠ ، ونقل قول الرازي وقد هذى هذا في شعره (ج) .

(٢) بعده : ثم زعمتم بلا زمان   ولا مكان ألا فقولوا
هذا كلام له خبيء   معناه ليست لنا عقول

ونقل عن ابن دقيق العيد أنه كان يقول في أبي العلاء : « هو في حيرة » ثم أورد قصة وزير محمود بن صالح ، والضيوف الخمسين ، وأبياتاً قيلت في الرد عليه ، وذكر قوله [١] :

خُلِقَ النـــاسُ للبَقاء . . . .

إنّما يُنقَلون من دارِ أعمـا لٍ . . . .

وقوله [٢] :

ضَحِكنا وكانَ الضِّحكُ منّا سفاهةً . . . .

وجعل البيتين الأولين اعترافاً بالمعاد ، والبيتين الأخيرين إنكاراً له . وقال : « وهذه الأشياء كثيرة في كلامه وهو تناقض » . وسنبين ما في البيتين الأخيرين .

قصة الضيوف الخمسين

قال سبط ابن الجوزي في (مرآة الزمان) قال الغزالي [٣] : « حدثني

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحـــات ٢٧١ ، ٢٩١ ، ٣٣١ . وشروح سقط الزند : ق ٣ ص ٩٧٨ وتكملة البيتين :

. . . . فضلت　　أمـه يحسبونهم للنفـــاد

. . . .　　إلى دار شقوة أو رشاد

(٢) اللزوميات هـ ص ١٨٢ وتمام البيتين :

. . . .　　وحق لسكان البسيطة أن يبكوا

تحطمنا الأيام حتى كأنـنـا　　زجاج ولكن لا يعاد له سبك

(٣) انظر الخبر في تعريف القدماء الصفحات ، ١٥٢ ، ٢٨٠ ، ٢٩٣ ، ٣٢٦ .

يوسف بن علي بأرض الهركار (١) ، قال : دخلت معرة النعمان وقد وشى(٢) وزير محمود بن صالح ، صاحب حلب إليه ، بأن المعري زنديق ، لا يرى إفساد الصورة . ويزعم أن الرسالة تحصل بصفاء العقل ، فأمر محمود بحمله إليه من المعرة الى حلب ، وبعث خمسين فارساً ليحملوه ، فأنزلهم أبو العلاء دار الضيافة ، فدخل عليه عمه مسلم بن سليمان ، وقال له : يا بن أخي قد نزلت بنا هذه الحادثة ، الملك محمود يطلبك ، فإن منعناك عجزنا ، وإن أسلمناك كان عاراً علينا عند ذوي الذمام ، ويركب تنوخا (٣) العار والذلة ! فقال له : هون عليك [يا عم] فلا بأس علينا ، فلي سلطان يذب عني ، ثم قام فاغتسل وصلى إلى نصف الليل ثم قال لغلامه (وقد سماه بعضهم قنبرا) انظر أين المريخ ؟ فقال : في منزلة كذا وكذا ، فقال : زنه ، واضرب تحته وتداً ، وشد في رجلي خيطاً ، واربط به إلى الوتد . ففعل غلامه ذلك ، فسمعناه وهو يقول : يا قديم الأزل ، يا علة العلل ، يا صانع المخلوقات وموجد الموجودات . أنا في عزك الذي لا يرام ، وكنفك الذي لا يضام ، الضيوف الضيوف ! الوزير الوزير ! ثم ذكر كلمات لا تفهم وإذا بهدة عظيمة . فسأل عنها ، فقيل : وقعت الدار على الضيوف الذين كانوا بها ،

---

(١) هكذا وردت في مرآة الزمان ، وهكذا نقلها كل من نقلها عنه ، ولم أجد لفظ الهركار في معجم البلدان ، ولا في غيره مما لدي من المظان (ج) .

(٢) في تاريخ ابن الوردي . « اغرت به حساده وزير حلب فجهز لاحضاره خمسين فارساً ليقتله فأنزلهم أبو العلاء في مجلس له بالمعرة ، فاجتمع بنو عمه اليه .. » وفي فوات الوفيات ج ١ س ٢٣٣ ذكر وزيرا لمحمود بن صالح سماه أبا نصر محمد بن الحسين ابن النحاس . وذكر ابن العديم أن أبا العلاء وضع كتاب شرح خطبة أدب الكاتب لأبي الرضي سالم بن الحسن بن علي الحلبي وهو ابن أخت الوزير أبي نصر محمد بن الحسن ابن النحاس الحلبي (ج) .

(٣) كذا في الأصل (ج) .

فقتلت الحسين . وعند طلوع الشمس ، دُفعت بطاقة من حلب على جناح طائر ، لا تزعجوا الشيخ ! فقد وقع الحمام على الوزير .

قال يوسف بن علي : فلما شاهدت ذلك دخلت على المعري ، فقال : من أين أنت ؟ قلت : من أرض الهركار ، فقال : زعموا أني زنديق . ثم قال : اكتب ، وأملى عليّ :

بَاتُوا وَحَتْفِي أَمَانِيُّ مُصَوَّرَةٌ ... وَبِتُّ لَمْ يَخْطُرُوا مِنِّي عَلَى بَالِ

ثم أورد بعد هذا البيت ثمانية أبيات أخر . وذكر قبل ذلك تسعة أبيات . أولها :

أَسْتَغْفِرُ اللهَ[1] فِي أَمْنِي وَأَوْجَالِي ... .

ووصلها بقوله : « باتوا وحتفي » وذكر بعده خمسة أبيات . وقد أثبتناها كما ذكرها الصفدي في (الوافي بالوفيات) .

أَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي أَمْنِي وَأَوْجَالِي ... مِنْ غَفْلَتِي وَتَوَالِي سُوءِ أَعْمَالِي

قَالُوا هَرِمْتَ[2] وَلَمْ تَطْرُقْ تِهَامَةَ فِي ... مُشَاةِ وَفْدٍ وَلَا رُكْبَانِ أَجْمَالِ

فَقُلْتُ : إِنِّي ضَرِيرٌ وَالَّذِينَ لَهُمْ ... رَأْيٌ رَأَوْا غَيْرَ فَرْضٍ حَجَّ أَمْثَالِي[3]

مَا حَجَّ جَدِّي وَلَمْ يَحْجُجْ أَبِي وَأَخِي ... وَلَا ابْنُ عَمِّي وَلَمْ يَعْرِفْ مِنًى خَالِي

وَحَجَّ عَنْهُمْ قَضَاءً بَعْدَمَا ارْتَحَلُوا ... قَوْمٌ سَيَقْضُونَ عَنِّي بَعْدَ تَرْحَالِي

---

(١) والأبيات مما لم يرو في الديوانين ، انظر تعريف القدماء ص ٢٨١ عن الوافي .

(٢) في مرآة الزمان : « هدمت » (ج)

(٣) في الأصل : « فرض الحج » (ج)

فَإِنْ يَفُوزُوا بِغُفْرانٍ أَفُزْ مَعَهُمْ　　أَوْلا فإِني بِنارٍ مِثْلهُمْ صَالِ
ولا أرُومُ نَعيماً لا يَكُونُ لَهُمْ　　فيهِ نَصيبٌ وَهُمْ رَهْطي وأَشْكالي
فَهَلْ أُسَرُّ إِذا حُمَّتْ مُحاسَبَتي　　أمْ يَقْتَضي الحُكْمُ تَعْتَابي وتَسْآلي (1)
مَنْ لي بِرِضْوانَ أَدْعُوهُ فَيَرْحَمَني　　ولا أُنادي مع الكفار أَمْثالي (2)
بَاتُوا وَحَتْفي أَمانِيهِمْ مُصَوَّرةً　　وَبِتُّ لَمْ يَخْطُروا مني على بال (3)
وَفَوَّقُوا لي سِهاماً مِنْ سِهامِهِمُ　　فَأَصْبَحَتْ وُقَّعاً مني بأَميالِ
فَما ظُنونُكَ إِذ جُنْدي مَلائِكَةٌ　　وَجُنْدُهُمْ بَيْنَ طَوّافٍ وَبَقّالِ
لَقِيتُهُمْ بِعَصَا مُوسَى التي مَنَعَتْ　　فِرْعَوْنَ مُلْكاً وَنَجَّتْ آلَ إِسْرالِ
أُقِيمُ خَمْسي وَصَوْمُ الدَّهْرِ آلَفُهُ　　وأُدْمِنُ الذِّكْرَ أَبْكاراً بِآصالِ
عِيدَيْنِ أَفْطِرُ مِنْ عامي إِذا حَضَرا　　عِيدَ الأَضاحِيِّ يَقْفُو عِيدَ شَوّالِ

(١) في القفطي : « تعناتي » (ج)
(٢) في القفطي : « أدعوه فأرحمه » ولعله أرخمه من الترخيم أي أقول له : يارضو وقد أشار إلى مثل هذا في رسالة الملائكة والغفران وفيه : « مع الكفار يامال أي يامالك (ج)
(٣) وفي المرآة : « وحتفي أماني لناكبهم » وفي سر العالمين : « أماني لنيتهم » وفي المرآة بعد هذا البيت :

قالوا وهم كفيول في كتائبهم　　ولا نجاح لأفيال كأفيالِ
لما هتفت بنصر الله أيدني　　كأن نصرت بجبريل وميكال
وجاء إذ ذاك عزرائيل يغضب لي　　فيقبض الروح مغتاظاً بأعجالِ (ج)

إذَا تَنافَستِ الْجُهّالُ في حُلَلٍ رَأيتَني مِنْ خَسيسِ القُطنِ سِرْبالي
لا آكُلُ الحيوانَ الدَّهرَ مأثُرةً أخَافُ مِنْ سُوءِ أعمَالي وآمالي
وأعبـــدُ الله لا أرجو مَثُوبَتَهُ لكِنْ تَعَبُّدَ إكرامٍ وإجلالِ[1]
أصُونُ دِيني عَنْ جُعْلٍ أؤَمِّلُهُ إذا تَعبّدَ أقوامٌ بأجعــالِ

وهذا النص مذكور في كتاب (سر العالمين وكشف ما في الدارين) وهو يخالف ما هنا كثيراً في عباراته وفيه زيادة هذين البيتين :

وكَيفَ أقرَبُ طَعمَ الشَّهدِ وهُو كَذا غَصْبٌ لِمَكسَبِ نَحلٍ ذاتِ أطْفال
نَهَيتُهُمْ عَنْ حَرامِ الشَّرْعِ كُلُّهمُ ويأمروني بترك المَنْزِلِ العَالي

بعد قوله : « لا آكل الحيوان الدهر » وقد نقل البديعي في (أوج التحري ص ٣٤) هذه القصة بصورة مجملة ، ثم قال : « فالقــائلون إنه كان زنديقا ملحدا ، يقولون : إنه قتل الوزير والحسين بسحره ورصده ، والقائلون : إنه كان على غاية ما يكون من الدين والزهد ، يقولون : قتلهم بدعائه وتهجده » .

ونقل هذه القصة عن سبط ابن الجوزي الصفدي في (الوافي بالوفيات) وفي (نكت الهميان) ورواها العيني في (عقد الجمان) ولم يذكر الأبيات . ونقلها العباسي في (نزهة الجليس) عن كتاب (الأنباء في تاريخ الأطباء) لابن أبي أصيبعة ؛ وذكر ستة أبيات أولها : « بانوا وحتى . . » ورواها صاحب (نسمة السحر) وصاحب (سكردان السلطان) . وذكرهـا

---

(١) في المرآة رواية ثانية : « تبارك الله لا أرجو . . . » (ج) .

ابن الوردي بصورة مجملة . ورواها غير هؤلاء ، وفي الروايات تفاوت في الزيادة والنقص . وأكثرهم قالوا : إنّ عمه مسلم بن سليمان ، إلا صاحب (طبقات النحاة واللغويين) فإنه [ذكر] في (ص ١٧٨) [أن] عمه مسلم ابن سليمان .

وقد أنكر صاحب (الذكرى) هذه القصة ، فقال : « إنها تكذب[1] نفسها ، فإن عم أبي العلاء مات قبل أبيه ، ولم يكن أبو العلاء ينتحل السحر ، ولا يعرف الطلسمات » . وأنكرها الميمني[2] أيضاً واستدل على ذلك بأمور منها :

١ : أن أبا العلاء لم يكن يعلم من النجوم إلا ما يلزم المتأدب .

٢ : أن قوله « ياقديم الأزل . . » لايشبه كلام المعري .

٣ : أن محموداً ابن شبل الدولة بن صالح لا ابن صالح .

٤ : أن ولاية محمود حلب بعد وفاة المعري بثلاثة أعوام .

٥ : أن هذه الحادثة على عظمها لم ينقلها أحد من بلديي أبي العلاء ، كأبي اليسر ، وأبي غالب ، وابن العديم ، والقفطي ، ولا أحد من تلامذته .

والاعتراض الأول والثاني والخامس ليس بمقنع . لأننا لا نعلم حقيقة علم المعري بالنجوم ، ولا نستبعد أن يقول : « يا قديم الأزل » . لأن ذلك جرى على ألسنة بعض الحكماء من قبله ، وأننا لم نطلع على جميع أخبار المعري ، ولا على تاريخ أبي غالب ، وابن العديم ، وإذا لم يذكرها القفطي ونحوه ، فلا يلزم أن لا تكون معروفة عند غيره ، لأن عدم ذكر الشيء لا يستلزم عدمه ، ولجواز أن يكون هؤلاء لم يطلعوا على ذلك أو اطلعوا عليه ولم يذكروه لعلة .

---

(١) ذكرى أبي العلاء ط٢ ص ٢٠٧ — لطه حسين .

(٢) أبو العلاء وما إليه ص ٢٤٧ — ٢٥٠ .

على أن القفطي ذكر نحو عشرة أبيات من القصيدة ، فبقي الاعتراض الثالث والرابع . ويمكن أن يقال أيضا : إن أسلوب الأبيات أدنى من أسلوب المعري في شعره ، فإنه ألمّ بكثير من معـــاني هذه القصيدة في مثل قوله (١) .

وَصَرُورَةٌ بالمَعْنَيَيْنِ لأنني مُذْ كُنْتُ لَمْ أَحجُجْ وَلَمْ أتَزَوَّجِ

* * *

وقوله (٢) .

أنَا صائمٌ طُولَ الحَيَاةِ وإنما فِطْرِي الحِمامُ وَيَوْمَ ذاكَ أُعَيِّدُ

* * *

وقوله (٣) .

يا رِضْوَ لا أرْجُو لِقَـــاءَكَ بلْ أخافُ لقاء مالِكْ

وفي أبياته التي تدل على عدم أكله الحيوان وما تولد منه ، وإن بين اسلوبه في هذه القصيدة ، وأسلوبه في غيرها ، فرقاً ظـــاهراً ، من حيث قوة التأليف ، وطلاوة الديباجة ، وإحكام الرصف . وفي هذه القصيدة جمل ركيكة لا يعرف مثلها في شعر المعري ، مثل قوله : « غير فرض الحج أمثالي » وقوله : « عيدين أفطر في عامي . . »

وخلاصة القول : ان في هذه الحادثة مجالاً واسعاً للشك في صحتها ، لاسيما وقد ذكر فيها عم لأبي العلاء ، سمي مسلماً أو سلماً . ولم أر من

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٧٨ وفيها : « في شيمتين » والصرورة : في الاسلام ، الذي لم يحج ، وفي الجاهلية : الذي لم يتزوج .

(٢) انظر ماسبق الصفحات : ٣٧٣ ، ٤٦٢ .

(٣) انظر ماسبق ص ٣٦٨ ورضو : ترخيم راضوان وهو خازن الجنة ومالك خازن النار

ذكره في أعمامه . على أننا لا نعلم يقيناً جميع أعمامه ، وهذا لا يوجب أن لا يكون له عم مسمى بهذا الاسم . وإذا أريد تسويغها ، فمن الجائز أن يهدم البيت على الضيوف رجال أعدوا لذلك ، وينسب عملهم في الظاهر إلى ما فعله أبو العلاء ، كما يجوز أن يقع ذلك بطريق الاتفاق . ولكن وقوع الحمّام على الوزير ، مع سقوط البيت على الضيوف في وقت متقارب ، يزيدنا اعتقاداً في بعد ذلك عن الصحة .

وقال ابن الأثير في تاريخه [١] (ج ٩ ص ٢٦٦) في ترجمته : « أكثر الناس يرمونه بالزندقة ، وفي شعره ما يدل على ذلك ، ونقل قوله للقزويني : « ما هجوت أحداً قط » . وقول القزويني له : هجوت الأنبياء ، فتغير وجهه ، وقال : « ما أخاف أحداً سواك » .

وقال ابن خلكان [٢] (ج ١ ص ٤١) بعد أن مدحه : « ومكث مدة خمس وأربعين سنة لا يأكل اللحم تديناً ، لأنه كان يرى رأي الحكماء المتقدمين ، وهم لا يأكلونه ، كيلا يذبحوا الحيوان ، ففيه تعذيب له . وهم لا يرون الإيلام مطلقاً في جميع الحيوانات (... كذا) ، وأوصى أن يكتب على قبره هذا البيت :

هذا جَناهُ أبي عليّ . . . .

وهو أيضا متعلق باعتقاد الحكماء ، فإنهم يقولون : إيجاد الولد وإخراجه إلى هذا العالم جناية عليه ، لأنه يتعرض للحوادث والآفات ، ثم ذكر الأبيات .

إنْ كُنْتَ لمْ تُرِقِ الدِّماء زهادة . . . .

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير .

(٢) وفيات الأعيان .

وقال : وقد أشار في البيت الأول الى ما كان يعتقده ويتدين به من عدم الذبح . . . وقد صرح أبو العلاء في (لزوم ما لا يلزم) بأن الوالد يجني على الولد .

وقال الدّميري : « . . أحسن ما قيل فيه إنه في حيرة » .

وقال أبو الحسن علي بن الحسن الباخرزي المتوفى سنة ٤٦٨ ﻫ في (دمية القصر ص ٥٠) : « أبو العلاء ضرير ، ماله في أنواع الأدب ضريب ، ومكفوف في قميص الفضل ملفوف . ومحجوب ، خصمه الألد محجوج . وقد طال في ظلال الاسلام آناؤه . ولكن ربما يترشح بالالحاد إناؤه . وعندنا خبر بصره ، والله أعلم ببصيرته ، والمطلع على سريرته . وإنما تحدثت الألسن بإساءته ، لكتابه الذي زعموا أنه عارض به القرآن ، وعنونه بالفصول والغايات . ومحاذاة السور والآيات ، وأظهر من نفسه تلك الخيانة ، وجذّ تلك الهوسات كما يَجُذُّ العَيْرُ الصِّلِّيانة (١) . حتى قال القاضي أبو جعفر قصيدة أولها :

كَلْبٌ عَوَى بِمَعَرَّةِ النُّعْمانِ لمّا خَلا عَنْ رِبْقَةِ الإيمانِ
أَمَعَرَّةَ النُّعْمَانِ ما أَنْجَبْتِ إِذْ أَخْرَجْتِ مِنْكِ مَعَرَّةَ العُمْيانِ

وذكر أنه لم يجد في ديوانه الذي سماه (سقط الزند) ما يصلح لكتابه ، فرجع الى تعليقاته ، فعثر بما أنشده الشيخ اسماعيل الصابوني عن أبي العلاء وذكر ثلاثة أبيات من (لزوم ما لا يلزم) وستة وعشرين بيتاً من (سقط الزند) . ولا أعلم كيف استحسنها بعد أن لم يجد في

---

(١) الصليانة : بكسر الصاد وتشديد اللام المكسورة ، ضرب من النبت ينبت صعداً وأضخمه أعجازه وأصوله ، فاذا كدمه العير بفيه اجتثه من أصله .

السقط ما يصلح لكتابه . والظاهر أنه لم يعلم قيمتها الأدبية ، حتى أرشده اليها الصابوني .

وقال في ترجمة حمد بن فورّجة : « وشعره فرخ شعر الأعمى ، أعني شاعر معرة النعمان ، وإن كان هذا الفاضل منزهاً عن معرة العميان » .

وقال ابن الجوزي [١] في تاريخه : « زنادقة الاسلام ثلاثة : ابن الراوندي [٢] ، والتوحيدي [٣] ، وأبو العلاء المعري . وشرهم على الاسلام التوحيدي ، لأنهما صرحا ، وهو مُجَمْجِم ولم يصرح » .

وقال في (تلبيس إبليس) : [٤] « ومن زنادقة الاسلام ، من لم يبرح على تعثره ، ففاته الدنيا والآخرة ، مثل ابن الراوندي والمعري . . وأما أبو العلاء ، فأشعاره ظاهرة الالحاد ، وكان يبالغ في عداوة الأنبياء ،

---

(١) ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي ، نسبة إلى محلة بالبصرة ، يقال لها : محلة الجوزة . شاعر واعظ له تصانيف كثيرة ، منها (المنتظم في أخبار الأمم) درج فيه على طريقة ابن جرير انتهى فيه الى سنة ٥٧٤ هـ . ولد سنة ٥١٠ هـ . وتوفي سنة ٥٩٧ هـ **(ج)**

(٢) هو أحمد بن يحيى الراوندي المتكلم ، منسوب إلى راوند ، وقد ضبطت في الأنساب وياقوت ، والوفيات ، والبداية ، بألف بعد الراء . وابن الجوزي رسمه الريوندي بالياء بعد الراء . وفرق ياقوت بينهما ، فجعل راوند من نواحي قاسان ، وريوند ناحية بنيسابور وابن خلكان جعل البلدين بألف بعد الراء . واختلف في وفاته من سنة ٢٤٥ هـ الى سنة ٣٠١ هـ **(ج)** .

(٣) أبو حيان علي بن محمد التوحيدي ، متصوف معتزلي فيلسوف له تآليف كثيرة منها المقابسات ، والبصائر والذخائر ، والامتاع والمؤانسة ، وغيرها ، ولما انقلبت به الأيام رأى أن كتبه لاتفيده ، وضن بها على من لم يعرف قدرها ، فأحرقها ولم يسلم منها إلا مانقل عنه قبل الإحراق . توفي نحو سنة ٤٠٠ هـ **(ج)** .

(٤) تلبيس ابليس لابن الجوزي ص ١١٢ طبعة مطبعة النهضة بمصر .

ولم يزل متخبطاً في تعثره ، خائفاً من القتل الى أن مات بحسراته » .

وقال في ترجمته في (المنتظم) : « وكانت أحواله تدل على اختلاف عقيدته » . ثم حكى قوله للتبريزي : « وهكذا شيخك » حين قال له : ما أنا إلا شاكّ . ثم قال : « وكان ظاهر أمره يدل على أنه يميل الى مذهب البراهمة ، فإنهم لا يرون ذبح الحيوان ، ويجحدون الرسل . وقد رماه جماعة من العلماء بالزندقة والالحاد ، وذلك أمره ظـاهر في كلامه وأشعاره . وأنه يردّ على الرسل ويعيب الشرائع ويجحد البعث . ونقلت من خط [أبي] الوفاء ابن عقيل (١) أنه قال : من العجائب أن المعري أظهر ما أظهر من الكفر البارد الذي لا يبلغ منه مبلغ شبهات الملحدين ، بل قصر فيه كل التقصير ، وسقط من عيون الكل ، ثم اعتذر بأن لقوله باطناً ، وأنه مسلم في الباطن ، فلا عقل له ولا دين لأنه تظاهر بالكفر . وزعم أنه مسلم في الباطن ، وهذا عكس قضايا المنافقين والزنادقة ، حيث تظاهروا بالاسلام وأبطنوا الكفر . . . » . ثم قال : « قال المصنف (ابن الجوزي) : وقد رأيت للمعري كتابا سماه (الفصول والغايات) يعارض به السور والآيات ، وهو كلام في نهاية الركة والبرودة ، فسبحان من أعمى بصره وبصيرته » . ثم أورد جملة منه ، وقال : « وكلّه على هذا النمط البارد » .

وقال ياقوت في (إرشاد الأريب ج ١ ص ١٧٧) : « انه قرأ بخط عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي (٢) في كتاب له : أن جماعة

---

(١) هو علي بن عقيل شيخ الحنابلة ببغداد ولد سنة ٤٣١ هـ وتوفي سنة ٥١٣ هـ وله مشاركة في كثير من العلوم ، وأخباره في الكامل والمنتظم والبداية (ج) .

(٢) كان يرى رأي الشيعة ، وتوفي غيلة سنة ٤٦٦ هـ فوات الوفيات ج ١ ص ٢٩٨ (ج) .

نظموا على أسلوب القرآن . وأظهر ذلك قوم ، وأخفاه آخرون . ومما ظهر منه قول أبي العلاء في بعض كلامه : أقسم بخالق الخيل . والريح الهابة بين الشرط ، ومطلع سهيل . ان الكافر لطويل الويل . . . » .

وهذه القطعة من كلامه في (الفصول والغايات ج ١ ص ٢٥٢) وقد تقدم الكلام فيه وستأتي تتمته .

وقال ياقوت (ج ٦ ص ٢٣٤) في ترجمة الوجيه بن الدهان : « حضر الوجيه النحوي بدار الكتب ، التي برباط المأمونية ، وخازنها يومئذ أبو المعالي أحمد بن هبة الله ، فجرى حديث المعري ، فذمه الخازن . وقال : كان عندي في الخزانة كتاب من تصانيفه فغسلته . فقال له الوجيه : وأي شيء كان هذا الكتاب ؟ قال : كان نقض القرآن ، فقال له : أخطأت في غسله ، فعجب الجماعة منه ، وتغامزوا عليه واستشاط ابن هبة الله ، وقال له : مثلك ينهى عن مثل هذا ؟ ، قال : نعم ، لايخلو أن يكون هذا الكتاب مثل القرآن ، أو خيراً منه أو دونه ، فإن كان مثله أو خيراً منه ، وحاشى لله أن يكون ذلك ، فلا يجب أن يفرط في مثله ، وإن كان دونه ، وذلك ما لا شك فيه ، فتركه معجزة للقرآن ، فلا يجب التفريط فيه ، فاستحسن الجماعة قوله ، ووافقه ابن هبة الله على الحق وسكت » .

وقال ياقوت (ص ١٧٨)[1] : « والناس في أبي العلاء مختلفون ، فمنهم من يقول : إنه كان زنديقا ، وينسبون اليه أشياء مما ذكرنا . ومنهم من يقول : انه كان زاهداً عابدا ، متقللا يأخذ نفسه بالرياضة والخشونة ، والقناعة باليسير ، والإعراض عن أعراض الدنيا » .

وقال (ص ١٧٠)[1] : « وكان متهما في دينه ، يرى رأي البراهمة ، لايرى إفساد الصورة ، ولا يأكل لحما ، ولا يؤمن بالرسل والبعث والنشور » .

(١) الجزء الأول من إرشاد الأريب الى معرفة الأديب .

ثم قال : « وقد أوردنا من شعره ما يستدل به على سوء معتقده ، ويخبرك بنحلته ومستنده ، وحدّث غرس النعمة أبو الحسن الصابي : أنه بقي خمساً وأربعين سنة لا يأكل اللحم ولا البيض ، ويحرم إيلام الحيوان ، ويقتصر على ما تنبت الأرض ، ويلبس خشن الثيـــاب ، ويظهر دوام الصوم » . ثم نقل ما دار بينه وبين المنازي ، وقوله للتبريزي : « وهكذا شيخك » . ثم أورد له أبياتا تدل على سوء عقيدته من (لزوم ما لا يلزم) منها أربعة أبيات أولها : (١)

ألا فانْعَمُوا واحْذَرُوا في الحَيَاةِ   مُلِمّاً يُسَمَّى مزيلَ النِّعَمْ

وأربعة أخرى يقول فيها : (٢)

دَعَا مُوسَى وزَالَ وَقَامَ عِيسَى   وَجَاء مُحَمَّدٌ بِصَلاةِ خَمْسِ

---

(١) والأبيات الثلاثة الأخر :

أتوكم بأقوالهم والحســام   فشدّ به زاعم مازَعم

تلوا باطلاً وجلوا صــارماً   وقالوا صدقنـا فقلنا نعم

زخارف مانبتت في القلو   ب عمّى عليكم بهنّ المعمّ

انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١١٢ ، واللزوميات هـ ص ٢٥٨ وفيها : « أتوكم باقبالهم . . » .

(٢) أولها :

لقد طال العناء فكم تعاني   سطوراً عاد كاتبها بطمس

* * *

والثالث والرابع :

وقيل يجيء دين غير هذا   فأودى الناس بين غد وأمس

* * *

إذا قلت المحال رفعت صوتي   وإن قلت اليقين أطلت همسي

انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١١٢ ، واللزوميات هـ ص ٣٠١ .

وأربعة أخرى أولها : (١)

وَجدْتُ الشَّرْعَ تُخلِقُه اللَّيالي   كمــا خَلُقَ الرِّداءُ الشَّرْعَبيُّ

وقوله : (٢)

إِذَا مَا ذكَرْنَا آدماً وفِعَالَـه   وَتزْوِيجه بِنْتَيْهِ لابْنَيْهِ في الدُّنا

عَلِمْنَا بأنَّ الخَلْقَ مِنْ أَصْلِ رِيبَةٍ   وأنَّ جَميعَ النَّاسِ مِنْ عُنْصُرِ الزِّنا

ثم أورد أبياتا خمسة ، قالها رجل من يهود خيبر ، يعرف بسمير بن أدكن ، لما أجلى عمر بن الخطاب أهل الذمة عن جزيرة العرب أولها : (٣)

---

(١) وتمامهـا :

هي العادات يجري الشيخ منها   على شيم تعوّدهـا الصبي

* * *

وأشوى الحقّ غاوٍ مشرقي   ولم يرزقه آخر مغربي

فذا عمرٌ يقول وذا سواه   كلا الرجلين في الدعوى غبي

تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١١٣ ، واللزوميات هـ ص ٣٤٣ ، وفيهـا : « وذا علي » .

(٢) الأبيات ممـا لم يرو في الديوانين ، أنظر فائت شعر أبي العلاء جمع الميمني ص ١٣ — ١٤ وفيها : « في الحنى » .

(٣) تمام الأبيات :

مكانك لاتتبع حمولة ماقطٍ   لتشبع ان الزاد شيء محبب

فلو كان موسى صادقاً ماظهرتم   علينا ولكن دولة ثم تذهب

ونحن سبقناكم إلى المين فاعرفوا   لنا رتبة البادي الذي هو أكذب

مشيتم على آثارنا في طريقنا   وبغيتكم في أن تسودوا وترهبوا

انظر رسالة الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٣٧٧ ، وتعريف القدماء بأبي العلاء ص ١١٣ — ١١٤ .

يَصُولُ أبو حَفْصٍ عَلَيْنَا بِدِرَّةٍ   رُوَيْدَكَ إنَّ المرْءَ يَطْفُو وَيرْسُبُ

ثم قال ياقوت بعد ذكرها : « وهذا يشبه أن يكون شعره قد نحله هذا اليهودي ، أو أن إيراده لمثل هذا واستلذاذه به من أمارات سوء عقيدته ، وقبح مذهبه » . ثم أورد أبياتا تدل على سوء اعتقاده منها قوله : (١)

يَدٌ بِخَمْسِ مِئِينَ عَسْجَدٍ فُدِيَتْ   مَا بَالُها قُطِعَتْ في رُبْعِ دِينارِ

ثم قال ياقوت : « كان المعري حماراً لا يفقه شيئاً ، وإلا فالمراد بهذا بيّن ، لو كانت اليد لا تقطع إلا في سرقة خمسمائة دينار ، لكثر سرقة ما دونها طمعاً في النجاة ، ولو كانت اليد تفدى بربع دينار ، لكثر من يقطعها ويؤدي ربع دينار دية » .

وبعد أن أورد كثيراً من الأبيات الدالة على كفره تصريحا ، قال : « نقلت هذا كله من (تاريخ غرس النعمة) (٢) » . ثم قال : « قرأت في كتاب (فلك المعاني) (٣) أن كثيراً من الجهال يعد الموت ظلما من الباري ويستقبحه بما فيه من النعمة والحكمة والراحة والمصلحة . وقد

---

(١) هما بيتان في اللزوميات ج ١ ص ١٥٢ وأولهما :

تناقض مالنا إلا السكوت له   وأن نعوذ بمولانا من النار

انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١١٥ .

(٢) هو أبو الحسن محمد بن هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابي الملقب بغرس النعمة ، له ذيل على تاريخ والده ، الذي هو ذيل على تاريخ ثابت بن سنان الذي هو ذيل على تاريخ ابن جرير ، وتوفي غرس النعمة سنة ٤٨٠ هـ (ج) .

(٣) فلك المعاني لأبي يعلى محمد بن محمد بن صالح المعروف بابن الهبارية المتوفى سنة ٥٠٩ هـ رتبه على اثني عشر بابا على ترتيب البروج (ج)

قال أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري ، مع تخذلقه ، ودعواه الطويلة العريضة ، وشهرة نفسه بالحكمة ، ومظاهرته :

وَنَهَيْتَ عَنْ قَتْلِ النُّفُوسِ تَعَمُّداً   وَبَعَثْتَ أَنْتَ لِقَتْلِهَا مَلَكَيْنِ

وَزَعَمْتَ أَنَّ لَهَا مَعَاداً ثَانِياً   مَا كَانَ أَغْنَاهَا عَنِ الحَالَيْنِ (١)

وهذا كلام مجنون معتوه ، يعتقد أن القتل كالموت ، والموت كالقتل ، فليت هذا الجاهل لما حرم الشرع وبرده ، والحق وحلاوته ، والهدى ونوره ، واليقين وراحته ، لم يدع ماهو بريء منه بعيد عنه ولم يقل :

غَدَوْتَ مَرِيضَ العَقْلِ والرَّأْيِ فَالْقَنِي   لِتَخْبُرَ أَنْبَاءَ العُقُولِ الصَّحَائِحِ (٢)

حتى سلط الله عليه أبا نصر بن أبي عمران ، داعي الدعاة بمصر ، فقال له : أنا ذلك المريض رأيا وعقلا ، وقد أتيتك مستشفياً فاشفني . وجرت بينهما مكاتبات كثيرة ، أمر في آخرها بإحضاره حلبَ ، ووعده على الإسلام خيراً من بيت المال ، فلما علم أبو العلاء أنه يحمل للقتل أو الإسلام سم نفسه ومات . . . . » .

---

(١) البيتان مما لم يرو في الديوانين ، وهما من أبيات ثلاثة أولها :

صرف الزمان مفرق الالفين

فاحكم الهي بين ذاك وبيني

انظر إرشاد الأريب — لياقوت ١٩٢/١ ، وتاريخ الإسلام للذهبي ص ١٣١ ونكت الهميان — ص ١٠٦

(٢) هكذا رواه ياقوت ١٩٤/١ ، (ج) وفي اللزوميات هـ ص ٨٤ :

غدوتَ مريض العقل والدين فالقني

لتسمع أنباء الأمور الصحائح

وقال ياقوت في (معجم البلدان) في الكلام على اللاذقية : « قال المعري الملحد : اللاذقية فتنة . . . » وقد تقدم .

وقال أبو الفداء في (تاريخه ج ٢ ص ١٧٦) : ونُقلت عنه [أي عن أبي العلاء] أشعار وأقوال علم بها فساد عقيدته ، ونسب إلى التمذهب بمذهب الهنود ، لتركه أكل اللحم خمساً وأربعين سنة ، وكذلك البيض واللبن ، وكان يحرم إيلام الحيوان . وله مصنفات كثيرة أكثرها ركيكة (كذا) فهجرت لذلك ، وكان يظهر الكفر ، ويزعم أن لقوله باطنا ، وأنه مسلم في الباطن . فمن شعره المؤذن بفساد عقيدته قوله :

عَجِبْتُ لِكِسْرَى وَأَشْيَاعِهِ وغَسْلِ الوُجُوهِ بِبَوْلِ البَقَرْ
وَقولِ النَّصارَى إلَهٌ يُضَامُ وَيُظلَمُ حيّاً ولا يُنْتَصَرْ
وَقَولِ اليَهُودِ إلَهٌ يُحِبُّ رَسِيسَ الدِّمَاءِ وَرِيحَ القُتَرْ
وَقَومٍ أتَوْا مِنْ أقاصِي البِلادِ لِرَمْيِ الجِمَارِ وَلَثْمِ الحَجَرْ
فَوا عَجَباً مِنْ مقالاتِهِمْ أيَعْمَى عَنِ الحَقِّ كُلُّ البَشَرْ

ومن ذلك قوله :

زَعَمُوا أنَّني سأُبْعَثُ حيّاً بَعْدَ طُولِ المُقامِ في الأرْماسِ
وأجوزُ الجِنَانَ أرْتَعُ فيها بَيْنَ حورٍ وَوِلْدَةٍ أكْياسِ
أيُّ شَيْءٍ أصابَ عَقْلَكَ يا مِسْكِينُ حتى رُميتَ بالوَسْواسِ

ومن ذلك قوله :

أتى عِيسَى فَبطَّلَ شَرْعَ مُوسَى   وَجاءَ مُحَمَّدٌ بِصَلاةِ خَمْسِ
وَقَالُوا لا نَبِيٌّ بَعْدَ هَـــذَا   فَضَلَّ القَوْمُ بَيْنَ غَدٍ وأمْسِ

إلى آخر الأبيات الأربعة .

ومن ذلك قوله :

تَاهَ النَّصارَى والحَنيفةُ ما اهْتَدَتْ   وَيَهودُ هَطرَى[1] والمَجُوسُ مُضَلَّلَه
قَسَمَ الورَى قِسْمينِ هَذا عاقِلٌ   لا دينَ فيهِ وَدَيِّنٌ لا عَقْلَ لَه

وقال ياقوت (ج ٥ ص ١٣٢ من إرشـــاد الأريب) إنه « سأل أبا الحسن علي بن الحسن بن عنتر بن ثابت المعروف بشميم الحلي النحوي اللغوي المتوفى سنة ٦٠١ هـ عمن تقدم من العلماء ، فلم يحسن الثناء على أحد منهم ، فلما ذكرت له المعري نهرني وقال لي : ويلك كم تسيء الأدب بين يديّ ، مَن ذلك الكلب الأعمى حتى يذكر بين يديّ في مجلسي ؟ » .

وذكر في (ص ١٣٨) في جملة كتب شميم كتاب (الإشارات المعربة) مجلد ولم يبين مـــا هو ، وترجمته في (ياقوت ج ٥ ص ١٢٩) و (البغية ص ٣٢٣) .

---

(١) كذا في الأصل ، وفي الديوان : « ويهود حارت » .
ويقال : هطر الكلب اذا قتله أو هيجه بالخشبة . وهامطرى : بسكون الطاء قرية بسر من رأى كان أكثر أهلها اليهود (ج)

ما ألفه العلماء في مدحه والانتصار له ، أو في ذمه والنيل منه :

يتبين مما قدمناه ومما سنذكره ، أن أبا العلاء شغل الناس حياً وميتاً . وقد اختلفت كلمة القوم فيه ، فذهب فريق منهم إلى الغمز في دينه ، وسرْد ما توهمه من العقائد الزائفة في كلامه ، واستنتاج مـا يؤدي الى إلحاده ، وتوجيه بعض كلامه إلى ما يوجب الحكم بزندقتـه ولو بضروب من التأويل والتكلف . وذهب فريق آخر الى تبرئته من كل ما يوهم الزيغ في عقيدته ، وتأويل المشتبه من كلامه . وفريق حـار في أمره فنسبه الى الحيرة . وفريق رابع توقف في الحكم عليه . وقد ألف جماعة فيه كتبا ورسائل في مدحه والانتصار له . وألف آخرون في تكفيره والطعن فيه .

الكتب المؤلفة في دفع المعرة والظلم عنه

أظن أن الكتب التي وضعت للدفاع عنه كثيرة ، ولكن ما وصل إلينا منها قليل ، منها :

كتاب دفع المعرة عن شيخ المعرة :

ولم يساعدنا الدهر بالاطلاع على هذا الكتاب ، ولا عرفنا مؤلفه ، ولا السبب الذي حمله على تأليفه ، وإنما ذكره ابن الوردي في (تاريخـه ج ١ ص ٣٦٠) حيث قال : وصنف بعض الأعلام في مناقبه [أي أبي العلاء] كتابا سماه (دفع المعرة عن شيخ المعرة) ، وذكر أن فيه فصولاً من نوادر ذكائه ، وإجابة دعائه والاعتذار عن طعن أعدائه .

ومنها كتاب وضعه أبو طاهر الحافظ السِّلَفي ، أحمد بن محمد بن أحمد ابن سِلَفة الأصبهاني ، صدر الدين المتوفى سنة ٥٧٦ ﻫ . وهو تلميذ أبي

زكريا التبريزي ، تلميذ أبي العلاء . وهذا الكتاب لم نقف عليه ، وإنما ذكره ابن الوردي في (تاريخه ج ١ ص ٣٦١) قال : « ووضع أبو طاهر الحافظ السلفي كتاباً في أخبار أبي العلاء وقال فيه مسنداً عن القاضي أبي الطيب الطبري [رحمه الله] كتبت إلى أبي العلاء المعري حين وافى بغداد ... :

وماذاتُ درّ لا يحلّ لحالبٍ تناولُه واللحمُ منها محلّلُ ».

وقد تقدمت الأبيات وجوابها . وكذلك ابن خلكان (ج ١ ص ٢٩٢) روى هذه الأبيات وعزاها إلى الجزء الذي وضعه أبو طاهر السلفي في أخبار أبي العلاء . وأكثر من كتب في أبي العلاء نقل عن السلفي ، كالصفدي ، و (معاهد التنصيص) و (لسان الميزان) والذهبي وغيرهم .

ومنها كتاب وضعه الصاحب كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي الحلبي المتوفى سنة ٦٦٦ هـ المعروف بابن العديم وسماه : (العدل والتحري في دفع الظلم والتجري[1] عن أبي العلاء المعري) .

كما ذكره ابن الوردي في (تاريخه ج ١ ص ٣٥١) وسماه الصفدي في (نكت الهميان ص ١٠٥) : التحري في دفع التجري على أبي العلاء المعري وفي (ص ١٠٩) دفع التجرّي . وسماه في (الوافي بالوفيات) : دفع التجري على أبي العلاء المعري .

---

(١) لم أر من سهل لفظ « التجرؤ » الى « تجري » والمشهور أن قلب الضمة كسرة إنما يكون في المعتل لا في المهموز ، ولا في الصحيح ، ولذلك عد الحريري في (درة الغواص) : « التباطي والتوضي والتبوي والتهزي » من أوهام الخواص ، وجعل الصواب : « التباطؤ والتوضؤ والتبوء والتهزؤ » فتأمل (ج) .

وقد اطلعت على قطعة من هذا الكتاب عثر عليها في مدينة حلب ، وفي مقدمته يقول مؤلفه : « وسميته كتاب الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري » . ونقلت كثيراً منها في هذا الكتاب وفي (تاريخ المعرة) وأكثر من كتب في أبي العلاء استمد منه وعول عليه ، وقد قال ابن الوردي : « قال ابن العديم في (العدل) إنه اعتبر من ذم أبا العلاء ومن مدحه فوجد كلّ من ذمه لم يره ولا صحبه ، ووجد كل من لقيه هو المادح » .

ومنها كتاب المجتلى باخبار أبي العلا :

وضعه الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الشافعي ، المشهور بابن أبي عذيبة المولود في القدس ، والمتوفى فيها سنة ٨٥٦ هـ . قال في كتابه (دول الأعيان) ، شرح قصيدة نظم الجمان ، في ذكر من سلف من أهل الزمان في ترجمة أبي العلاء (ج ٤ ص ١٢) :

« أبو العلاء أحمد بن سليمان المعري الأعمى » . ثم ذكر عمره وعماه وما يعرفه من الألوان ثم قال : « وكان عالماً شاعراً لغوياً ، آية من الآيات ، وشعره في غاية الرقة والانسجام ، إليه النهاية . . » . وذكر عنه أقوالاً وأشعاراً يدل ظاهرها على فساد عقيدته ، ثم نقل قول ابن دقيق العيد أنه في حيرة ، وقول الذهبي أنه مات متحيراً ، ثم قال : « ويقال إنه كان يرجع لمذهب الهنود البراهمة » . ثم قال : « وله مصنفات كثيرة ، وأشعار جيدة مشهورة ، لولا ما شانها . . » ثم قال : « وقد ذكرته في مصنف مفرد ، وذكرت أشعاره وما فيها ، وكثيراً من أقواله وسميته المجتلى بأخبار أبي العلا . . » (١) .

---

(١) انظر مجلة المجمع العلمي في دمشق ج ٧ مجلد ٢١ ص ٣١٤ (ج) .

ومنها كتاب اسمه أوج التحري عن حيثية المعري :

للشيخ يوسف البديعي المتوفى نحو سنة ١٠٧٣ ﻫ ، وقد اطلعت على هذا الكتاب في المكتبة الظاهرية في دمشق . ونسخته خطية مؤرخة في سنة ١٠٥٤ ﻫ ، ونقلت عنه شيئاً . ثم لما طبع في دمشق سنة ١٣٦٣ ﻫ ١٩٤٤ م صدّرته بمقدمة بينت فيها قيمة هذا الكتاب وخصائصه .

* * *

الكتب والرسائل التي ألفت في الطعن فيه أو الرد عليه

منها كتاب نصر الأعيان على شعر العميان :

لابن الوزير اليماني ، صاحب (إيثار الحق على الخلق) وضعه في التنفير من شعر أبي العلاء .

ومنها رجة العفريت :

وضعه أبو منصور الكاتب عبد الله بن سعيد بن مهدي الحواني المتوفى سنة ٤٨٠ ﻫ . رد فيه على المعري [١] .

ومنها كتاب الاشارات المعوبة :

لشميم وقد تقدم ذكره .

ومنها كتاب الصهلة القارح :

ذكر ياقوت في (ج ٦ ص ٣٤٦) في ترجمة محمد بن أحمد الابيوردي أن من جملة تصانيفه كتاب الصهلة القارح ، رد فيه على المعري سقط الزند .

---

(١) البغية ٢٨٢ (ج) .

ومنها كتاب المطاول :

ذكر السيوطي في (البغية ص ٧٩) في ترجمة محمد بن علي بن المفضل القامفار الحلي أن له كتاب المطاول في الرد على المعري في مواضع سها فيها .

• • •

كتب المتأخرين في أبي العلاء الجامعة بين ماقيل فيه مدحاً وذماً

ذكرى أبي العلاء :

هذا كتاب وضعه الدوكتور طه حسين ، أديب مصر في سنة ١٩١٤ م وقدمه إلى الجامعة المصرية ، ونال به إجازة عالية . وقد نهج فيه المنهج الحديث الذي نهجه علماء الغرب في دراسة آدابهم وأدبائهم . وهو أفضل ما رأيته من الكتب التي تشتمل على دراسة أبي العلاء ، وأحسنها تقسيماً وترتيباً للباحث ، وأجمعها للنواحي التي تجب دراستها من آثار الأديب ، وأكثرها استنباطا للأحكام من كلام الشاعر والناثر . وقد جعل درس أبي العلاء في هذا الكتاب درساً لعصره . واستنبط حياته مما أحاط به من المؤثرات . واتخذ شخصية أبي العلاء مصدراً من مصادر البحث ، بعد أن وصل إلى تعيينها وتحقيقها .

والكتاب لا يخلو من أمور تنتقد على صاحبه ، منها : استنباطه من كلام أبي العلاء ، أحكاماً لا يدل عليها ذلك الكلام . ومنها بناؤه أحكاما على شبهة واهية ، ومنها أنه إذا اعتقد في أبي العلاء شيئاً ، حاول أن يوجه كل كلامه إلى ذلك الشيء ، وقد يظهر أثر التكلف في ذلك . ونحو هذا من الأمور ، وقد بينا طرفاً منها في كتابنا هذا كما رأيت وكما سترى . وقد ذكر مؤلفه في مقدمة (تجديده ص ٤) أنه « ما زال ينتظر نقد الناقد المخلص ، لا يدعوه الى نقده ، إلا حب العلم والرغبة في

الاصلاح » . ولعله يجد فيا كتبناه ما ينتظره ، لأننا لا نريد فيا كتبناه إلا الإصلاح ، وإماطة اللثام عن وجه الحقيقة .

والكتاب على ما فيه خير كتاب أخرج للناس في أبي العلاء . وقد طبع في مصر ، ثم أعاد مؤلفه طبعه وسماه (تجديد ذكرى أبي العلاء) ولم يزد على الكتاب السابق شيئاً يذكر .

أبو العلاء وما إليه :

وهو كتاب وضعه الأستاذ عبد العزيز الميمني الراجكوتي الهندي ، وطبع في القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ . توخى فيه تصحيح ما في كتاب (ذكرى أبي العلاء) المتقدم ذكره . وما في مقدمة (رسائل أبي العلاء) للأستاذ مرجليوث .

وهذا الكتاب أجمع كتاب ألف في أبي العلاء . فقد أفاض في الكلام على بلد أبي العلاء وبنائها ، وفي نسبه وترجمة حياته ، ورحلاته ومعارفه في بغداد وغيرها ، ومن عاصره من الملوك . ومنزلته عندهم وعند العلماء والعظماء . وما قيل فيه حياً وميتا ، وما تركه من الآثار الأدبية والعلمية ، وفي معتقده . وذكر طائفة من أشعاره التي لم يذكر معظمها في ديوانه .

ويمكن أن يقال : إنه حشر في كتابه هذا كل ما علمه مما له علاقة بأبي العلاء ، واستفرغ مجهوده في الجمع والبحث والتحقيق ، ولم يخل كتابه مما ينقد عليه ، وقد بينا جملة منه في كتابنا هذا .

ولا أنكر ان هذين الكتابين (ذكرى أبي العلاء) . و (أبو العلاء وما اليه) هما أفضل ما رأيته مما كتب في أبي العلاء . وقد اقتبست منها فوائد جمة في كتابي هذا .

الذين ردوا عليه بعض أقواله وهجوه نظماً

منهم:أبو رشاد أحمد بن محمد بن القاسم الملقب بذي الفضائل الاخسيكثي

(وأخسيكث بالثاء والتاء مدينة من فرغانة) المتوفى سنة ٥٢٨ هـ .

له كتاب (زوائد في شرح سقط الزند) قال ياقوت (١) : « قرأت في ديوان شعره بخطه أنشدت لأبي العلاء .

هَفَتِ الحَنِيفَةُ والنَّصارَى ما اهْتَدَتْ (٢) . . . .

البيتين فقلت مجيباً له :

الدِّين آخِـــذُهُ وتارِكُــه   لَمْ يَخْفَ رُشْدُهُما وغَيُّهُما (٣)

رَجُلانِ أَهلُ الأَرْضِ قُلْتَ فَقُلْ   يا شَيْخَ سوءٍ أَنْتَ أَيُّهُما

والبيتان المذكوران . في (نكت الهميان) ، و (معاهد التنصيص) . وفي (بغية الوعاة) : « وتوفي سنة ٥٢٦ هـ » ومنهم .

---

(١) ارشاد الأريب الى معرفة الأديب ج ٢ ص ١١١ .

(٢) تمام البيتين .

ويهود حارت والمجوس مضللة

اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا   دين وآخــر دَيِّن لا عقل له

وهما من لزومية مطلعها :

إن هلات أفواهـكم فقلوبكم   ونفوسكم دون الحقوق مهلله

انظر اللزوميات هـ ص ٢٠٦ .

(٣) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات : ٢٨٤ ، ٢٩٣ ، ٣٤٣ .

القاضي أبو محمد الحسن بن أبي عقامة اليمني :

رد عليه ببيته :

إذَا مَا ذَكَرْنَا آدماً وفعَالَهُ ... وَتَزْوِيجَهُ بِنتَيهِ لابْنَيهِ في الخنا[1]

البيتين ، وأجابه بقوله[2] :

لعمرُكَ، أمّا فيكَ فالقولُ صادِقٌ ... وَتكذِبُ في الباقِينَ مَنْ شطّ أوْ دنا

كَذلِكَ إقرارُ الفتى لازِمٌ لَهُ ... وَفي غيرِهِ لغْوٌ كذا جاء شرْعُنا

ويروى البيتان الأولان :

. . . . وتَزْوِيجَه ابْنيه بِنْتَيْه . .

ويروى :

عَلِمْنا بأنّ الخلْقَ مِن أصْلِ رِيبَةٍ ... .

ويروى الأخيران : لعمري أمّا . .

ومنهم :

محمد بن عتيق أبي بكر بن أبي نصر التميمي القيرواني المعروف بابن أبي كدبة المتوفى سنة ٥١٢ ه‍ .

قدم الشام مجتازاً ، فسمع قائلا ينشد قول أبي العلاء :

---

(١) ثاني البيتين :

علمنا بأن الخلق من أصل ريبة ... وأن جميع الناس من عنصر الزنى

أنظر معجم الأدباء ج ١ ص ١٩٠ ونكت الهميان ص ١٠٦ .

(٢) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات : ١٧٩ ، ٢٨٣ ، ٢٩٢ ، ٣٤٢ ، ٤١٨ .

ضَحِكْنا وكَانَ الضَّحْكُ مِنّا سَفَاهَةً[1] . . . .

البيتين فقال يرد عليه :

كَذَبْتَ وبَيْتِ اللهِ حَلْفَةَ صادِقٍ   سَيَسْبِكُنا بعْدَ الثَّوى[2] مَنْ لَهُ المُلْكُ
ونَرْجِعُ أجساماً صِحاحاً سَلِيمَةً   تعارَفُ في الفِرْدَوْسِ ما عِنْدنا شَكُّ

ويروى :

سَيَسْبِكُنا بَعْدَ الثرى . . . .

وسمع بعضهم قوله :

ولا تَحْسَبْ مَقالَ الرُّسْلِ حقّاً   ولكِنْ قولُ زُورٍ سَطَّرُوهُ[3]

فقال رداً عليه :

فلا تَحْسَبْ مَقالَ الرُّسْلِ زُوراً   ولكِنْ قولُ حقٍّ بلَّغُوهُ[4]
وكَانَ النَّاسُ في جَهْلٍ عظيمٍ   فجاءوا بالبَيانِ فأوْضَحُوهُ

---

(١) اللزوميات ص ١٨٢ .

(٢) كذا رواه في النجوم الزاهرة (ج) ، وانظر تعريف القدماء الصفحات : ٤٠٤ ، ٤١٦ ، ٤١٩ .

(٣) ثاني البيتين :

وكان الناس في عيش رغيد   فجاؤوا بالمحال فكدروه

انظر تاريخ الإسلام للذهبي ص ١٣١ ، ومعجم الأدباء ج ١ ص ١٩٣ .

(٤) انظر تعريف القدماء الصفحات : ١٩٤ ، ٣٠٥ .

ومنهم النواوي : (١)

أجاب المعري عن قوله :

دِينٌ وكُفْرٌ وأنباءٌ تُقال وفُرْ (٢) ... قانٌ يَنُصُّ وتوراةٌ وإنجيلُ
في كلِّ جيلٍ أباطيلٌ يُدانُ بها ... فهلْ تفرَّدَ يوماً بالهُدى جيلُ

بقوله :

نعم أبو القَاسِمِ الهادِي وأُمتُه ... فزادكَ اللهُ ذُلاًّ يا دُجَيْجيلُ (٣)

ومنهم علم الدين السخاوي علي بن محمد المصري الدمشقي المتوفى سنة ٦٤٣ هـ

رد على أبي العلاء في قوله :

يَدٌ بِخَمْسِ مِئينٍ عَسْجَدٍ وُدِيَتْ ... ما بَالُها قُطِعَتْ في رُبْعِ دينارِ
تَحَكُّمٌ ما لَنَا إلاَّ السكوتُ لَهُ ... وأنْ نَعوذَ بِمَوْلانا مِنَ النارِ (٤)

---

(١) نسبه في معاهد التنصيص الى الذهبي ونسبه الذهبي الى النواري وفي تعريف القدماء النووي ويقال فيه النواوي نسبة الى نوى من قرى حوران ولد سنة ٦٣١ هـ وتوفي سنة ٦٧٦ هـ وله تصانيف كثيرة . ترجمته في البداية والنهاية وطبقات الشافعية والشذرات (ج) .

(٢) هكذا في المعاهد . وفي الديوان : « وأنباء تقص وفرقان ينص » ص ١٩٧ (ج).

(٣) انظر تعريف القدماء صفحات : ١٩٤ ، ٣٤٣ .

(٤) هكذا رواها الصفدي في نكت الهميان ، ورواها في الوافي : « يد بخمس مئ من عسجد فديت » وكذلك في المنتظم ، وأنباه الرواة للقفطي . وفي الذهبي : « بخمس مئ من عسجد وديت » . ومائة اسم عدد يوصف بها ، والجمع مئات ومئون ومئ ، وأنكر سيبويه الأخيرة (ج) .

بقوله :

صِيانَةُ العِرْضِ أَغلاهَا وأَرْخصَها   صِيانَةُ المالِ فافْهمْ حِكْمةَ الباري(١)

هكذا جاء في (نكت الهميان) وروى في (معاهد التنصيص) البيتين الأولين على هذا الشكل ، وبيت السخاوي فيه هكذا :

عِزُّ الأَمانَةِ أَغلاهَا وأَرْخَصَها   ذُلُّ الخِيانَةِ فافهمْ حِكْمةَ البَارِي

وفي (حاشية الشرقاوي على التحرير لشيخ الاسلام ج ٢ ص ٤٨٣) : « ولما نظم أبو العلاء المعري الملحد البيت الذي شكك به على أهل السنة في الفرق بين الدية والقطع ، وهو قوله :

يد بِخمسِ مئين عسجد وُديت   . . . .

أجابه القاضي عبد الوهاب المالكي بقوله :

وِقايةُ النَّفْسِ أَغْلاها وأَرْخَصَها   وِقَايةُ المالِ فافْهَمْ حِكْمَةَ الباري

وفي بعض النسخ : « ذل الخيانة » أي لو وديت بالقليل كثرت الجناية على الأطراف المؤدية لازهاق النفوس لسهولة الغرم في مقابلتها . ولو لم تقطع إلا في الكثير لكثرت الجناية على الأموال » .

وقال ابن الجوزي ، لما سئل عن هذا : « لما كانت أمينة كانت ثمينة ، فلما خانت هانت » . وذكر في (النور السافر) البيت المتقدم : « يد بخمس مئين . . » ثم قال : فقال الشريف الرضي راداً عليه :

---

(١) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات : ٢٨٣ ، ٢٩٢ ، ٣٤٢ ، ٣٩١ ، ٤٠٦ ، ٤١٨ ، ٥٩٦ .

صِيانَةُ النَّفْسِ أغْلَتْها وأرْخَصَها خِيانَةُ المالِ فانْظُرْ حِكْمَةَ الباري

نسبها القزويني زكريا بن محمد الأنصاري القزويني المتوفى سنة ٦٨٣ هـ إلى الرضي الموسوي، وروايته في الشطر الثاني: « صيانة المال ... » ونقل الذهبي عن التبريزي أنه قال: « لما قرأت على أبي العلاء بالمعرة قوله: « تناقضٌ مالنا .. » البيتين، سألته عن معناه، فقال: هذا مثل قول الفقهاء: « عبادة لا يعقل معناها » قال الذهبي: لو أراد ذلك لقال: « تَعَبُّد مالنا إلا السكوت ... » ولما اعترض على الله بالبيت الثاني ».

وقال البلوي [1] في (ألف وباء ج ٢ ص ٣٨٢) ويقال: إن المعري كتب إلى ابن حزم بهذا البيت:

كفٌّ بِخَمْسِ مِئٍ في الشَّرْعِ قَدْ وُدِيَتْ ما بالُها قُطِعَتْ في رُبْعِ دِينارِ

فقال:

صِيانَةُ النَّفْسِ أغْلاها وأرْخَصَها خِيانَةُ المالِ فافْهَمْ حِكْمَةَ الباري

وبلغ غيره فقال:

بذاكَ سُنَّةُ خَيْرِ الناسِ قَدْ وَرَدَتْ فَلا سَبيلَ إلى تَعْليلِ آثارِ [2]

وسيأتي ما في هذا عند الكلام على الإسلام.

---

(١) البلوي أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوي الأندلسي، المعروف بابن شيخ، من أهل مالقة بنى في بلده خمسة وعشرين مسجداً من ماله، وغزا عدة غزوات، وله شعر كثير وكان شديد الولوع بالتزوم، ووضع كتاب الف باء لابنه ليقرأه بعد موته وجعله شرحاً لقصيدة وضعها على عدد حروف المعجم، وشرحها كلمة كلمة مع مقلوب كل كلمة وعكسها وتوفي سنة ٦٠٤ هـ (ج)

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٩١ وفيه: « تعليل لآثار ».

ومنهم الخضر الموصلي

فقد رد على قول أبي العلاء من أبيات سنأتي وفيها يقول :

تَقَدَّمَ صَاحِبُ التَوْرَاةِ مُوسَى   وأَوْقَعَ بالَخسَارِ مَنْ افْترَاهَا
فَقَالَ رجالُهُ : وَحْيٌ أتاهُ   وَقَال الآخرون : بل افْترَاهَا
وما حَجِّي إِلى أحجار بَيْتٍ   كؤُوسُ الَخمْرِ تُشْرَبُ في ذرَاهَا
إِذَا رَجَعَ الحكِيمُ إِلى حِجاهُ   تَهاوَنَ بالشرائِعِ وازدَرَاهَا[1]

بقوله :

جَزاكَ اللهُ مِنْ أَعمَى لَعينٍ   بَصيرَتُهُ تناهَتْ في عَماهَا

(١) هكذا رواها في لسان الميزان ، ومعاهد التنصيص ، وفي المنتظم : « وقال الناظرون بل افتراها » « إذا رجع الحليم » « تهاون بالمذاهب » وفي القفطي : « وقال الآخرون .. » وقد رواها ياقوت وابن كثير ، والعيني ، وسبط ابن الجوزي ، والصفدي ، وغيرهم بروايات يخالف بعضها بعضا في شيء ويوافقه في آخر ، ورواية الأبيات في لزوم مالا يلزم ﻫ س ٣٣٨ : الأول : « وادفع في الخسار .. » والثاني : « وقال رجاله ... وقال الظالمون بل افتراها » والثالث : « وما سيري إلى أحجار .. » والرابع : « اذا رجع الحصيف .. تهاون بالمذاهب .. » وهذه الأبيات من قصيدة في لزوم مالا يلزم عدد أبياتها ثلاثة وأربعون بيتاً يقع قوله: « تقدم صاحب .. » الخامس عشر . وقوله : « وقال رجاله » السادس عشر . وقوله : « وما سيري إلى أحجار » الثالث والعشرين وقوله : « اذا رجع الحصيف .. » السابع . ولكن هؤلاء النقلة أخروه ليكون أقوى في الدلالة على ما يريدونه من التكفير ، وهو في موضعه في اللزوم لا يدل على شيء من ذلك . والقصيدة بجملتها مغمورة بالايمان بالله والقدر ، ولكنها طافحة بذم الناس وأعمالهم المنكرة لا سيما في الأماكن المقدسة فتأمل (ج) .

يَقولُ : إذا الحكيمُ رَعَى حِجَاهُ   تهاونَ بالشرائِعِ وازْدَرَاهَا
فمَا هذا الخبيثُ إذاً حكيمٌ   ولكِنْ ليسَ يَدْرِي ما طَحاهَا

ومنهم القاضي أبو جعفر محمد بن إسحق البحاثي الزوزني المتوفى سنة ٤٦٣ هـ

قال في أبي العلاء قصيدة أولها (١) :

كَلْبٌ عوَى بِمَعَرَّةِ النُّعْمانِ   لَمَّا خلا مِنْ رِبقَةِ الإيمانِ
أمعرةَ النُّعْمانِ ما أنجَبْتِ إذْ   أخْرجتِ مِنْكِ مَعَرَّةَ العُمْيانِ

وإذا تأمل المنصف أقوال هؤلاء ، وما فيها من سخافة في التأليف ، وضعف في الحجة ، تبين له أن مثلهم مثل من يريد أن يفلق صخرة بإبرة أو يقتلع جبلا بشعرة ، أو يجفف بحراً بجرعة ، وليس فيها بيت جيد الرصف إلا قول السخاوي :

عِزُّ الأَمَانَةِ أغْلاهَا وأَرْخَصَها   ذُلُّ الخِيَانَةِ . . . . .

وأكثرهم لم يفهم مراد المعنى ، ولم يتثبت من نسبة الأبيات إليه .

* * *

---

(١) انظر تعريف القدماء الصفحات : ٨ ، ٥٥ ، ٢٦٩ ، ٢٨٩ ، ٣٤٤ ، ٤٢٦ .

ذكاء أبي العلاء

قلنا : إن كلمة العلماء قد اختلفت في اعتقاد أبي العلاء ، ولكنهم اتفقوا على فرط ذكائه ، وحدة ذهنه ، وشدة حفظه ، وضبطه لكل ما يسمع من أية لغة كانت . وعلى سعة اطلاعه على الفصيح والنادر والغريب والشاذ من اللغة العربية ، واضطلاعه بفنون مختلفة من العلوم التي كانت معروفة في عصره . وقد ذكروا له من نوادر الفطنة والذكاء وصدق الفراسة وسرعة البديهة ، ما يكاد يدخل في عداد المستحيلات . وهذه جملة مما ذكروه في هذا الباب ، وفيها طائفة سلف القول فيها ، وأخرى قد نضطر إلى ذكرها مرة ثانية .

ما قيل في حفظه وضبطه

ذكر ابن العديم وغيره أن أبا العلاء كان على غاية من الذكاء والحفظ ، فقيل له : بم بلغت هذه الرتبة في العلم ؟ فقال : ما سمعت شيئاً إلا وحفظته ، وما حفظت شيئاً فنسيته (١) .

وذكر القفطي (٢) : «أن مشايخ الأدب باليمن ، يذكرون أن أبا العلاء كان يحفظ ما يمر بسمعه ، وكان عنده من الطلبة من يطالع له التصانيف الأدبية لغة وشعرا وغير ذلك ، وكان لايكاد ينسى شيئاً مما يمر بسمعه .»

---

(١) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات ٢٢٤ ، ٥٥١ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٣ عن إنباه الرواة — للقفطي .

وقال الذهبي [١] : « كان عجباً في الذكاء المفرط ، والاطلاع الباهر على اللغة وشواهدها ، ويقال عنه إنه كان يحفظ ما يمر بسمعه . »

وقال الصفدي في الوافي [٢] : « كان عجباً في الذكاء المفرط والحافظة » . ثم ذكر حفظه الكلمات التي دارت بين تلميذه أبي زكريا وجاره باللسان الأذربي ، وقال : « وهذا معجز » ثم قال : « وللناس حكايات يضعونها في عجائب ذكائه ، وهي مشهورة وأظنها مستحيلة ، وكان اطلاعه على اللغة وشواهدها أمراً باهراً . » وذكر نحواً من ذلك في (نكت الهميان) .

وذكر ابن العديم وغيره « أن رجلا من طلبة العلم باليمن ، وقع إليه كتاب في اللغة ، سقط أوله ، وأعجبه جمعه وترتيبه ، فاتفق أنه حج . فحمله معه وكان إذا اجتمع بأديب أراه ذلك الكتاب ، وسأله عنه هل يعرفه أو يعرف مصنفه . فلم يجد أحداً يخبره بذلك ، فأراه في بعض الأحيان لبعض الأدباء وكان ممن يعلم حال أبي العلاء ، وتبحره في العلم ، فدله عليه فخرج ذلك الرجل إلى الشام ، ووصل إلى معرة النعمان ، واجتمع بأبي العلاء ، وعرفه ما حمله على الرحلة اليه ، وأحضر اليه ذلك الكتاب ، وهو مقطوع الأول . فقال له أبو العلاء : اقرأ منه شيئاً فقرأ عليه ، فقال له أبو العلاء : هذا الكتاب اسمه كذا ، ومصنفه فلان بن فلان . ثم ابتدأ أبو العلاء فقرأ له من أول الكتاب إلى أن انتهى إلى ما هو عند ذلك الرجل ، فنقل ما نقص من الكتاب عن أبي العلاء ، وكمل النسخة وانفصل إلى اليمن ، وأخبر أهل العلم بذلك ، وقيل : إن هذا الكتاب هو (ديوان الأدب) للفارابي . وهذه القصة رواها القفطي في إنباه الرواة [٣] .

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٩١ عن تاريخ الاسلام — للذهبي .
(٢) المصدر السابق ص ٢٦٤ — ٥ عن الوافي بالوفيات — للصفدي .
(٣) انظر الخبر في تعريف القدماء الصفحات ٣٣ ، ٣٤ ، ٢٤٩ ، ٥٦٠ .

وحكوا عن تلميذه أبي زكريا التبريزي ، أنه قال : « كنت قاعداً في مسجد أبي العلاء في معرة النعمان بين يديه اقرأ عليه شيئاً من تصانيفه ، وكنت أتممت عنده سنتين ، ولم ار أحداً من أهل بلدي ، فدخل المسجد مفافصة (١) بعض جيراننا للصلاة ، فرأيته وعرفته ، وتغيرت من الفرح فقال لي أبو العلاء : ما أصابك ؟ فحكيت له أني رأيت جاراً لي بعد أن لم ألق أحداً من بلدي منذ سنتين، فقال : قم وكلمه ، فقلت : حتى أتمم السَّبَق (٢) فقال : قم أنا أنتظرك ، فقمت وكلمته بالاذربيجية شيئاً كثيراً إلى أن سألت عن كل ما أردت ، فلما عدت وقعدت بين يديه ، قال لي : أي لسان هذا ؟ قلت : هذا لسان أهل أذربيجان ، فقال : ماعرفت اللسان ولا فهمته غير أني حفظت ماقلتما ، ثم أعاد عليّ اللفظ بعينه من غير أن ينقص منه أو يزيد عليه ، بل أعاد جميع ماقلنا . فجعل جاري يتعجب غاية العجب ويقول : كيف حفظ شيئاً لم يفهمه ؟ » . وهذه القصة رواها ياقوت في (معجم الأدباء) والبديعي في (الصبح المنبي) وفي (أوج التحري) وصاحب (معاهد التنصيص) والسيوطي في (البغية) وصاحب (نزهة الجليس) والسمعاني في (الأنساب) والصفدي في (الوافي بالوفيات) و (نكت الهميان) وغيرهم بروايات متقاربة ، وبعضهم قال : « وكنت أقمت عنده سنين » . وقال بعضهم : « هذا غاية ليس بعدها شيء في حسن الحفظ » . وقال الصفدي : « هذا أمر معجز » وقال البديعي : « هذا من أعجب العجب .. » (٣) .

(١) يريد مفاجأة (ج) .

(٢) يريد بالسبق الدرس ولم أرها في شيء من المعاجم بهذا المعنى (ج) .

(٣) انظر تعريف القدماء الصفحات : ١٣ ، ١٤ ، ٨٠ — ٨١ ، ٢٢٤ ، ٢٦٣ ، ٢٨٥ ، ٣٣١ ، ٣٣٦ ، ٣٥٦ ، ٤٢٤ ، ٥٥١ .

ورواها الوطواط في (غرر الخصائص الواضحة ص ١٨٧) في مبحث الذكاء المفرط عند العميان ، على غير هذا الوجه حيث قال : « ومنهم أبو العلاء بن سليمان المعري ، ومن عجيب حكاياته أن أبا زكريا التبريزي كان يقرأ عليه ، فأتاه رسول من عند أهله من تبريز ، فجاء حلقة أبي العلاء ، فسأل عنه فأخبر أنه غائب في بعض شأنه ، فقال له أبو العلاء ، ماتريد به ؟ قال : جئت برسالة من عند أهله ، فقال : هاتها حتى توصلها اليه ، قال : إنها مشافهة ، قال : فأسمعناها حتى نوصلها اليه ، قال : إنها بالفارسية . قال : لا عليك أن تسمعناها ، ولا نسقط منها حرفاً ، فأوردها عليه ، فلما جاء التبريزي ، أخبر أن رجلا جاء من تبريز ومعه رسالة من أهلك ، فقال : ليتكم أخذتموها منه ، فإني مشوق لما يرد من أخبارهم . فقيل له : إنه قال إنها مشافهة ، فتأسف لذلك ، فلما رأى أبو العلاء تأسفه ، قال : لا عليك إني سمعتها منه وحفظتها . ثم أملاها عليه فجعل التبريزي يضحك مرة ويبكي مرة ، فسأله أبو العلاء عن ضحكه وبكائه ، فقال : تارة يخبرني بما يسرني فأضحك وتارة يخبرني بما يحزنني فأبكي » .

وروى القاضي أبو الحسن أحمد بن علي .. بن الزبير المصري في (جنان الجنان ورياضة الأذهان) عن هبة الله بن موسى المؤيد في الدين ، وكانت بينه وبين أبي العلاء صداقة ومراسلة ، قال : كنت أسمع من أخبار أبي العلاء وما أوتيه من البسطة في علم اللسان مايكثر تعجبي منه ، فلما وصلت المعرة قاصداً الديار المصرية لم أقدّم شيئاً على لقائه ، فحضرت إليه واتفق حضور أخي معي ، وكنت بصدد أشغال يحتاج اليها المسافر ، فلم أسمح بمفارقته والاشتغال بها ، فتحدث معي أخي حديثاً باللسان الفارسي ، فأرشدته

إلى مايعمله فيها ، ثم عدت إلى مذاكرة أبي العلاء ، فتجاذبنا الحديث إلى أن ذكرت ماوصف بـه من سرعة الحفظ ، وسألته أن يريني من ذلك ما أحكيه عنه ، فقال : خذ كتاباً من هـذه الخزانة القريبة منك ، واذكر أوله فاني أورده عليك حفظاً ، فقلت : كتابك ليس بغريب إن حفظته . قال : قد دار بينك وبين أخيك كلام بالفارسية ، إن شئت أعدته . قلت : أعده ، فأعـاده ما أخل والله بحرف منه ولم يكن يعرف اللغة الفارسية » . وقد نقل هذه القصة ابن العديم وصاحب (مسالك الأبصار) [١] .

وكان لأبي العلاء جار أعجمي بمعرة النعمان ، فغاب في بعض حوائجه عن المعرة ، فحضر رجل غريب أعجمي قد قدم من بلاد العجم يطلبه ، فوجده غائباً ، وهو مجتاز لم يمكنه المقام ، ولا يعرف اللسان العربي . فأشار اليه أبو العلاء أن يذكر حاجته . فجعل يتكلم بالفارسية ، وأبو العلاء يصغي إليه ، إلى أن فرغ من كلامه ، وهو لايفهم مايقول ، ومضى الرجل ثم قدم جار أبي العلاء العجمي الغائب ، وحضر عند أبي العلاء ، فذكر له حال الرجل وطلبه له ، وجعل يعيد عليه بالفارسية ماقاله ذلك الرجل بالفارسية ، والرجل يبكي ويستغيث ويلطم على رأسه ، إلى أن فرغ أبو العلاء ، فسئل عن حاله ، فأخبر أنه أخبر بموت أبيه وإخوته وجماعة من أهله » . ذكر هذه القصة ابن العديم والبديعي في (الصبح المنبي ص ١٠) وفي (أوج التحري ص ١٦) وابن فضل الله العمري في (مسالك الأبصار) [٢] .

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات ٢٢٤ ، ٥٥٢ .

(٢) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات ٢٢٥ ، ٥٥٣ .

وقال ابن العديم : « قال لي والدي : وبلغني من ذكاء أبي العلاء وحسن حفظه ، أن جاراً له سماناً كان بينه وبين رجل من أهل المعرة معاملة فجاء ذلك الرجل فدفع اليه السمان رقاعاً كتبها اليه يستدعي فيها حوائج له ، وكان أبو العلاء في غرفة مشرفة عليها ، يسمع محاسبة السمان له ، وأعاد الرجل الرقاع إلى السمان ، ومضى على ذلك أيام ، فسمع أبو العلاء ذلك السمان وهو يتأوه ويتململ ، فسأله عن حاله ، فقال : كنت حاسبت فلاناً برقاع كانت له عندي وقد عدمتها ولا يحضرني حسابه . فقال : لا عليك ، تعال إلي فإني أحفظ حسابكما ، وجعل يملي عليه معاملته جميعها ، وهو يكتبها إلى أن فرغ وقام . فلم يمض إلا أيام يسيرة ، فوجد السمان الرقاع ، وقد جذبها الفأر إلى زاوية في الحانوت ، فقابل بها ما أملاه عليه أبو العلاء فلم يخطىء في حرف واحد » . وقد أورد هذه القصة في (الصبح المنبي ج ١ ص ١٢) وفي (أوج التحري) وفي (طبقات النحاة واللغويين ص ١٧٣) وفي (مسالك الأبصار) [١] .

ونقل ابن العديم عن شهاب الدين أبي المعالي أحمد بن مدرك بن سليمان ، فيما تأثره عن المعريين ، أن الشيخ أبا العلاء لما دخل بغداد لم يعرض عليه شيء من الكتب إلا وحفظه ، وأخبرهم أنه يحفظ كل شيء سمعه ، وطلبوا كتاباً لا يعرفـــه ليمتحنوه به ، فأحضروا دستور الخراج في الديوان ، وجعلوا يوردون عليه ذلك مياومة ، وهو يسمع إلى أن فرغوا من ذلك فابتدأ أبو العلاء وسرد عليهم كل ما أوردوه عليه . وهذه القصة في (طبقات النحاة واللغويين ص ١٧٤) و (مسالك الأبصار) [٢] .

---

(١) انظر تعريف القدماء ص ٥٣ ــ ٤ ، وأوج التحري — للبديعي ص ١٦ تحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني .

(٢) وانظر تعريف القدماء الصفحات ٢٢٦ ، ٥٥٤ .

ونقل عنه أنه قال : أخبرني جماعة من سلفنا ، أن بعض أمراء حلب قيل له : إن اللغة التي ينقلها أبو العلاء إنما هي من (الجمهرة) وعنده من الجمهرة نسخة ليس في الدنيا مثلها ، وأشاروا عليه بطلبها منه قصداً لأذاه ، فسير أمير حلب رسولاً إلى أبي العلاء يطلبها منه ، فأجابه بالسمع والطاعة ، وقال : تقيم عندنا أياماً حتى تقضي شغلك ، ثم أمر من يقرأ عليه كتاب الجمهرة ، فقرئت عليه حتى فرغوا من قراءتها ، ثم دفعها الى الرسول وقال له : ما قصدت بتعويقك إلا أن أعيدها على خاطري خوفاً من أن يكون قد شذ منها شيء عن خاطري ، فعاد الرسول وأخبر أمير حلب بذلك فقال : من يكون هذا حاله لا يجوز أن يؤخذ منه هذا الكتاب ، وأمر برده اليه » . وهذه القصة ذكرها في (مسالك الأبصار) [١] .

ماقيل في فراسته واصابة حدسه

حكي أن أبا محمد الخفاجي الحلبي دخل على أبي العلاء بالمعرة ، فسلم عليه ، ولم يكن أبو العلاء يعرفه من قبل ، فرد عليه السلام وقال : هذا رجل طوال ، ثم سأله عن صناعته فقال : أقرأ القرآن ، فقال : اقرأ علي شيئاً منه ، فقرأ عليه عشراً ، فقال له : أنت أبو محمد الخفاجي الحلبي ؟ فقال : نعم . فسئل عن ذلك فقال : أما طوله فعرفته بالسلام ، وأما كونه أبا محمد فعرفته بصحة قراءته وأدائه بنغمة أهل حلب ، فإنني سمعت بحديثه . وقد روى هذه القصة ابن العديم [٢] .

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٢٧ عن مسالك الأبصار — للعمري و ص ٥٥٩ عن الانصاف والتحري — لابن العديم .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٦٣ عن الإنصاف والتحري — لابن العديم .

ونقل عن ابن بسام في (الذخيرة) : « أن أبا الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي أنفذ من بغداد رسولاً عن الخليفة القائم بأمر الله إلى المعز بن باديس الصنهاجي ملك القيروان ، حين رام الخطبة لبني العباس ، ومخالفة ملوك مصر العبيديين . فلما اجتاز بالمعرة اجتمع بأبي العلاء ، فاستنشده فأنشده قصيدة لامية يمدح بها صاحب حلب ، فقبّل المعري بين يديه ، وقال له : بأبي أنت من ناظم ، وما أراك إلا رسول أمير المؤمنين القائم إلى المعز ملك القيروان فاطو خبرك فالعيون لم ترك ، فلحق بالمعز » . هكذا رواها ابن العديم وفي (نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٣) « فقبل بين عينيه » وهذه الرواية أقرب إلى حال المعري من الأولى .

وفي أوج التحري (١) : « أن أبا العلاء لما سمع مرثية أبي الحسن علي ابن محمد المعروف بالتهامي استحسنها ، وكان كلما ورد عليه أديب يستنشدها منه ، حتى ورد عليه التهامي وهو بالمعرة ، ولم يكن عرف بقدومه ، فقال له أبو العلاء : أتروي قصيدة التهامي التي رثى بها ولده أبا الفضل فقال : نعم فاستنشده إياها ، وهي :

حُكْمُ المَنِيَّةِ في البَرِيَّةِ جارِ ... ما هذه الدُّنيا بِدارِ قَرارِ

فلما أتمها قال له أبو العلاء : أحسنت ولأنت صاحبها التهامي ، وأنت أشعر من بالشام . ولما خرج التهامي سئل أبو العلاء كيف عرفه ؟ فقال : سمعت منه القصيدة سماعاً يدل أنه صاحبها بخلاف سماعي إياها من غيره » .

---

(١) أوج التحري — للبديعي ص ١٣٧ ، ١٤٠ وتعريف القدماء ص ٥٦٤ .

وهذه القصة رواها ابن العديم . وفي رواية « فأنشدها فقال له : أنت التهامي ، فقال : نعم كيف عرفتني ؟ فقال : لأني سمعتها منك ومن غيرك فأدركت من حالك أنك تنشدها من قلب قريح فعلمت أنك قائلها » .

ويقال : إن التهامي بعد هذه القصيدة بسبع عشرة سنة ، ورد مدينة السلام ، وأبو العلاء إذ ذاك بها ، فاستنشده ماجدده من الشعر فأنشده .

هَلِ الوَجْدُ إلا أنْ تَلوحَ خِيامُها … فَيُقْضَى بإهْداء السَّلامِ ذِمامُها

فلما أتمها استحسنها أبو العلاء ، وقال له : ومن بالعراق » . فتكون الحادثة الأولى في نحو سنة ٣٨٣ هـ وعمر أبي العلاء نحو عشرين سنة .

وروي أن صبياً أتى أبا العلاء ، فقال له أنت القائل :

وإني وإن كنتُ الأخيرَ زمانهُ … لآتٍ بِمَا لمْ تَستَطِعْهُ الأوائلُ؟[1]

فقال : نعم . فقال له : إن الأوائل جعلوا حروف الهجاء ثمانية وعشرين حرفاً ، فزد عليها ، وائتنا بما لم يستطيعوه . فأطرق أبو العلاء ملياً ، ثم قال لهم : هذا الغلام حادّ الذهن ، مفرط الذكاء ، وإنه لايلبث أن يموت . ثم لم تمض إلا أيام قليلة . حتى مات الصبي .

* * *

ماقيل في ذكائه

وفي ابن العديم : « كان أبو العلاء على غاية من الذكاء من صغره ، وتحدث الناس بذلك ، وهو إذ ذاك صبي صغير يلعب مع الصبيان ...

(١) البيت من قصيدة مطلعها :

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل … عفاف وإقدام وحزم ونائل

انظر شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٥١٩ ، ٥٢٥ .

فخرج جماعة من أهل حلب إلى معرة النعمان ، وقصدوا أن يشاهدوه وينظروا مايحكى عنه من الفطنة . فسألوا عنه فقيل لهم : هو يلعب مع الصبيان ، فجاؤا إليه وسلموا عليه ، فرد عليهم السلام ، فقيل له : إن هؤلاء جماعة من أكابر حلب جاؤا لينظروك ويمتحنوك ، فقال لهم : هل لكم في المقافاة بالشعر ؟ فقالوا : نعم . فجعل كل واحد منهم ينشد بيتاً وهو ينشده على قافيته حتى فرغ محفوظهم بأجمعهم وقهرهم ، فقال لهم : أعجزتم أن يعمل كل واحد منكم بيتاً عند الحاجة اليه على القافية التي يريد ؟ فقالوا له : فافعل أنت ذلك ! فجعل كلما أنشده واحد منهم بيتاً أجابه من نظمه على قافيته ، حتى قطعهم كلهم ، فعجبوا منه وانصرفوا »[1] .

وروى العيدروس في (النور السافر) . « أن أبا العلاء كان له سرير يجلس عليه ، فجعلوا في غيبته تحت قوائمه أربعة دراهم ، تحت كل قائمة درهم ، فقال : إن الأرض قد ارتفعت عن مكانها شيئاً يسيراً أو السماء نزلت » ، ورواها القزويني في (عجائب البلدان) . وأنكر ابن كثير في (البداية والنهاية) ذلك وتابعه العيني في (عقد الجمان) .

---

(١) روى هذه الحادثة ابن النديم في الإنصاف ، ورواهـا ابن فضل الله في مسالك الأبصار . وابن قاضي شهبة في طبقات النحاة . وغيرهم . والمقافاة : كلمة مولدة لم ترد في كتب اللغة ، والمراد بها على مايظهر من هذه القصة أن ينشد الرجل بيتا على روي اللام مثلا ثم ينشد الآخر بيتا على ذلك الروي ، وفي دمشق وغيرهـا من بلاد الشام لعبة يسمونها مذاكرة الأنفاس ، وهي أن ينشد الرجل بيتا على روي الميم مثلا ، فينشد الآخر بيتا يكون أول حرف منه ميا ، فإذا كان آخره باء مثلا أنشد من بعده بيتا يكون أول حرف منه باء ، وهكذا فاذا اتفق أن يكون أوله وآخره حرفاً واحداً أسقطوه ولم يعتدوا به ويسمى هـذا البيت محبوكا (ج) .

وانظر تعريف القدماء الصفحات ٢٢٦ ، ٥٥٨ .

وفي (روضات الجنات) « قيل : إن أبا العلاء أخذ حمصة ، وقال : هذا يشبه رأس البازي . وهذا تشبيه عجيب من أولي الأبصار فضلاً عن الأكمه » . وروى ذلك زكريا بن محمد القزويني في (آثار البلاد وأخبار العباد) ، عجائب البلدان .

وفي ابن العديم والقفطي عن أبي طـاهر السِّلفي : « عرض على أبي العلاء الكفيف كف من الاوبياء ، فأخذ واحدة ولمسها بيده ، ثم قال : ما أدري ما هي إلا أني أشبهها بالكلبة ، فتعجبوا من فطنته وإصابة حدسه » .

وفي (عجائب البلدان) للقزويني أن أبا العلاء ذكر عنده أن البعير حيوان يحمل حملاً ثقيلاً فينهض به ، فقال : ينبغي أن تكون رقبته طويلة ، ليمتد نفسه ، فيقدر على النهوض .

وزعموا أنه سافر إلى بغداد وهو راكب على جمل ، فاجتاز بشجرة فقيل له طأطىء رأسك فإن ههنا شجرة ، ففعل . ثم أقام ببغداد ما أقام فلما عاد منها إلى المعرة اجتاز بذلك الموضع وقد قطعت تلك الشجرة ، فطأطأ رأسه ، فسئل عن ذلك فقال : قد كان ههنا شجرة حين انحدرت إلى بغداد ، فحفروا في ذلك الموضع فوجدوا أصل الشجرة . روى ذلك ابن العديم ، والبديعي وصاحب (مسالك الابصار) و (طبقـات النحاة واللغويين) وغيرهم ، وأنكرها ابن كثير وتابعه العيني .

وزعموا أنه لما سافر إلى بغداد ، دفع بعض أهله إلى خادمه الذي سافر معه ماء من بئر بالمعرة ، يقال له بئر القراميد ، وكان يستطيب ماءه ، وقالوا له : إذا أراد العود من بغداد فاسقه من هذا الماء . فلما خرج من بغداد الى المعرة سقاه ذلك الماء . فقال : ما أشبه هذا الماء بماء بئر القراميد . وقيل : بل قال : هذا ماؤها فأين هواؤها ، وقيل : إن

أمه سيرت إليه شيئاً من ذلك الماء . روى ذلك ابن العديم والبديعي وغيرهما بروايات متقاربة .

وقال أبو الحسن علي بن مهند بن علي بن مقلد بن منقذ في كتابه الموسوم (بالبداية والنهاية) قال : « حدثني أبي قال حدثني جد أبي قال : وصل إنسان عراقي إلى المعرة ، فأنفذ يختبر الشيخ أبا العلاء مع بعض تلاميذه ، فقال : قل للشيخ ما في هذه الأبيات الرجز من المعاني واللغة :

صُلْبُ العَصَا بالضَّربِ قَدْ دَمّاهَا إذا أرادَتْ رَشَداً أغْواهَا

يَوَدّ أنّ اللهَ قَــدْ أفناها ؟

فلما طرحت على الشيخ ، فكر فيها ساعة ، ثم قال : غريبة والله هذا يصف راعياً بصلابة عصاه أنه يضرب الإبل لتتخير لها المرعى ، فقد دمّاها أي جعلها مثل الدمى . إذا أرادت رشدا وهو حب الرشاد وهو[1] أغواها رعاها في حب [2] بود أن الله قد أفناها أي أطعمها حب الفنا ، وهو عنب الثعلب . فمضى تلميذه فعرف الرجل العراقي فلم يلبث [3] الرجل في المعرة » . هكذا رواها ابن العديم [4] . وفي لسان العرب في « دمي » وأنشد أبو العلاء .

صُلْبُ العَصَا بِرَعِيّة دَمّاها يَودُّ أنّ اللهَ قَدْ أفناها

(١) هكذا في الأصل (ج) .

(٢) هكذا في الأصل (ج) .

(٣) في نسخة : « فلم يبت » (ج) .

(٤) تعريف القدماء ص ٥٦٤ ــ عن الانصاف والتحري .

أي أرعاها ، فسمنت حتى صارت كالدمى . وفيه في مادة « فني » وروى أبو العباس عن ابن الأعرابي أنه أنشد قول الراجز :

صلبُ العَصَا بالضَّربِ قد دَمَّاها   يَقُولُ لَيْتَ اللهَ قَدْ أفناها

قال يصف راعي غنم ، وقال : فيه معنيان ، أحدهما أنه جعل دمّاها سيّل دمها بالضرب لخلافها عليه ، والثاني في قوله : صلب العصا ، أي لاتحوجه إلى ضربها فعصاه باقية ، وقوله : بالضرب قد دماها أي كساها السمن ، كأنه دمّها بالشحم لأنه يرعيها كل ضرب من النبات . وأفناها أنبت لها الفنا حتى تغزر وتسمن ، ورواه في (التكملة) : « ضخم العصا . . »

وفي (أوج التحري) (١) : « ويحكى أن أبا العلاء ، دخل يوماً على عمه القاضي أبي محمد التنوخي ، فلما رآه من بعيد يقصده ، قال لجاريته : قومي إلى سيدك وخذي بيده ، فقامت وأخذت بيده ، ومكث ساعة ، فلما قام أشار اليها عمه فأخذت بيده لتوصله إلى حجرته ، فلما أمسك يدها التفت إلى عمه وقال : دخلت وهذه الجارية بِكر ، والآن فهي ثيب ، فقال : ومن أين تعلم ؟ أيوحى إليك ؟ كأنه ينكر عليه ذلك ، فقال : حاشا وكلاّ ، وقد انقطع الوحي بعد نبينا محمد المصطفى ﷺ ولكنني لما دخلت مسست يدها وأعصاب الزند كالأوتار المشدودة ، فعلمت أنها بكر والآن فقد ارتخت أعصابها فعلمت أن البكارة زالت . فبحث القاضي أبو محمد عن ذلك ، وإذا ابن له قد دخل بها في تلك الساعة » .

وقد ذكرنا أن بعض الطلبة قال له : أكلتَ دبساً ، فمسح صدره . وأنه روي له بيت من الشعر فعرف أن قائله أعمى . وروي له بيت فعرف

---

(١) أوج التحري – للبديعي ، ص ١٥ تحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني .

أن قائله أعور . وأنه قال للوزير المنازي : ومن بالعراق ، بعد مضي بضع عشرة سنة عطفا على قوله : أنت أشعر من بالشام . وقال للتهامي نحواً من هذا .

وفي بعض هذه النوادر ما يستبعده العقل ، وتنكره العادة ، وقد ذكرنا أن بعض العلماء أنكر شيئاً منها . ولا يضير أبا العلاء أن ينكر كلها أو بعضها فإن في آثاره الباقية ما هو أدل على ذكائه وفطنته وشدة حفظه من كل ما تقدم . من ذلك معرفة الكلمات التي وضعها له بعض تلاميذه ليختبروه . ومنه تغيير كلمتي القافية في بيتي النمر بن تولب على[1] جميع الحروف الهجائية مع المحافظة على الوزن والمعنى . ومنه إيراد الشواهد والأمثلة والأشباه والنظائر والشواذ والنوادر في الكلمات اللغوية في المسائل التي تشتمل عليها (رسالة الملائكة) . وأشباه هذا كثير ، وأعظم منه استطاعته أن يخضع المسائل العلمية للشعر ، وقدرته على التصرف بالألفاظ اللغوية في أي معنى أراد . وعلى جمع الصور الخيالية في لفظ قليل ، وغير ذلك مما لا يمكن حصره .

ولو شئت أن تقول : إن أبا العلاء آية في كل شيء لكنت غير مبالغ ، وسترى في الكلام على دراسة أدبه وآثاره ما يشهد لذلك ويؤيده .

* * *

بداهته

كان أبو العلاء غزير المادة ، قوي العارضة ، حاضر البديهة ، وقد ذكرنا نظمه الأبيات للحلبيين الذين جاءوا ليختبروه وقافاتهم . وأجوبته الارتجالية للقاضي أبي الطيب الطبري حين زار بغداد . وقد ذكر ابن العديم وابن فضل الله العمري عن كتاب (جنان الجنان) : « عن القاضي محمد بن سندي القِنَّسري عن أبيه ، قال : بتنا عند أبي العلاء المعري في الوقت

(١) رسالة الغفران تحقيق بنت الشاطئ ط ١ ص ٣٢ — ٤٤ .

الذي كان يملي فيه شعره المعروف بلزوم ما لا يلزم ، فأملى في ليلة واحدة ألفي بيت ، كان يسكت زماناً ثم يملي قريباً من خمسمائة بيت ، ثم يعود إلى الفكرة والعمل إلى أن كملت العدّة المذكورة » (١) .

وهذه الرواية لا تخلو من مبالغـة ، لأن كتابة ألفي بيت تستغرق أكثر من ليلة ، فكيف يتأتى نظمها وتأليفها ثم إملاؤها وكتابتها في ليلة ؟ ويجوز أن يقال : إنه كان نظمها وأعدها من قبل ، ثم كان يفكر في تذكرها ثم يمليها . ولكن قوله : ثم يملي قريباً من خمسمائة بيت ، لا يخلو من المغالاة على أي وجه قلّبته .

وقال القفطي : « ذكر أنه قرىء بحضرته يوماً أن الوليد لمـا تقدم بعمارة جامع دمشق ، أمر المتولين بعمارته ألا يصنعوا حائطاً إلا على جبل ، فامتثلوا وتعسّر عليهم وجود جبل لحـائط جهة جيرون ، وأطالوا الحفر امتثالاً لمرسومه ، فوجدوا رأس حائط مكين العمل كثير الاحجـار ، يدخل في عملهم ، فأعلموا الوليد أمره ، وقالوا نجعل رأسه أسّاً ، فقال : اتركوه واحفروا قدّامه لتنظروا أسّه وضع على حجر أم لا ؟ ففعلوا ذلك ، فوجـدوا في الحائط باباً ، وعليه حجر مكتوب بقلم مجهول ، فأزالوا عنه التراب بالغسل ، ونزّلوا في حُفره لوناً من الاصباغ ، فتميزت حروفه ، وطلبوا من يقرؤها فلم يجدوا ذلك ، وتطلّب الوليد المترجمين من الآفاق حتى حضر منهم رجل يعرف بقلم اليونانيـة الأولى المسمى ليطين (٢) ، فقرأ الكتابة الموجودة فكانت : باسم الموجد الأول أستعين ، لما أن كان العالم محدثاً ، لاتصال أمارات الحدوث به ، وجب أن يكون له

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٦٠ ــ ١ عن الإنصاف والتحري ــ لابن العديم .

(٢) في فهرست ابن النديم : « ليطون » (ج) .

محدث لا كهؤلاء ، كما قال ذو السِّنِيَّيْن وذو اللحيَيْن وأشباههما ، فوجبت عبادة خالق المخلوقات (١) ، حينئذ أمر بعمارة هذا الهيكل من صلب ماله محب الخيل (٢) على مضي ثلاثة آلاف وسبعمائة عام ، لأهل الأسطوان (٣) فإن رأى الداخل إليه ذكر بانيه عند باريه بخير فعل والسلام .

فأطرق أبو العلاء عند سماع ذلك ، وأخذ الجماعة في التعجب من أمر هذا الهيكل وأمر الأسطوان المؤرخ به ، وفي أي زمان كان ، فلما فرغوا من ذلك ، رفع أبو العلاء رأسه وأنشد في صورة متعجب :

سَيَسْأَلُ قَوْمٌ ما الحَجِيجُ ومَكَّةٌ ... كَما قالَ قَوْمٌ ما جَدِيسُ وما طَسْمُ

وأمر بسطر الحكاية فسطرت على ظهر جزء من (استغفر واستغفري) بخط ابن أبي هاشم كاتبه وأكثر من نقل الكتاب نقل الحكاية على مثل [ماعلى] الجزء الذي هي مسطورة عليه » (٤)

هـذا البيت من أبيات ستة ذكرت في (لزوم مالا يلزم) وروايتها فيه : (٥)

---

(١) جملة فوجبت الخ غير موجودة في نص القفطي وإنما هي في معجم البلدان الذي نقل الحكاية عن القفطي ، وعبارته : فوجدت عبادة .. كذا في الاصل وفيما نقل عنه (ج) .

(٢) وفي معجم البلدان : « محب الخير » (ج) .

(٣) أهل الاسطوان قوم من الحكماء الأول كانوا ببعلبك، حكى ذلك أحمد بن الطيب السرخسي الفيلسوف . وروى هذه القصة ابن أمير الحاج في شرحه على التحرير لابن الهمام ج ٣ ص ٨٤ بتغيير يسير . واستدل بذلك على أن فريقاً من الفلاسفة يقولون بحدوث العالم (ج) .

(٤) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٣ ـ ٤ عن إنباه الرواة للقفطي .

(٥) اللزوميات هـ ص ٢٢٦ .

سَيَسْأَلُ نَاسٌ مَا قُرَيْشٌ وَمَكَّةٌ كَمَا قَالَ نَاسٌ مَا جَدِيسُ وَمَا طَسْمُ
أَرَى الوَقْتَ يَفْنِي أَنْفُساً بِفَنَائِهِ وَيَمْحُو فَمَا يَبْقَى الحَدِيثُ وَلا الرَّسْمُ
لَقَدْ جَدَّ أَهْلُ المَلْعَبَيْنِ فَأَتْلَوا بِنَاءً وَلَمْ يَثْبُتْ لِرَافِعِهِ وَسْمُ
وَفِي العَالَمِ الغَاوِي بَخِيلٌ مُمَوَّلٌ وَسَمْحٌ فَقِيرٌ شَدَّ مَا اخْتَلَفَ القَسْمُ
وَكَوْنُ الفَتَى فِي رَهْطِهِ نَيْلُ عِزَّةٍ عَلَى أَنَّ دَاءَ الدَّهْرِ لَيْسَ لَهُ حَسْمُ
وَيُرْزَأُ جِسْمُ المَرْءِ حَتَّى إِذَا أَوَى إِلَى العُنْصُرِ التُّرْبِيِّ لَمْ يُرْزَإِ الجِسْمُ

* * *

ثقته بعلمه واعتداده بنفسه

كان أبو العلاء — كما قلنا — شديد الذكاء سريع الحفظ، كثير التمحيص والتثبت، إذا سمع شيئاً حفظه، وإذا حفظ شيئاً رسخ في ذهنه فلم ينسه، وإذا رسخ شيء في ذهنه استطاع أن يتصرف فيه تصرف اللبق الحاذق؛ ولم يكن منها بالكذب والتدليس والغرور، وقد عرف تمكن هذه الخلال من نفسه، فوثق بها وعول عليها فيما يقول ويكتب. وقد اختبر هذه الثقة مراراً فلم يزدد إلا يقيناً بها، وقد أنشد في العراق قوله:

وَيُوشَعُ رَدَّ يُوحاً بَعْضَ يَوْمٍ وَأَنْتَ مَتَى سَفَرْتَ رَدَدْتَ يُوحا

بالياء المثناة، فقيل له: بوحا، بالباء المفردة، واحتجوا عليه بما ذكره ابن السكيت في ألفاظه، فلم يحد عن اعتقاده، وقال لهم: هذه النسخ التي بأيديكم حرفها شيوخكم، فأخرجوا النسخ العتيقة، فأخرجوها فكانت كما قال.

وفي (المعاهد ص ٥٩٨) « هذه نسخ محدثة غيّرها شيوخكم ، ولكن أخرجوا مافي دار العلم من النسخ القديمة » . وذكر أن ذلك كان في حلقة ابن المحسن التنوخي[١] ، والقصة في (لسان العرب) (وتاج العروس) (والاقتضاب ص ٢٨٠) وفي ابن الاثير : « ويقال يوحى على وزن فعلى ، وقد يقال بالباء الموحدة لظهورها » .

واختلف في بيت للمتنبي مع محمد بن عبد الله بن سعد حين كان يقرأ عليه شعر المتنبي ، فكان القول ماقاله أبو العلاء ، ولفق له تلاميذه كلمات وأدخلوها في غيرها ليختبروه ، فعرفها وعرف ما أرادوا من عملهم هذا .

وقال القفطي : « شاهدت على نسخة من كتاب إصلاح المنطق ، يقرب أن يكون بخط المغربين ، أن الخطيب أبا زكريا التبريزي قرأه على أبي العلاء ، وطالبه بسنده متصلاً ، فقال له : إن أردت الدراية فخذ عني ولا تتعد ، وإن قصدت الرواية فعليك بما عند غيري ، وهذا القول من أبي العلاء يشعر بأنه قد وجد من نفسه قوة على تصحيح اللغة ، كما وجدها ابن السكيت مصنف (الإصلاح) وربما أحس من نفسه أوفر من ذلك ، لأن ابن السكيت لم يصادف اللغة منقحة مؤلفة ، قد تداولها العلماء قبله وصنفوا فيها وأكثروا ، كما وجدها أبو العلاء في زمانه »[٢] .

ولعل أظهر موطن يتجلى فيه اعتداده بنفسه ، واعتماده على حفظه ، وثقته بعلمه (رسالة الملائكة) فانه صرح فيها في مواضع مختلفة ، بما يدل على ذلك .

---

(١) وفي شرح السقط للبطليوسي — ١ — ٢٧٩ ، فأخرجوها فوجدوها مقيدة كما قال ووجدوها كذلك في الجمهرة ، وكانت بخط أبي بكر بن دريد (ج) .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥١ عن إنباه الرواة — للقفطي —

كقوله من الأول ، في الكلام في « سندس » : والذي أعتقده أن النون زائدة ، ولا أمنع أن يكون « مُفعلا » . وقوله في طوبى : والذي نذهب إليه ، إذا حملناها على الاشتقاق ، أنها من ذوات الياء . وقوله : ولا أمنع أن يجيء الفعل على « فعلن » وإن لم يذكره المتقدمون . وقوله : ولا أمنع أن يخالف الأول مخالف .

وقوله من الثاني : ليس في كلامهم مثل « اسفرجل يسفرجل » . ... مفقود في كلامهم الياء بعدها واو .. وقوله في « همن » : هذا فعل ممات ، وهمن لم يذكره أحد من المتقدمين فيما أعلم . وقوله : ولم يستعمل « التلق ولا اللتق ولا القلت ... » وقوله : ولم يستعملوا في الأفعال الماضية ما يجتمع فيه الياءان غير « عيّ وحيّ » وقوله : لم يجيء على « افعيلة وافعيل » إلا « انجيل ... » الى غير ذلك مما ذكرناه في مقدمة (رسالة الملائكة) التي طبعت في دمشق سنة ١٣٦٣ هـ . وما هو مذكور في الرسالة المذكورة نفسها ، وقد تجد مثل هذا في رسائله أيضاً كقوله في رسالته إلى أبي عثمان التكتي (١) : « والعقل مفقود في شعر العرب . زعم سعيد بن مسعدة أنه لم يسمعه وقد جاء بيت لزهير وبعضهم يرويه لابنه » .

وفي (لزوم مالا يلزم) (٢) :

مَفْعُولُ خَيْرِكَ فِي الأَفْعَالِ مُفْتَقَدٌ   كَمَا تَعَذَّرَ فِي الأَسْمَاءِ فَعْلُولُ

* * *

(١) رسائل المعري — لشاهين عطية — ص ١١٣ .

(٢) اللزوميات هـ س ١٩٧ .

اعتقاده بنفسه

يعتقد أبو العلاء أنه وإن تأخر زمانه ، يفوق بفضله ونبله من تقدمه من أعلام الأمة ونوابغها . ويأتي بما لم يستطيعوه من ضروب العبقرية والبراعة :

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ الأَخِيرَ زَمَانُهُ ... لَآتٍ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ الأَوَائِلُ (١)

وأنه قام بما يجب عليه من النصح والارشاد إلى ما يفيد الإنسان في حياته ، واذا ذهب فقد الناس من يرشدهم بنصح وإخلاص ، ولا يجدون من يسد مسدّه :

فَاسْمَعْ كَلَامِي وَحَاوِلْ أَنْ تَعِيشَ بِهِ ... فَسَوْفَ أُعْوِزُ بَعْدَ اليَوْمِ طُلَّابِي (٢)

وأنه مُخلص في آرائه كما كان مخلصاً في أقواله :

خُذِي رَأْيِي وَحَسْبُكِ ذَاكَ مِنِّي ... عَلَى مَا فِيَّ مِنْ عِوَجٍ وَأَمْتِ (٣)

وأنه سار في حياته العملية سيرة حسنة ، من اتبعه فيها كان أمره إلى صلاح وفلاح :

خُذُوا سِيَرِي فَهُنَّ لَكُمْ صَلَاحٌ ... وَصَلُّوا فِي حَيَاتِكُمْ وَزَكُّوا (٤)

وأن فريقاً من الناس حسدوه على ما آتاه الله من فضله ، فهم لا يألون جهداً في الافتراء عليه ، وقلب الحقائق التي يرشد إليها :

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٥٢٥ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٤٨ .

(٣) اللزوميات هـ ص ٦٧ .

(٤) المصدر السابق ص ١٨٤ .

لَحَى اللهُ قوماً إذا جئتهُمْ ... بِصِدْقِ الأحاديثِ قالوا: كَفَرْ[1]

وهم يحاولون بذلك تشويه سمعته ، وإخماد جذوته ، ولكنهم لم يستطيعوا ولن يستطيعوا أن يطفئوا بأفواههم نور الله الذي أذكاه فيه ، ولا يخملوا ذكره الذي عم القاصية والدانية :

وَقَدْ سارَ ذِكْرِي في البِلادِ فَمَنْ لَهُمْ ... بِإخْفاءِ شَمْسٍ ضَوْؤُها مُتَكامِلُ[2]

. . .

كتبه

كان لأبي العلاء خزانة كتب مكتظة بالكتب الصحيحة ، غير أن التاريخ لم يبين لنا ما كان فيها من الكتب ولا مقدار ما كان فيها . وقد تقدم قوله لهبة الله بن موسى حين سأله أن يريه ما يحكيه عن حفظه : « خذ كتاباً من هذه الخزانة القريبة منك » . وأن أمير حلب أخذ من عنده نسخة من (الجمهرة) ثم ردها إليه ، وأن رجلاً من اليمن قرأ عليه كتاباً مقطوع الأول . وهو (ديوان الأدب) للفارابي ، وأن أبا العلاء قرأ من أوله إلى أن انتهى الى ما عند الرجل .

غير أن ما تقدم وما أمكننا معرفته ، لا يعلم منه ما كان في خزانته من الكتب على التحقيق ، لفقد الوثائق التاريخية ، ولكن سيأتي أسماء عدد كبير من الدواوين والكتب التي ذكرها أو روى منها شيئاً في كتبه التي وصلت إلينا وهي كثيرة جداً .

---

(١) اللزوميات هـ س ١٧٠ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٢ س ٥٢٣ .

كتّابه

من البيّن أن أبا العلاء كان مستطيعاً بغيره ، لا يتأتّى منه أن يدوّن ما يريد أن يكتبه ، وقد اتخذ عدداً من الكتّاب ، منهم من كان يكتب له بأجرة ، ومنهم من كان يكتب له بدون شيء . وقد ذكر ابن الوردي في تاريخه (ج١ص ٣٥٨) أن أبا العلاء كان يملي على بضع عشرة محبرة في فنون من العلوم . وقال في (مرآة الزمان) عن التبريزي : إنه كان لأبي العلاء عشرة من الكتاب ، يملي على كل واحد فنوناً غير ما يملي على الآخر وهم يكتبون .

وذكر ياقوت (ج ١ ص ١٧٦) أنه نقل فهرست كتبه من خط أحمد مستملي أبي العلاء . وقال : « قرأت في نسخة أخرى فهرست كتبه .. » الى آخر العبارة التي تأتي بعد . وفيها : « وتولى نسخها الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي هاشم .. »

وذكر ابن العديم أن أبا العلاء كان له أربعة رجال من الكتاب الموجودين [١] في جرايته وجاريه [٢] يكتبون عنه ما يكتبه الى الناس وما يمليه من النظم والنثر والتصانيف ، وقد كتب له جماعة من أهل معرة النعمان ، وفي البديعي كان له أربعة رجال يكتبون عنه ما يرتجله . وفي (مسالك الأبصار): « أربعة من الكتاب المجوّدين .. وغير هؤلاء من الكتاب الذين يغيبون ويحضرون » [٣]

---

(١) في مسالك الأبصار : « المجودين » (ج) .

(٢) هكذا في ابن العديم ونقل الميمني عنه ص ١٩٢ في جرايته وجاريه (ج) .
وانظر تعريف القدماء ص ٥٢٤ عن الإنصاف ـ لابن العديم ـ

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٢٢ عن مسالك الأبصار ـ للعمري .

والذي يمكن فهمه من عبارات المتقدمين أن له كتّاباً يجري عليهم رزقاً وآخرين ليسوا كذلك، ولكن لم أر من ذكر الذين كانوا في جرايته وجاريه. وإنما ذكروا طائفة من كتابه، ولم يبيّنوا كل واحد من أي فريق.

وأخص كتابه به ابن أخيه.

أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن سليمان، وهو الذي تولى خدمته وتعهده، وكتب تصانيفه بخطه ويقع من المصنف الواحد نسختان وأكثر وقد تقدم ذكره فيمن كان يخدمه.

ومن كتابه: أبو الحسن علي بن محمد أخو عبد الله السابق ذكره نسخ بخطه جميع أمالي عمه أبي العلاء وسمع منه، وكان فاضلاً ولد سنة ٤٠٥ﻫ وولي قضاء المعرة وحماة، وكانت ولايته قضاء حماة سنة ٤٥١ ﻫ وولاه ولده القاضي أبو مرشد سليمان.

ومنهم: جابر بن زيد بن عبد الواحد أخي أبي العلاء، وقد ذكر القفطي أنه كتب إجازة بإذن عم أبيه أبي العلاء على الجزء الثاني من (ذكرى حبيب) لأبي الحسن يحيى بن محمد الرازي سنة ٤٤٨ ﻫ وقال ابن العديم: إن زيداً له ولد اسمه منافر، ولعله محرف عن جابر وقف بخطه كتباً من تصانيف عم أبيه أبي العلاء تدل على فضله وحسن نقله.

ومنهم جعفر بن أحمد بن صالح بن جعفر بن سليمان بن داوود بن المطهر ويجتمع نسبه مع أبي العلاء في سليمان بن داود، كان من أعيان كتابه، وكتب الكثير عنه، وقرأ عليه كثيراً من كتب الأدب وروى عنه، وخطه على غاية من الصحة والضبط.

ومنهم أبو الحسن علي بن عبدالله بن أبي هاشم المعري ، لزم أبا العلاء وكتب كتبه بأمرها وكتب من المصنف الواحد عدة نسخ وقد تقدم ذكره .

ومنهم أبو الفتح محمد بن علي بن عبدالله بن أبي هاشم المقدم ذكره ، كتب له من تصنيفه ، ووضع له أبو العلاء كتاباً لقبه (المختصر الفتحي) وكتاباً يعرف بـ (عون الجمل) وقد مر ذكره وسيأتي ، وقد كان هو ووالده خادمين لأبي العلاء على ما قاله ابن العديم ، وكان يعوّل في نسخ ما يؤلف من العلم عليهما .

وقال ابن العديم [1] : « ومن كتّابه جماعة من بني أبي هاشم لا أتحقق أسماءهم . وإنما أستدل على ذلك بقول أبي العلاء في (رسالة الضبعين) .... وفي حلب نسخ من هذا الكتاب بخطوط قوم يعرفون ببني أبي هاشم .. .. جرت عادتهم أن ينسخوا ما أمليه .... » .

ومن كتّابه : إبراهيم بن علي بن إبراهيم الخطيب المعري ، كتب معظم كتبه بخطه وكتب عنه في السماع والإجازة منه وقرأ عليه كما تقدم .

****

تم الجزء الأول ويليه الجزء الثاني وأوله :

ثقافة أبي العلاء المعري

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٢٦ عن الإنصاف والتحري - لابن العديم .



(★) سيقع كتاب الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره في ثلاثة أجزاء أو أربعة، وقد رأينا أن نثبت فهارسه العامة التفصيلية في ذيل الجزء الأخير منه واقتصرنا في هذا الجزء على فهرسة أبوابه وفصوله موجزة كما وضعها مؤلفه.

* * *

المقالة الأولى

* * *

المقالة الثالثة

****

تصويب أخطاء الكتاب

ص	س	الصواب
٢٤	٨	فرضنا
٤٤	١٢	صنعة
٤٩	٣	أبوه
٧٨	١٩	إعزاز
٨٥	١٣	دَقَلتُ
٨٧	١٦	الوزيرِ
٩٤	١٠	على
٩٥	١١	الأفلُ وحمُ
٩٦	١٥	قميصِ بموّهِ
١٠٢	١٣	ولِي ابنهُ
١٠٤	٣، ٦	دغفل ، نحملها
١٢٧	١٠	إذا
١٢٨	١٥	وتبعت
١٤٦	٢٤	الماضي فيما يعجز غيره
١٥٧	٦	ودلت
١٦٢	٢٦	١ : ١٤٨
١٨٩	١٥	الغريبيّن
٢٠٤	١٥	أخشَ
٢٠٥	٩	هذا
٢١٣	١٢	هُمُ
٢١٦	١٢	ظماءُ
٢٢١	١٦	ومَاءُ
٢٤٧	١٧	٥ — ومنهم . . . .
٢٤٨	٢٠	ولعلها
٢٤٩	٩	٦ — ومنهم . . . .

ص	س	الصواب
٢٦٢	٤	البراء
٢٦٤	١	لأغراض
٢٨٤	٧	كنبذةِ
٣٠٥	٨	دراهمِ
٣٢١	١٣	الخطابة
٣٤٨	١٢	مَيتَة
٤٢٤	١٨	بغيرِ
٤٣٠	٧	وبعِ
٤٣١	٥	عهداً
٤٣٢	٩	سمع
٤٣٦	٩	حضرا
٤٥٦	١١	رجالاً
٤٧٦	١٣	غدوتَ
٤٧٩	٥	حجةٌ
٤٨٠	٢٦	الذبيحا
٤٨٢	١٤	مدائحُه
٤٨٤	١٢	يروى عنك ويحكى
٤٨٥	٧	من بالشام
٤٨٥، ٤٨٦	١٣ : ٣	دَرْجَة
٤٨٧	١٤	كَحلْنَ
٤٩١	١٣	الضئيل
٤٩٤	١٠، ١١	الأجلُ الممدودُ، أبناءِ .. جرائحِ
٥٠١	٢٠	هذا
٥١٧	٢٠	رضوان

استدراك

جاء في الصفحة ١٩٣ نَقلٌ من كتاب الذكرى لطه حسين حذف منه المؤلف بعض الجمل التي بدت له نافلة ، ولدى الرجوع إلى النص في مظنته رأينا أنه يحسن إثبات جملة مكان النقاط في السطر ١٣ من الصفحة كي تستقيم العبارة فتصبح : « فمن الواضح أن بؤس المسلمين قد كان ظاهراً يستطيع هذا الصبي [الذي بلغ من الرشد] أن يتردد إلى المكاتب ويدرس فيها العلم [ملاحظته والتفكير فيه] . » .

★ ★ ★

مطبعة الترقي

